

رسائل التزكية والترقية
(١)

مثالب النفس الأمارة

أربعون رسالة في موانع التزكية وعلاجها

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع



هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب التعريف بالعيوب والمثالب المشكلة للنفس الأمارة، ومنابعها التي تنبع منها، والثمار التي تثمرها، مع بيان كيفية التخلص منها، إما باستعمال الأدوية المعرفية، أو أنواع الممارسات العملية.

وقد حاولنا أن نصيغ فيه كل ما ذكر في كتب الأخلاق والتصوف والسلوك من معارف مرتبطة بهذه الجوانب، مع الابتعاد عن كل ما لا علاقة بها، أو ما نرى أنه من الدخن الذي أصاب هذه العلوم، مثل غيرها من العلوم.

ولذلك كان اعتمادنا في التعرف على مظاهر تلك المثالب ومنابعها وكيفية علاجها على المصادر المقدسة بالدرجة الأولى، باعتبارها المصدر الأول للتزكية، سواء من ناحية التعريف بها، أو بيان منابعها وثمارها، أو بيان كيفية علاجها والتخلص منها.

ولضرورة التبسيط والتوضيح، جعلناه على شكل رسائل يرسلها شيخ مرشد مرب إلى مريده الذي يطلب منه أن يعرفه بالمثالب المشكلة للنفس الأمارة، وكيفية علاجها، مع سؤاله عن بعض أسرار النصوص المقدسة المرتبطة بها.

وقد أرسل له في هذا الكتاب أربعين رسالة تشمل جميع الجوانب المرتبطة بذلك، وتشرح له كل ما يتعلق بها من معارف يحتاجها لذلك.

رسائل التزكية والترقية

(1)

مثالب النفس الأمارة

أربعون رسالة في موانع التزكية وعلاجها

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1440 ـ 2019

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

هذه السلسلة

تحاول هذه السلسلة المعنونة بـ [رسائل التزكية والترقية] بأجزائها الخمسة، ورسائلها المائتين، التعريف بالطريق إلى تزكية النفس وترقيتها ابتداء من مرحلتها الأولى: النفس الأمارة، وانتهاء بالمرحلة الأخيرة: النفس المرضية.

وهي تحاول أن تعتمد في ذلك، وبالدرجة الأولى على المصادر المقدسة من الكتاب والسنة المطهرة، بالإضافة إلى ما ذكره أئمة الهدى وورثة النبوة، أو ما انبنى على تلك التوجيهات المقدسة من تجارب وحكم ذكرها العلماء والحكماء من هذه الأمة وغيرها، فالحكمة ضالة المؤمن، أين وجدها، فهو أحق بها.

وهي تبتعد عن كل ذلك الدخن الذي أصاب الكتب التي ألفت في هذه الجوانب، بسبب اعتمادها على مصادر نهينا عن الاعتماد عليها، ولذلك أصبح العلم المرتبط بها، والذي يطلق عليه [التصوف] أو [العرفان] بشقيه النظري والعملي، محلا للكثير من الأطروحات التي لقيت الجدل الكبير، وتسببت بذلك في الابتعاد عن هذا العلم الجليل، حذرا من الدخن الذي وقع فيه.

ولذلك؛ فإن هذه السلسلة تحاول تجنب كل ذلك، وطرح القضايا المتعلقة بالتزكية والترقية من خلال المصادر الأصلية المعتمدة، بعيدا عن كل المؤثرات الخارجية، الشرقية والغربية.

بالإضافة إلى ذلك تحاول إقناع السالكين بضرورة التزكية في جوانبها المختلفة، باعتماد كل أنواع الاستمالات العقلية والعاطفية وغيرها، لأن الهدف من علم التزكية ليس حفظ

مصطلحاته، ولا الغوص في تفاصيله وفروعه، وإنما هو وسيلة لتطهير النفس والعروج بها في معارج الكمال المتاحة لها.

وسبب تسميتنا لها بهذا الاسم [رسائل التزكية والترقية]، يعود إلى أنها عبارة عن رسائل يرسلها شيخ مرشد مرب إلى مريده الطالب للتزكية، يجيبه فيها على أسئلته وإشكالاته، ويوضح له كيفية تزكية نفسه من كل الآفات التي يتعرض لها، بالإضافة إلى تعريفه بمراتب الترقي التخلقي والتحققي.

وبناء على كون النفس هي المجال الذي ترتبط به التزكية والترقية كما قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7 -ـ 10]؛ فقد كانت عناوين هذه السلسلة جميعا مرتبطة بالنفوس، كما ذكرها القرآن الكريم.

وقد رأينا أنه ذكر خمس مراتب للنفوس، ولكل نفس حالتها ومراتبها الخاصة، وهذه النفوس هي:

1. **النفس الأمارة:** وهي من خلال اسمها تدل على المرحلة التي تكون فيها النفس خبيثة ممتلئة بالأهواء، مستعدة بدرجة كبيرة لتلقي الوساوس الشيطانية؛ فلذلك لا تأمر إلا بالشر.. وقد أشار الله تعالى إلى هذه النفس في قوله: ﴿إِنَّ النفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: 53]

لكن هذا لا يعني عدم إمكانية تطهيرها وتزكيتها وترقيتها من تلك الحالة إلى حالة أخرى أكثر طهرا.. بل إن ذلك ممكن، والقرآن الكريم أشار إليه عند ذكره لتحول السحرة وغيرهم إلى الإيمان.. ولولا ذلك لما كان هناك حاجة لعلم الأخلاق وغيره من العلوم المرتبطة بسياسة النفس وتهذيبها.

وقد خصصنا الحديث على هذه النفس بالجزء الأول من

هذه السلسلة، والمعنون بـ [**مثالب النفس الأمارة**]، وقد أوردنا فيه المثالب والعيوب والنقائص التي تسببت في تحول النفس من فطرتها الأصيلة إلى حالة النفس الأمارة المستعدة استعدادا كبيرا للشر.

ولم نكتف بإيراد ذلك، وإنما ذكرنا كيفية تطهير تلك المثالب، وعلاجها، وتصحيح ما تقع فيه النفس من أخطاء، حتى ترتقي إلى درجة أعلى في عالم النفوس.

2. **النفس اللوامة**: وقد ذكرها القرآن الكريم، وأثنى عليها في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: 2]، والمراد منها تلك النفس الممتلئة بالورع والتقوى، والتي تلوم صاحبها على كل التصرفات التي تحول بينه وبين الكمال.

وقد خصصنا الحديث على هذه النفس بالجزء الثاني من هذه السلسلة، والمعنون بـ [**مدارس النفس اللوامة**]، وقد أوردنا فيه المناهج والرؤى المختلفة في كيفية التزكية والترقية، مما ذكرته المصادر المقدسة، أو ما بني عليها، أو على أصولها.

3. **النفس المطمئنة**: وقد ذكرها القرآن الكريم، وأثنى عليها في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النفْسُ الْمُطْمَئِنةُ﴾ [الفجر: 27]، والمراد منها تلك النفس التي وصلت إلى حالة اليقين والطمأنينة والصلاح؛ فصار صاحبها مرتاحا من شغبها وجدلها ولومها وأمرها له بالسوء، ولذلك كانت مطمئنة لينة سهلة مسالمة.

وبما أن النفس في هذه المرحلة تصبح محلا للتحقق الخلقي، فقد ذكرنا في الجزء الخاص بها، وهو الجزء الثالث المعنون بـ [**منازل النفس المطمئنة**] تلك المراتب والمنازل التي تمر بها، والتي تجعلها أهلا لرضوان الله تعالى،

لتحققها بكل متطلبات كمالها الممكنة.

4. **النفس الراضية**: وهي التي أشار إليها القرآن الكريم من غير تصريح عند ذكـره للنفس المطمئنـة، فقـد قـال بعـدها: ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً [الفجر: 28]، أي أن من مواهب الله للنفس المطمئنـة، أو من علامـات اكتمالهـا، ونهايـة سـيرها حصولها على الرضا..

وبمـا أن الرضـا مرتبـط بالمعـارف، فقـد بحثنـا في الجـزء الخـاص بهـذه النفس تلـك المعـارف الـتي تملأ النفس بالرضـا، وهي معارف مرتبطة بحقائق الوجود الكبرى، وقـد أطلقنـا على هذا الجـزء اسـم [معـارف النفس الراضـية]، وقصـدنا من ذلـك المعارف الذوقيـة الـتي هي ثمـار للسـلوك التخلقي.. فـالتحقق العرفاني ثمرة للسلوك الأخلاقي.

وقد حاولنا في هذا الجزء خصوصا تبسـيط تلـك المعـارف، واستعمال كل وسائل الإقنـاع المرتبـط بهـا، وابتعـدنا في نفس الوقت عن كل تلـك المصـطلحات والمفـاهيم الدخيلـة على مـا يطلق عليه [العرفان النظري] أو [التصوف الفلسفي]

ولذلك كان هذا الجزء خاصا بهذا النوع من العرفـان، ولكن في صورته القرآنية النبوية بعيدا عن الغنوصيات والآثار الأجنبية.

5. **النفس المرضـية**: وهي الـتي أشـار إليهـا القـرآن الكريم من غير تصريح عند ذكـره للنفس المطمئنـة، فقـد ذكـر لتلك النفس مرتبـتين أو صـفتين: الراضـية.. والمرضـية، فقـال: ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً [الفجر: 28]، ثم عقب عليهـا بقولـه: فَـادْخُلِي فِي عِبَـادِي (29) وَادْخُلِي جَنتِي (30) [الفجر: 29، 30]

وقد فهمنا من خلال هذا الوصف، والتعقيب الذي عقب بـه

على أن النفس المرضية هي النفس التي أصـبحت محلا لتـنزل الكرامات والفضل الإلهي في الدنيا والآخرة..

ولذلك خصصنا هذا الجـزء المعنـون بــ [**مواهب النفس المرضية**] بمـا وفـره اللـه تعـالى من فضـل للصـالحين الـذين جاهدوا نفوسهم في ذات الله إلى أن استقامت لهم، وصــلحت، وصارت محلا لكل أنواع الكرامة والمـواهب.. وقـد اعتبرنـا هـذا من باب الحوافز على السير والسلوك.

هذه هي أجزاء السلسلة الخمسة، وقد وضعنا في كل جزء منهـا أربعين رسـالة، يمكن قـراءة كـل واحـدة منهـا منفصـلة، والاستفادة منها، من دون حاجة لغيرها.

وقـد اعتمـدنا على ذلـك لتيسـير تعلم المسـائل المرتبطـة بكل فرع من تلك الفروع، لأن كثرة التفريعات ـ في حال جعلها فصولا محدودة ـ تؤدي إلى الانشغال بها عن المطلوب منها.

وقد حاولنا في هذه الرسـائل المـزج بين الجـانب النظـري والعملي.. ذلك أن التزكية تحتاج إلى كليهما، فالمعرفـة لهـا دور كبير في تأكيد الحقائق وتعميقها، حتى تذعن النفس لهـا وتقـوم بالمتطلبات العملية المرتبطة بها.

المقدمة

يحاول هذا الكتـاب التعريـف بـالعيوب والمثـالب المشـكلة للنفس الأمارة، ومنابعها التي تنبع منها، والثمار التي تثمرها، مع بيـان كيفيـة التخلص منهـا إمـا باسـتعمال الأدويـة المعرفيـة، أو أنواع الممارسات العملية.

وقـد حاولنـا أن نصـيغ فيـه كـل مـا ذكـر في كتب الأخلاق والتصوف والسـلوك من معـارف مرتبطـة بهـذه الجـوانب، مـع الابتعاد عن كل ما لا علاقة بها، أو ما نرى أنـه من الـدخن الـذي أصاب هذه العلوم، مثل غيرها من العلوم.

ولذلك كان اعتمادنا في التعرف على مظاهر تلك المثـالب ومنابعها وكيفية علاجها على المصادر المقدسة بالدرجـة الأولى، باعتبارها المصدر الأول للتزكية، سواء من ناحية التعريف بها، أو بيان منابعها وثمارها، أو بيان كيفية علاجها والتخلص منها.

ولضرورة التبسيط والتوضـيح، جعلنـاه على شـكل رسـائل يرسلها شيخ مرشد مرب إلى مريده الذي يطلب منه أن يعرفه بالمثـالب المشـكلة للنفس الأمـارة، وكيفيـة التخلص منهـا، مـع سؤاله عن بعض أسرار النصوص المقدسة المرتبطة بها.

وقد أرسل له في هذا الكتاب أربعين رسالة تشـمل جميـع الجوانب المرتبطة بالنفس الأمارة، وتشرح له كل ما يتعلق بهـا من معارف يحتاجها لذلك.

وبما أن غرض الكتاب ورسائله تربوي بالدرجة الأولى؛ فإنا ابتعدنا كل البعد عن الأساليب الأكاديمية الجافـة من التعريفـات ومناقشـة المفـاهيم والمصـطلحات وغيرهـا، حـتى لا ينشـغل القارئ بتلك الجوانب على الهـدف المقصـود من الكتـاب، وهـو

تربية النفس وتهذيبها.

ولذلك حاولنا ـ في حال الخلاف في بعض المفاهيم ـ أن نتجاوز ذلك، وأن نذكر مباشرة ما ترجح لدنيا منه، وقد نشير إلى غيره مجرد إشارة لا تشغل القارئ عن الهدف الذي يهدف إليه.

ومن الأمثلة على ذلك أن أكثر كتب السلوك والتربية تتحدث عن الفوارق بين تلك المثالب، كذكر الفرق بين العجب والغرور، أو العجب والكبر ونحوها، وقد يختلفون في ذلك اختلافا شديدا، وكل ذلك لا يعني القارئ.. ولذلك ذكرنا الفكرة التي نريدها مباشرة، لأن الهدف ليس التحقيق العلمي، وإنما الدعوة إلى السلوك والتهذيب والتربية، وهي لا تهتم بالمصطلحات بقدر ما تهتم بالحقائق.

لذلك حاولنا أن نضع في الكتاب أكبر قدر من النصوص المقدسة المرتبطة بالترغيب والترهيب من تلك المثالب، مع الدعوة للتأمل فيها، ومخاطبة العقل بأنواع الأمثلة التي ترغبه في المحاسن، وترهبه من المساوئ.

وقد اعتمدنا في تلك النصوص بالإضافة للقرآن الكريم ما ورد في السنة المطهرة من المصادر المعتمدة لدى المدارس الإسلامية، على المنهج الذي نعتمده فيها، وهو الاهتمام بمتن الحديث؛ فإن كان متوافقا مع القرآن الكريم، وأصول الدين، والفطرة السليمة؛ فإننا نقبله، ونثبته بغض النظر عن رواته، مع ملاحظة أننا نهذب ـ أحيانا ـ تلك النصوص بحذف ما نراه مدرجا فيها، أو متعارضا مع القرآن الكريم والقيم النبوية والفطرة السليمة.

ومثل ذلك اعتمدنا على ما ورد من الروايات عن أئمة

الهدى وورثة النبـوة، باعتبـارهم أسـاتذة التزكيـة، وروادهـا، مـع التنبيه إلا أننا ـ ولغاية الاختصار ـ لم نذكر كـل مـا ورد عنهم من روايات في تلك الجـوانب، لأننـا أفردنـا الحـديث عنهم فيهـا في سلسلة [أئمة وقيم]

ونبه في الأخير إلى أن أننا لم نرتب الخصـال الـواردة في الكتاب بأي نوع من أنواع الـترتيب، ولم نجعـل لأي منهـا علاقـة بـالأخرى، وذلـك لغـرض التبسـيط، فكـل رسـالة يمكن قراءتهـا منفصلة، لأنها بمثابة الأدوية التي قـد يحتـاج البعض إلى بعضـها، ويستغني عن الباقي.

لكن مع ذلك ننبه إلى أن هذه الخصال جميعـا يـؤثر بعضـها في بعض، ولا يمكن فهم التزكيـــة، ولا ســـلوك ســـبيلها دون التعرف عليهـا جميعـا، ذلـك أن بعضـها ينبـع من بعض، وبعضـها يؤدي إلى بعض.

الغفلة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تخبرني بألم عن شعورك باللامبالاة تجاه تلك الحقائق الجميلة التي كنت تستمع إليها أثناء الوعظ، وأخبرتني أن ذهنك حينها سـرح وشـرد في كـل شـيء، حتى في تلك الألوان التي كانت تزدهي بها السـجادة الـتي كنت جالسا عليها، وتفاصيل خيوطها وأشكالها.

وأخبرتني أنك عند دعائك لربـك، كـان لسـانك يتحـدث إلى الله من غير أن تشعر بـه، ولا بوجـوده، ولا بتلـك الألفـاظ الـتي كنت ترددها، ولا بالمطـالب العظيمـة الـتي كنت تطلب منـه أن يحققها لك..

وأخبرتني أنك في صلاتك صرت مثل تلك الآلة الـتي تقـوم بحركاتهـا في منتهى الدقـة، ومن غـير أن تشـعر بمـا تفعـل، أو تتأثر به.

وكل مـا ذكرتـه ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أعـراض لأخطـر الأمراض التي تصيب النفس، وتملؤها بالمسـالك الـتي يتسـرب منهـا الشـيطان والأهـواء.. وهـو مـرض الغفلـة.. وهـو أخطـر الأمراض جميعا، لأنه المقدمة الـتي تـتيح للجحـود والكفـر وكـل أنـــواع المعاصـــي كبائرهـــا وصـــغائرها أن تتمكن من النفس، وتحولهـا إلى نفس أمـارة بالسـوء، لا حـظ لهـا من الخـير، ولا علاقة لها به.

وسر ذلك واضح أيها المريد الصادق، ذلك أن الغفلة تشــبه ذلـك المخـدر الـذي يوضـع على مراكـز الشـعور، لتشـعر بعـدم الإحساس بأي شيء، وحينها يمكن التحكم في العضـو المخـدر، ليصبح لينا سهلا يسهل التحكم فيه بكل سهولة.

ولهـذا، فـإن أول مـا يبـدأ بـه الشـيطان إغـواءه للإنسـان تسـليط الغفلـة عليـه، بحيث يصـبح مخـدرا لا يهتم لشـيء، ولا يلقي باله ولا سمعه، لا لناصح ولا لمـذكر.. فـإذا وصـل الإنسـان إلى تلك الدرجة، سهل على الوساوس أن تتسرب، وسهل على ما بعدها أن يتمكن من النفس.

هذا تشخيص ما ذكرت ـ أيها المريد الصادق ــ والتشـخيص نصف العلاج.. فلا تيأس.. فمـا أنـزل اللـه داء إلا أنـزل لـه دواء، ولذلك فقد وفر لهذا الداء الكثير من الأدوية، والتي سأختصــرها لــك في دواءين، عليــك أن تمارســهما، حــتى تشــفى من هــذه الحالة، وتستعيد نفسك عافيتها.

العلاج المعرفي:

وأولهما أن تعلم علم اليقين خطـــر الغفلـــة على حياتـــك ومســتقبلك وجميــع مصــالحك.. فلا ينفي الغفلــة شــيء مثــل الخوف والألم.. ذلك أنهمـا من المنبهـات الشـديدة الـتي تـؤدي إلى اليقظة.

ألا ترى كيف يسير ـ حذرا ومتيقظا ـ من يعلم أن المطبات تملأ طريقه، والأشواك تعترض مسالكه.. فلذلك يحـذر عنـد كـل حركة يقوم بها خشية أن تؤدي إلى تلفه أو إعاقته أو إلحــاق أي ضرر به؟

وهكذا الأمر بالنسبة لدينك الذي هو رأسمالك؛ فـإذا علمت أن الغفلة عن حقائقه وقيمـه لن تجـني منهـا إلا الهلاك الأبـدي، فسيجعلك ذلك حذرا خائفـا، مثـل ذلـك الـذي يسـير في طريـق الأشواك، أو في مفازة يخاف أن تلتهمه السباع.

ولهذا اعتبر اللـه تعـالى الغفلـة هي السـبب في هلاك كـل

القـرى وأصـحابها الـذين لم يعطـوا رسـلهم مـا يسـتحقون من الاهتمام، قال تعالى ـ مبينا السبب الأكبر لهلاك قوم فرعـون ــ: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـاهُمْ فِي الْيَمِّ بِـأَنهُمْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَكَـانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: 136]

واعتبر الغفلة السبب الأكبر لـذلك الـران الـذي طغى على القلـوب؛ فملأهـا بـالكبر، وصـرفها عن تـدبر الحقـائق، فقـال: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَـبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 146]

وبـذلك؛ فـإن الغفلـة أخطـر من الكـبر، ذلـك أن المتكـبر المستيقظ قد يسمع من الآيات، أو يـرى من الحجج، مـا يجعلـه متواضعا يستمع للحق، لكن الغافل المخدر يصم آذانه فلا يسمع حقا، ولا يقبل عليه في حال سماعه.

ولهذا أخبرنا الله تعالى أن الغفلة هي سـبب الإعـراض عن الحق، لعدم الاهتمام به، واللامبالاة تجاهه، قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلناسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: 1]

وأخبر عن أدراك الغـافلين للآثـار الـتي جنوهـا من غفلتهم، فقال:﴿ وَاقْتَـرَبَ الْوَعْـدُ الْحَـقُّ فَـإِذَا هِيَ شَاخِصَـةٌ أَبْصَـارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 97]

وأخبر عن قول الملائكة وتأنيبها للغافلين، فقال: ﴿وَجَـاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَـدْ كُنْتَ فِي غَفْلَـةٍ مِنْ هَـذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 21، 22]

وأخـبر عن أول تحـذير إلهي للبشـر من عـالم الـذر، وهـو

تحــذيرهم من الغفلــة، فقــال: ﴿وَإِذْ أَخَــذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِـرَبِّكُمْ قَـالُوا بَلَى شَـهِدْنَا أَنْ تَقُولُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنـا كُنـا عَنْ هَـذَا غَـافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]

إن هذا التحذير ـ أيها المريد الصادق ـ يشبه تحذير الطبيب مريضه من الغفلة عن استعمال أدويته، وفي أوقاتهـا المحـددة، ذلك أن المشكلة ليست في عدم توفر الدواء، وإنما في الغفلـة عن استعماله.

ولهذا، فإن على من عرف خطر الغفلة، وآثارها على حياته جميعا، أن يتخيل نفسه كل حين، وكأنه في سوق كثر لصوصــه، أو في مفازة كثر سباعها.. فهو حذر كل حين على حقيقته الـتي يمكن أن تسلب منه في أي لحظة.

فلصوص الروح ـ أيها المريد الصادق ــ أخطـر من لصـوص المال، والسباع التي تنهش حقيقـة الإنسـان أخطـر من السـباع التي تنهش جسده..

فلذلك احذر من أولئك الذين يملؤونك بالرجـاء الكـاذب، أو يطمئنونك وأنت في هذه الفيـافي الممتلئـة بالمخـاطر.. إنهم لا يختلفـون أبــدا عن أولئــك اللصــوص الــذين يخــدعونك بــالكلام المعسول، والأماني الكاذبة قبل أن يقوموا بسرقتك.

وهكذا يفعل الشيطان وأولياؤه عنـدما يشـعرونك بالأمـان، قبــل أن تقــوم بالتحصــينات اللازمــة لمملكتــك الــتي تهــددها شياطين الإنس والجن كل حين.

إن مثلهم مثل من يأمرك بالسـير إلى بلاد مملـوءة بـأنواع الوباء والفيروسات والجراثيم، ثم يدعوك إلى التوكل على الله، والاكتفاء بالثقة به، عن أن تحصن نفسك بأنواع التلقيحات.

وهكذا الأمر بالنسبة للغفلة، فإن أكبر أسبابها ذلـك الـوهن والكسل الناتج عن الثقة الزائدة، والأمل الكاذب.. لكن إن توفر ما يضـادها من الخـوف المقـترن بالرجـاء، فـإن مفعـول مخـدر الغفلة سيزول لا محالة.

ولهـذا دعـا اللـه تعـالى رسـوله ﷺ إلى اسـتعمال أسـلوب الإنـذار لا التبشـر مـع من تعـتريهم الغفلـة، لتحـول بينهم وبين اليقظة، والجد في السير، قال تعالى: ﴿وَأَنْـذِرْهُمْ يَـوْمَ الْحَسْـرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: 39]

العلاج السلوكي:

إذا علمت ذلك ـ أيها المريد الصادق ــ فـإن أول مـا عليـك فعله حتى تتجنب الغفلة وآثارها، أن تستعمل الأدويـة والأسـلحة التي تضادها، وتواجهها، وتبطل مفعولها، وأن تحرص عليها حتى لا يسلبها منك الشياطين أثناء غفلتك عنها، كمـا أشـار إلى ذلـك قولــه تعــالى: ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَــرُوا لَــوْ تَغْفُلُــونَ عَنْ أَسْــلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: 102]

فكما أن أول أهداف الأعداء الذين يريدون السـيطرة على أي حصن من الحصون، الوصول إلى مراكز أسلحته، وسـرقتها، حتى لا يتمكن أصحاب الحصن من الـدفاع عن أنفسـهم، فهكـذا يفعـل أعـداء النفس، فهم يسـتغلون تلـك الغفلـة الـتي تعـتري الإنسان، لسلب أسلحته، والقضاء عليه بها.

وكما أن أول ما يفعله من يفطن للأعداء تلك الصيحة التي يحذر بها منهم، فيفرون مدبرين.. فكذلك الأمر في عالم الروح؛ فقد علمنا الله تعالى كيف نصيح بتلـك الصـيحة، حـتى تسـتيقظ كل لطائفنا، وتنتبه إلى العدو الذي يتربص بها.

وتلك الصيحة هي ذكر الله تعالى، وحضور القلب معه، ولو تكلفا، فإن ذلك ـ مع الدوام عليه ـ سيعيد لكل لطـائف الإنسـان يقظتهـا، وهـو مـا يشـير إليـه قولـه تعـالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنـكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَـزْغٌ فَاسْـتَعِذْ بِاللـه إِنـهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِن الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِـرُونَ﴾ [الأعراف: 200، 201]

ثم ذكر مقابلهم أولئك الـذين يسـكنون ويفرحـون للغفلـة، ويلتذون بها، لأنهـا تجعلهم في مـأمن من كـل مـا تـدعوهم إليـه اليقظة من التكاليف، فقال: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 202]

ولهـذا اعتـبر اللـه تعـالى سـبب اسـتحواذ الشـيطان على الإنسان، وتحويله عن إنسانيته الكريمة هـو نسـيانه لـذكر اللـه، قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللـه أُولَئِكَ حِـزْبُ الشَّـيْطَانِ أَلَا إِن حِـزْبَ الشَّـيْطَانِ هُمُ الْخَاسِـرُونَ ﴾ [المجادلة: 19]

ولهذا ربط الذكر بالغفلة، واعتبره علاجا لها، فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَـرُّعًا وَخِيفَـةً وَدُونَ الْجَهْـرِ مِنَ الْقَـوْلِ بِالْغُـدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205]

وبناء على هذا وردت الأحـاديث الكثـيرة الدالـة على فـرار الشيطان من الذاكرين، ومنها قوله ﷺ: (إذا نودي بالصّـلاة أدبـر الشّيطان، فإذا قضي أقبل، فإذا ثوّب بها أدبر، فإذا قضي أقبـل، حتّى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقـول: اذكـر كـذا وكـذا، حتّى لا يدري أثلاثا صلّى أم أربعا)[1]

وقد قال الله تعالى مقـررا لـذلك: ﴿ وَجَعَلْنَـا عَلَى قُلُـوبِهِمْ

[1] () البخاري [فتح الباري]، 6 (3285)

أَكِنةً أَنْ يَفْقَهُـوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْـرًا وَإِذَا ذَكَـرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُـرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا [الإسراء: 46]، فالآيـة الكريمـة تشير إلى أن ذلك النفور سببه الـذكر.. ولهـذا كـان الـذكر أكـبر دواء مضاد للغفلة.

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن (تترك الذكر لعـدم حضـور قلبك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكـره أشـد من غفلتـك في وجود ذكره؛ فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلــة إلى ذكر مع وجود يقظة.. ومن ذكـر مـع وجـود يقظـة إلى ذكـر مـع وجود حضور.. ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مـع غيبـة عن ما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز)

لذلك التزم الذكر وداوم عليه، واحرص على حضـور قلبـك معه.. فإن اعترتك الغفلة أثناءه، فلا تيأس.. وإنما واصل ذكرك، وأنت تتألم لغفلتك.. وسترى كيف ينقذك الله منها.

ليس ذلك فقط ما يمكنك أن تقوم به ـ أيها المريد الصادق ـ لمواجهة داء الغفلـة؛ فقـد تجـد من شـياطين الإنس من يلقي إليك بالوساوس التي تجعل من ذكرك مجرد لقلقة لسان، لا أثر لها في نفسك، ولا تأثير لها في حياتك.

ولـذلك كـان أول الطريـق البعـد عمن ينسـيك ذكـر اللـه، والقرب ممن يذكرك به، كما قـال تعـالى: وَاصْـبِرْ نَفْسَـكَ مَـعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَـا قَلْبَـهُ عَنْ ذِكْرِنَـا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا [الكهف: 28]

فهذه الآية الكريمة تحذرك من كل أولئك الشياطين الـذين يملؤونك بالغفلـة، وينحرفـون بحقيقتـك عن مسـارها الصـحيح.. فاحذر منهم.. واحذر من كل من لا تذكرك بالله رؤيته.. أو يدلك

على الله حاله.. أو يزيد في علمك منطقه.. ذلـك الـذي إن رآك غافلا ذكرك.. وإن رآك ذاكرا أعانك.

لتكون مثـل ذلـك الـذي قـال لصـاحبه: (تعـال نـؤمن بربنـا ساعة)، فغضب الرجل، وجـاء إلى النـبي ﷺ، فقـال: يـا رسـول اللـه، ألا تـرى إلى ابن رواحـة يـرغب عن إيمانـك إلى إيمـان سـاعة؟ فقـال النـبي ﷺ: (يـرحم اللـه ابن رواحـة، إنـه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة)(1)

وقد روي أن هذا الصحابي الجليل الشاعر الشهيد عبد الله بن رواحة، كان يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول: (تعالوا نـؤمن ساعة، تعالوا فلنذكر الله ونزدد إيمانا، تعالوا نذكره بطاعته لعله يذكرنا بمغفرته) (2)

وروي أنه قال لصاحب له: تعال حتى نـؤمن سـاعة، فقـال صاحبه: أولسنا بمؤمنين؟ قـال: (بلى، ولكنـا نـذكر اللـه فـنزداد إيمانا) (3)

وقد صدق في ذلك، فالإيمان الحقيقي هو إيمان الذاكرين، لا الغافلين، والحاضرين، لا الناسين.. فهل يمكن أن تعتـبر ذلـك الغافل الذي لا يعرف ربه، ولا يـذكره، ولا يتـذكره في أي محـل مؤمنـا.. نعم هـو مـؤمن ظـاهرا، لكن باطنـه يغطي اللـه بحجب كثيرة تحول بينه وبين معرفته أو التواصل معه.

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ الأدوية الكبرى لمـرض الغفلـة، وهناك أدوية كثيرة سأذكرها لك في سائر رسائلي، لذلك.. ليس

1() مسند أحمد (21/ 309)

2() ابن أبي شيبة 11/43

3() البيهقي في الشعب (50)

عليك سوى استعمالها، وسترى كيف تنقشـع الغفلـة عن قلبـك، وفي أقرب وقت، ليصبح مرآة تتجلى عليها كـل حقـائق الوجـود بصورتها الجميلة الناصعة.. وستندم حينها على كـل لحظـة كنت فيها بعيدا عن تلك المشاهد التي لا يوجد ما هو أجمل منها.

الغرور

كتبت ـ أيها المريد الصادق ـ تشـكرني على مـا ذكرتـه لـك من أدوية حول مرض الغفلة، وكيفية علاجه، وذكرت أنك جربت تلك الأدوية التي وصفتها لـك، وأنـك رأيت بعض آثارهـا العاجلـة عليك، وعلى قلبك.. وأنك أصبحت ـ لذلك ـ تلتـذ بالـذكر بعـد أن كنت تنفر منه، وترق للمواعظ بعد أن كنت تضيق منها.

وأنـا أبشـرك بأنـك إن أدمنت على ذلـك وداومت عليـه، فستنقشع عن قلبك كل الحجب، وسيزول كل الران الذي يحول بينك وبين رؤية الحق واتباعه.

لكني ــ مـع ذلـك ــ أحـذرك من مـرض لا يقـل خطـرا عن الغفلة، بـل قـد يكـون أخـا توأمـا لـه، وهـو مسـلك من مسـالك الشيطان التي يتخذها مـع من نجـا من اسـتحواذه عليـه بسـبب الغفلة.

وذلك المرض الخطير، هو الغرور، ذلك الداء الـذي تنقصـم له الظهـور.. جميـع الظهـور.. حـتى ظهـور الصـالحين الـتي قـد تتذوق حلاوته، فتأنس لها، وتنسى أن الامتحـان لم ينتـه، وبـذلك تسقط، ولو في آخر اللحظات.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، وحـذر منـه أشـد تحـذير، وضـرب المثل له بآدم عليه السلام، ذلك الذي جـاءه الشـيطان من هـذا البـاب، بعـد أن علم اسـتعداده للوسوسـة من خلالـه، فقـال: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: 22]

فالشـيطان اسـتطاع أن يغـري آدم بالأكـل من الشـجرة، بسبب ما رآه من طمأنينته في الجنة، وتوهمـه أنهـا سـتبقى لـه أبد الآباد، وأنه لن يزيحه منها أحد، خاصة بعد أن علم لطف الله

ورحمتـه وكرمـه.. ولـذلك أتـاه الشـيطان من هـذا البـاب، وراح يقسم له بالأيمان المغلظة إلى أن صدقه.

ولذلك اعتبر الله تعالى الغرور من أكبر أسـلحة الشـيطان التي يستعملها في غواية الإنسان، قال تعالى: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: 120]

وقال ـ مفصلا وسائله وأساليبه في ذلك ـ: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ الله وَقَالَ لَأَتَّخِذَن مِنْ عِبَادِكَ نَصِـيبًا مَفْرُوضًـا (118) وَلَأُضِـلَّنهُمْ وَلَأُمَـنيَنهُمْ وَلَآمُرَنهُمْ فَلَيُبَتِّكُن آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنهُمْ فَلَيُغَيِّرُن خَلْقَ الله وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ الله فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) يَعِدُهُمْ وَيُمَنيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النســاء: 117 - 120]

وقال مبينا إقرار الله للشيطان فيما يريد أن يســتعمله من وسائل للإيقاع بالإنسان:﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَــوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِـكَ وَرَجِلِـكَ وَشَــارِكْهُمْ فِي الْأَمْــوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإســراء: 64]، ثم بين بعدها سـر ذلـك الإقـرار، وهـو تميـيز الصـادقين من المغـترين، فقال: ﴿ إِن عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُـلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: 65]

وهكذا ذكـر أن الغـرور هـو المصـيدة الـتي يسـتعملها كـل شــــياطين الإنس والجن، للإيقــــاع بمن يريـــــدون ضـــــمهم إلى صفوفهم، فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَـيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِن يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَـوْلِ غُـرُورًا وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: 112]

وهكذا اعتبر كل ما ينحـرف بالإنسـان عن مسـيرة الـترقي

التي هيأها له، نوعا من أنواع الغـرور، ومـادة من مـواده.. وبمـا أن كل ذلك مجتمع في الدنيا، فقد اعتبرهـا المتـاع الـذي لا يقـع في حبائله إلا المغترون، قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الـدُّنْيَا إِلَّا مَتَـاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: 185]

ولهذا كله اعتبر رسول الله ﷺ الغرور هو المصيدة الـتي لا ينجو منهـا إلا الفطنـون الحـذرون الصـادقون الـذي لا يسـكنون لشيء، فقال: (حبّذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنـون سـهر الحمقى واجتهـادهم، ولمثقـال ذرّة من صـاحب تقـوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترّين)(1)

وقال في حديث آخـر: (الكيّس من دان نفسـه وعمـل لمـا بعد المـوت، والاحمـق من أتبـع نفسـه هواهـا وتمـنى على اللـه الأمانيّ)(2)

وليس ذلـك فقـط، مـا ورد في النصـوص المقدسـة من التحـذير من الغـرور، وإن كـان كافيـا، بـل إن (كـلّ مـا ورد في فضل العلم وذمّ الجهل فهو دليـل على ذمّ الغـرور، لأن الغـرور عبارة عن بعض أنواع الجهل، إذ الجهـل هـو أن يعتقـد الشـيء، ويراه على خلاف ما هو به، والغرور هو الجهل)(3)

بل هو أخطر أنواع الجهـل، ذلـك أن الغـرور جهـل مـركب؛ فـالمغرور لا يكتفي بـأن يجهـل، وإنمـا يضـم إليـه ذلـك التفكـير الرغبـوي الـذي يجعلـه يـرى الأشـياء كمـا يحب، لا كمـا هي في الواقع، ثم يذهب إلى المغالطات والأكاذيب ليعتمـدها أدلـة على صدق دعواه، وإن لم تكن كذلك.

1() ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين.

2() الترمذي والحاكم وأحمد وابن ماجه رقم 4260.

3() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 293.

ولذلك يصبح علمه علم هـوى، لا علمـا موضـوعيا واقعيـا.. وذلك أخطر أنواع الجهـل.. ولهـذا عـرف الحكمـاء الغـرور بأنـه (سكون النفس إلى مـا يوافـق الهـوى، ويميـل إليـه الطبـع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقـد أنـه على خـير إمّـا في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور) (1)، وعرفوه بأنه (إخفاء الخدعة في صورة النصيحة)(2)، وأنه (تـزيين الخطـإ بأنه صواب)(3)

لا تيأس ـ أيها المريد الصادق ــ فأنـا لم أرد ملأك بـالقنوط عند تحذيري لك من الغرور، وإنما قصـدي أن تنتبـه لـه، وتحـذر منه، ولا تكتفي بتلك اللـذة الـتي وجـدتها عنـد ذكـرك لربـك، أو عبوديتك له، فقد يأتيك الشيطان من حيث لا تحتسب، وقد قـال الله تعـالى عن ذلـك الـذي لم يأخـذ حـذره من الغـرور: ﴿وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنهُ أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175، 176]

ولهذا؛ فإني أنصحك ـ أيها المريد الصادق ـ مثلمـا نصـحني جميع أساتذتي ومشايخي بأن تستعمل كل يوم، بـل كـل لحظـة هـذين الـدوائين اللـذين سأصـفهما لـك.. وهمـا كسـائر أدويـة النفس، أحـدهما يرتبـط بالمعرفـة، والثـاني بالعمـل.. أولهمـا المقدمة، وثانيهما النتيجة.

العلاج المعرفي:

1() المرجع السابق، ج6، ص: 292.

2() التوقيف ص 252.

3() الكليات للكفوي ص 672.

أما الأول.. وهو العلاج المعرفي.. فاعلم أن السبب الأكبر للغرور هو عدم التصديق بوعد الله أو وعيده، أو ضعف ذلك التصديق.. وبقدر الضعف يكون الغرور.

ومثل ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ مثل شخص دخل مدينة، وكان معه ثروة كبيرة من أصناف الأموال، وعندما خالط أهل المدينة سكن لهم، وأنس بهم، وتأثر بأخلاقهم.. فجعله ذلك يغفل عن حراسة ثروته؛ فأخذ اللصوص الذين لم ينتبه لهم، يسلبون منه كل حين طرفا منها إلى أن سلبوها منه جميعا.

فهكذا الأمر ـ أيها المريد الصادق ـ مع من اغتر بما وصل إليه من مكاسب أو ناله من شهرة، أو حظي به من أصناف التكريم.. فإنه إن سكن إلى ذلك، جاءه الشياطين بصور الملائكة، وسلبوا منه كل شيء، ومن غير أن يعلم.

ولذلك حذر الله تعالى من السكون إلى الأشياء، قبل معرفة المصير الحقيقي، الذي لا يمكن معرفته ما دمنا في الدنيا، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النارِ وَأُدْخِلَ الْجَنةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: 185]

إن مثل ذلك ــ أيها المريد الصادق ــ مثل تلميذ في الامتحان؛ فهو قد يجيب عن بعض الأسئلة؛ فيفرح بإجابته، ويسكن لها، ويطمئن إلى نجاحه، ويجعله ذلك يقصر في باقي المواد، إلى أن يخسر كل شيء بسبب تقصيره..

ولهذا، فإن الكيس لا يغتر بالخلق جميعا، ولو أجمعوا على الثناء عليه، لأنه يعلم أن ثناءهم لن يجديه عند ربه ما لم يكن صادقا ومخلصا؛ فالله تعالى هو الذي يميز وحده الناجحين من الراسبين، والفائزين من الخاسرين.

ولهـذا تتـوالى التحـذيرات الإلهيـة من السـكون إلى الـدنيا وأهلها، والاغترار بمعسول كلامهم وثنائهم ورضاهم، لأن رضاهم لا يعـني رضـى اللـه، كمـا أن سـخطهم لا يعـني سـخطه، قـال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الناسُ إِن وَعْدَ الله حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُـرَّنكُمْ بِاللـه الْغَـرُورُ (5) إِن الشَّـيْطَانَ لَكُمْ عَـدُوٌّ فَاتَّخِـذُوهُ عَدُوًّا إِنمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فـاطر: 5، 6]، وقـال: ﴿ إِن وَعْـدَ اللـه حَـقٌّ فَلَا تَغُـرَّنكُمُ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنكُمْ بِالله الْغَرُورُ ﴾ [لقمان: 33]

وضرب المثل على ذلـك بالمنـافقين الـذين توهمـوا أنهم ـ بذلك النور المزيـف الـذي اكتسـبوه في الـدنيا ــ نجحـوا، لكنهم عرفوا في عالم الحقيقة والتجريد أن كـل مـا اكتسـبوه لم يكن سوى أوهام لبّسوا بها على أنفسهم، قـال تعـالى: ﴿يَـوْمَ يَقُـولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُـوا انْظُرُونَـا نَقْتَبِسْ مِنْ نُـورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَـهُ بَـابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَـذَابُ (13) يُنَـادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَـالُوا بَلَى وَلَكِنكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَـكُمْ وَتَرَبَّصْـتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَـرَّتْكُمُ الْأَمَـانِيُّ حَتَّى جَـاءَ أَمْـرُ اللـه وَغَـرَّكُمْ بِاللـه الْغَـرُورُ ﴾ [الحديد: 13، 14]

لذلك لا تسكن ـ أيها المريد الصادق ـ لأي شيء قد يتلاعب بحقيقتك ومصيرك.. فأنت ما دمت في هـذه الـدنيا في امتحـان واختبار، ولا أحد يضمن لك النجاح، فقد تسقط في آخـر محطـة من المحطات، وقد ورد في الحديث أن أصحاب رسول اللـه ﷺ أثنوا على بعض الناس ثناء حسنا بسبب شجاعته في الجهاد في سبيل الله، فقال رسول الله: (أما انـه من أهـل النـار)، فتعجب القـوم من ذلـك، ثم إن بعضـهم راح يتبعـه، فخـرج معـه فكلمـا وقــف وقــف معــه، وإذا أســرع أســرع معــه، فــرآه في بعض المعارك، قد جرح جرحا شديدا، فوضع نصل سـيفه في صـدره،

وقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: (وما ذاك؟) قال: (الرجل الذي ذكرت آنفا أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه، ثم جرح جرحا شديدا، فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه)، فقال رسول الله ﷺ: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة) (1)

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال لبلال حينها: (يا بلال، قم فأذن: لا يدخل الجنة الا مؤمن، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)

فاحفظ ـ أيها المريد الصادق ـ هذا الحديث، وضعه نصب عينيك؛ فلو أن ذلك الرجل كان موقنا بوعد الله ووعيده، ولو علم ما ينتظر الشهداء من فضله، وما ينتظر المنتحرين من عقابه، لما أقدم على ذلك، وفي آخر لحظة من حياته.

ولا تنس أن تحفظ ما ورد في الرواية الثانية من تأييد الله لدينه بالرجل الفاجر.. فلا يغرنك ما يذكرونه من خدماتك للإسلام والمسلمين.. فذلك كله قد يحبط جميعا بموقف تقفه، أو فلتة تقع منك.. ولا تتعجب من ذلك، فأنت ترى الغابات الشاسعة تحترق بعود ثقاب واحد..

لقد ذكر بعض الحكماء هذاالمعنى، فقال: (رب معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً وأستكباراً)

هل تعلم ـ أيها المريد الصادق ـ سر ذلك؟.. إن سره هو أن ذلك العز والاستكبار يتنافى مع عبوديتك لربك.. فلذلك ترى

(1) رواه البخاري.

بعض من يغترون بأعمالهم الصـالحة مثـل الجبـابرة والفراعنـة، وكأن مفـاتيح الجنـان أصـبحت بأيـديهم، لا يكتفـون هم بـدخولها فقط، وإنمـا يـرون أنفسـهم من المتحكمين في الجنـة يـدخلون إليها من شاءوا، ويخرجون من شاءوا.

هذا هو العلاج الأول ـ أيها المريد الصادق ـ ولا يعينـك عليـه شيء مثل كثرة قراءتك للقرآن الكريم، وتـدبرك فيمـا ورد فيـه من آيــات.. فهــو ينبهــك كــل حين من رقــدتك، ويحــذرك من السكون إلى الأشياء.. ويجعلك ترى العالم بصورته الحقيقيـة، لا بتلك الصورة التي يصوره لك بها المغترون، الـذين يزينـون لـك أعمالك، إلى أن تلقى الله، وليس في صحيفتك حسنة واحدة.

ولهذا احذر أن تسكن إليهم، أو تفرح بمـا يذكرونـه لـك، فـ (لأن تلقى قوما يخوفونك حتى تجد الأمان، خير من أن تجـد من يؤمنك إلى أن تجد المخافة)

واحذر من قولهم لك (إن الله كريم، وإنا نرجـو عفـوه)؛ أو مـا ذكـر عن بعضـهم أنـه قـال: إذا قيـل لـك: (مـا غـرّك بربّـك الكريم؟)، فقل: (غرّني ستورك المرخاة لأن الكريم هو السّتّار)

فكل هذا ناتج عن سوء فهم لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَـانُ مَـا غَـرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَـرِيمِ﴾ [الانفطـار: 6]، فكـرم اللـه ورحمتـه ولطفه بعباده، لا يعنيان عدم وجود عدله أو انتقامه ممن حــرف أو انحرف.. وقد قال المفسرون في الآية الكريمة: (هذا تهديــد، لا كما يتوهّمـه بعض النـاس من أنـه إرشـاد إلى الجـواب، حيث قال الكريم، حتّى يقول قائلهم غرّه كرمه، بل المعـنى في هـذه الآية: ما غرّك يا بن آدم بربّك الكــريم، أي العظيم حتّى أقـدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق كمـا جـاء فى الحـديث: (يقـول الله تعالى يوم القيامة: يا ابن آدم ما غرّك بي؟ يا بن آدم مــا ذا

أجبت المرسلين؟)[1]

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَني أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49، 50]، فالـذي يقتصر من معرفتـه بالله على المغفـرة والرحمـة دون أن يعلم أنـه يمكن أن يعـاقب ويعـذب.. مثـل ذلـك الـذي يأكـل العسـل المسموم، متوهما أن الحلاوة لا يمكن أن يختلط بها سم..

وبما أن الله تعالى خلق العسل والسم.. فالعاقل هو الـذي يعلم أنه يمكن أن يرحم، كما أنه يمكن أن يعذب.. ولذلك كـانت الفطنــة في كلا المعرفـتين، لا في الاقتصــار على مــا تشــتهيه النفس منهما.

وإياك ـ أيها المريـد الصـادق ـ أن تـورد لي هنـا مـا يـورده المغترون الذين آثروا الحياة الـدّنيا، واطمـأنوا لهـا، وتوهمـوا أن مجـرّد الإيمـان يكفي للفـوز، مـع أن اللـه تعـالى قـرن مغفرتـه لعباده بالكثير من الشروط، فقال: ﴿وَإِني لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82]

وإيـاك أن تسـمع لتحـريفهم للأسـماء، وتبـديلهم لهـا، حيث يسمون ذلك الغرور رجاء وحسن ظن باللـه، ويـوردون لـك كـل النصوص المقدسة التي تبين فضل ذلك..

وهــؤلاء اشــتبه عليهم الأمــر؛ فــأعملوا بعض النصــوص، وضيعوا غيرها.. ولو فطنوا لأعملوها جميعا..

فلو أنهم تـدبروا قولـه ﷺ: (الكيّس من دان نفسـه وعمـل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)

[1] () تفسير ابن كثير(4/ 451)

(1) لعلمــوا أنهم المقصــودون بــذلك، ذلــك أنهم غــيروا اســم [التّمني] باسم [الرجاء]، مع أن الرجاء الـذي دعـا إليـه القـرآن الكريم لا يرتبط بالكسالى والمقعدين والمغرورين، وإنما يرتبط بأولئك الذين وصفهم الله تعالى، فقال: ﴿إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ الله وَاللــه غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: 218]

ولو أنهم تدبروا كيف قرن الله تعـالى الرجـاء بـالخوف، ثم رجح جانب الخوف، فقال في وصف عباده الصــالحين: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ يَبْتَغُـونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِـيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْـرَبُ وَيَرْجُـونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِن عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْـذُورًا﴾ [الإســراء: 57]

ولهذا، فإن أول علامات النجاة من الغرور، الحذر والحيطة التي يصحبها العمل لا الكسل، وقد قيـل لبعض الحكمـاء: (قـوم يقولون نرجو الله، ويضيّعون العمـل)، فقـال: (هيهـات هيهـات.. تلك أمانيّهم يترجّحون فيها، من رجا شيئا طلبه ومن خاف شـيئا هرب منه)

قد تسألني ـ أيها المريد الصادق ـ عن محل الرّجاء؛ فاعلم أن الحكماء ذكروا له موضعين، أولهما مرتبط بذلك الذي أنهكته الذنوب، وطمع في التوبـة، لكن شـياطين الإنس والجن، راحـوا يسـخرون من طمعـه فيهـا، وراحـوا يؤيسـونه من رحمـة اللـه تعالى، فـذلك الـذي عليـه أن يرجـو غفـران اللـه إن صـدق في توبته، وأصلح ما أفسده من حاله، كمـا قـال اللـه تعـالى: ﴿قُـلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لَا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَـةِ اللـه إِن الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنـهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ ﴾ [الزمـر: 53]

1() الترمذي والحاكم وأحمد وابن ماجه رقم 4260.

وأما الثاني؛ فذلك الذي يستعمل الرجاء محركا له للجد في العمل الصالح، فيقرأ ما ورد في فضائل الأعمال، وما أورده الله تعالى في كلماته المقدسة، ويمني نفسه بتحصيل ذلك الأجر العظيم، ثم يندفع إلى ذلك العمل بصحبة ذلك الأمل..

فكلا الشخصين لم يستعملا الرجاء كمخدر للوهم والخديعة، وإنما استعملاه كمنشط للقيام بالأعمال الصالحة.. ولهذا فإن الفرق بين الرجاء والغرور في نتيجة كليهما.. فمن جعله رجاؤه نشيطا جادا في العمل الصالح، فهو صاحب رجاء حقيقي، ومن جعله رجاؤه كسولا متثاقلا، فهو مغرور بالأماني الكاذبة.

العلاج السلوكي:

وأما العلاج الثاني للغرور؛ فهو ذلك الجهد والنشاط والهمة العالية التي تحول من المغرور كيّسا فطنا حذرا ورعا.. لا تغره الأماني الكاذبة، ولا معسول الكلام.. بل يسعى بهمته للعمل الصالح، ولا يكتفي به، بل يتفقد نفسه، ويراجعها ليبحث عن أي ثغرة قد يدخل إليه الشيطان منها.. أو أي فيروس قد يقضي على كل ما اكتسبه من أعمال.

لقد أشار الإمام الصادق إلى ذلك، فقال: (المغرور في الدّنيا مسكين وفي الآخرة مغبون لأنه باع الأفضل بالأدنى، ولا تعجب من نفسك حيث ربّما اغتررت بمالك وصحّة جسمك أن لعلّك تبقى، وربّما اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلّك تنجو بهم. وربّما اغتررت بجمالك ومنيتك وإصابتك مأمولك وهواك، فظننت أنك صادق ومصيب، وربّما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة ولعلّ الله تعالى يعلم من قلبك بخلاف ذلك، وربّما أقمت نفسك على العبادة متكلّفا والله يريد

الإخلاص، وربّمــا افتخــرت بعلمــك ونســبك وأنت غافــل عن مضمرات ما في غيب الله، وربّما توهّمت أنك تــدعو اللــه وأنت تــدعو ســواه، وربّمـا حسـبت أنـك ناصـح للخلـق، وأنت تريـدهم لنفسـك، وأن يميلـوا إليـك، وربّمـا ذممت نفسـك وأنت تمـدحها على الحقيقة، واعلم أنك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمــني إلّا بصدق الإنابة إلى الله والإخبات لـه ومعرفـة عيـوب أحوالـك من حيث لا توافـق العقـل والعلم ولا يحتملـه الـدّين والشـريعة وسنن القدوة وأئمة الهدى، وإن كنت راضيا بمـا أنت فيـه، فمـا أحـد أشـقى بعلمـك منـك وأضـيع عمـرا فـأورثت حسـرة يـوم القيامة)(1)

هـذا مـا قالـه الإمـام الصـادق، وهـو مـا اتفـق عليـه جميـع الحكماء، ودلت عليه جميع النصـوص المقدسـة.. ولـذلك كـانت منافـذ الغـرور دقيقـة جـدا، قـل من ينجـو منهـا إلا المخلصـون الصادقون الذين حاسبوا أنفسهم في ذات الله، ولم يلينـوا لهـا، ولم يسكنوا لشيء.

وسأورد عليك ـ أيها المريد الصادق ــ بعض مـا ذكـروه عن أصناف المغترين، لا لتحفظه، أو تعتقـد أنـه النهايـة.. بـل لتحـذر منه وتحذّر.. فمسالك الشيطان أكثر من أن يحصيها أحد.

فقد ذكروا أن من أوائل المغترين أولئك الذين لبسوا حلــل أهل العلم، فتوهم الناس أن الجنة قد ضمنت لهم، مـع أنهم في أشد المواضع خطرا، وقد أخبر الله تعالى عن غــرور علمــاء من سبقنا من الأمم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الناسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله ﴾ [التوبة: 34]

1() مصباح الشريعة، الباب السادس والثلاثين، نقلا عن: المحجـة البيضـاء في تهـذيب الإحياء، ج6، ص: 357.

ونفس الحكم ينطبق على علماء هذه الأمـة، ولـذلك أخـبر ﷺ أنه (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابـه، فيدور بها كما يدور الحمار في الـرحى فيجتمـع إليـه أهـل النـار فيقولون: يا فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بـالمعروف وتنهانـا عن المنكر؟ فيقـول: كنت آمـركم بـالخير ولا آتيـه وأنهـاكم عن الشر وآتيه)(1)

وضرب ﷺ للذي لا يعمـل بعلمـه مثلا، فقـال: (مثـل الـذي يعلم النـاس الخـير وينسـى نفسـه كمثـل الفتيلـة تضـيء على الناس وتحرق هي نفسها)(2)

وأخبر عن العقاب الشديد الذي يصيب أولئك الذين اغـتروا بما عندهم من العلم، فقال:(كل علم وبالـه على صـاحبه إلا من عمل به)(3) وفي رواية:(أشد الناس عذابا يوم القيامـة عـالم لم ينفعه الله بعلمه)

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه:(اللهم إني أعـوذ بك من نفس لا تشبع ومن علم لا ينفع)(4)

ولهـذا، فـإن كـل من لم يلتفت لهـذه النصـوص المقدسـة، وراح يزهـو بمـا عنـده من العلم مغـتر، فـأول علامـات العـالم تواضعه وعبوديته لله، وشده حـذره من التكـاليف المناطـة بـه، وأولها أن يطبق ما تعلمه من علم، حتى يعطي النموذج الصـالح عن علمه.

1() رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

2() رواه البزار وغيره.

3() رواه الطبراني.

4() رواه مسلم وغيره.

لقـد ضـرب بعض الحكمـاء مثلا لـذلك الـذي يغـتر بـالعلم المفصول عن العمل، بمريض بـه علّـة لا يزيلهـا إلّا دواء مـركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلّا حذّاق الأطباء.. وبعد أن بـذل كـل جهـده في طلب الطـبيب.. وهـاجر عن وطنـه حتّى عـثر عليـه، (فعلّمه الدّواء وفصّل له الأخلاط وأنواعهـا ومقاديرهـا ومعادنهـا الّتي منها تجتلب وعلّمه كيفيّة دقّ كلّ واحد منها وكيفيّة الخلــط والعجن، فتعلّم ذلك منه فكتب منه نسـخة حسـنة بخـطّ حسـن ورجـع إلى بيتـه وهـو يكرّرهـا ويقرؤهـا ويعلّمهـا المرضـى ولم يشـتغل بشـربها واسـتعمالها، أ فـترى أن ذلـك يغـني عنـه من مرضه شيئا؟)(1)

هيهات هيهات.. وأنى له ذلك.. بل إنـه (لـو كتب منـه ألـف نسخة، وعلّمه ألف مريض حتّى شفى جميعهم وكرّره كـلّ ليلـة ألـف مـرّة لم يغنـه ذلـك من مرضـه شـيئا إلّا أن يـزن الـذّهب، ويشتري الدّواء، ويخلطه كما تعلّم ويشربه ويصبر على مرارتـه، ويكون شربه في وقته وبعـد تقـديم الاحتمـاء وجميـع شـروطه، وإذا فعل جميع ذلـك فهـو على خطـر من شـفائه فكيـف إذا لم يشـربه أصـلا، فمهمـا ظن أن ذلـك يكفيـه ويشـفيه فقـد ظهـر غروره) (2)

ولهـذا، فـإن اللـه تعـالى قـال عن النفس: ﴿قَـدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَـا﴾ [الشـمس: 9]، ولم يقـل: (قــد أفلح من تعلّم كيفيــة تزكيتها، وكتب علمها وعلّمها الناس).. وهكـذا قـال: ﴿ قَـدْ أَفْلَحَ مَنْ تَـزَكَّى (14) وَذَكَـرَ اسْـمَ رَبِّهِ فَصَـلَّى﴾ [الأعلى: 14ـ، 15]، فربط الزكاة بالعمل، فلا تزكية من دون علم وعمل.

وهكذا يدخل في المغترين أولئـك الـذين اهتمـوا بالشـعائر

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 310.

2() المرجع السابق، ج6، ص: 311.

التعبدية دون ملاحظة مقاصـدها؛ فحولوهـا من شـعائر للتقـرب إلى اللـه، وتزكيـة النفس إلى طقـوس ظاهريـة لا أثـر لهـا في حياتهم إلا ذلك الكبر الذي يملأ نفوسهم.. فحولوا عبادة الله إلى وسيلة لعبادة أنفسهم.

وهــؤلاء كثــيرون جــدا.. فمنهم من (أهملــوا الفــرائض، واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربّمـا تعمّقـوا في الفضـائل حتّى خرجوا إلى العدوان والسرف كالّذي تغلب عليـه الوسوسـة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ويقدّر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة) (1)

لكنه عند الورع عن أكل الحرام تجده ـ بعكس ذلك ـ (يقدّر الاحتمالات القريبة بعيدة، وربمـا أكـل الحـرام المحض)، مـع أن النصـوص المقدسـة تتشـدد في المـال الحـرام، وتيسـر وترفـع الحرج في الأمور المرتبطة بالطهارة والشعائر التعبدية.

ومنهم من راح يجعــل كــل اهتمامــه عنــد قــراءة القــرآن الكريم على إخراج حروفه من مخارجهـا؛ (فلا يـزال يحتـاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء.. لا يهمّه غيره، ولا يتفكّــر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتّعاظ به وصرف الهمّ إلى فهم أسراره، وهذا من أقبح أنواع الغرور، فإنه لم يكلّف الخلــق في تلاوة القرآن من تحقيق مخـارج الحـروف إلّا بمـا جـرت بـه عادتهم في الكلام) (2)

إن مثـل هـؤلاء ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ مثـل (من حمـل رسالة إلى مجلس سلطان، فأمر أن يؤدّيهـا على وجههـا؛ فأخـذ يؤدّي الرّسالة ويتأنق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرّة

(1) المرجع السابق، ج6، ص: 333.

(2) المرجع السابق، ج6، ص: 334.

بعد أخرى، وهو في ذلـك غافـل عن مقصـود الرّسـالة ومراعـاة حرمة المجلس، فما أحراه بأن تقـام عليـه السياسـة فـيردّ إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل)

ومنهم من راح يصب كـل اهتمامـه عنـد صـومه على تـرك المفطرات من الأكل والشرب، ويبالغون في ذلك، بينمـا هم (لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة، وخواطرهم عن الرّيـاء، وبطـونهم عن الحرام عند الإفطار، وألسنتهم من الهذيان بـأنواع الفضـول طول النهار)

ومنهم من راح يجعل كل اهتمامه ـ في تدينه ـ بالإكثـار من الحج والعمـــرة، (فيخرجـــون إلى الحجّ من غـــير خـــروج عن المظـالم وقضـاء الـدّيون، واسترضـاء الوالـدين، وطلب الـزّاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعـد سـقوط حجّـة الإسـلام ويضـيّعون في الطريق الصـلاة والفـرائض.. ولا يحـذرون في الطريـق عن الـرفث والخصـام، وربّمـا جمـع بعضـهم الحـرام وأنفقـه على الرفقاء في الطريق وهـو يطلب بـه السـمعة والرّيـاء، فيعصـي الله في كسب الحرام أوّلا وفي إنفاقه بالرّياء ثانيا، فلا هو أخذه من حلّه ولا هو وضعه في حقّـه، ثمّ يحضـر الـبيت بقلب ملـوّث برذائـل الأخلاق وذمـائم الصـفات، لم يقـدم تطهـير قلبـه على حضور بيت ربّه، وهو مع ذلك يظن أنـه على خـير من ربّـه وهـو مغرور)

وهكذا ـ أيها المريد الصادق ــ يمكن أن يـدخل الغـرور في أي عمل من الأعمال، والعاقل هو الذي يحاسـب نفسـه، ويـزن أعماله بميزان الشـريعة، لا بمـيزان الهـوى، حـتى لا يلقى اللـه، وليس في جعبته حسنة واحدة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَـبُونَ أَنهُمْ يُحْسِـنُونَ صُـنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَـرُوا

بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: 103 - 105]

فاحذر ـ أيها المريد الصادق ـ أن تكون من هؤلاء، وكن فطنا حذرا.. وراجع كل موقف تقفه، أو سلوك تقوم به.. ولا يغرنك أحد عن نفسك، فقد قال رسول الله ﷺ: (استفت قلبك، واستفت نفْسَك ثلاث مرات؛ البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك) (1)

واحذر أن تسلم دينك لأحد من الناس، فينطبق عليك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَن لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النارِ﴾ [البقرة: 166، 167]، وقوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا الله وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا وَقَالُوا رَبَّنَا إِنا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: 66، 67]

فاحذر من كل فتوى تبعدك عن ربك وعن دينك وعن القيم المقدسة التي جاء بها، والتي دلت عليها الفطرة السليمة.. فإنه لن يجديك عند الله أن تبرئ نفسك، وتلقي التهمة على من أفتاك أو خدعك عن نفسك..

(1) رواه أحمد 18006 والدارميُّ 2533.

العجب

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تخبرني عما أطلقت عليه [الثقة بالنفس]، وأخبرتني أنك دخلت دورة تدريبية خاصة بها، وأنها أثرت فيك تأثيرا بليغا، فصرت ترى من قدراتك ما لم تكن ترى، وتقتحم الحياة بجرأة لم تعهدها من نفسك.

وأنا لا أريد أن أثبطك أو أمنعك أو أحرم عليك ما اخترته لنفسك، وما رأيته صالحا لها؛ فما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء.. والضعف والخور والعجز واهتزاز الثقة كلها أمراض، ويمكنك أن تعالجها بما تراه مناسبا لها.

لكني أريد أن أذكر لك أمرا قد يكون ناشئا عن تلك الثقة التي تحدثت عنها، أو قد يكون ناشئا من المبالغة فيها، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: 25]

فهذه الآية الكريمة تذكر نوعا من الثقة في النفس، كان سببا في الهزيمة، لا في الانتصار، لجيش كامل، على الرغم من أن رسول الله ﷺ كان معهم، لكنهم لم يلتفتوا إليه، ولا إلى المدد الإلهي، ولا إلى أخذ الحيطة والحذر، وإنما اكتفوا بالنظر إلى الكثرة التي أُعجبوا بها، فكانت سببا في هزيمتهم.

وهكذا أخبر الله تعالى عن إعجاب يهود بني النضير بحصونهم، وثقتهم فيها، وهو ما جعلهم يتبجحون، ويستكبرون، ويتصورون أنهم لا يمكن أبدا أن يُغلبوا أو يُهزموا.. لكن الله تعالى أتاهم من حيث لم يحتسبوا، فأُخرجوا من تلك الحصون، بل صاروا يدمرون بيوتهم التي كانوا يتباهون بها بأيديهم، قال

تعـالى: ﴿هُـوَ الَّذِي أَخْـرَجَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُـوا وَظَنـوا أَنهُمْ مَـانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ الله فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِـبُوا وَقَـذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2]

وهكذا أخبر الله تعـالى عن الخاسـرين الـذين لم يكتشـفوا خسـارتهم إلا بعـد فـوات الأوان، ذلـك أن إعجـابهم بأنفسـهم وأعمالهم جعلهم منشغلين بالنظر إليها والفرح بهـا عن التحقـق من مدى موافقتهـا للشـريعة، ومـدى تـوجههم بهـا لـربهم، قـال تعالى: ﴿ قُلْ هَـلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَـرِينَ أَعْمَـالًا (103) الَّذِينَ ضَـلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَـبُونَ أَنهُمْ يُحْسِـنُونَ صُـنْعًا ﴾ [الكهف: 103، 104]

هل رأيت ـ أيها المريد الصادق ـ كيف كـان ذلـك الإعجـاب الذي قد يكون نوعا من الإسراف في الثقـة بـالنفس، سـببا في الهلاك والخسارة؟

وكيـف لا يكـون كـذلك.. وهـو الحائـل الأكـبر بين الإنسـان والتوبة؟.. وهل يمكن أن يتوب من يثق في أعمالـه، ويـرى أنـه منزه معصوم.. كل أعماله صالحة؟

وكيـف لا يكـون كـذلك.. وهـو الحائـل الأكـبر بين الإنسـان ومراجعــة نفســه، وتصــحيح أخطائــه ومواقفــه.. والبحث عن الحقيقة والسراط المستقيم؟.. وهل كان سبب بقاء المشركين على شــركهم، والضــالين على ضــلالهم إلا بســبب إعجــابهم بأنفسهم، وفرحهم بمـا تركـه لهم آبـاؤهم وأجـدادهم، كمـا قـال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ فَرِحُـوا بِمَـا عِنْـدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: 83]

وكيف لا يكون كذلك.. وهو الحائل بين الإنسان والاستفادة من غيره، وتجاربهم، وخبراتهم.. وهل يمكن أن يستفيد من آراء غيره من امتلأ عجبا برأيه؟

وكيف لا يكون كذلك.. وهو السبب الأكبر في إحباط الأعمال، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَن وَالْأَذَى﴾ [البقرة: 264]، فهل يمكن أن يمن الإنسان بصدقاته وأعماله ما لم يكن معجبا بها؟

وكيف لا يكون كذلك.. وهو المدد الأكبر لنهر الكبر والإعراض والاستبداد والطغيان.. فكل هؤلاء معجبون بأنفسهم.. ولولا إعجاب فرعون بنفسه لما قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]، ولما قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38]

لا تحسبن ـ أيها المريد الصادق ــ أن تلك المقولة مقولة فرعون وحده، بل هي مقولة كل معجب بنفسه، مغتر بما آتاه الله من الطاقات والمواهب والمكاسب.. وبدل أن يتواضع بها لله، راح يتبجح بها ويستكبر.

ولذلك كان العجب سببا من أسباب الهلاك الكبرى.. ومثلبا من مثالب النفس الأمارة العظمى.. ومن لم يتفقد هذا الداء من نفسه، ويعالجه، فإنه هالك لما محالة.

ليس هذا قولي ـ أيها المريد الصادق ـ وإنما هو قول ربنا.. فقد سمعت ما قرأته عليك من الآيات.. وهو قول نبينا ﷺ.. فقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه)(1)

وقال في حديث آخر: (إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا

(1) رواه البيهقي في الشعب.

وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نفسك)[1]

بل إنه ﷺ اعتبر المذنب المنكسر المتواضع أفضل من المطيع الممتلئ بالعجب بنفسه، ولذلك عندما سئل عن الذنوب، قال: (لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك، العجب العجب)[2]

وهكذا حذر أئمة الهدى من العجب، واعتبروه أكبر حجاب يحول بين الإنسان والوصول إلى الحق، أو الإذعان له، فعن الإمام الصادق قال: (إن الله تعالى علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب ولو لا ذلك ما ابتلى مؤمنا بذنب أبدا)[3]، وقال: (من دخله العجب هلك)[4]، وقال: (إن الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه ويعمل العمل فيسره ذلك فيتراخى عن حاله تلك فلأن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه)[5]

وحكى قصة تبين خطر العجب، فقال: (أتى عالم عابدا فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يسأل عن صلاته؟! وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا، قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتى تجري دموعي، فقال العالم: إن ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مدل.. إن المدل لا يصعد من عمله شيء)[6]

وحكى قصة أخرى، فقال: (دخل رجلان المسجد أحدهما

1() رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه.

2() رواه البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب.

3() الكافي ج 2 ص 313 رقم 1.

4() الكافي ج 2 ص 313 رقم 2.

5() الكافي ج 2 ص 313 رقم 4.

6() الكافي ج 2 ص 313 رقم 5 والمدل: المنبسط المسرور الذي لا خوف له من التقصير في العمل.

عابد والآخر فاسق فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق، وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدلا بعبادته يدل بها فتكون فكرته في ذلك وتكون فكرة الفاسق في الذم على فسقه ويستغفر الله مما صنع من الذنوب) (1)

وروى عن رسول الله ﷺ من أخبار الأنبياء أنه (بينما موسى عليه السلام جالس إذ أقبل إبليس وعليه برنس ذو ألوان فلما دنا منه خلع البرنس وقام إلى موسى عليه السلام فسلم عليه فقال له موسى عليه السلام: من أنت فقال: أنا إبليس، قال: أنت فلا قرب الله دارك، قال: إني إنما جئت لأ سلم عليك لمكانك من الله تعالى، فقال له موسى عليه السلام: فما هذا البرنس؟ قال: أختطف به قلوب بني آدم، فقال له موسى: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه)(2)

وحكى عن داود عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه، فقال: (يا داود بشر المذنبين وأنذر الصديقين)، فقال داود: كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين؟ فقال الله تعالى له: (يا داود بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك)(3)

وهكذا اتفق كل الحكماء على خطورة العجب، وقد قال ابن مسعود: (الهلاك في اثنتين القنوط والعجب)، فانظر ـ أيها المريد الصادق ـ كيف جمع بينهما، لأن كليهما يقعدان بالإنسان

1() الكافي ج 2 ص 114 رقم 6..

2() الكافي ج 2 ص 314 رقم 8.

3() الكافي ج 2 ص 314 رقم 8.

عن العمل الجاد.. مع أن (السعادة لا تنـال إلا بالسـعي والطلب والجد والتشمر، والقانـط لا يسـعى ولا يطلب، والمعجب يعتقـد أنـه قـد سـعد وظفـر بمـراده فلا يسـعى والموجـود لا يطلب والمحـال لا يطلب، والسـعادة في اعتقـاد المعجب حاصـلة لـه ومستحيلة في اعتقاد القانط فبهذا جمع بينهما)

لا تحسبن ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أني أقصـدك بهـذا، أو أقصد أولئك الذين امتلأوا ثقة بأنفسهم؛ فليس كل واثق بنفسـه معجبـا بهـا.. وقـد روي في الحـديث أن رسـول اللـه ﷺ قـال لأصحابه يـوم أحـد، وهـو يحمـل سـيفا: (من يأخـذ هـذا السـيف بحقه؟)، فقام إليـه رجـال، فأمسـكه عنهم، حـتى قـام إليـه أبـو دجانة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: (أن تضـرب بـه فى وجه العدو حتى ينحنى)، فقال: أنا آخـذه بحقـه يـا رسـول اللـه، فأعطاه إياه، وكان رجلا شجاعا يختال عند الحرب، فلمـا رآه ﷺ يتبختر قال: (إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هـذا المـوطن)[1]

وقال بعض من رآه يصفه: اتبعته، فأخذ عصـابة لـه حمـراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج عصابة الموت، فخـرج، وهو يقول:

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر فى الكيّول أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحدا من المشركين إلا قتله [2].

فأبو دجانة ـ أيها المريد الصـادق ــ لم يكن معجبـا بنفسـه،

---

[1] () مسلم (2470)

[2] () أحمد (3/ 123)، والحاكم (3/ 255)

ولكنـه كـان واثقـا بهـا، وبقدراتـه، فلـذلك قبـل أن يحمـل ذلـك السـيف بشـروطه.. وعنـدما سـار متبخـترا لم يكن مختـالا، ولا مزهوا، ولا متكبرا، وإنما كان فرحا بفضـل اللـه عليـه في حمـل سيف رسول الله ﷺ والذب عنه.

وهكذا عندما قال يوسـف عليـه السـلام للملـك: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِني حَفِيـظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسـف: 55]، أو عنـدما قال لأصحابه في السجن: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَـامٌ تُرْزَقَانِـهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَـا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: 37]

وهكذا عندما كان الإمـام علي يصـيح في المعرضـين عنـه، والمستبدلين بـه غـيره: (سـلوني قبـل أن تفقـدوني، فـو الّـذي نفسي! بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين السّاعة، ولا عن فئـة تهـدي مائـة وتضـلّ مائـة إلاّ أنبـأتكم بناعقهـا وقائـدها وسائقها، ومناخ ركابها، ومحطّ رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلا، ومن يموت منهم موتا) (1)

فكل هؤلاء ـ أيها المريد الصادق ـ لم يكونوا من المعجـبين بأنفسهم، ولكنهم كانوا معجبين بفضل الله عليهم.. وفـرق كبـير بين من يعجب بمـا عنـده، وبين من يعجب بمـا أعطـاه اللـه.. فالأول يتكبر ويُدل ويبطر.. والثاني يحمد الله، ويضع النعمة في محلها، ويتواضع لخلق الله، لعلمه أن تلـك النعمـة ليسـت منـه، وإنما هي من ربه.

ولـذلك عـرف الحكمـاء العجب بأنـه (اسـتعظام النعمـة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم عز وجل)(2)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصـادق ــ فـاعلم أن للعجب ـ

1() شرح الأخبار 1: 139، الحاكم في المستدرك (3394)

2() إحياء علوم الدين 3/ 370.

كسائر مثالب النفس الأمارة ـ دوائين، لا يمكن أن ينال الشــفاء أحد من دون استعمالهما.

العلاج المعرفي:

أما الأول.. وهو العلاج المعـرفي.. فلا يمكن أن يتم إلا بعـد التحقيق في ماهية العجب، والتفريق بينـه وبين مـا يشـابهه من الأوصاف المحمودة.. حـتى لا يزيـل المـداوي صـفات أُمـر بـأن تتوفر فيه.

ولعل أقرب ما ييسر لك ذلك التفريـق قولـه تعـالى: ﴿قُـلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِـهِ فَبِـذَلِكَ فَلْيَفْرَحُـوا هُـوَ خَيْـرٌ مِمَّا يَجْمَعُـونَ﴾ [يونس: 58] في نفس الوقت الذي نهي فيه عن الفرح بأشــياء كثيرة[1].

ذلك أن العجب هـو نـوع من الفـرح الـذي يعـتري النفس.. فإن كان هذا الفرح بفضل الله، كان فرحا في محلـه، وإن كـان فرحا بالنفس، كان بطرا وكبرا وانحرافا.

أمــا الأول، وهــو الفــرح باللــه، والإعجــاب بفضــله؛ فيثمــر التواضع، وحمد الله، وشكره على نعمه، والخــوف من التقصــير في حقها، والذي يؤدي إلى سلبها.. ولذلك يكون الفرح مغمــورا بالورع والتقوى والصلاح والعبودية.

وأما الثاني، فيجعل الإنسان مسـتكبرا بطـرا مزهـوا.. كمـا وصف الله تعالى قارون الذي لم يفـرح بخـزائن أموالـه لكونهـا رزقا ساقه الله إليه، وإنما فرح بها لتوهمه أنهـا منـه، ولـه، كمـا قال تعالى: ﴿ إِنمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78]

ولذلك، فإن أحسن علاج يعالَج به هـذا الفـرح الكـاذب هـو

---

[1] () شرحنا بتفصيل المواضع التي نهي فيها عن الفرح، في كتاب [لا تفرح]

قراءة ما ورد في القرآن الكـريم من عـواقب الـذين اسـتفزهم وأغراهم ذلك الفرح إلى الدرجة التي تحولـوا فيهـا إلى منـاوئين للرسل، ومعادين لأولياء الله.

وقد ذكر الله تعالى عاقبة إعجاب قارون بثروته وبيتـه ومـا آتاه الله من خزائن، فكان عاقبة أمره أن خسف الله به﴿وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ الله وَمَـا كَـانَ مِنَ الْمُنْتَصِـرِينَ (81) وَأَصْـبَحَ الَّذِينَ تَمَنـوْا مَكَانَـهُ بِـالْأَمْسِ يَقُولُـونَ وَيْكَأَن الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَن الله عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنـهُ لَا يُفْلِحُ الْكَـافِرُونَ﴾ [القصـص: 81، 82]

وهكذا كان عاقبـة صـاحب الجنـتين الـذي شـغله الإعجـاب بهمـا عن شـكر اللـه وحمـده، وشـغله عن الاسـتماع لصـاحبه الناصح له، والـذي قـال من شـدة الإعجـاب: ﴿مَـا أَظُن أَنْ تَبِيـدَ هَـذِهِ أَبَـدًا (35) وَمَـا أَظُن السَّـاعَةَ قَائِمَـةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَن خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ [الكهف: 35، 36]

حينهـا علمـه صـاحبه المـؤمن كيـف يعـالج ذلـك العجب الكـاذب، فقـال لـه: ﴿ أَكَفَـرْتَ بِالَّذِي خَلَقَـكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنـا هُـوَ اللـه رَبِّي وَلَا أُشْـرِكُ بِـرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ الله لَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ [الكهف: 37 - 41]

وقد ذكر الله تعالى المصير الذي صارت إليه تينك الجنتان، فقال: ﴿وَأُحِيـطَ بِثَمَـرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْـهِ عَلَى مَـا أَنْفَـقَ فِيهَـا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَـدًا (

42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ الله وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ [الكهف: 42، 43]

وعند تأملك ـ أيها المريد الصادق ـ في مقالة الصاحب المؤمن، تجد الحقائق التي يمكنك أن تستند إليها في علاج العجب الكاذب، وأولها أن تعلم أن كل شيء من الله، وأنه عارية عندك، ليختبرك به، وأنه كما أعطاك يمكن أن يمنعك، وكما من عليك به يمكن أن يحرمك منه.

ولذلك تنظر إلى ذلك الفضل الإلهي نظر التواضع، حتى تنجح في اختبارك، وحتى لا يكون وسيلة لأن يُسلب منك.

وقد ذكر الإمام الصادق ـ بيانا لما ورد في القرآن الكريم ـ المعارف الكبرى التي تحفظ قلبك من العجب، فقال: (العجب كل العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يدري بما يختم له، فمن أعجب بنفسه وفعله فقد ضل عن نهج الرشاد، وادعى ما ليس له، والمدعي من غير حق كاذب، وإن خفي دعواه وطال دهره فإنه أولى ما يفعل بالمعجب نزع ما أعجب به، ليعلم أنه عاجز فقير، ويشهد على نفسه لتكون الحجة عليه أوكد، كما فعل بإبليس، والعجب نبات حبها الكفر، وأرضها النفاق، وماؤها البغي، وأغصانها الجهل، وورقها الضلالة، وثمرها اللعنة والخلود في النار، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق، ولا بد من أن يثمر) (1)

فاجعل هذه المقولة ـ أيها المريد الصادق ـ بين عينيك؛ فهي مقولة إمام من أئمة الهدى، ووارث من ورثة النبوة، وهو يحذرك فيها من آثار العجب، فهو مثل الأمراض الخبيثة يتطور ويثمر كل ألوان الخبائث.

1() مصباح الشريعة، الباب الأربعين، المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 277.

وقد سئل الإمام الكـاظم عن العجب الـذي يفسـد العمـل، فقال: (العجب درجات منها أن يـزين للعبـد سـوء عملـه، فـيراه حسنا ويحسـب أنـه يحسـن صـنعا، ومنهـا أن يـؤمن العبـد بربـه فيمن على الله، ولله عليه فيه المنة)(2)

إن الإمام الكاظم ـ أيها المريد الصادق ـ يشير إلى أثـر من آثار العجب الخطيرة، وهو الإدلال على الله، ذلك الذي نهى الله تعالى عنه في قوله: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: 6]، وقد قيـل في تفسيرها: (أي لا تدل بعملك)

وهو ما أشار الله تعالى إليه في قول صاحب الجنتين: ﴿مَـا أَظُنُ السَّـاعَةَ قَائِمَـةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِـدَن خَيْـرًا مِنْهَـا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: 36]، فقد بلغ به إعجابه بنفسـه أنـه تصـور أن الله سيرزقه في الدار الأخرى، كما رزقه في الدنيا.

ومثله ذلك المشرك المعاند الذي حدث عنـه قولـه تعـالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَن مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مـريم: 77]، وقـد رد اللـه تعـالى عليـه بقولـه: ﴿ أَطَّلَـعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَـذَ عِنْـدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُـولُ وَنَمُـدُّ لَـهُ مِنَ الْعَـذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: 78 - 80]

ولهـذا اتفـق الحكمـاء على خطـر الإدلال وكونـه ثمـرة من ثمـار العجب، وقـد قـال بعضـهم في ذلـك: (لأن تضـحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك)

ثم بين سر ذلـك، فقـال: (الإدلال وراء العجب فلا مـدل إلا وهو معجب، ورب معجب لا يدل إذ العجب يحصـل بالاسـتعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه والإدلال لا يتم إلا مع توقـع جزاء، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منهـا

2() الكافي، ج 2 ص 313.

كان مدلا بعمله فإنه لا يتعجب من رد دعاء الفساق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك. فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه) (1)

العلاج السلوكي:

إذا علمت ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ وتأملت فيه، فإنه سيفيدك كثيرا في علاج العجب، ويقيك من آثاره الخطيرة على نفسك.

ومما يعينك على ذلك أن تقرأ سير الصالحين، لترى صلاحهم وتقواهم وطهارتهم، وبذلك يتحول إعجابك بنفسك إلى إعجاب بهم، والخير كل الخير في إعجابك بالصالحين ومحبتك لهم.

ولهذا امتلأ القرآن الكريم بذكر صفات الصالحين الصادقين الذين نجحوا فيما وضعوا فيه من الاختبارات.. فضع ما ذكره القرآن الكريم عنهم بين عينيك، وسترى كيف يملؤك ذلك بالعبودية والتواضع.

واستشعر ـ أيها المريد الصادق ـ دائما تلك الحقيقة القرآنية التي عبر عنها قول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: 64]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: 83]، وقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِن الله يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: 21]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تشير إلى أن كل كمال تستشعره في نفسك، أو عمل تقوم به، أو تزكية تحصل عليها،

1() (7) إحياء علوم الدين 3/ 371.

إنما هي فضل إلهي خالص، كما عبر عن ذلك قوله ﷺ: (ما منكم من أحد ينجيه عمله)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته)(1)

ولذلك، كان لك أن تعجب بها جميعا، لكن باعتبارها فضل من الله عليك، وليس كسبا من كسبك، أو فضلا من فضلك.

أعلم ــ أيها المريد الصادق ــ أنك ستذكر لي ما ذكره بعضهم لشيخه حين قال له: (كيف يمكنني أن أجهل أعمالي؟ وإني أنا عملتها وإني أنتظر عليها ثوابا، ولو لا أنها عملي لما انتظرت الثواب فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع؛ فمن أين لي الثواب، وإن كانت الأعمال مني وبقدرتي فكيف لا أعجب بها؟)(2)

وأنا أحيلك في الجواب إلى القرآن الكريم.. فاقرأه بعين قلبك، وستجد الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ ومن معه من المؤمنين بعدما انتصروا على أعدائهم، ويقول لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِن الله قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِن الله رَمَى ﴾ [الأنفال: 17]

ويمكنك أن تقيس على هذا كل أعمالك، فالله تعالى هو الذي (خلقك، وخلق أعضاءك، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم، وخلق لك الإرادة ولو أردت أن تنفي شيئا من ذلك عن نفسك لم تقدر عليه) (3)

وإن كنت (تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ولا يتصور العمل إلا بوجودك وبوجود علمك وإرادتك

1() مسلم (2816) (73)

2() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 279

3() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 280

وقدرتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله تعالى، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لا محالة) (1)

إذا علمت كل هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فإنه يمكنك أن تبدأ في العلاج السلوكي المرتبط بتفاصيل حياتك، والمحال التي وجدت فيروس العجب قد اخترقها، لتزيله عنك، وتتحول إلى عبودية ربك.

وقد ذكر الحكماء الكثير من التفاصيل المرتبطة بذلك، ولن أذكرها لك جميعا، بل أكتفي بسبعة شواهد منها، تغنيك عن غيرك، أو تدربك على التعامل مع غيرها (2).

أما **أولها**.. فالإعجاب بجمال البدن.. وعلاجه ـ بالإضافة إلى تلك الأدوية العرفانية ـ بالتفكر في (أقذار الباطن، وفي أول أمره وآخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور بحيث استقذرتها الطباع) (3)

وأما **الثاني**.. وهو الإعجاب بالقوة والبطش، فعلاجه بالتفكر في الأقوام الذين ذكرهم القرآن الكريم، والذين امتلأوا بالعجب بقوتهم، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنا قُوَّةً أَوَلَمْ

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 280

2() انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في إحياء علوم الدين والمحجة البيضاء وغيرهما من كتب السلوك والأخلاق، وقد ذكرنا الكثير من التفاصيل المرتبطة بهذا من خلال ما ورد في القرآن الكريم في كتاب [لا تفرح]

3() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 284، فما بعدها.

يَـرَوْا أَن اللــه الَّذِي خَلَقَهُمْ هُـوَ أَشَـدُّ مِنْهُمْ قُـوَّةً وَكَـانُوا بِآيَاتِنَـا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًـا صَرْصَـرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَـاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَلَعَـذَابُ الْآخِـرَةِ أَخْـزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ [فصلت: 15، 16]

وأمـا **الثـالث**.. وهــو العجب بالعقــل والكياســة والتفطن لدقائق الأمور، وهو ما يثمر الاستبداد بالرأي، وتـرك المشـورة، واستجهال المخالفين.. وعلاجه (أن يشكر الله على ما رزق من العقل، ويتفكر أنه بـأدنى مـرض يصـيب دماغـه كيـف يوسـوس ويجن بحيث يضحك النـاس منـه، ولا يـأمن أن يسـلب عقلـه إن أعجب به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنــه ما أوتي من العلم إلا قليلا، وإن اتسع علمـه وأن مـا جهلـه ممـا عرفه الناس أكثر مما علمـه، فكيـف بمـا لم يعرفـه النـاس من علم اللــه تعــالى.. وأن يتهم عقلــه وينظــر إلى الحمقى كيــف يعجبون بعقولهم ويضـحك النـاس منهم، فيحـذر أن يكـون منهم وهو لا يدري فإن قاصر العقل قط لا يعلم قصـور عقلـه فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ومن أعدائــه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليـه فيزيـده عجبـا وهـو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن بجهل نفسه فيزداد به عجبا)

وأما **الرابع**.. فالعجب بالقومية والعرق والنسـب، وخاصـة إن كانت مرتبطة بالصالحين.. وعلاجه (أن يعلم أنه مهما خـالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم فظن أنه ملحق بهم فقد جهـل، وإن اقتدى بآبائه فما كـان من أخلاقهم العجب، بـل الخـوف والإزراء على النفس واسـتعظام الخلــق ومذمــة النفس، وقــد شــرفوا بالطاعة والعلم والخصال المحمودة، لا بالنسب، فليتشـرف بمـا شــرفوا بــه.. بالإضــافة إلى ذلــك، فقــد ســاواهم في النســب، وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله، فكانوا عنـد اللـه شـرا من الكلاب وأخس من الخنازير، ولذلك قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا

النـاسُ إِنـا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى [الحجـرات: 13]، أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصـل واحـد، ثم ذكـر فائـدة النسب فقال: وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا [الحجـرات: 13]، ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال: إِن أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ [الحجرات: 13])

ولهذا عندما سئل رسول اللـه ﷺ: (أي المؤمـنين أفضـل؟) لم يقل: (أشرفهم نسبا)، وإنما قـال: (أحسـنهم خلقـا)، وعنـدما سئل: (فـأي المؤمـنين أكيس؟)، قـال: (أكـثرهم للمـوت ذكـرا، وأحسنهم لما بعده استعدادا، أولئك الاكياس) (1)

وهكذا قال ﷺ: (إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية ـ أي كبرها ـ كلكم بنو آدم وآدم من تراب)(2)، وقال مخاطبا قــريش: (يا معشر قـريش يـأتي النـاس بالأعمـال يـوم القيامـة وتـأتوني بالـدنيا تحملونهـا على رقـابكم، وتقولـون: يـا محمـد يـا محمـد فأقول: هكذا) (3)

وأمـا **السـادس**.. فـالعجب بكـثرة الأتبـاع والمعجـبين.. والذين ضـرب اللـه تعـالى مثلا عنهم بالمشـركين الـذين قـالوا: نَحْنُ أَكْثَـرُ أَمْـوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَـا نَحْنُ بِمُعَـذَّبِينَ [سـبأ: 35].. وعلاجه ما ذكره القـرآن الكـريم حين قـال معقبـا على قـولهم: قُلْ إِن رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنِ أَكْثَرَ الناسِ لَا يَعْلَمُونَ (36) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّـعْفِ بِمَـا عَمِلُـوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ [سبأ: 36، 37]

1() ابن ماجه رقم 4259

2() أبو داود ج 2 ص 624.

3() رواه الطبراني.

وعقب على هذا في آية أخرى، فقـال: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَـدَّ مِنْكُمْ قُـوَّةً وَأَكْثَـرَ أَمْـوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْـتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْـــتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَـــا اسْـــتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [التوبة: 69]

وهـذه الآيـات الكريمـة تشـير إلى (ضـعفه وضـعفهم، وأن جميعهم عبيد عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا.. ثم كيف يعجب بهم، وهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قــبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه ولد ولا أهل ولا قريب ولا حميم ولا عشير، فيسلمونه إلى البلى وإلى الحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنـه شـيئا وهـو أحـوج أوقاتـه إليهم وكـذلك يهربـون منـه يـوم القيامــة ﴿ يَـوْمَ يَفِـرُّ الْمَـرْءُ مِنْ أَخِيــهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيــهِ (35) وَصَــاحِبَتِهِ وَبَنِيــهِ (36) لِكُـلِّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَـأْنٌ يُغْنِيــهِ ﴾ [عبس: 34 -ـ 37]، فأي خير فيمن يفارقك في أشـد أحوالـك، ويهرب منك)

وأما **السابع**.. فالعجب بالمال ومتاع الحياة الدنيا.. فعلاجه أن يتفكر في آفات المـال وكـثرة حقوقـه وعظم غوائلـه.. وإلى أن المــال غــاد ورائح ولا أصــل لــه، وإلى أن في المشــركين واليهود والمنحرفين من يزيد عليه في المال، ويتـذكر قولـه ﷺ: (بينما رجل يتبخـتر في حلـة لـه قـد أعجبتـه نفسـه إذ أمـر اللـه الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلي يوم القيامة)[1]

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ بعض النمـاذج الـتي قـد تعينـك في علاج العجب، وإيــاك أن تــبرئ نفســك منــه، فتقــع فيــه.. فالعاقل هو الذي يحتاط لنفسه، ويحذر قبل تمكن المرض منـه، وحينها قد لا يستطيع منه فكاكا.

[1] مسلم ج 6 ص 148.

وأحذرك ـ أيها المريد الصادق ـ من أن تقع فيما يقع فيه بعضهم من كثرة حديثه عن نفسه، وثنائه عليها، مستدلا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]، فذلك مقام رفيع، لا يصل إليه إلا من تجرد من نفسه وأهوائه، فكان ثناؤه على نفسه ثناء على ربه.. فلا تتخط رقاب الصديقين.. فلكل مقام أهله، ولكل حالة رجالها.

الكبر

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الكبر، وعلاماته، وهل يمكن أن يتصف به السائرون في طريق الله، من المريدين أو الواصلين؟.. أو أولئك العلماء الذين توجهوا بكنه همتهم لطلب العلوم، فتعلموها، ثم تفرغوا لتعليمها والتصنيف فيها؟.. أم أنه خاص بالسادة والكبراء.. من ذوي الجاه العريض والمال الكثير..ممن أتيحت لهم المناصب، وتربعوا على العروش.

وجوابا عن سؤالك أذكر لك أن الكبر وغيره من مثالب النفس الأمارة ليس خاصا بمن ذكرت من الوجهاء والسادة، وإن كان عرضه باديا للعيان عليهم.. بل هو شامل لجميع الناس حتى أولئك المتسولين الشحاذين الذين يبدون كل أنواع الذلة، قد يكون فيهم من الكبر ما يوجد في فرعون نفسه.. لكنه احتبس عند الظهور لديهم، لعدم وجود البيئة المناسبة.. فإذا وجدت البيئة ظهر وبدا.

وقد أشار إلى ذلك قوله ﷺ: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر)(1)

فهذا الحديث الشريف يشير إلى أن الأخلاق ليست مرتبطة بظهورها للعيان، وإنما بذلك المحل الذي يمدها من عالم النفس الأمارة، ولذلك قال بعض الحكماء: (ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:24]، ولكنه ليس يجد له مجالاً)

1() مسلم (107)، وأبو عوانة 1/40، والبيهقي 8/161، والبغوي (3591)

ولهذا عرفوا الكبر بأنه ذلك الاستعظام الذي تشعر به النفس الأمارة، وترى أن قدرها فوق قدر غيرها، وأن غيرها ينبغي أن يكونوا خاضعين لها.. فإن لم يخضعوا لها تتألم لذلك، وتتحين أي فرصة لتفرض عليهم الخضوع.

وهي تنشأ من ذلك العجب الذي تمتلئ به النفس الأمارة، فتعتقد أنها الأفضل والأكمل، وأن رأيها الأصوب والأحكم.. وأن الخطأ قد يصيب الجميع لكنه لا يصيبها.

وهو لذلك أخطر المثالب، وأعظمها جرما، لأن صاحبها لا يكتفي بأن يفرض خضوعه على غيره من البشر ممن هم في مستواه، وإنما قد يشتد داؤه، فيفرضه على الله نفسه، فيعتقد أنه ند لله، أو أن الله ينبغي أن ينزل عند رغباته.. فإن لم ينزل راح يتحداه، ويكفر به، ويمارس كل المعاصي التي يتصور أنه يغيضه بها.

وقد يظهر هذا النوع من الكبر على الله في الكبر على رسله وأوليائه والصالحين من عباده؛ فيمارس المتكبر عليهم كل ألوان العتو والجبروت ليتحدى الله بذلك.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الصنف من المستكبرين، وهم الذين بلغ بهم الداء حده الأقصى، وأخبر أنهم أبعد الناس عن رضوان الله وجنته.. وهل يمكن أن يرضى الله عمن يتحداه؟.. وهل يمكن أن يتيح الجنان لمن لم يعرف قدره، وعبوديته؟.. وهل يمكن أن يستقر بالجنة حال، وفيها مستكبر واحد؟

وقد ضرب الله تعالى على ذلك الكثير من الأمثلة ليعتبر بها المعتبرون، ومنها ذلك الذي أدرك بذوقه اللغوي إعجاز القرآن الكريم، واستحالة أن يأتي به رسول الله ﷺ، وبعد أن

فكر وقدر، وكاد يسلم لله، قام كبره ليحول بينه وبين ذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: 23 - 25]

وأنت تلاحظ ـ أيها المريد الصادق ـ كيف ربط الله تعالى بين الكبر وذلك القول، واعتبره ضروريا ومباشرا.. فبمجرد أن حضر الكبر غطى على العقل، وأصبح صاحبه لا يرى الأشياء بصورتها الحقيقية.. ولهذا تحول الإعجاز القرآني في ذهنه إلى مجرد سحر.

والسبب في ذلك هو أنه بعد أن أعمل عقله، وأدرك إعجاز القرآن راح يصرخ في باطنه في ربه: لم اخترت محمدا.. ولم تخترني.. ثم راح يتحداه بالكفر به وبنبيه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى عند حديثه عن هذا الرجل نفسه، وموقفه من الإيمان، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31]، فقد كان ذلك الرجل أحدهما.. ولذلك لم يرض قسمة الله تعالى، ولم يسلم لها، لأنه اعتبر الله غير محق في اختياره، كما رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32]

ونفس الموقف حصل لإبليس عندما استكبر عن السجود لآدم عليه السلام، فقد كان استكباره في الحقيقة على الله، وكأنه أراد أن يغيظ الله لعدم اختياره له ليكون المسجود له، فلهذا رفض السجود، لأنه صنف نفسه من العالين من غير أن ينتظر تصنيف الله له بذلك، قال تعالى: ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص:

75]، حينها ازداد كبر إبليس عنفوانا، فقال ـ غـافلا أنـه يخـاطب ربه ـ: ﴿أَنَـا خَيْـرٌ مِنْـهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص: 76]

ولهذا كان الكبر علامة على استحواذ النفس الأمـارة على الإنسـان، بحيث تغطي كـل مداركـه العقليـة؛ فلا يـرى شـيئا إلا نفسه.. حتى ربه يعزلـه ويحجبـه إذا شـعر أنـه يحـول بينـه وبين رؤية نفسه، كما أشار إلى ذلك الإمام الصادق عنـدما قـال: (مـا من عبد إلّا وفي رأسه حكمة، وملك يمسكها فإذا تكبّر قال لــه: اتّضع وضعك الله، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وهـو أصـغر النـاس في أعين النـاس، فـإذا تواضـع رفعهـا اللـه ثمّ قـال لـه: انتعش نعشـك اللـه، فلا يـزال أصـغر النـاس في نفسـه وأرفـع الناس في أعين الناس)(1)

ولهـذا كـان الجـزاء الوفـاق المرتبـط بـالمتكبر هـو اللعن والبعد عن الله؛ فالله عزيز، ولا يرضى أن يقترب أو يقــرب من أبعد نفسـه عنـه، ولهـذا رد على إبليس، فقـال: ﴿ فَـاخْرُجْ مِنْهَـا فَإِنـكَ رَجِيمٌ (77) وَإِن عَلَيْـكَ لَعْنَتِي إِلَى يَـوْمِ الـدِّينِ﴾ [ص: 77، 78]

ونفس الخطاب يوجـه لكـل المسـتكبرين الـذين ﴿إِذَا قِيـلَ لَهُمُ اسْـجُدُوا لِلـرَّحْمَنِ قَـالُوا وَمَـا الـرَّحْمَنُ أَنَسْـجُدُ لِمَـا تَأْمُرُنَـا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: 60]، أولئك الـذين يحرمـون أنفسـهم من الإذعــان لآيــات اللــه، وكيــف يــذعنون لهــا، وهم ممتلئــون بأنفسهم، ومحجوبون برؤيتها، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُــوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَـبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِـذُوهُ سَـبِيلًا ذَلِـكَ بِـأَنهُمْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَكَـانُوا عَنْهَـا غَـافِلِينَ ﴾

(1) الكافي ج 2 ص 312.

[الأعراف: 146]

وختم الآية الكريمة بالغفلة، دليـل على أن الغفلـة بنت من بنات الكبرياء، وثمرة من ثمراتها.. ذلـك أن المسـتكبر ــ نتيجـة انشغاله بنفسه ـ صار غافلا عن ربه.. ولـو أنـه أعطى ربـه بعض الأهمية التي يوليها لنفسه لما غفل عنه.. ولهذا كـان كـل غافـل يحمل بذور الكبرياء من حيث لا يشعر.

ولا تتوقف ثمار الكبر على ذلك، وإنما قد تتدحرج بصـاحبها إلى أن يطلب من الله أدلة حسـية خاصـة بـه، بحيث يراهـا رأي العين، وهو يشبه في ذلك التلميذ الكسول الـذي يـأبى الـدخول إلى الامتحان إلا بعد أن يضـعوا أمامـه الإجابـة.. وقـد ذكـر اللـه تعالى ذلك، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَـا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَـرَوْنَ الْمَلَائِكَـةَ لَا بُشْـرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْـرِمِينَ وَيَقُولُـونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: 21، 22]،

وحكى عن المشركين المستكبرين هـذه الاقتراحـات الـتي فرضوها على ربهم حتى يؤمنوا برسوله، حيث قالوا ـ بكل جفاء وغلظـة ــ: ﴿ مَـالِ هَـذَا الرَّسُـولِ يَأْكُـلُ الطَّعَـامَ وَيَمْشِـي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَـذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْـهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان: 7 - 8]

وحكى عن فرعون قوله مخاطبا لقومه: ﴿يَـاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَـارُ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِـرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَـذَا الَّذِي هُـوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَـادُ يُبِينُ (52) فَلَـوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: 51 - 53]

وهكذا قد تتدحرج ثمار الكبر بـالمتكبر إلى أن يعلن نفسـه

وكيلا عن الله، ووصيا على عباده، أو أنه الله نفسه، فلذلك يفتري عليه الكذب، لشعوره أنه الحقيق بأن يوحى إليه، قال تعالى في وصف هؤلاء: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ الله وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93]

ولم يدرك هؤلاء أن تلك المناصب الإلهية الرفيعة التي تخول لصاحبها تلقي الوحي الصادق، أو الإلهام المسدد تقتضي تخلص النفس من كل رعونات الكبر، حتى يصبح عبدا محضا، لا حظ له من الاستعلاء، بل لا حظ له من الشعور بنفسه، كما قال تعالى عن المسيح عليه السلام: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 172]

وهكذا لو رجعت ـ أيها المريد الصادق ـ إلى القرآن الكريم، وبحثت في الموارد التي ذكر فيها الكبر، فسترى أنه البذرة التي تنبت كل الخبائث، وأنه ليس خاصا بالملوك والجبابرة، بل قد يكون في أبسط الناس.

ولهذا ضرب الله تعالى المثل عن تواضع سليمان عليه السلام، الذي آتاه الله من الملك ما لم يؤت غيره، ومع ذلك تواضع لنملة، واستمع لنصيحة هدهد، وعندما سمع النملة تبسم ضاحكا من قولها، وقال بكل أدب وتواضع: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: 19]

لهذا، فإن الصادقين من أولياء الله من أصحاب النفوس

المطمئنة يستحيل عليهم الكبرياء.. فالله تعالى لن يختار وليا متكبرا.. فأول شروط الولاية الفناء عن النفس والامتلاء بالتواضع والعبودية.

بل إن ذلك ليس خاصا بالواصلين فقط، وإنما هو عام للمريدين أيضا، فلا يمكن للمريد أن يتحقق بالإرادة الصادقة ما لم يمتلئ بالتواضع، كما عبر بعضهم عن ذلك، فقال: (لا تصلح هذه الطريق الا لأقوام كنسوا بأرواحهم المزابل)

ذلك أن المريد الصادق هو الذي يذعن لمرشده ومربيه، ولا يجادله ولا يماريه، ولا يكون كذلك الذي قال الله تعالى عنه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ الله أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: 206]

وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل: (كل بيمينك)، فلم يعجبه ذلك التوجيه، وقال متهربا: (لا أستطيع)، فقال النبيّ ﷺ: (لا استطعت)، فاعتلت يده، وما رفعها بعد ذلك[1]، لأنه استكبر عن توجيه نبي.

ولذلك اتفق مشايخ التربية على أن من جادل شيخه في تربيته له، لن يفلح أبدا، لأن التربية تستدعي الإذعان والتسليم والتنفيذ.. وهي مثل الجندية، فالجندي الذي يجادل القائد في أرض المعركة سيكون سببا في الهزيمة.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما ألقيه لك من الأدوية والعلاجات التي ذكرها أولياء الله والهداة إليه، فخذها بقوة، وإياك ان تتكاسل في العمل بها، فالكبر يبدأ صغيرا، ثم يكبر، فإن كبر لم يمكنك استئصاله، وإن أخرجته من نفسك، وهو صغير، وتمكنت منك العبودية وأخلاق المتواضعين، دخلت بقدمك في أول مراتب الفائزين.. فأول الفوز التخلص

---

(1) مسلم ج 6 ص 109.

من الكبر.. حتى لو كان مثقال ذرة، فقد قال رسول الله ﷺ: (لا يدخل الجنة رجل في قلبه مثقال ذرة من كـبر، ولا يـدخل النـار رجل في قلبه مثقال ذرة من إيمان)(1)

وفي جمـع رسـول اللـه ﷺ بينهمـا دليـل على أن الإيمـان يتنـافى مـع الكـبر، فـأول صـفات المـؤمن الصـادق في إيمانـه عبوديته لله، وأول ثمار العبودية التواضع.

العلاج المعرفي:

أول علاج تـداوي بـه الكـبر، وتستأصـله بـه ــ أيهـا المريـد الصادق ـ إزاحة الحجب عن عين القلب ليرى الحقائق كما هي، لا كما يشتهي.. فيعرف نفسه، وضعفها، ويعـرف ربـه وعظمتـه، وحينها يبـدأ في وضـع كـل شـيء في مرتبتـه الـتي وضـعه اللـه فيها.. ليتعامل معه على أساس تلك المعرفة.

ذلك أن الكبر ـ كما عرفت ـ ناشـئ من الجهـل بـالمراتب، وكيفية التعامل معها.. فلو أن إبليس عرف قدر ربـه، وعظمتـه، حق المعرفة، لما اسـتكبر عليـه.. ولـو أنـه عـرف أنـه مـا ابتلاه بالسجود لآدم إلا لكون آدم يستحق ذلك السـجود، وأن اللـه مـا أمر بذلك إلا لحكمة يعلمها، لما أنف من السجود له، ولما أذعن لحديث نفسه الذي حال بينه وبين الاستماع لربه.

ولهذا ورد في الحديث القدسـي، قولـه ﷺ حاكيـا عن ربـه: (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته)(2)

فهـذا الحـديث يصـف لنـا كيفيـة التخلص من الكـبر، وهـو تعظيم الله والشعور بأنه الأكبر والأعظم، وأن ما عـداه الأصـغر

1() أبو داود (4091)، والترمذي (1998)، والطبراني (10001)

2() الحاكم ج 1 ص 61.

والأحقر.. فإذا ما شعر العبد بذلك زال كبرياؤه، وعاد إلى وضعه الطبيعي.

ولهذا قرن الله تعالى العبادات بتكبير اللـه، وجعـل التكبـير من صيغ الذكر، التي لها دورها الكبير في الشعور بعظمة اللـه.. فإذا ما حلت عظمة الله في القلب، زال عن المكبر وهم الكبر.

ولهـذا وصـف اللـه تعـالى عبـاده الصـالحين، فقـال: ﴿ إِن الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْـدُ رَبِّنَـا لَمَفْعُـولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُـونَ وَيَزِيـدُهُمْ خُشُـوعًا ﴾ [الإسـراء: 107 - 109]، ثم دعا إلى اقتفاء سـبيلهم، وبين كيفيتـه، فقـال: ﴿وَقُـلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْـكِ وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ وَلِيٌّ مِنَ الـذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِـيرًا﴾ [الإسـراء: 111]، فهـذه الأذكار، وما يصحبها من تكبير الله وتعظيمه هو السـبيل الوحيـد الذي يعيد الأمور إلى نصابها الصحيح.

لكن ذلك وحده لا يكفي ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ في نـزع في داء الكبر من القلب، ذلك أن الله تعالى ابتلى عبــاده ببعض الاختيـارات الـتي قـد لا تتناسـب مـع أهـوائهم؛ فلـذلك صـاروا مخيرين بين أن يعبـدو أنفسـهم وأهواءهـا، وبين أن يعبـدوا اللـه وما اختاره لهم.

ذلــك أن أكــثر العبــاد قــد لا يجــادل في تواضــعه لربــه، وخضوعه له، لكنـه يجـادل في تواضـعه وخضـوعه لاختيـار ربـه، مثلمــا حصــل من إبليس، ومن أقــوام الأنبيــاء الــذي رفضــوا الانصياع لهم.

ولذلك رد الله تعالى على المشركين الذين رفضـوا اختيـار الله بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَـا يَشَـاءُ وَيَخْتَـارُ مَـا كَـانَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ

سُبْحَانَ الله وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [القصص: 68]، فقد اعتبر اعتقادهم بأن لهم الخيرة مع اختيار الله نوعا من الشرك، وهو شرك النفس بالله.

ولا تحسبن هذا ـ أيها المريد الصادق ـ خاصا بأقوام الأنبياء، بل إن الله تعالى يبتلي كل عصر بما يظهر تواضعهم أو كبرهم، حتى يتميز الصادقون في عبوديتهم من غيرهم، ولذلك اقتضت العبودية التواضع لجميع المؤمنين خشية أن يكون فيهم أولئك المختارون، كما قال بعض الصالحين: (إن الله أخفى أولياءه في عباده، فلا تدري من ولي الله ممن تلقاه ممن حولك.

بل إن الله تعالى جعل في شعائره التعبدية ما يميز به بين الصادقين وغيرهم، وقد أشار الإمام علي إلى ذلك عند ذكره للمكان الذي شاء الله أن يحج عباده إليه، فقال: (أ لا ترون أن الله سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم (صلوات الله عليه) إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضرّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام، الّذي جعله للناس قياما. ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا، وأقلّ نتائق الدّنيا مدرا، وأضيق بطون الأودية قطرا، بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خفّ، ولا حافر ولا ظلف. ثمّ أمر آدم عليه السّلام وولده، أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوي إليه ثمار الأفئدة، من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتّى يهزّوا مناكبهم ذللا، يهلّلون للّه حوله، ويرملون على أقدامهم شعثا غبرا له. قد نبذوا السّرابيل وراء ظهورهم، وشوّهوا بإعفاء الشّعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيما، وامتحانا شديدا، واختبارا مبينا، وتمحيصا بليغا، جعله الله سببا لرحمته، ووصلة إلى جنته) (1)

(1) نهج البلاغة: خطبة 192.

ثم بين أن الاختبار الإلهي لتواضع عباده هو الذي اقتضى ذلك، ذلك أن الله تعالى يمكنه (لو أراد أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام، بين جنات وأنهار، وسهل وقرار، جمّ الأشجار، داني الثّمار، ملتفّ البنى، متّصل القرى، بين برّة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة، ورياض ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء، على حسب ضعف البلاء. ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمرّدة خضراء، وياقوته حمراء، ونور وضياء، لخفّف ذلك مصارعة الشّكّ في الصّدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الرّيب من الناس. ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشّدائد، ويتعبّدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجا للتّكبّر من قلوبهم، وإسكانا للتّذلّل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبوابا فتحا إلى فضله، وأسبابا ذللا لعفوه)

وهكذا ذكر سر اختبار الله تعالى للأنبياء بذلك المظهر المتواضع الذي كانوا يبدون به، والذي جعل غيرهم يحتقرهم لأجله، لتوهمهم أن النبي لا يكون نبيا حتى يكون بنفس الصورة التي تتخيلها أمزجتهم.

وقد ضرب المثل على ذلك بموسى عليه السلام، فقال: (و لقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السّلام على فرعون، وعليهما مدارع الصّوف، وبأيديهما العصيّ، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه، ودوام عزّه، فقال: أ لا تعجبون من هذين، يشرطان لي دوام العزّ وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذّلّ، فهلّا ألقي عليهما أساورة من ذهب؟ إعظاما للذّهب وجمعه، واحتقارا للصّوف ولبسه، ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذّهبان، ومعادن العقيان، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السّماء،

ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطـل الجـزاء، واضــمحلّت الأنبــاء، ولمــا وجب للقــابلين أجــور المبتلين، ولا استحقّ المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزمت الأسماء معانيهــا، ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوّة في عـزائمهم، وضـعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مـع قناعـة تملأ القلـوب والعيـون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى)

ثم فسر سر كون الأنبيـاء من البسـطاء والنـاس العـاديين؛ فقال: (و لـو كـانت الأنبيـاء أهـل قـوّة لا تـرام، وعـزّة لا تضـام، وملك تمدّ نحوه أعناق الرّجال، وتشدّ إليـه عقـد الرّحـال، لكـان ذلك أهون على الخلـق في الاعتبـار، وأبعـد لهم في الاسـتكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكـانت النيّـات مشتركة، والحسنات مقتسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكـون الاتّباع لرسله، والتّصديق بكتبـه، والخشـوع لوجهـه، والاسـتكانة لأمـره، والاستسـلام لطاعتـه، أمـورا لـه خاصّـة، لا تشـوبها من غيرها شائبة، وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبـة والجزاء أجزل)

ولهذا كان اختبار الله تعالى للمستكبرين من أقوام الأنبيــاء بأولئك البسطاء الذين اتبعـوهم، كمـا قـال تعـالى: ﴿فَقَـالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَـرَى لَكُمْ عَلَيْنَـا مِنْ فَضْـلٍ بَـلْ نَظُنُكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: 27]

وأخبر عن جـواب نـوح عليـه السـلام عنـدما طالبـه قومـه بطــرد المستضـعفين لينضـموا إلى دعوتـه، فقـال: ﴿يَـاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْـرِيَ إِلَّا عَلَى اللـه وَمَـا أَنَـا بِطَـارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِني أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَـاقَوْمِ مَنْ يَنْصُـرُنِي مِنَ اللــه إِنْ طَـرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَـذَكَّرُونَ ﴾ [هـود: 29،

[30

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاستشعر في نفسك أن كل من تـراه من المستضـعفين والبسـطاء الـذين يحتقـرهم الناس قد يكونون من هـؤلاء الـذين تحـدثت عليهم هـذه الآيـات الكريمة، فاحذر أن يكون موقفك نفس موقفهم، فتهلــك الهلاك الأبدي.

العلاج السلوكي:

وأما العلاج الثاني، وهو نتيجـة العلاج الأول، فيبـدأ بمراعـاة تلك الشعائر التعبدية التي كلفنا الله تعـالى بهـا ليربينـا، ويهـذب نفوسنا، فقم بها صادقا معها، وراع المقاصد الـتي قصـدت بهـا، حتى تتحقق فيك كل المعاني التي أريدت لأجلها.

وقد ذكـر الإمـام علي بعض تلـك المقاصـد المودعـة فيهـا، وأن من بينهـا إخـراج الكـبر من النفس، وتميـيز المتكـبرين عن غــيرهم، فقــال: (عن ذلــك مــا حــرس اللــه عبــاده المؤمــنين بالصّلوات والزّكوات، ومجاهدة الصّيام في الأيّـام المفروضـات، تســكينا لأطــرافهم، وتخشــيعا لأبصــارهم، وتــذليلا لنفوســهم، وتخفيضا لقلوبهم، وإذهابا للخيلاء عنهم، ولما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتّراب تواضعا، والتصاق كرائم الجـوارح بـالأرض تصاغرا، ولحوق البطون بالمتون من الصّـيام تـذلّلا، مـع مـا في الزّكاة من صرف ثمرات الأرض وغـير ذلـك إلى أهـل المسـكنة والفقر. انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قمع نـواجم الفخـر، وقدع طوالع الكبر) (1)

إن هذه الكلمات ـ أيها المريد الصادق ــ تـدلك على العلاج السلوكي للكبر، وهو مقاومته بمـا هـو ضـده.. فـإذا كـان الكـبر

1() نهج البلاغة: خطبة 192.

يدعوك إلى تصعير خدك، فألنه.. وإن كـان يـدعوك إلى المشـي مختالا، فامش هونا.. وإن كان يدعوك إلى رفع صوتك فخفضه.. وإن كان يدعوك إلى هجر الناس، فتقـرب منهم.. وهكـذا تقـاوم الداء بما يضاده، إلى أن تتخلص منه.

نعم.. قد يشق عليك ذلـك في البـدء.. لكنـك عنـدما تـدمن عليه، وعندما يرى الله فيـك صـدق العبوديـة، يخلصـك من هـذا المثلب الخطير الذي علق الله به كل أنواع الخسارة.

وقد روي في الأخبار أن بعضهم كـان وزيـراً وعالمـاً وأبـوه كان أميراً؛ ثم بدا لـه أن يسـير في طريـق السـائرين إلى اللـه، فذهب إلى بعض المشايخ، فرأى فيه بعض آثار الكبر، فقال لـه: لا يمكنـك أن تنـال شـيئاً في هـذا الطريـق حـتى تـبيع متاعـك، وتلبس قشابة، وتأخذ دفا، وتـدخل السـوق، ففعـل جميـع ذلـك، فقال له: ما تقول في السوق؟ فقـال قـل بـدأت بـذكر الحـبيب فدخل السوق يضرب بنديره ويقول بـدأت بـذكر الحـبيب؛ فبقي ثلاثة أيام، وخرقت له الحجب، فجعل يغني في الأسـواق بعلـوم الأذواق[1].

وقـريب منـه مـا روي أن رجلاً كـان لا ينقطـع عن مجلس بعض المشايخ، فقال له ذات يوم: يا أستاذ أنـا منـذ ثلاثين سـنة أصوم الدهر وأقوم الليل وقد تركت الشهوات ولسـت أجـد في قلبي من هذا الذي تذكره شيئاً البتة، فقال له الشيخ: لو صـمت ثلاثمئة سنة وقمت ثلاثمئة سـنة وأنت على مـا أراك لا تجـد من هذا العلم ذرة، قال: ولم يا أستاذ، قال: لأنـك محجـوب بنفسـك فقـال لـه: أفلهـذا دواء حـتى ينكشـف هـذا الحجـاب، قـال: نعم ولكنك لم تقبل، قال: بلى أقبلُ وأعمل مـا تقـول، قـال الشـيخ: اذهب السـاعة إلى الحجـام واحلـق رأسـك وانـزع عنـك هـذا

[1] إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص: 20)

اللبـاس، وابـرز بعبـاءة وعلـق في عنقـك مخلاة واملأهـا جـوزاً واجمع حولك صبياناً وقل بأعلى صوتك: يا صـبيان من يصـفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل إلى سوقك الذى تعظم فيـه فقـال الرجل: سبحان الله تقول لي مثـل هـذا ويحسـن أن أفعـل هـذا فقال الشيخ: قولك سبحان الله شرك قـال: وكيـف قـال: لأنـك عظمت نفسك فسبحتها فقال: هـذا ليس أقـدر عليـه ولا أفعلـه ولكن دلني على غيره حتى أفعله فقال الشيخ: ابتـدر هـذا قبـل كل شيء حتى تسقط جاهك وتذل نفسك ثم بعـد ذلـك أعرفـك ما يصلح لك[1].

أنا لا أقول لك ـ أيها المريد الصادق ـ افعـل مـا طلبـه هـذا الشيخ، فهو ليس نبيا، ولا ما طلبه شريعة من شرائع اللـه الـتي يجب التزامها، ولكني أقـول لـك: افعـل أي شـيء تـراه مناسـبا حتى تحطم ذلك الجدار المسموم الذي يحـول بينـك وبين ربـك، وقد ينهد عليك في أي لحظة، فيقتلك.

وقـد ورد في الحـديث بعض مـا ييسـر لـك ذلـك، ومنـه أن تشتغل في شؤون بيتك وغيره، كسائر الناس، فقد كـان رسـول الله ﷺ يفعل هذا، وفي الحديث أن عائشة وصفت ما كان يفعله ﷺ في بيته، فقالت: (كان بشرا من البشـر، يفلي ثوبـه، ويحلب شاته ويخيط ثوبه، ويخدم نفسه، ويخصف نعله، ويعمل ما تعمل الرجال في بيوتهم، ويكون في مهنـة أهلـه، فـإذا سـمع المـؤذن خرج إلى الصلاة) [2]

وعنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يعمـل عمـل أهـل الـبيت وأكثر ما يعمل للخياطة)[3]

1() إحياء علوم الدين (4/ 358)

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه ابن سعد.

ومن ميسـرات ذلـك أن تلبس لبـاس المتواضـعين، والـتي يربأ المتكبرون عنها، ولذلك قـال رسـول اللـه ﷺ: (البـذاذة من الإيمان)(1)، والبذاذة هي الدون من اللّباس.

وفي حديث آخر قـال رسـول اللـه ﷺ: (من تـرك زينـة للَّه ووضع ثيابا حسنة تواضعا للَّه وابتغاء وجهـه كـان حقّـا على اللـه أن يدّخر له عبقريّ الجنة)(2)

وقـد روي أن الإمـام عليّ رؤي وهـو يلبس إزارا مرقوعـا، فقال: (يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب)(3)

وإياك يا بني أن تظن أنك إن فعلت ذلـك نـزعت داء الكـبر من قلبـك؛ فهـو أخطـر من أن يـنزع بمثـل هـذا وحـده، بـل قـد يستعمل الشيطان ذلك، وسيلة للخـداع والـتزيين، وقـد ورد في الأثر عن المسيح عليـه السّـلام قولـه: (مـا لكم تـأتوني وعليكم ثياب الرّهبان وقلـوبكم قلـوب الـذّئاب الضـواري، البسـوا ثيـاب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية)

ولهـذا، فـإن الاهتمـام بالثيـاب الحسـنة، إن لم يصـحبها التبـاهي والفخـر والخيلاء، ليسـت من الكـبر، فقـد روي في الحديث أنه عندما قال رسول الله ﷺ: (لا يـدخل النـار من كـان في قلبه مثقـال حبـة من إيمـان، ولا يـدخل الجنـة من كـان في قلبه مثقال حبة من كبر)، قال له بعض أصحابه: يا رسـول اللـه إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلا، ورأسي دهينا وشـراك نعلي جديدا، أفمن الكبر ذاك يا رسـول اللـه؟ فقـال رسـول اللـه ﷺ: (لا.. ذاك الجمال إن الله جميـل يحب الجمـال، ولكن الكـبر من

(1) أبو داود وابن ماجه رقم 4118، ورواه أحمد والحاكم في المستدرك.

(2) أبو سعيد المالينى في مسند الصوفية، وأبو نعيم في الحلية.

(3) نهج البلاغة، رقم 103.

سفه الحق وازدرى الناس) (1)

وروي عن الإمام الصادق أنه قيل لـه: (إنـني آكـل الطعـام الطيّب وأشمّ الرّيح الطيّبـة وأركب الدّابّـة الفارهـة.. فـترى في هذا شيئا من التجبّر فلا أفعله؟) فأطرق، ثمّ قـال: (إنمـا الجبّـار الملعـون من غمص النـاس وجهـل الحـقّ)، فقـال السـائل: أمّـا الحقّ فلا أجهله، والغمص لا أدري ما هو؟ قال: (من حقّر الناس وتجبّر عليهم فذلك الجبّار)(2)

وقد ورد في حديث آخر عن بعض أصحاب رسـول اللـه ﷺ ما يوضح ذلـك أعظم توضـيح؛ فقـد روي أنـه سـئل عمـا أحـدث النـاس بعـد رسـول اللـه ﷺ من الملبس والمشـرب والمـركب والمطعم؛ فقال للسـائل: (يـا ابن أخي كـل للّه، واشـرب اللـه، والبس للّه وكلّ شيء من ذلك دخله زهـو أو مباهـاة أو ريـاء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة ما كـان رسول الله ﷺ يعالج في بيته كان يعلف الناضح، ويعقـل البعـير، ويقم البيت، ويحلب الشاة ويخصف النعل، ويرقّع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا أعيـا، ويشـتري الشـيء من السـوق ولا يمنعه الحياء أن يعلّقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه فينقلب إلى أهله، يصافح الغنيّ والفقير والصغير والكبير، ويسلّم مبتـدئا على كلّ من استقبله من صغير أو كبير، أسود أو أحمـر، حـرّ أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلّة لمدخلـه وحلّـة لمخرجـه، لا يستحي من أن يجيب إذا دعي وإن كان أشعث أغـبر، ولا يحقـر ما دعي إليه وإن لم يجد إلّا حشف الدّقل، لا يرفع غـداء لعشـاء ولا عشاء لغداء، هيّن المئونة لين الخلق كـريم الطبيعـة، جميـل المعاشرة طليق الوجه، بسّاما من غير ضـحك محزونـا من غـير

1() أحمد: 1/ 399، المعجم الكبير: 10/ 221.

2() الكافي ج 2 ص 311 رقم 13.

عبوس، شديدا في غير عنف، متواضعا في غير مذلّة، جوادا من غير سرف، رحيما بكلّ ذي قربى، قريبا من كلّ ذمّي ومسلم، رقيق القلب، دائم الإطراق، لم يبشم قطّ من شبع، ولا يمدّ يده إلى طمع)[1]

وقد روي أن السائل ذهب إلى عائشة، يسألها عن ذلك، فقالت: (ما أخطأ منه حرفا ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله ﷺ لم يمتلئ قطّ شبعا، ولم يبثّ إلى أحد شكوى، وأن الفاقة كانت أحبّ إليه من اليسار والغنى، وأنه كان يظلّ جائعا يلتوي ليلته حتّى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه، ولو شاء أن يسأل ربّه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارقها ومغاربها لفعل، وربّما بكيت رحمة له ممّا أوتي من الجوع، فأقول: نفسي لك الفداء لو تبلّغت من الدّنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: يا عائشة إخواني من أولى العزم من الرّسل قد صبروا على ما هو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم، وقدموا على ربّهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني أستحي إن ترفّهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم، فأصبر أيّاما يسيرة أحبّ إليّ من أن ينقص حظّي غدا في الآخرة، وما من شيء أحبّ إليّ من اللّحوق بإخواني وأخلاّئي)[2]

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ بعض الأعمال التي يمكنك لو عملت بها، وداومت عليها أن تعالج الكبر الذي قد يتطرق إلى نفسك، ليدمرها، ويملأها بالخراب.

ولكن ذلك ــ كما ذكرت لك ــ لا يكفي.. فداء الكبر داء خفي، ولا يمكن علاجه بذلك وحده، وإنما يعالج بالتفكر والتأمل

[1] () قال قال العراقي: لم أقف له على اسناد، قال محقق [المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 250]: يوجد بعض فصوله في الاخبار متفرقا عن غير أبي سلمة، ومنها سنن ابن ماجه كتاب الزهد، ومجمع الزوائد ج 10 ص 312، وغيرها.

[2] () تتمة الحديث السابق.

وتحقيق العبودية.. أما تلك السلوكات التي ذكرت لك، فلها دورها الكبير في الحماية من آثار الكبر، أو تطوره.. ولعل الله تعالى إن رأى عزمك على إصلاح ما بدا لك من الكبر أن يصلح عنك ما عجزت عما خفي منه.

فلذلك لا تحتقر تلك الأعمال، ولا تكتف بها.. بل اجمع بينها وبين ما ذكرته لك في العلاج المعرفي؛ فهما كاليدان تغسل إحداهما الأخرى.. ولهذا قال الله تعالى في الجمع بينهما: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: 13]

فالإيمان يتحقق بالعلاج المعرفي، والاستقامة تتحقق بالعلاج السلوكي، ومن جمع بينهما نال ذلك الجزاء الذي ذكره الله تعالى.. وذكر في آية أخرى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: 30]

فتنزل الملائكة على هؤلاء ليس بشارة فقط، وإنما له دوره الكبير في التحقق بالطهارة والصفاء والتزكية..

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ إجابتي على سؤالك، فأرجو أن تهتم بهذا المثلب من مثالب النفس الأمارة، وتحذر منه أشد الحذر، وإياك أن تطمئن إلى نفسك بما تعرفه منها؛ فهي نفس مخادعة أمارة مكارة.. فعالج الداء قبل استفحاله أو ظهوره.. فلا يمكنك أن تسير في طريق الله، أو يأذن لك في الدخول إلى حضرته، وفي قلبك ذرة منه.

اتباع الشيطان

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الشيطان ومنافذه إلى نفس الإنسان، وكيف يستطيع فعل ذلك؟.. ولماذا مُكّن من ذلك؟.. وهل يمكن للإنسان أن يفلت منه ما دام في الدنيا، أم أن عليه أن يبقى حذرا منه ما دام فيها؟

وغيرها من الأسئلة التي قد لا أجيبك عنها جميعا الآن.. فأنت في هذه المرحلة تحتاج إلى تهذيب النفس وتعريفها بمثالبها، وكيفية النجاة منها، وبعض أسئلتك يدخل في أبواب المعرفة بحقائق الوجود، وسأشرحها لك في محالها المناسبة لها.. وربما تصل إليها من غير أن تحتاج لشرحها مني؛ فمن تطهرت نفسه، وأخلص إلى ربه، لُقن من معاني الحكمة ما قد يغنيه عن الأستاذ، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282]

ولهذا، فإن ما يهمك في هذه المرحلة بالدرجة الأولى هو تنفيذ أمر الله تعالى لك ولنا جميعا بعدم اتباع خطوات الشيطان، والذي ورد التصريح به في مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: 21]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: 208]

فهذه الآيات الكريمة تنبهنا إلى أن استعاذتنا من الشيطان بألسنتنا وحدها لا تكفي، ما لم يصحبها ذلك الحذر، وتلك الحيطة التي تجعلنا نبحث عن المحال التي يسير فيها الشيطان، لا لنتبعها، وإنما لنجتنبها، ونحذر منها.

فالشيطان لا يهمه أن يبغضه الإنسان، ولا أن يستعيذ منه، وإنما يهمه أن يغويه ويضله.. لأنه إن فعل ذلك، فسيصبح من حزبه شاء أو أبى، كما قال الله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ الله أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِن حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: 19]

وحتى لا أطيل عليك ـ أيها المريد الصادق ـ أو أشغلك بما لست في حاجة إليه في هذه المرحلة؛ فإني سأكتفي في هذه الرسالة بذكر أربع خطوات شيطانية كبرى ورد التحذير منها في القرآن الكريم، وهي تكفيك في التعرف على كيفية تأثيره، وفي توفير القدرة لنفسك على النفور منه، وتحقيق الاستعاذة العملية من كيده.

التزيين والتسويل:

وأول تلك الخطوات ـ أيها المريد الصادق ـ تزيين السيئات والفواحش بوضع بعض المساحيق عليها، حتى تصبح جميلة مألوفة مع أن باطنها مملوء بالخبث والقذارة، وفي مقابل ذلك تشويه الأعمال الحسنة، بحيث تبدو قبيحة منفرة.

وقد ضرب الله تعالى مثالا لذلك بتزيين الشيطان للكبرياء التي منعت أقوام الأنبياء من التضرع إلى الله واللجوء إليه بعد تلك العقوبات التي تعرضوا لها، والتي كان الهدف منها ردعهم وتأديبهم وإعادتهم إلى ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 42، 43]

وهذا يشبه كثيرا ذلك التلميذ الكسول الذي قد يتعرض لبعض أنواع التأديب من أستاذه، وبدل أن يكون ذلك وسيلة

لإصـلاحه، يصـبح وسـيلة لتبجحـه وكبريائـه وتظـاهره بأنـه لن يستسلم للتأديب.

وهكذا يذكر القـرآن الكـريم تـزيين الشـيطان لعـاد وثمـود أعمالهم، حتى صاروا يعشقونها، ويتشبثون بها إلى الدرجة الـتي آثروها على أنبيائهم، كما قال تعالى: وَعَـادًا وَثَمُـودَ وَقَـدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَـاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ فَصَـدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ [العنكبوت: 38]

وهكـذا يـذكر القـرآن الكـريم تـزيين الشـيطان لأهـل سـبأ عبادة الشمس مع كونهـا مجـرد خلـق من خلـق اللـه، وآيـة من آياته، قال تعالى على لسان الهدهد: وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْـجُدُونَ لِلشَّـمْسِ مِنْ دُونِ اللـه وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ فَصَـدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ [النمل: 24]

وفي ذكر الله تعالى ذلك على لسان الهدهد دليل على أنـه ليست الطباع السليمة فقط من ينفر ممـا فعلـه أهـل سـبأ من عبادة الشمس، بل حتى الحيوانات تنفر منها.

وهذه الآيات جميعا تشير إلى أن الشيطان ـ بأداة التزيين ـ يشـغل عقـل الإنسـان عن البحث في حقـائق الأشـياء، ليكتفي منها بذلك الظاهر البسيط الـذي يلمحـه وينجـذب إليـه من غـير تفكير في مصادره، ولا عواقبه.

ولذلك لو تأملت ـ أيها المريد الصادق ــ أكـثر مـا تـراه من أنـواع الإغـواء الشـيطاني تجـد سـببه مرتبطـا بـذلك الـتزيين الشيطاني؛ فهو يقوم بدور السحر للعقول، حـتى يتحـول الحـق عندها باطلا، والباطل حقا.

وقريب منه [تسويل الباطل]، والذي ورد في قوله تعـالى: إِن الَّذِينَ ارْتَـدُّوا عَلَى أَدْبَـارِهِمْ مِنْ بَعْـدِ مَـا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُـدَى

الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ [محمد: 25]

والمـراد منـه ذلـك التيسـير والتسـهيل الـذي يقـوم بـه الشيطان حول المعصية(1)، واعتبارها أمرا هينا، وذلك باستعمال المسوغات المختلفة، بحسب الذين يريد أن يغويهم.

وقـد أشـار رسـول اللـه ﷺ إلى بعض ذلـك، فقـال: (إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد لـه بطريـق الإسـلام فقـال له: أ تسلم وتترك دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد لــه بطريق الهجرة فقال: أ تهـاجر وتـدع أرضـك ونسـاءك؟ فعصـاه فهـاجر، ثم قعـد لـه بطريـق الجهـاد فقـال: أ تجاهـد وهـو تلـف النفس والمـال فتقاتـل فتقتـل فتنكح نسـاؤك ويقسـم مالـك؟ فعصاه فجاهـد، فمن فعـل ذلـك فمـات كـان حقـا على اللـه أن يدخله الجنة)(2)

إنساء الذكر:

ومن الخطوات التي يستعملها الشيطان لإغواء الإنسان ما عبر عنه قوله تعالى: اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّـيْطَانُ فَأَنْسَـاهُمْ ذِكْـرَ الله أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِن حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ [المجادلة: 19]

ذلك أنه يعلم أن ذكر الله تعالى هـو الـذي يحمي اللطـائف

1() الكثير من المفسرين يفسرون التسـويل بـالتزيين، لكن الـراجح هـو أن التسـويل والتزيين وإن كان مؤداهما واحد، إلا أن لكل منهما دلالته الخاصة، كما أشار إلى ذلـك أبـو السعود بقوله: (أي سهّل لهم ركوب العظائم، من السَّوَل، وهو الاسترخاء، وقيل السُّـول المخفف من السؤل لاستمرار القلب، فمعنى سوَّل له أمراً حينئذٍ: أوقعـه في أمنيّته فـإن السؤل الأمنية) [إرشاد العقـل السـليم لأبي السـعود ج 7، ص 99]، وقـال ابن عاشـور: (والتسـويل: التسـهيل وتـزيين النفس مـا تحـرص على حصـوله)[التحريـر والتنـوير، لابن عاشور، م6، ج 12، ص 238]

2() النسائي ج 6 ص 22 وأحمد والطبراني وابن حبان والبيهقي في الشعب كمـا في الدر المنثور ج 3 ص 73.

الإنسـانية من كـل مـا يؤذيهـا أو يشـوهها أو ينتكس بإنسـانيتها، وبذلك كان هو الحصن الحصين للحقيقـة الإنسـانية؛ ولهـذا كـان هم الشيطان الأكبر هو اختراق ذلك الحصـن، بـأي طريقـة، وأي شاغل، كما قال الله تعـالى: ﴿قَـالَ فَبِمَـا أَغْـوَيْتَنِي لَأَقْعُـدَن لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـــانِهِمْ وَعَنْ شَـــمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِـــدُ أَكْثَـــرَهُمْ شَـــاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16، 17]

فـالفرق بين الـتزيين والتسـويل والإنسـاء هـو أن الأولَين مـرتبطين بالمعصـية نفسـها بتجميلهـا وتسـهيلها.. أمـا الإنسـاء فليس مرتبطا بها، وإنما يرتبط بكل ما يشغل الإنسان عن ذكــر الله حتى لو كان مباحـا، لأنـه بعـد الغفلـة يحصـل الاخـتراق، ثم الاستحواذ.

وقــد ورد في القــرآن الكــريم ذكــر محــل آخــر لإنســاء الشيطان، وهو مرتبط بأحكام الشريعة، كما قال تعـالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُـوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنكَ الشَّـيْطَانُ فَلَا تَقْعُـدْ بَعْـدَ الـذِّكْرَى مَـعَ الْقَــوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعـام: 68]، فالآيــة تقــول: (وإن أنســاك الشيطان نَهْيَنـا إيـاك عن الجلـوس معهم، والإعـراض عنهم في حال خوضهم في آياتنا، ثم ذكرت ذلك، فقم عنهم، ولا تقعد بعد ذكرك ذلك مع القوم الظالمين الذين خاضوا في غير الــذي لهم الخوض فيه)

وورد فيــه محــل آخــر لإنســاء الشــيطان، وهــو مرتبــط بالواجبـات الشـرعية المؤقتـة بمـواقيت محـددة، حيث يشـغل الشيطان عنها بأي شاغل حتى يفـوت وقتهـا، وقـد ضـرب اللـه تعالى المثل لـه بمـا ورد في قصـة موسـى مـع الخضـر عليهمـا السلام، ونسيان فتاه للآية الـتي جعلهـا اللـه تعـالى علامـة على

الالتقاء بالخضر، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: 62، 63]

وقد قال بعض المفسرين في تفسيرها: (مع كون المنسي أعجوبة شأنها ألا تُنسى، يتعيَّن أن الشيطان ألهاه بأشياء عن أن يتذكر ذلك الحادث العجيب، وعلِم يوشع أن الشيطان يسوؤه الْتقاءُ هذين العبدين الصالحين، وما له من الأثر في بثِّ العلوم الصالحة، فهو يصرف عنها، ولو بتأخر وقوعها طمعاً في حدوث العوائق) [1]

وورد فيه محل آخر لإنساء الشيطان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَ أَنهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42]، وهو يدل على أن الشيطان يسعى إلى الإضرار بأولياء الله، من خلال اختراق أولئك الذين تربطهم بهم أي علاقة كما فعل مع صاحب يوسف عليه السلام في السجن[2]، الذي نسي أن يؤدي الرسالة البسيطة التي طلبت منه.

الإملاء والتمنية:

ومن الخطوات التي يستعملها الشيطان لإغواء الإنسان تلك الأماني الكاذبة، والآمال الطويلة اللذيذة التي يملأ بها عقولهم وقلوبهم، من غير أن يكون لها أي حقيقة، كما عبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِن الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 25]،

1() - التحرير والتنوير، لابن عاشور، م 7، ج 15، ص 367.

2() اختلف المفسرون في عود الضمير في كلمة (فأنساه) هل هو إلى يوسف عليه السلام، باعتبار أنه لم يعلق خروجه من السجن على مشيئة الله أو إلى الصاحب الناجي، وقد اخترنا الثاني، لدلالة المقام عليه، ولتناسبه مع عصمة الأنبياء عليهم السلام.

فالآية الكريمة تشير إلى دور الشيطان في جعلهم يتولون عن الزحف، وذلك باستخدام أمرين:

أولهما: تيسير التولي، والتهوين منه وإخراجه من كونه معصية.

والثاني: الإملاء، أي مَدّهم بالأماني والآمال التي تحسن ذلك العمل في عيونهم، بدل أن ينفروا منه، ولذلك ذكر الله تعالى بعدها عاقبة ذلك العمل، ونتيجة ذلك الأمل الذي أمدهم به الشيطان، فقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ الله وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 27، 28]

وقد ورد في الآثار ما يدل على أن الشيطان لا يمل من استعمال هذه الوسيلة إلى آخر لحظة من حياة الإنسان، طمعا في إضلاله، روي أن (إبليس لا يكون في حال أشدٌ منه على ابن آدم عند الموت، يقول لأعوانه: دونكموه، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه)[1]

التخويف والتحزين:

ومن الخطوات التي يستعملها الشيطان لإغواء الإنسان تخويفه من كل ما يراه مؤثرا فيه، ليشغله الخوف عن ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَالله يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 268]

ولذلك كان ذكر الله جالبا للطمأنينة والأمل والسعادة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله

[1] () الثبات عند الممات (ص: 57)

تَطْمَئِن الْقُلُـوبُ [الرعـد: 28]، بخلاف الغفلـة عنـه، والـتي لا تجلب إلا الهم والحزن والتشاؤم..

ذلك أن العبد في حال ذكره لله، يكون متواصـلا معـه ومـع فضله ووعده وكرمه؛ فإذا مـا غفـل عنـه تواصـل مـع الشـيطان ووعيده وتخويفه وتحزينه.

وقد ذكر الله تعلى مـدى اهتمـام الشـيطان بـالتخويف من الموت، قال تعـالى: إِنمَـا ذَلِكُمُ الشَّـيْطَانُ يُخَـوِّفُ أَوْلِيَـاءَهُ فَلَا تَخَـافُوهُمْ وَخَـافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ [آل عمـران: 175]، وقـد وردت في سياق الحديث عن الجهـاد في سـبيل اللـه، لتـبين أن الذين جبنوا عن خوض المعـارك، لم يكن جبنهم إلا بسـبب ذلـك التخويف الذي مارسـه الشـيطان معهم، بسـبب نسـيانهم لـذكر الله.

ولهذا، فإن مواجهة هذه الثغـرة الشـيطانية تكـون بـاليقين في الله وفضله، فالله هو الذي قدر الآجال والأرزاق، وقـدر كـل شيء، ولذلك يعيش المـؤمن بهـذه المعـاني في سـلام حقيقي، كما قال تعالى: الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (الأنعام:82)، والظلم المراد في الآيـة هو تلك الأوهام التي تحول بين الإيمان وأداء دوره النفسـي في إحلال الطمأنينة والسلام.

وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك الإيمان المختلط بالأوهـام الشـيطانية بالشـرك، الـذي هـو أخفى من دبيب النمـل، ولـذلك كلمـا اشـتد وعظم عظمت المخـاوف، وكلمـا نقص أو تلاشـى نقصت المخاوف أو تلاشت، فمعرفة اللـه والتوجـه إليـه هي بـر الأمان، وهي سفينة نوح التي من ركبها لم تغرقه الأمـواج، وهي ظل الله الذي يحتمي به من أحرقته شموس الرعب.

ولذلك أخبر الله تعالى أن الشرك هو مصدر الـرعب، وأنـه عقوبة إلهية تقتضيها طبيعة الكفر، فقال: ﴿ سَـنُلْقِي فِي قُلُـوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللـه مَـا لَمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ سُـلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمـران:151)، فقـد أخبر تعالى أن مصدر خوفهم هو شركهم بالله.

وفي مقابــل ذلــك ذكــر اللــه تعــالى مواقــف المؤمــنين الصــادقين الــذين ملأوا قلــوبهم باللــه، فــرزقهم الأمن التــام، والسكينة المطلقة، فهذا إبراهيم عليه السلام وحـده في الأرض يوحـد اللـه، ووحـده في الأرض يعبـد اللـه، وتـدعوه رأفتـه على الجاهلين باللـه، فيتحـدى قومـه، ويتحـدى الأرض معهم، فيحطم الأصـنام من غـير خـوف ولا وجـل، وهـو يـدرك المصـير الـذي يتعرض له من يحطم تلك الأوثان المقدسة.

ولكن إبراهيم عليه السلام انشغل باللـه، وبجـوار اللـه عن كل المخاوف التي يتذرع بهـا الخلـق، وعنـدما خوفـه قومـه من آلهتهم الـتي دعـا إلى نبـذها، قـال متعجبـا: ﴿ وَكَيْـفَ أَخَـافُ مَـا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللـه مَـا لَمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَـقُّ بِـالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ﴾ (الأنعـام: 81)

فإبراهيم عليه السـلام في ذلـك الموقـف كـان يقـارن بين القوة الوهمية الـتي يسـتند إليهـا قومـه، والقـوة الوهميـة الـتي كانوا يتصورون أنهم يملكونها، وبين قـوة اللـه تعـالى فـأخبر أن قومه أولى بالخوف منه.

وقد عقب الله تعالى على قول إبراهيم عليه السلام مقررا هذه الحقيقة المطلقة، ومقننا هذه السنة الإلهية التي لا تتخلف، فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:82)

وعلى خطى إبراهيم عليه السلام سـار أصـحاب محمـد ﷺ الـذين: ﴿ الَّذِينَ قَـالَ لَهُمُ النـاسُ إِن النـاسَ قَـدْ جَمَعُـوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْـبُنَا اللـه وَنِعْمَ الْوَكِيـلُ﴾ (آل عمران:173)

ولذلك فإن مصدر المخاوف التي تعـتري النفـوس فتملأهـا هما وحزنا، هـو حصـاد نبـات الغفلـة والشـرك، وهمـا مرتـع من مراتـع الشـيطان، قـال تعـالى: ﴿ إِنمَـا ذَلِكُمُ الشَّـيْطَانُ يُخَـوِّفُ أَوْلِيَـاءَهُ فَلا تَخَـافُوهُمْ وَخَـافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ﴾ (آل عمـران: 175)

وبخلاف هذا نجد الغافلين والجاحدين أكثر الناس مخـاوف، فهم يخـافون كـل شـيء، وقـد يـدركون مـا يخـافون، وقـد لا يدركون، كما عبر بعضهم عن نفسه بقولـه عن مخاوفـه الـتي لا تنتهي، والتي لا يعلم لها سببا:(إنـني أعيش في خـوف دائم، في رعب من الناس والأشياء، ورعب من نفسي، لا الثروة أعطتـني الطمأنينة، ولا المركز الممتاز أعطانيها ولا الصحة، ولا الرجولة، ولا المـرأة، ولا الحب، ولا السـهرات الحمـراء... ضـقت بكـل شيء، بعد أن جربت كل شيء)

فالمعرفة الصحيحة بالله والتي تتولد عنها جميع المعـارف، وتصحح بها جميع الفهوم، وتنشق عنها جميع المشاعر هي الـتي تقي المؤمن من الخوف الذي يستعبد الناس.

هذه ـ أيها المريـد الصـادق ـ بعض مسـالك الشـيطان إلى نفس الإنسان، فتعلم علمها، واحذر منهـا، ولا تيـأس من التفلت منها، فالشيطان مع كيده ومكـره وخداعـه أضـعف خلـق اللـه.. ومن عرف نقاط ضعفه، يمكنه أن ينتصر عليه بسهولة.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، وبينه أحسن بيان وأوجزه، فقـال:

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِالله إِنهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: 200]، وقال: ﴿ إِن الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]

فالآيتان الكريمتان تدلان على الأسلحة التي تقاوم بها كيــد الشــيطان، وهمــا شــيئان: الــذكر والمــذاكرة.. ذكــرك لربــك، ومذاكرتك للحقائق..

فإذا ذكرت ربك، وعرفت أنه سميع عليم، وأنه معـك، وأنـه يعيذ كل من التجأ إليه واحتمى به، ابتعـد عنـك الشـيطان، لأنـك صرت في جوار الله، ويستحيل على الشـيطان أن يقـترب ممن أجـاره اللـه.. ولـذلك روي أن بعض المشـايخ قـال لتلميـذه: مـا تصنع بالشيطان إذا سول لـك الخطايـا ؟ قـال: أجاهـده.. قـال: فإن عاد ؟ قال: أجاهده.. قال: فإن عاد ؟ قال: أجاهـده.. قـال: (هـذا يطـول، أرأيت لـو مـررت بغنم فنبحـك كلبهـا ومنعـك من العبور ما تصنع؟) قال: أكابده وأرده جهدي.. قـال: (هـذا يطـول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك)

وهكذا، فإن الاستغاثة بالله، والاستجارة به تكفيـك كـل مـا يخيفك ويحزنك ويؤلمك، كما فعل أيوب عليه السلام حين قـال: ﴿أني مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:41]، ومـا إن قـال ذلك حتى جاءه المدد الإلهي بقوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:42]

ولهذا علمنـا رسـول اللـه ﷺ الكثـير من الاسـتعاذات الـتي تجيرنا من الشيطان، وتجعلنا في مأمن من كيده ومكره.

وأمـا السـلاح الثـاني الـذي دلنـا عليـه ربنـا، فهـو مـذاكرة الحقائق، والبحث فيها، إلى أن ننال البصـيرة الـتي تجعلنـا نـرى كيد الشيطان بأعيننا، فنحذر منه..

وذلـك لا يكـون إلا بـالعلم النـافع، فـأكثر النـاس عبوديـة للشيطان الجهلة الذين يكتفون بظواهر العبادات، دون الاهتمـام بالعلم، ولذلك ورد في الحديث قولـه ﷺ: (مـا عُبـد اللـه بشـيء أفضل من فقه في دين، ولفقيه واحـد أشـد على الشـيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه) [1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (والـذي نفس محمـد بيـده لَعـالم واحد أشد على إبليس من ألف عابد، لأن العابد لنفسه، والعالم لغيره) [2]

وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّـيْطَانِ إِذْ قَـالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِني بَرِيءٌ مِنْكَ إِني أَخَافُ اللــه رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحشر: 16] قصـة قـد يفيـدك تأملهـا في التعـرف على قيمــة العلم، ودوره في الوقايـة من الشـيطان، فقـد رووا عن ابن مسعود أنه قال: (كانت امـرأة تـرعى الغنم، وكـان لهـا أربعــة إخــوة، وكـانت تـأوي بالليـل إلى صـومعة راهب؛ فـنزل الراهب ففجر بها، فحملت، فأتاه الشيطان فقال لـه: اقتلهـا ثم ادفنها، فإنك رجل مصدق يسمع قولك. فقتلها ثم دفتهـا.. فـأتى الشـيطان إخوتهـا في المنـام فقـال لهم: إن الـراهب صـاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كـذا وكذا. فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك؟ قالوا: لا بل قصها علينـا. قـال: فقصها، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الآخر: وأنــا والله لقد رأيت ذلـك. فقـالوا: فواللـه مـا هـذا إلا لشـيء. قـال: فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب، فأتوه فـأنزلوه ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا،

1() رواه الطبراني في الأوسط (6/194 رقم 6166)

2() عزاه في الكنز (28908) لابن النجار.

ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه. قال: فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه، وأخذ فقتل)[1]

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن الشيطان لن يتمكن منك إلا إذا مكنته من نفسك؛ ولهذا يدرس الشيطان المزاج والطبع الإنساني ليستحوذ عليه من خلاله، وقد روي عن بعض الصالحين أنه سأل إبليس: بأي شيء تغلب ابن آدم؟ قال: (آخذه عند الغضب وعند الهوى)

وروي أنه ظهر لراهب فقال له: أي أخلاق بني آدم أعون لك؟ قال: (الحدة إن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة)

وروي أنه ظهر ليحيى عليه السلام فرأى عليه مغاليق من كل شيء، فقال له يحيى عليه السلام: يا إبليس ما هذه المغاليق؟ قال: (هذه الشهوات التي أصبت بها بني آدم)، قال: فهل لي فيها شيء؟ قال: (ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر)، قال: هل غير ذلك قال: لا، قال يحيى: لله علي أن لا املأ بطني من طعام أبدا، فقال إبليس: ولله علي أن لا أنصح مسلما أبدا[2].

ويروى أن الشيطان يقول: (كيف يغلبني ابن آدم؟ وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ بعد إيراد هذه الأحاديث والحكايات عليك أن تتساءل عن كيفية حديث الشيطان، وبأي

1() تفسير الطبري (28/33)

2() رواه ابن الشيخ في مجالسه بنحو أبسط راجع بحار الأنوار ج 14 ص 620.

صورة ظهر، وهل يمكن أن يلتقي بالإنسان.. فكل هذه الأسـئلة من كيـد الشـيطان ومكـره، وهي من أسـاليبه الـتي يسـتعملها ليصرفك عن الحق.

وقـد روي في الحـديث قولـه ﷺ: (يـأتي الشـيطان أحـدكم فيقول: من خلـق كـذا؟ من خلـق كـذا؟ حـتى يقـول: من خلـق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته) (1)

وفي حديث آخر روي أن أصحاب رسول اللـه ﷺ قـالوا: يـا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخرّ من السماء إلى الأرض أحبّ إليه من أن يتكلم به، فقال ﷺ: (الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة) (2)

1() البخاري (3276)، ومسلم (134) (214)

2() عبد بن حميد (701)، والطحاوي 2/252، وابن منده في الإيمان (345)

اتباع الهوى

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الهوى، وعلاقته بالنفس والشيطان، وهل هو من إلهام الشيطان ووساوسه، أم هو من ابتداع النفس الأمارة بالسوء ومثالبها؟.. أو هو من البيئة والمحيط الذي يعيشه الإنسان؟ أو هو من الثقافة التي ربي عليها، وأسس عقله وفكره على أساسها؟

وكل ما سألته أسئلة نافعة تحتاج إلى الإجابة عنها.. لكن ذلك كله قد لا يفيدك كثيرا في تهذيبك لنفسك، وتزكيتك لها، ذلك أن المهم عندك الآن، وفي هذه المرحلة، تمييز الحقائق من الأهواء، ولا يهمك بعد ذلك هل كان مصدر الأهواء إملاءات شيطانية، أو بدعا نفسية، أو تلقينا اجتماعيا..

ولذلك؛ فإن أول ما عليك فعله في هذه المرحلة، لتميز الحقائق عن الأهواء، هو البحث عن المقدس المعصوم الذي يمكنك أن تستند إليه، وأنت واثق من أنه يحمل الحقيقة المطلقة.. أما ما عداه؛ فيمكن أن يحملها سليمة صافية من كل كدر، ويمكن أن يشوهها ويغيرها ويبدلها؛ فتصبح باطلا في صورة حق، وسما في طعم عسل.

وقد جعل الله لنا ـ أيها المريد الصادق ــ مصدرين يمكننا أن نستند إليهما في ذلك التمييز.. فإذا عطلناهما، أو عطلنا أحدهما تسربت إلينا الأهواء من كل السبل.

أما أحدهما فشريعة ربنا، ومصادرها المقدسة، وأما الثاني، فالعقل السليم الذي أودعه الله فينا لنميز به بين الحق والباطل، ذلك العقل الذي لم تتلاعب به الأهواء، ولم يدنس بالشهوات.

وقـد ضـرب بعض الحكمـاء لكلا المصـدرين مثلا، فقـال: (اعلم أن العقـل لن يهتـدي إلا بالشـرع، والشـرع لم يتـبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس، والشرع كالبنـاء، ولن يغـني أس مـا لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس) (1)

ثم ضرب المثل له بالبصر والشعاع، فقال: (العقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شـعاع من خـارج ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر)

وضرب له المثل بالسراج والزيت، فقال: (العقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده فما لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يضئ الزيت، وعلى هذا نبـه اللـه سـبحانه بقوله: ﴿الله نُورُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَـلُ نُـورِهِ كَمِشْـكَاةٍ فِيهَـا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَـدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِـيءُ وَلَـوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: 35])

ولذلك، فـإن (الشـرع عقـل من خـارج، والعقـل شـرع من داخل، وهما متعاضدان بل متحدان)، ولـذلك سـلب اللـه تعـالى اسم العقل من المفتقر للشرع، فقال: ﴿صُـمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]

ولـذلك سـمى العقـل دينـا وشـرعا من داخـل، فقـال في وصفه: ﴿فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ الناسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللـه ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الـروم: 30]، فسـمى العقـل دينـا ولكونهمـا متحدين قال: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: 35]﴾ أي نور العقل ونــور الشـرع، ثم قـال: ﴿يَهْـدِي اللـه لِنُـورِهِ مَنْ يَشَـاءُ﴾ [النـور: 35] فجعلها نورا واحدا.

---

(1) معارج القدس في مدارج معرفه النفس (ص: 57)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ يمكنك تمييز الأهــواء من الحقـائق، بهـذين النـورين اللـذين وفرهمـا الله لـك.. نـور الداخل الذي هو عقلك السليم.. ونور الخارج الـذي هـو شـريعة ربك الحكيمة..

وسأورد لك ما ورد من حقائق ذلـك ومعـاييره من القـرآن الكــريم، لتؤصــل بــه للحقيقــة المنافيــة للهــوى، ثم أورد لــك المصـاديق الـتي يمكنـك أن تسـتند إليهـا، ولـك أن تفكـر فيهـا، وتبحث عنها، حتى لا يكون اعتمادك لها اعتماد المقلدين، الـذين قد يقعـون في الأهـواء، وإنمـا اعتمـاد المحققين الـذين ينجـون منها.

العلاج المعرفي:

أما الأول، فيمكنك أن تقرأ مـا شـئت من آيـات القـرآن الكريم الـتي تنهى عن اتبـاع الأهـواء، لتجـدها مرتبطـة بفقـدان ذينك المصدرين أو أحدهما.

فمن تلك الآيات قوله تعالى مخاطبا اليهود، ومـواقفهم من أنبيائهم: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْــتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَخَـذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُـولٌ بِمَـا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: 70]

فهـذه الآيـات الكريمـة تشـير إلى أن اليهـود، ضـيعوا كلا المصدرين.. أما الأول، فعقولهم التي لم يحكّموهـا في التعـرف على أنبيائهم الذين جاءوهم بالبينات الدالة على صـدقهم.. وأمـا الثاني فشريعة ربهم التي جاءهم بها أنبياؤهم.. ولـذلك سـقطوا في هاوية الهوى، وصاروا كذلك الذي أعطاه الله عيـنين ليبصـر بهما، وسراجا ليستضيء به، فأطفأ السراج، وأغلق عينيه، وراح

يقتحم الظلمات.

ولـذلك عقب الله تعـالى على فعلهم ذلـك بقولـه: ﴿قَـالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَـا يُؤْمِنُـونَ﴾ [البقـرة: 88]، وذلك شيء طبيعي، فمن ابتعد عن إعمال عقلـه الإعمـال المناسـب، وابتعـد عن الهـداة والرسـل الـذين جـاءوا بالبينـات، فسـيغلف على عقلـه وقلبـه، وسـتتبعه اللعنـة لا محالـة، لأنـه لا يكــون في جــوار اللـــه إلا أصــحاب العقــول النــيرة، والقلــوب الطاهرة.

ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِـرَ اسْـمُ اللـه عَلَيْـهِ وَقَـدْ فَصَّـلَ لَكُمْ مَـا حَـرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَـا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِن كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِن رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 119]

فهذه الآية الكريمة تشير إلى اسـتغناء العقـل عن الشـرع، أو اســتغناء العين عن الســراج.. حينهــا يخبــط خبــط عشــواء، ويتدخل فيما لا يعنيه..

ومثال ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ مثال من ينشـئ لنفســه قانونا خاصا للمرور، فيرتكب المخالفات؛ فإذا ما سئل عن ذلك، ذكر أنه لا يحب أن يملي عليه أي قـانون لا ينسـجم مـع هـواه.. مع أنه لا يمكن أن يكون هناك نظـام في أي شـيء من دون أن تكون هناك قوانين تحكمه.

وهكذا الأمر بالنسبة لما ذكرت الآيـة الكريمـة؛ فهي تشـير إلى أن المتحكم في التحليل والتحريم هو الله.. ذلك أن الملــك ملكه، والعباد ضيوف عنـده، فـإن أبـاح لهم شـيئا، أو حرمـه، لم يكن على العباد سـوى الخضـوع لـذلك، لأنـه صـادر من صـاحب الملك والعلم والحكمة.

ولهذا اعتبر الله تعالى الجدال في ذلك، والافتراء على الله بتحليل الحرام، أو تحريم الحلال تدخلا من العقل فيما لا يعنيه، وهو يدل على أن مصدر ذلك هو الهوى.. وأن من يقوم بذلك شيطان من شياطينه، كما قال تعالى ــ معقبا على تلك الآية الكريمة ـ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ الله عَلَيْهِ وَإِنهُ لَفِسْقٌ وَإِن الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 121]

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الآلة التي يستعملها أهل الهوى وشياطينه هي الجدال، وهو التلاعب بالألفاظ والمعاني، ليصرفوا به عن الحق الواضح المنير، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الناسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: 8، 9]

ولذلك اعتبر الله تعالى أولئك الذين أعموا عقولهم عن شريعة ربهم، وهداتها، ومصادرها المقدسة، من الذين رموا بالسراج من أيديهم، ليخبطوا بعقولهم المجردة في الظلمات من غير أي دليل، كما قال تعالى ـ تعقيبا على الآيات السابقة ـ: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي الناسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122]

ثم ذكر أن الذي يتولى هذا النوع من الهوى في كل قرية أو أمة كبار المجرمين والمضللين الذين ينتخبهم الشيطان للنيابة عنه في هذا الدور، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 123]

والآية الكريمة تشير إلى أن أول ما يُميز به الحق عن

الهوى هو البحث عن أولئك المجرمين المبدلين المغيرين الـذين أخضعوا الدين للعقـول المجـردة، أو الأمزجـة المتقلبـة، ولـذلك يذكر القرآن الكريم ذلك الصراع الذي يدور في ساحات القيامة بين التـابعين والمتبـوعين الـذين تركـوا عقـولهم، وسـلموها لسـاداتهم، فصـاروا هم المتحكمين فيهـا، قـال تعـالى: ﴿إِذْ تَبَـرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُـــوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُـــوا وَرَأَوُا الْعَـــذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَـوْ أَن لَنَـا كَـرَّةً فَنَتَبَـرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النارِ﴾ [البقرة: 166، 167]

ولهذا، فـإن أول مـا يفعلـه العقـل الـذي يريـد التخلص من الأهـواء البحث عن الهـداة الحقيقـيين الـذين يملكـون السـراج المنـير، لأن من عـداهم سـيؤدي إلى الضـلالة والانحـراف، كمـا أشار إلى ذلك قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿اهْـدِنَا الصِّـرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: 6، 7]

فهاتـان الآيتـان الكريمتـان تـدعوان إلى البحث عن أهـل السراط المستقيم الذين لم ينحرفوا به، ولم يغيروه، ولم يقعوا في الضلالة، ولا في الغضـب.. ذلـك أن الـدعاء الـذي لا يصـحبه الجهد والصدق لا ينفع صاحبه شيئا.

وقد ضرب اللـه تعـالى مثـالا لأولئـك المغـيرين والمبـدلين المضـللين، وكيـف انحرفـوا عن السـراط المسـتقيم، واتبعـوا أهواءهم، فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَـلَخَ مِنْهَـا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَـا وَلَكِنهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175، 176]

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى المنبع الذي تصدر منه الأهواء، وهو التثاقل إلى الأرض، واتباع الشهوات، حتى يصبح الإنسان مثل الكلب الذي لا يعرف غير اللهث والنباح.

ولهذا يستعمل هؤلاء الذين وكل لهم الناس عقولهم، رسلا للشيطان يضل بهم الخلق عن ربهم، وعن هداتهم الحقيقيين، كما قال تعالى عن موقف المشركين من رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ الله رَسُولًا (41) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42)﴾ [الفرقان: 41، 42]

ثم بين المنبع الذي جعلهم يقفون هذا الموقف، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: 43]

وبين افتقاد هؤلاء للعقل السليم الذي يسمح لهم برؤية الحقائق، وتمييزها، فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَن أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 44]

وبذلك فإن أولئك الذين وقفوا محاربين للرسل عليهم السلام، لم يكن لهم حظ من العقل الداخلي، ولا من العقل الخارجي.. ذلك أنهم سلموا الأول لسادتهم وكبرائهم.. وأما الثاني فراحوا يستهزئون به، ويسخرون منه.

ولذلك طالبهم الله تعالى ببيان المصدر الذي جعلوه رائدهم في اتخاذ تلك المواقف، قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ الله هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أنمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ الله إِن الله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: 49، 50]

ولذلك اعتبر الله تعالى هؤلاء جميعا عبيدا لأهــوائهم تتقلب بهم حيث شـاءت، قـال تعـالى: ﴿أَفَـرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَـذَ إِلَهَـهُ هَـوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ الله أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23]

وفي مقابله أولئك الـذين أعملـوا عقـولهم، ولم يعطلوهـا، وأعملوا شريعة ربهم، فلم يضيعوها، وبحثوا عن الهداة، ووصلوا إليهم، فهؤلاء لا يمكن أن يضلوا أبدا، ولهذا اعتبرهم اللـه تعـالى على بينة من ربهم، فقال: ﴿ أَفَمَنْ كَـانَ عَلَى بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: 14]

إذا عرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن اتبـاع الهوى أخطر من كل ما ذكرته لك في رسـائلي السـابقة.. ذلـك أن صاحب الهوى قد يفطن لكبره وعجبه وغروره وغفلته، لكنـه لا يفطن لضلاله وتيهـه عن الحـق.. وبـذلك قـد يلهيـه الشـيطان ببعض الأعمال الصالحة حتى يظن نفسه على شـيء، بينمـا هـو غــارق في ضــلاله وتيهــه، وقــد ورد في الأثــر أن (إبليس قــال لأوليائه: من أي شيء تأتون بني آدم؟.. فقالوا: من كـل شـيء. قـال: فهـل تـأتونهم من قبـل الاسـتغفار؟ فقـالوا: هيهـات، ذاك شيء قرن بالتوحيد، قـال: لأبثن فيهم شـيئا لا يسـتغفرون اللـه منه؛ فبث فيهم الأهواء)(1)

وقد أخبر الله تعالى أن السـبب الأكـبر الحائـل بين الخلـق والاستجابة للرسل هـو الهـوى، فقـال: ﴿فَـإِنْ لَمْ يَسْـتَجِيبُوا لَـكَ فَاعْلَمْ أَنمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ الله إِن الله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 50]

ولــذلك كــان رســول اللــه ﷺ يحــذر من مضــلات الهــوى، ويقــول: (اللهم إني أعــوذ بــك من منكــرات الأخلاق والأعمــال

(1) سنن الدارمي(1/ 103) رقم(308)

والأهواء)(1)، ويقول: (إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى)(2)

وهكذا حذر أئمة الهدى منه، فعن الإمام علي أنه قال: (إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالا، على غير دين الله)(3)

وبين علاقة ذلك بالتثاقل إلى الدنيا، فقال: (إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنتان: طول الأمل واتباع الهوى. فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق. ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة مقبلة ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل)(4)

العلاج السلوكي:

إذا علمت ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ وتيقنت منه، فيمكنك أن تتخلص من الهوى، بثلاثة أمور كلها مما اتفق عليه النقل والعقل:

أما **أولها**، فهو أن تعمل عقلك، ولا تعطله، فالله ما خلقه لك، لتهبه لغيرك، وإنما أعطاه الله لك لتميز به بين الحق والباطل، والخير والشر، ولهذا قدمه رسول الله ﷺ عند الفتوى، فقال: (استفت قلبك، واستفت نفْسَك ثلاث مرات؛ البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في

1() رواه الترمذي(2/ 761- 762)

2() أحمد(4/ 042- 423)

3() نهج البلاغة: (ك 50)

4() فضائل الصحابة، للإمام أحمد(1/ 530) رقم(881)

الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك) (1)

وإياك ـ عند البحث عن الحقائق ـ أن تلتفت للآباء والأجداد، فالله ما أمرك بأن تفكر بعقولهم، وإنما أمرك بالتفكير بعقلك.. ولهذا كان التفكير بعقولهم من أكبر الحجب التي حالت بين الأنبياء وأقوامهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 23]

وأما الثاني: فأن تتمسك بكتاب ربك المقدس، ذلك الكتاب العزيز الذي﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 42]، فقد ورد في الحديث أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ، فأخبره أنها ستكون فتن، فسأله رسول الله ﷺ عن المخرج منها؛ فقال: (كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، ونبأ ما هو كائن بعدكم، وفيه الحكم بينكم، وهو حبل الله المتين، وهو النور المبين، وهو الصراط المستقيم، وهو الشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لا تلتبس به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء.. من وليه من جبار فحكم بغير ما فيه قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن اتبعه هدي إلى صراط مستقيم) (2)

وأما **الثالث**: فهو أدقها وأصعبها، وهو أن تتمسك بالهداة الذين لم ينحرفوا عن الدين، ولم يتبعوا أهواءهم، أولئك الذين

1() رواه أحمد 18006 والدارميُّ 2533.

2() قال في جامع الأصول (8/ـ 464): رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه [فضائل القرآن]

أشار إليهم قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)﴾ [الفاتحة: 6، 7]

ولا تتعب نفسك في البحث عنهم، فرسول الله ﷺ الحريص على أمته، لم يتركها من دون أن ينصحها بهم، ويحذرها من المحرفين المبدلين، وقد ورد في وصيته التي تواترت عنه، والتي جمع فيها بينهم وبين كتاب الله، قوله ﷺ: (إني تركت فيكم ما إنْ تمسّكتم به لنْ تضلّوا بعدي: كتاب الله حبلٌ ممدودٌ مِن السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولنْ يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما) [1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (أيها الناس. إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول من ربي فأجيب. وإني تارك فيكم الثقلين. أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي) [2]

وقد ورد في الروايات الكثيرة أن رسول الله ﷺ كان يكرر هذه الوصية كل حين، بل إنه عندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّه يَعْصِمُكَ مِنَ النَاسِ إِن اللّه لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِين﴾ [المائدة:67] طلب أن يجتمع الناس، ثم قال: (إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسئول، وأنتم مسئولون، فما ذا

[1] () الحديث متواتر، وقد ورد بصيغ كثيرة رواه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم، وقد نص الألباني على صحته انظر حديث رقم: 2458 في صحيح الجامع.

[2] () رواه مسلم (2408)

أنتم قائلون؟)، فقالوا: نشهد أنـك قـد بلّغت، ونصـحت وجهـدت فجزاك الله خيرا.. فقال رسول الله ﷺ: (ألستم تشـهدون أن لا إله إلاّ الله، وأن محمّدا عبده ورسوله، وأن جنته حقّ، وأن نـاره حقّ، وأن الموت حقّ، وأن السّـاعة آتيـة لا ريب فيهـا، وأن اللـه يبعث من في القبور)، فقالوا: بلى نشهد بذلك، فقال ﷺ: (اللهمّ اشـهد)، ثم قـال: (إني فـرط على الحـوض، وأنتم واردون عليّ الحوض، وإن عرضـه مـا بين صـنعاء وبصـرى، فيـه أقـداح عـدد النجوم من فضّة، فانظروا كيف تخلّفـوني في الثّقلين؟.. الثّقـل الأكبر كتاب اللـه، طـرف بيـد اللـه عـزّ وجـلّ، وطـرف بأيـديكم فتمسّـكوا بـه لا تضـلّوا، والآخـر الأصـغر عـترتي، وإن اللّطيـف الخبير نبّأني أنهما لن يتفرّقـا حتّى يـردا عليّ الحـوض، فسـألت ذلــك لهمــا ربّي، فلا تقــدّموهما فتهلكــوا، ولا تقصــروا عنهمــا فتهلكوا) [1]

ثمّ أخــذ ﷺ بيــد الإمــام علي، فرفعهــا، حــتى بــان بيــاض إبطيهما، ثم قال مخاطبا الجموع الكثيرة الـتي احتشـدت: (أيّهـا الناس، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟)، فأجابوا: اللـه ورسوله أعلم، فقال ﷺ: (إن الله مولاي، وأنا مـولى المؤمـنين، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه)

وكرر ذلـك وأكـده، ثم ختمـه بقولـه: (اللهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخـذل من خذلـه، وأدر الحـقّ معـه حيث دار، ألا فليبلّـغ الشّاهد الغائب) [2]

1() صحيح مسلم (2408) والترمذي (3788) واللفظ له. وغيرهما كثير.

2() الشطر الأول من الحديث ـ كما ينص المحدثون ـ: متواتر، نص على تواتره عدد من الحفاظ، وأما الزيادة الواردة في الحـديث، وهي قولـه ﷺ: (اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه) فهي صحيحة، وقد وردت عن عدد من الصحابة، وصـححها عـدد من الحفـاظ من روايـة أنس بن مالـك، وأبي سـعيد الخدري، وزيد بن أرقم، وسعد بن أبي وقاص.. وقد خصص الحافظ ابن عقدة لها مصنفا مستقل، استوعب فيـه طرقهـا، ومثلـه السـيد أحمـد بن الصـديق الغماري في: (الإعلام بطرق المتواتر من حديثه عليه السلام)، بل إن الإمام أحمد نفسه ذكر في (الفضائل)، والنسائي في (الخصائص)، وابن الجزري في (المناقب)، والهيثمي في (المجمع) روايات كثيرة في الدلالة عليه وعلى معناه.

هـذه ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ وصـيتي إليـك في مواجهـة الهوى؛ فعليك بها، وإيـاك أن تلتفت لمـا يقـول النـاس عنـك، أو يتهموك به، فالحق أحـق أن يتبـع، وقـد قـال الإمـام علي لبعض من التبس عليه الأمر، فلم يدر من يرضـي ومن يسـخط: (إنـك امـرؤ ملبـوس عليـك، إن دين اللـه لا يُعْـرف بالرجـال، فـاعرِف الحقّ تعرف أهله) (1)

وكان يقول: (لو أن الباطل خَلُص من مزاح الحقّ لم يخـفَ على المرتادين، ولو أن الحقّ خَلُص من لَبْس الباطـل، انقطعت عنـه ألسُـن المعانـدين ولكن يؤخـذ من هـذا ضـغثٌ، ومن هـذا ضغثٌ، فيمزجان فهنالك يستولي الشيطان على أوليائـه، وينجـو الذين سبقت لهم من الله الحسنى) (2)

وهـذا هـو مصـداق مـا ورد في القـرآن الكـريم من الآيـات الكريمـة المخـبرة عن الابتلاءات والاختبـارات الـتي تمـيز أهـل الحق من أهل الباطل، ومنفذي وصـايا أنبيـائهم من المعرضـين عنها، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنـةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللـه الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 142]

وأخــبر عن الفتن الــتي ستحصــل للأمــة، واعتبرهــا من الاختبارات اللازمة للأمم، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَـةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّـرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَـدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَـالُوا قَـدْ مَسَّ آبَاءَنَـا الضَّـرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: 94، 95]

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الأمة ستبتلى بالفتن، كما أخبر أن هناك الكثير ممن سيرسب في هـذا الاختبـار، ففي الحـديث

1() نهج البلاغة، الحكمة:262

2() نهج البلاغة، الخطبة:50.

قال ﷺ: (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبســط عليكم الدنيا كما بسطت على من كـان قبلكم، فتنافسـوها كمـا تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم) (1)

1() رواه البخاري: 3158، 4015، 6425، ومسلم: 7614.

التثاقل إلى الدنيا

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الدنيا، وحقيقتها، والموقف منها، وهل هي محترمة لكونها دار أولياء الله.. أم هي مذمومة لكونها دار أعدائه؟.. وهل لذلك أثر في تقويم النفس وتعديلها وتربيتها؟.. أم أن ذلك من الفروع التي لا يحتاج إليها السالك لتزكية نفسه وترقيتها لتصبح أهلا لمنازل المقربين والصديقين؟

وكل أسئلتك التي سألتها محترمة وجيهة، والإجابة عليها واجبة، لأنها من الأسس التي يقوم عليها السلوك التحققي والتخلقي؛ فلا يمكن لمن يجهل الدنيا، وكيفية التعامل معها أن يسير السير الصحيح.

ولا تخف ــ أيها المريد الصادق ــ ولا تفزع، فلن أحدثك بأحاديث الأحبار والرهبان، ولن أجلب لك ما ذكره الزهاد والمنقطعون عن الدنيا، فأنا أعلم أنك لا ترغب في أن تخلط دين الله بدين البشر، ولا أن تجعل لك قدوة غير رسولك، وأئمة الهدى وورثة النبوة من بعده، أولئك الذين تمسكوا بالكتاب، ولم ينحرفوا عنه.

الدنيا والقرآن الكريم:

وأول من يجيبك على أسئلتك ــ أيها المريد الصادق ـ القرآن الكريم؛ فهو الكتاب الذي حوى حقائق الوجود بكل دقة، ولذلك كان أول مصدر تنكشف به الحقائق، وتُميز به عن الأهواء.. ومن أعرض عنه لن يصل إلى الحقيقة، ولو جمع جميع عقول أهل العالم.

وعند عودتنا للقرآن الكريم نجد الله تعالى يهون من شأن الدنيا، ويعتبرها دار غرور، وأن من انشغل بها انشغل عن الخير كله.. وليس ذلك ـ كما يتوهم المقصرون في فهم لغة القرآن الكريم وحقائقه ـ ذما للدنيا، أو احتقارا لها، فما خلق الله شيئا إلا لحكمة وغرض، ويستحيل عليه العبث.

وإنما هو مثل ذلك الأستاذ الذي يقول لتلاميذه في المرحلة الابتدائية، وفي حصة الحساب: أتقنوا جيدا ما تدرسونه من هذه المسائل والمعالات.. لأنكم ستحتاجون إليها في مستقبل دراستكم.. وكل ما درستموه الآن سيكون حقيرا وبسيطا وهزيلا جدا أمام ما لم تدرسوه.

وهكذا الأمر بل هو أعظم منه، في ذكر القرآن الكريم للدنيا، فهو يقول للمنشغلين بها، إما بعلومها، وما يغذي عقولهم منها.. أو ما يغذي بطونهم وأهواءهم: إن ما ترونه لا يساوي شيئا أمام ما لم تروه.. فلذلك جهزوا أنفسكم لتصبح صالحة لتلك العوالم التي لا تساوي الدنيا أمامها شيئا.

وهو يبادر قبل ذلك، فيقرر في نفوس المؤمنين أن الله تعالى رب الدنيا والآخرة، وأنه الخالق لهما جميعا، وأنه العالم بهما، وبصفات كل منهما، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ الله ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ الله سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 134]

وانطلاقا من ذلك يبين الله تعالى ــ باعتباره مالك الدنيا والآخرة والخبير بهما جميعا ــ أن الدنيا لا تساوي شيئا أمام الآخرة، ومثل ذلك ـ أيها المريد الصادق ــ مثل رجل يريد أن يري قوما بعض قصوره وضياعه؛ فإذا رأوا بعضها، وبهتوا لها، قال لهم: هذا شيء هين وقليل وحقير جدا بجانب ما لم تروه..

وقد ورد ذلك التهوين من شأن الدنيا مقارنة بالآخرة بصيغ كثيرة، منها قوله تعالى:﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص: 60]، فهذه الآية الكريمة تشير إلى أن كل ما في الدنيا من متاع وزينة يوجد ما هو خير منه وأدوم في الآخرة.. ولذلك فإن الزاهد في الدنيا، لن يضيع زهده، بل سيكسب أضعاف ما يتوهم المتثاقلون أنه خسره، بإضافة عنصر الزمان وامتداده، والذي حرم منه المتثاقلون إلى في الدنيا.

وقد عقب الله تلك الآية الكريمة بقوله: ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص: 61]، وهي تدل على أنه لا وجه للمقارنة بين المؤمن الذي وثق في وعد الله الذي سيلقاه لا محالة، وبين ذلك الذي اكتفى بالنصيب المحدود الذي يعيش به في الدنيا، ثم يلاقي في الآخرة الأهوال بسبب تثاقله.

وهكذا يخاطب القرآن الكريم رسول الله ﷺ والمؤمنين بأن ما أعد الله تعالى لهم في الآخرة، لا يمكن مقارنته بما يرونه من النعيم الذي يعيشه المتثاقلون إلى الدينا، ذلك النعيم الممتلئ بكل أصناف المنغصات، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55]

ويخاطب الله تعالى رسول الله ﷺ مسليا له وللمؤمنين على ما فاتهم أو يفوتهم من الدنيا، فيقول: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: 4]، ويقول: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: 32]

ويبين مدى غفلة المتثاقلين إلى الدنيا وغبائهم عندما

يسخرون من الزاهـدين في الـدنيا، فيقـول: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212]

ويـذكر بعض مجـامع نعيم الـدنيا، ويـبين مـدى انحطاطهـا مقارنة بنعيم الآخرة، فيقـول: ﴿زُيِّنَ لِلنـاسِ حُبُّ الشَّـهَوَاتِ مِنَ النسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْـلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَاللـه عِنْـدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: 14]

ثم يـبين بعض مظـاهر ذلـك النعيم المعـد للمؤمـنين في الآخرة، والذي لا يمكن مقارنـة أي نعيم في الـدنيا بـه، فيقـول: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنـاتٌ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْـوَانٌ مِنَ اللـه وَالله بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 15]

والغرض من تقرير هذه المعاني جميعا، ليس مجـرد اتخـاذ موقــف من الــدنيا، وإنمــا لتــأثير ذلــك في الســلوك التحققي والتخلقي؛ فالمقبل بكل همته على الدنيا المتثاقل لها، يسـتحيل عليه أن يطهر نفسه أو يزكيها، أو يرقى بها إلى مراتب الكمـال التي تستدعي المجاهدات الطويلة، كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَــدُوا فِينَــا لَنَهْــدِيَنهُمْ سُــبُلَنَا وَإِن اللــه لَمَــعَ الْمُحْسِــنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]

ولهـذا يقـرن اللـه تعـالى التكـاليف المشـددة بـالنهي عن التثاقــل إلى الــدينا، ومن أمثلتهــا قولــه تعــالى في الحث على الجهاد والتضـحية في سـبيل نصـرة المستضـعفين المظلـومين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَـبِيلِ اللـه اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الـدُّنْيَا مِنَ الْآخِـرَةِ فَمَـا مَتَـاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38]

ويـذكّر المتثـاقلين إلى الـدنيا بـأن المـوت قـادم لا محالـة، ولذلك لا داعي إلى الحرص الشديد على الحياة، خصوصا إذا مـا تنافت التكاليف الشرعية مع ذلك الحـرص، قـال تعـالى: ﴿ كُـلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـةُ الْمَـوْتِ وَإِنمَـا تُوَفَّوْنَ أُجُـورَكُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النارِ وَأُدْخِلَ الْجَنةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الـدُّنْيَا إِلَّا مَتَـاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: 185]

ويذكرهم بأن الدنيا تشبه تلك الأيام المعـدودة الـتي تخـرج الأرض فيهـا بعض خيراتهـا، ثم سـرعان مـا يصـيب القحـط كـل شيء، قال تعـالى: ﴿إِنمَـا مَثَـلُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا كَمَـاءٍ أَنْزَلْنَـاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُـلُ النـاسُ وَالْأَنْعَـامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَن أَهْلُهَا أَنهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَـا أَتَاهَا أَمْرُنَـا لَيْلًا أَوْ نَهَـارًا فَجَعَلْنَاهَـا حَصِـيدًا كَـأَنْ لَمْ تَغْنَ بِـالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24]

ويذكرهم بأن السبب الأكبر في كل الانحرافـات الـتي وقـع فيها البشر تثـاقلهم إلى أهـواء الـدنيا، قـال تعـالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْـوًا وَغَـرَّتْهُمُ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا﴾ [الأنعـام: 70]، وقال: ﴿إِن الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنوا بِهَـا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَـا غَـافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَـأْوَاهُمُ النـارُ بِمَـا كَانُوا يَكْسِـبُونَ ﴾ [يـونس: 7ـ 8]، وقـال: ﴿الَّذِينَ اتَّخَـذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَـاهُمْ كَمَـا نَسُـوا لِقَـاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: 51]

ويـذكرهم بـأن ذلـك لا يعـني الانصـراف التـام عن الـدنيا، بحيث ينصرف المؤمنون عنها انصرافا تاما يحول بينهم وبين أي عمل إيجابي فيهـا؛ فـذلك ليس هـو المـراد، وإنمـا النهي قاصـر على التثاقل إليها والحـرص عليهـا والتكـاثر فيهـا، لا الأخـذ منهـا بقدر الحاجة، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَـةَ اللـه الَّتِي أَخْـرَجَ

لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَـاتِ مِنَ الـرِّزْقِ قُـلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّـلُ الْآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ [الأعراف: 32]

وقال حاكيا عن المؤمنين من قوم قـارون، ونصـيحتهم لـه: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ الله الـدَّارَ الْآخِـرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِـيبَكَ مِنَ الـدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِن اللــه لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ [القصص: 77]

بل إن الله تعالى يخبر أنه ـ بفضله ورحمته ـ يعطي عبــاده الصالحين المترفعين عن الدنيا، ما يحتاجونـه منهـا، من غـير أن يؤثر ذلك في طهارة نفوسهم، وصـفاء قلـوبهم، أو يحـول بينهم وبين السير إلى ربهم، قال تعالى: أَلَا إِن أَوْلِيَـاءَ اللــه لَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [يـونس: 62 ـ 64]، وقـال: وَقِيـلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْـرًا لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ [النحل: 30]

ويضرب المثل على ذلك بأولئـك المجاهـدين مـع أنبيـائهم، والذين آثروا أن يضحوا بأنفسهم في سبيل القيم الـتي جـاءوهم بها، بأن الله آتاهم كلا الثوابين: ثواب الدنيا، وثواب الآخرة، قـال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَـهُ رِبِّيُّونَ كَثِـيرٌ فَمَـا وَهَنُـوا لِمَـا أَصَابَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللــه وَمَـا ضَـعُفُوا وَمَـا اسْـتَكَانُوا وَاللــه يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ الله ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَـوَابِ الْآخِـرَةِ وَاللــه يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [آل عمران: 146 - 148]

هـذه بعض الآيـات القرآنيـة الـتي وردت في شـأن الـدنيا،

ويمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ بالتدبر فيها أن تعرف حقيقتها، وأنها مجرد مرحلة ابتدائية قصيرة من حياة الإنسان والكون، وأن الله تعالى لم يخلقها باعتبارها دارا للجزاء، وإنما باعتبارها دارا للابتلاء والتكليف والامتحان، لذلك اختلط النعيم فيها بالعذاب، والصالحين بالمفسدين..

ولذلك كانت النجاة فيها مثل النجاة في أي امتحان، وهو الانشغال به عن غيره.. فمن انشغل يوم الامتحان باللهو واللعب والنوم، فلن يجني إلا الخيبة والخسارة، ومن جد في امتحانه واجتهد وأخذ من الراحة بقدر الحاجة نجح ورقى في مراتب الفائزين.

وكل ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ لا يعني احتقارا للدنيا بذاتها، وإنما الاحتقار موجه لأصحاب الهمم الدنية الذين آثروا القليل على الكثير، والفاني على الدائم، والنعيم المنغص على النعيم الخالص.

الدنيا والنبوة:

بعد أن عرفت ـ أيها المريد الصادق ـ حقيقة الدنيا، ومنزلتها من خلال كلمات ربك المقدسة، سأذكر لك بعض البيان النبوي بشأنها.. وهو بيان يؤكد ما ذكره الله، ويبين مناهج تنفيذه، كما قال تعالى:﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلناسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]

ولهذا استعمل رسول الله ﷺ لتقرير تلك الحقائق القرآنية الكثير من المناهج، ومنها ذلك المثل الذي ضربه لأصحابه وأمته عندما مر على شاة ميتة، فقال: (أترون هذه الشاة الميتة هينة على صاحبها؟ قالوا: نعم من هوانها ألقوها، فقال ﷺ: (والّذي نفسي بيده، الدّنيا أهون على الله عزّ وجلّ من هذه على

صاحبها، ولو كانت الدّنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء)(1)

وهذا الحديث لا يحتقر الدنيا بذاتها ـ كما قد يُتوهم ـــ وإنما يبين ضآلة ما فيها من متاع مقارنة بالمتاع المعد في الآخرة.. فمتاع الدنيا جميعا يشبه تلك الشاة الميتة، ولذلك كان التثاقل إليها، أو الصراع من أجلها يشبه الصراع على من يملك تلك الشاة.

وبهذا فإن رسول الله ﷺ يضع صورة للدنيا في نفوس المؤمنين تبعدهم عن التثاقل إليها، وهي صورة الشاة الميتة صاحبة الرائحة الكريهة، أو صورة البعوضة أو جناحها، ليقول لهم: كيف لكم أن تضحوا بسعادة الأبد من أجل هذه القاذورات التي يتهافت الخلق عليها؟

وفي حديث آخر يشبه رسول الله ﷺ الدنيا بالمزبلة التي تتراكم فيها القاذورات، فقد روي أنه وقف على مزبلة، فقال: (هلمّوا إلى الدّنيا، وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت فقال: هذه الدّنيا) (2)

وما ذكره رسول الله ﷺ هو الحقيقة بعينها، وليست مجرد مثال، ذلك أن مآل كل زينة في الدنيا يتهالك عليها الناس إلى تلك الصورة التي ضربها رسول الله ﷺ مثلا للدنيا، فكل الثياب ستبلى، وكل الجمال سيذبل، وكل الطعام سيتحول إلى المزابل.

ولهذا يعتبر رسول الله ﷺ الدنيا لضآلتها وقلتها سجنا بالنسبة للمؤمن الذي تنتظره الجنات التي وسعت السموات

1() الحاكم ج 4 ص 306، وابن ماجه رقم 4110.

2() رواه ابن أبي الدنيا في الزهد والبيهقي في الشعب.

والأرض، قال ﷺ: وقال ﷺ: (الدّنيا سجن المؤمن وجنـة الكـافر)(1)

ويضـــرب المثـــل على ذلـــك بتلـــك الآلام الـــتي يجـــدها المستغرقون في حب الـدنيا، فيقـول: (من أصـبح والـدّنيا أكـبر همّه فليس من الله في شيء، وألزم الله قلبه أربع خصال: همّا لا ينقطع عنه أبدا، وشغلا لا يتفرّغ منه أبدا، وفقـرا لا ينـال غنـاه أبدا، وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا)(2)

ويعتبر أن كـل شـيء في الـدنيا يحـول بين المـؤمن وتلـك السعادة ملعون، فيقول: (الدّنيا ملعونـة ملعـون مـا فيهـا إلّا مـا كان للّه منها)(3)

ويعتبر الدنيا والآخرة مثل الضرتين إذا أحب أحــدهما أبغض الأخرى، فيقول: (من أحبّ دنياه أضرّ بآخرتــه ومن أحبّ آخرتــه أضرّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى)(4)

ويــبين المصـير الـذي يصـير إليـه المتثـاقلون إلى الـدينا، فيقـول: (ليجـيئن أقـوام يـوم القيامـة وأعمـالهم كجبـال تهامـة فيؤمر بهم إلى النار، فقيل: يا رسول الله أ مصـلّين؟ قـال: نعم كانوا يصومون ويصلّون ويأخذون هنة من اللّيل فإذا عــرض لهم من الدّنيا شيء وثبوا عليه)(5)

ويقول في بعض خطبـه: (المـؤمن بين مخـافتين بين أجـل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجـل قـد بقي لا يـدري

1() الترمذي ج 9 ص 199.

2() الطبراني في الأوسط وابن أبي الدنيا والحاكم.

3() ابن ماجه رقم 4112، والترمذي ج 9 ص 198.

4() الحاكم ج 4 ص 319.

5() أبو نعيم في الحلية وأبو منصور الديلمي.

ما الله قـاض فيـه فليـتزوّد العبـد من نفسـه لنفسـه ومن دنيـاه لآخرته، ومن حياته لموتـه، ومن شـبابه لهرمـه، فـإن الـدّنيا قـد خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخـرة، والّـذي نفسـي بيـده مـا بعـد الموت من مستعتب ولا بعد الدّنيا من دار إلّا الجنة أو النار)(1)

ولهذا يعتبر رسول اللـه ﷺ (حبّ الـدّنيا رأس كـلّ خطيئـة)(2)، ويتعجب من الـذي يقضـي كـل عمـره في اللهث خلفهـا، فيقول: (يا عجبا كلّ العجب للمصدّق بـدار الخلـود وهـو يسـعى لدار الغرور)(3)

ويبين أن الغرض من الدنيا ـ مثلما ذكر القرآن الكريم ـ هو الاختبـار والابتلاء، وليس التثاقـل إليهـا، أو الاطمئنـان لمـا فيهـا والصراع من أجله، قال ﷺ: (إن الـدّنيا حلـوة خضـرة، وإن اللـه مسـتخلفكم فيهـا فنـاظر كيـف تعملـون، إن بـني إسـرائيل لمّـا بسطت لهم الـدّنيا ومهّـدت تـاهوا في الحليـة والنسـاء والطيب والثياب)(4)

ويضرب رسـول اللـه ﷺ بنفسـه أروع المثـل في الموقـف من الدنيا، والزهد فيها، فيقول: (ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظَلّ تحت شجرة، ثم راح وتركها)(5)

وهكـذا ورد في الآثـار الكثـيرة عن موقـف الأنبيـاء عليهم

1() الكافي ج 2 ص 70.

2() البيهقي في شعب الايمان.

3() ابن أبي الدنيا في الزهد.

4() ابن ماجه رقم 4000.

5() الترمذي (2377) وسنن ابن ماجة (4109)

السلام من الدنيا[6].. ومن أمثلتها قول المسيح عليه السلام: (لا تتّخذوا الدّنيا ربّا فتتّخذكم الدّنيا عبيدا، اكنزوا كـنزكم عنـد من لا يضيّعه لكم؛ فإن صاحب كنز الدّنيا يخـاف عليـه الآفـة وصـاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة)

و قال: (يا معشر الحواريّين إني قـد كببت لكم الـدّنيا على وجهها فلا تنعشوها بعـدي؛ فـإن من خبث الـدّنيا أن عصـي اللـه فيهـا، وإن من خبث الـدّنيا أن الآخــرة لا تـدرك إلّا بتركهــا، ألا فاعبروا الدّنيا ولا تعمروهـا، واعلمـوا أن أصـل كـلّ خطيئـة حبّ الدّنيا، وربّ شهوة ساعة أورثت أهلها حزنا طويلا)

و قال: (الدّنيا طالبة ومطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدّنيا حـتى يسـتكمل فيهـا رزقـه، وطـالب الـدّنيا تطلبـه الآخـرة حتّى يجيء الموت فيأخذ بعنقه)

و قال: (لا يستقيم حبّ الدّنيا والآخرة في قلب مؤمن كمـا لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد)

و قال: (يا معشر الحواريّين ارضوا بدنيّ الـدّنيا مـع سـلامة الدّين كما رضي أهل الدّنيا بدنيّ الدّين مع سلامة الدّنيا)

ويروى أنه مر بقرية، فإذا أهلها موتى في الأفنيـة والطـرق فقال لهم: يا معشر الحواريّين إن هؤلاء مـاتوا عن سـخطة ولـو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا، فقالوا: يا روح الله وددنـا أنـا علمنـا خـبرهم، فسـأل ربّـه فـأوحى اللـه إليـه إذا كـان اللّيـل فنـادهم

6() انظر هذه الآثار وغيرها في: المحجة البيضاء في تهـذيب الإحيـاء، ج5، ص: 355، فما بعدها، وقد انتقينا ما رأيناه متناسبا مع الحقائق القرآنية، وأعرضنا عما رأينـام متنافيـا معها، ومن أمثلتها ما روي عن المسيح عليه السلام ـ وهو غير صحيح ـ أنه قــال: (بطحت لكم الدّنيا، وجلستم على ظهرها؛ فلا ينـازعنّكم فيهـا الملـوك والنسـاء، فأمّـا الملـوك فلا تنازعوهم في الدّنيا فإنّهم لن يتعرّضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم، وأمّـا النسـاء فـاتّقوهنّ بالصـوم والصـلاة)، فقـد رأينـا أن الشـق المرتبـط بـالملوك لا يتناسـب مـع مـا ورد في النصوص المقدسة من الحاكمية الإلهية والدعوة الإلهية، ولو بمواجهة السلاطين الظلمة.

يجيبوك، فلمّا كان اللّيل أشرف على نشز من الأرض، ثمّ نـادى: يا أهل القرية؟ فأجابه مجيب: لبّيك يا روح الله، فقال: ما حالكم وما قصّتكم؟ قـالوا: بتنـا في عافيـة وأصـبحنا في هاويـة، قـال: وكيف ذلك؟ قـال: لحبّنـا الـدّنيا وطاعتنـا أهـل المعاصـي، قـال: وكيف كان حبّكم للدّنيا؟ قال: حبّ الصبيّ لامّه إذا أقبلت فرحنـا وإذا أدبرت حزنا وبكينـا، قـال: فمـا بـال أصـحابك لم يجيبـوني؟ قال: لأنهم ملجمـون بلجـام من نـار بأيـدي ملائكـة غلاظ شـداد قــال: كيــف أجبتــني أنت من بينهم؟ قــال: لأني كنت فيهم ولم أكن منهم، فلمّا نزل بهم العذاب أصابني معهم فأنا معلّــق على شفير جهنم لا أدري أنجـو منهـا أم أكبكب فيهـا، فقـال المسـيح عليـه السّـلام للحـواريّين: لأكـل خـبز الجـريش بـالملح الشـعير ولبس المسـوح والنـوم على المزابـل كثـير مـع عافيـة الـدّنيا والآخرة)[1]

ومثلـه مـا روي أن جبريـل عليـه السّـلام قـال لنـوح عليـه السّلام: يا أطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الـدّنيا؟ قـال: (كـدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من آخر)

وروي أن سليمان عليه السّلام مر في موكبه والطير تظلّه والجن والإنس عن يمينه وعن يساره، فمرّ بعابـد من عبّـاد بـني إسرائيل فقال: والله يـا ابن داود لقـد آتـاك اللـه ملكـا عظيمـا، فسـمعه سـليمان عليـه السّـلام، فقـال: (لتسـبيحة في صـحيفة مؤمن خير ممّا أعطي ابن داود، فإن مـا أعطي ابن داود يـذهب والتسبيحة تبقى)

وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسـى عليـه السّـلام: (يـا موسى مالك ولدار الظالمين إنهـا ليسـت لـك بـدار أخـرج منهـا همّك وفارقها بعقلك، فبئسـت الـدّار هي إلّا لعامـل يعمـل فيهـا

1() الكافي ج 2 ص 318.

فنعمت الدّار هي، يا موسى إني مرصد للظالم حتّى آخذ منه للمظلوم)

وروي أنه أوحي إليه: (يا موسى لا تركنن إلى حبّ الدّنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشدّ عليك منها).

وروي أنه مرّ برجل وهو يبكي، ورجع وهو يبكي، فقال موسى عليه السلام: يا ربّ عبدك يبكي من مخافتك؛ فقال: (يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه، ورفع يديه حتّى تسقطا لم أغفر له وهو يحبّ الدنيا)

فاعتبر ـ أيها المريد الصادق ـ بهذه المواعظ، واملأ بها قلبك، ولا تسمع لأولئك المتثاقلين إلى الدينا الذين يوهمونك أن الله خلقك لها لا له، أو خلقك لتستقر فيها لا لتعبر منها.. فأعظم الناصحين هم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وما عداهم إن كان على طريقهم، فهو وارث من ورثتهم، وإن لم يكن على طريقهم، فهو حجاب دونهم، فإياك أن تضيع طريق الأنبياء وتسير في طرق أصحاب الأهواء.

الدنيا وأئمة الهدى:

ومما يؤكد لك كل ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ اتفاق جميع أئمة الهدى، وورثة النبوة على ذلك؛ فأحاديثهم مملوءة بالوصايا التي تحذر من التثاقل إلى الدنيا، والانشغال بأهوائها.

ولا يمكنني في هذه الرسالة أن أذكر لك كل ما ذكروه، ولذلك أكتفي لك بنموذجهم الأرفع، ومثلهم الأسمى، إما المتقين الأكبر، وتلميذ رسول الله ﷺ الأعظم، يعسوب الدين.. ذلك الإمام الذي مثل التلمذة للنبوة أحسن تمثيل، فكان معجزتها الكبرى، وآيتها العظمى؛ فقد وردت عنه الكثير من

المواعظ والخطب والكلمات النيرة، وكانت حياته كلها مصداقا للتسامي عن الدنيا.

فمن مواعظه البليغة قوله ـ مخاطبا الدنيا ـ: (إليك عني يا دنيا، فحبلك على غاربك، قد انسللت من مخالبك، وأفلتّ من حبائلك، واجتنبت الذّهاب في مداحضك، أين القرون الّذين غررتهم بمداعبك؟ أين الأمم الّذين فتنتهم بزخارفك؟ فها هم رهائن القبور، ومضامين اللّحود! والله لو كنت شخصا مرئيّا، وقالبا حسّيّا، لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأمانيّ، وأمم ألقيتهم في المهاوي، وملوك أسلمتهم إلى التّلف، وأوردتهم موارد البلاء إذ لا ورد ولا صدر.. هيهات من وطئ دحضك زلق، ومن ركب لججك غرق، ومن ازورّ عن حبائلك وفّق، والسّالم منك لا يبالي إن ضاق به مناخه، والدّنيا عنده كيوم حان انسلاخه)(1)

وكان يقول: (اعزبي عني، فو الله لا أذلّ لك فتستذلّيني، ولا أسلس لك فتقوديني، وأيم الله ـ يمينا أستثني فيها بمشيئة الله ـ لأروضن نفسي رياضة تهشّ معها إلى القرص، إذا قدرت عليه مطعوما، وتقنع بالملح مأدوما، ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها، مستفرغة دموعها، أ تمتلئ السّائمة من رعيها فتبرك؟ وتشبع الرّبيضة من عشبها فتربض؟ ويأكل عليّ من زاده فيهجع، قرّت إذا عينه إذا اقتدى بعد السّنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة، والسّائمة المرعيّة!) (2)

وكان يقول في بعض خطبه: (و أحذّركم الدّنيا فإنها منزل قلعة، وليست بدار نجعة، قد تزيّنت بغرورها، وغرّت بزينتها. دارها هانت على ربّها، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرّها،

1() نهج البلاغة: الكتاب 45 ص 417.

2() نهج البلاغة: الكتاب 45 ص 417.

وحياتها بموتها، وحلوها بمرّها. لم يصفها الله تعالى لأوليائه، ولم يضن بها على أعدائه. خيرها زهيد، وشرّها عتيد، وجمعهـا ينفـد، وملكها يسلب، وعامرها يخرب. فما خير دار تنقض نقض البنـاء، وعمر يفنى فيها فناء الزّاد، ومدّة تنقطع انقطاع السّـير. اجعلـوا مـا افـترض اللـه عليكم من طلبكم، واسـألوه من أداء حقّـه مـا سألكم، وأسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعى بكم) (1)

وكان مع ذلـك كلـه يفـرق بين دنيـا الصـالحين المـترفعين، ودنيا العابثين المتثاقلين.. فقد روي أنه رأى قوما يـذمون الـدنيا ذما مطلقا، فراح يقول لهم: (ما بـال أقـوام يـذمّون الـدنيا وقـد انتحلوا الزهد فيها؟!، الدنيا منزل صدق لمن صـدّقها، ومسـكن عافية لمن فهم عنها، ودار غـنى لمن تـزوّد منهـا، مسـجد أنبيـاء الله، ومهبط وحيـه، ومصـلّى ملائكتـه، ومسـكن أحبّائـه، ومتجـر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمـة، وربحـوا منهـا الجنـة.فمن ذا يـذم الــدنيا وقــد آذنت ببينهــا؟! ونــادت بانقطاعهــا، ونعت نفســها بالزوال، ومثّلت ببلائها البلاء، وشـوّقت بسـرورها إلى السـرور، وراحت بفجيعة، وابتكرت بنعمة وعافية، ترهيبـا وترغيبـا، فـذمّها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون، خـدمتهم جميعـا فصـدقتهم، وذكّــرتهم فــاذّكّروا، ووعظتهم فــاتّعظوا، وخــوّفتهم فخــافوا، وشوقتهم فاشتاقوا) (2)

وسمع آخر يذم الدنيا ذما مطلقا، فراح يصحح لـه، ويقـول: (فأيّها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها! متى استذمّت إليك؟ بل متى غرّتك بنفسها؟ أ بمصارع آبائك من البلى؟! أم بمضاجع أمّهاتــك من الثرى؟ كم مرّضت بيـديك، وعلّلت بكفّيـك؟ تستوصـف لهم الدواء، وتطلب لهم الأطباء، لم تدرك فيـه طلبتـك، ولم تسـعف

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(113)

2() مستدرك نهج البلاغة: ج 1 ص 352- 357.

فيه بحاجتك. بل مثّلت الدنيا به نفسك، وبحاله حالك، غداة لا ينفعك أحباؤك، ولا يغني عنك نداؤك، يشتد من الموت أعالين المرضى، وأليم لوعات المضض، حين لا ينفع الأليل، ولا يدفع العويل، حين يحفز بها الحيزوم، ويغصّ بها الحلقوم، حين لا يسمعه النداء، ولا يروعه الدعاء، فيا طول الحزن عند انقطاع الأجل. ثمّ يراح به على شرجع تقلّه أكفّ أربع، فيضجع في قبره في لبث، وضيق جدث، فذهبت الجدّة، وانقطعت المدة، ورفضته العطفة، وقطعته اللطفة، لا تقاربه الإخلاء، ولا تلمّ به الزوّار، ولا اتّسقت به الدار. انقطع دونه الأثر، واستعجم دونه الخبر، وبكّرت ورثته، فأقسمت تركته، ولحقه الحوب، وأحاطت به الذنوب، فإن يكن قدّم خيرا طاب مكسبه، وإن يكن قدّم شرّا تبّ منقلبه، وكيف ينفع نفسا قرارها، والموت قصارها، والقبر مزارها؟ فكفى بهذا واعظا كفى) (1)

وطلب منه بعضهم أن يصف الدنيا، فقال: (ما أصف لك من دار من صحّ فيها ما آمن، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العذاب)

وسئل عن ذلك مرّة أخرى، فقال: (أطوّل أو أقصّر؟) فقال السائل: قصّر، فقال: (حلالها حساب وحرامها عذاب)(2)

ولم يكن ذلك منه مجرد كلمات، وإنما كانت حقائق عاشها، ورآها أصحابها، الذين قال بعضهم في وصفه: (كان والله! بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزخرفها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير

1() مستدرك نهج البلاغة: ج 1 ص 352- 357.

2() نهج البلاغة، رقم 82.

الدمعـة، طويـل الفكـرة، يعجبـه من اللبـاس مـا خشـن، ومن الطعام ما جشب، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن ـ والله! ـ مع تقرّبه لنا وقربه منا لا نكـاد نكلّمـه هيبة له، يعظّم أهل الدين، ويقـرّب المسـاكين، لا يطمـع القـويّ في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدلـه، وإني أشـهد باللـه لقـد رأيته في بعض مواقفه ـ وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ـ قابضا على لحيته يتململ تململ السـليم ويبكي بكـاء الحـزين وهو يقول: (يا دنيا غرّي غـيري، إليّ تعرّضـت أم إليّ تشـوّقت؟ هيهات هيهات، قـد باينتـك ثلاثـا لا رجعـة فيهـا، فعمـرك قصـير، وخطرك كبير، وعيشك حقير، آه! من قلّة الـزّاد، وبعـد السّـفر، ووحشة الطّريق) (1)

وقد ورث سائر أئمـة الهـدى عن النبـوة والإمـام علي كـل هذه المعاني السامية، فقد روي عن الإمـام السـجاد قولـه: (إن الدّنيا قد ارتحلت مدبرة وإن الآخـرة قـد ارتحلت مقبلـة، ولكـلّ واحد منهما بنون فكونـوا من أبنـاء الآخـرة ولا تكونـوا من أبنـاء الدّنيا، ألا وكونوا من الزّاهدين في الـدّنيا الرّاغـبين في الآخـرة، ألا إن الزّاهدين في الدّنيا اتّخذوا الأرض بساطا والـتراب فراشـا والمـاء طيبـا وقرّضـوا من الـدّنيا تقريضـا، ألا ومن اشـتاق إلى الجنــة ســلا عن الشــهوات، ومن أشــفق من النــار رجــع عن المحرّمات، ومن زهد في الدّنيا هانت عليه المصائب، ألا إن للّه عبادا كمن رأى أهل الجنـة في الجنـة مخلّـدين وكمن رأى أهـل النــار في النــار معــذّبين شــرورهم مأمونــة وقلــوبهم محزونــة أنفسهم عفيفـة وحـوائجهم خفيفـة صـبروا أيّامـا قليلـة فصـاروا بعقبى راحة طويلة، أمّا اللّيل فصافّون أقدامهم تجري دمــوعهم على خدودهم وهم يجارون إلى ربّهم يسعون في فكاك رقابهم، وأمّا النهار فحلماء علماء بررة أتقيـاء كـأنهم القـداح قـد بـراهم

1() لاستيعاب 3: 107، حلية الأولياء 1: 84.

الخـوف من العبـادة ينظـر إليهم النـاظر فيقـول: مرضـى، ومـا بالقوم من مرض، أم خولطوا، فقد خالط القوم أمــر عظيم من ذكر النار وما فيها)[1]

وروي أنه سئل: أيّ الأعمال أفضل عند الله تعالى؟ فقـال: (ما من عمل بعـد معرفـة اللـه تعـالى ومعرفـة رسـول اللـه ﷺ أفضل من بغض الدّنيا، وإن لذلك لشعبا كثيرة، وللمعاصي شـعبا فـأوّل مـا عصـى اللـه بـه الكـبر وهي معصـية إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين، والحرص وهي معصـية آدم وحـوّاء حين قال الله تعالى لهما: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّـجَرَةَ فَتَكُونَـا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعـراف: 19]، فأخـذا مـا لا حاجة بهما إليه؛ فدخل ذلك على ذريّتهما إلى يوم القيامة، وذلك أن أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة بـه إليـه، ثمّ الحسـد وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتلـه، فتشـعّب من ذلـك حبّ النسـاء وحبّ الـدّنيا وحبّ الرّئاسـة وحبّ الرّاحـة وحبّ الكلام وحبّ العلـوّ والـثروة، فصـرن سـبع خصـال فـاجتمعن كلّهن في حبّ الدّنيا، فقال الأنبياء والعلماء بعـد معرفـة ذلـك: حبّ الـدّنيا رأس كلّ خطيئة والدنيا دنيا آن دنيا بلاغ ودنيا ملعونة)[2]

وقـال الإمـام الكـاظم مخاطبـا جـابر بن عبـد اللـه: (إن المؤمـنين لم يطمئنـوا إلى الـدّنيا ببقـائهم فيهـا، ولم يـأمنوا قـدومهم الآخـرة، يـا جـابر الآخـرة دار قـرار، والـدّنيا دار فنـاء وزوال، ولكن أهل الدّنيا أهل غفلة، وكأن المؤمـنين هم الفقهـاء أهل فكرة وعبرة، لم يصـمهم عن ذكـر اللـه تعـالى مـا سـمعوا بـآذانهم ولم يعمهم عن ذكــر اللــه تعــالى مــا رأوا من الزينــة بأعينهم ففازوا بثواب الآخـرة كمـا فـازوا بـذلك العلم، واعلم يـا

1() الكافي ج 2 ص 131

2() الكافي ج 2 ص 130

جابر أن أهل التقوى أيسر أهل الدّنيا مئونة وأكثرهم لـك معونـة تذكر فيعينونك، وإن نسيت ذكروك، قوّالون بـأمر اللـه قوّامـون على أمر الله، قطعوا محبّتهم بمحبّة ربّهم ووحشوا الدّنيا لطاعة مليكهم ونظروا إلى الله تعالى وإلى محبّته بقلـوبهم وعلمـوا أن ذلك هو المنظور إليه لعظيم شأنه، فأنزل الدّنيا كمنزل نزلته ثمّ ارتحلت عنـه، أو كمـال وجدتـه في منامـك فاسـتيقظت وليس معك منه شيء، إني إنمـا ضـربت لـك هـذا مثلا لأنهـا عنـد أهـل اللّبّ والعلم بالله كفيء الظلال، يا جـابر فاحفـظ مـا اسـترعاك الله من دينه وحكمتـه ولا تسـألن عمّالـك عنـده إلّا مـا لـه عنـد نفسـك، فـإن تكن الـدّنيا على مـا وصـفت لـك فتحـوّل إلى دار المستعتب، فلعمري لربّ حـريص على أمـر قـد شـقي بـه حين أتاه ولربّ كـاره لأمـر قـد سـعد بـه حين أتـاه وذلـك قـول اللـه تعـالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللــه الَّذِينَ آمَنُــوا وَيَمْحَــقَ الْكَــافِرِينَ﴾ [آل عمران: 141]

وضرب مثلا للدنيا، فقال: (مثل الحريص على الـدّنيا كمثـل دودة القزّ كلّما ازدادت على نفسها لفّا كان أبعد لها من الخروج حتّى تموت غمّا)(1)

وقال الإمـام الصـادق: (إذا تخلّى المـؤمن من الـدّنيا سـما ووجد حلاوة حبّ الله وكان عند أهل الدّنيا كأنه قد خولط وإنمــا خالط القوم حلاوة حبّ الله فلم يشتغلوا بغيره)(2)

وقال: (جعل الخير كلّه في بيت وجعـل مفتاحـه الزّهـد في الدّنيا، ولا يجد الرّجل حلاوة الإيمـان في قلبـه حتّى لا يبـالي من أكل الدّنيا)(3)

1() الكافي، ج2 ص 134.

2() الكافي ج 2 ص 130

3() الكافي، ج2 ص 128.

وقـال: (من زهـد في الـدّنيا أثبت اللـه الحكمـة في قلبـه وأنطق بها لسانه وبصّره عيوب الـدّنيا داءهـا ودواءهـا، وأخرجـه من الدّنيا سالما إلى دار السّلام)(4).

وهكـذا اتفـق جميـع أئمـة الهـدى على وصـف الـدنيا بمـا سمعت.. فردد هذه العبارات ـ أيها المريد الصادق ـ وتأمل فيها، وعش معانيها، لتخرج حب الدنيا من قلبك؛ فلا يمكنك أن تسـير إلى الله، أو تسلك سبيل الصـديقين، وأنت موثـوق في قيودهـا، مقيد بأغلالها.

4() الكافي، ج2 ص 128.

حب المال

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن المال، وسـر اعتبار الصالحين لحبه مثلبا من مثالب النفس الأمارة؛ فلا يصح السلوك إلى الله قبل إخراجه ونزع كل آثاره وثماره.. ثم سألتني عن المعارف والأعمال التي تتمكن بها من فعل ذلك.

وكل أسئلتك في هذا محترمة وجيهة، ويجب علي أن أجيب عليها، ووفق الشروط التي طلبتها مني، بل طلبتها مني الحقيقة نفسها، وهي الاكتفاء بما ورد في المصادر المقدسة، دون غيرها، حتى لا تشوه الحقيقة بأي دخن.

وابتداء أقول لك، ولكل أولئك الذين يقابلون مثل هذه المعاني بالرفض والاشمئزاز، واعتبارها دخيلة على الدين، ثم يوردون لذلك ما ورد في النصوص المقدسة من تكريم المال، واحترامه، واعتباره عصب الحياة، أو قواما لها، أن هناك فرقا بين المال وبين حب المال.

فالمال في حد ذاته خلق من خلق الله، والله ما خلق شيئا إلا لمصلحة ومنفعة ومقصد، ولهذا نسب المال إليه، وأكرمه بتلك النسبة، بل سماه خيرا، فقال في صفات الإنسان: ﴿وَإِنهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8]

لكن حب المال شيء مختلف.. فالمال وسيلة لا غاية، وحب الوسيلة قد يصرف عن الغاية، ولذلك يتحول إلى حجاب دونها.

ولذلك لم يكن للتحذيرات الواردة حول حب المال، أي علاقة بضرورة كسب المال، أو إنفاقه، أو الاهتمام بحفظه، أو صرفه في المواضع التي يحتاج أن يصرف فيها.. أو الاهتمام

بالجانب الاقتصادي ودراسته والتعمق فيه.. وغير ذلك من المعاني.. فكل ذلك لا علاقة له بحب المال.

ذلك أن تلك الأمور جميعا لا علاقة لها بالقلب، ولا بالمشاعر، وإنما علاقتها بالجد والاجتهاد والضرب في الأرض، وكل ذلك من الأمور المحمودة التي حثت عليها الشريعة، بل إن الله تعالى قرن الضاربين في الأرض بالمجاهدين في سبيل الله، فقال: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ الله وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله﴾ (المزمل: 20)

وهكذا قرن رسول الله ﷺ بين التجار النشطين الذين يجلبون السلع لأسواق المسلمين بالمجاهدين في سبيل الله، فقال: (الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، والمحتكر في سوقنا كالملحد في كتاب الله) [1]

ولذلك لا تخف ـ أيها المريد الصادق ـ فما سأورده لك من علاجات لإخراج حب المال من القلب، ليس المراد منها إخراجه من الجيب، أو عدم امتلاكه مطلقا، أو عدم السعي لكسبه؛ فلا يمكن أن تستقيم الحياة بذلك، وإلا أصبح السائرون في طريق الله مجرد كسالى شحاذين لا يملكون هذا المصدر من مصادر قوة المؤمن.

بناء على هذا، وبناء على طلبك المرتبط بذكر العلاج الذي يخرج حب المال من القلب، فسأذكر لك علاجين، كلاهما وردت به النصوص المقدسة، أحدهما يرتبط بالمعارف التي تتسلل إلى عقلك وقلبك، لتصحح تصوراتها الخاطئة، والثاني يرتبط بالسلوكات التي تمارسها في حياتك، نتيجة لتلك المعارف التي

1() رواه ابن ماجه، والزبير بن بكار في أخبار المدينة والحاكم.

اقتنعت بها، وتشكلت منها شخصيتك الجديدة.

العلاج المعرفي:

أول علاج لحب المال ـ أيها المريد الصادق ـ علمك أنه فتنة واختبار إلهي لحقيقتك، وتساميها أو تثاقلها؛ فهو ليس نعمة محضة للتلذذ المجرد، مثلما هو حال الزهرة الجميلة، التي يمكنك أن تحبها لرائحتها الطيبة، أو تتلذذ بقسماتها البهية، من غير أن يؤثر ذلك الحب فيك، وبأي وجه من الوجوه.. فتلك الزهرة جمال محض لا علاقة له بالتكليف، ولا بالفتنة.

لكن حب المال مختلف؛ ذلك أن الاستغراق فيه قد يجعلك كذلك السكران الثمل الذي لا يرضى ولا يسكن إلا إذا شرب من الكأس التي لا تزيده إلا سكرا وثمالة.

وهكذا حب المال؛ فهو إذا تحول إلى شراب مسكر، جعل من صاحبه مجرد خادم له، يفرّط في كل شيء من أجل كسبه، ويضيع كل شيء من أجل حفظه والتقتير به، ثم يجعله بعد ذلك كله أسيرا لهواه، مشغولا به عن حقائق الوجود، حيث يتحول الكون عنده بسعته إلى مجرد دنانير ودراهم وكنوز.. ينشغل بها عن حياته وحقيقته والوظائف التي كلف بها.

وبذلك يصبح عبدا من عبيده، بدل أن يكون سيدا عليه، يستخدمه فيما يحتاجه.. ولهذا قال رسول الله ﷺ:)تعس عبد الدينار تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش) (1)

وبناء على هذه المعاني يذكر القرآن الكريم حقيقة المال، وكونه اختبارا وفتنة إلهية للتفريق بين من يستخدمونه، ومن يستخدمهم، أو بين عبيده وبين عبيد الله.. يقول الله تعالى:

1() رواه البخاري.

﴿وَاعْلَمُـوا أَنمَـا أَمْـوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَـةٌ وَأَن اللـه عِنْـدَهُ أَجْـرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 28]

ولهذا كان من ضرورات هذا الابتلاء أن يتعلق باسـمي اللـه تعالى [المعطي المـانع]؛ فاللـه هـو الـذي يعطي هـذا المـال، لا تكريمـا، ويمنعـه لا إهانـة، وإنمـا يفعـل ذلـك كلـه للاختبـار والتمحيص.

ولذلك كان من الأدوية العرفانية المهمة في العلاقة بالمال أن تعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن زيادته أو نقصه لا علاقـة لهـا بحقيقتـك، ولا بـدرجتك، كمـا يتـوهم الغـافلون الـذين يتصـورون زيادة المال إكراما، ونقصه إهانة، كما قـال اللـه تعـالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَـا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَـهُ وَنَعَّمَـهُ فَيَقُـولُ رَبِّي أَكْـرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُـولُ رَبِّي أَهَـانَنِ (16) كَلَّا﴾ [الفجر: 15 - 17]

ولهذا ينهى اللـه تعـالى عن النظـر إلى الأغنيـاء باعتبـارهم مكرمين، لأن ذلك يؤثر في علاقة الإنسان بربه، ويجعلـه يشـعر بنقص وقصـور تجـاههم يـؤثر في همتـه وشخصـيته تـأثيرا بليغـا يحول بينها وبين مقتضيات السلوك.

ولذلك اعتـبر اللـه تعـالى الموقـف من المـال والغـنى من الفوارق المهمة بين أهـل العلم والإيمـان وغـيرهم، وقـد ضـرب المثل على ذلك بمن أثرت فيهم رؤيتهم لقارون وكنوزه وزينتـه، فراحوا يقولون بحسرة وألم: ﴿ يَالَيْتَ لَنَا مِثْـلَ مَـا أُوتِيَ قَـارُونُ إِنهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصـص: 79]، بينمـا قـال ﴿الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَـا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: 80]

فأهل العلم الصالحون نظروا إلى أمـوال قـارون باعتبارهـا

أسئلة واختبارات سئل عنها، وكُلف بالإجابة الصحيحة عليها، ولذلك حزنوا له، ولأخطائه في الإجابة، ولم يؤثر فيهم غناه، ولم يصرفهم عن رضاهم عن ربهم، وفرحهم بما آتاهم من العلم والحكمة.

ولهذا كان لهذه المعرفة آثارها النفسية الجميلة في حماية المؤمن من كثير من مثالب النفس الأمارة التي تجعله يحسد أو يحقد أو يسخط أو ينزعج بسبب تلك الفروق التي تفصل بينه وبين أصحاب الثروات والأموال، بل بعكس ذلك تجعله مشفقا عليهم، حزينا على تقصيرهم وتفريطهم.

وكل هذه المعاني يكتشفها المؤمن عند قراءته للآيات الكثيرة التي تنهى عن الإعجاب بأموال الجاحدين الظالمين الذين سيعذبون بها في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: 55]

ويضرب الأمثلة الكثيرة على أولئك الذين فشلوا في الاختبارات المرتبطة بالمال، كما فشلوا في الاختبارات المرتبطة بغيره، فيقول: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: 69]

ويخبر عن الأموال التي أصبحت حسرة للمحبين لها بعد فشلهم في الاختبارات المرتبطة بها، فيقول:﴿ن الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36]

ويخبر عن مصير أولئك الأحبار والرهبان الذين بـاعوا دينهم بـالأموال، فيقـول:﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِن كَثِـيرًا مِنَ الْأَحْبَـارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الناسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ يَكْنِـزُونَ الـذَّهَبَ وَالْفِضَّـةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَـا فِي سَـبِيلِ اللـه فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]، ثم يذكر بعض مظاهر ذلك العذاب، فيقول: ﴿ يَـوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَـا فِي نَـارِ جَهَنمَ فَتُكْـوَى بِهَـا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِـكُمْ فَـذُوقُوا مَـا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: 35]

ويخبر عن مصـير الحريصـين الـذين أداهم حب المـال إلى أكل أموال اليتامى، فيقـول: ﴿إِن الَّذِينَ يَـأْكُلُونَ أَمْـوَالَ الْيَتَـامَى ظُلْمًا إِنمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَـعِيرًا﴾ [النسـاء: 10]

وغيرهـا من الآيـات الكريمـة الـتي تعطي صـورة أخـرى للمال، غير تلك الصورة الـتي يـراه بهـا المتثـاقلون إلى الأرض، فهي تصوره بكونه عبارة عن صـفائح محمـاة تكـوى بهـا الجبـاه والجنـوب والظهـور، أو نـيران تغلي بهـا البطـون، أو انتكاسـة تخسف بصاحبها، فيتحـول من الحريـة الـتي وهبهـا اللـه لـه إلى العبودية التي ارتضاها لنفسه.

وفي مقابل هذه الصورة ذلـك المـال الـذي عـرف صـاحبه كيف يتعامل معه، فلم يكسـبه إلا من حلـه، ولم يصـرفه إلا في محله، ولم يملأ به قلبه، ولم يشغل بـه نفسـه؛ فهـو يتحـول إلى نعمة لصاحبه، ووسـيلة إلى رضـوان ربـه، كمـا قـال تعـالى عن المنفقين في سـبيل اللـه: ﴿مَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُـنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَالله يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَـا أَنْفَقُـوا مَنـا وَلَا أَذًى لَهُمْ

أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ [البقـرة: 261، 262]

وقال عنهم: الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوَالَهُمْ بِاللَّيْـلِ وَالنهَـارِ سِـرًّا وَعَلَانِيَـــةً فَلَهُمْ أَجْـــرُهُمْ عِنْـــدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَـــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: 274]

وقال عن المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله: لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْـرُ أُولِي الضَّـرَرِ وَالْمُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللـه بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فَضَّـلَ اللـه الْمُجَاهِـدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللـه الْحُسْـنَى وَفَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِـدِينَ أَجْـرًا عَظِيمًـا [النسـاء: 95]

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن أول مـا عليك القيام به لتحقيق العلاقة الصحيحة بينـك وبين المـال، هي أن تعتقد أن المال مال الله، وأنـك مجـرد مسـتخلف فيـه، وأنـه ليس لك كامل الحرية في طرق كسبه، أو التصرف في إنفاقه.

ولذلك فـإن وظائفـك المرتبطـة بـه هي القيـام نحـوه بمـا تقتضيه عبوديتك لله، كما قال تعالى: قُـلْ إِن صَـلَاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الأنعام: 162]

فـإذا طلبت الشـريعة منـك، بحكم قـدراتك ومواهبـك أن تكون صاحب أمـوال كثـيرة؛ فـإن عبوديتـك حينهـا أن تجلب مـا قـدرت عليـه من الأرزاق الـتي يحتاجهـا إخوانـك في الإنسـانية، سواء بالاتجار فيها، أو بصـناعتها، لأنـك بـذلك تكـون قـد تخلقت باسم الله: (الرزاق) ويكون لك من الأجـر إذا نـويت ذلـك مـا لا

يخطر له على بال.

لكنك إن رحت تكنز ذلـك المـال، أو تكتفي باسـتعماله في الترف وشؤونك الخاصة؛ فإنك حينها تخرج من عبوديتـك لربـك، وتصبح عبدا لمالك، لا عبدا لربك.

ولذلك أجاب الله تعالى من سألوا عن حدود الإنفاق بقوله: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُـلِ الْعَفْـوَ ﴾ [البقـرة: 219]، فـالعفو في الآية الكريمـة يعـني كـل مـا فضـل عن الحاجـات الخاصـة، والتي لا تبلغ مبلغ المترفين.

والإنفـاق فيهـا لا يشـمل فقـط تلـك الصـدقات، ولا تلـك الزكوات التي نص عليها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَـقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: 24، 25]؛ فلم يقل أحد من المتقدمين أو المتأخرين بأن كل دينار فضل عن الحاجة يجب التصدق به، ولو كـان الأمـر كـذلك لم يكن لأحكـام الزكـاة وأنصبتها ومقاديرها أي معـنى.. ولكن المـراد هـو اسـتثمار تلـك الأموال في كل الأعمال التي تعود بالمصلحة على البشر.

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ أن الذي يقرض غيره ينـال أجـرا زائد على المتصدق مع أن مال الصدقات يذهب عن صــاحبه ولا يرجع، ومال القرض يرجع، فقد قـال ﷺ: (رأيت ليلـة أسـري بي مكتوباً على باب الجنة الصدقة بعشـر أمثالهـا والقـرض بثمانيـة عشر) فقلت لجبريـل: (مـا بـال القـرض أفضـل من الصـدقة؟) قــال: (لأن الســائل يســأل وعنــده شــيء، والمســتقرض لا يستقرض إلا من حاجة)(1)

ولهذا ورد النهي الشديد عن كـنز المـال وادخـاره، وعـدم الاستفادة منه، أو ترك الغير ليستفيد منـه، لأن ذلـك يجعـل من

(1) رواه الطبراني في الكبير..

المال مقصودا لذاته، لا وسيلة لغيره، وقد ورد في الحديث أن رجلا من أهل الصفة مات، فوجد في بردته دينار، فقال رسول الله ﷺ: (كية)، ثم مات آخر فوجد له ديناران، فقال رسول الله ﷺ: (كيتان) [1]

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تفعل مثلما فعل ذلك الذي أراد أن يخرج حب المال من قلبه، فراح يرميه في النهر، كما حدث عن ذلك بعضهم، فقال: دخلت على الشبلي، فقال مفتونا يا أحمد، فقلت: ما الخبر؟ قال: كنت جالسا فجرى بخاطري أنك بخيل: فقلت: ما أنا بخيل؛ فعاد منى خاطري، وقال: بل أنت بخيل، فقلت: ما فتح اليوم علي بشيء إلا دفعته إلى أول فقير يلقاني.. فما استتم الخاطر حتى دخل علي صاحب المؤنس الخادم، ومعه خمسون دينارا، فقال: اجعلها في مصالحك؛ فقمت فأخذتها وخرجت. وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه، فتقدمت إليه، وناولته الدنانير، فقال: أعطها المزين، فقلت: إن جملتها كذا وكذا، قال: أو ليس قد قلنا لك إنك بخيل؟ قال: فناولتها المزين، فقال المزين: قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا.. فرميت بها في دجلة، وقلت ما أعزك أحد إلا أذله الله عز وجل[2].

فرمي المال حرام، وفاعل ذلك مثل من يرمي السلاح من يده في معاركه مع العدو الظالم، أو مثل من يتخلى عن مسؤوليته تجاه من كلف بالإنفاق عليهم.

وقد كان في إمكانه إن شاء أن يرحل إلى المسافات البعيدة ليبحث عن المستحقين لذلك المال؛ فيكون له به الأجر

1() رواه الطبري.

2() إحياء علوم الدين (3/ 25)

العظيم، ويكون قد أدى ما كلف به من تلك التكـاليف الشـرعية الكثيرة التي تعتبر الإنفـاق على الفقـراء والمسـاكين وأصـحاب الحاجات أساسا من أسس الدين، كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَـذِّبُ بِالـدِّينِ (1) فَـذَلِكَ الَّذِي يَـدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون: 1 - 3]

لكن عزل الشريعة، وتحكيم الهـوى في الـدين، يجعـل من صاحبها عرضة لوساوس الشيطان، الذي يزين له ما يفعلــه من الآثام، موهما إياه أنه يسعى في تزكيـة نفسـه، وهـو لا يعلم أن تزكية النفس لا تكون إلا بمقتضى الشرع.

ولهذا فإن عليك ـ أيها المريد الصـادق ــ إن أردت أن تنجح في الاختبـارات المرتبطـة بالمـال أن تجيب على تلـك الأسـئلة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ في الدنيا قبـل الآخـرة، فقـد ورد في الحديث:

(ما تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسـأل عن أربـع: عن عمـره فيمـا أفنـاه، وعن شـبابه فيمـا أبلاه، وعن مالـه من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه) (1)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (الدنيا خضـرة حلـوة، من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه في حقـه أثابـه اللـه عليـه وأورده جنته، ومن اكتسب فيهـا مـالا من غـير حلـه وأنفقـه في غير حقـه أورده اللـه دار الهـوان، ورب متخـوض في مـال اللـه ورسوله له النار يـوم القيامـة، يقـول اللـه تعـالى: ﴿كُلَّمَـا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ (الاسراء: 97) (2)

وقال: (لا يدخل الجنة لحم ودم نبتا من سحت والنـار أولى

1() رواه الترمذي وصححه.

2() رواه البيهقي.

به) (1)

وقال: (لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به) (2)

ثم إن عليك ـ أيها المريد الصادق ـ لتنفي عن قلبك كل تعلق بالمال يصرفك عن ربك، أن تجمل في الطلب، ولا تبالغ فيه، ولا في الحرص، فإن الشيطان قد يزين لك السعي في كسب المال لتنفقه في سبيل الله، ثم يشغلك بجمعه عن هدفك الذي قصدته، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّه لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَن وَلَنَكُونَن مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [التوبة: 75، 76]

وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (ألا أيّها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس للعبد إلّا ما كتب له، ولن يذهب عبد من الدّنيا حتّى يأتيه ما كتب له في الدّنيا وهي راغمة)(3)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (إن روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتّى تستكمل رزقها فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب)(4).

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن الحرص أخطر الشواغل على القلب، لأنه يجعله منشغلا به انشغالا كليا عن كل مكرمة، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى وراءهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا

1() رواه ابن حبان في صحيحه.

2() رواه الترمذي، وفي رواية بسند حسن: (لا يدخل الجنة جسد غذي بحرام)

3() الحاكم في المستدرك ج 2 ص 4. والبيهقي في السنن ج 5 ص 264.

4() الحاكم في المستدرك ج 2 ص 4 وابن أبي الدنيا في القناعة.

التراب ويتوب الله على من تاب)[1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إن الله عزّ وجلّ يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحبّ أن يكون إليه الثاني، ولو كان له الثاني لأحبّ أن يكون إليهما الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب ويتوب الله على من تاب)[2]

وإنما يعينك على هذا ـ أيها المريد الصادق ـ أن تقنع من الدنيا بما يكفيك، ولا تتجاوزه إلى ما يطغيك، كما ورد في الحديث قوله ﷺ: (طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به)[3]، وهذا لا يضاد الغنى كما قد يتوهمه المتوهمون، وإنما يضاد الترف.. فصاحب المال الذي يستثمره فيما ينفع الخلق مجرد وكيل فيه، ولذلك لا يتصرف فيه كمالك، وإنما كصاحب مسؤولية يحاسب نفسه على كل دقيق وجليل تجاهها.

وقد قال بعض الصالحين مشيرا إلى هذا: (أهل الأموال يأكلون ونأكل، ويشربون ونشرب، ويلبسون ونلبس، لهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر معهم إليها وعليهم حسابها ونحن منه براء)

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن الغنى الحقيقي هو غنى النفس، وليس غنى العرض والمتاع، فذلك غنى قارون، ولذلك قال ﷺ: (ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس)[4]

1() البخاري ج 8 ص 115.

2() أحمد ج 5 ص 219 وابن ماجه رقم 4235.

3() الترمذي ج 9 ص 211 وقال: حسن صحيح.

4() البخاري ج 8 ص 118.

وقال: (كن ورعا تكن أعبـد النـاس، وكن قانعـا تكن أشـكر الناس، وأحبّ للناس ما تحبّ لنفسك تكن مؤمنا)(5).

و روي أن موسى عليه السّلام سأل ربّه تعالى فقـال: (أيّ عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم لما أعطيته، قال: فأيّهم أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه)

هذه بعض وصاياي إليك ـ أيها المريـد الصـادق ــ في شـأن المال، فاسمعها سماع المؤمنين، لا سماع المجـادلين، وسـترى كيف يملأ الله قلبك بالغنى بـه، فمن اسـتغنى بغـير اللـه افتقـر، ومن ملأ قلبـه بغـير محبتـه انتكسـت طبيعتـه، وتسـلطت عليـه نفسه الأمارة، واجتمع عليه كل شياطين الإنس والجن.

5() ابن ماجه رقم 4217.

حب الجاه

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الفـرح الـذي ملأ قلبك بسبب ذلك الاستقبال الذي لقيته في تلك المدينة التي زرتها، وكيف أنهم أكرموك، وكرّموك، وقـدموا لـك كـل أصـناف الهدايا.. وأنك طيلة مكوثك معهم كنت كالملك عليهم، يـأتمرون بما تأمر، وينتهون عما تنتهي..

وأخبرتني أنهم ذكروا لك ـ في معـرض ثنـائهم عليـك ــ أن الملــوك وإن كــانوا يملكــون أرضــهم؛ فــأنت تملــك قلــوبهم ومشاعرهم، وأنك لذلك أغنى من الملوك.. لأن مالهم جميعا لك من حقك.. ذلك أنهم وإن كانوا يعطونـه للملـوك كراهيـة، فهم يعطونـه لـك طوعـا، وليس عليـك سـوى الإشـارة بطلب ذلـك، ولست بحاجة مثل الملوك لسطوة ولا لشرطة ولا لأي عنف.

وأرسلت لي مع كل تلك الأخبار السارة، تلك القصائد التي مدحوك بها، ومثلها تلك التي هجوا بها أعداءك.

وأنا لا ألومهم على ذلك التكريم الذي كرموك به؛ فهو دليل على طيبتهم وأخلاقهم، واحترامهم لأهل العلم، وتطبيقهم وصايا رسول الله ﷺ في ذلك، فاحترام العلماء دليل على صفاء النفس ورقة الطبع؛ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن كل شيء يحترم أهل العلم حتى الحوت في البحر؛ ففي الحديث قال ﷺ: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على

سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر) [1]

ولا ألومـك ــ كـذلك ــ على ذلـك الفـرح الـذي قـابلت بـه استقبالهم، والبشر الذي أبديته لهم؛ فما كان لــك أن تعبس في وجوههم، ولا أن تقابل إكرامهم بالجفاء والغلظة والقسوة، وقـد قال رسول الله ﷺ: (تبسمك في وجه أخيك صدقة) [2]

لكن الـذي ألومـك عليـه، أو أحـذرك منـه أن يتحـول ذلـك التكريم الذي حظيت بــه إلى مثلب من مثـالب النفس الأمـارة، يجعلك تشعر بأنك حقيق بذلك الاحترام والتقدير، وأن عليهم أن يفعلـوا ذلـك بـك، وإن قصـروا لمتهم، لأنـك حينـذاك تقـع فيمـا حذرت منه النصـوص المقدسـة من حب الجـاه والسـمعة، كمـا ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (بحسب المرء من الشــرّ إلّا من عصــمه اللــه من الســوء أن يشــير النــاس إليــه بالأصـابع في دينـه ودنيـاه، إن اللـه لا ينظـر إلى صـوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم) [3]

وذكر ﷺ خطورة ذلـك على القلب، ودوره في تنميـة بـذور النفاق فيه، فقال: (حبّ الجاه والمال ينبتـان النفـاق في القلب كما ينبت الماء البقل)[4].. وصدق رسول الله ﷺ في ذلك، ذلـك أن مثل ذلك التكريم الذي يحظى بـه صـاحب الجـاه قـد يجعلـه يتوانى في النصيحة، أو يقصر في الأمــر بــالمعروف والنهي عن

1() أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي.

2() البخاري في الأدب والترمذي وابن حبان.

3() رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب.

4() قال العراقي في تخريج أحاديث [إحياء علوم الدين (3/ـ 159)]: رواه أبو منصـور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنـه قـال حب الغنـاء وقال العشب مكان البقل.

المنكر إرضاء لمن يكرمونه ويثنون عليـه، وذلـك مـا قـد يجعلـه يحسـن لهم سـيئاتهم، وهـو النفـاق بعينـه، وقـد أشـار بعض الصـالحين إلى ذلـك، فقـال: (إذا رأيت الرجـل يحب أن يحبـه الناس كلهم ويكره أن يذكره أحد بسوء فاعلم أنه منافق، فهـذا داخل في وصف الله تعالى المنافقين بقوله تعـالى: ﴿سَـتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَـأْمَنُوكُمْ وَيَـأْمَنُوا قَـوْمَهُمْ﴾ [النسـاء: 91]، ثم قال بعـدها: ﴿كُـلَّ مَـا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَـةِ أُرْكِسُـوا فِيهَـا﴾ [النسـاء: 91])

ولهـذا أخـبر رسـول اللـه ﷺ عن خطـور حب الجـاه على الـدين، فقـال: (مـا ذئبـان ضـاريان أرسـلا في زريبـة غنم بـأكثر فسادا من حبّ الجاه والمال والشرف في دين الرّجل المسلم) (1).

بل إنه ﷺ في حديث آخر بين أن الهلاك وفساد الأديـان لم يرتبط بحب المال فقط، وإنما ارتبط معه بحب الجاه، فقد قـال ﷺ: (إنما هلـك النـاس باتّبـاع الهـوى وحبّ الثنـاء)، وفي روايـة: (حب الثناء من الناس يعمي ويصم)(2)

وهكذا ورد عن أئمة الهـدى التحـذير من أولئـك الـذين قـد تحـولهم الشـهرة والرئاسـة والجـاه إلى عبيـد عنـد الخلـق، يـداهنونهم، ويرضـونهم، ولـو بسـخط اللـه، فقـد قـال الإمـام الصادق: (إيّاكم وهـؤلاء الرّؤسـاء الّـذين يترأسـون فـو اللـه مـا خفقت النعال خلف رجل إلّا هلّك وأهلك)(3).

وفي حديث آخر ذكر ما هو أخطر من ذلك، فقال: (ملعون

(1) الكافي ج 2 ص 297.

(2) أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

(3) الكافي ج 2 ص 297.

من ترأّس، ملعون من همّ بها، ملعون من حدّث بهـا نفسـه)[1]، وقال: (من أراد الرّئاسة هلك)[2]

وأوصى الإمام الكاظم بعض مريديه وتلاميذه، فقال: (ويحك يا أبا الرّبيع لا تطلبن الرّئاسة، ولا تكن ذئبا، ولا تأكل بنا الناس، فيفقرك الله، ولا تقل فينا ما لا نقول في أنفسنا فإنك موقوف ومسئول لا محالة، فإن كنت صادقا صدّقناك وإن كنت كاذبا كذّبناك)[3]

إذا علمت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ ودب إلى نفسك الحنين إلى التخلص من هذا المثلب وكل ثماره السامة التي ينتجها، فاعلم أنك تحتاج إلى علاجين: معرفي تقنع به عقلك، وسلوكي تسير به في حياتك.

العلاج المعرفي:

أما الأول، فيبدأ بمعرفتك لخطر حب الجاه على قلبك، ودوره في إنبات شجرة النفاق التي هي أسوأ الأشجار، وأكثرها سمية، وكيف لا تكون كذلك، وهي التي توعد الله أهلها بالدرك الأسفل من النار، فقال: ﴿إِن الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: 145]

وفي مقابلهم ورد الثناء العظيم على من لم يستعبد حب الجاه قلبه؛ فلذلك صار لا يبالي بالظهور، ولا بالخفاء، لأنه عبد الله، لا عبد القلوب التي يتوهم أنه امتلكها؛ فقد أخبر الله تعالى عن الجزاء العظيم المعد لهم، فقال: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

1() الكافي ج 2 ص 298.

2() الكافي ج 2 ص 298.

3() الكافي ج 2 ص 298.

[القصص: 83]

وانظر ـ أيها المريد الصادق ــ كيف جمع الله تعالى بين إرادة العلو والفساد، لتعلم أن كل من يريد أن يعلي ذاته لا الحق الذي يمثله سيقع في الفساد لا محالة، وكيف لا يقع فيه، وهو لم يرد ربه، وإنما أراد نفسه.

ولهذا أثنى الله تعالى على أولئك الذين جهل الناس قدرهم، بكونهم لا يريدون إلا الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: 52]

ومثله تلك الأحاديث الكثيرة التي تثني عليهم أعظم الثناء، ومنها قوله ﷺ: (ربّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه، منهم البراء بن مالك) (1)

وفي حديث آخر قال ﷺ: (ألا أدلّكم على أهل الجنة؟: كلّ ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبرّه، وأهل النار كلّ متكبّر جوّاظ)(2)

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إن من امّتي من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه إيّاه، ولو سأله درهما لم يعطه إيّاه، ولو سأله فلسا لم يعطه إيّاه، ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إيّاه، ولو سأله الدّنيا لم يعطه إيّاها، وما منعها إيّاه إلّا لهوانها عليه، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه)(3).

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إن اليسير من الرّياء شرك، وإن الله يحبّ الأتقياء الأخفياء الّذين إن غابوا لم يفقدوا وإذا حضروا

1() مسلم ج 8 ص 36 و154.

2() مسلم ج 8 ص 154.

3() الطبراني في الأوسط، كما في مجمع الزوائد ج 10 ص 264.

لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كلّ غبراء مظلمة) (1).

وفي حديث آخـر قـال ﷺ: (إن أغبـط أوليـائي عبـد مـؤمن خفيف الحاذّ ذو حظّ من صـلاة أحسـن عبـادة ربّـه وأطاعـه في السرّ والعلانية وكـان غامضـا في النـاس لا يشـار إليـه بالأصـابع وصبر على ذلك)، ثمّ نقـر رسـول اللـه ﷺ بيـده فقـال: (عجّلت منيّته وقلّ تراثه وقلّت بواكيه)(2)

وفي حديث آخر قال ﷺ: (طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغـبرّة قـدماه، إن كـان في الحراسـة كان في الحراسـة، وإن كـان في السّـاقة كـان في السّـاقة، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفّع) (3)

فـردد ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ بينـك وبين نفسـك هـذه الأحاديث العظيمة، واستشـعر ذلـك الجـزاء العظيم الـذي ينالـه من ضحى بجاه الدنيا، في سبيل ربه، ذلك الذي يكرمه الله بكل أنواع الكرامة، فيتقبل أعماله ويقربه إليه، ويحبه.

فأيهما أفضـل لـك، هـل ذلـك الجـاه الـذي تملـك بـه بعض قلوب البشر، ولـوقت محـدود، أم ذلـك الجـاه الـذي تنالـه عنـد ربك، ملائكته وعباده الصالحين، كما قال تعـالى: ﴿وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلَى عَـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن من سنن اللـه تعـالى في الجزاء والعقوبة أنه يعاقب كل شـخص أعـرض عنـه إلى غـيره،

---

(1) الحاكم وقال: صحيح الاسناد، وابن ماجه رقم 3989.

(2) ابن ماجه رقم 4117. ورواه الكليني في الكافي ج 2 ص 141.

(3) رواه البخاري.

بذلك الغير.. فمن آثر المـال على اللـه عاقبـه بمالـه، كمـا قـال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنمَا يُرِيـدُ اللـه لِيُعَـذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55]

ومن آثر أهله وأولاده على مرضـاة ربـه، عـوقب بنفـورهم منه أحوج ما يكون إليهم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَـرْءُ مِنْ أَخِيـهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيـهِ (35) وَصَـاحِبَتِهِ وَبَنِيـهِ (36) لِكُـلِّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 34 - 37]

وهكذا، فإن من أرضـى النـاس بسـخط اللـه ابتغـاء للجـاه عندهم، يعاقَب بأن تحول القلوب عنه، فيتحول حبهـا لـه بغضـا، وقربها منه بعدا، وصداقتها له عداوة، كما قال تعالى: أنـه قـال: (من التمس رضى الله بسخط الناس، رضي الله عنـه، وأرضـى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسـخط اللـه، سـخط اللـه عليه، وأسخط عليه الناس) [1]، وفي روايـة: (من التمس رضـاء الله بسخط الناس كفاه اللـه مؤنـة النـاس، ومن التمس رضـاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس)

العلاج السلوكي:

إذا علمت كل ذلك ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ ورددتـه بينـك وبين نفسك، وتأملت فيه حق التأمل؛ فإن أول نتيجـة لـذلك هـو أن تحن نفسك للخروج عن أسر كـل شـيء، حـتى تصـبح عبـدا لربك وحده.

وذلك ما يستدعي منك الكثير من الأعمـال الـتي تثبت بهـا صدق ذلك الحنين، وأولها ألا تبحث عما يبحث عنـه طلاب الجـاه من وسائل امتلاك القلوب، وهي كثيرة جدا، منهـا مـا عـبر عنـه الإمام عليّ بقوله: (تبـذّل ولا تشـتهر، ولا ترفـع شخصـك لتـذكر

1() رواه الترمذي (2414)

وتعلم، واكتم واصمت تسلم تسرّ الأبرار وتغيظ الفجّار) [2]

ومنها ما عبر عنه بعض الصالحين بقوله: (والله ما صدّق الله عبد إلّا سرّه أن لا يشعر بمكانه)

وقال آخر: (إن خفق النعال حول الرّجال قلّما تلبث عليه قلوب الحمقى)

وأوصى بعض الصالحين مريدا له، فقال: (إن استطعت أن تعرف ولا تعرف، وتمشي ولا يمشي إليك، وتسأل ولا تسأل فافعل)

و خرج بعض الصالحين في سفر فتبعه ناس كثير، فقال: (لو لا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله)

وعوتب بعضهم في طول قميصه، فقال: (إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله، وهي اليوم في تشميره)

وقال آخر: (كانوا يكرهون الشهرتين الثياب الجيّدة والثياب الرديّة إذ الأبصار تمتدّ إليهما جميعا)

إذا علمت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فإياك أن يتطرق إلى قلبك سوء الظن بالأنبياء والصالحين الذين ملأ ذكرهم الآفاق، وامتلأت القلوب بمحبتهم، وكان لهم من الجاه ما لم يظفر به أحد في الدنيا، ولا في الآخرة؛ فالذي تولى ذلك عنهم هو الله، ولم يكن بجهدهم، ولا برغبتهم، وإنما هو جزاء إلهي على عبوديتهم لله، وإرضائهم له ولو بسخط الناس..

وفرق كبير بين أن تسعى لنيل الجاه، وتضحي بدينك من أجله، وبين أن يأتيك الجاه من غير أن تقصده، أو تطلبه، أو تحن

2() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 109

إليه.

ولــذلك كــان الكامــل من الســالكين ليس من هــرب من الجاه، أو الظهور، وإنما من ترك الأمـر لربـه، فهـو عبـد ربـه إن شاء أظهره أو شاء أخفاه.. وقـد قـال بعض الحكمـاء في ذلـك: (من أراد الظهور فهو عبد الظهـور، ومن أراد الخفـاء فهـو عبـد الخفاء، أما من أراد الله وهو عبدٌ له، فهو الذي إذا شـاء أظهـره وإذا شاء أخفاه، لا يختار لنفسه ظهورا ولا خفاءً)

بل إن من الصالحين من يسـأل لنفسـه الظهـور، لا لذاتـه، وإنما لكونه ممثلا للحق، ولا يمكن أن ينتشـر الحـق ويظهـر من دون أن يظهر ذلك الذي مثله، كما قال اللـه تعـالى حاكيـا دعـاء إبـراهيم عليـه السـلام بـأن يكسـبه اللـه جاهـا وسـمعة، فقـال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: 84]

وهكذا منّ الله تعالى على رسـوله ﷺ برفعـة الـذكر، وهي دليل على رفعة الدين، فرسـول اللـه ﷺ ممثـل للـدين، ورفعتـه رفعة له، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشـرح: 4]، وهكـذا قال عن الأنبياء والصالحين: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: 50]

لكني مع ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ وحرصا عليك أنصحك ـ مـا دمت في بدايـة سـلوكك ــ أن تبتعـد عن كـل مـا يمكن أن يأسر قلبك، أو يصرفك عن الطريق الذي تريد السير فيـه؛ ذلـك أن الشيطان قد يزين لك ذلـك الظهـور الـذي أتـاك من حيث لا تحتسب، فيقصم به ظهرك، ويصرفك به عن ربك.

وقد قال بعض الحكماء في ذلك محذرا: (ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لن يتم نتاجه)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تقع فيما وقع فيـه بعضـهم

عندما راح يتخلص من الجاه بمعصيته لربـه، كمـا روي عنـه أنـه قـال: (نـزلت في محلـة فعـرفت فيهـا بالصـلاح؛ فتشـتت علي قلـبي، فـدخلت الحمـام، وعـدلت إلى ثيـاب فـاخرة فسـرقتها، ولبسـتها، ثم لبسـت مرقعـتي فوقهـا، وخـرجت وجعلت أمشـي قليلا قليلا؛ فلحقوني، فنزعوا مرقعتي، وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربا؛ فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام؛ فسكنت نفسي) (1)

فإن ذلك ـ أيها المريد الصـادق ــ مخـالف للشـريعة، ونحن لم نطالب بتهذيب نفوسنا بمـا نبتدعـه من بـدع لأنفسـنا، وإنمـا طولبنا بأن نهذبها ونزكيها بما علمنا ربنا.

ثم إننا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ لم نطـالب بـالتخلص من الجاه كليـة، ففـرق بين أن يسـتعبدنا الجـاه، وبين أن يكـون لنـا بعض الجاه الذي نوفر به الأمـان والاسـتقرار لأنفسـنا.. فالجـاه مثل المال، لا يمكن التخلص كلية منه.

ولـذلك، فإنـك إذا أحببت أن يكـون لـك بعض الجـاه عنـد أستاذك حتى تستفيد من علومه، أو يكون لـك بعض الجـاه عنـد جيرانك حتى يحترموك وتحترمهم.. فإن ذلك لا حرج فيـه، لأنـك لم تقصـد اسـتعباد قلـوبهم، وإنمـا طلبت أن تكـون لـك العلاقـة الطيبة بهم، تلك التي لا يمكن أن تؤدي أوامر ربك من دونها.

ولهـذا ورد في الحـديث عن أبي ذر، أنـه قـال: (يـا رسـول الله، الرجل يعمـل العمـل فيحمـده النـاس عليـه، ويثنـون عليـه به؟)، فقال رسول الله ﷺ: (تلك عاجل بشرى المؤمن)(2)

وفي حديث آخر أخبر رسول الله ﷺ عن دور ثناء المؤمنين

1() إحياء علوم الدين (4/ 358)

2() مسلم (2642)

الصادقين، فقال: (أيما مسلم شهد لـه أربعـة بخـير أدخلـه اللـه الجنة)، فقيل: وثلاثة؟ قال: وثلاثة.. قيـل: واثنـان، قـال: واثنـان [1].

وإيـاك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ بعـد هـذا أن يلبس عليـك الشيطان؛ فيدعوك إلى إظهار سيئاتك وعيوبك، ويغرك في ذلك عن نفسك، ويوسـوس لـك بـأن من النفـاق أن تظهـر حسـناتك وتكتم سيئاتك.. فإن ذلك ليس من النفاق، بل هو من الإيمان.

والشيطان لا يريد منك بذلك أن تهذب نفسك، وإنمـا يريـد أن يجعلك وسيلة لنشر الرذيلة والانحراف، وتهوين شـأنهما بين الخلق، ولذلك كان إظهار المعاصي كبيرة من الكبائر، كمـا قـال ﷺ: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهـار أن يعمـل الرجـل بالليـل عملا ثم يصـبح وقـد سـتره اللـه فيقـول: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه فيصبح يكشف سـتر اللـه عز وجل عنه) [2]

وقال ﷺ: (يكون في آخر هذه الأمّة خسف ومسخ وقذف). قيل: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصّالحون؟ قال: (نعم إذا ظهـر الخبث) [3]

هذه وصيتي ـ أيها المريد الصادق ـ إليك، فاحفظها، وحاول أن تستعمل كل ما أوتيت من حيلة لتخلص نفسك من أي تسلل لهذا المرض الخبيث إلى قلبك، فإنه إن تسلل إليه أفسده، وقـد يصل الفساد إلى مرحلة يصعب معها العلاج.. فتدارك الأمـر من أوله، وتأمل قلبك، فهو رأسمالك، لا تدعه إلا لربك.. فلا خير في

1() البخاري (2643)، والترمذي (1059)، والبزار (312)

2() البخاري ومسلم.

3() رواه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب.

أن يقربك الخلق ويحبوك، ويبعدك الله ويبغضك.

حب المدح

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن تلـك النشـوة التي اعترتك، والفرحة التي غمرتك عند سماعك لتلك الكلمـات الـتي قيلت في الثنـاء عليـك ومـدحك، وذكـرت لي أنـك صـرت بعدها أكثر نشاطا، وأنها جعلتك تبذل جهودا مضاعفة فوق الـتي كنت تبذلها.

لكنك عدت فذكرت لي بأسف كيف أثرت فيك كلمـات من سميتهم أعداءك والحاقدين عليك، فجعلتك متوانيـا كسـولا غـير قادر على القيام بأي عمل.

وأظن أنـك لـو تـأملت ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ في كلا الحالتين اللتين مرتـا بـك، علمت جـواب سـؤالك، فجوابـه ليس في مطالبة الموالين بالثناء والمدح، أو مطالبة المعادين بـالكف عن الهجـو والقـدح، وإنمـا مطالبـة النفس بعـدم الاسـتماع أو الاهتمـام لكلا الطـرفين.. المـادح والقـادح، والمثـني والـذام.. فعبوديتك لله، وحريتك، تستدعي التحرر منهما جميعا.

ذلك أنك مع كليهما لن تذوق طعم الراحة، ولن تسكن بـك الحياة.. فقلوب الذين أثـنيت على وفـائهم وصـدقهم من الـذين مـدحوك قـد تتقلب، وترتـد عليـك، وتعـود لتهجـوك مثـل الـذين تعتبرهم أعداءك.

ولعلك ـ أيها المريد الصـادق ــ سـمعت قصـة المتنـبي مـع صديقه القديم سـيف الدولـة والـذي كتب القصـائد الكثـيرة في مدحه، لكنه لم يلبث إلا قليلا، حتى عاد لهجائه، ووصـفه بالغَّدار، وهو أبشع الأوصاف وأشنعها، فقد قال فيـه مخاطبـا كـافور في فترة صداقته له:

حببتك قلبي قبل حبك   وقد كان غدارا فكن

فإن دموع العين غدر   إذا كن إثر الغادرين

ولكن بالفسطاط بحر   حياتي ونصحى والهوى

وهكذا راح يصف كافورا بكونـه أبـا المسـك، وأنـه شـمس منـيرة سـوداء، وأنـه الأكـثر تجربـة بين الملـوك، وأنـه الأسـتاذ الكريم الشـجاع.. وأن على الملـوك تبـديل بيـاض وجهها بلـون كافور الأسود، ويقول له:

كرم في شجاعة   في بهاء وقدرة

من لبيض الملوك أن   بلون الأستاذ

ويقول في قصيدة أخرى:

ومن مثل كافور إذا   وكان قليلا من يقول

شديد ثبات الطرف   إلى لهوات الفارس

فلو لم تكن في مصر ما   بقلب المشوق

رضيت بما ترضى لي   وقدت إليك النفس

ومثلك من كان الوسيط   فكلمة عنى ولم أتكلم

لكنـه مـا لبث أن راح يهجـوه بأبشـع هجـاء وأقذعـه، حـتى نسي الناس كل أشعار مدحه له، ولم يعـودوا يـذكرون إلا قولـه له:

العبد ليس لحر صالح   لو أنه في ثياب

لا تشتر العبد إلا   إن العبيد لأنجاس

نامت نواطير مصر   فقد بشمن وما

ما كنت أحسبني أحيا | يسيء بي فيه عبد

بل إنه لم يكتف بهجاء كافور حاكم مصر وحـده، وإنمـا راح يهجو المصريين جميعا بسبب عدم ثورتهم عليه، ويقول لهم:

وماذا بمصر من | ولكنه ضحك

بها نبطي من أهل | يدرس أنساب

وأسود مشفرة | يقال له أنت بدر

فما كان ذلك مدحا | ولكنه هجو الورى

ومن جهلت نفسه | رأى غيره منه

هذا مجرد مثال ـ أيها المريد الصـادق ــ عن تقلب القلـوب بالمـدح والهجـاء، ولعلـك قـرأت مـا ورد في السـيرة النبويـة المطهرة عن عبد الله بن سلام، فقد روي أنه بعد إسلامه خـرج إلى رسول الله ﷺ، فقال: (يا رسول الله، إن اليهـود قـد علمت أني سـيدهم وابن سـيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، وأنهم قـوم بهت، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبـل أن تسـألهم عـني بهتـوني، وقالوا في ما ليس في، فأحب أن تدخلني بعض بيوتك)، فأدخله رسول اللـه ﷺ بعض بيوتـه، وأرسـل إلى اليهـود فـدخلوا عليـه، فقال: (أي رجل فيكم الحصين بن سـلام؟) قـالوا: (خيرنـا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنـا وابن أعلمنـا)، فقـال: (أرأيتم إن أسلم)، قالوا: (أعاذه الله من ذلك)، فقال ﷺ: (يا ابن سـلام اخرج إليهم)، فخرج عبد الله فقال: (أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله، يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول اللـه حقـا، تجدونـه مكتوبـا عندكم في التوراة: اسمه وصفته، فإني أشـهد أنـه رسـول اللـه وأؤمن بـه وأصـدقه وأعرفـه)، قـالوا: (كـذبت أنت شـرنا وابن شرنا)، وانتقصوه، فقـال عبـد اللـه: (هـذا الـذي كنت أخـاف يـا

رسـول اللـه، ألم أخـبرك أنهم قـوم بهت، أهـل غـدر وكـذب وفجور؟)[1]

وقد عبر الشاعر عن هذا الواقع المـؤلم للبشـر، ودعـا إلى عدم الركون إلى مدحهم وذمهم، فقال:

وما أحد من ألسن	ولو أنه ذاك النبي
فإن كان مقداما	وإن كان مفضالا
وإن كان سكيتا	وإن كان منطقيا
وإن كان صواما	يقولون زراف يرائي
فلا تحتفل بالناس في	ولا تخش غير الله

إذا علمت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن تطهر أرض قلبك من أشواك كل المادحين أو القادحين.. حـتى يصـبح قلبـك لله وحده.. فحب المدح مثلب من مثالب النفس الأمارة التي لا يمكنك أن تسير في طريق الله قبل أن تتخلص منها.

وسأضـع بين يـديك علاجين يمكنـك اسـتعمالهما، لتطهـير أرض نفسك من كل تلك المؤثرات الـتي تبعـدك عن ربـك وعن حقيقتك وعن سعادتك.

العلاج المعرفي:

أما الأول، فيبدأ بمعرفتك لخطر المدح، وأثره فيك، وكونـه شبكة قد يصطادك بها الشـيطان ليبعـدك عن حقيقتـك وقيمـك ووظيفتك في هذه الحياة.

ذلك أن الذين مدحوك، لم يفعلوا ذلك إلا لكونك أرضـيتهم، ووافقت أهواءهم، ولو أنك خالفتها لانقلبوا عليك.. ولـذلك، فـإن

[1] رواه البيهقي.

مدحهم لك غل في رقبتك يجعلـك تحتـاط من أن تتسـبب فيمـا يجعلهم ينقلبون عليك.

وذلـك مـا يجعلـك عبـدا لهم، ولمـدحهم؛ فلا تـرى رأيـا، ولا تذهب مذهبا إلا إذا علمت رضاهم عنك فيه، وهذا ما يحول بينك وبين حقيقتك ودينك وقيمك..

وهكذا التفاتـك لمن ذمـك أو هجـاك، فهـو قـد يـدعوك إلى ظلمهم وممارسـة كـل أنـواع الجـور عليهم، انتقامـا لنفسـك، وشماتة فيهم، مـع أن اللـه تعـالى يقـول: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَـوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]

بل إنـه يـدعونا إلى الوقـوف مـع الحـق، ولـو في مواجهـة أنفسنا وأقرب المقربين إلينا، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَـوَّامِينَ بِالْقِسْـطِ شُـهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَـوْ عَلَى أَنْفُسِـكُمْ أَوِ الْوَالِـدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَالله أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135]

ولذلك كـان التفاتـك للمـدح والـذم أثـره البـالغ فيـك وفي مواقفك التي قد تحاسب عليها عند ربك.. ذلـك أنـك لم تتعامـل مع الحقائق بصدق وموضوعية، وإنما أدخلت فيها ذاتك، وجعلتها المعيار الذي تحدد به الصواب من الخطأ، والحق من الباطل.

ولذلك؛ فإن الصدق والعدل يدعوك ـ أيها المريد الصـادق ـ إلى عدم الالتفات لما يقولـه المـادحون أو الـذامون، فهم مهمـا عرفوك لن تبلغ معرفتهم بك معرفتك بنفسك..

فإن مدحوك بالكرم، وأنت بخيل، أو بالصـدق وأنت كـاذب،

أو بالوفاء وأنت غادر.. لم يجدك ذلك عند ربك، فربـك لا يسـمع لمـا قـالوا، وإنمـا ينظـر إلى نفسـك الـتي هي بين يديـه مثـل الصـفحة الـتي كتب عليهـا كـل شـيء.. فلـذلك لا تغرنـك تلـك الكلمات التي قيلت فيك.

وهكذا، إن ذمـوك بشـيء ليس فيـك.. فاللـه أكـرم من أن يسمع لدعاواهم، فلذلك لا تشغل نفسك كثيرا بـالرد عليهم، لأن الكذب والبهتان لن يقلب الحق باطلا، ولا الخير شرا.

لذلك كان انشغالك بنفسك، وبمـا تعرفـه منهـا، أجـدى لـك من الاسـتماع لغـيرك.. فكلمـات غـيرك ومـواقفهم لن تفيـدك سـلبا، ولا إيجابـا.. مـا دمت تريـد الحـق والحقيقـة، لا الـوهم والسراب، وقد قال بعض الصالحين في ذلك: (علامة الزهد في الـدنيا وفي النـاس، أن لا تحب ثنـاء النـاس عليـك، ولا تبـالي بمذمتهم، وإن قدرت ألا تعرف فافعل، ولا عليك ألا تعرف، ومـا عليك ألا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموما عند النـاس إن كنت محموداً عند الله) (1)

ووعـظ آخـر بعض الخلفـاء، فقـال: (يـا أمـير المؤمـنين إن أقواماً غرَّهم سترُ الله عز وجل، وفتنَهم حسنُ الثنـاء، فلا يغلبنَّ جهـلُ غـيرِك بـك علمَـك بنفسـك، أعاذنـا اللـه وإيـاك أن نكـون بالستر مغرورين، وبثناء الناس مسرورين، وعن ما افترض اللـه متخلفين مقصّرين، وإلى الأهواء مائلين) (2)

وقيل لبعض العقلاء: (ما أحسن ثناء الناس عليك؟)، فقال: (بلاء الله عندي أحسن من مدح المادحين وإن أحسنوا، وذنـوبي أكثر من ذم الذامين وإن أكـثروا، فيـا أسـفي فيمـا فـرطت ويـا

1() حلية الأولياء (8/90)

2() حلية الأولياء (8/18)

سوأتا فيما قدمت) (1)

وقال بعض الصالحين: (إذا قيل لك: نعم الرّجل أنت، فكان أحبّ إليك من أن يقال لك: بئس الرّجل أنت، فأنت واللــه بئس الرّجل) (2)

ولهـذا كلـه اعتـبر رسـول اللـه ﷺ حب المـدح وتـأثيره في الممدوح مهلكا من المهلكات، فقال ـ عند سـماعه لرجـل يثـني على آخر، ويبـالغ في الثنـاء عليـه: (أهلكتم ــ أو قطعتم ــ ظهـر الرجل) (3)

وفي حديث آخـر روي أن رجلا ذكـر عنـد النـبي ﷺ، فـأثنى عليه رجل خيرا، فقال النبي ﷺ: (ويحك! قطعت عنق صـاحبك.. إن كان أحدكم مادحا لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا إن كــان يرى أنه كذلك وحسيبه الله، ولا يزكى على الله أحد) (4)

ولهذا ورد في السنة المطهرة ذكر عقوبة المتملقين الذين يكثرون المدح ويبالغون فيه، وخاصـة إن كـان عن طمـع، وذلـك بــأن يحــثى على وجــوههم الــتراب، فقــد قــال ﷺ: (إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في وجوههم التراب) (5)

وقد جمع رسول الله ﷺ كل هذه المعاني في دعائـه الـذي علمنا إياه عند سـماعنا للمـدح، حيث علمنـا أن نقـول: (اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي مالا يعلمون، واجعلني خيراً مما

1() شعب الإيمان (4/228)

2() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 133.

3() البخاري 3/ 231 (2663)، ومسلم 8/ 228 (3001) (67)

4() البخاري 8/ 22 (6061)، ومسلم 8/ 227 (3000) (65)

5() مسلم 8/ 228 (3002) (69)

يظنون) (1)

ففي هذا الدعاء دعوة لثلاث معارف مرتبطة بعلاج حب المدح:

أولها: الدعوة إلى عدم اعتبار ما يقولون في حال عدم صدقه، وذلك أخطر ما ينتجه المديح من ثمار، ذلك أن الممدوح قد يتوهم أنه حقيق بتلك الصفات مع خلوه عنها، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 188]

ثانيها: تذكر الذنوب التي لم يلتفت لها المادحون، وفي ذلك نفي للعجب الذي يسببه المدح.

ثالثها: السعي لأن يتصف بما هو أعظم من الأوصاف التي وصف بها، وفي ذلك نفي للغرور والكسل الذي يسببه المدح.

العلاج السلوكي:

إذا علمت كل ذلك ـ أيها المريد الصادق ــ ورددته بينك وبين نفسك، وتأملت فيه حق التأمل؛ فإن أول نتيجة لذلك هي سعيك للتخلص من كل تلك القيود التي تجعل اجتهادك مرتبطا بثناء الخلق وذمهم؛ فأنت عبد الله، لا عبد من مدحك وذمك.

ولذلك اسع لأن تجعل كل أعمالك خالصة لوجه ربك، فيكفيك ثناؤه ومدحه، فلو اجتمع الخلق كلهم على ذمك، وأثنى عليك ربك لكان ذلك كافيا مغنيا لك عن غيره.. ولو اجتمعوا جميعا على مدحك، لم يغن ذلك عنك شيئا.. وكيف يغني عنك،

1() البخاري في الأدب المفرد برقم 761، والبيهقي في شعب الإيمان 4/ 228.

وهو لا يستطيع أن يدفع عنك سيئة واحدة، ولا أن يجلب لك حسنة واحدة؟

ولا تكتف بذلك ـ أيها المريد الصادق ـ بل اجعل من مديح غيرك أو ذمهم لك وسيلة لتهذيب نفسك وتزكيتها..

فإن سمعت من ثناء مادحيك ما لا تراه متوفرا لديك، فاسع لأن تجعل كذبهم صدقا؛ فتجتهد في تحقيق ما أثنوا به عليك؛ فلعل الله أنطقهم بذلك من باب النصيحة لك، لا من باب الثناء عليك.. فاسمع ثناءهم بهذا الاعتبار لتتهذب، ولا تسمعه ثناء لتغتر.

وهكذا.. اسمع لمن يذمك، فلعل فيك ما يذكره، فاعتبره من باب النصيحة.. ولا يعنيك سوء أدبه في نصحه لك، فالله تعالى هو الذي يتولى تأديبه على سوء أدبه.. وهل يمكنك أن تلوم شخصا إن نبهك إلى حريق يشب في بيتك، فتترك إطفاء الحريق، لتلومه على طريقة إخباره لك؟

فإذا رأيت أنه ذمك بما ليس فيك، فلا تحزن، بل امتلأ فرحا وسرورا، لأن الله تعالى خلصك من تلك الصفة التي ذمك بها، وأضاف إليك أجرا عظيما بذلك الإفك الذي قذفك به.. وهل يمكن لشخص من الناس أن يحزن على مكافأة جزيلة صرفت له بكلمات قليلة كاذبة قيلت فيه؟

واسمع ـ أيها المريد الصادق ـ لما قاله بعض المشايخ ناصحا بعض مريديه فيما عليه أن يواجه به من يذمونه بما هو بريء منه.. فهو لم يدعه إلى أن يوكل محاميا ليدافع عنه، ويصرف أوقاتا وأموالا كثيرة لأجل ذلك، وإنما دعاه إلى ثلاثة أمور[1]:

1() انظر: المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 135.

أولها: أن يتفكر في ستر الله عليه، لأن ذلك الذي ذمه لم يلتفت لعيوبه الحقيقية، وإنما التفت لغيرها، وربما تكون التي لم يلتفت لها أخطر من التي ذكرها.. ولذلك كان في التي ذكرها ـ ولو كانت كاذبة ـ عوضا عن التي لم يذكرها.

ثانيها: أنّ ذلك كفّارات لبقيّة الذنوب، و(كأنّه رماك بعيب أنت بريء منه، وطهّرك من ذنوب أنت ملوّث بها، وكلّ من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته وكلّ من مدحك فقد قطع ظهرك، فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات الّتي تقرّبك إلى الله، وأنت تزعم أنّك تحبّ القرب من الله)

ثالثها: أنّ المسكين الذي ذمك قد جنى على دينه حتّى سقط من عين الله جلّ وعزّ وأهلك نفسه بافترائه وتعرّض لعقابه الأليم؛ فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: (اللهمّ أهلكه)، بل ينبغي أن تقول: (اللهمّ أصلحه، اللهمّ تب عليه، اللهمّ ارحمه) كما قال ﷺ: (اللهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون) لمّا ضربوه[1].

ومما يروى في ذلك عن بعض الصالحين أنه شجّ رأسه بالمغفرة، فلم يدع على من فعل به ذلك، فقيل له في ذلك، فقال: (علمت أنّي مأجور بسببه وما نالني منه إلّا خير، فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسببي)

إذا علمت كل ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن تخلي قلبك من ذلك القيد الوهمي الذي قيدك به المادحون والذامون، فأنت لم تنزل لهذه الدنيا ليكتب عنك الخلق قصائد المديح والثناء، وإنما نزلت لتكتب عنك الملائكة ذلك.. فهي التي كلفت بكتابة حسناتك وسيئاتك.. فكل حسنة يكتبها الملك الذي على يمينك هي قصيدة في مدحك.. وكل سيئة يكتبها الملك الذي

[1] () رواه البيهقي في شعب الإيمان.

على يسارك هي قصيدة في هجائك..

فاسع لأن تمحو قصائد الهجاء، وتكثر من قصائد المدح، فإن تلك القصائد لن يسمعها أهل عصرك فقط، وإنما سيسمعها في أرض الموقف الخلائق جميعا..

ويا فضيحة من اهتم بقصيدة كتبها عنه في الدنيا صعلوك خطاء ممتلئ بالذنوب.. وانشغل عما تكتبه الملائكة البررة الطيبون الطاهرون المعصومون المبرؤون من الكذب والحقد والتملق وكل الأمراض التي تملي على المادحين أو الذامين قصائدهم.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن الله تعالى قد يبتليك بمن مدحك أو ذمك، فيضعه بين يديك، ليرى ما تصنع فيه.. فإياك أن تتجاوز حدك، وحد عبوديتك، فتعطي المادح ما لا يستحق، وتحرم الذام ما يستحق.. فأنت عبد الله لا عبد نفسك، وأنت مطالب بأن تؤدي حق الله، ولا يضرك أن يخطئ الخلق في حقك، وقد قال الله تعالى آمرا بالإحسان للذامين: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: 22]

وهكذا احذر ــ أيها المريد الصادق ــ مما ذكرته لي في رسالتك من تأثير المدح والذم فيك وفي نشاطك، فإن ذلك قد يقدح في إخلاصك لربك.. فاجتهد لأن تتخلص منه، وتكتفي بنظر الله إليك، فما يغنيك أن يرى غيرك عملك، وهو لا يضرك، ولا ينفعك، ولا يملك أن يكافئك، ولا يملك أن يعاقبك.

اتباع الشهوات

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59]، وسر جمع الله تعالى بين إضاعة الصلاة واتباع الشهوات، وهل هناك علاقة بينهما؟

ومثل ذلك سألتني عن قوله تعالى: ﴿وَالله يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 27]، وعن علاقة الانحراف باتباع الشهوات.

ثم عقبت كل أسئلتك بما ورد في النصوص المقدسة من أن حب الشهوات فطرة فُطر عليها الإنسان، وأنه لا يمكن استئصاله مطلقا، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: 14]؛ فليس هناك في الدنيا من ينفر قلبه عن حب ما ورد في الآية الكريمة من المشتهيات، المزينة في فطرة الإنسان، والتي لا يمكن خلعها أبدا.

وقد ختمت أسئلتك بطلب حل التعارض المرتبط بين الشهوات المزينة في النفس، والتي لا يمكن التخلص منها أبدا، وبين ما ورد في النصوص المقدسة من النهي عن اتباع الشهوات، واعتبارها مثلبا من مثالب النفس الأمارة.

وجوابا على سؤالك أذكر لك ـ ابتداء ـ بأن كل ما ذكرته من الإشكالات وجيه وصحيح، ولا يمكنني، ولا لأحد من العقلاء، أن يذكر لك بأن المجاهدة في استئصال الشهوات استئصالا مطلقا مجاهدة شرعية، إلا إذا كان من الرهبان الذين قال الله

تعـالى فيهم: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَـدَعُوهَا مَـا كَتَبْنَاهَـا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَـاءَ رِضْوَانِ الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: 27]

أو كان من أولئـك الـذين خلطـوا دين اللـه بـدين الرهبـان؛ فتـأثروا بهم، وسـلكوا سـلوكهم، وتركـوا الـدين الإلهي الأصـيل الذي مثله رسول الله ﷺ، فصـار دينهم مزيجـا بين شـريعة اللـه وشريعة الأهواء.

وقد ورد في الحديث أن مثل هذا النوع من الفهم ظهر في عهد النبوة؛ فتصدى له رسول الله ﷺ بشـدة، وبين غرابتـه على الدين، فقـد روي أن ثلاثـة من النـاس جـاءوا إلى بيت النـبي ﷺ يسألون عن عبادته؛ فلمـا أخـبروا كـأنهم تقالوهـا، وقـالوا: (أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبـه ومـا تـأخر)، ثم قال أحدهم: (أما أنا فأصلي الليل أبدا)، وقال الآخر: (وأنا أصوم الدهر أبـدا، ولا أفطـر)، وقـال الآخـر: (وأنـا أعـتزل النسـاء؛ فلا أتزوج أبدا)، فلما سمع رسـول اللـه ﷺ خـبرهم قـال لهم: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم للـه، وأتقـاكم لـه، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتـزوج النسـاء، فمن رغب عن سنتي فليس مني) (1)

هل سمعت ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ كلمـة أشـد من هـذه الكلمـة، وتحـذيرا أعظم من هـذا التحـذير، فرسـول اللـه ﷺ لم يعتبر ذلك التصرف مشينا أو تشددا فقط، وإنما اعتـبره مخالفـا لهديه، وأن الذي يفعـل ذلـك لا علاقـة لـه برسـول اللـه ﷺ.. ولا بالحنيفية السمحة التي جاء بها.

ومثل ذلك ما روي أنه بينمـا كـان النـبي ﷺ يخطب إذا هـو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: (أبو إسـرائيل نـذر أن يقـوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم)، فقال النـبي

1() البخاري 7/ 2 (5063)، ومسلم 4/ 129 (1401)

ﷺ: (مروه، فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه) (1)

ومثل ذلك ما روي أنه ﷺ مر برجل، وهو يهادى بين ابنيه، فسأل عنه، فقالوا: نذر أن يمشي، فقال ﷺ: (إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني)، ثم أمره أن يركب(2).

ومثل ذلك ما روي أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ شكا له حاله، فقال: (يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين؛ فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، ونسينا كثيرا)، فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، لكن ساعة وساعة) (3)

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي تبين أن تهذيب النفس وتطهيرها لا علاقة له بتلك النعم التي أنعم الله بها علينا، وجعلنا نلتذ بها، ونفرح بما أهداه إلينا منها.

وكيف يكون ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32]

ثم عقب عليها ببيان المحرمات الحقيقية، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33]

1() البخاري 8/ 178 (6704)

2() أحمد (21/ 129)، وشرح معاني الآثار 3/129.

3() مسلم 8/ 94 (2750) (12)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن الآيتين اللتين ذكرتهما، واللتين تعتبران اتباع الشهوات مثلبا من مثالب النفس الأمارة، لا تفهمان إلا في ضوء ما سبق من الآيات الكريمة، فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا، ولا تلغي آية منه أخرى، وكيف يكون ذلك، وهو الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 42]

وقبل أن أذكر لك تأويلهما، ووجه الجمع بينهما وبين تلك الآيات التي ذكرت أذكر لك مثالا يقرب لك ذلك.. وهو ما يفعله الطبيب عندما يصرف دواء معينا لمريض، وبدل أن يتقيد المريض بمقادير الوصفة التي وصفت له، يتجاوز المقادير المحددة، ويسرف في شرب الدواء لحلاوته ولذته.. فهل يمكن لهذا المريض أن ينجو بفعلته هذه.. أم أن الهلاك مصيره؟

وهكذا الأمر بالنسبة للشهوات التي أتيحت وأبيحت للإنسان في الدنيا؛ فهو إن تناولها برفق، وفي الحدود التي وصفت له، كان فيها نفعه وراحته وسعادته، لكنه إن أسرف فيها، وأدمن عليها، صار داؤه في دوائه، وصار حتفه في تلك اللذة الوهمية التي امتلكته، كما عبر الحكيم عن ذلك بقوله:

داؤك منك وما   دواؤك فيك وما

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى قريب من ذلك المثال، فقال: (إنّ ممّا أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدّنيا وزينتها)؛ فقيل له: يا رسول الله، أو يأتي الخير بالشّرّ؟ فسكت النّبيّ ﷺ هنيهة، ثم قال: (إنّه لا يأتي الخير بالشّرّ، وإنّ ممّا ينبت الرّبيع يقتل أو يلمّ، إلّا آكلة الخضراء، أكلت حتّى إذا امتدّت خاصرتاها استقبلت عين الشّمس فثلطت ورتعت، وإنّ هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السّبيل، وإنّ من يأخذه بغير حقّه كالّذي

يأكل ولا يشبع، ويكون شهيدا عليه يوم القيامة) [1]

لهـذا، فـإن هنـاك فرقـا كبـيرا بين ذلـك الحب الفطـري للشهوات المباحة، وبين اتباعهـا، والاسـتغراق في الميـل إليهـا، لأنها ستجعل صاحبها أسيرا لها، خاضعا لمتطلباتهـا، ويـترك كـل شيء من أجلها، حتى الصـلاة نفسـها الـتي هي أسـاس علاقتـه بربـه.. وذلـك مـا يجعلـه منحرفـا عن حقيقتـه وحياتـه وطبيعتـه وأهدافه التي خلق من أجلها.

ويصبح حاله حينها حال ذلـك الطفـل الكسـول الـذي دخـل الامتحان، وبدل أن يهتم بالإجابة على أسـئلته راح يسـتغرق في الأحلام الجميلة، والألعاب الملهية إلى أن خرج من الامتحان من غير أن يجيب عن الأسئلة التي طرحت عليه، والتي كـان عليهـا مدار نجاحه ورسوبه.. وهكذا حال من اتبعوا الشـهوات، وغفلـوا عن حقيقتهم، وعن الـــدور العظيم الـــذي أنيـــط بهم في هـــذه الحياة الدنيا.

لا تيأس ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ فليس هنـاك داء إلا ولـه دواء.. فلذلك أنصحك ـ إن خفت على نفسـك من أن تكـون من أتباع الشهوات ـ بهذين العلاجين.

العلاج المعرفي:

أما أولهما؛ فأن تعلم أن الله تعالى ما وفـر لـك الشـهوات في الدنيا، لتنعم بها، أو تنشغل باتباعها، وإنما خلقها لتعـبر منهـا إليـه؛ فتعلم أن لـك ربـا رحيمـا كريمـا لطيفـا، يـراعي حاجاتـك بدقيقها وجليلها، ويوفرها لك كما تحتاجها بالضبط، ومن غـير أن تسأله.

[1] () البخاري [فتح الباري]، 3 (1465)، 6 (2842)

وحين تعلم ذلك، تخرج عن تلك القسوة الـتي يمـارس بهـا أتباع الشهوات شهواتهم، حين يتعاملون معها بكل حـدة، وكأنهـا ملك لهم، لا ملك لله تعالى.. بخلاف المـؤمن الـذي يمتلئ قلبـه ذكـرا للـه، فيـذكر اسـمه، ويحمـده، ويثـني عليـه عنـد تناولهـا.. ويشعر بأن الله تعالى هو الذي من عليه بها.. وبذلك تصبح دليله إلى ربه، لا حجابا بينه وبينه، كما روي عن بعض الشيوخ أنه قال لمريد لـه رآه يشـرب المـاء السـاخن في الصـيف الحـار: (بـرّد الماء؛ فإن النفس إذا شربت المـاد البـارد؛ حمـدت اللـه بجميـع الجوارح، وإذا شربت الماء السخن؛ حمدت الله بكزازة)

ولذلك ذكر الله تعالى الـبراهين الدالـة عليـه في الطعـام، فقال: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَـقَقْنَا الْأَرْضَ شَـقًّا (26) فَأَنْبَتْنَـا فِيهَـا حَبًّا (27) وَعِنَبًـا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًـا (30) وَفَاكِهَـةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: 24 - 32]

ومثلهـا الـبراهين الدالـة عليـه في أصـناف الثمـار، فقـال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ نَبَـاتَ كُـلِّ شَـيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُـونَ وَالرُّمَّانَ مُشْـتَبِهًا وَغَيْـرَ مُتَشَـابِهٍ انْظُـرُوا إِلَى ثَمَـرِهِ إِذَا أَثْمَـرَ وَيَنْعِـهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَـاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99]

وهذه المعرفة ـ أيها المريد الصـادق ــ تجعـل من صـاحبها متعلقـا بربـه بعـد إيمانـه بـه، فهـو يعلم أن الـذي خلـق هـذه الشهوات في الدنيا، قادر على خلق غيرهـا في الآخـرة، ولـذلك كانت السعادة الأبدية مرتبطة بالتواصل معه، وطاعته، لا الميـل عنه، أو ترك عبادته من أجل شهوات فانية..

ولذلك فإن المحب للشهوات غـير الأسـير لهـا، لن يعـرض

عن الصلاة، ولن يقصر فيها، وكيف يقصـر فيهـا، وهـو يعلم أنهـا وسيلته لاقتناص لذات الأبد، والتي لا يمكن قيـاس أو تشـبيه أي لذة بها في جميع الدنيا.

وكيف يكون ذلك، وقد أخبر رسول اللـه ﷺ عن أدنى أهـل الجنة منزلة، فقال: (أدنى أهل الجنـة منزلـة رجـل صـرف اللـه وجهه عن النار قبل الجنة ومثل له شـجرة ذات ظـل فقـال: أي رب! قـدمني إلى هـذه الشـجرة أكـون في ظلهـا، فقـال اللـه تعالى: هل عسيت إن فعلت أن تسألني غيره؟ قال: لا وعزتـك! فقدمه الله إليها، ومثـل لـه شـجرة ذات ظـل وثمـر، فقـال: أي رب! قـدمني إلى هـذه الشـجرة فـأكون في ظلهـا وآكـل من ثمرها، فقال الله تعـالى لـه: هـل عسـيت إن أعطيتـك ذلـك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك! فيقدمه الله إليهـا.. فيـبرز لـه باب الجنة فيقول: أي رب! قدمني إلى باب الجنـة فـأكون تحت نجاف الجنة فأرى أهلها، فيقدمه الله إليها فيرى الجنة وما فيهـا فيقول: أي رب أدخلني الجنة! فيدخله الجنـة، فـإذا دخـل الجنـة قال: هذا لي؟ فيقول الله تعالى له: تمن! فيتمنى، ويذكره اللـه عز وجل: سل من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت بـه الأمـاني قـال الله تعالى: هو لك وعشرة أمثاله) [1]

فإذا علم محب الشهوات ذلك، لم يكتف بتلك الصلاة الـتي يؤديها، ولا العبادات التي يدمن عليها، وإنمـا يـذهب إلى كـل مـا حرمته الشريعة عليه، ليحرمه على نفسه، حـتى لا يـبيع سـعادة الأبد بلذات مشبوهة مملوءة بالغصص.

فإذا فعل ذلك، لم تستعبده الشهوات، وإنمـا تصـير أسـيرة بين يديه، يتناول منها ما ينفعه، ويبتعد عما يضره، ذلك أن عقلـه صار هو المسيطر على هواه.. وصار حاله مثل المريض صـاحب

---

[1] رواه أحمد.

الحميـة، حين يكتشـف أن طعامـا معينـا قـد يـؤثر في صـحته، فيسرع، ويحرم نفسه منه، ويلتذ بـذلك الحرمـان، لأنـه يعلم أن نهايته الصحة والسعادة.

وبذلك لن يكون مصداقا لتلـك الآيـة الكريمـة الـتي ذكـرت الميل العظيم الذي يحصل لأتباع الشهوات.. ذلك أن سبب ذلك الميل العظيم هو إبعاد العقل والفطرة السـليمة، وهـو مـا يجـر إلى الانتكاسة العظيمة الـتي يخـرج بهـا الإنسـان عن إنسـانيته، حين يذعن للشهوات ومطالبها التي لا تنتهي.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ بعد كل هذا أن الله تعالى مـا خلـق الشـهوات لنتنعم بهـا، أو لنسـتدل بهـا عليـه فقـط، وإنمـا خلقها ليميز بين من يريدونه، ومن يريـدونها، ومن يعبدونـه ومن يعبـدونها.. وقـد ورد في الأثـر الإلهي عن اللـه تعـالى أنـه قـال: (خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي، فخلقت الـدنيا فـذهب مـني تسعة أعشارهم وبقي العشر، فخلقت الجنة فهرب مـني تسـعة أعشـار العشـر وبقي معي عشـر العشـر، فسـلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر، فقلت للباقين: لا الــدنيا أردتم، ولا الجنــة أخــذتم، ولا من النــار هــربتم، فمــاذا تريدون؟! قالوا: إنـك لتعلم مـا نريـد. فقلت لهم: فـإني مسـلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبـال الرواسـي، أتصـبرون؟! قـالوا: إذا كنت أنت المبتلى لنـا فافعـل مـا شـئت. فهؤلاء عبادي حقاً!) [1]

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الله تعـالى وضع للشهوات حدودا ومقـادير، من تجاوزهـا، وأدمن على ذلـك التجـاوز، قـد يتحـول عن فطرتـه السـليمة المرتبطـة بالمحبـة

[1] () صفة الصفوة (1/ 501)

الطبيعية للشهوات إلى الفطرة المنتكسة التي لا شغل لها سوى اللهث وراءها.

وقد أشار إلى ذلك قوله ﷺ: (إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) (1)

ولذلك كانت الحمية في أن تدع بعض الحلال خشية الوقوع في الحرام، كما أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك، وأثنى على فاعله، فقال: (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس) (2)

وقد قال بعض الصالحين: (كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام)، وقال آخر: (إن من تمام التقوى أن يتقي العبد في مثال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حتى يكون حجابا بينه وبين النار) (3)

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أنك قد تحتاج أحيانا إلى بعض الرياضة التي تهذب بها نفسك، حتى لا تدمن على الشهوات، وتصبح أسيرة لها، كما وردت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى:﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ الله مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

3() إحياء علوم الدين (2/ 95)

مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَـةً بِيَـدِهِ فَشَـرِبُوا مِنْـهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ [البقـرة: 249]

فهذه الآيـة الكريمـة تشـير إلى قـوة أولئـك الـذين أذعنـوا لقول طالوت، واستجابوا له، فلم يشربوا الماء مع حاجتهم إليه، أو اكتفوا منه بما سمح لهم به.. وقد رأى طـالوت أن هـؤلاء هم الذين يمكنهم الثبات في المعركة.. ذلك أن الذي لا يملك نفسه عند الماء، لا يمكنه أن يملكها عند مواجهة العدو.

ومن هذا الباب ـ أيها المريد الصادق ـ شرع لنا ربنا الصـوم الذي نترك به بعض الشهوات، وندرب أنفسنا على الصبر عليها، حتى تحصل لنا التقوى الحقيقية بسـبب ذلـك، وقـد قـال تعـالى مبينا مقاصد الصوم: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّـيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183]

ولهذا كـان تـأديب اللـه تعـالى للـذين تعمـدوا الإفطـار في رمضان رعاية لشهواتهم، بأن يصـوموا شـهرين متتـابعين تأديبـا لأنفسهم، وتهذيبا لها حتى لا تبقى أسيرة لشهواتها.

ومثل ذلك مثل صاحب الحمية الذي لا تكفيه المدد القليلة، بل يحتاج إلى الفترات الطويلة، حتى تؤتي الحمية أكلها.

ولهذا أوصيك ـ أيها المريد الصادق ـ بالـدخول إلى مدرسـة الصوم، فهي مدرسة وضعها اللـه تعـالى لكـل من يريـد تهـذيب نفسه حتى لا يصبح عبدا لشهواته.

وقد ترك لنا رسول الله ﷺ فيها سننا كثيرة، وذكر لنـا فيهـا فضـائل عظيمـة، فـاحرص عليهـا، والتزمهـا بقـدر طاقتـك، مـع مراعـاة ظروفـك وأحوالـك حـتى لا يقعـدك الصـوم عن سـائر الطاعات، أو يمنعك عما كلفت به من واجبات.

الرّياء والسمعة

كتبت إلي ــ أيهــا المريــد الصــادق ــ تســألني عن الريــاء وعلاماته، وطرق علاجه، وعن السر في تلك النصوص المقدسة الكثيرة التي تبين سوء عاقبة أصحابه، مع أنهم في ظاهر حالهم لم يتسببوا بأي أذى لغيرهم، وإنما كل ذنبهم تلـك النشـوة الـتي وجـدوها في نفوسـهم عنـدما رأوا اطلاع الخلـق على أعمـالهم؛ فسرتهم، بل زادت في نشاطهم وهمتهم.

وكل أسئلتك ـ كما تعودت ذلك منك ـ وجيهــة، وتحتــاج إلى إجابة عليها، لأنه لا يمكن تهذيب النفس، ولا إصلاحها من دونها.

وحتى سؤالك الأخير الذي استشكلت فيه مدى عدالة تلــك التشــديدات المرتبطــة بالريــاء وجيهــة أيضــا، وخاصــة في هــذا العصر الذي تصـور فيـه بعضـهم أن الـدين مجـرد قيم أخلاقيـة، وسلوكات اجتماعية، وأن الصالح من النـاس هـو ذلـك المهـذب الطيب في سلوكه وعلاقاتـه، ولا يهم بعـد ذلـك إن كـان صـادقا مخلصا، أو منافقا مرائيا.

وهؤلاء لا يعلمون أن الدين له جانبان، كلاهمـا ركنـان فيـه، والعبث بأحــدهما عبث بــالآخر، والاهتمــام بأحــدهما لا يــؤثر في الآخر فقط، وإنما يؤثر في كل اللطائف التي حُبي بها الإنســان، والتي تشكل حقيقته التي لا يكون إنسانا من دونها.

أمــا أولهمــا؛ فــذلك الــذي حصــروا الــدين فيــه، وهــو القيم الأخلاقية الرفيعة، التي تدعو إلى السلام والتعايش والبر والأدب والتحضر والإيجابية مع كـل أصـناف النـاس، وكـل المجتمعـات، وفي كل الأحوال.

وأما **الثاني**؛ فهو العلاقة مع اللـه، ذلـك أن الرسـل عليهم

الصلاة والسلام، لم يرسلوا لأجل تهـذيب العلاقـات الاجتماعيـة، ونشر القيم الأخلاقية المرتبطة بها فقط، وإنما أرسلوا لتعريــف الخلق بالله، وتعليمهم كيفية التواصل معه.

ولو أنك ـ أيها المريد الصادق ـ تأملت ما ورد في النصوص المقدسة حول أهداف دعوة الرسل عليهم الصـلاة والسـلام (1) لرأيت أن الثاني هو الهـدف الأساسـي، والأول تبـع ونتيجـة لـه، ذلك أن المعرفة بالله هي الأساس الذي تنبع منه كل الفضـائل، فمن عرف الله ووحده، وامتلأ قلبه بالإخلاص له، ارتقى في كل معارج الكمال، وتنزلت على نفسه كل ألوان الفضائل.

أما من حُجب عن الله، وراح يمارس حياته بعيدا عنه؛ فإنـه وإن بدا متخلقا في ظاهره إلا أنه ـ بسـبب خـراب باطنـه ببعـده عن الله ــ يمكن أن ينقلب في أي لحظـة إلى وحش كاسـر، أو حية رقطاء، كما ذكر الله تعالى ذلك عن المنافقين الذين زينــوا ظواهرهم، وخربوا بواطنهم، قـال تعـالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُـكَ أَجْسَـامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُـوا تَسْـمَعْ لِقَـوْلِهِمْ كَـأَنَّهُمْ خُشُـبٌ مُسَـنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَـدُوُّ فَاحْـذَرْهُمْ قَـاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: 4]

وأنت ترى ـ أيها المريد الصادق ـ ذلك في الواقـع في تلـك الدول التي يتصور الكثير من أصـحاب التـدين المـادي أنهـا دول متخلقـة مهذبـة مـع غفلتهـا عن اللـه.. لكنهم لا يلاحظـون تلـك الشـذوذات الـتي يقعـون فيهـا، والـتي لا تختلـف أبـدا عن تلـك الشذوذات التي وقع فيها أقوام الأنبياء عليهم السلام.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصـادق ــ فـاعلم أن المـرائي

---

(1) من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:36]

يشبه ذلك الذي دخل الامتحان، وأجـاب عن كـل الأسـئلة إجابـة صحيحة، لكنه بدل أن يعطي ورقة الإجابة لأسـتاذه الـذي سـأله راح يأخذها معه، ويريها لأصدقائه، ويـبين لهم مـدى قدرتـه على الإجابة.. فهذا وإن فرح في تلك اللحظات بثناء أصدقائه عليه إلا أنه عند ظهور النتائج لن يجد له أي علامة..

والعتاب هنا لا يتوجه للأسـتاذ السـائل، وإنمـا يتوجـه لـذلك الغبي الذي راح يضع الأمور في غير محالها طلبا للذة العاجلة..

ولـو أنـه تمهـل إلى أن تخـرج النتـائج، ليسـمع أصـدقاؤه وغـيرهم بعملـه بعـد أن يزنـه الأسـتاذ بمـوازين الحكمـة الـتي يملكها، لكان ذلك أجدى وأنفع له.

وهذا المثال ينطبق تماما على المرائي الذي يطلب اللذة العاجلة، ويخرب لأجلها كل ما بناه، ذلك أنه بدل أن يتوجه بأعماله لربه الذي وضعه موضع الاختبار، راح يتوجه بها لغيره، ولذلك كان من عزة الله تعالى أن يتركه لمن توجه بعمله إليه، كما قال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريءٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)(1)

ولذلك، فإن الجزاء الوفاق المتناسب مع العدالـة هـو أن لا ينـال أي شـخص أجـره إلا لمن وجـه إليـه عملـه، كمـا ورد في الحديث القدسي قوله تعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشـرك من عمـل عملا أشـرك فيـه معي غـيري تركتـه وشـركه، إذا كـان يـوم القيامة أتي بصحف مختمة فتنصـب بين يـدي اللـه تعـالى، فيقـول الله لملائكته: اقبلوا هذا وألقوا هـذا، فتقـول الملائكـة: وعزتـك مـا رأينا إلا خيرا، فيقـول: نعم لكن كـان لغـيري ولا أقبـل اليـوم إلا مـا

(1) رواه البخاري ومسلم.

ابتغي به وجهي)(2)

وفي رواية أخرى:(إذا كان يوم القيامة يجـاء بالأعمـال في صحف مختمة، فيقول الله ـ عز وجل ـ: اقبلـوا هـذا وردوا هـذا، فتقول الملائكة وعزتك ما كتبنا إلا مـا عمـل، فيقـول: إن عملـه كان لغير وجهي، وإني لا أقبل اليوم إلا ما كان لوجهي)

وإذا أضفت ـ أيها المريد الصـادق ـــ إلى هـذا ذلـك الخـداع الذي يتصف به المرائي، حين يتظاهر بأنه يعبد ربه، بينما هو في الحقيقة يعبد من ينظرون إليه، فإن الجزاء العـدل الوفـاق لهـذا هو ذلك العذاب المتناسب مع المخادعين، والذي يتجسد له يوم القيامة في تلك الصور التي أخبر عنها رسول الله ﷺ.

ولهذا فإن القرآن الكريم يصف المرائين بالشرك والخداع، أما الشرك، فلأنهم توجهوا بأعمالهم لغير الله، اعتقـادا منهم أن المتوجه لهم بتلـك الأعمـال أولى من اللـه، وأمـا الخـداع، فلأن ظواهرهم تخالف بواطنهم، وذلك هو الخداع بعينه.

ولهذا وصف الله تعالى المنافقين بالرياء والخديعة، فقـال: ﴿إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ يُخَـادِعُونَ اللَّهَ وَهُــوَ خَـادِعُهُمْ وَإِذَا قَـامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُـرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَـذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَـؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْـلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 142، 143]

واعتبرهم قرنـاء الشـيطان، وإن كـان ظـاهرهم يـدل على الصلاح، قـال تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ [النساء: 38]، ثم بين سوء تدبيرهم حين تركـوا التوجـه بأعمالهم إلى الله صاحب الجزاء العظيم، ووجهوها إلى الخلــق،

---

(2) رواه مسلم وابن ماجه.

فقال: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَـوْ آمَنُـوا بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَأَنْفَقُـوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَـانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًـا (39) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)﴾ [النساء: 39، 40]

وهـؤلاء ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ وإن بـدوا بتلـك الصـورة الجميلة في ظاهرهم إلا أن باطنهم يـأبى إلا أن يظهـر، فيحـول عملهم إلى صورة قبيحة تشبه قبح بواطنهم، ولذلك تجد المنفق المخلص، لا تدري شماله ما أنفقت يمينه، بينما المنفق المرائي يملأ الـدنيا صـراخا بإنفاقـه، ويسـيء إلى كـل من أنفـق عليهم، ولهذا ورد النهي الشديد عن تلك الثمار السيئة التي ينبتها الرياء في أعمال المنفقين، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُـوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِـقُ مَالَـهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُـؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَـابَهُ وَابِـلٌ فَتَرَكَـهُ صَـلْدًا لَا يَقْـدِرُونَ عَلَى شَـيْءٍ مِمَّا كَسَـبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْـدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 264]

وفي مقـابلهم ذكـر المؤمـنين المخلصـين الـذين ينفقـون أموالهم في سبيل الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَـا أَنْفَقُـوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 262]

ثم أعطى القاعدة المرتبطة بذلك، فقال: ﴿ قَوْلٌ مَعْـرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْـرٌ مِنْ صَـدَقَةٍ يَتْبَعُهَـا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقـرة: 263]

وهي تبين أن المنفـق المـرائي، وإن كـان قـد أحسـن إلى المحتــاجين بســد بعض حاجــاتهم الماديــة إلا أنــه ملأ قلــوبهم وبواطنهم ألما قد يفوق بكثير ذلك الألم الذي كانوا يعـانون منـه قبل إنفاقه عليهم.

وفوق ذلك كله، فإن المرائي الذي يهتم بنظر النـاس أكـثر من اهتمامه بالله، سيجعل كل همه العمـل وفـق مـا يحقـق لـه ذلك الرضى الـذي يبتغيـه منهم، ولـو في سـخط اللـه، وهـو مـا يجعله سلبيا إمعـة ليس لـه أي دور إيجـابي في التغيـير والتـأثير والتطوير.

وقد أشار الإمام علي إلى ذلك بقوله: (ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويحبّ أن يحمد في جميع أموره)[1]

وفوق ذلك كلـه؛ فـإن تـأثير الريـاء ليس في إحبـاط جـزاء الأعمال فقط، وإنما له تأثيره الكبير في الأعمال التي يقوم بهـا المرائي نفسها، ذلك أنها تصـير ــ بسـبب ذلـك الريـاء ــ خاليـة، ممحوقة من البركة، سرعان ما يظهر عوارها وعيوبها.

ولو أن الخلق وضعوا هذا الاعتبـار في تقـييمهم لأعمـالهم، ووزنهم لها، لعرفوا أن أكثر تلك الجهود التي تضيع هبـاء منثـورا من غــير أن تنتج أي نتيجــة ليس لهــا من ســبب ســوى ذلــك الفيروس الخطير الذي هو الرياء.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يبين هذه الحقيقـة لأصـحابه في الوقت الذي كان يحتـاج فيـه إلى تكثـير سـواد المسـلمين.. بـل كـان يقولهـا، وهـو مقـدم على مواجهـة أعدائـه الـذين يريـدون استئصال الإسلام، لأنه يعلم أنــه لا ينتصــر الـدين إلا بالصـادقين المخلصين، لا المنافقين المرائين.

وقـد ورد في الحـديث أنّ أعرابيّـا أتى النّـبيّ ﷺ فقـال: يـا رسول الله، الرّجل يقاتل للمغنم، والرّجل يقاتل ليذكر، والرّجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقـال رسـول اللـه ﷺ:

1() الكافي، ج 2 ص 295 رقم 8.

(من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله) (1)

ولهذا كان رسول الله ﷺ ينبه إلى أن الرياء سيكون من الأسباب الكبرى لانحراف هذه الأمة، مثلما كان السبب الأكبر لانحرافات الأمم السابقة، فقال: (أخوف من أخاف عليكم الرّياء والشّهوة الخفيّة)(2)

وفي حديث آخر أنه ﷺ رئي باكيا، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: (إنّي تخوّفت على امّتي الشّرك، أما إنّهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ولا حجرا، ولكنّهم يراءون بأعمالهم)(3)

وفي نبوءة من نبوءات رسول الله ﷺ قال: (سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم طمعا في الدّنيا، لا يريدون به ما عند ربّهم، يكون دينهم رياء، لا يخالطهم خوف، يعمّهم اللّه بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم)(4)

وقد أشار الإمام الصادق إلى هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 110] حيث قال: (الرّجل يعمل شيئا من الثواب لا يطلب به وجه اللّه إنّما يطلب تزكية النّاس، يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الّذي أشرك بعبادة ربّه)، ثمّ قال: (ما من عبد أسرّ خيرا فذهبت الأيّام أبدا حتّى يظهر اللّه له خيرا، وما من عبد يسرّ شرّا فذهبت الأيّام حتّى يظهر اللّه له

1() البخاري- الفتح(2810)، ومسلم(1904)

2() ابن ماجه.

3() الحاكم ج 4 ص 330 باختلاف، وابن ماجه رقم 4205 بنحوه.

4() الكافي، ج 2 ص 296 رقم 14.

شرّا)[1]

وقال: (ما يصنع أحدكم أن يظهر حسنا ويسرّ سيّئا؟ أ ليس يرجع إلى نفسه فيعلم أنّ ذلك ليس كذلك واللّـه تعـالى يقـول: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامـة: 14]، إنّ السـريرة إذا صحّت قويت العلانية)[2]

وقال: (من أراد اللّه بالقليل من عمله أظهره اللّه له أكـثر ممّا أراد ومن أراد النـاس بـالكثير من عملـه في تعب من بدنـه وسهر من ليله أبى اللّه إلّا أن يقلّله في عين من سمعه)[3]

وإلى هذا المعنى يشير قولـه ﷺ: (من راءى راءى اللّـه بـه ومن سمع سمّع اللّه به)[4]، وقوله ﷺ: (من أكـل برجـل مسـلم أكلة فإنّ الله يطعمـه مثلهـا من جهنّم، ومن كسـي ثوبـا برجـل مسلم فإنّ الله يكسوه مثلـه من جهنّم، ومن قـام برجـل مقـام سمعة ورياء فإنّ الله يقوم به مقام سمعة وريـاء يـوم القيامـة)[5]

هذه مجرد نماذج لآثار الريـاء النفسـية والاجتماعيـة، أردت من خلالها أن أجيبك ـ أيها المريد الصـادق ــ عن ذلـك الإشـكال الذي طرحته، والذي أثاره أولئك الـذين عزلـوا اللـه عن الـدين، وعزلوا معه كل تلك القيم الروحانية الرفيعة التي لا يقوم الدين من دونها.. بل لا تقوم الأخلاق من دونها.. فـالأخلاق الخاليـة من الروحانية ليست سوى طلاء سرعان ما تزيله الأيام.

1() الكافي ج 2 ص 293 رقم 4.

2() الكافي، ج 2 ص 295 رقم 11.

3() الكافي، ج 2 ص 296 رقم 13.

4() البخاري ج 8 ص 130.

5() أبو داود(4881) وأحمد (4/ 229)

لا تيأس ـ أيها المريد الصـادق ــ فمـا من داء إلا ولـه دواء، ومـا من علـة إلا ولهـا طـبيب.. فأبشـر؛ فقـد ورد في المصـادر المقدسـة، مـا يـدلك على كيفيـة التخلص من هـذا المثلب من مثالب النفس الأمارة، فشمر عن ساعد الجد، وخذ كتابك بقوة.

العلاج المعرفي:

أول علاج للرياء ـ أيها المريد الصادق ــ هـو اقتناعـك بتلـك المعاني التي ذكرتها لك، ذلـك أن الهمـة والحـزم يحتاجـان إلى القناعة التامة بجـدوى العمـل وفائدتـه وضـرورته، ولـذلك كـان الاستماع للمرجئة والتأثر بـدعواتهم وأمـانيهم ليس سـوى تلبيـة لكسل النفس الأمارة، وقعودها عن تهذيب نفسها.

فلــذلك احــذر من كــل من يــدعوك إلى الاهتمــام ببنائــك الخـارجي، وتـرك بنائـك الـداخلي؛ فبنـاؤك الـداخلي هـو الـذي سيرحل معك، وهو الذي سينعم أو يعذب..

فما جدوى أن تتطوع ببناء المساجد والمستشفيات، وتقدم الخدمات الكثيرة للفقراء والمساكين، ثم تجد كـل مـا قمت بـه بعد ذلك سرابا لا قيمـة لـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَقَـدِمْنَا إِلَى مَـا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23]

فالآيـة الكريمـة لا تـدعونا إلى التوقـف عن عمـل الخـير، ولكنها تدعونا إلى التأسيس الصحيح له، حـتى يكـون نافعـا لنـا، ولمن قـدمنا لهم ذلـك الخـير، وحـتى لا تتسـبب تلـك الأمـراض النفسية في تشويه ذلك الخير، وتحويله إلى شر.

ولذلك كان تفعيلك لتلك النصوص المقدسة التي تحذر من الرياء، وتبين عواقبه، وعدم تعطيلك لها هو الأساس الأول الذي ينطلق منه العلاج..

ذلك أن تلك الخشية والرهبة تجعلك حذرا ممتلئا بالمخافة مثلما يحذر صاحب الأموال الكثيرة أن يشعلها بعود ثقاب واحد يضعه عليها..

وهكذا هو نفسه حال المرائي الذي يجمع الجبال من الحسنات، ثم يرمى عليها أعواد ثقاب الرياء، لتشتعل جميعا، وفي طرفة عين.

بل إن الأمر أخطر من ذلك، فالمرائي لا يحبط عمله فقط، وإنما تمتد تلك النار إليه لتحرقه أيضا.. ذلك أن تقديمه لرؤية الخلق على رؤية ربه ليست سوى صورة من صور الشرك، وقد أخبر الله تعالى أنه﴿ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]

وقد ورد في الحديث ما يدل على ذلك صراحة، فقد قال ﷺ: (من صلّى يرائي فقد أشرك ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدّق يرائي فقد أشرك)(1)

ولذلك يطالب المراؤون يوم القيامة بأن يذهبوا إلى شركائهم ليأخذوا منهم أجورهم، مثلما يخاطب المشركون تماما، كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: 64]

وقد ورد في الحديث القدسي أن الله تعالى قال: (أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئا فإن حشده عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشركه به، وأنا عنه غني) (2)

1() أحمد، 4/ 126.

2() الحاكم 4/329، وأبو نعيم في الحلية 1/268-269.

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصغر)، قالوا: يا رسول الله، وما الشّرك الأصغر؟ قال: (الرّياء، إنّ الله تبارك وتعالى يقول يوم تجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الّذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدّنيا فانظروا، هل تجدون عندهم جزاء؟)(1)

وسئل رسول الله ﷺ عن الجهاد والغزو، فقال: (إن قاتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مرائيا مكابرا بعثك الله مرائيا مكابرا، على أيّ حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تيك الحال)(2)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (الغزو غزوان، فأمّا من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام وأنفق الكريمة، وياسر الشّريك، واجتنب الفساد. فإنّ نومه ونبهه أجر كلّه، وأمّا من غزا فخرا ورياء وسمعة وعصى الإمام وأفسد في الأرض فإنّه لم يرجع بالكفاف)(3)

وقال الإمام الرضا: (اعملوا لغير رياء ولا سمعة فإنّه من عمل لغير اللّه وكله اللّه إلى ما عمل، ويحك ما عمل أحد عملا إلّا ردّاه اللّه به، إن خيرا فخير وإن شرّا فشرّ)(4)

ردد ــ أيها المريد الصادق ــ هذه الأحاديث بينك وبين نفسك، وحاول أن تتخيل معانيها، وكيف تأتي يوم القيامة بجبال من الحسنات، وعندما تطلب أجورها، يقال لك: اذهب إلى من كنت تعمل عندهم.. وعندما تذهب إليهم يتبرؤون منك، فتعود

1() أحمد، 5/ 429، البيهقي في الشعب(5/ 332)/ 6831.

2() أبو داود(2519)، والحاكم(2/ 85- 86)، وقال: حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

3() أبو داود(2515) واللفظ له، والحاكم في المستدرك(2/ 85)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

4() الكافي ج 2 ص 294 رقم 5.

بالخيبة التي لا مثلها خيبة.

ليس ذلك فقط ـ أيها المريد الصادق ـ ولو أن الأمر اقتصر عليه مع خطره لكان هينا.. فالنصوص المقدسة لا تكتفي بذكر تلك البراءة من الأعمال، ولا بعدم نيل أصحابها أجورهم، وإنما تضيف إليهم العذاب العظيم الذي ينالونه.

وهو تجسيد لذلك النفاق والشرك الذي كان يغمر نفوسهم عندما يمارسون تلك الأعمال الصالحة في ظاهرها، الخبيثة في باطنها.

وقد أشار إلى هذا العذاب قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: 4 - 7]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تعلّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السّفهاء، ولا تخيّروا به المجالس. فمن فعل ذلك فالنّار النّار)[1]

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (تعوّذوا بالله من جبّ الحزن)، قالوا: يا رسول الله، وما جبّ الحزن؟ قال: (واد في جهنّم تتعوّذ منه جهنّم كلّ يوم أربعمائة مرّة)، قالوا: يا رسول الله، ومن يدخله؟ قال: (أعدّ للقرّاء المرائين بأعمالهم، وإنّ من أبغض القرّاء إلى الله تعالى الّذين يزورون الأمراء)[2]

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجا به فإذا صعد بحسناته يقول اللّه تعالى:

1() ابن ماجة(مقدمة: 254)، والحاكم في المستدرك(1/ 86)

2() سنن ابن ماجه(256) واللفظ له، والترمذي(2383)، وقال الترمذي: حسن غريب.

اجعلوها في سجّين إنّه ليس إيّاي أراد بها) (1)

وفي حديث آخر ورد تحذير أشـد من ذلـك كلـه، فقـد روي أنه ﷺ قـال: (إنّ أوّل النّـاس يقضـى يـوم القيامـة عليـه، رجـلٌ استشهد، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فمـا عملت فيهـا؟ قال: قاتلت فيك حتّى استشهدت، قـال: كـذبت، ولكنّـك قـاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثمّ أمر به فسـحب على وجهـه حتّى ألقي في النّار، ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيهـا؟ قـال: تعلّمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن، قـال: كـذبت، ولكنّـك تعلّمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قاريء، فقد قيل: ثمّ أمر به فسـحب على وجهـه حتّى ألقي في النّـار، ورجـل وسّـع اللـه عليـه وأعطـاه من أصـناف المـال كلّـه، فـأتي بـه فعرّفـه نعمـه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: مـا تـركت من سـبيل تحبّ أن ينفـق فيهـا إلّا أنفقت فيهـا لـك، قـال: كـذبت، ولكنّـك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيـل، ثمّ أمـر بـه فسـحب على وجهـه، ثمّ ألقي في النّار)(2)

العلاج السلوكي:

إذا عرفت ذلك ـ أيها المريد الصادق ــ وكررتـه بينـك وبين نفسك، فإن همتك لا محالـة سـتنبعث للبحث عن الطـرق الـتي تجعلك تتخلص من الرياء وآثـاره وثمـاره، وأول مـا عليـك فعلـه لذلك هو التضرع إلى الله في أن ينجيك منه، ويطهـر قلبـك من طلب الخلق، ويجعله متمحضا خالصا للحق.

وإذا فعلت ذلك صادقا، فإن الله الكريم لن يرد من قصده،

1() الكافي، ج 2 ص 295.

2() مسلم(1905)

ولن يبعد من التجأ إليه، خاصة إذا لم يكن ذلـك اللجـوء مرتبطـا بالدنيا وأهوائها، وإنما هو مرتبط بالله والدار الآخرة.

ولهـذا نـرى دعـاء المؤمـنين في القـرآن الكـريم مرتبطـا بالهدايـة، كمـا في قولـه تعـالى في سـورة الفاتحـة: ﴿اهْـدِنَا الصِّـــرَاطَ الْمُسْـــتَقِيمَ (6) صِـــرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْـــرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 6، 7]، وحكى لنا دعاء إبـراهيم وإسـماعيل عليهمـا السـلام، فقـال: ﴿ رَبَّنَـا وَاجْعَلْنَـا مُسْلِمَيْنِ لَـكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَـا أُمَّةً مُسْـلِمَةً لَـكَ وَأَرِنَـا مَنَاسِـكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَـا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الـرَّحِيمُ﴾ [البقـرة: 128]، وقـال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 126]

وقد كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: (اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاهـا، اللهم إني أعـوذ بـك من قلب لا يخشـع، ونفس لا تشـبع، وعلم لا ينفـع، ودعوة لا يستجاب لها) [1]

وكـان يقـول: (اللهم اهـدني لأحسـن الأخلاق، لا يهـدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عـني سـيئها إلا أنت) [2]

ومن تلـك الأدعيـة العظيمـة المرتبطـة بهـذا مـا ورد في الحديث من قوله ﷺ لبعض أصحابه: (والذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلتـه ذهب عنـك قليله وكثيره ؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم،

1() مسلم (2722)، وابن أبي عاصم في السنة (320)

2() رواه مسلم (1290)

وأستغفرك لما لا أعلم) [1]

وفي حديث آخر عن رسـول اللـه ﷺ أنـه خطب ذات يـوم، فقـال: (أيهـا النـاس اتقـوا هـذا الشـرك؛ فإنـه أخفى من دبيب النمل)، فقيل له: وكيـف نتقيـه، وهـو أخفى من دبيب النمـل يـا رسول الله؟ فقال: (قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بـك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم)

ومن أدعيتـه المرتبطـة بهـذا هـذا الـدعاء العظيم الشـامل لخـير الـدنيا والآخـرة: (اللهم إني أعـوذ بـك من الفقـر والكفـر، والفسوق، والشقاق، والنفاق، والسمعة، والرياء) [2]

ولا تكتف بذلك ـ أيها المريد الصادق ــ فالـدعاء يحتـاج إلى العمل، والصادق هو الذي يجمع بينهما لينجح في الابتلاء..

ولا يمكنني في هذا المقام أن أذكر لك كـل مـا يفيـدك في ذلك، فهو كثير جدا، لا يمكن حصره، فلله طرائق بعدد الخلائق..

ولعل الجامع لها جميعا هو مقاومة العلة بما يضادها؛ مثلمـا نفعل مع الأمـراض الـتي تعترينـا، وقـد روي عن المسـيح عليـه السلام في هذا قوله: (إذا كان يوم صوم أحدكم فليـدهن رأسـه ولحيتـه ويمسـح شـفتيه لئلاّ يـرى النـاس أنّـه صـائم وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله وإذا صلّى فليرخ سـتر بابـه فـإنّ اللّـه يقسم الثناء كما يقسم الرّزق) [3]

وروي في أخبـار الأمم السـابقة أن رجلا من السـوّاح قـال لأصحابه: إنّا إنّما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخـاف

1() البخاري في الأدب المفرد (716)

2() رواه الحاكم (1944)

3() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 141.

أن يكون قد دخل علينـا في أمرنـا هـذا من الطغيـان أكـثر ممّـا دخل على أهل الأموال في أموالهم، إنّ أحــدنا إذا لقي أحبّ أن يعظّم لمكـان دينـه، وإن اشــترى شـيئا أحبّ أن يــرخّص عليـه لمكان دينه، وإن سـأل حاجـة أحبّ أن تقضـى لـه لمكـان دينـه. فبلـغ ذلـك ملكهم فـركب في موكبـه من النـاس فـإذا السـهل والجبل قد امتلأ بالناس، فقال السائح: ما هذا قيل: هـذا الملـك قد أظلّك، فقال للغلام: ائتني بطعام فأتـاه ببقـل وزيت وقلـوب الشجر فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا، فقـال الملـك: أين صـاحبكم، قـالوا: هـذا قـال: كيـف أنت؟ قـال: كالنـاس، فقـال الملك: ما عند هذا من خير، فانصرف عنه. وقال السّائح: الحمد للَّه الّذي صرفك عنّي وأنت لي ذامّ[1].

ولهذا فإن عليك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تجتهد في إخفاء طاعاتـك مـا أطقت إلى ذلـك سـبيلا، ولـذلك ورد في الحـديث الإخبار بأفضلية صـلاة النافلـة في الـبيت، قـال ﷺ: (اجعلـوا في بيوتكم من صلاتكم ولا تتخذوها قبوراً) [2]

وفي حــديث آخــر روي أنــه ﷺ اتخــذ حجــرة في رمضــان فصلى فيها ليالي، فصـلّى بصـلاته نـاسٌ من أصـحابه فلمـا علم بهم جعل يقعد فخرج إليهم، فقال: (قد عـرفت الـذي رأيت من صنيعكم فصلُّوا أيها الناس في بيوتكم فإن أفضل الصـلاة صـلاة المرء في بيته إلا المكتوبة) [3]

وسئلت عائشـة عن تطوعـه ﷺ فقـالت: (كـان يصـلي في بيـتي قبـل الظهـر أربعـا، ثم يخـرج فيصـلي بالنـاس ثم يـدخل فيصلي ركعتين وكان يصلي بالناس المغـرب ثم يـدخل فيصـلي

1() المرجع السابق، ج6، ص: 164.

2() رواه البخاري (422) ومسلم (777)

3() رواه البخاري (698) ومسلم (781)

ركعتين ويصلي بالنـاس العشـاء ويـدخل بيـتي فيصـلي ركعـتين وكان يصلي من الليل تسع ركعات فيهن الوتر وكـان يصـلي ليلا طويلا قائما وليلا طويلا قاعدا وكان إذا قرأ وهو قائم ركع وسجد وهو قائم وإذا قرأ قاعدا ركع وسـجد وهـو قاعـد وكـان إذا طلـع الفجر صلى ركعتين) [1]

وغيرها من الأحاديث التي تبين أفضلية كون النوافـل بعيـدا عن الناس، حتى لا يتسرب الرياء إلى أصحابها.. ذلـك أن الريـاء عـادة لا يتطـرق إلا للتطوعـات، بخلاف الفـرائض الـتي يشـترك فيها الناس جميعا.

وقد قـال بعضـهم مبينـا تـأثير ذلـك في دفـع الريـاء: (دفـع الرّياء يستلزم من المرء أن يعوّد نفسه إخفاء العبـادات، وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتّى يقنع قلبـه بعلم الله ولا تنازعه نفسـه بطلب علم غـير اللـه بـه، وهـذا وإن كان يشقّ في البداية إلّا أنّه يهون بالصّبر عليه وبتواصل ألطاف الله عزّ وجلّ وما يمدّ به عباده من التأييد والتّسديد)

واحذر ـ أيها المريد الصـادق ــ من أن يسـتفزك الشـيطان عن نفسك، ويدعوك إلى إظهـار المعاصـي وتعمـد ارتكابهـا بين الناس ولو من غير قصد لها، حتى تبعـد عنـك الريـاء والسـمعة، فما جعل الله دواء عباده فيما حرم عليهم، ومن فعله من أولئك الذين يدعون أنفسـهم ملامتيـة، فقـد ابتعـدوا عن شـريعة ربهم بذلك، وحكموا أهواءهم، وما كان الله ليهدي من ابتعد عن سـنة نبيه ﷺ وأئمة الهدى، وراح يحكم هواه.

بـل إن الـواجب عليـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ في حـال وقوعك في أي مخالفـة شـرعية أن تسـترها وتكتمهـا، لا حفظـا لسمعتك؛ فتكون مرائيا بذلك، وإنما حفظا لـدين ربـك، وخشـية

---

[1] () رواه مسلم (730)

من إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، وحذرا من أن تكون من الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: (من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) [1]

وهذا الحديث يرشدك إلى أنه ــ في سبيل نشرك للخير ودعوتك إليه ـ يمكنك أن تظهره وتعلنه، لا لأجلك، وإنما لأجل أن يقتدى بك، كما ورد الإذن بذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: 271]

وورد الثناء عليهم بذلك في مواضع من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 274]، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 22]

وذلك لأن تلك الصدقات التي تعطى علانية، مع البعد عن قصد الرياء والسمعة، قد تكون سببا في أن تصبح سنة حسنة لمن يريد أن يقتدي بصاحبها، وقد ورد في الحديث عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: كنّا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ فجاءه قوم عُراة مجتابي النِّمار أو العَبَاءِ متقلدي السيوف، عامتهم من مضر بل كلهم من مضر، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لِمَا رأى بهم من تلك الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذَّن وأقام ثم صلى ثم خطب، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

[1] () رواه مسلم وغيره.

اتَّقُـوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِـدَةٍ [النسـاء: ١] والآيـة الأخرى التي في آخر الحشـر: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَـدٍ [الحشـر: ٨١]. تصـدَّق رجـل من ديناره، من درهمـه، من ثوبـه، من صـاع بُـرِّه، من صـاع تمـره، حتى قال: ولو بشقِّ تمرة، فجاء رجل من الأنصار بصُـرَّة كـادت كفـه تعجـز عنهـا، بـل قـد عجـزت. ثم تتـابع النـاس حـتى رأيت كَوْمَيْنِ من طعام وثياب، حتى رأيت وجـه رسـول اللـه ﷺ يتهلَّل كأنه مُذْهَبَةٌ، فقال رسول اللـه ﷺ: (من سـنَّ في الإسـلام سـنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجـورهم شـيءٌ، ومن سـنَّ في الإسـلام سـنة سـيئة كـان عليـه وزرهـا ووزر من عمــل بهــا من بعــده من غــير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ) (1)

ولهذا احذر ـ أيها المريد الصـادق ـ أن تتهم غـيرك بالريـاء لكونه أظهر عمله؛ فمـا أدراك بنيتـه، فـاكتف بنفسـك وحسـابها ودعك من الخلـق، فاللـه مـا أذن لـك في أن تكشـف علانيتهم، فكيف تأذن لنفسك بكشف سرائرهم؟

بل حتى لو وجدتهم ـ أيها المريـد الصـادق ـ يتحـدثون عن أعمالهم الصالحة، ويذيعونها، فلا تقتد بهم في ذلك، فعمل السر أفضـل من عمـل العلانيـة، ولكن مـع ذلـك التمس لهم الأعـذار، فلعلهم يقصـدون من ذلـك توجيـه غـيرهم أو تربيتـه، أو لعلهم يرون ذلك من التحدث بالنعمـة، كمـا قـال تعـالى: وَأَمَّا بِنِعْمَـةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ [الضحى: 11]

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ بعـد كـل هـذا أن تتوقـف عن العمل خشية الرياء؛ فـذلك مـا يريـده الشـيطان منـك.. فأقـدم على أعمالك التي هممت بها، واسـأل ربـك أن يرزقـك الإخلاص

1() مسلم (1017) (69) [4/2060]

فيها، واعتذر له من أي شوب أو شرك أو رياء دخل إليها.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن الرياء قد يتخفى في صور دقيقة.. فاحذر منها جميعا، فكلها شرك.. فليس الرياء أن تقصد بأعمالك الخلق وحدهم، وتعطيهم كـل همتـك.. فـذلك وإن كـان أغلظ أنواع الرياء وأخطرها إلا أنه ليس متوقفا عليه.

فمن الرياء أن تقصد ثواب الله تعالى، وتقصـد معـه ثـواب الخلـق.. فتحب أن يـروك، ويثنـوا عليـك، وإن قصـروا في ذلـك تـألمت.. أو رحت تـذيع عليهم مـا عملتـه سـرا ممـا لم يـروه، فتحبـط عملـك بـذلك، أو تخرجـه من عمـل السـر إلى عمـل العلانية، فتضيع لك أجور عظيمة بسبب ذلك.

وقد روي عن الإمام الكـاظم في هـذا قولـه: (الإبقـاء على العمل أشدّ من العمل)، فقيـل لـه: (ومـا الإبقـاء على العمـل؟) قال: (يصل الرّجل بصلة، وينفـق نفقـة للّه وحـده لا شـريك لـه فكتبت له سرّا، ثمّ يذكرها فتمحى فتكتب له علانية، ثمّ يــذكرها فتمحى وتكتب له رياء)(1)

فاجتهد ـ أيها المريد الصادق ـ في أن تعمـل بهـذه الوصـية العظيمة، ففيها خير الدنيا والآخـرة، وقـد قـال رسـول اللـه ﷺ: (إنّ في ظلّ العرش يوم لا ظلّ إلّا ظلّه رجلا تصدّق بيمينه فكاد يخفيها عن شماله)(2)، وورد في الآثار: (فضل عمـل السـرّ على عمل الجهر بسبعين ضعفا)(3)

إذا علمت كل هذا ـ أيها المريد الصادق ــ وملأت بـه قلبـك وعقلك.. وراقبت حركاتك وسكناتك.. ثم سـمعت بعـد ذلـك من

1() الكافي ج 2 ص 296 رقم 16.

2() مسلم ج 3 ص 93.

3() البيهقي في الشعب.

يثني عليك ثناء صالحا، ففرحت بذلك؛ فلا تحزن، فإن ذلك بشارة من الله تعالى لصدقك وإخلاصك، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل: الرجل يعمل العمل فيحمده الناس عليه، ويثنون عليه به؟ فقال رسول الله ﷺ: (تلك عاجل بشرى المؤمن) (1)

بل روي في حديث آخر ما هو أعظم من ذلك، فقد روي أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: (يا رسول اللّه أسرّ العمل لا أحبّ أن يطّلع عليه أحد فيطّلع عليه، فيسرّني؟)، قال: (لك أجران أجر السرّ وأجر العلانية)(2)

وسر ذلك هو أنه فطرة إلهية في الإنسان، لا يمكنه الانفكاك عنها، وما جعل الله في دينه ما يناقض الفطرة، وقد روي عن الإمام الكاظم أنه سئل عن الرّجل يعمل الشّيء من الخير فيراه إنسان فيسرّه ذلك؟ فقال: (لا بأس ما من أحد إلّا وهو يحبّ أن يظهر اللّه له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك)(3)

ولكن مع ذلك إياك أن تسكن لذلك الثناء، أو تركن إليه، أو تغتر به، لأن ذلك قد يكون وسيلة للشيطان إلى قلبك، ليحبب لك ذلك، ثم يصرفك عن ربك به.. فكن دائما على حذر.. فالإخلاص سر دقيق لا يظفر به إلا المتقون.

1() مسلم (2642)

2() الترمذي ج 9 ص 231.

3() الكافي، ج 2 ص 297 رقم 18.

احتقار الذنوب

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن قولهم: (لا صغيرة مع الإصرار)، وهل يمكن اعتبارها قاعدة شرعية يمكن الركون إليها، أم أنها مجرد اجتهاد ورأي؟.. وكيف يكون الإصرار؟.. وكيف تُهذب النفس بالتخلص منه؟.. وهل في الذنوب صغائر وكبائر؟.. وكيف يُميز بينهما؟

وغيرها من الأسئلة الكثيرة الوجيهة التي لا يمكن لمن يريد السير إلى الله وتهذيب نفسه الأمارة أن يجهلها.. فالعلم بالطريق، وعقباته، وكيفية تجاوزها علم ضروري، لا يصلح السير من دونه.. فكيف إذا كان السير إلى الله، وكانت العقبات عقبات النفس الأمارة؟

وهل يمكن لشخص أن يقيم صلاته، أو يؤدي زكاته، أو يقوم بمناسك حجه من دون معرفة الأحكام الفقهية المرتبطة بها؟.. فكذلك العلم بالسلوك إلى الله واجب كوجوبها، ضروري كضرورتها، وتهاون الخلق في شأنه، أو رغبته عن تعلمه، لا يلغيه، فالعبرة بالحقائق لا بمواقف الخلق منها.

وبخصوص ما ذكرت من تلك المقولة؛ فهي مقولة صحيحة، وهي محل اتفاق من الأمة جميعا، وقد اتفق على روايتها والاهتمام بها كل علماء السلوك والتربية..

وقد رويت بتلك الصيغة عن الإمام الصادق، وقد تكون من روايته عن أجداده إلى رسول الله ﷺ، فقد روي عنه قوله: (لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار) [1]

---

[1] () أصول الكافي، ج2، ص288.

بل إن الواقع يدل عليها.. فالذي يتساهل في المخالفات الصغيرة يتجاوزها إلى الكبيرة، والذي يسرق البيضة يوشك أن يسرق جملا، والذي يشرب كأسا من الحرام يوشك أن يصبح مدمنا..

والعقل يدل عليها.. ذلك أن كل المعاصي مبنية على الهوى والشهوة، وهما لا قرار لهما، فمن بدأ بالصغير يوشك أن تطالبه نفسه بالمزيد إلى أن يصل إلى الكبير.

ومما يروى في الحكايات أن بعض الصالحين كان يمشي في الوحل جامعا ثيابه محترزا، لكن رجله زلقت، وسقط، واتسخت ثيابه، فقام يمشي وسط الوحل، ويبكي، ويقول: (هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب أو ذنبين، فعندها يخوض في الذنوب جميعا)

وقد صاغ ذلك بعضهم شعرا، فقال:

خلّ الذنوب وكبيرها ذاك

واصنع كماشٍ أرض الشوك يحذر

لا تحقرنّ إن الجبال من

بل روي في الحديث ما يشير إلى هذا المعنى، فقد روي أن رسول الله ﷺ نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: ائتوا بحطب، فقالوا: يا رسول الله، نحن بأرض قرعاء، ما بها من حطب! قال: فليأتِ كلّ إنسان بما قدر عليه؛ فجاؤوا به حتَّى رموا بين يديه بعضه على بعضه، فقال رسول الله ﷺ: (هكذا تجتمع الذّنوب)، ثم قال: (إيّاكم والمحقّرات من الذّنوب؛ فإنّ لكل شيء طالباً، ألا وإنّ طالبها يكتب ﴿مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: 12])[1]

[1] أصول الكافي، ج2، ص288.

ولهذا لم يصف الله تعالى الصالحين من العباد بالعصمة المطلقة من الذنوب، وإنما وصفهم بعدم الإصرار عليها، والمسارعة إلى التوبة منها، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]، ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: 136]

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن لهذا المثلب من مثالب النفس الأمارة طرقا من العلاج تجتمع في أمرين: العرفان الذي تغذي به عقلك، والسلوك الذي تحرك به نفسك.

العلاج العرفاني:

أما الأول، وهو العلاج العرفاني؛ فينطلق من تعظيمك لربك؛ فكل الذنوب سببها الجرأة على الله، وهي بسبب عدم توقيره وتعظيمه، كما يروى عن الإمام علي قوله: (من أصرّ على ذنبه؛ اجترأ على ربه) [1]

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: 74]، وقال عن خطاب نوح عليه السلام لقومه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 13،ـ 14]، ثم عقب بعدها بذكر بعض مظاهر عظمة الله تعالى، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19)

[1] () وسائل الشيعة، ج11، ص368.

لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [نوح: 15 - 20]

فهذه الآيات الكريمة، وغيرها كثير من القرآن الكريم يدلك على الطريق الذي تتعرف به على عظمة الله، هو النظر في آياته، وخلقه، وعندما تمتلئ نفسك بمعاني عظمته، تمتلئ بتوقيره، وعند امتلائك بذلك تحذر من معصيته، وتستعمل كل السبل للتقرب إليه.

وإن شئت أن تعرف سر هذا، فاعلم أن الفطرة الإنسانية مجبولة على تعظيم من يملكون القدرات بمختلف أنواعها سواء ارتبطت بالعلم أو بغيره، ولهذا ذكر القرآن الكريم موقف ملكة سبأ حين رأت القصر الممرد من القوارير، ورأت قبل ذلك عرشها، فلم تملك إلا أن تقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: 44]

وهكذا أخبر الله تعالى عن أولي الألباب أنهم يقولون بعد التأمل في السموات والأرض: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191]

وإن شئت ــ أيها المريد الصادق ــ أن تستدل لهذا من الواقع، فانظر إلى مواقف الناس من الأثرياء أو الحكام؛ فهم يتعاملون معهم بحسب مراتبهم، وغناهم، وما يملكون..

ولهذا تجدهم يحذرون من أصحاب المراتب الرفيعة، ويحسبون لهم كل حساب، خشية أن يقعوا في أي سوء أدب معهم قد ينزل عليهم الويلات..

ولهذا، فإن المؤمن العارف بالله وعظمته، يعظم الذنب في عينه حتى لو كان صغيرا، بل إنه يعتقد أن كل الذنوب كبائر.. وهل يمكن أن تسمى معصية الله صغيرة؟

وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا ـ أي بيده ـ فذبه عنه)(1)

وفي وصية رسول الله ﷺ لأبي ذر قوله: (يا أبا ذر المتّقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة، إنّ المؤمن ليرى ذنبه كأنّه تحت صخرة يخاف أن تقع عليه، وإنّ الكافر ليرى ذنبه كأنّه ذباب مرّ على أنفه، يا أبا ذر إنّ اللّه تبارك وتعالى إذا أراد بعبد خيراً جعل الذنوب بين عينيه ممثلة، الإثم عليه ثقيلاً وبيلاً، وإذا أراد بعبد شراً أنساه ذنوبه، يا أبا ذر لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت، يا أبا ذر إنّ نفس المؤمن أشدّ ارتكاضاً من الخطيئة من العصفور حين يقذف به في شركه) (2)

ولو أنك ـ أيها المريد الصادق ـ تأملت في كلام العلماء في الكبائر والصغائر، وخلافهم الشديد في أصنافهما(3)، لامتلأت

1() البخاري 11 / 88 و89 و90، ومسلم رقم (2744)

2() بحار الأنوار، ج 74، ص 77.

3() من الأمثلة على الخلاف الوارد في عد الكبائر، ما نقله الغزالي عن أبي طالب المكّي، قال: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار، وجملة ما اجتمع من أقوال الصحابة أربع في القلب: وهو الشرك باللّه تعالى، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره. وأربع في اللّسان: وهي شهادة الزّور، وقذف المحصن، واليمين الغموس- وهي الّتي يحقّ بها باطلا أو يبطل بها حقّا، وقيل: هي الّتي يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولو سواك من أراك، وسمّيت غموسا لأنّها تغمس صاحبها في النار-، والسحر وهو كلّ كلام يغيّر الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة. وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والمسكر من كلّ شراب، وأكل مال اليتيم ظلما، وأكل الرّبا وهو يعلم. واثنتان في الفرج وهما الزنى واللّواط. واثنتان في اليدين وهو القتل والسرقة. وواحدة في الرّجلين وهو الفرار من الزّحف، وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين، قال: وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حقّ فلا يبرّ قسمهما، وأن يسألاه حاجة فلا يعطيهما، وأن يسبّاه فيضربهما، ويجوعان فلا يطعمهما)

وقد علق الغزالي على هذا بقوله: (هذا ما قاله وهو قريب، ولكن ليس يحصل به

بالمخافة، وأخـذت بالاحتيـاط؛ فليس هنـاك ذنب من الـذنوب إلا وهناك من يعتبره كبيرة من الكبائر، وقد يكـون الحـق مـع ذلـك القائل، ولذلك كان العاقل الممتلئ بالورع هو الـذي يحـذر منهـا جميعا.

لا تحسب ـ أيها المريد الصادق ـ أني أريد بهذا أن أقول لك بأن الذنوب كلها كبائر، وأنه لا توجد هناك صغائر؛ فمعاذ الله أن

تمام الشفاء، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه؛ فإنّه جعل أكل الرّبـا ومـال اليـتيم من الكبائر وهي جناية على الأموال، ولم يذكر في كبائر النفوس إلّا القتل، فأمّا فقء العيـنين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضـرب وأنـواع العـذاب فلم يتعـرّض لـه، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شـكّ في أنّـه أكـبر من أكـل مالـه) [انظـر: إحيـاء علوم الدين (4/ 17)]

أما ما روي عن الإمام الصادق، من حصر الكبائر فيما ورد في القرآن الكريم من ذكر العذاب المرتبط بأصحابه، فهو يشير إلى أصول الكبائر، أو ما يمكن أن يطلق عليه [أكـبر الكبائر]، لأن هناك روايات أخرى كثيرة تدل على غير ما ذكر في الحديث.

ونص الحديث هو أن عمرو بن عبيد دخل على الإمـام الصـادق، فلمّـا سـلّم وجلس تلا هذه الآية ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ والْفَواحِشَ﴾، ثمّ أمسك فقال له الإمام: ما أسكتك؟ قال: أحبّ أن أعرف الكبائر من كتاب اللّـه، فقـال: نعم يـا عمـرو أكـبر الكبـائر الإشـراك باللّه يقول اللّه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾، وبعده الإيـاس من روح اللّه لأنّ اللّه يقول: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾، ثمّ الأمن لمكـر اللّـه إنّ اللّه يقول: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ﴾، ومنها عقـوق الوالـدين لأنّ اللّـه جعل العاقّ جبّارا شقيّا، وقتل النفس الّتي حرّم اللّه إلّا بـالحق لأنّ اللّـه يقـول: ﴿فَجَـزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها﴾، وقذف المحصنة لأنّ اللّه يقول: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيا والْآخِرَةِ ولَهُمْ عَـذابٌ عَظِيمٌ﴾، وأكـل مـال اليـتيم لأنّ اللّـه يقـول: ﴿إِنَّمـا يَـأْكُلُونَ فِي بُطُـونِهِمْ نـاراً وسَيَصْـلَوْنَ سَعِيراً﴾، والفرار من الزّحف لأنّ اللّه يقول: ﴿وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ومَأْواهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، وأكل الرّبا لأنّ اللّه يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُـومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُـهُ الشَّـيْطانُ مِنَ الْمَسِّ﴾، والسحر لأنّ اللّه يقول: ﴿وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِـرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾، والـزّنى، لأنّ اللّه يقول: ﴿وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً يُضاعَفْ لَـهُ الْعَـذابُ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ ويَخْلُـدْ فِيـهِ مُهاناً﴾، واليمين الغموس الفاجرة، لأنّ اللّـه يقـول: ﴿الَّذِينَ يَشْـتَرُونَ بِعَهْـدِ اللَّهِ وأَيْمـانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ والغلول لأنّ اللّه يقـول: ﴿وَ مَنْ يَغْلُـلْ يَـأْتِ بِمـا غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾، ومنع الزكاة المفروضة لأنّ اللّه يقول: ﴿فَتُكْـوى بِهـا جِبـاهُهُمْ وجُنُـوبُهُمْ وظُهُـورُهُمْ﴾ وشـهادة الـزور وكتمـان الشـهادة لأنّ اللّـه يقـول: ﴿وَ مَنْ يَكْتُمْهـا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾وشرب الخمر لأنّ اللّه نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان. وتـرك الصـلاة متعمّـدا أو شيئا ممّا فرض اللّه لأنّ رسول اللّه ﷺ قال: (من ترك الصلاة متعمّدا فقد برئ من ذمّة

أخالف برأيي القرآن الكريم، فالله تعالى يقول: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: 31]، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: 37]، ويقول: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: 32]

ولكني أدلك على الاحتياط والورع، حتى لا تستهين بما تسميه صغائر، فتتحول إلى كبائر، ذلك أنه مع الخلاف الشديد في مصاديق الكبائر، اتفق العلماء جميعا على أن الصغائر يمكن أن تتحول إلى كبائر، وأول ما يحولها استهانة صاحبها بها، واحتقاره لها.

وقد ورد في الحديث ما يشير إلى ذلك، فقد حدث بعض أصحاب رسول الله ﷺ قال: (إنّكم لتعملون أعمالا هي أدقّ في أعينكم من الشعر، كنّا نعدّها في عهد رسول اللّه ﷺ من الكبائر)(1)

وروي أنه ﷺ قال لعائشة عندما وصفت إحدى النساء بالقصر: (يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته)، وقالت: وحكيت له إنساناً ــ أي قلدته في حركته أو صوته أو نحو ذلك ـ فقال: (ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا) (2)

ومثله ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: (من الكبائر

اللّه وذمّة رسوله)، ونقض العهد وقطيعة الرّحم لأنّ اللّه يقول: ﴿أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ولَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول: (هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم) [الكافي، 2/285]

1() رواه البزار في مسنده، وأحمد، مجمع الزوائد ج 1 ص 106 وج 10 ص 190.

2() أبو داود والترمذي.

السبّتان بالسبّة، ومن الكبائر استطالة الرّجـل في عـرض أخيـه المسلم)[1]

فاعتبر السب الزائد كبيرة من الكبائر مع أنك ـ أيها المريد الصادق ـ لو رجعت إلى دواوين الفقهاء، لوجدتهم يعتبرونهـا من الصغائر، وقد يهونون من شأنها تهوينا كبيرا.

ولو أنك لو تأملت في الدافع الذي دفـع إلى تلـك الكلمـات لوجدته مرضا نفسيا خطيرا، فقد تكون تلك السبة ثمرة للحسد والحقد والكبر وغيرها من الكبائر المتفق عليها.

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ فعليـك أن تشـمر على ساعد الجد، وابتعد عن كل من يهون لك شـأن المعاصـي، أو يدعوك إلى الرجاء الكاذب، فهـو داعيـة ضـلالة، والعاقـل هـو الذي يحذر، ويحتاط إلى أن ينال الفوز والنجاة، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْـزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِـلَ الْجَنَّةَ فَقَـدْ فَـازَ ﴾ [آل عمـران: 185]

وإن أردت مثالا مقربا لهذا، فانظر إلى تعاملك مـع الأطبـاء الذين يعالجون جسدك، فإن نصحك بعضهم بـترك طعـام معين، لتأمن على صحتك، وذكـر لـك آخـر عـدم أهميـة ذلـك.. فلأيهمـا تميل، أليس لذلك الـذي دعـاك إلى الاحتيـاط؟.. خاصـة وأنـه لا ضرر عليـك فيـه.. ذلـك أن تركـك لطعـام واحـد، للحفـاظ على صحتك خير من العبث بهذا لأجل شيء غير متيقن.

وهكذا افعل مع المعاصـي.. فاحـذر منهـا جميعـا.. فبعضـها يـؤدي إلى بعض.. وهي جميعـا تـؤدي إلى الكفـر.. فقـد قـالوا:

---

[1] () قال العراقي: عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود

(المعاصي بريد الكفر)

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا، فقال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن) [1]

وأشار إلى سره، وسببه، فقال: (إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾)[2]

وإن رأيت اختلاف العلماء في مسألة، بين التحريم والإباحة، أو بين الفريضة والنافلة، ولم يكن لديك القدرة على الاجتهاد والتحقيق، ولم يكن لك إمام أو مرجع ترجع إليه، فإياك أن تتبع الهوى، وتسرع إلى الرخصة، بل خذ بالأحوط لدينك.

ولا تغفل أن تتأمل كل حين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 17]، فأسرع بالتوبة، قبل أن تتجذر في نفسك، وتتمكن منها، فيصعب عليك بعدها قلعها، مثل أولئك الذين أشارت إليهم الآية التالية، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 18]

ولا تلتفت ـ أيها المريد الصادق ـ لمن يزين لك المعصية، بحجة التوبة بعدها، فما أدراك أنك يمكن أن توفق للتوبة، فهي فضل إلهي، ولا يمكن أن تقدم عليه ما لم يكن هناك إذن إلهي مسبق قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ

---

[1] () أحمد (23/ 71)، والطبراني في الكبير (13304)

[2] () رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ وَضَـاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُـهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْـهِ ثُمَّ تَـابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُـوا إِنَّ اللَّهَ هُـوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [التوبة: 118]

وأول من يصـرف على التوبـة أولئـك المصـرين المعانـدين المسـتهينين بالمعصـية المحتقـرين لهـا.. ذلـك أنهم لم يراعـوا جنـاب الحـق، ولم يسـتحيوا منـه.. ومن رفـع عنـه الحيـاء عنـد ممارسة المعصية، صعبت عليهم التوبة.

واعلم ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن التوبـة ليسـت لقلقـة اللسان بالاستغفار، فهو وحده لا يجـدي، بـل إنـه قـد يحتـاج هـو نفسه إلى استغفار.

واعلم أن الله تعـالى قـد يضـعك بين قـوم مسـرفين على أنفسهم، فتتوهم أنـك من المحسـنين، فلا تفعـل هـذا، فهـو من الغرور الكاذب، وقـد قـال بعض الحكمـاء في ذلـك: (ربّمـا كنت مسيئا فأراك الإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوأ حالا منك)

ولذلك احـرص على صـحبة الصـالحين، والأخـذ من هـديهم لتهذب نفسك وترقيهـا، وحـتى لا تكـون من أولئـك الـذين قـالوا ندما: يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَـاءَنِي وَكَـانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا [الفرقان: 27 - 29]

وليس عليك ـ أيها المريد الصادق ـ لـذلك أن ترحـل إليهم، أو تسـكن بينهم، بـل يمكنـك بمحبتهم والتعـرف على هـديهم، والتواصل معهم أن تكـون من الصـالحين، فمـا كلفـك اللـه بـأن ترحل بجسدك من بلـدك الـذي نشـأت فيـه، ولكنـه أمـرك بـأن ترحل بقلبك وعقلك لتبحث عمن يتناسب مـع الرحلـة العظيمـة التي تريد أن ترحلها.

احتقار المذنبين

بعد أن كتبت إليك ـ أيها المريد الصادق ـ الرسالة السـابقة التي حدثتك فيهـا عن المثـالب الخطـيرة الـتي يتعـرض لهـا من يحتقر الذنوب ويسـتهين بهـا ويستصـغرها، خشـيت أن يتسـرب إليك بعض التلبيسات حول ما ذكرت؛ فتتوهم أن تلـك النصـوص المقدسة التي تطالبنا بتعظيم الذنوب، وعدم احتقارهـا، تطالبنـا معها باحتقار المذنبين وازدرائهم، والأمر ليس كذلك.

فاحتقار الذنوب يعطي النفس الأمارة هواها، ويجعلها تُقدم على المعاصـي بكـل جـرأة ووقاحـة، فتنتقـل من الصـغائر إلى الكبـائر، ومن اللمم إلى الإدمـان، ومن المسـارعة بالتوبـة إلى تأجيلها أو تعطيها.. بينمـا احتقـار المـذنبين وازدراؤهم والتعامـل معهم بقسوة، يجعل من النفس الأمارة طاغوتا وجبـارا متكـبرا، ويجعل العاصي مصرا عنيدا.

ولذلك كان من الذنوب الكبيرة، والمثالب العظيمة التعامل مع المذنبين بالاحتقار والازدراء، لا بالدعوة والرحمة واللطف.

وقد ورد في الحـديث مـا يشـير إلى هـذا، ويؤكـده، ويـبين عظم خطره، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: (كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهـد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يـرى الآخـر على الـذنب فيقـول: أقصر، فوجـده يومـا على ذنب فقـال لـه: أقصـر، فقـال: خلـني وربي أبعثت علي رقيبـا؟ فقـال: واللـه لا يغفـر اللـه لـك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنـد رب العـالمين فقال لهذا المجتهـد: أكنت بي عالمـا، أو كنت على مـا في يـدي قادرا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر:

اذهبوا به إلى النار) [1]

هـل رأيت ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ تـأثير تلـك المواقـف المتشددة في مصير صاحبها.. فلا تسـتهن بـذلك، ولا تتـوهم أن ذلك مخالف للعدالة؛ فلا يقول ذلك إلا من لا يعرف العدالة.

فأول الجرائم التي ارتكبها ذلك المتألي على الله، المحتقر لأخيـه ادعـاؤه أنـه الـديان، وأنـه من يملـك المغفـرة والرحمـة، والجنة والنار، وبذلك يكون قد انتحـل منصـبا لا يسـتحقه، وليس أهلا له، بل جعل نفسه شريكا لله تعالى.

وثاني الجـرائم هـو النظـر إلى أخيـه بعين الاتهـام، لا بعين الرحمـة، ولـو أنـه نظـر إليـه باعتبـاره جـاهلا يحتـاج إلى تعليم، وعاصيا يحتاج إلى دعوة، ومريضا يحتاج إلى طـبيب، لمـا وقـف منه ذلك الموقف.

وثالث الجرائم وأخطرها هو أنه أعطى صورة سـيئة للـدين والتقوى والصلاح، تجعل النفوس تنفر منها.. فالفطرة الإنسـانية مجبولـة على القبـول من أصـحاب اللين والرفـق، والنفـور من التشدد والمتشددين، ولهذا دعا الله تعالى موسى عليـه السـلام إلى التعامل باللين مع فرعون، فقال: ﴿فَقُولَا لَـهُ قَـوْلًا لَيِّنًـا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44]

وقد روي في الحديث أن أعرابيـا بـال في المسـجد، فقـام أصحاب رسول الله ﷺ ليقعـوا فيـه.. لكن رسـول اللـه ﷺ أدرك حاله من الجهل، وأدرك أنه ــ في ذلـك الحين ــ كـان في حالـة خاصة.. ولذلك عالجه بما يناسب حاله.. فعـالج جهلـه بـالتعليم.. وعالج الحالة الخاصة التي كـان عليهـا بتـأخيره حـتى يفـرغ من بوله، ولو كان في المسجد، لأن مفسدة قطعـه من بولـه أعظم

[1] أبو داود (4/275)

من مفسدة ما يفعل..

لذلك بدأ رسول الله ﷺ بمعالجة حاله، ونهى أصحابه أن يتعرضوا له، بل منعهم من أن يقطعوا عليه بوله، فقال: (لا تُزرِمُوه)

ثم ما إن انتهت حاله هذه حتى بدأ رسول الله ﷺ بمعالجة حاله الأصلية، وهي الجهل، فبدأ يُعلِّمُهُ بكل رِفق، وبكل سهولة، حتى قال الأعرابي قولته المشهورة، التي أضحكت رسول الله ﷺ: (اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحداً) (1)

وقريب من هذا ما حدث به بعض الصحابة قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: وا ثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) (2)

وقد كان سلوك رسول الله ﷺ مع هذا الرجل المبتدئ في الإسلام سببا لأن يقول هذه الشهادة التي ظلت الأجيال تحفظها: (ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع إلي لأحدثك عن كيفية علاج هذه الحالة إن طرأت عليك، ولا أحسبها ستطرأ

---

(1) رواه البخاري وغيره.

(2) رواه مسلم.

عليـك؛ فأنـا أعلم تواضـعك وورعـك ومراعاتـك لشـريعة ربـك.. ولكن مع ذلك لا بد أن تحتاط لنفسك، والعاقل هو الذي يحتــاط لكل شيء، حتى لا تتسرب إليه وساوس الشيطان؛ فتخرب كل ما بناه بموقف أو كلمة.

العلاج المعرفي:

أول علاج لهـذا المثلب من مثـالب النفس الأمـارة ــ أيهـا المريد الصادق ـ أن تعلم أن الهداية هبـة إلهيـة، وفضـل ربـاني، وأن الذي أعطاها يمكن أن يمنعها، وأن أولى النـاس بالحرمـان منها أولئك الذين يستكبرون بها، ولا يتواضعون لها.

فلذلك كان أدبك مع ربك، أن تترك عباده لـه؛ فكمـا هـداك يمكن أن يهديهم، وكما أصلحك يمكن أن يصـلحهم؛ فلم تتـدخل بين ربك وعباده، وأنت لست سوى عبـد من عبـاده، وليس لـك من وظيفة معهم سوى النصيحة والبلاغ والدعوة، ثم تركهم بعد ذلـك للـه، إن رآهم أهلا للهدايـة هـداهم، وإن رآهم لغـير ذلـك تركهم مع نفوسهم.

لقد قال الله تعالى ذلـك.. لا لي.. ولا لـك.. وإنمـا لرسـول الله ﷺ.. ذلك السراج المنير الحريص على هدايـة الخلـق.. لقـد قال الله له: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِـالْقُرْآنِ مَنْ يَخَـافُ وَعِيـدِ﴾ (قّ:45)، وقـال: ﴿لَسْـتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:22)، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْـرَكُوا وَمَـا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام:107)

وقد حصر القرآن الكـريم دعـوة الرسـول ﷺ والـذين معـه على البلاغ، قال تعالى: ﴿مَـا عَلَى الرَّسُـولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَـا تُبْـدُونَ وَمَـا تَكْتُمُـونَ﴾ (المائـدة:99).. ﴿فَـإِنْ أَعْرَضُـوا فَمَـا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ﴾ (الشورى: 48)

ففي هذه الآيات تصريح بـأن دور رسـول اللـه ﷺ مقصـور على التبليـغ، وأنــه أُرســل مبلغــاً، ولم يُرســل حفيظــاً عليهم، مســؤولاً عن إيمــانهم وطــاعتهم، حــتى يمنعهم عن الإعــراض، ويتعب نفسه لإقبالهم عليه؛ فإذا كان هـذا حـال رسـول اللـه ﷺ ووظيفته، فكيف حالنا نحن؟

ولنفرض ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أنـك لم تُكلـف بـالتبليغ فقط، وإنمـا كلفت بالهدايـة أيضـا؛ فهـل تـرى أن ذلـك التشـدد يمكنه أن يؤدي دوره في إصلاحهم، أم أنه سيتحول إلى حجــاب بينهم وبين الهداية؟

وهل ترى أن الدعاء لهم بالهداية والصـلاح أولى أم الـدعاء عليهم بالويل والثبور، والذي لن يزيدهم إلا بعدا عن ربهم الــذي تريد أن تقربهم منه، وقد روي في الحـديث أن أصـحاب رسـول الله ﷺ قالوا له ـ بعد الأذى الشديد الذي أصـابهم من ثقيـف ــ: (يا رسول الله أحرقتنـا نبـال ثقيـف، فـادع اللـه عليهم)، فقـال: (اللهم اهد ثقيفا) [1]

وروي أنهم طلبوا منه أن يـدعو على المشـركين، ويلعنهم، فقال: (إني إنما بعثت رحمة، ولم أبعث لعانا) [2]

ومما يـروى في ذلـك عن بعض الصـالحين أنـه مـر بجانبـه زورق فيه شباب يظهر عليهم المجون، وكانوا يغنون ويرقصون، وقد لعبت الخمر برؤوسهم، فقال له أصحابه ـ وكـان مسـتجاب الـدعوة ــ: ادع عليهم؛ فرفـع الصـالح كفـه، وقـال: (اللهم كمـا أفرحتهم في الـدنيا فـأفرحهم في الآخـرة)؛ فصـاح بـه أصـحابه معترضين، يقولون له: نقول لـك ادع عليهم فتـدعوا لهم، فقـال

1() الترمذي رقم (3937)

2() مسلم رقم (2599)

لهم: (وما يضيركم.. إن أفرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا)

وإن استشكلت ــ أيها المريد الصادق ــ هذه الحكاية، ورحت تلوم صاحبها، فاقرأ قصة إبراهيم عليه السلام مع قريبه، وكيف كانت معاملته له، ولولا أنه نهي عن الدعاء له والاستغفار لما كف عن ذلك.. ومثله رسول الله ﷺ الذي كان يعرف المنافقين ومع ذلك ظل يدعو ويستغفر لهم إلى أن نهاه الله عن ذلك.

واذكر بعد هذا ـ أيها المريد الصادق ـ قصة أولئك السحرة الذين دخلوا على فرعون، وهم يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: 44] لكنهم ما لبثوا حتى صاروا يقولون لفرعون بكل عزة وإيمان: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 72، 73]

في نفس الوقت الذي تحول فيه ذلك الصحابي الذي صحب موسى عليه السلام، وكان مقربا منه إلى داعية للضلالة والشرك.. لاشك أنك تعرفه.. إنه السامري.. ذلك الذي استغل غياب موسى عليه السلام ليخلفه شر خلافة، قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه: 85 -

[89

بل إن الأمر لم يكن قاصـرا على ذلـك السـامري، ولا على أولئـك النفـر الـذين اتبعـوه، بـل إن اللـه تعـالى أخـبر عن بـني إسرائيل أنهم بعـد أن اجتـازوا البحـر ﴿أَتَـوْا عَلَى قَـوْمٍ يَعْكُفُـونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَـةٌ قَـالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138]

ولهذا تذكر دائما ـ أيها المريد الصادق ـ ذلك الحديث الـذي يقـول فيـه رسـول اللـه ﷺ: (فوالـذي لا إلـه غـيره، إن أحـدكم ليعمل بعمـل أهـل الجنـة، حـتى مـا يكـون بينـه وبينهـا إلا ذراع، فيسـبق عليـه الكتـاب، فيعمـل بعمـل أهـل النـار فيـدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمـل أهـل النـار، حـتى مـا يكـون بينـه وبينهـا إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)(1)

واعلم بعد هذا ـ أيها المريد الصادق ـ أن اللـه يعاملـك بمـا تعامل بـه غـيرك؛ فـإن رحمتهم رحمـك، وإن عفـوت عنهم عفـا عنك، وإن أحسنت إليهم أحسن إليك، فلذلك أنت بين أن تعامل المخطئين بالرحمة، فيرحمك، أو تعاملهم بقسوة، فتعامل بمثل ذلك.. لأنك لا تخلو من معصية وخطيئة وذنب.. فـاختر لنفسـك، فلعل ذنوبك الباطنة أخطـر من ذنـوبهم الظـاهرة، ولعـل كـبرك في التعامل معهم أخطر من كل ذنوبهم ومعاصيهم.

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا كل هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ واسـتقرت معانيــه في نفســك، امتلأت بالســلام والرحمــة لكــل الخلــق، وتحققت فيك تلك المعاني النبيلـة الـتي حكاهـا اللـه تعـالى عن رسـول اللـه ﷺ.. وكيـف كـان يحـزن ويتـألم لحـال المعرضـين،

(1) رواه البخاري 11/ 417، ومسلم رقم (2643)

ويمتلئ شفقة عليهم، على الرغم من الأذى الشديد الذي كان يناله منهم.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: 6)، وقال: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ (فاطر:8)، وقال: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ (النحل:127)، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:3)

فتعلم هذا الحزن الصادق الممتلئ بالرحمة من نبيك ﷺ.. فهو قدوتك وأسوتك.. وليس أولئك الغلاظ الشداد الذين نصبوا أنفسهم دعاة للخلق من غير إذن إلهي، ولا بصيرة إيمانية.. فراحوا يصرفون الناس عن الدين، وهم يظنون أنهم يدعونهم إليه.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أنك لن ترتقي بنفسك إلى المقامات التي أتيحت لهم ما لم تكن فيك هذه الخلة النبوية، فلن يقرب الله أحدا إلا إذا كان يسير على قدمي رسول الله ﷺ.. وعلى منهاجه منهاج النبوة التي هي رحمة للعالمين.. كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الانبياء:107)، بل إن الله تعالى سماه باسمين من أسماء رحمته، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:128)

ومما ييسر لك هذا ـ أيها المريد الصادق ـ أن تجعل بصيرتك ترى العاصين مثل قوم اقتربت النيران من بيوتهم، تريد أن تحرقهم؛ فلذلك تقتضي الرحمة أن تسرع إليهم لتنقذهم، لا أن تنظر إليهم بشماتة وحقد.

لقد ذكر رسول الله ﷺ هذا، ونبه إليه عند التعامل مع

المنحرفين والمخطئين؛ فقال: (إن اللّه لم يحرم حرمـة إلا وقـد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش والذباب) [1]

ومما يروى في السـنة النبويـة من هـذا أن أول رجـل أقيم عليه الحد في الإسلام أُتي به النبي ﷺ، فقيل: (يـا رسـول اللـه، إن هذا سرق)، فكأنما أسف وجه رسـول اللـه ﷺ رمـادا، فقـال بعضهم: مالك يا رسول الله، فقال: (وما يمنعـني؟ وأنتم أعـوان الشيطان على صاحبكم، واللـه عـز وجـل عفـو يحب العفـو، ولا ينبغي لـوالي أمـر أن يـؤتى بحـد إلا أقامـه، ثم قـرأ: ﴿وَلْيَعْفُـوا وَلْيَصْـفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِـرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: 22]) [2]

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ أُتي برجل قـد شـرب الخمـر، قال: اضربوه، فأمر بإقامة الحد عليه، فلما انصـرف، قـال بعض القوم: (أخزاك الله)، فقال رسول اللـه ﷺ: (لا تقولـوا هكـذا، لا تعينوا عليه الشيطان) [3]

أعلم ـ أيها المريـد الصـادق ـ أنـك سـتورد لي مـا ورد في القرآن الكريم في حق مرتكبي الفاحشة، وكيف أمرنـا بالغلظـة عليهم، كمـا قـال تعـالى: ﴿الزَّانِيَـةُ وَالزَّانِي فَاجْلِـدُوا كُـلَّ وَاحِـدٍ مِنْهُمَـا مِائَةَ جَلْـدَةٍ وَلَا تَأْخُـذْكُمْ بِهِمَـا رَأْفَـةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَلْيَشْـهَدْ عَـذَابَهُمَا طَائِفَـةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: 2]

فـاعلم أن هـذه الآيـة الكريمـة تـدعو إلى حفـظ الأعـراض

1() رواه أحمد والطبراني في الكبير.

2() مسند أحمد (7/ 84)، الطبراني في الكبير (8572)، والبيهقي 8/331.

3() رواه البخاري، 6777.

والتشدد فيها، وعدم اللين مع مشيعي الفـواحش، حـتى يحفـظ المجتمع من كل مظـاهر الانحـراف، وهي بـذلك ليسـت قسـوة مجـردة، وإنمـا هي قسـوة تربويـة، وهي الـتي قصـدها الشـاعر بقوله:

وقسا ليزدجروا ومن ... فليقس أحيانا على

وممـا يـدلك على هـذا مـا ورد في الحـديث من قولـه ﷺ لأصحابه بعد إقامـة الحـد على بعضـهم: (بكتـوه)، فـأقبلوا عليـه يقولـون: مـا اتقيت اللـه، مـا خشـيت اللـه، ومـا اسـتحييت من رسول الله ﷺ، فلما انصرف قـال بعض القـوم: (أخـزاك اللـه)، فقال رسول الله ﷺ: (لا تقولوا هكـذا، لا تعينـوا الشـيطان على أخيكم.. ولكن قولوا: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه) (1)

وإياك بعد هذا ـ أيها المريد الصادق ـ أن تقوم بفضحه؛ فإن في ذلك إشاعة للفاحشة، وقد قـال رسـول اللـه ﷺ: (من سـتر أخـاه المسـلم في الـدنيا، سـتره اللـه في الـدنيا والآخـرة) (2)، وقال: (من رأى عورة فسترها، كـان كمن اسـتحيا مـوءودة من قبرها) (3)، وقال: (من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف اللـه عورتـه حتى يفضحه بها في بيته) (4)

ولا تكتف بذلك ـ أيها المريـد الصـادق ــ بـل اسـتعمل كـل وسائل الحيلة لأن تدلهم على ربك، وتعرفهم بـدينهم، فـإنهم لـو عرفـوه لأقبلـوا عليـه بكـل كيـانهم، ولكـان لـك في ذلـك الأجـر

---

(1) رواه أبو داود: 4478.

(2) رواه أحمد.

(3) رواه البخاري في الأدب، وأبو داود والحاكم.

(4) رواه ابن ماجة.

العظيم، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (لأن يهدي الله بـك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم) [1]

واسمع لهذه الحكاية التي رويت عن رابعة العدوية، وكيـف استطاعت أن تحول لصا إلى طريـق اللـه، على الـرغم من أنـه جاء ليسرقها، فقد روي أن لصا دخـل بيتهـا بعـد منتصـف الليـل من أجـل السـرقة، فبحث فلم يجـد شـيئا إلا إبريقـا؛ فلمـا أراد الخروج نادته قائلة: يا هذا إن كنت من الشـطار فلا تخـرج بغـير شيء، فقال لها: إني لم أجد شيئا، فقالت: يا مسـكين خـذ هـذا الإبريق، وتوضأ، وادخل في هذا المحراب، وصل ركعـتين، فإنـك ما تخرج إلا بشـيء، فأخـذ الإبريـق، وتوضـأ، ثم دخـل محرابهـا، وحينها رفعت رابعة العدوية يـدها إلى السـماء وقـالت: (سـيدي ومولاي هذا قـد أتى بـابي، ولم يجـد شـيئا عنـدي، وقـد أوقفتـه ببابك، فلا تحرمه من فضلك وثوابك)، فلما فرغ من صلاته قذف الله تعالى في قلبه الإيمان، فلذت له العبـادة، ومـا بـرح يصـلي إلى أن أذن الفجر، فلما دخلت عليه وجدتـه باكيـا مصـليا، فلمـا أراد الخروج سألته: كيف كـانت ليلتـك؟ فقـال: وقفت بين يـدي مـولاي بـذلي وافتقـاري، فقبـل عـذري وتوبـتي، وجـبر كسـري، وغفر لي الذنوب وبلغني المطلوب، ثم خرج، فرفعت يديها إلى السماء، ودموعها تجري، وقـالت: (سـيدي ومـولاي، هـذا وقـف ببابك سـاعة فقبلتـه، وأنـا منـذ عرفتـك بين يـديك هلا قبلتـني)، فنوديت: (يا رابعة من أجلك قبلناه، وبسببك قربناه)

تأمل هذه الحكاية ـ أيها المريد الصـادق ــ ولا تسـألني عن رابعـة وبلـدها وعصـرها ومواقـف النـاس منهـا.. فكـل ذلـك لا يجـديك.. والعاقـل هـو الـذي يأكـل اللبـاب، والأحمـق هـو الـذي يشتغل بالقشور.. فكل المبقلة ولا تسأل عن البقال.

[1] () رواه البخاري ومسلم.

وابحث لك عن اسم في عالم الولايـة.. فهـو عـالم مملـوء بـالأنوار، ولا يـدخل إليـه إلا الصـادقون المخلصـون الممتلئـون بالحكمة.. فاسع لأن تكون منهم.. ولن تكـون منهم حـتى تسـير على قـدمي رسـول اللـه ﷺ من غـير أن تنحـرف عن سـراطه المستقيم.

الإثم والعدوان

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن سر تقسيم النصوص المقدسة للذنوب والمعاصي إلى أنواع مختلفة، منها الصغير والكبير، والظاهر والباطن، والإثم والعدوان، واللمم وغيره.. ثم طلبت مني أن أحدثك خصوصا على الإثم والعدوان، كنموذج لأسرار ذلك التقسيم، باعتباره قد ذُكر في القرآن الكريم في مواضع متعددة، وهو ما يدل على أهميته، وضرورة معرفته لمن يريد تزكية نفسه.

وقد سرتني رسالتك كثيرا، وهي تدل على أنك تسير على المنهاج الصحيح في تزكية النفس، ذلك أن المصدر الأكبر للتزكية هو تلك النصوص المقدسة التي حوت كل قوانين التربية والتهذيب والتزكية، وخلت من كل ما قد ينحرف بالنفس ـ عند إرادتها التزكية ـ إلى ما يخرج بها عن الإنسانية والفطرة والجبلة التي جبلت عليها، مثلما حصل للكثير من المدارس التي اخترعت لنفسها من طرق التهذيب ما لم يأذن به الله؛ فأخرجت الإنسان عن إنسانيته، وانتكست بالفطرة عن طبيعتها التي خلقت عليها.

والسر في ذلك واضح، وهو أن العالم الأكبر بالنفس هو الله تعالى، ذلك أنه هو الذي خلق الإنسان، ويعلم خصائصه الظاهرة والباطنة، ولهذا كان أولى من يُرجع إليه في معرفتها، ومعرفة طرق تهذيبها وتزكيتها وترقيتها، مثلما يُرجع إلى صانع الآلة ومخترعها والخبير بإمكانياتها، وبما يحصل لها من عطب، وبما يؤول إليه أمرها.

ولهذا عقب الله تعالى خطابه للمؤمنين في قوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ [الملك: 13]، بتعقيبين، أولهما

قوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الملك: 13]، أي أنه لا يسمع تلك الكلمات التي يقولونها فقط، وإنما يعلم المنابع النفسية التي نبعت منها، وهو المعبر عنها بـ [ذات الصدور]

والتعقيب الثاني قوله: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: 14]، وهو استفهام تقريري يؤكد تلك الحقيقة التي أشرنا إليها من أن الصانع هو الأعلم بالصنعة، وأنه المرجع فيها، وكيف لا يكون كذلك، وهو اللطيف الذي يعلم دقائق الأشياء، الخبير الذي يعلم تفاصيلها.

ولهذا، فإن تلك التقسيمات التي وردت في القرآن الكريم للذنوب، والتي سألتني عنها ــ أيها المريد الصادق ــ ليست تقسيمات اعتباطية، وإنما هي تقسيمات دقيقة ومهمة، ولها تأثيرها الكبير في التزكية، ولذلك يحتاج السالك إلى التعرف عليها.

وهي تشبه كثيرا ما يقوم به الأطباء من تقسيم الأمراض إلى أقسام كثيرة، حتى يعالجوا كل قسم بما يتناسب معه، ومع الخصوصيات التي يتميز بها عن سائر الأقسام.

ومن تلك التصنيفات التي أشرتَ إليها في رسالتك ما ورد في القرآن الكريم من تقسيم الذنوب إلى ذنوب ظاهرة وذنوب باطنة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (الأنعام: 120)، فقد قسم الذنوب في هذه الآية إلى ذنوب ظاهرة وذنوب باطنة، وأمر بترك جميعها، حتى لا يكتفي المريد بتزكية ظاهره أو باطنه أو العكس.

وقريب منه ما ورد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ

تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُـوا عَلَى اللَّهِ مَـا لا تَعْلَمُونَ﴾ (لأعراف:33)

ومنها تصنيف الـذنوب إلى كبـائر وصـغائر، كمـا أشـار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـائِرَ الْأِثْمِ وَالْفَـوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى:37)

ومنها تصـنيف الـذنوب إلى إثم وفـواحش، ثم كبـائر ولمم، كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْأِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِـعُ الْمَغْفِـرَةِ هُـوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَـأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَـاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَـكُمْ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (لنجم:32)

ومنها تصنيف الذنوب إلى صنفي الإثم والعدوان، وقـد ورد ذلك في خمسة مواضع من القـرآن الكـريم، قـال تعـالى: ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَـكُمْ وَتُخْرِجُـونَ فَرِيقـاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَـارِهِمْ تَظَـاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِـالْأِثْمِ وَالْعُـدْوَانِ ﴾ (البقـرة:85)،ـ وقـال: ﴿ وَتَعَـاوَنُوا عَلَى الْبِـرِّ وَالتَّقْـوَى وَلا تَعَـاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُـدْوَانِ ﴾ (المائـدة:2)،ـ وقـال: ﴿ وَتَـرَى كَثِـيراً مِنْهُمْ يُسَـارِعُونَ فِي الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة:62)،ـ وقـال: ﴿ وَيَتَنَـاجَوْنَ بِـالْأِثْمِ وَالْعُـدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ (المجادلة:8)،ـ وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا تَنَـاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَـاجَوْا بِـالْأِثْمِ وَالْعُـدْوَانِ وَمَعْصِـيَتِ الرَّسُـولِ﴾ (المجادلة:9)

وبما أنك طلبت مني أن أحدثك عن هـذا التصـنيف الأخـير؛ فسأقتصر في هذه الرسالة عليه، لأمرين: أولهما طلبـك العزيـز علي، والذي لا أستطيع رفضـه، وثانيهمـا لأن فهم هـذا التقسـيم سيؤدي لا محالة إلى فهم سائر الأقسام، لأنها مسـتوعبة فيهمـا ببعض الوجوه، أو بالكثير منهـا، ولهـذا وقـع الخلاف بين العلمـاء في التفريق بينهما بسبب ذلك.

ولعل أحسن الأقوال في هذا، وأقربها للمعنى القرآني، هـو ما اتفق عليه العلماء من تقسيم الـذنوب إلى قسـمين: خاصـة، ومتعدية.. ويقصدون بالخاصة تلك الذنوب الـتي يمارسـها العبـد بينه وبين نفسه من غير أن يكون لها أي أثر خارجي، ويقصـدون بالذنوب المتعدية تلك التي يكون لها أثر خـارجي، كمـا عـبر عن ذلك بعضهم بقوله:(اعلم أنّ الذنوب تُقسـم إلى مـا بــين العبـد وبـين الله تعـالى، وإلى مـا يتعلـق بحقـوق العبـاد.. فمـا يتعلـق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبـات الخاصـة بـه ومـا يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأمــوال وشـتمه الأعـراض وكـل متنـاول من حـق الغـير، فإمـا نفس أو طرف أو مال أو عـرض أو دين أو جـاه، وتنـاول الـدين بـالإغواء والـدعاء إلى البدعـة والـترغيب في المعاصـي وتهيــيج أسـباب الجرأة على الله تعالى كمـا يفعلـه بعض الوعـاظ بتغليب جـانب الرجاء على جانب الخوف)(1)

وقد أشار إلى هذا التقسيم قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13]، وهي تشير إلى أن العصاة يـوم القيامـة لا يتحملـون أعمـالهم الـتي عملوهـا فقـط، وإنمـا يتحملون أثقالا أخرى بسبب كونهم سببا فيها.

ويشير إليهـا كـذلك قولـه تعـالى في الجمـع بينهمـا: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَـهُمْ وَمَـا يَشْـعُرُونَ﴾ [الأنعام: 26]، وهو يشير إلى مبلغ الحقد الذي بلغه المشــركون الذين لم يكتفـوا بـأن يرتكبـوا الـذنب الخـاص الـذي يتمثـل في نأيهم ونفورهم عن رسول الله ﷺ ودينه، وإنما أضافوا إليـه نهي غيرهم عنه.

وأشار إليها ما ورد في الحديث من أن: (الدواوين عند الله

(1) إحياء علوم الدين: 4/36.

عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يغفره الله: فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: 72]، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه أو صلاة تركها، فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً: فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة)(1)

وعن الإمام علي أنه قال في بعض خطبه: (أيها الناس إن الذنوب ثلاثة: فذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو ونخاف عليه.. أما الذنب المغفور فعبد عاقبه الله تعالى على ذنبه في الدنيا؛ فالله أحكم وأكرم أن يعاقب عبده مرتين، وأما الذي لايغفر فظلم العباد بعضهم لبعض، إن الله تبارك وتعالى أقسم قسما على نفسه فقال: وعزتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم ولو كف بكف، ولو مسحة بكف، ونطحة ما بين الشاة القرناء إلى الشاة الجماء؛ فيقتص الله للعباد بعضهم من بعض حتى لا يبقى لاحد عند أحد مظلمة، ثم يبعثهم الله إلى الحساب، وأما الذنب الثالث فذنب ستره الله على عبده ورزقه التوبة فأصبح خاشعا من ذنبه راجيا لربه، فنحن له كما هو لنفسه، نرجو له الرحمة، ونخاف عليه العقاب) (2)

ويمكنك من خلال هذا التقسيم ـ أيها المريد الصادق ــ أن تضم كل الأقسام الواردة في القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: 120]، وبذلك فإن الإثم يمكن تقسيمه إلى ظاهر وباطن.. ومثله العدوان.. فسوء الظن

1() رواه أحمد (6/ـ 240)ـ (26073)، والحاكم (4/ـ 619) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

2() بحار الأنوار: 6/ 29.

الذي ورد النهي عنه في القرآن الكريم، والذي هو المقدمة لكل مظاهر العدوان، ينطلق من الباطن.. وبـذلك يمكن تقسـيم كـل من الإثم والعـدوان إلى هـذه الأقسـام.. وهكـذا يمكن تقسـيمها إلى كبائر وصغائر، وغيرها من التقسيمات.

وأنبهـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ ألا تسـتغرق في عـالم الألفاظ، وتبني علومك عليها؛ فعـالم الألفـاظ وسـيلة لا مقصـد، والحقائق أعظم من أن يعبر عنها بها.. ولذلك إذا سـمعت قولـه تعـالى: ﴿وَإِذَا قِيـلَ لَـهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْـهُ الْعِـزَّةُ بِـالْإِثْمِ﴾ [البقـرة: 206]، أو قوله: ﴿وَذَرُوا ظَـاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَـهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِـبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَـا كَـانُوا يَقْتَرِفُـونَ﴾ [الأنعـام: 120]، أو قولـه: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ [النور: 11]، أو قولــه: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَـائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَـوَاحِشَ﴾ [الشـورى: 37]؛ فلا تفهم من [الإثم] فيهــا اقتصــارها على الــذنوب الخاصــة دون الذنوب المتعدية؛ بل المقصود منها كـل الـذنوب؛ فكلهـا خاصـة حتى تلك المتعدية.

وهكذا إذا سمعت الله تعالى يحـذرك من العـدوان، كقولـه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَـاتِ مَـا أَحَـلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَـدِينَ﴾ [المائـدة: 87]، وقولــه: ﴿ تِلْـكَ حُـدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَـدُوهَا وَمَنْ يَتَعَـدَّ حُـدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: 229]، وقوله: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُــولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَـهُ عَـذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النسـاء: 14]؛ فلا تفهم من [العــدوان] فيهــا اقتصــارها على الــذنوب المتعدية؛ بل المقصود منهـا كـل الـذنوب؛ فكلهـا متعديـة، وأول من تتعدى عليه الله تعالى.

إذا وعيت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاجتهـد لتطهـر أرض نفسك من الإثم والعدوان؛ فإنك إن طهرتها منهمــا طهرتهــا من

كل الـذنوب، وحينهـا تصـبح طـاهرا طيبـا صـالحا لأن تنبت فيـك المكارم، فهي لا تنبت إلا في النفوس الطيبة الممتلئة بالإيمان.

فـإذا تحـركت نفسـك لهـذا؛ فعـالج كـل واحـد منهمـا بمـا يتناسب معه، لتمحو الران الـذي حجبـك بـه عن حقيقتـك، وعن المكارم التي أنزلك الله إلى الأرض لتكتسبها.

علاج الإثم:

أول علاج للإثم ـ أيها المريد الصادق ــ أن تعلم أنـه المنبـع الذي تنبع منه كل الرذائل الخاصة والمتعديـة؛ فمن تهـاون فيمـا يسميه الـذنوب الخاصـة يوشـك أن يقـع في الـذنوب المتعديـة، ولـذلك لا تلتفت لأولئـك المرجئـة الـذين يغرونـك عن نفسـك، ويحقرون لك هذا النوع من الذنوب.. فلولاه لم تكن هناك ذنوب متعدية.

وكمثال مقرب لذلك [العجب] الذي هو باتفاق جميع الناس ذنب خاص.. فالشخص المعجب بنفسه لم يتعد على أحد، وإنمـا اكتفى بالإعجاب بنفسه..

لكن التهاون في هذا، سيجعله مغرورا.. ثم يجعله مستكبرا ينظر إلى غيره بازدراء واحتقار.. وذلك ذنب متعد.. ثم لا يكتفي بـذلك، وإنمـا يتعامـل معهم وفـق مـوقفهم منـه؛ فـإن رأى في بعضــهم عــدم تقــدير أو احــترام لــه راح يحقــد عليهم، وقــد يحسدهم.. وكل ذلك يجره إلى كل أنواع الذنوب المتعدية.

ولو أن هـذا الشـخص بـدأ بـذلك الـذنب القاصـر، فعالجـه، وأصـلحه قبـل أن يتجـذر في نفسـه لمـا تحـول إلى ذنب متعـد، يصعب علاجه.

ولهذا عندما ذكر القرآن الكريم الاستعاذة من الحسد قال:

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: 5]، وهو يشير إلى أن الحسد في بدايته هيئة نفسية مرتبطة بصاحبها فقط، لكنه يتحول بعد ذلك إلى حالة متعدية تؤذي غيرها.. ولهذا لم تكن الاستعاذة من أصل الحسد، وإنما من آثاره.

وهكذا، فإن الشيطان الرجيم كان يملك في نفسه تلك الآثام التي تمنعه من السجود، لكنها لم تظهر إلا في المواقف الخاصة بها.

ولهذا فإن الذي لا يراقب نفسه، أو يعيش في بيئة قد لا تسمح لأخلاقه بالظهور، لا يغتر بذلك، فيدعي طهارة نفسه من الإثم والعدوان، وإنما عليه أن يبحث عن أصولها في نفسه ليعالجها.

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاسع لأن تلجم نفسك عن آثامها قبل أن تتحول إلى ذنوب متعدية تفوح رائحتها الكريهة، وقد قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ ... وإن خالها تخفى على

ولهذا عندما نهانا الله تعالى عن الفواحش، وهي من أخطر الذنوب المتعدية، أمرنا بأن نجتنب مبادئها التي قد تكون ذنوبا خاصة، فقال:

﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام: 151).. وفيه: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الاسراء:32)

فانظر ــ أيها المريد الصادق ــ كيف أن القرآن الكريم حذرنا من مجرد الاقتراب من الفواحش، لأن الاقتراب منها قد يوقع فيها، ولهذا ورد النهي عن كل الأسباب الدافعة لذلك حتى

لو كانت ذنوبا خاصة.

فالتبرج بالزينة ليس ذنبا خاصا، ذلك أن كل من تقوم بذلك، تتحمل جرائر كل من ينظرون إليها من غير أن ينقص من ذنوبهم شيئا.

وهكذا فإن إطلاق البصر، وإن كان ذنبا خاصا إلا أنه قد يؤدي بصاحبه إلى الفاحشة، ويجره إليها من حيث لا يشعر، وقد ورد في وصية المسيح عليه السلام قوله: (قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن، وأما أنا أقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه) (متى 5: 27، 28)

ولهذا ورد الأمر بغض البصر، لأنه الوسيلة الوحيدة لحفظ عفاف النفس وطهارتها؛ فمن تنجست عينه تنجست نفسه، ومن تنجست نفسه فاحت رائحته الكريهة، وتحول ذنبه من الإثم إلى العدوان، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور:30)

ومثل ذلك أمر النساء بغض البصر مثل الرجال، وعدم إبداء زينتهن إلا لمحارمهن، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:31)

وكل هـذا علاج للآثـام قبـل أن تتحـول إلى معـاص متعديـة يصعب الفكاك منها.. ولهذا يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ اعتبار الآثـام مرحلـة من مراحـل العـدوان، والمسـارعة في علاجهـا لا تحفظ الفرد فقط، وإنما تحفظ المجتمع أيضا.

ولـذلك كـان جـرم أولئـك المرجئـة المهـونين من الآثـام خطـيرا، ذلـك أنهم يـوفرون البيئـة الحاضـنة لكـل الجـرائم.. فالجريمة لا تبـدأ من الخـارج، وإنمـا تبـدأ من النفس.. والخـارج صدى الداخل.. ومن امتلأ بالصراع في داخله، فسـيملأ بالصـراع كل ما يحيط به شعر أو لم يشعر.

ولهذا ورد في النصوص المقدسة بيان العقوبـات الشـديدة الـتي ينالهـا تـاركو الصـلاة مـع كونهـا في الظـاهر إثمـا خاصـا، وليسـت عـدوانا.. لكن آثـار تركهـا يمكن أن تملأ العـالم كلـه بالخراب.

ولهـذا ورد في الحـديث الإخبـار بـأن (أول مـا يحاسـب بـه العبـد يـوم القيامـة من عملـه صـلاته، فـإن صـلحت فقـد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فـإن انتقص من فريضـته شيء قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع، فيكمل به ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك) (1)

بل إن القرآن الكريم يشير إلى ذلك، بل يكـاد يصـرح بـه، قال اللـه تعـالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّـلاةَ إِنَّ الصَّـلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:45)

فالآيــة الكريمــة تــبين أن الصــلاة هي العلاج الــذي يحمي المجتمع من الفواحش والمنكـرات، والـذي يـترك صـلاته يشـبه ذلـك المجنـون الـذي لا يتنـاول دواءه، ثم يخـرج إلى المجتمـع

(1) رواه أبو داود (864)، والترمذي (413)، والنسائي (1/ 232)، وابن ماجه (1425)

ليملأه بما يأمره به جنونه.

ولهذا يأمر الله تعالى بالاستعانة بالصلاة لحفظ المجتمع من العدوان بأنواعه المختلفة، قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة:45)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:153)

لذلك، فإن من يهون من أمر الصلاة باعتبارها من الآثام، والذنوب الخاصة لا يختلف عن ذلك الذي يهون من أمر متناولي المخدرات والمسكرات، باعتبارهم لا يفعلون ذلك إلا بأنفسهم.. مع أنه لولا وجودهم لما كان هناك من يتاجر بهما، ويدعو لهما.

وهكذا اعتبر القرآن الكريم الصيام علاجا للتقوى، ومن أهمل الصيام، أو احتقره باعتباره إثما خاصا، يجعل المجتمع خاليا منها.. وإذا خلى المجتمع من التقوى، أصبح مجتمع وحوش لا مجتمع بشر.. فالتقوى هي صمام أمان المجتمع.. ولذلك كان حفظها حفظ للمجتمع، وللدولة، وللأمة جميعا.

إذا علمت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاترك أولئك المشاغبين المنشغلين بالأماني الكاذبة، واقرأ كتاب ربك، وسنة نبيك ﷺ، وما ورد فيهما من العقوبات الشديدة على الذنوب مهما كان نوعها، فهما الناصحان، ومن خالفهما فقد غشك.

وإن شئت مثالا لهذا من القرآن الكريم، فاقرأ قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 28]، فقد أخبر الله تعالى أن اتباع سخط الله، وهو ما يمكن أن يكون في أي ذنب من الذنوب، سيؤدي لا محالة إلى إحباط الأعمال، وقد عقب الله تعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ

أَضْـغَانَهُمْ [محمـد: 29]، وهي تشـير إلى أن أمـراض القلـوب الـتي يعتبرونهـا من الـذنوب الخاصـة، قـد تخـرج في أي لحظـة لتعبر عن نفسها على شكل ذنوب متعدية.

وإن شئت مثالا لهذا من السنة المطهرة، فـاقرأ قولـه ﷺ: (تعـرض الفتن على القلـوب كالحصـير عـودا عـودا فـأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكتت فيـه نكتـة بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصـفا، فلا يضـره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخـر أسـود مربـادا كـالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشـرب من هـواه) (1)

فالحديث يشير إلى أن لكل ذنب من الـذنوب أثـره الكبـير في النفس، والذي قد يتحول إلى حجاب يحـول بين القلب وبين رؤية الحقائق، حتى يتحول المنكر إلى معروف، والمعروف إلى منكر.

علاج العدوان:

إذا عـرفت كـل ذلـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ ووعيتـه واستوعبته نفسـك؛ فـاعلم أنـه لا يمكن علاج الـذنوب المتعديـة علاجا شـاملا وكـاملا وصـحيحا إلا إذا بـدأتها من مرحلتهـا الأولى التي هي مرحلة [الإثم]

فالذي يريد أن يتخلص من الكبر الذي هو أخطـر الأمـراض المتعدية، لا يمكنه أن يتخلص منه بطريقة صحيحة إلا إذا تخلص من المستنقعات التي تمده، وأولها العجب والغرور وغيرها.. فلا يمكن أن يتخلص من الكـبر من جثـا في محـراب نفسـه يعبـدها من دون الله.

1() رواه مسلم وغيره.

وهكذا، فـإن الـذي يحتقـر تـرك الصـلاة، أو التهـاون فيهـا، باعتبارها من الآثام، يوشك أن يقع في كل الجرائم.. مع أن ترك الصلاة ليست ذنبا خاصا فقط، بل هـو ذنب متعـد، لأنهـا عـدوان على اللـه، وجحـود لفضـله، وتكـذيب لأمـره، واحتقـار لمـا أمـر بالتشدد فيه، ولذلك قرن الله تعالى التعامل السيئ مـع الصـلاة بالتعامل السيئ مع الخلق، فقـال: ﴿فَوَيْـلٌ لِلْمُصَـلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَـلَاتِهِمْ سَـاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُـرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُـونَ الْمَاعُونَ (7)﴾ [الماعون: 4 - 7]

فهذه الآيات الكريمة تشـير إلى أن المتهـاونين في الصـلاة المـرائين بهـا، يمنعـون المعونـات عن غـيرهم، وهـو من أخطـر الذنوب المتعدية.

ولهذا ورد في القرآن الكريم النهي عن التعـاون على الإثم والعـدوان، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَتَعَـاوَنُوا عَلَى الْبِـرِّ وَالتَّقْـوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائـدة: 2]، ذلـك أن الـذي يعين غيره على ذنب خاص، أو يـوفره لـه، أو ييسـر عليـه ممارسـته، يوشـــك أن ينتكس بشخصـــيته، ليحولـــه إلى مجـــرم لا يقتصـــر إجرامه على نفسه، وإنما يتعداها إلى غيره.

بالإضافة إلى كل ذلك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن خطر الذنوب المتعدية يفوق كثـيرا خطـر الـذنوب الخاصـة، مـع كون كليهما ذنوبا وخطايا.

ذلك أن صاحب الـذنب الخـاص، يمكنـه أن يتـوب إلى اللـه تعـالى في أي لحظـة، ويصـحح أخطـاءه الـتي وقـع فيهـا، بينمـا صاحب الذنب المتعدي يحتـاج إلى أن يمـر على كـل من آذاهم، ليستحلهم، لا ليمحـو تلـك الـذنوب الـتي سـجلت عليـه بسـببهم فقط، وإنما ليمحو آثار دعواتهم عليه، والتي قد تحول بينـه وبين التوبة.

لــذلك ورد التحــذير الشــديد من الــذنوب المتعديــة، لأن إصلاحها أو تصحيحها يحتـاج جهـدا كبـيرا مضـاعفا، قـد لا يحتـاج مثله صاحب الذنب الخاص.

ولهــذا شــرط القــرآن الكــريم الكثــير من الشــروط لمن يريدون التوبة من كتمان الهدى الإلهي، وهو من أخطـر الـذنوب المتعدية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَـا مِنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالْهُـدَى مِنْ بَعْـدِ مَـا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَـابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْـلَحُوا وَبَيَّنُـوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 159، 160]

فالآية الكريمة تخبر أن الله تعـالى لا يتـوب عليهم، بمجـرد التوبة والندم فقـط، وإنمـا شـرطت شـرطان إضـافيان، أولهمـا الإصلاح، أي إصلاح ما أفسـدوه بكتمـانهم.. والثـاني البيـان.. أي الاعتراف والإقرار والتصريح بالكتمان.. وعدم الاكتفـاء بالإصـلاح من دون الاعتراف.

ولهذا نرى المصادر المقدسة تبين خطر الذنوب المتعديــة، لأن التوبة منها تحتاج جهدا كبيرا مضـاعفا، وتبعاتهـا قـد لا يمكن تحملهــا، خاصــة إذا انتشــر العــدوان، ولم يتمكن التــائب من الوصول إلى كل من آذاهم، وحينها تبقى توبته قاصرة، ولو بـذل فيهـا كـل جهـده، ذلـك أن كـل من لم يسـتطع أن يسـتحلهم، يطالبونه يوم القيامة بما ارتكبه في حقهم، حتى لو تاب منه في الدنيا.

ولـذلك لا تسـمع ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ لأولئـك الـذين يكذبون عليك، ويمنونك بأن مجرد توبتـك تكفي لمحـو سـيئاتك، فهـؤلاء لم يسـمعوا قولـه ﷺ: (من كـانت عنـده مظلمـة لأخيـه فليتحلله منها، فإنــه ليس ثمَّ دينـار ولا درهم من قبـل أن يؤخـذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه

فطرحت عليه)(1)

وقد اعتبر رسول الله ﷺ الواقع في أمثال هذه الذنوب مفلسا، وإن جاء بجبال من الحسنات، لأنها سرعان ما توزع على الذين ظلمهم، قال ﷺ: (أتدرون من المفلس؟) قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: (إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار)(2)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (إنّ الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقّرات وهي الموبقات، فاتّقوا الظلم ما استطعتم فإنّ العبد ليجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنّها ستنجيّه، فما يزال عبد يجيء فيقول: يا ربّ إنّ فلانا ظلمني بمظلمة فيقال: امح من حسناته، فما يزال كذلك حتى ما يبقى له من حسناته شيء، وإنّ مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرّق القوم فاحتطبوا فلم يلبثوا أن أوقدوا نارهم وصنعوا ما أرادوا وكذلك الذّنوب)(3)

فاسمع ـ أيها المريد الصادق ـ لهذه الأحاديث بأذن قلبك، وإياك أن تترك نبيك ﷺ الحريص عليك وعلى مصالحك

1() رواه البخاري (6534)

2() رواه مسلم رقم (2581)، والترمذي رقم (2420)

3()رواه أحمد ، ورواه أبو يعلى والخرائطي في مساوئ الأخلاق والطبراني في الكبير والحاكم والضياء.

وسعادتك، لتسمع لأولئك الذين يمنونك الأمـاني الكاذبـة؛ فهم لا يختلفون عن الشيطان الذي غر أبـاك آدم؛ فأكـل من الشـجرة، وكانت سبب خروجه من الجنة.

فاحذر أن يخرجوك من الجنة التي أعدها الله لـك.. والـتي لا يدخلها إلا الطيبون الطاهرون الذين عظموا حق الله، وعرفوا خطـر الـذنوب، ولم يسـتهينوا بشـيء منهـا.. فـوردوا القيامـة مخفين، من دون أثقال ولا أوزار؛ فتحقـق لهم الفـوز في الـدنيا والآخرة.

الحدة والغضب

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الحدة والغضب، وهل هما من الطباع التي طُبع عليها البشر؛ فلا انفكاك لهم منها، أم أنهما خاضعان للرياضة والتهذيب والإصلاح؟.. ثم سألتني عن كيفية ذلك؟.. وعن سر اختلاف الناس في حدة الغضب وشدته؟.. وعن أولئك الذين يبررون تصرفاتهم بكونهم مارسوها في حالة غضب، وهل يؤاخذون عليها، أم أن الله يعفو عنهم لعدم تحكمهم في نفوسهم حال الغضب؟

وغيرها من أسئلتك الوجيهة، والتي لا يمكن لمن يريد أن يهذب نفسه أن يجهل الإجابة الصحيحة عليها، ذلك أن الغضب وسيلة الشيطان الكبرى للتحكم في تصرفات الإنسان، ومن لم يهذب غضبه، ويعدله وفق الشريعة، صار زمام أمره بيد الشياطين يعبثون به كما يشاءون.

ولو أنك ــ أيها المريد الصادق ــ تأملت في كل أنواع الصراع التي حصلت بين الأمم والشعوب، أو بين المجتمعات ومكوناتها، أو حتى بين أفراد الأسرة الواحدة، لوجدت أن الغضب هو السبب الأكبر فيها.. ولو أن الذين وقعوا في ذلك الصراع تحكموا في غضبهم، وعالجوه وفق ما تقتضيه الشريعة، لكان وضع البشرية مختلفا تماما.

ولذلك ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ ما يدل على أن الغضب نار في نفس الإنسان، لا تختلف عن النار التي يتشكل منها الشيطان، ولذلك كانت أقرب المحال التي يوصل بها رسائله إلى الإنسان، ليحوله إلى مساره وطبيعته، إلى أن يصير شيطانا إنسيا لا يختلف عن شيطان الجن، قال رسول الله ﷺ:

(إنّ الغضب من الشّيطان، وإنّ الشّيطان خلق من النّـار، وإنّمـا تطفأ النّار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضّأ)(1)

وروي عن ذي القرنين أنّـه لقي ملكـا من الملائكـة فقـال: علّمني علما أزدد به إيمانا ويقينا، قال: (لا تغضب فإنّ الشّيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فردّ الغضـب بـالكظم، وسكّنه بالتّؤدة، وإيّاك والعجلة فإنّـك إذا عجلت أخطـأت حظّـك وكن سهلا ليّنا للقريب والبعيد، ولا تكن جبّارا عنيدا)(2)

وروي أن إبليس قال: (ما أعجـزني بنـو آدم فلن يعجـزوني في ثلاث: إذا سـكر أحـدهم أخـذنا بخزامتـه فقـدناه حيث شـئنا وعمل لنا بما أحببنا، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم، ونبخّله بما في يديه ونمنّيه بما لا يقدر عليه)(3)

ولهذا كان الغضب سببا لكل أنواع الصراع والعدوان، الـتي وقعت بين البشـر، ولعـل الملائكـة عليهم السـلام أدركـوا ذلـك عندما علموا بالمركبات التي تتكون منها نفس الإنسان، فقـالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30]

لكن الله تعالى أخبرهم أن هنـاك من يسـتطيع أن يسـيطر على غضبه، ويصـرفه إلى مواضـعه الصـحيحة، مثلمـا تسـتعمل النار في الطبخ، لا في الحرق.

ولذلك قال رسول اللـه ﷺ: (ليس الشّـديد بالصّـرعة، إنّمـا الشّديد الّذي يملك نفسه عند الغضب)(4)؛ فلم ينف رسول اللـه

(1) أبو داود(4784)، وأحمد(4/ 226)

(2) إحياء علوم الدين (3/ 177)

(3) المرجع السابق، (3/ 177)

(4) البخاري [فتح الباري]، 10(6114)، ومسلم(2609)

ﷺ الغضب عن الشديد، وإنما أخبر عن تحكمه فيه، مثلما نتحكم في النار، فنستفيد منها في طبخ الطعام، دون أن تحرقه.

ولهذا أخبر الله تعالى عن غضب الأنبياء عليهم السلام، وكيف صرفوه في مواضعه الصحيحة، ومن ذلك ما أخبر به عن غضب موسى عليه السلام عندما عبد قومه العجل، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: 150]، وقال:﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [طه: 86]

وأخبر عن غضب يونس عليه السلام من إعراض قومه، فقال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء: 87]

وأخبر عن غضب نوح عليه السلام ودعوته على قومه بسبب إعراضهم الشديد في تلك الآماد الطويلة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: 26، 27]

وأخبر عن غضب إبراهيم عليه السلام على قومه بسبب إعراضهم الشديد، وأنه قال لهم في حال غضبه: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 66، 67]

وهكذا ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ كان (إذا خطب احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتدّ غضبه حتّى كأنّه منذر جيش

يقول: (صبّحكم ومسّاكم)، ويقول: (بعثت أنا والسّاعة كهاتين)(1)

وروي أنه ﷺ رخّص في بعض الأمور، فتنزّه ناس عنها، فبلغه ذلك، فغضب حتّى بان الغضب في وجهه. ثمّ قال: (ما بال أقوام يرغبون عمّا رخّص لي فيه، فو الله لأنا أعلمهم بالله وأشدّهم له خشية)(2)

وروي أن رجلا قال: يا رسول الله. إنّي لأتأخّر عن الصّلاة في الفجر ممّا يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله ﷺ، ثمّ قال: (يا أيّها النّاس إنّ منكم منفّرين فمن أمّ النّاس فليتجوّز، فإنّ خلفه الضّعيف والكبير وذا الحاجة)(3)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الشريعة الحكيمة لم تطالبك بقطع أصل الغضب، فذلك مستحيل، وغير ممكن، وكيف يكون ذلك وهو طبع من الطباع التي جبل عليها الإنسان، ولولاها لما استطاع تهذيب نفسه وإصلاحها؛ فغضبه على نفسه وسوء أخلاقها هو الذي يجره إلى مجاهدتها.

ولولاه لما جاهد الظالمين الذين يظلمون المستضعفين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: 75]،وهل الجهاد سوى ذلك الغضب للمظلومين، والذي يدعو إلى حمايتهم وتخليصهم من المستكبرين؟

1() مسلم(867)

2() البخاري [فتح الباري]10(6101)، ومسلم(2356)

3() البخاري [فتح الباري]، 2(704) واللفظ له، ومسلم(466)

ولـولا الغضـب لم يتحـرك قلب المسـلم لنصـرة أخيـه في حال حاجته إليه، وقد ورد في الحديث قولـه ﷺ: (مـا من أمـرئ يخذل امرأ مسلما في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلّا خذله الله في موطن يحبّ فيه نصرته، وما من امرئ ينصـر مسـلما في موضـع ينتقص فيـه من عرضـه وينتهـك من حرمته إلّا نصره الله في موطن يحبّ نصرته) (1)

ولـولا الغضـب لم تكن هنـاك تلـك الغـيرة الشـرعية الـتي تجعل صاحبها يحافـظ على عرضـه، ولا يدعـه عرضـة للانتهـاك، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (أتعجبون من غيرة سعد، فواللـه لأنـا أغـير منـه، واللـه أغـير منّي، من أجـل غـيرة اللـه حـرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغـير من اللـه، ولا شـخص أحبّ إليـه العـذر من اللـه، من أجـل ذلـك بعث اللـه المرسلين مبشّرين ومنذرين، ولا شخص أحبّ إليـه المدحـة من الله، من أجل ذلك وعد الله الجنّة)(2)

ولــولا الغضــب لم يتحــرك المــؤمن المحتســب لمواجهــة المنكر.. ولهـذا أثـنى الإمـام علي على أبي ذر الـذي غضـب في ذات الله على تلك التحريفات العظمية التي حصلت لدين اللــه، فقال مخاطبا له: (يا أبا ذر: إنك غضـبت للـه، فَـارْجُ من غضـبتَ له، إن القـوم خـافوك على دنيـاهم وخِفتَهُم على دينـك، فـاترك في أيــديهم ما خــافوك عليه واهــرب بما خِفتَهم عليــه، فمــا أحــوجهم إلى مــا منعتهم، ومــا أغنــاك عمــا منعــوك، ولــو أن السماوات والأرض كانتا على عبد رتقاً، ثم اتقى الله، لجعـل لـه منهما مخرجـاً، ولا يُؤنِسـنّك ألا الحـق، ولا يُوحِشـنّك إلا الباطـل،

1() أبو داود (4884) وأحمد (4/ 30)

2() البخاري [فتح الباري] 13 (7416)، ومسلم (1499)

فلو قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضت منها لأمّنوك([1]

لكن إياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تـبرر لنفسـك غضـبها، وتذكر أثناء ذلك ما كان من غضـب الأنبيـاء عليهم السـلام؛ فقـد كـان غضـبهم للـه تعـالى، ولم يكن لأنفسـهم، وكـان مضـبوطا بضوابط الشريعة، لا بنوازع الهوى، وقـد ورد في الحـديث: (مـا خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلّا اختـار أيسـرهما، مـا لم يـأثم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قطّ حتّى تنتهك حرمات الله فينتقم لله) [2]

ولهذا؛ فإن تعديل الغضب يقتضي القدرة على التحكم فيه، حـتى يصـرف في محالـه الصـحيحة، وحـتى لا يكـون وبـالا على صـاحبه، وقـد ورد في الحـديث أن ذلـك الرجـل الـذي قـال لـه رسول الله ﷺ في وصيته: (لا تغضب)، قال: (ففكّرت حين قـال النّبيّ ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشّرّ كلّه)[3]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما أورده لك من الأدوية التي تجعلك تتحكم في غضبك؛ فتحركه مـتى تشـاء، وتوقفه متى تشاء.. لتكـون أنت ملـك نفسـك، وليس الشـيطان الذي يراقب انفعالاتك وأهواءك لينحرف بك من خلالها.

العلاج المعرفي:

أول علاج تنطلق منه ـ أيها المريد الصادق ـ لإصلاح غضبك وتوجيهه الوجهة الشرعية المتناسبة مع الفطرة السليمة هي أن تعلم مضار الغضب، وخطورته عليك، وعلى شخصيتك، ونفسك،

1() بحار الانوار 22/ 412.

2() البخاري[فتح الباري] 12 (6786) ومسلم (2327)

3() أحمد(5/ 373)

وحياتك في الدنيا والآخرة.. مثلما تفعل تماما مـع الأغذيـة الـتي ترى خطرها؛ فتسرع لتحرم نفسك منها خشـية أن تحرمـك من الحياة، أو من بعض ملذاتها.

وقـد قـال الإمـام الصـادق معـبرا عن الثمـار الـتي ينتجهـا الغضب: (الغضب مفتاح كلّ شرّ)(1)

وشبه بعض الحكماء حال الإنسـان عنـد الغضـب بالسّـفينة عنـد اضـطراب الأمـواج في لجّـة البحـر، (إذ في السّـفينة من يحتـال لتسـكينها وتـدبيرها وسياسـتها أمّـا القلب فهـو صـاحب السّـفينة وقـد سـقطت حيلتـه بعـد أن أعمـاه الغضـب وأصـمّه، ويظهر ذلك على أعضائه وكلامه وفعاله) (2)

ثم ذكر أنه (لو رأى الغضـبان في حالـة غضـبه قبح صـورته لسـكن غضـبه حيـاء من قبح صـورته واسـتحالة خلقتـه، وقبح الباطن أعظم من قبح الظّاهر فإنّ الظّاهر عنوان الباطن)

ثم ذكر الثمار المـرة الـتي ينتجهـا الغضـب، فقـال: (وإنّمـا قبحت صورة الباطن أوّلا ثمّ انتشر قبحها إلى الظّاهر ثانيا، وأمّا في اللّسان فأثره بالشّتم والفحش الّذي يستحي منه قائله عنـد سكون الغضب فضلا عن تخبّط النّظم واضطراب اللّفـظ، وأمّـا أثـــره على الأعضـــاء فالضّـــرب والتّهجّم والتّمزيـــق والقتـــل للمغضوب عليه وإذا فلت منه بسبب عجـز أو غـيره فقـد يرجـع إلى صاحبه فربّما مزّق ثوب نفسه أو لطم وجهـه وربّمـا ضـرب بيـده على الأرض. وأمّـا أثـره في القلب على المغضـوب عليـه فالحقد والحسد واضحا والسّوء والشّماتة بالمساءات)(3)

1() الكافي ج 2 ص 303.

2() إحياء علوم الدين (3/ 184)

3() المرجع السابق، (3/ 184)

ولهذا قال الإمام الصادق: (الغضب ممحقة لقلب الحكيم)، وقال: (من لم يملك غضبه لم يملك عقله)(1)

وقال بعض الحكماء لابنه: (يا بنيّ لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحيّ في التّنانير المسجورة، فأقلّ النّاس غضبا أعقلهم، فإن كان لدنيا كان دهاء ومكرا وإن كان للآخرة كان حلما وعلما، فقد قيل: الغضب عدوّ العقل والغضب غول العقل)(2)

ولذلك لا تلتفت لأولئك الذين يبررون لأنفسهم سرعة غضبهم، ويعتبرونه جبلة جبلوا عليها؛ فما كان الله ليجبل عباده على الشر، وإنما هم الذين مكنوا لغضبهم، وربوه، وحولوه إلى ملك يتحكم فيهم، ولو أنهم واجهوه وعالجوه، لما تمكن منهم.

ولولا ذلك لم يكن لوصية رسول الله ﷺ للرجل بالتحكم في غضبه أي معنى.. فرسول الله ﷺ يستحيل عليه أن ينهى عن شيء لا يطاق.

وروي أن النّبيّ ﷺ مرّ بقوم يصطرعون، فقال: ما هذا؟ قالوا: فلان، ما يصارع أحدا إلّا صرعه، قال: (أفلا أدلّكم على من هو أشدّ منه؟ رجل كلّمه رجل فكظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه) (3)

ولهذا ورد في الحديث بيان فضل البشر بحسب تحكمهم في غضبهم، وقد قسمهم رسول الله ﷺ في ذلك إلى أربعة أصناف؛ فقال: (ألا إنّ بني آدم على طبقات شتّى، فمنهم بطيء الغضب سريع الفيء، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء

1() الكافي، ج 2 ص 306.

2() إحياء علوم الدين (177)

3() رواه البزار (2/ 439) برقم (2053)

فتلـــك بتلـــك، ألا وإنّ منهم ســـريع الغضـــب بطيء الفيء، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، ألا وشرّهم سريع الغضـب بطيء الفيء)(1)

وهـذا الحـديث يـدل على أن بإمكـان الإنسـان التحكم في غضبه، بحيث لا يغضب إلا في المواطن الـتي تسـتحق الغضـب، وأنـــه بعـــد ذلـــك الغضـــب يمكنـــه أن يتحكم في مدتـــه وكيفيـــة التصرف فيه..

ومما يعينك على هذا ـ أيها المريد الصادق ــ معرفـة أنـواع الجزاء التي ينالها من يتحكمون في غضبهم، وأولها ما وصف به القرآن الكريم ذلك الجزاء العظيم الذي ينتظر المؤمـنين الـذين يغفرون عند غضبهم، والذي لا يساوي أمامـه متـاع الـدنيا شـيئا، قال تعالى: فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَمَـا عِنْـدَ اللَّهِ خَيْـرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُـوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَـائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَـوَاحِشَ وَإِذَا مَـا غَضِـبُوا هُمْ يَغْفِـرُونَ [الشورى: 36، 37]

وبين سعة النعيم الـذي ينتظـر من وسـعوا صـدورهم، فلم يضــيقها الغضــب، ولم تخنقهــا الحــدة، فقــال: وَسَــارِعُوا إِلَى مَغْفِـــرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـــهَا السَّـــمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِـــدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّـرَّاءِ وَالْكَـاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [آل عمـران: 133، 134]

فتمثل ـ أيها المريـد الصـادق ــ هـذا الجـزاء العظيم الـذي ينتظر ذلك الذي يكظم غيظـه، ويملـك غضـبه؛ فيكـون أهـدأ مـا يكون عندما يستفز ويستثار..

---

(1) الترمذي(2191) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وإن شــئت، فتمثــل نفســك، وكأنــك في مســابقة لمن يكظمــون غيظهم، وأن الفــائز فيهــا ينــال ملايين الــدنانير من الذهب والفضة.. وسترى كيف تتحكم في نفسك طمعا في تلك الجائزة العظيمة، مع أن مـا أعـد اللـه للمتحكمين في غضـبهم، والكاظمين لغيظهم أعظم بكثير.

وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (ما من جرعــة أعظم أجـرا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله)(1)

وقال: (من أنظر معسرا أو وضـع عنـه وقـاه اللـه من فيح جهنّم، ألا إنّ عمل الجنّة حـزن بربـوة (ثلاثـا)، ألا إنّ عمـل النّـار سهل بشهوة، والسّعيد من وقي الفتن، وما من جرعة أحبّ إليّ من جرعة غيظ يكظمهـا عبـد، مـا كظمهـا عبـد للـه إلّا ملأ اللـه جوفه إيمانا) (2)

فتأمل هذا المعنى ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فهـو لا يمكن تقـديره بثمن.. ذلـك أنـك في الـوقت الـذي تبتسـم فيـه أثنـاء استفزازك وإغضابك تكون محل قرب ومحبة من ربك..

وأضف إلى هذا ما ورد في الأحاديث من حرمان الكاظمين لغيظهم من العـذاب، ففي الحـديث قـال رسـول اللـه ﷺ: (من كفّ غضبه كفّ الله عنه عذابـه، ومن اعتـذر إلى ربّـه قبـل اللـه عذره، ومن خزن لسانه ستر الله عورته)(3)

بل ورد ما هو أعظم من ذلـك، فقـد قـال رسـول اللـه ﷺ: (من كظم غيظا ولو شاء أن يمضـيه أمضـاه ملأ اللـه قلبـه يـوم

1() ابن ماجه (4189) وأحمد (2/ 128) برقم (6116)

2() أحمد (5/ 9- 10) رقم (3017)

3() الطبراني في الأوسط، مجمع الزوائد ج 8 ص 68.

القيامة رضا، وأمنا وإيمانا)(1)

وروي أنّ رجلا جاء إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسـول اللـه! أيّ النّاس أحبّ إلى الله تعالى؟ وأيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟ فقـال رسـول اللـه ﷺ: (أحبّ النّـاس إلى اللـه تعـالى أنفعهم للنّـاس، وأحبّ الأعمـال إلى اللـه تعـالى سـرور يدخلـه على مسـلم، أو يكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنـه جوعـا، ولأن أمشــي مــع أخ في حاجــة أحبّ إليّ من أن أعتكــف في هــذا المسجد شهرا، ومن كـفّ غضـبه سـتر اللـه عورتـه، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتّى يتهيّأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام) (2)

ولا يقتصر جزاء المتحكمين في غضـبهم على ذلـك الجـزاء المعنوي الذي لا يقـدر بثمن، بـل قـد أخـبر رسـول اللـه ﷺ عن بعض الجزاء الحسي الذي ينالونه؛ فقال: (من كظم غيظـا وهـو قادر على أن ينفـذه دعـاه اللـه عـزّ وجـلّ على رؤوس الخلائـق حتّى يخيّره من الحور ما شاء)(3)

ولهذا فـإن ابتلاء اللـه تعـالى لـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ بإيقاعك في المواقع التي تثير غضبك فرصة لك لتنال كـل هـذه الأجـور العظيمـة الـتي لا يمكن أن تنالهـا من دونهـا.. فابتهلهـا، واغتنمها، ولا تفرط فيها لأجل غضب يضرك أكـثر ممـا ينفعـك.. وقد روي عن الإمام الصادق أنه قال: (نعم الجرعـة الغيـظ لمن صـبر عليهـا فـإنّ عظيم الأجـر لمن عظم البلاء، ومـا أحبّ اللـه

1() ابن أبي الدنيا، وأبو داود ج 2 ص 548.

2() رواه الطبراني في الكبير (12/ 453)

3() الترمذي (2021)، وأبو داود (4777) واللفظ له، وابن ماجه (4186)

قوما إلّا ابتلاهم)[1]، وقال: (ما من عبد كظم غيظا إلّا زاده اللـه تعالى عزّا في الدّنيا والآخرة، وأثابه الله مكان غيظه ذلك)

فهذه الروايات تدل على أن اللـه تعـالى يختـبر عبـاده بـأن يوقعهم في مثل تلك المحال التي تثير غضـبهم، ليتمـيز الخـبيث منهم من الطيب، مثلمـا ابتلى إبليس بالسـجود لآدم عليـه السلام، ولولا ذلك ما ظهر كبره وحسده.

ومما يروى عن لقمان في هذا قولـه: (ثلاثـة لا يعرفـون إلّا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلّا عنـد الغضـب ولا الشـجاع إلّا عنـد الحرب، ولا تعرف أخاك إلّا عند حاجتك إليه)

ولهذا قال الإمام الكاظم: (اصبر على أعداء النعم فإنّك لن تكافئ من عصى الله فيـك بأفضـل من أن تطيـع اللـه فيـه)[2]، وهي حكمة تدلك على أن عبوديتك لله تعالى في المواقف التي تثـير غضـبك هي أن تتحكم في نفسـك، ولا تـترك لهـا العنـان لتمارس أهواءها، بل عليك حينها أن تذكر ربك، وتطبق شـريعته في غضبك كما تطبقها في رضاك.

وقـد ورد في الحـديث عن عبـد اللـه بن عمـرو قـال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريـد حفظـه فنهتـني قريش وقالوا: أتكتب كـل شـيء؟ ورسـول اللـه ﷺ بشـر يتكلم في الغضـب والرضـا، فأمسـكت عن الكتـاب، فـذكرت ذلـك لرسول الله ﷺ، فأومـأ بإصـبعه إلى فيـه فقـال: (اكتب فوالـذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق) [3]

1() الكافي ج 2 ص 110.

2() الكافي، ج 2 ص 109 و110.

3() رواه أبو داود.

فاجتهد ـ أيها المريد الصادق ـ لتستن بسنة رسول اللـه ﷺ في غضـبك ورضـاك، فلا تـترك في كليهمـا لنفسـك هواهـا، بـل تحكم شريعة ربك، وأخلاق نبيك ﷺ، فالكمال في اتباع هديــه، لا في اتباع هوى نفسك الأمارة.

ومما يعينك على ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ علمـك برؤيـة الله لك عنـد غضـبك، وتوليـه الـدفاع عنـك، كمـا نص على ذلـك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُـلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38]

وقد روي في تفسـيرها عن الإمـام الصـادق أنـه قـال: (إنّ في التوراة مكتوبا: يا ابن آدم اذكرني حين تغضـب أذكـرك عنـد غضـبي فلا أمحقـك فيمـا أمحـق، وإذا ظلمت بمظلمـة فـارض بانتصاري لك فإنّ انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك)(1)

وروي أنـه قـال: (إذا وقـع بين رجلين منازعـة نـزل ملكـان فيقولان للسفيه منهما: قلت وقلت وأنت أهل لما قلت ستجزى بما قلت، ويقولان للحليم منهما: صبرت وحلمت سيغفر الله لك إن أتممت ذلك، قال: فإن ردّ الحليم عليه ارتفع الملكان)(2)

وقد ورد في الحـديث أن رجلا كـان يشـتم بعض الصـحابة، وهو ساكت؛ فلمّا ابتدأ لينتصر منه قـام رسـول اللـه ﷺ، فقـال: إنّـك كنت سـاكتا لمّـا شـتمني فلمّـا تكلّمت قمت؟ قـال: (لأنّ الملـــك كـــان يجيب عنـــك، فلمّـــا تكلّمت ذهب الملـــك وجـــاء الشيطان؛ فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان)(3)

فتذكر عند غضبك ـ أيها المريـد الصـادق ــ هـذان الملكـان

1() الكافي ج 2 ص 306.

2() الكافي ج 2 ص 112.

3() أبو داود ج 2 ص 572.

اللذان توليا الدفاع عنك والثناء عليك، ولا تجعلهما يرتفعان بسبب طيشك أثناء غضبك.

وإن نازعتك نفسك وذكرت لك أنك بشر، وأن للغضب حدودا، وأن من استغضب فلم يغضب فهو حمار، فذكرها بتلك النماذج التي جعلها الله حججا على خلقه، يقتدون بها، ويسلكون سبيلها، ومنهم المسيح عليه السلام، فقد روي أنه مرّ بقوم من اليهود فقالوا له شرّا، فقال لهم خيرا، فقيل له: (إنّهم يقولون شرّا وأنت تقول خيرا؟) فقال: كلّ واحد ينفق ممّا عنده.

ومنهم رسول الله ﷺ سيد الحلماء الرحماء، وقد حدث أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجرانيّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيّ فجبذه بردائه جبذة شديدة. نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثّرت بها حاشية الرّداء من شدّة جبذته، ثمّ قال: يا محمّد! مر لي من مال الله الّذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ثمّ أمر له بعطاء) (1)

ومنهم الإمام الحسن؛ فقد روي أن شامياً رآه راكباً، فجعل يلعنه والحسن لا يرد، فلما فرغ أقبل الحسن إليه يبتسم في وجهه وقال: (أيها الشيخ، أظنك غريباً، ولعلك شبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك وإن كانت لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا وكنت ضعيفاً إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً، وجاهاً عريضاً، ومالاً كثيراً).. فلما سمع الرجل كلامه بكى ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في

1() البخاري[فتح الباري] 10 (6088) ومسلم (1057)

أرضه.. الله أعلم حيث يجعل رسالته... كنت أنت وأبــوك أبغض خلـق اللـه إليّ، والآن أنت أحب خلـق اللـه إليّ، وَحَـوّل رحلـه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبتهم.

ومنهم الإمام السجاد الذي ضرب أروع الأمثلـة في التحكم في الغضب، والحلم عنده، وقد روي أنـه كـان يقـول: (مـا أحبّ أنّ لي بذلّ نفسي حمر النعم، وما تجرّعت جرعة أحبّ إليّ من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها)(1)

وروي أن رجلا سبّه؛ فرمى إليه خميصة كـانت عليـه وأمـر له بألف درهم(2)، وقد قـال بعضـهم معلقـا على هـذا الموقـف: (جمع له خمس خصال: الحلم وإسـقاط الأذى، وتخليص الرّجـل ممّـا يبعـده من اللـه وحملـه على النـدم والتوبـة ورجوعـه إلى المدح بعد الذّم، اشترى جميع ذلك بشيء من الدّنيا يسير)

وروي أن رجلا شـتمه، فقصـده بعض مرافقيـه، لـيرد عنـه، فقال لهم: (دعوه فإنّ ما خفي منّا أكثر ممّا قالوا)، ثمّ قال لــه: أ لك حاجة يا رجل؟ فخجل الرجل، فأعطاه الإمام السجاد ثوبه، وأمر له بألف درهم، فانصرف الرجل صارخاً، وهو يقول: (أشهد أنّك ابن رسول الله ﷺ)(3)

وروي أنّ شخصـاً آخـر شـتمه، فقـال لـه: (يـا فـتى إنّ بين أيدينا عقبة كؤوداً؛ فإن جزت منها فلا أبالي بما تقول، وإن أتحيّر فيها فأنا شرّ ممّا تقول)(4)

وروي أن آخر سبّه، فسكت، فقال الرجل: إيّاك أعني، فرد

1() الكافي ج 2 ص 109 و110.

2() أورده الشعراني في الطبقات ج 1 ص 28.

3() مناقب آل أبي طالب: ج4 ص157.

4() المرجع السابق، ج4 ص157..

عليه الإمام السجاد: (وعنك أغضي)(1)

وروي أنه مر يوما على قوم يغتابونه، فوقف عليهم، فقال: (إن كنتم صادقين فغفر الله لي، وإن كنتم كاذبين فغفر الله لكم)(2)

العلاج السلوكي:

إذا عرفت كل هذا ـ أيها المريد الصادق ـ وعزمت على أن تتحكم في غضبك، فعليك أن تستعين بربك، وتدرب نفسك بما تراه صالحا لها، كما روي عن بعضهم أنه كان شديد الغضب، وعندما أدرك خطره عليه، كتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفةٍ رجلاً، وقال للأول: إذا اشتد غضبي فقم إليّ بهذه الصحيفة، وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فأعطنيها، وقال للثالث، إذا ذهب غضبي فناولنيها.. وكان في الصحيفة الأولى: أقصر، ما أنت وهذا الغضب؟ لست بِإله إنما أنت بشر!! أوشك أن يأكل بعضك بعضاً.. فيسكن بعض غضبه.. وكان في الصحيفة الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء.. فيسكن بعض غضبه.. وفي الصحيفة الثالثة: خذ الناس بحق الله، فإنه لا يصلحهم إلاّ ذاك.. فلا يقرر أي قرار في حال غضبه يتنافى مع شريعة الله.

ولهذا كان الطريق الأمثل لعلاج الغضب هو ذكر الله.. فما ذكر الله في محل إلا خنس الشيطان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]، وبخلافهم الغافلين الذين ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 202]

---

(1) المرجع السابق، ج4 ص157..

(2) بحار الأنوار، (46/ 62)

ولهذا روي في الحـديث أنـه اسـتبّ رجلان عنـد النّـبيّ ﷺ، وأحدهما يسبّ صاحبه مغضبا قد احمرّ وجهـه، فقـال النّـبيّ ﷺ: (إنّي لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ باللـه من الشّيطان الرّجيم)، لكن الرجل كان غويا مسـتكبرا، فعنـدما ذكر له هذا، قال: (إنّي لست بمجنون)[1]

ولهذا فإن ذكر الله هو العلاج الأكبر للغضب، وقد روي عن الإمـام علي أنـه قـال: (مـتى أشـفي غيظي إذا غضـبت؟ أحين أعجز عن الانتقـام، فيقـال لي: ألا صـبرت، أم حين أقـدر عليـه، فيقال لي: لو عفوت(

ومن الأدويــة الــتي يمكن اسـتعمالها في حــال الغضــب الشديد، وخشية اتخاذ أي قرار خـاطئ مـا أرشـدنا إليـه رسـول الله ﷺ بقوله: (علّموا ويسّروا ولا تعسّـروا، وإذا غضـب أحـدكم فليسكت)[2]

وممــا يعين على الحــد من الغضــب في حــال اشــتعاله الاشتغال بأي شيء آخر، يجعل الذهن منصرفا عن الحالـة الـتي كـان فيهـا.. ومن وصـايا رسـول اللـه ﷺ في ذلـك قولـه: (إنّ الغضب من الشّيطان، وإنّ الشّيطان خلق من النّار، وإنّما تطفأ النّار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضّأ) [3]

ومنها مـا ورد في قولـه ﷺ: (إذا غضـب أحـدكم وهـو قـائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلّا فليضطجع)[4]

1() البخاري [فتح الباري]، 01(6115) واللفظ له، ومسلم(2610)

2() أحمد(1/ 239) وفي رقم(2136)

3() أبو داود (4784) وهذا لفظه، وأحمد (4/ 226)

4() أبو داود(4782)، أحمد(5/ 152) ابن حبان(3/ 450)

ومنها ما ورد عن الإمام الباقر أنه قال: (إنّ الرّجل ليغضب فما يرضى أبدا حتّى يدخل النار، فأيّما رجل غضب على قوم وهو قائم فيجلس من فوره ذلك فإنّه سيذهب عنه رجز الشيطان، وأيّما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه فليمسّه فإنّ الرّحم إذا مسّت سكنت)(1)

وقال: (إنّ هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في جوف ابن آدم وإنّ أحدكم إذا غضب احمرّت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض فإنّ رجز الشيطان يذهب عنه عند ذلك)(2)

ومن الأدوية التي يمكن استعمالها في هذا تذكر أي موقف من المواقف السيئة التي قد تغطي على ذلك الموقف، وخاصة إن كانت أسوأ منه، ومن الأمثلة على ذلك ما روي أن بعض الحكماء دخل على صديق له فقدّم إليه الطعام فخرجت امرأة الحكيم وهي سيّئة الخلق فرفعت المائدة، وأقبلت على شتم الحكيم، فخرج الصديق مغضبا فتبعه الحكيم وقال: أتذكر يوما كنّا في منزلك نطعم، فسقطت دجاجة على المائدة، وأفسدت ما عليها، فلم يغضب أحد منّا فقال: نعم فقال: (احسب أنّ هذه مثل تلك الدّجاجة)، فسرّي عن الرّجل وانصرف وقال: (صدق الحكيم، الحلم شفاء من كلّ ألم)

وهكذا يمكنك ــ أيها المريد الصادق ــ أن تكتشف آلاف الحيل التي تحمي عقلك من أن يتلاعب به الشيطان أثناء الغضب، وستجد من اللذة بعدها ما لا يعدله ذلك التهور الذي يدعوك إليه غضبك، ليجعلك كالمجانين تتصرف من غير وعي في أحلك الأوقات التي تحتاج فيها إليه.

1() الكافي، ج 2 ص 302.

2() الكافي، ج 2 ص 302.

هذه وصيتي إليـك، فاجتهـد في تـدريب نفسـك في العمـل بها؛ فهي وإن كانت ثقيلة عليك، إلا أن عواقبهـا حميـدة، فتـذكر عواقبها ليخف على نفسك ثقلها.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أنـه لا يمكن لأحـد أن يحسـن خلقه من غير أن يتحكم في غضبه.. فلذلك اجتهد في أن يكــون غضبك مثل شـهوتك مثـل حياتـك جميعـا ملكـا لعقلـك وشـريعة ربك، لا لأهوائك، ولا للشياطين الذين يتربصون بك.

الحقد والحسد

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الحقد والحسد، والفرق بينهما، والجذور التي تمدهما، وهل يمكن استئصالهما، أم يكتفى بإخماد نارهما.. ثم طلبت مني كعادتك في رسائلك أن أدلك على الأدوية التي يمكن استخدامها لعلاجهما.

وكـل هـذه الأسـئلة وجيهـة، ولا يمكن لطـالب التزكيـة ألا يعرفها، أو يتعلم علومها، حتى لو ظن أنه خال منهما.. وما أدراه أنه خـال منهمـا.. فقـد لا يكـون تعـرض للاختبـار الخـاص بهمـا، ولذلك ظن نفسه بمنجـاة منهمـا.. والعاقـل هـو الـذي يسـتعمل الوقاية قبل العلاج، ويستأصـل الـداء في مبدئـه قبـل أن يتحكم فيه، ولا يستطع إنقاذ نفسه منه.

وقبل أن أتحدث لك عن كل واحد منهما، وعلامتـه، والعلاج الخاص به، أذكر لك أنهمـا ينتميـان لأسـرة واحـدة، هي الأسـرة الـتي أطلـق عليهـا القـرآن الكـريم لقب العـدوان.. وهـو لقب مرتبـط بالمثـالب الـتي لا تكتفي بصـاحبها، وإنمـا تمتـد لغـيره، فيتحول من إنسان مسالم إلى إنسان عدواني.

وبذلك يفقد اسم الإسلام الحقيقي، الذي أخبر رسول اللـه ﷺ أنه لا يتحقق به إلا المسالمون، فقد قال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويـده) (1)، ويفقـد اسـم الإيمـان الحقيقي الـذي أخـبر رسـول اللـه ﷺ أنـه لا يتحقـق بـه إلا (من أمنـه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم) (2)

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه الطبراني والحاكم وصححه.

والحقد والحسد ـ كما ذكرت لك في رسائلي السابقة ـ مرتبطان بتلك المثالب الخطيرة التي هي أم لكل الأمراض، وأولها العجب الذي يجعل النفس لا ترى إلا ذاتها، فتعتبر نفسها المركز الذي ينبغي للجميع أن يلتف حوله.. وثانيها الغرور الذي يولده العجب، فيتوهم أنه الحق الذي لا يعتريه الباطل، والخير الذي لا يقع في الشر.. وثالثها الكبر الذي يخرج بالعجب والغرور من الذات ليتسلط بهم على كل ما هو خارج عنها.

فلذلك إن رأت النفس المعجبة المغرورة المستكبرة شخصا نال ما هو أفضل مما لديها، أو صُرفت الأبصار إليه، ولم تصرف إليها، ملأها ذلك حقدا وغيظا وغلا.. وقد يؤدي بها ذلك الحقد إن اشتد إلى إبرازه في صورة غيبة ونميمة وقذف.. أو في صورة إذية حسية قد تصل إلى حد القتل.. وقد لا يظهر في أي صورة، لعدم توفر البيئة المناسبة، أو لجبن صاحبها وخوره وضعفه.. لكنها تظل مثل تلك النار الخامدة التي قد تشتعل في أي لحظة.

ومن البديهيات بالنسبة لهذه النفس الممتلئة بالعجب والغرور والكبر أن تتمنى زوال كل نعمة لا تتعلق بها.. لأنها ترى في النعم المسداة لغيرها حائلا بينهم وبين النظر لها، والإعجاب بها وإكبارها.. لأنها تريد أن تكون المحور والمركز الذي يلتف حوله الجميع، وهذا هو الحسد.. والذي قد يكون نارا خامدة لا تظهر في الواقع، وقد تظهر في أي لحظة عند توفر الأسباب الداعية لها.

وبذلك يمكنك ـ أيها المريد الصادق ــ أن تفرق بين هذين المثلبين، فأولهما ذلك الغل والغيظ الذي تمتلئ به القلوب، نتيجة خلاف أو غضب أو أي اختبار من الاختبارات الإلهية التي يبرز الله تعالى بها ما في الصدور.

والثاني هو انشغال النفس، لا بعدّ نعم الله تعالى عليها، ولا بسـؤاله المزيـد منهـا، وإنمـا بطلب سـلبها على من تصـورته منافسا لها، أو مثيرا للإعجاب بدلها..

إذا عرفت هذا، فاسمع للعلاج المرتبط بهما، والذي يمكنك باستعمالك الدائم لـه، أن تحفـظ نفسـك من الوقـوع في أغلال هذين المثلبين الخطيرين اللـذين لن تخمـد نارهمـا حـتى تحـرق كل أخضر ويابس من المكارم الـتي زرعهـا اللـه فيـك، وطبعـك عليها، ورباك بها.

الحقد وعلاجه:

أول علاج للحقـد ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ هـو أن تعلم الأصناف التي اتصفت به، والتي أخبر الله تعالى أنها جميعـا من المستحقين للعذاب الشديد، ولذلك فإن المتلبس به، سـيكون ـ وفق قانون الزوجية والمثلية ــ معهم.. فـالمرء مـع من شـاكله، وما كان الله تعـالى ليعـذب قومـا نتيجـة عمـل معين، ثم يـترك آخرين قاموا بنفس العمل من غير أن يعذبهم؛ فذلك يتنافى مـع العدالة الإلهية.

ولذلك قال تعالى معقبا على العقوبة التي عوقب بها قــوم لـوط عليـه السـلام: ﴿فَلَمَّا جَـاءَ أَمْرُنَـا جَعَلْنَـا عَالِيَهَـا سَـافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 82، 83]

وقـال عن العقوبـة المرتبطـة بعبـدة العجـل:﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَـيَنَالُهُمْ غَضَـبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَكَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُفْتَـرِينَ﴾ [الأعـراف: 152]، وقـال: ﴿ وَكَـذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْـرَفَ وَلَمْ يُـؤْمِنْ بِآيَـاتِ رَبِّهِ وَلَعَـذَابُ الْآخِـرَةِ أَشَـدُّ وَأَبْقَى ﴾ [طه: 127]

وهكذا، فـإن قـوانين العدالـة الإلهيـة واحـدة، وتطبـق على الجميـع، ولا يمكن لأحـد أن يـدعي أنـه بمنجـاة منهـا، كمـا قـال تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَـلْ سُـوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 123]

فلا تلتفت ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ لمن يكـذب عليـك، ويوهمك أن هذه الأمة مرحومة، وغيرها معذب.. فالله تعـالى لا يفرق بين الأمم، وإنما يتعامل معها جميعا معاملة واحـدة، وفـق قوانينه التي لا تحابي أحدا.

إذا عرفت هذا، فاقرأ تلك الآيات الكثيرة الـتي تتحـدث عن أصحاب القلـوب الحاقـدة، والمصـير الـذي صـارت إليـه بسـبب حقدها، وأولهم أولئك الذي وصفهم اللـه تعـالى، فقـال: ﴿ ذَلِـكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُـوا رِضْـوَانَهُ فَأَحْبَـطَ أَعْمَـالَهُمْ (28) أَمْ حَسِــبَ الَّذِينَ فِي قُلُــوبِهِمْ مَــرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْــرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ [محمد: 28، 29]

فهاتان الآيتان الكريمتان تشيران إلى أن تلك الأحقاد الـتي امتلأت بها تلك القلوب المريضة التي كرمها الله بأن ترى النبوة وعظمتها ومعجزاتها، لكنها بسبب الغل الذي ملأها لم تر الحـق، ولم تـذعن لـه، بـل آثـرت سـخط اللـه على مرضـاته، إرضـاء لحقدها.

وهي تشير كذلك إلى أن الأحقاد قـد تكـون مخفيـة، أو قـد يظهر صاحبها بصورة المجادل الباحث عن الحـق، بينمـا هـو في حقيقته ليس سوى مرجل يغلي من الغـل، ولـذلك هـددهم اللـه تعالى بالكشف على حقيقتهم التي تخفيها نفوسهم، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِـيمَاهُمْ وَلَتَعْـرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَـوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 30]

وهي تشير إلى أن الحقد ـ وإن أخفاه صاحبه، أو اجتهد في إخفائه ـ سيفضحه، وسيظهر لا محالة عبر تصرفاته، وعبر ملامح وجهه، ونبرات صوته، ومواقفه، كما قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ   وإن خالها تخفى على

وبذلك، فإن الآيات الكريمة تشير إلى أن منشأ الحقد هو ذلك الغل الذي تمتلئ به القلوب، وأنه قد يظهر أو لا يظهر، وعدم ظهوره لا يعني عدمه، وإنما يعني عدم توفر البيئة المناسبة له، ولذلك فهي تدعو إلى مراقبة القلوب، حتى لا تفضح عند الاختبارات الإلهية، ومنها ذلك الاختبار الذي عبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: 36، 37]

ويذكر الله تعالى في آيات أخرى بعض ثمار ذلك الحقد، فيقول: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: 119]، فهؤلاء الحاقدين من أهل الكتاب، لم يؤمنوا بالقرآن الكريم على الرغم من معرفتهم به، بسبب ذلك الغشاء الذي غشيت به عقولهم نتيجة امتلائها بالغل والحقد والبغض.

ويخبر الله تعالى عن لجوء الحاقدين إلى النفاق والخداع لمحاولة ستر حقدهم، خاصة إذا كانوا في مواقف الضعف، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة: 204، 205]

وأخــبر عن اجتهــادهم الكــاذب في إرضــاء من يحقــدون عليهم، فقال: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَـرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُـوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُـونَكُمْ بِـأَفْوَاهِهِمْ وَتَـأْبَى قُلُـوبُهُمْ وَأَكْثَـرُهُمْ فَاسِـقُونَ ﴾ [التوبة: 8]

ولهذا حـذر المنـافقين المتملقين المخـادعين بـأن يكشـف عن الغل الذي تمتلئ به قلـوبهم، فقـال: ﴿يَحْـذَرُ الْمُنَـافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُـلِ اسْـتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 64]

وبذلك، فإن هـذه الآيـات الكريمـة تشـير إلى أن الغـل من صفات مرضى القلوب من المنافقين والمناوئين للصالحين، وأن السبب الأكبر الذي حـال بينهم وبين رؤيـة الحـق، أو اتباعـه هـو تلك البغضاء التي امتلأت بها قلوبهم.

وفي مقابــل ذلــك يصــف القــرآن الكــريم الصــادقين من المؤمنين بأنهم أصحاب قلوب سليمة طاهرة، ليس فيها غل ولا حقد ولا حسد، ولذلك يستوي ظاهرها بباطنها، كمـا قـال تعـالى عن إبـراهيم عليـه السـلام: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِـيعَتِهِ لَإِبْـرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: 83، 84]

ويذكر القرآن الكريم القانون المرتبط بذلك، وهـو مـا عـبر عنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَـعُ مَـالٌ وَلَا بَنُـونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88،ـ 89]، وقـد عقب اللـه تعـالى الآية الكريمة بذلك الجزاء العظيم الـذي ينالـه أصـحاب القلـوب السليمة، فقـال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُـرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: 90، 91]

وقد ورد في آية أخرى أنـه لا يـدخل الجنـة أحـد إلا بعـد أن يمر على محال التأديب الإلهي في البرزخ أو الموقـف أو غيرهـا

حتى تطيب نفسه، ويتخلص من الغل الذي كان يحول بينه وبين دخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِـلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي هَـدَانَا لِهَـذَا وَمَـا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُـودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]

فالآية الكريمة تشـير إلى أن اللـه تعـالى هـدى هـؤلاء بعـد فترات طويلة من التربية إلى تطهير قلوبهم من كـل آثـار الغـل إلى أن أصبحت سليمة وأهلا لدخول الجنة.

وإياك ـ أيها المريد الصادق ــ أن تتـوهم أن قلـوبهم كـانت مملوءة بالغل، ثم أُخرج منهم بماء شربوه، أو نهر اغتسلوا فيه، من غير جهد عملوه، ولا تأديب تعرضوا له.. فالأمر ليس كذلك.. ولـو حصـل ذلـك لهم لحصـل لغـيرهم، ولمـا كـان هنـاك معـنى للتكليف.

فاحــذر من تلــك التفســيرات الــتي يفســرون بهــا الآيــات الكريمـــة، والـــتي يجمعـــون فيهـــا بين الجلاد والضـــحية، وبين المظلومين والمستضعفين، فعدالة الله ورحمته تأبى ذلك.

ثم إن عليك ـ أيها المريد الصادق ـ لتستأصل كل مـا يمكن أن يثمر الحقد في قلبك أن تتناول تلك الأدوية التي وصـفها لـك ربك ونبيك ومن بعده أئمة الهـدى، وورثـة النبـوة، ليصـبح قلبـك سليما طاهرا ليس فيه غل ولا حقد على أحد من الخلق.

وأولها أن تسارع إلى دعاء ربك ليزكيـك ويطهـر قلبـك من كل ما يصرفك عنه، أو يبعـدك منـه، كمـا أخـبر اللـه تعـالى عن المؤمنين، وقولهم في دعائهم: ﴿ رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنَـا وَلِإِخْوَانِنَـا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَـانِ وَلَا تَجْعَـلْ فِي قُلُوبِنَـا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُـوا رَبَّنَـا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: 10]

وهذه الآية الكريمة تشير إلى أن الغل والحقد قد لا يكون مرتبطا بالبيئة المكانية والزمانية للنفس، بل قد يكون متغلغلا في جذور التاريخ، وأبعاد الجغرافية، ليشمل كل من يخالفها، ولو لم تربطها به أي علاقة.

ومن الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ في هذا قوله: (ربّ أعنّي ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسّر الهدى لي، وانصرني على من بغى عليّ، ربّ اجعلني لك شكّارا، لك ذكّارا، لك رهّابا، لك مطواعا، لك مخبتا، إليك أوّاها منيبا، ربّ تقبّل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبّت حجّتي، وسدّد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري[1])[2]

وثانيها أن تملأ قلبك مخافة مما ورد في النصوص المقدسة التي تذكر أن الحاقدين محجوبون بحقدهم عن ربهم، وفضله وكرمه، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (يطّلع الله إلى عباده ليلة النصف من شعبان، فيغفر للمؤمنين ويمهل الكافرين، ويدع أهل الحقد بحقدهم حتّى يدَعوه)[3]، وهذا يعني أن الحقد من موانع إجابة الدعاء، وأعظم بذلك خطرا.

وفي حديث آخر عن عائشة قالت: قام رسول الله ﷺ من الليل، فصلّى فأطال السجود حتّى ظننت أنّه قبض، فلمّا رأيت ذلك قمت حتّى حرّكت إبهامه، فتحرّك فرجع، فلمّا رفع رأسه من السجود، وفرغ من صلاته قال: (يا عائشة، أ ظننت أنّ

1() سخيمة صدري: غشه وحقده وغله.

2() الترمذي(3551) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة(3830)

3() رواه البيهقي، الترغيب والترهيب 3/ 461.

النبيّ؟ قد خـاس بك(1))، قلت: لا واللـه يـا رسـول اللـه، ولكنّي ظننت أنّـك قبضـت لطـول سـجودك، فقـال: (أتـدرين أيّ ليلـة هذه؟) قلت: الله ورسـوله أعلم، قـال: (هـذه ليلـة النصـف من شعبان، إنّ اللـه عـزّ وجـلّ يطّلـع على عبـاده ليلـة النصـف من شعبان فيغفر للمستغفرين، ويرحم المسـترحمين، ويـؤخّر أهـل الحقد كما هم)(2)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (تعرض الأعمـال يـوم الاثنين والخميس، فمن مسـتغفر فيغفـر لـه، ومن تـائب فيتـاب عليه، ويردّ أهل الضغائن بضغائنهم حتّى يتوبوا)(3)

وقـال: (تفتح أبـواب الجنّـة يـوم الاثـنين، ويـوم الخميس. فيغفر لكلّ عبـد لا يشـرك باللـه شـيئا إلّا رجلا كـانت بينـه وبين أخيه شحناء فيقال: أنظروا هذين حتّى يصـطلحا. أنظـروا هـذين حتّى يصطلحا. أنظروا هذين حتّى يصطلحا)(4)

وثانيهـــا أن تملأ قلبـــك مخافـــة ممـــا ورد في النصـــوص المقدسة التي تذكر مصير الحاقدين، وهو العذاب الشديد، فقــد جمع رسول الله ﷺ بين الحقد وجريمتين كبيرتين، همـا الشـرك والسحر، فقال: (ثلاث من لم يكن فيه واحـدة منهنّ، فـإنّ اللـه يغفر له ما سوى ذلك لمن يشاء: من مات لا يشرك بالله شـيئا، ولم يكن ساحرا يتّبع السحرة، ولم يحقد على أخيه)(5)

وفي حـديث آخـر جمـع رسـول اللـه ﷺ بين الحقـد وبعض

1() خاس بك: أي غدر بذمتك وضيّع وقت وجوده معك.

2() رواه البيهقي، والترغيب والترهيب 3/ 461 ـ 462.

3() قال المنذري في الترغيب والترهيب 1/ 459، وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورواته ثقات.

4() مسلم(2565)

5() رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

ثماره وأخـبر أنهـا جميعـا في النـار؛ فقـال: (النميمـة والشـتيمة والحميّـة فى النـار)، وقـال: (إنّ النميمــة والحقـد في النـار، لا يجتمعان في قلب مسلم)(1)

وفي مقابـل ذلـك أثـنى على من خلا قلبـه من الحقـد، بـل شهد له بدخول الجنة، فقد روي عن بعض أصحاب رسـول اللـه ﷺ أنه قال: كنّا جلوسـا مـع رسـول اللـه ﷺ فقـال: (يطلـع الآن عليكم رجل من أهـل الجنّـة)، فطلـع رجـل من الأنصـار تنطـف لحيته من وضوئه قد علّق نعليه بيـده الشـمال، فلمّـا كـان الغـد قال النبيّ ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلـك الرجـل مثـل المـرّة الأولى، فلمّا كان اليوم الثالث قال النـبيّ ﷺ مثـل مقالتـه أيضـا، فطلـع ذلك الرجل على مثل حاله الأوّل، فلمّا قام النـبيّ ﷺ تبعـه عبـد الله بن عمرو، فقال: إنّى لاحيت(2) أبي، فأقسمت أنّي لا أدخـل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتّى تمضــي فعلت، قـال: نعم، فكان عبد الله يحدّث أنّه بات معه تلك الثلاث الليــالي فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنّه إذا تعارّ تقلّب على فراشه ذكر الله عزّ وجلّ، وكبّر حتّى صلاة الفجر، قال عبد الله: غير أنّي لم أسمعه يقـول إلّا خـيرا، فلمّـا مضـت الثلاث الليـالي، وكـدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بيـني وبين أبي غضـب ولا هجـرة، ولكن سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول لـك ثلاث مـرّات: (يطلــع عليكم الآن رجــل من أهــل الجنّــة، فطلعت أنت الثلاث المرّات، فأردت أن آوي إليك، فـأنظر مـا عملـك، فأقتـدي بـك، فلم أرك عملت كبير عمل، فما الّذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلّا ما رأيت، فلمّا ولّيت دعاني فقال: (ما هو إلّا ما رأيت، غير أنّي لا أجد في نفسـي لأحـد من المسـلمين غشّـا ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إيّاه)، فقال عبد الله: (هذه

1() رواه الطبراني، الترغيب والترهيب 3/ 497، 498.

2() لا حيت: جادلت وخاصمت.

الّتي بلغت بك)[1]

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ أن أكرم الأخلاق على الله العفو والتسامح والرفق واللين، وهي الأخلاق التي تتناقض مـع الحقـد تماما، وقد روي في الحديث عن رسول الله ﷺ أنـه قـال لبعض أصحابه: (ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الـدّنيا والآخـرة؟.. تصـل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمّن ظلمك)[2]

وفي حديث آخر أن رسول اللـه ﷺ قـال في بعض خطبـه: (ألا أخـبركم بخـير خلائـق الـدّنيا والآخـرة العفـو عمّن ظلمـك، وتصل من قطعك، والإحسان إلى من أسـاء إليـك، وإعطـاء من حرمك)[3].

وأخبر عن العز الذي يناله أصحاب القلوب السليمة، فقال: (عليكم بالعفو، فإنّ العفو لا يزيد العبـد إلّا عـزّا فتعـافوا يعـزّكم اللـه)[4]، وقـال: (التواضـع لا يزيـد العبـد إلّا رفعـة، فتواضـعوا يرفعكم الله، والعفو لا يزيد العبـد إلّا عـزّا فـاعفوا يعـزّكم اللـه، والصدقة لا تزيد المال إلّا كثرة فتصدّقوا يغنكم الله)[5]

وأخبر عن موسى عليه السلام أنه قال: (يا ربّ أيّ عبـادك أعزّ عليك؟) قال: (الّذي إذا قدر عفا)[6]

1() أحمد 3/ 166.

2() أحمد ج 4 ص 148 و158 والطبراني وأحد اسنادى أحمـد رجالـه ثقـات كمـا في مجمع الزوائد ج 8 ص 189.

3() الكافي، ج 2 ص 107.

4() الكافي ج 2 ص 107 و108.

5() ابن أبي الدنيا في الصمت، وأحمد، ج 1 ص 193.

6() الخرائطي في المكارم والبيهقي في الشعب.

وأخــبر عن الكــرم العظيم الــذي ينالــه أصــحاب القلــوب السليمة، فقال: (إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجــره على الله فليـدخل الجنّـة قيـل: من ذا الّـذي أجـره على اللـه؟ قـال: العـافون عن النـاس، فيقــوم كــذا وكــذا ألفــا فيــدخلونها بغــير حساب)(1)

وهكذا كـان رسـول اللـه ﷺ يـرغب في العفـو، وفي محـو الأحقاد من القلب، والاكتفاء برؤية الله تعالى ونصره، حـتى أنـه أخبر أن: (من دعا على من ظلمه فقد انتصر)(2)

وقد جاءه بعض أصحابه يشكوه، ويقول له: (يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعـوني، وأحسـن إليهم ويسـيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلـون علي)، فقـال ﷺ: (لئن كنت كمـا تقـول، فكأنما تسفهم المل، ولا يـزال معـك من اللـه ظهـير عليهم، مـا دمت على ذلك) (3)

وجاءه آخر يشـكو مظلمـة، أمـره النـبيّ ﷺ أن يجلس، في انتظار أن يأخذ له بمظلمته، لكنـه قبـل أن يأخـذها لـه قـال لـه مرغبا في العفو: (إنّ المظلومين هم المفلحـون يـوم القيامـة)، فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث(4).

وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في ذلك، وقــد روي أنه لما فتح مكّة طـاف بـالبيت وسـعى وصـلّى ركعـتين، ثمّ أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال: (مـا تقولـون ومـا تظنّـون؟) قـالوا: (نقـول أخ وابن عمّ حليم رحيم)، فقـال رسـول اللـه ﷺ:

1() الطبراني في مكارم الأخلاق.

2() الترمذي ج 13 ص 66.

3() مسلم (2558)، وابن حبان (451) والبخاري في الأدب المفرد (52)

4() ابن أبي الدنيا في ذم الغضب.

(أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَـوْمَ يَغْفِـرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92])(1)

وحدثت عائشة قالت: (ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها قطّ مـا لم ينتهـك حرمـة من محـارم اللـه، فـإذا انتهك من محارم الله شيء كـان أشـدّهم في ذلـك غضـبا، ومـا خيّر بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ممّا لم يكن مأثما)(2)

و عن الإمام الباقر قال: (إنّ رسول اللـه ﷺ أتي باليهوديّـة الّـتي سـمّت الشـاة للنـبيّ ﷺ فقـال لهـا: مـا حملـك على مـا صـنعت؟ فقـالت: قلت: إن كـان نبيّـا لم يضـرّه وإن كـان ملكـا أرحت الناس منه، قال: فعفا رسول الله ﷺ عنها)(3)

الحسد وعلاجه:

أول المعارف التي تحتاجها ـ أيها المريد الصـادق ــ لوقايـة نفسك من داء الحسد، هو أن تعلم أنـك بحسـدك لم تعتـد على الذي حسدته فقـط، إنمـا اعتـديت قبـل ذلـك على اللـه تعـالى، لاتهامك له بسوء التدبير والتقدير والعدالة، ولهذا رحت تعــترض على نعمــه اللــه الــتي أنعم بهــا على عبــاده، والــتي لم توافــق مزاجك، ولا هواك، كما عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

أيا حاسداً لي ... أتدري على من

أسأت على الله ... لأنك لم ترض لي ما

فأخزاك ربي بأن ... وسد عليك وجوه

ولهذا، لم يتوقف حسد إبليس عند آدم عليه السلام، وإنمـا

1() الكامل لابن الاثير ج 2 ص 120.

2() مسلم، ج 7 ص 80.

3() الكافي ج 2 ص 107 و108.

راح يعترض على الله نفسه، عندما أمر بالسجود له، وما أمره الله بذلك إلا ليكشف عن حقيقته المدنسة التي كان يسترها بعبادته.

ومثلهم أولئك النفر والطوائف من أهل الكتاب الذي ما قدموا المدينة المنورة إلا لأجل النبي الموعود الذي كانوا ينتظرونه، ويستفتحون به، لكنهم عندما رأوه وعرفوه أعرضوا عنه حسدا، مع علمهم أنه مرسل من الله، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: 109]

وهكذا عندما أخبر الله تعالى عن أولئك النفر من أهل الكتاب الذين راحوا يعتبرون المشركين أهدى من المسلمين، والشرك أفضل من الإسلام، ذكر أن سبب ذلك هو حسدهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: 51] ثم بين سبب ذلك بعدها، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 53، 54]

وكل هذه الآيات تشير إلى أن اعتراض هؤلاء في الحقيقة ليس على رسول الله ﷺ، وإنما على الله تعالى لاختياره له، وهو نفس ما وقع من المشركين الذين أخبر الله تعالى عن حسدهم الشديد، وكونه السبب في إعراضهم على رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14]

وذكر في آيات أخرى تلك الاقتراحات التي كانوا يقترحونها

على الله تعالى ليرسل لهم رسولا على مزاجهم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31]، ثم عقب عليها بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32]

وهكذا، فإن الحسد هو الذي جر الأمم إلى الاعتراض على وصايا رسلها، وتعيين بدائل للخلفاء الذين ارتضوهم لها، ليبدأ الصراع بعد ذلك، والذي قد يصل إلى حد القتال، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: 213]، وقال: ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الجاثية: 17]

وبذلك، فإن الحسد ــ أيها المريد الصادق ــ هو أحبولة الشيطان الكبرى التي يملأ بها حياة الناس بالصراع، ذلك أنه مثل الحقد، يجعل صاحبه أعمى، قد يرى من كل الجهات، لكنه لا يستطيع أن يرى أبدا من الجهة التي يكون فيها محسوده.. ولذلك يبتليه الله تعالى بأن يضع له الحق في تلك الجهة.

بل إن الله تعالى أخبر أن الحسد قد يحول من الذين تربوا في حجر النبوة إلى عصابة مجرمة، فذكر قصة يوسف عليه السلام، وكيف آذاه إخوته بسبب حسدهم له، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ

أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: 8، 9]

وأخبر عما فعله أحد ابني آدم بأخيه، وكيف قتله حسدا لـه، فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]

ولـذلك، فإنـك لـو ذهبت إلى سـجلات المجـرمين والقتلـة السفاحين.. فستجد هـذا الـداء متربعـا على قلـوبهم وعقـولهم، يملي عليهم الأوامـر ويحجب عنهم الحكمـة، ويجعلهم يعيشـون عالما خاصا بهم، لا علاقة له بالواقع.

وقد أخبر الله تعالى عن تربع هذا الداء على عـرش قلـوب الذين عارضوا رسول الله ﷺ وحاربوه لا لأدلـة أو حقـائق تـبينت لهم، وإنما بسبب تلك الأمراض التي أعمت بصائرهم، كمـا قـال تعالى يصفهم، ويصف أمراضهم التي حالت بينهم وبين الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمـران: 118 - 120]

وأخـبر رسـول اللـه ﷺ أن هـذا الـداء الخطـير هـو الـذي سيكون سببا في تيه هـذه الأمـة، وانحرافهـا عن منهـاج النبـوة؛ فقال: (إذا فتحت عليكم فارس والـروم، أيّ قـوم أنتم؟) قـالوا: نقول كما أمرنا الله، نحمده ونشكره، فقال رسول اللـه ﷺ: (أو

غــير ذلــك.. تتنافســون، ثمّ تتحاســدون، ثمّ تتــدابرون، ثمّ تتباغضــون، ثمّ تنطلقــون في مســاكين المهــاجرين، فتجعلــون بعضهم على رقاب بعض)(1)

بل إن رسـول اللـه ﷺ سـمى هـذا الـداء [داء الأمم]، فهـو وجميع الأسرة التي ينتمي إليها هو السبب في الانحرافات الـتي وقعت في الأديان، فحـولت من دين اللـه إلى دين البشـر، ومن الدين المقدس إلى الدين المـدنس، ومن دين الأنبيـاء والأوليـاء إلى دين الأفاكين والدجالين، قال رسول الله ﷺ: (إنّـه سيصـيب أمّـتي داء الأمم)، قـالوا: ومـا داء الأمم؟ قـال: (الأشـر والبطـر والتكـاثر والتنـافس في الـدنيا والتباعـد والتحاسـد حتّى يكـون البغي ثمّ الهرج)(2)

وقــــال: (دبّ إليكم داء الأمم: الحســـد والبغضــــاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والّذي نفســي بيده لا تـدخلوا الجنّـة حتّى تؤمنـوا، ولا تؤمنـوا حتّى تحـابّوا، أفلا أنبّئكم بما يثبت ذاكم لكم؟ أفشوا السلام بينكم)(3)

ولذلك ربط رسول الله ﷺ بين صفاء القلب وخيرية الأمــة، فقال: (لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا)(4)

وأخبر أن المؤمن الحقيقي هو المؤمن الذي يخلو قلبه من الحسد وكل الأمراض العدوانية التي يتنافى الإيمـان معهـا، ففي الحديث أنه قيل لرسول الله ﷺ: أيّ الناس أفضل؟ فقال: (كــلّ مخموم القلب، صدوق اللسان) قـالوا: صـدوق اللسـان نعرفـه.

1() مسلم(2962)

2() قال الحافظ العراقي في الإحياء(3/ 199): أخرجه ابن أبي الدنيا، والطبراني في الأوسط بإسناد جيد.

3() الترمذي(2510)

4() قال المنذري في الترغيب والترهيب(3/ 547): رواه الطبراني ورواته ثقات.

فما مخموم القلب؟ قال: (هــو التقيّ النقيّ. لا إثم فيــه ولا بغي ولا غلّ ولا حسد)[1]

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (لا يجتمعان في النــار مسـلم قتـل كـافرا، ثمّ سـدّد وقـارب، ولا يجتمعـان في جـوف مؤمن غبار في سـبيل اللــه، وفيح جهنّم، ولا يجتمعـان في قلب عبد الإيمان والحسد)[2]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ واستيقنت به نفسك، فاعلم أن الله تعالى قد يبتليـك في أي لحظـة بـأي شـيء يـبرز حقيقتك؛ فكن حذرا أن تكون كـإبليس الـذي أبى السـجود لآدم، أو كأولئك الكتابيين الذين عرفوا الحق وجحدوه حسـدا من عنـد أنفسهم.

ولا تستبعد ذلك، فقد يكون الابتلاء في خطأ ينبهك له بعض تلاميذك، ليرى الله مدى تواضعك لقبول الحـق.. أو يبتليـك اللـه ببعض المغمورين من النـاس، أو بعض من تـرى نفسـك أفضـل منهم شأنا، ثم تراهم بعد ذلك في مناصب أفضــل من منصــبك؛ فلا تتوهم أن القدر أخطأ حين فضلهم عليك؛ فإن ذلك قد يجرك للحسد من حيث لا تشعر.

ولهذا؛ فإن الطريق الأسلم لك هــو التسـليم لربـك، وتـرك خلقــه لــه، يرفــع من يشــاء منهم، ويخفض، ويعطي من يشــاء، ويمنـع.. وبـدل أن تهتم بمن خُفض أو رفـع.. أو أعطي أو منـع.. اهتم بنفسك لتكون أهلا لفضل ربك..

ولذلك؛ فإن تحقيق التوحيد، وامتلاء القلب بالمعرفة باللــه هو الذي يحفظك من كل هذه الأدواء.. فالعـارف بربـه، لا ينظـر

1() ابن ماجة(4216)

2() مسلم(1891)

إلى شيء إلا نظر إلى الله قبله وبعده ومعه.. فلذلك لا يعترض على شيء، بل يكتفي بما كُلف به من تكاليف، ثم يترك الخلق للخالق والرزق للرازق.

والعارف بالله لا يحسد أحدا على نعمة أعطاها الله له، وكيف يحسده، وهو يرى أن كل النعم في الدنيا والآخرة لا تساوي لحظة أنس واحدة مع ربه.

والعارف لا يحسد أحدا على منصب تبوأه، وكيف يحسده، وهو يعلم أن كل المناصب لا تساوي شيئا، أمام منصب القرب من الله، وهو متاح للجميع، ولا يحال بين أحد من الناس وتبوئه.

ومما يروى عن بعض الحكماء في هذا أنه قال: (ما حسدت أحدا على شيء من أمر الدّنيا، لأنّه إن كان من أهل الجنّة فكيف أحسده على أمر الدّنيا وهي حقيرة في الجنّة؟.. وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدّنيا وهو يصير إلى النار؟)

وهكذا فإن الرؤية الحقيقية للوجود والكون، تحمي صاحبها من هذا المثلب الخطير الذي لا يقع فيه إلا أصحاب العقول الصغيرة الذين يختصرون الحياة في تلك اللحظات المعدودة، أو ذلك النعيم المحدود.

وقد روي في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (قال الله تعالى لموسى بن عمران: يا ابن عمران لا تحسدنّ الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدّنّ عينيك إلى ذلك ولا تتبعه نفسك، فإنّ الحاسد ساخط لنعمي، صادّ لقسمي الّذي قسمت بين عبادي ومن يك كذلك فلست منه وليس منّي)[1]

1() الكافي، ج 2 ص 306 و307.

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (إنّ لنعم الله أعداء فقيـل: ومن أولئـك؟ قـال: الّـذين يحسـدون النـاس على مـا آتـاهم اللـه من فضله)(1)

وعن الإمام الباقر أنـه قـال: (إنّ الرّجـل ليـأتي بـأيّ بـادرة فيكفر(2) وإنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب)(3)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فتـذكر أنـواع البلاء التي يصـاب بهـا الـذين امتلأت قلـوبهم حسـدا.. وأولهـا الحسـد نفسه، فنيرانهم تملأ حياتهم كدرا وضيقا، كمـا عـبر الشـاعر عن ذلك بقوله:

اصبر على كيد ... د فإن
كالنار تأكل ... إن لم تجد

وقال آخر:

دع الحسود وما ... يكفيك منه لهيب
إن لمت ذا حسد ... وإن سكت فقد

وقال آخر متهكما:

إن شئت قتل ... من غير مادية عليك
وبغير سم قاتل ... وعقاب رب ليس
عظيم تجاه عيونهم ... فتراهمو موتى

1() الطبراني في الأوسط.

2() البادرة: مـا يبـدر من حـدتك في الغضـب من قـول أو فعـل، وفي النهايـة: الكلام الذي يسبق الإنسان في الغضب.

3() الكافي، ج 2 ص 306.

ذوب المعادن ذوب الحسود بحر

وعبر بعض الحكماء عن ذلك فقال: (الحسـد جـرح لا يـبرأ، وحسب الحسود ما يلقى)

وقال آخر: (ما رأيت ظالما أشبه بمظلـوم من حاسـد، إنّـه يرى النعمة عليك نقمة عليه)

وقال آخر: (الحاسد لا ينال من المجالس إلّا مذمّة وذلّا، ولا ينال من الملائكة إلّا لعنة وبغضـا، ولا ينـال من الخلـق إلّا جزعـا وغمّا ولا ينال عند النزع إلّا شدّة وهولا، ولا ينال عند الموقف إلّا فضيحة ونكالا)

وروي عن الإمام الصادق أنه قـال: (الحاسـد يضـرّ بنفسـه قبل أن يضرّ بالمحسود، كإبليس أورث بحسـده لنفسـه اللّعنـة، ولآدم الاجتبـــاء والهـــدى والرّفـــع إلى محـــلّ حقـــائق العهـــد والاصطفاء، فكن محسودا ولا تكن حاسدا فـإنّ مـيزان الحاسـد أبدا خفيف بثقل ميزان المحسود، والرّزق مقسوم فمـا ذا ينفـع الحسد الحاسد؟ وما ذا يضرّ المحسود الحسـد؟ والحسـد أصـله من عمى القلب وجحـود فضـل اللـه وهمـا جناحـان للكفـر، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد وهلك مهلكا لا ينجـو منـه أبدا، ولا توبة للحاسد لأنّه مصرّ عليـه، معتقـد بـه، مطبـوع فيـه، يبدو بلا معارض بـه ولا سـبب، والطبـع لا يتغيّـر عن الأصـل وإن عولج) (1)

تأمل ـ أيها المريد الصادق ـ هذه المعـاني الجليلـة، وتفكـر فيها، واعلم أن البلاء يتربص بالحاسد في أي محل، حـتى يكـون فيـه حتفـه، كمـا كـان حتـف إبليس في حسـده، ولـولا حسـده، لترضى الناس عنه، وسـلموا عليـه، بـدل لعنـه ورجمـه والتـبري

---

(1) مصباح الشريعة، الباب الحادي والخمسون.

منه.

ومن الحكايات الـتي تحكى في هـذا مـا روي أن رجلا كـان يغشي بعض الملـوك، فيقـوم أمـام الملـك فيقـول: أحسـن إلى المحسن بإحسانه والمسيء سيكفيكه مسـاويه، فحسـده رجـل على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى الملك، فقـال: إنّ هـذا الّذي يقوم بحذائك، ويقول ما يقـول يـزعم أنّ الملـك أبخـر نتن الرائحة، فقال له الملك: فكيف يصحّ ذلك عندي؟، قال: تدعو به غدا إليك؛ فإذا دنى منك وضع يده على أنفـه، حـتى لا يشـمّ ريح البخـر، فقـال لـه الملـك: انصـرف حتّى أنظـر؛ فخـرج من عنـد الملك، ثم دعا الرّجل إلى منزله؛ فأطعمه طعاما فيه ثوم كثـير، فخرج الرّجل من عنده، وقام بحذاء الملـك، فقـال مـا تعـود أن يقوله، فقال له الملك: ادن منّي، فدنا منه، فوضع يده على فمه مخافة أن يشمّ الملك منه ريح الثوم، فقـال الملـك في نفسـه: ما أدري فلانـا إلّا صـدق، فكتب لـه كتابـا بخطّـه إلى عامـل من عمّاله، يقول له فيه: إذا أتاك حامل كتابي هذا، فاذبحه واسـلخه واحش جلده تبنـا وابعث بـه إليّ، فأخـذ الكتـاب، وخـرج، فلقيـه الرّجل الّذي سعى به، وهو لا يعلم ما حصـل من الملـك، فقـال: ما هذا الكتاب؟ فقال الرجل: خطّ الملك أمر لي بصـلة، فقـال: هبـه لي، فقـال: هـو لـك، فأخـذه ومضـى إلى العامـل، فقـال العامل: في كتابك أن أذبحـك وأسـلخك، قـال: إنّ الكتـاب ليس لي، فاللـه اللـه في أمـري حتّى تراجـع إلى الملـك، قـال: ليس لكتاب الملك مراجعة، ففعل به ما طلبه الملك، ثمّ عـاد الرّجـل إلى الملك كعادته، وقال مثل قوله فتعجّب الملك وقال: ما فعل الكتاب؟ فقـال: لقيـني فلان فاسـتوهبه منّي فوهبتـه لـه، فقـال الملك: إنّه ذكر لي أنّك تـزعم أنّي أبخـر؟ قـال: مـا قلت ذلـك، قال: فلم وضعت يدك على أنفك؟ قـال: كـان أطعمـني طعامـا فيه ثوم فكرهت أن تشمّه، قال: صدقت ارجع إلى مكانـك فقـد

كفاك المسيء مساويه.

هذه ليست مجرد حكاية ـ أيها المريـد الصـادق ـ للتسـلية، وإنما هي الحقيقة التي قد لا تظهر لـك بنفس الصـورة، ولكنهـا حتما ستظهر؛ فيسـتحيل على من امتلأ قلبـه بنـيران الحسـد ألا تشـتعل فيـه؟.. وهـل يمكن لمن دخـل في وسـط النـيران ألا يحترق؟

واعلم ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ أن أول مـا تحرقـه نـيران الحاسد هي تلك الحسـنات الـتي بـذل كـل جهـده في الحصـول عليها، والتي هي زاده الذي يرحل به إلى الآخـرة، وقـد ورد في الحـديث قولـه ﷺ: (الحسـد يأكـل الحسـنات كمـا تأكـل النـار الحطب)(1)

إذا علمت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاجتهد لأن تقمـع داء الحسـد من قلبـك قبـل اسـتفحاله، وخروجـه إلى الخـارج ليملأ حياتك وحياة من حسدتهم بالنكد والغصص، فما قتـل قاتـل، ولا أجرم مجرم إلا بسبب هذه الأدواء الخبيثة.

وقد كتب بعض الحكماء إلى مريد له شكا حالة عرضت لـه جعلته يقع فيها في حسد بعض الناس، فقـال لـه ناصـحا: (إيـاك أن تترك للحسد التحكم فيك وفي تصرفاتك.. فاقمعها؛ فإنك إن فعلت ذلـك طهـرك اللـه من باطنـه، كمـا طهـرت سـلوكك من ظاهره)

فكتب لـه المريـد يستفسـره عن كيفيـة ذلـك، فكتب لـه يقول: (من خاف على نفسه الحسد، ومقتضياته فعليه أن يكلّف نفسه نقيضه، فـإن بعثـه الحسـد على القـدح فيـه كلّـف لسـانه المدح له والثناء عليه، وإن حمله على التكبّر عليـه ألـزم نفسـه

(1) ابن ماجه رقم 4210.

التواضع له والاعتذار إليه، وإن بعثه على كفّ الإنعام عنه ألزم نفسه الزّيادة في الإنعام، فمهما فعل ذلك عن تكلّف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبّه ومهما ظهر حبّه عاد الحاسد وأحبّه وتولّد بينهما الموافقة الّتي يقطع مادّة الحسد، لأنّ التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستميل قلب المنعم عليه ويسترقّه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان ثمّ ذلك الإحسان يعود إلى الأوّل فيطيب قلبه فيصير ما تكلّفه أوّلا طبعا آخرا) (1)

وكتب له في آخر رسالته يقول له: (ولا يصدّنّه عن ذلك قول الشيطان له: لو تواضعت وأثنيت عليه حمله العدوّ على العجز أو على النفاق والخوف، وإنّ ذلك مذلّة ومهانة، فإنّ ذلك من خدع الشيطان ومكايده، بل المجاملة تكلّفا كان أو طبعا تكسّر سورة العداوة من الجانبين وتقلّ من عزّتها، ويعود القلب إلى التآلف والتحابّ، وبه يستريح القلب من ألم الحسد وغمّ التباغض) (2)

ثم ختم رسالته له بقوله: (فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جدّا إلّا أنّها مرّة جدّا، لكن النفع في الدّواء المرّ، فمن لم يصبر على مرارة الدّواء لم ينل حلاوة الشفاء، وإنّما يهون مرارة الدّواء والتواضع للأعداء والتقرّب إليهم بالمدح والثناء بقوّة العلم بالمعاني الّتي ذكرناها وقوّة الرّغبة في ثواب الرّضا بقضاء الله وحبّ ما أحبّه الله، وعزّة النفس وترفّعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل، وعند ذلك يريد ما يكون، إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات المراد ذلّ وخيبة ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذّلّ إلّا بأحد أمرين إمّا

1() إحياء علوم الدين (3/ 199)

2() المرجع السابق، (3/ 199)

أن يكون ما يريـد أو بـأن يريـد مـا يكـون، والأوّل ليس إليـك ولا مـدخل للتكلّـف والمجاهـدة فيـه. وأمّـا الثـاني فللمجاهـدة فيـه مــدخل وتحصــيله بالرّياضــة ممكن، فيجب تحصــيله على كــلّ عاقل، هذا هو الدّواء الكلّي) [1]

هذه وصيتي إليك ـ أيها المريد الصـادق ــ فاسـع لتنفيـذها، واحـترس لنفسـك، وضـع تلـك النصـوص المقدسـة بين عينيـك دائمـا، حـتى لا تـأتي يـوم القيامـة مفلسـا، وقـد حُـرقت جميـع حسـناتك، أو وزعت على من حسـدتهم، فتزيـد من نعيمهم في الآخرة، بعد أن عشت مكدرا بنعيمهم في الدنيا.

1() المرجع السابق، (3/ 199)

السخرية والاستهزاء

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن السخرية والاستهزاء، والمنابع التي ينبعان منها، والثمار التي يثمرانها، وسر تلك النصوص المقدسة الكثيرة التي تتحدث عنهما، وكيفية علاجهما.

وغيرها من أسئلتك الكثيرة الوجيهة التي لا يمكن لمريد طريق الله أن يزكي نفسه من دون أن يعلم علمها، ليسلك السبل التي تطهر نفسه منها.. فالله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب، وطاهر لا يقبل إلا الطاهر.

وقد أحسنت ـ أيها المريد الصادق ـ بإشارتك للنصوص المقدسة، واهتمامها الكبير بهذا الجانب، وهو ما يدعونا إلى إعطاءه حقه من الاهتمام؛ فهي مقدسة في حروفها وكلماتها، كما أنها مقدسة في كل الجوانب التي تعرضت لها، وفي المدى الذي تعرضت لها فيه.

ولذلك تعامل معها الحكماء والصالحون باعتبارها موجهة لكل الأجيال، وليست خاصة بجيل دون جيل، وهي إن تحدثت عن قوم من الأقوام الهالكين لم تقصدهم فقط، وإنما قصدت التحذير من أفعالهم، وبيان السنن التي جرت عليهم، والقوانين الإلهية التي نفذت أحكامها فيهم، حتى تكون عبرة للمعتبرين.

وقبل أن أحدثك ـ أيها المريد الصادق ـ عنهما، وعن منابعهما، والنصوص المقدسة الواردة فيهما، أنبهك إلى ما كنت نبهتك إليه سابقا، وهو أن تطلب الحقائق من خلال المعاني، لا من خلال الألفاظ، ولذلك لا ينبغي أن تهتم كثيرا بهذه الألفاظ، وهل هي مترادفة أم لكل منها معناه الخاص، وعن ذلك المعنى

الخاص[1].. فقد ورد الخلاف في ذلك جميعا.. لكنهم لم يختلفوا في المعاني، وهي المرادة المقصودة؛ فضع كل اهتمامك فيها، واجعل كل همتك لها.

ولتفهم المعاني المرتبطة بهما، ومن خلالهما يمكنك أن تعرف معناهما، أو معنى كل واحد منهما، فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13]، فهذه الآية الكريمة تشير إلى المنابع التي ينبع منها الاستهزاء والسخرية والتهكم والتحقير وغيرها من المثالب.. ذلك أنها عقبت بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14]

فالآيتان الكريمتان تشيران إلى أن ذلك التحقير والاستهزاء، وما ينتج عنهما من سخرية وهجاء وتهكم وغيرها، تنبع من اعتقادهم بأن الإسلام دين السفهاء، لا دين العقلاء.. وبذلك كان لرؤيتهم أثرها في نفوسهم وسلوكهم ومواقفهم.

ولتفهم ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ تخيل أنك أمام مهرج يضحك الناس، فأنت تنظر إلى تصرفاته باعتبارها تصرفات هزلية لا تؤخذ مأخذ الجد، ولذلك لا تعطيها أي قيمة، بل تكتفي بالضحك عليها، وتسلية النفس بها.

وهكذا فعل المستهزئون والساخرون بالرسل عليهم

1() الخلاف في السّخرية والاستهزاء والفرق بينهما، مثل الخلاف في الإسلام والإيمان والفرق بينهما، ولذلك ذهب الكثير إلى أن السخرية والاستهزاء معناهما واحد [انظر مثلا: الصحاح للجوهري(1/ـ 83) حيث فسر الاستهزاء بالسخرية، وغذاء الألباب للسفاريني 1/ـ 131] وعلى ذلك فسّر كثيرون: السّخرية بالاستهزاء [انظر مثلا، تفسير ابن كثير 4/ 4 حيث فسر يستسخرون ب« يستهزئون»]، لكن هناك من وجود فرق بينهما، ويتمثّل في أنّ الهزء: هو إظهار الجدّ وإخفاء الهزل فيه [التوقيف على مهمات التعاريف ص 343]، أمّا السّخرية فإنّها تكون بالفعل أو بالإشارة، وذكروا أن هناك فرقا بينهما من جهتين: الأولى السّخرية تكون بالفعل وبالقول، والهزء لا يكون إلّا بالقول، الثّانية: أنّ السّخرية يسبقها عمل من أجله يسخر بصاحبه، أما الاستهزاء فلا يسبقه ذلك [انظر الفروق لأبي هلال العسكري ص 249]

الصلاة والسلام؛ فقد نظروا إليهم بكـل احتقـار، وتعـاملوا معهم بكل ما يثمره ذلك من تصرفات.

ولذلك قرن اللـه تعـالى المسـتهزئين بـاللاعبين والعـابثين، فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِـذُوا الَّذِينَ اتَّخَـذُوا دِينَكُمْ هُـزُوًا وَلَعِبًـا مِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَـاءَ وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُــؤْمِنِينَ [المائــدة: 57]، ثم ذكــر بعض مظــاهر ذلك، فقال: وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَـذُوهَا هُـزُوًا وَلَعِبًـا ذَلِـكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ [المائدة: 58]

فهـؤلاء العـابثين لم ينظـروا إلى الصـلاة باعتبارهـا وسـيلة التقـــرب إلى اللـــه، فيســـتعينوا بهـــا على أنفســـهم وتزكيتهـــا وتطهيرها، وإنما نظروا إليها باعتبارها مجرد تسـلية ولعبـة مثـل سائر اللعب التي يضيعون فيها أوقاتهم.

وقد نعتهم الله لذلك بكـونهم [لا يعقلـون]، وهي تـدل على المنبـع الـذي صـدر منـه ذلـك الاسـتهزاء، وهـو عـدم اسـتعمال العقـل.. وهم يشـبهون في ذلـك التلميـذ الكسـول الـذي يتهكم على الأســتاذ حين يشــرح دروســه، ويتســلى مــع أمثالــه من المشـاغبين بهـا، دون أن يعطيهـا حقهـا من الفهم والاسـتيعاب، ولذلك لا يتمكن من فهمها، ولا استيعابها.

فالشــرط الأول للفهم والاســتيعاب وإدراك الحقــائق هــو التعامـل معهـا بجديـة، فلا يمكن لغـير الجـاد، أن يفهم شـيئا، أو يدرك أي حقيقة.

وهذا هو الفرق بين الحكماء والعلمـاء وغـيرهم؛ فالحكمـاء والعلماء ينظرون إلى الظواهر بجدية واهتمـام، ولـذلك يبحثـون فيها إلى أن تدلهم على الحقائق المختفية وراءها، بخلاف الـذين لا يعملون عقولهم، والذين ينظرون إلى الأشـياء نظـرة قاصـرة

محدودة، ولذلك لا يستفيدون منها إلا قليلا.

وإن شئت مثلا على ذلك، فاقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: 26]

فهذه الآية الكريمة تشير إلى أن المؤمنين يهتمون بكل ما ورد في النصوص المقدسة من حقائق، حتى لو تعلقت بذبابة أو بعوضة أو عنكبوت أو نملة أو نحلة، لأنهم يعبرون منها إلى غيرها.. أما أصحاب العقول الصغيرة؛ فيتركون العبور، ويكتفون بالحروف يرددونها، ويسخرون منها.

وقد ذكر الله تعالى مثالا لذلك ببني إسرائيل حين أمرهم موسى عليه السلام بذبح البقرة، وبدل أن ينظروا إليه كنبي معصوم يتلقى وحي الله، ويستحيل عليه أن يكذب أو يعبث، راحوا ينظرون إليه نظرة أخرى، تنبع من عقولهم الصغيرة التي تعودت أن ترى كل شيء بصورة اللاعب العابث، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة: 67]

ولذلك بدل أن يسرعوا لتطبيق الأمر الإلهي، ويختاروا أي بقرة، راحوا يسألون، ويعبثون في أسئلتهم.. وقد شاء الله أن يمدهم في ذلك بما تشتهيه أنفسهم، وبدل أن يكون تكليفهم بسيطا محدودا صار ثقيلا مكلفا.

وإن شئت ـ أيها المريد الصادق ـ مثالا يقرب لك هذا، ويبسّطه، فاذكر قصة نيوتن مع التفاحة، والتي جلب انتباهه

سقوطها إلى الأرض، وعدم سقوطها في جهة أخرى غير جهة الأرض، وقد أوحى له ذلك الاهتمام وعدم التحقير إلى تساؤلات كثيرة جرته الإجابة عليها إلى اكتشاف قوانين الجاذبية، وقوانين أخرى ساهمت في نشأة الفيزياء المرتبطة بنيوتن وتفاحته، وكان لذلك كله أثره في الثورة الصناعية الكبرى، والتي استطاعت بعد ذلك كله أن تخرج أوروبا من عصور التخلف لتزج بها في عصر النهضة الحديثة.. ولا تزال أوروبا والعالم أجمع ينعمان ببركات تفاحة نيوتن إلى يوم الناس هذا.

هذا كله من بركات التعامل بجدية مع تفاحة سقطت إلى الأرض.. فكيف بالتعامل الجاد مع الأنبياء والمرسلين وحقائق الوجود الكبرى.

ولذلك أمر الله تعالى بأخذ الكتاب بقوة، قال تعالى مخاطبا يحي عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12]

وقال مخاطبا موسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف: 145]

وأمر بني إسرائيل بأن يأخذوا الكتاب بقوة، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63]

لكنهم لم يفعلوا، لأنهم كانوا ينظرون إلى الدين باعتباره مجرد تسلية، ولذلك أخبر الله تعالى عن ذلك الدين الجديد الذي ابتدعوه لأنفسهم بعد غياب موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ

خُـوَارٌ أَلَمْ يَـرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْـدِيهِمْ سَـبِيلًا اتَّخَـذُوهُ وَكَـانُوا ظَالِمِينَ (148) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَـا وَيَغْفِـرْ لَنَـا لَنَكُـونَنَّ مِنَ الْخَاسِـرِينَ (149) [الأعراف: 148، 149]

ومثلهم أولئك المشركون الـذين كـانوا يزعمـون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام، بينما لم يكن دينهم سوى ذلــك العبث الذي كانوا يمارسونه عند المسجد الحـرام، قـال تعـالى: وَمَـا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً [الأنفال: 35]

إذا وعيت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن المنبـع الأكبر للسخرية والاستهزاء والتحقـير وغيرهـا هي تـوهم النفس أنها مركز الحقائق والقيم وأنها وحدها من يعطي للأشياء قيمهـا ومقاديرها.. لذلك تعظم ما تشاء، وتحقر مـا تشـاء.. وتكـرم من تشاء.. وتسخر بمن تشاء.. من دون أي ضابط عقلي صحيح.

ويمكنك أن تفهم هذا المعنى من خلال الآية الكريمة التي نهت عن السخرية، والتي يقول الله تعالى فيها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [الحجرات: 11]

فهـذه الآيـة الكريمـة لا تكتفي بتحـريم السـخرية وتوابعهـا وثمارهـا، بـل تضـم إلى ذلـك المنبـع النفسـي لهـا، وهـو تـوهم الساخر أنه خير من الـذي يسـخر منـه، وبـذلك يـتيح لنفسـه أن يحتقـره ويسـتهزئ بـه وباسـمه ولقبـه، ليجعلـه مـادة للضـحك والتسلية.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فـاعلم أن الاسـتهزاء

والسخرية قد يرتبط بالأشخاص والطوائف، أو بالحقائق والقيم، وقد يمتد إلى أي شيء في الكون، كما قـال بعض الحكمـاء: (لا تحتقر أحدا ولا شيئا من خلـق اللـه، فـإن اللـه مـا احتقـره حين خلقه)

ولهذا ذكر الله تعالى الكلب عند ذكره لأهل الكهـف، وذكـر الحمار عند ذكره لعزير.. وذكـر حـديث النملـة والهدهـد وغيرهـا من الحيوانات التي سـخر المشـركون من ذكـر القـرآن الكـريم لها.. وهو دليل على عدم معـرفتهم باللـه.. وإلا فـإن كـل شـيء بالنسبة لله تعالى واحد.. فخلـق السـموات والأرض مثـل خلـق نملة وبعوضة.. كلها بأمر واحـد، كمـا قـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَـا قَوْلُنَـا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحـل: 40]، وقـال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: 50]

ولهـذا، فـإن أولئـك الملاحـدة الـذين يحتقـرون الأديـان، ويسخرون من المتـدينين، ويـذكرون لهم أثنـاء سـخريتهم سـعة الكون، وكون الأرض لا تساوي بالنسبة له شـيئا، وأنهـا أقـل من أن تكـون محـل عنايـة إلهيـة.. لا يعرفـون اللـه، ولا يعرفـون أن المبدع العظيم لا يتخلى عن أي جزء في كونه، ولو كان صغيرا.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لمـا سـأورده لك من الأدوية التي تجعلك تنظـر إلى الكـون والأشـياء والخلـق والحقائق نظرة أخرى، مملوءة بالتقـدير، لتضـع كـل شـيء في محلـه الصـحيح، وحينهـا لن تقـع في هـذا المثلب الخطـير، ولا المثالب التي تتولد عنه.

العلاج المعرفي:

أول علاج تنطلق منه ـ أيها المريد الصادق ـ لحماية نفسك من الاستهزاء والسخرية والتحقير وكل ما يتولد عنها من جرائم

هـو أن تعلم أن مقـادير الأشـياء وحقائقهـا ومآلاتهـا بيـد اللـه، لا بيدك..

وحين تنظر إلى الأشياء بهذا الاعتبار تصبح هينا لينـا.. حـتى عند سيرك على تراب الأرض، تخفف الوطء، ولا تسير مستكبرا ولا مستعليا عليـه، لأن الـذين اسـتعلوا عليـه صـاروا يتمنـون أن يكونوا مثله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَـا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًـا﴾ [النبـأ: 40]

ولهذا وصف اللـه تعـالى المؤمـنين بـالهون والتواضـع عنـد سيرهم، فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًـا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقـان: 63]، ونهى عن ذلك المـرح الـذي يبديـه المسـتكبرون المختـالون، فقـال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًـا إِنَّكَ لَنْ تَخْـرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُـغَ الْجِبَـالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37]

وهكـذا، فـإن المـؤمن لا يحتقـر شـيئا من خلـق اللـه، بـل يتواضع له، ويتأدب بآداب العبودية بين يديه، وقـد روي عن عبـد الله بن مسعود أنه قال: (البلاء موكّل بـالقول، لـو سـخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبا)(1)، وقال آخر: (لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل الّذي صنع)

وروي عن بعض الصالحين ـ وقد كان من الفقهاء والعلمـاء ـ أنه بينمـا كـان يمشـي في يـوم شـات كثـير الطين، فاسـتقبله كلب يمشي على الطريق التي كان عليها، فقـال من رآه: رأيت الشيخ قد لصق بالحائـط وعمـل للكلب طريقـا ووقـف ينتظـره ليجوز، فلما قرب منه الكلب ترك مكانه الـذي كـان فيـه ونـزل

---

(1) تفسير القرطبي ج 16 ص 325 وانظر الاثر الاخير عن ابن مسعود في نزهة الفضلاء 1/ 85. وتفسير البحر المحيط 8/ 112.

أسفل وترك الكلب يمشي فوقه، قال: فلما جاوزه الكلب وصلت إليه فوجدته وعليه كآبة، فقلت له: يا سيدي رأيتك الآن صنعت شيئا استغربته، كيف رميت بنفسك في الطين، وتركت الكلب يمشي في الموضع النقي؟ فقال لي: (بعد أن عملت له طريقا تفكرت، وقلت: ترفعت على الكلب، وجعلت نفسي أرفع منه، بل هو واللّه أرفع مني وأولى بالكرامة، لأني عصيت اللّه تعالى وأنا كثير الذنوب والكلب لا ذنب له، فنزلت له عن موضعي وتركته يمشي عليه، وأنا الآن أخاف من اللّه ألا يعفو عني، لأني رفعت نفسي على من هو خير مني) [1]

وما فعله هذا الصالح يدلك على الطريق الذي تتخلص به من كل تحقير لغيرك.. فهذا الكلب، وإن كان في مرتبة أدنى من الإنسان، لكنه ليس كذلك بالنسبة لكل الناس، فالذي لم يتحقق بإنسانيته، ولم يطع الله تعالى، ولم يلتزم حدوده، سيكون الكلب في مرتبة أعلى منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]، وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 44]

ولهذا، فإن الصادق مع نفسه، الذي يعلم أنه لا يمكنه أن يعرف مصيره ما دام في هذه الدنيا، يتعرض لاختباراتها، ولا يعرف مرتبته عند الله، وهل هو من المرضي عنهم، أم من المغضوب عليهم، وهل سيصير إلى الجنة أم إلى النار.. يبقى دائما محتاطا خائفا حذرا، ولهذا يتواضع لكل شيء.. لأنه يخاف أن يحتقر شيئا، ثم يكون يوم القيامة فوقه.

[1] () إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص: 470

ولهذا أخبر الله تعالى عن أولئك الذين كانوا يســخرون من المؤمنين في الـدنيا، أو من بعضـهم، ويتوهمـون أنهم في النـار، لكنهم يفاجؤون أنهم في الجنة، وأن النار الـتي كـانوا يتوعـدون بها غيرهم، صارت منزلهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَـا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْـرَارِ (62) أَتَّخَـذْنَاهُمْ سِـخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ [ص: 62، 63]

وقـال حاكيـا عن أسـاليب السـخرية والاحتقـار الـتي كـانوا يمارســونها معهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُــوا كَـانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُــوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَـرُّوا بِهِمْ يَتَغَـامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُـوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَـالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33)﴾ [المطففين: 29 - 33]

وفي نفس الوقت ذكر أولئك المؤمنين الذين تعرضوا لكـل ألوان السخرية والاسـتهزاء في الـدنيا، وكيـف أنهم ﴿مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُـوِّبَ الْكُفَّارُ مَـا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)﴾ [المطففين: 34 - 36]

ولهذا خاطب نوح عليه السلام قومه الذين كانوا يســخرون من صـنعه للسـفينة، ويقـول لهم: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْـخَرُ مِنْكُمْ كَمَـا تَسْـخَرُونَ (38) فَسَـوْفَ تَعْلَمُـونَ مَنْ يَأْتِيـهِ عَـذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ [هود: 38، 39]

ولم يكن نوح عليه السلام وحده من سخر به، بـل إن اللــه تعــالى أخــبر أن المنــاوئين للأنبيــاء جميعــا اتخــذوا السـخرية والاسـتهزاء أسـلوبهم في التعامـل معهم، وهـو مـا حـرمهم من الاستفادة منهم، أو تقليب النظر فيما يدعونهم إليه، قال تعالى: ﴿يَـا حَسْـرَةً عَلَى الْعِبَـادِ مَـا يَـأْتِيهِمْ مِنْ رَسُــولٍ إِلَّا كَـانُوا بِـهِ يَسْـتَهْزِئُونَ ﴾ [يس: 30]، وقـال: ﴿وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

[الحجر: 10، 11]

وأخبر أن تلك السخرية هي التي طبعت على قلوبهم، وحالت بينهم وبين رؤية الحق، أو اتباعه، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: 12 - 15]، وقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: 41، 42]

ولهذا كان جزاء الساخر والمستهزئ أن يعامل بمثل معاملته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 14، 15]

وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (إنّ المستهزئين بالنّاس يفتح لأحدهم باب إلى الجنّة، فيقال لهم: هلمّ؛ فيجيء بكربه وغمّه، فإذا جاءه أغلق دونه فلا يزال كذلك حتّى إنّ أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنّة فيقال له: هلمّ فلا يأتيه من الإياس) (1)

بل إن رسول الله ﷺ أخبر بأن هذا النوع من العقوبة قد يتحقق في الدنيا قبل الآخرة، فقال: (لا تظهر الشّماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك)(2)

وفي حديث آخر قال ﷺ: (من عيّر أخاه بذنب لم يمت

1() رواه البيهقي

2() الترمذي (2506) وقال: هذا حديث حسن غريب.

حتّى يعمله) (1)

وقد قال الشّاعر معبرا عن هذا المعنى:

إذا ما الدّهر جرّ   كلاكله أناخ

فقل للشّامتين بنا   سيلقى الشّامتون

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فضع نفسك دائما موضع اختبار، وحاسبها قبل أن تحاسب.. واعلم أن الله قد يبتليك في أي لحظة بأضعف مخلوقاته، وأحقرهم في عينك، ليرى حقيقتك، مثلما فعل مع الشيطان حين اختبره بالطين التي كان يتوهم أنه أفضل منها.

وتذكر دائما ما قاله إمامك الإمام علي، فقد قال: (إن الله أخفى أربعة في أربعة: أخفى رضاه في طاعته، فلا تستصغرن شيئا من طاعته، فربما وافق رضاه وأنت لا تعلم، وأخفى سخطه في معصيته، فلا تستصغرن شيئا من معصيته، فربما وافق سخطه معصيته وأنت لا تعلم، وأخفى إجابته في دعوته، فلا تستصغرن شيئا من دعائه، فربما وافق إجابته وأنت لا تعلم، وأخفى وليه في عباده، فلا تستصغرن عبدا من عبيد الله، فربما يكون وليه وأنت لا تعلم) (2)

تأمل ـ أيها المريد الصادق ـ ففيها كل الأدوية التي تحفظ قلبك من الوقوع في هذا المثلب الخطير.. فهو ينبهك إلى أن الله تعالى أخفى رضاه في شريعته.. ولذلك لا تحقر، ولا تستصغر أي حكم من أحكامها، أو قيمة من قيمها، وقد قال رسول الله ﷺ: (اتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة، فمن لم يجد شقّة

1() الترمذي (2505) وقال: حسن غريب.

2() وسائل الشيعة: 1 / 87.

تمرة فبكلمة طيّبة) (1)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ: (بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثمّ خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثّرى من العطش فقال الرّجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الّذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفّة ثمّ أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له)، قالوا: يا رسول الله، وإنّ لنا في البهائم أجرا؟، فقال: (في كلّ ذات كبد رطبة أجر) (2)

وقال ﷺ: (تلقّت الملائكة روح رجل ممّن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئا؟ قال: لا. قالوا: تذكّر. قال: كنت أداين النّاس فامر فتياني أن ينظروا المعسر ويتجوّزوا عن الموسر. قال: قال الله عزّ وجلّ: تجوّزوا عنه) (3)

ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن احتقار أي عمل صالح، فقال: (لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق) (4)، وفي رواية: (ولا تحقرنّ شيئا من المعروف، وأن تكلّم أخاك، وأنت منبسط إليه وجهك إنّ ذلك من المعروف) (5)

وقال مخاطبا النساء: (يا نساء المسلمات، لا تحقرنّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة) (6)

1() رواه البخاري- انظر الفتح 6 (3595)

2() البخاري [فتح الباري]، 10 (6009) واللفظ له، ومسلم (2244)

3() البخاري [فتح الباري]، 4 (7702) ومسلم (1560)

4() مسلم (2626)

5() أبو داود (4084)

6() البخاري [فتح الباري]، 10 (6017) ومسلم (1030)

وقـال ــ جامعـا بين المحتقـرات من الأعمـال الصـالحة، وغيرها ـ: (عرضت علي أعمـال أمـتي حسـنها وسـيئها فوجـدت في محاسـن أعمالهـا الأذى يمـاط عن الطريـق، ووجـدت في مساوئ أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن) [1]

وأخـبر عن الأعمـال السـيئة، وكيـف يـدخل الشـيطان من خلال احتقارها والاستهانة بها ليخرب كل ما بناه الإنسان، فقال: (ألا وإنّ الشّـيطان قـد أيس من أن يعبـد في بلادكم هـذه أبـدا، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقـرون من أعمـالكم فسيرضـى بـه) [2]، وهـو لا يرضـى بـه إلا لأنـه يعلم أنـه يمكن أن يـؤثر في الإنسان من خلاله.

وتعاملك ـ أيها المريد الصادق ــ مـع الطاعـات والمعاصـي بهذه المعايير النبوية، يدعوك إلى التعامل مع الخلق بهـا أيضـا.. فأنت مطالب معهم بإقامـة شـريعة ربـك، ونصـيحتهم، وأمـرهم بـالمعروف ونهيهم عن المنكـر، ولسـت مطالبـا بـالحكم عليهم، فقد يكون وعي أولئك الذين تعلمهم وتوجههم أفضل من وعيك، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (بلغوا عني ولا تكذبوا فرب مبلـغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) [3]

وتذكر ـ أيها المريد الصادق ـ قصة السحرة، ولا تغفل عنها أبدا، فالله مـا كـرر ذكرهـا في القـرآن الكـريم إلا لتعتـبر بهـا.. فأولئـك السـحرة الـذين قضـوا عمـرهم في خدمـة فرعـون والشرك بالله تحولوا بين عشـية وضـحاها إلى أوليـاء صـادقين، وماتوا شهداء بين يدي نبيهم، في نفس الوقت الذي تحـول فيـه بلعم بن باعوراء ذلك العالم الذي انسلخ من آيات اللـه، فتحـول

1() مسلم (553)

2() الترمذي (2159) وقال: حسن صحيح. واللفظ له، ابن ماجة (3055)، أحمد (3/ 499)

3() أبو داود (3660) 3/ 322، والترمذي، (2656) 5/ 33، والدارمي (228) 1/ 86.

إلى كلب يلهث.

العلاج السلوكي:

إذا عرفت كل هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فالتزم أحكام ربك في التعامل مع الأشياء والأكوان والخلق، ولا تتجاوزها، فإذا عظمت شيئا عظمته باسم الله، وإذا حقرته حقرته باسم الله، لا باسمك.. حتى إذا ذبحت الذبيحة، فاذبحها، وأنت مطأطئ الرأس معتذرا لها، بأنك لم تفعل ذلك إلا باسم الله، وبإذنه.. حتى لا تكون مجرما بذبحك لها، معتقدا أنك أفضل منها، وأن عليها أن تسلم لحمها لك لتأكلها.

وهكذا.. إياك أن تكون من أهل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)﴾ [الهمزة: 1 - 9]

فما ورد في هذه السورة الكريمة من العقاب الشديد ليس مرتبطا بالأخنس بن شريق، أو غيره من المشركين الذين كانوا يسخرون من رسول الله ﷺ، وإنما هو عام لكل من يعيب الخلق، ويتخذهم مادة للتسلية والعبث.

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تسمي أحدا بغير الاسم الذي اختاره لنفسه، وتسخر منه بذلك، فقد ورد التحذير الشديد من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: 11]

واسمع لرسولك ﷺ، وهو يحذرك من احتقار المسلم،

فيقول: (المسلم أخو المسلم، لا يخونـه، لا يكذبـه، ولا يخذلـه، كل المسلم على المسـلم حـرام عرضـه ومالـه ودمـه، التقـوى هاهنا، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم) (1)

ونهي رسـول اللـه ﷺ عن احتقـار المسـلم لا يعـني إباحـة احتقار غيره، فالمسـلم مطـالب بـأن يحـترم جميـع خلـق اللـه، ويؤلف قلوبهم، ويتعامل معهم بما يقتضيه التواضع والعبودية.

وتخصيص رسـول اللـه ﷺ المسـلم بـذلك مرتبـط بخطابـه للمجتمـع المسـلم، وكأنـه يقـول لهم: كيـف تجـيزون لأنفسـكم احتقار من لا يشاركهم في الإنسانية فقط، وإنمـا يشـارككم في الإسلام أيضا؟

ولهـذا عنـدما أرسـل رسـول اللـه ﷺ رسـائله إلى الملـوك والأمـراء غـير المسـلمين خـاطبهم بكـل لطـف، وقـد قـال في رسالته إلى ملك الروم،: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسـلم يؤتـك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسـيين، و﴿قُـلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64] ([4]) (1)

انظر كيف خاطب رسول الله ﷺ ملك الروم، وبذلك الأدب واللطف، وقد سماه عظيم الروم، ولم يسمه كلبهم، كمـا فعـل أولئـك المحرفـون المبـدلون الـذين راحـوا يسـتحلون أعـراض غيرهم، بحجة كونهم غير مسلمين.

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ بعد هـذا أن تحـاكي أحـدا من

1() أبو داود (4882)، وابن ماجه (3933)، والترمذي (1927) وقال: «حديث حسن غريب»

خلق الله تسخر منه بذلك، وقد روي أنه ﷺ قال لعائشة عندما وصفت إحدى النساء بالقصر: (يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته)، وقالت: وحكيت له إنساناً ــ أي قلدته في حركته أو صوته أو نحو ذلك ــ فقال: (ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا) [1]

هذه وصيتي إليك ـ أيها المريد الصادق ـ فاحفظها، وتأدب بآداب العبودية، فهي وحدها من يحميك من هذا المثلث الخطير الذي قد تبتلى به من حيث لا تشعر.. فكن حذرا، والتزم التقوى، واستعن بالله ليحميك منه، وإياك أن تبادل من سخر منك أو استهزأ بك بمثل معاملته، فتستحلي نفسك ذلك، فيترسخ هذا الخلق فيك، ويصعب عليك بعدها التخلص منه.

1() أبو داود والترمذي.

حصائد الألسن

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن اللسان وعلاقته بالنفس الأمارة، وكيف يمكنه أن يتخلص من تحكمها فيه، وسيطرتها عليه، وعن أولئك الذين راحوا يضعون الحجارة في أفواههم حتى يتدربوا على الصمت، وعن مشروعية ذلك، وأسئلة أخرى كثيرة لها علاقة باللسان، ربما أجيبك عنها في رسائل لاحقة.

وقبل أن أجيبك عن أسئلتك أحب أن أبين لك أن اللسان جارحة من الجوارح الخاضعة للنفس، وهي تتحكم فيه بحسب المرتبة التي تنزل فيها، فإن كانت نفسا أمارة أمرته بالصمت في الوقت الذي يجب فيه الكلام، وبالكلام في الوقت الذي يجب فيه الصمت، وخلطت عليه الأمور، وأصبح بذلك أداة من أدوات الشيطان.. وإن كانت النفس مطمئنة شغلته بالذكر والمذاكرة والمجاهدة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل خصال الخير.

وهكذا، فإن اللسان مثله مثل سائر الجوارح، تابع للنفس، يتلون بلونها، ويتحرك تحت أوامرها.. ومن طهّر نفسه طهُر لسانه، ومن أوبقها أوبقه.

ولذلك أثنى الله تعالى على اللسان الطيب الذي يقول الكلمة الطيبة، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)﴾ [إبراهيم: 24، 25]؛ فقد أخبر الله تعالى أن الكلمة الطيبة يمكنها أن تتحول إلى مصدر كبير من مصادر الحسنات التي لا تنضب.

وهكـذا ورد في النصـوص المقدسـة الكثـيرة عظم الأجـر الذي يناله المسبحون والـذاكرون للـه، كمـا قـال ﷺ: (من قـال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكـبر كتب لـه بكـل حرف عشر حسنات) [1]، وقال: (والحمد لله تملأ الميزان) [2]

وأخبر ﷺ عن فضل الـدعوة إلى اللـه، وعظم الأجـر الـذي يناله أصحابها، فقال: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم) [3]

وهكـذا، فـإن الكثـير من أعمـال الخـير لا يمكن لأحـد من الناس أن يقوم بها من دون أن يستعمل فيها لسانه، وبذلك فهو آلة من آلات التقوى والهداية والصلاح.

وقد أخبر الله تعالى أن ملك مصر لم يعـرف قـدر يوسـف عليه السلام إلا بعد أن كلمه، فقال: ﴿ وَقَـالَ الْمَلِـكُ ائْتُـونِي بِـهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَـوْمَ لَـدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: 54]

وبعكس ذلك، فإن اللسان الذي رفع يوسف عليه السـلام، هو نفسه اللسان الـذي فضـح أولئـك اليهـود، الـذين أخـبر اللـه عنهم، فقـال: ﴿لَقَـدْ سَـمِعَ اللَّهُ قَـوْلَ الَّذِينَ قَـالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِـيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَـالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَـاءَ بِغَيْـرِ حَـقٍّ وَنَقُـولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيـقِ (181) ذَلِـكَ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 181، 182]

وهو الذي فضـح المنـافقين، كمـا قـال تعـالى: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُـونَ لَا تُنْفِقُـوا عَلَى مَنْ عِنْـدَ رَسُـولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّـوا وَلِلَّهِ

[1] رواه ابن أبي الدنيا.

[2] رواه مسلم.

[3] رواه البخاري ومسلم.

خَــزَائِنُ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَــافِقِينَ لَا يَفْقَهُــونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَـةِ لَيُخْـرِجَنَّ الْأَعَـزُّ مِنْهَـا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِــزَّةُ وَلِرَسُــولِهِ وَلِلْمُــؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَــافِقِينَ لَا يَعْلَمُــونَ ﴾ [المنافقون: 7، 8]

وهـو الـذي فضـح الأفـاكين، كمـا قـال تعـالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَـهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُـونَ بِـأَفْوَاهِكُمْ مَـا لَيْسَ لَكُمْ بِـهِ عِلْمٌ وَتَحْسَـبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُـونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَـذَا سُـبْحَانَكَ هَـذَا بُهْتَـانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: 15 - 17]

وهو الذي أخبر الله تعالى أنه من يمد الشجرة الخبيثـة في النفس، ويملأ العالم بالصراع، قال تعـالى: ﴿وَمَثَـلُ كَلِمَـةٍ خَبِيثَـةٍ كَشَــجَرَةٍ خَبِيثَــةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَــوْقِ الْأَرْضِ مَــا لَهَــا مِنْ قَــرَارٍ﴾ [إبراهيم: 26]

وبذلك فإن اللسـان أكـبر دليـل على الإنسـان، فهـو الـذي يرفعه أو يخفضه، وهو الذي يكرمـه أو يهينـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَـاكَهُمْ فَلَعَـرَفْتَهُمْ بِسِـيمَاهُمْ وَلَتَعْـرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 30]

وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

ولكم ترى من صامتٍ زيادته أم نقصه في

لسان الفتى نصفٌ فلم يبق إلا صورةُ

وعبر عنه بعض الحكماء، فقال: (القلوب كالقدور تغلي بما فيهـا، وألسـنتها مغارفهـا، فـانظر إلى الرجـل حين يتكلم، فـإن لسانه يغترف لك مما في قلبـه، حلـو وحـامض وعـذب، وأجـاج،

وغير ذلك وَيُبَيِّن لك طعم قلبه اغتراف لسانه)[1]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن لكل مرض من أمراض القلوب، إفرازاته الخاصة باللسان، ولذلك كان علاج اللسان متوقفا على علاج مصادر الخبث التي تمده؛ فإن لم تعالج بقي الداء العضال.

ولذلك لا تنفع الحصيات التي توضع في الأفواه، ولا تكميمها؛ فإن ذلك لا يسد أبواب الشر، وإنما يستر بعض روائحها الكريهة.

وأنا لا أستطيع أن أوافقك أو أوافق أحدا من الناس على رياضة لم يأت بها الشرع، ولم يدل عليها الدليل؛ ونحن لم نطالب بالصمت المطبق، ولا بتكميم الأفواه، وإنما طولبنا بأن نعبد الله بالكلام الطيب، والذكر الكثير، وعدم السكوت عن المنكر.

والعلاج الأجدى من ذلك هو تأمل ما ورد في النصوص المقدسة، والاستفادة منها في تطهير الألسن، وتربيتها وإصلاحها، حتى تكون أداة للتزكية والترقية، لا للتدنيس والانتكاسة.

وسأصف لك ـ بحسب طلبك أيها المريد الصادق ـ علاجين، إن أنت أدمنت على استعمالهما، شفى الله لسانك، وطهره، وجعله سلمك الذي ترتقي به في معارج الكمال.

العلاج المعرفي:

أول علاج تنطلق منه ــ أيها المريد الصادق ــ لإصلاح لسانك، وحماية نفسك من آثاره، أن تمتلئ تصديقا بتلك

1() حلية الأولياء، لأبي نعيم، 10/63.

النصوص المقدسة الكثيرة التي تجعل مصيرك ومستقبلك رهنـا للكلمـات الـتي تقولهـا؛ فتلـك النصـوص هي قـوانين العقوبـات الإلهيـة الـتي أنـذر اللـه بهـا عبـاده، وأعلمهم إياهـا، والقـانون لا يحمي المغفلين.

فإياك أن تسمع لأولئك الذين يهونون من تلك النصوص، أو يكذبونها، أو يحقرونها، فإن ذلك أماني تمنوها، وليس لهم عليهـا دليل من كتاب، ولا برهان من عقل، وقد قال الله تعالى مخــبرا عن دور رسول اللـه ﷺ: ﴿ وَأَنْزَلْنَـا إِلَيْـكَ الـذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَـا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 44]، وقـال رسـول اللـه ﷺ: (ألا اني أوتيت الكتاب ومثلـه معـه ألا يوشـك رجـل شـبعان على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه) [1]

ولـذلك لا تـدع أقـوال نبيـك ﷺ الـتي يربيـك بهـا، ويزكيـك، ويعلمك الكتاب والحكمة، وتذهب لأولئك المشاغبين المجــادلين فيهـا، الـذين راحـوا يسـتثمرون مـا دس الكذبـة فيهـا، ليرموهـا جميعا من غير تحقيق، ولا دراسة، وإنما هو الكسل الذي دعاهم إلى ذلك.

فلو تأملت ـ أيها المريد الصادق ـ تلـك الوصـايا والأحـاديث النبوية لعلمت عظم خطر اللسان عليك، وعلى حقيقتـك، وعلى مستقبلك، وعلى علاقتك مع الله، وعلاقتك مع خلقه.

وقد ورد في الحديث أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قـال له: (أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحـدا بعـدك)، فقـال له رسول الله ﷺ: (قل آمنت بالله ثمّ استقم)، قال: فمـا أتّقي؟

[1] () رواه أبو داود: 4604.

فأومأ ﷺ بيده إلى لسانه)[1]

وسأله آخر: (ما النجاة؟)، فقال ﷺ: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)[2]

وسأله آخر: (أنؤاخذ بما نقول؟)، فقال ﷺ: (ثكلتك أمّك، وهل يكبّ الناس على مناخرهم إلّا حصائد ألسنتهم) [3]

وسأله آخر: (ما أكثر ما يدخل النّاس الجنّة)، فقال: (تقوى الله وحسن الخلق)، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النّار، فقال: (الأجوفان: الفم والفرج)[4]

وقال له آخر: (يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟)، فأخذ رسول الله ﷺ بلسانه، ثمّ قال: (هذا)[5]

وكان يقول لهم، ولكل الأجيال: (من يتكفّل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفّل له بالجنّة)[6]

ويقول: (من وقي شرّ قبقبه وذبذبه ولقلقه[7] فقد وقي) [8]

وقد سبق أن ذكرت لك حديث ذلك الرجل الذي دخل النار

1() ابن ماجه، 3972.

2() الترمذي ج 9 ص 247 وقال: هذا حديث حسن.

3() الترمذي (2616) والنسائي (3/ 13)، وابن ماجة (3973)

4() ابن ماجه، 4246.

5() الترمذي ج 9 ص 249 والدارمي ج 2 ص 299.

6() البخاري والترمذي ج 9 ص 248.

7() القبقب البطن، والذبذب الفرج، واللّقلق اللّسان.

8() البيهقي في الشعب.

بسبب كلمة قالها لأخيه يتألى فيها على الله، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: (كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يوما على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي أبعثت علي رقيبا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالما، أو كنت على ما في يدي قادرا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار) (1)

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ أنه لا يمكن أن يستقيم القلب حتى يستقيم اللسان، فقال: (لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنّة رجل لا يأمن جاره بوائقه)(2)

وعبر الإمام عليّ عن هذا المعنى، فقال: (اللّسان قوام البدن، فإذا استقام اللّسان استقامت الجوارح، وإذا اضطرب اللّسان لم تقم له جارحة)(3)

وهو دليل على أن الاستقامة تحتاج إلى الطرفين: القلب والجوارح.. وأن المستقيم هو الذي يزكيهما جميعا؛ فيستعين بإصلاح قلبه على إصلاح لسانه، وبإصلاح لسانه على إصلاح قلبه.

ولهذا ربط رسول الله ﷺ بين الصمت وحسن الخلق،

1() أبو داود (4/275)

2() رواه أحمد وابن أبي الدنيا في الصمت، الترغيب والترهيب ج 3 ص 528.

3() الصمت لابن أبي الدنيا (249)

فقال: (أنا زعيم ببيت في ربض(1) الجنّـة لمن تـرك المـراء وإن كان محقّا، وببيت في وسط الجنّـة لمن تـرك الكـذب وإن كـان مازحا، وببيت في أعلى الجنّة لمن حسن خلقه)(2)

وفي حديث آخر قال ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقـل خـيرا أو ليصـمت، ومن كـان يـؤمن باللـه واليـوم الآخـر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) (3)، وفي ربط رسول الله ﷺ بين هـذه الثلاثـة دليـل على أنـه لا يمكن إكرام الجار، ولا الضيف من دون التحكم في اللسان.

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ وعـزمت على أن تتحكم في لسانك، فعليك بكثرة الصمت، فـ (من كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حيـاؤه قـل ورعـه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار) (4)

ولهـذا أخـبر ﷺ أن السـلامة في الصـمت عمـا حـرم اللـه، فقال: (من كفّ لسانه ستر الله عورته، ومن ملـك غضـبه وقـاه الله عذابه، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره)(5)

1() ربض الجنة: ما حول الجنة خارجا عنها تشبيها بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع، (وهو ما يعرف الآن بضواحي المدن)

2() أبو داود 4(4800) والترمذي(1993) وقال: حديث حسن.

3() البخاري [فتح الباري]، 10(6018)، ومسلم (47)

4() وسائل الشيعة: 12 / 187.

5() ابن أبي الدنيا في الصمت.

وقال: (إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلّها تستكفي اللّسان أي تقول اتق الله فينا فإنّك إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا)(6)

وروي عن ابن مسعود أنّه كان على الصفا يلبّي، ويقول: (يا لسان قل خيرا تغنم، أو اصمت تسلم من قبل أن تندم)، فقيل له: يا أبا عبد الرّحمن أهذا شيء تقوله، أو شيء سمعته؟ قال: لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنّ أكثر خطايا ابن آدم في لسانه)(2)

وأعطى رسول الله ﷺ قاعدة مختصرة يسهل حفظها لذلك، فقال: (من صمت نجا)(3)، وقال: (من سرّه أن يسلم فليلزم الصمت)(4)

وقد قال الشاعر معبرا عن هذه المعاني:

عوّد لسانك قلّة ... واحفظ كلامك أيّما
إيّاك أن تعظ ... أصبحت محتاجا

وقال آخر:

من لزم الصّمت ... تخفي على
لسان من يعقل في ... وقلب من يجهل

وقال آخر:

6() الترمذي ج 9 ص 247..

2() ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب، الترغيب ج 3 ص 534.

3() الترمذي(2503)

4() ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو الشيخ في فضائل الاعمال وغيرهما، الترغيب ج 3 ص 536.

عجبت لإدلال العييّ ... وصمت الّذي قد كان

وفي الصّمت ستر ... صحيفة لبّ المرء أن

ثمّ عليك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تـراعي في لسـانك مـا تراعيه في سائر جوارحك، من عدم تحريكه إلا وفق ما ضـبطته به الشريعة الحكيمة؛ فلا تتكلم إلا حيث تـرى الكلام نافعـا، ومـا عدا ذلك انشغل بالصمت إلا عن ذكر الله.

وقد أعطى رسول الله ﷺ قاعدة لـذلك، فقـال: (كـلّ كلام ابن آدم عليه لا له إلّا أمـر بمعـروف، أو نهي عن منكـر، أو ذكـر الله)[1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (لا تكثروا الكلام بغـير ذكـر اللـه، فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر اللـه قسـوة للقلب، وإنّ أبعـد النّـاس من الله القلب القاسي)[2]

ولـذلك ابتعـد ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ عن فضـول الكلام وحشوه، وما لا حاجـة لـك فيـه؛ فقـد يـدفعك الشـيطان إلى أن تتكلم ببعض الخير، ثم يزينه لـك، ثم يملي عليـك حينهـا كـل مـا يريده، فلذلك إن أديت مقصودك بكلمة واحـدة فـاكتف بهـا، ولا تتبعها بالثانية، فقد تحبط كل ما ذكرته في الأولى.

وقد قال بعض الحكماء في هذا: (إنّ من كـان قبلكم كـانوا يكرهـون فضـول الكلام، وكـانوا يعـدّون فضـول الكلام مـا عـدا كتاب الله تعالى وسنّة رسول الله ﷺ أو أمـرا بمعـروف أو نهيـا عن منكر أو نطقا بحاجتـك في معيشـتك الّـتي لا بـدّ لـك منهـا، أتنكرون ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَـاتِبِينَ ﴾ [الانفطـار: 10ـ 11] ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَـا يَلْفِـظُ مِنْ

[1] () رواه الترمذي(2412) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة(3974)

[2] () الترمذي(2411) وقال: هذا حديث حسن غريب.

قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [ق: 17ـ 18]، أما يستحي أحدكم أن لو نشرت عليه صحيفته الّتي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه)

وقال آخر: (إنّ الرّجل ليكلّمني بالكلام لجوابه أشهى إليّ من الماء البارد على الظمآن، فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولا)

ولهذا قال رسول الله ﷺ: (طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله)[1]

وقد كان ﷺ لأجل ذلك ينهى المبالغة في الكلام والتقعر فيه، قال ﷺ:: (إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجلسا يوم القيامة الثّرثارون والمتشدّقون والمتفيهقون)، قالوا: يا رسول اللّه قد علمنا الثّرثارون والمتشدّقون. فما المتفيهقون؟ قال: (المتكبّرون)، وقال: (شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام) [2]

ثم إن عليك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تراعي في كلامك مشاعر غيرك؛ فلا تجرحها، ولا تحرجهم، ولا تؤذهم، فإن أعظم وسائل الشيطان للإذية والتفريق اللسان، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: (إنّ الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا. فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل

1() رواه ابن شعبة في التحف ص 30 والبيهقي، الدر المنثور ج 2 ص 221.

2() رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب.

اللــه جميعــا ولا تفرّقــوا، ويكــره لكم قيــل وقــال[1] وكــثرة السّؤال[2] وإضاعة المال)[3]، وربط رسول الله ﷺ هـذه جميعـا باللسان دليل على دوره العظيم فيها.

وفي حديث آخر سئل رسول اللـه ﷺ: يـا رسـول اللـه، أيّ الأعمال أفضل؟ قال: (الصّلاة على ميقاتهـا) قيـل: ثمّ مـا ذا يـا رسول الله؟ قال: (أن يسلم النّاس من لسانك)[4]

وفي حديث آخر سئل رسـول اللـه ﷺ: يـا رسـول اللـه مـا الإسـلام؟. قـال: (أن يسـلم قلبـك للـه عـزّ وجـلّ، وأن يسـلم المسلمون من لسانك ويدك)[5]

وفي حديث آخـر قـال رسـول اللـه ﷺ لمن طلب وصـيته: (تملك يدك)، فقال: فما ذا أملك إذا لم أملك يدي؟ قال: (تملك لسانك)، قال: فما ذا أملك إذا لم أملك لساني؟ قال: (لا تبسط يدك إلّا إلى خير، ولا تقل بلسانك إلّا معروفا)[6]

وأول ما يعينـك على ذلـك كلـه ألا تتكلـف مـا لا يعنيـك، أو تبحث عما لا ينفعك، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْـأَلُوا عَنْ أَشْـيَاءَ إِنْ تُبْـدَ لَكُمْ تَسُـؤْكُمْ وَإِنْ تَسْـأَلُوا عَنْهَـا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَــدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَـا كَـافِرِينَ﴾ [المائـدة: 101،

1() قيل وقال: هو الخوض في أخبار الناس.

2() كثرة السؤال: المراد به التنطع في المسائل والإكثار من السؤال عما لا يقع ولا تدعو إليه الحاجة.

3() مسلم(1715) وبعضه عند البخاري 9(5975)

4() رواه الطبراني وصدره في الصحيحين، الترغيب والترهيب(3/ 523)

5() رواه أحمد(4/ 114)

6() رواه ابن أبي الدنيا. والطبراني والبيهقي، الترغيب والترهيب(3/ 530)

[102

وقـد ورد في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[1]

ولهذا ورد في أوصاف رسول الله ﷺ أنه كان (يكثر الذّكر، ويقلّ اللّغو، ويطيل الصّلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة)[2]

وإيـاك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ بعـد هـذا أن تخـوض في الباطل، أو تسعى لإرضاء جلسائك بإسخاط اللـه، فـأنت مكلـف بإرضـاء اللـه، لا بإرضـاء خلقـه، وقـد قـال رسـول اللـه ﷺ: (إنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله ما يظنّ أنّهـا تبلـغ بـه مـا بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يـوم القيامـة، وإنّ الرجـل ليتكلّم بالكلمة من سـخط اللـه مـا يظنّ أنّهـا تبلـغ بـه مـا بلغت فكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة)[3]

وتحدث رسول الله ﷺ عن أولئك الذين يريدون أن يظهروا للنـاس بصـورة الظرفـاء خفيفي الـدم، ولـو في معصـية اللـه، فقال: (إنّ الرّجل ليتكلّم بالكلمة يضحك بها جلسـاءه يهـوى بهـا أبعد من الثريّا)[4]

ولهذا كان بعض الصالحين يمر بالمجالس، فيسمع خوضهم في الباطل، فيقول لهم: (توضّؤوا فإنّ بعض ما تقولون شرّ من الحدث)

1() مالك في الموطأ (2/ 903) والترمذي(2317) وقال: هذا حديث غريب.

2() النسائي(3/ 109)

3() ابن ماجه في حديث، 3969، وأحمد ج 3 ص 469.

4() البغوي في المصابيح ج 2 ص 153، وابن أبي الدنيا.

وعليك ـ أيها المريد الصادق ـ بعد كل هـذا أن تسـتفيد من كل ما ذكره الحكماء وتلاميـذ النبـوة في كيفيـة حفـظ اللسـان، وتوجيهه الوجهة الصحيحة، فالحكمة ضالة المؤمن، وأين وجدها، فهو أحق بها.

ومن تلك الحكم ما عـبر عنـه ابن عبّـاس بقولـه ـــ ملخصـا مـــــوارد الكلام الطيب ــــ: (خمس لهنّ أحبّ إليّ من الـــدّهم الموقوفة(1): لا تتكلّم فيما لا يعنيك؛ فإنّـه فضـل، ولا آمن عليـك الـوزر.. ولا تتكلّم فيمـا يعنيـك حتّى تجـد لـه موضـعا، فإنّـه ربّ متكلّم في أمـر يعنيـه، قـد وضـعه في غـير موضـعه فعنت.. ولا تمـار حليمـا ولا سـفيها؛ فـإنّ الحليم يقليـك، والسّـفيه يؤذيـك.. واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحبّ أن يـذكرك بـه، وأعفـه ممّـا تحبّ أن يعفيـك منـه، وعامـل أخـاك بمـا تحبّ أن يعاملـك بـه.. واعمل عمل رجل يعلم أنّه مجازى بالإحسان مـأخوذ بـالاحترام) (2)

وقال آخر: (لا خير في الكلام إلّا في تسع: تهليـل، وتكبـير، وتسبيح، وتحميد، وسؤالك عن الخير، وتعوّذك من الشّرّ، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءتك القرآن)(3).

وقال آخر: (المؤمن إذا أراد أن يتكلّم نظر، فإن كان كلامه له تكلّم، وإن كان عليه أمسك عنه، والفـاجر إنّمـا لسـانه رسـلا رسلا(4))(5).

1() الدهم الموقفة: أي من الخيل الدهم التي أوقفت وأعدّت للركوب..

2() إحياء علوم الدين للغزالي(3/ 122)

3() الصمت لابن أبي الدنيا(246)

4() رسلا: ليّنا مسترخيا لا تؤدة فيه.

5() الصمت لابن أبي الدنيا(247)

وقـال آخـر: (إذا كـان المـرء يحـدّث في مجلس فأعجبـه الحديث فليسكت، وإن كان ساكتا فأعجبه السّـكوت فليتحـدّث) [1].

وقال آخر: (اجتمع أربعة ملوك، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت، ولا أنـدم على مـا لم أقـل، وقـال آخـر: إنّي إذا تكلّمت بكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلّم بها ملكتها ولم تملكني، وقال ثالث: عجبت للمتكلّم إن رجعت عليـه كلمتـه ضـرّته، وإن لم ترجع لم تنفعه. وقـال الرّابـع: أنـا على ردّ مـا لم أقـل أقـدر منّي على ردّ ما قلت)[2]

هذه وصيتي إليك ـ أيها المريد الصادق ـ في حفظ لسانك، وأنا أعلم أنك ستسألني عن بعض التفاصيل المرتبطة بما ورد في النصوص المقدسة من الأحكام المرتبطة باللسان؛ فلذلك اكتفيت في هذه الرسالة بدعوتك لحفظ لسانك في كل محل اشتبه عليك أمره، فأن تخطئ بالصمت، خير من أن تخطئ بالكلام؛ فالكلام مثل السهام، إذا خرجت من القوس لا يمكن ردها.

1() المرجع السابق(252)

2() إحياء علوم الدين(3/ 133)

الغيبة والنميمة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الغيبة والنميمة، والمنابع التي ينبعان منها، والثمار التي يثمرانها، وكيفية معالجة النفس الأمارة منهما، وأسرار تلك النصوص المقدسة الواردة حولهما.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن هذين المثلبين من مثالب النفس الأمارة، من أخطر المهلكات، وأنهما ليسا مرضين بحد ذاتهما، وإنما هما عرضان لأمراض كثيرة تعتري النفس تبدأ بالعجب والغرور والاستكبار الذي يختصر كل شيء في أنانية الإنسان، واعتباره لنفسه المحور والقطب والمركز.. ولذلك تسارعان لكل من ينافس تلك النفس، أو يصرف الأنظار عنها إلى الإساءة إليه بأي شيء، ومنها الإساءة إليه بذكر عيوبه وإشاعتها ونشرها، أو الإفساد بينه وبين غيره.

ومن منابع هذين المرضين دناءة النفس، وغفلتها عن حقيقتها ووظائفها، وذلك ما يجعلها في فراغ كبير، يستغله الشيطان ليملي عليها نشر العداوة والشحناء عبر وسائل الغيبة والنميمة والقذف وغيرها.

ومن منابعها تلك التبعية والعبودية للأصدقاء والأعراف والمجتمعات، والتي تجعل المريض بها يجاريها، ويسير وفق أهوائها، من غير أ ن يكون له في ذلك أي مصلحة، سوى إرضاء الأصدقاء أو المجتمع، وعدم الخروج عنه.

ومن منابعها الحقد والحسد والبغضاء التي تجعل المريض بها منشغلا عن نفسه بتتبع أخطاء الآخرين وإذاعتها ونشرها والزيادة فيها.

وغيرها من المنابع الكثيرة الـتي عـبر عن أصـولها الكـبرى الإمام الصادق، عند ذكره للغيبة، فقال: (انّ أصل الغيبـة متنـوّع بعشرة أنواع: شفاء غيظ ومساعدة قوم وتهمة وتصديق خبر بلا كشفه وسوء ظنّ وحسد وسخريّة وتعجّب وتـبرّم وتـزيّن.. فـإن أردت السّلامة فاذكر الخالق لا المخلوق فيصير لك مكان الغيبة عبرة ومكان الإثم ثوابا) (1)

وما ذكره الإمام الصـادق يـدل على أن الأمـراض النفسـية يؤدي بعضها إلى بعض، ويقوي بعضـها بعضـا.. فالحقـد والحسـد يــدعو إلى الغيبــة والنميمــة، وهمــا يقويــان الحقــد والحســد، ويجذرانه في النفس..

ومثل ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ مثل الشجرة التي تغــذي أوراقها بالماء والأملاح المعدنية، فإذا ما قويت الورقة واشــتدت غذت الشجرة بما تحتاجه من طاقة عبر التمثيل الضوئي.

أمــا الثمــار الــتي يثمرانهــا، فكثـيرة جـدا، وأولهـا انشـغال النفس عن وظائفهـا، وهربهـا من نقصـها بتتبـع نقص الآخــرين، وإشاعتها للفساد عبر نشرها لأخبـاره، وإشـاعتها للقطيعـة عـبر الإفساد الذي تهدم به عرى المجتمع.

ولــذلك لا يمكن لمن يريــد أن يــزكي نفســه، ويطهرهــا، ويجعلها صالحة لسلوك الطريق المستقيم ألا يحيط علما بحدود هذين المثلبين، وكيفية علاجهما، حـتى يحفـظ أعمالـه وسـلوكه، ويهيئ نفسـه للمـراتب العاليـة الـتي لا يـرقى إليهـا إلا أصـحاب القلوب السليمة، والألسنة الطاهرة، والنفوس المطمئنة.

ولـذلك سـأحدثك عن كـل واحـد منهمـا، وحـدوده، وكيفيـة علاجـه؛ فـالعلم بالمثـالب أول الطريـق لعلاجهـا.. ورب نفـوس

1() مصباح الشريعة، الباب التاسع والأربعون.

صادقة لا تحتاج سوى معرفة حدود الشريعة لتلتزم بها، من غير أن مشقة ولا عناء.

الغيبة وعلاجها:

أما الغيبة ـ أيها المريد الصادق ـ فهي تلـك الـتي نص على تحريمها وعقوبة أصحابه قوله تعالى: وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُـكُمْ بَعْضًـا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًـا فَكَرِهْتُمُـوهُ وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ [الحجرات: 12]

وقد عرّفهـا رسـول اللـه ﷺ تعريفـا جامعـا مانعـا، لا يـترك مجـالا لأي تأويـل، ولا يحتـاج بعـده أي تفصـيل؛ فقـد روي في الحديث أنه ﷺ قال ـ مخاطبا أصحابه ــ: (أتـدرون مـا الغيبـة؟)، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (ذكرك أخاك بما يكـره)، قـالوا: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه مـا تقـول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته)[1]

وفي حديث آخر أن رجلا ذكر عند رسول الله ﷺ فقالوا: ما أعجزه، فقال رسول الله ﷺ: (اغتبتم صاحبكم)، قالوا: يا رسول الله قلنا ما فيه، قال: (إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتّموه)[2]

وروي عن عائشة أنّها ذكـرت امـرأة فقـالت: إنّهـا قصـيرة فقال النبيّ ﷺ: (اغتبتها)[3]

وهذه الأحاديث جميعا تـدل على أن الغيبـة تشـمل كـل مـا يكرهــه من وقعت عليــه الغيبــة، ســواء في دينــه أو دنيــاه، أو جسده، أو نسبه، أو أي شيء قد لا يخطر على البال، وقـد ذكـر

1() مسلم، رقم 2589.

2() الطبراني في الكبير، مجمع الزوائد ج 8 ص 94.

3() أحمد وأبو داود ج 2 ص 567 والترمذي.

بعض الصــالحين رجلا فقــال: ذلــك الرّجــل الأســود، ثمّ قــال: أستغفر الله، إنّي أراني قد اغتبته.

وقال آخر: (ذكر الغير بالسوء ثلاثة أقسام: الغيبة والبهتــان والإفك، والكلّ في كتاب الله، والغيبة أن تقول ما فيه، والبهتـان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك)

وإياك ـ أيها المريد الصـادق ـــ أن تفهم من هـذه النصـوص اختصـاص الغيبـة باللسـان، فـالأمر ليس كـذلك؛ فاللسـان ليس سوى أداة لذلك، ولذلك فـإن الغيبـة تشـمل كـل تنقيص للغـير، وذكر لعيوبه، حتى لو كانت صورة نشرتها عنه، أو حركة أومــأت بها إليه، أو تعريضا عرضت به، يسيء إليه، أو إشارة أو إيماء أو غمزا أو رمزا أو كتابـة أو حركـة.. فكـل هـذه الأمـور داخلـة في الغيبة، وقد ذكرت لك في مناسبات سابقة مـا ورد في الحـديث عن عائشة أنها أومأت بيـدها تشـير إلى امـرأة بكونهـا قصـيرة، فاعتبر رسول الله ﷺ حركتها غيبة(1).

وهي كـذلك تشـمل الأحيـاء والمـوتى، بـل إن غيبـة الميت أشد، لعدم إمكانيـة الاسـتحلال منـه، وقـد ورد في الحـديث عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا مات صاحبكم فدعوه، ولا تقعوا فيه)(2)

وهذا لا يعني ـ أيها المريد الصـادق ـــ أن تكـف لسـانك عن إنكــار المنكــر خشــية أن يفهم البعض منــه قصــدك لأشــخاص معيـنين، أو طوائـف معينـة؛ فـذلك ليس من الغيبـة، وقـد كـان رسول الله ﷺ إذا كـره من إنسـان شـيئا قـال: (مـا بـال أقـوام يفعلون كذا وكذا)(3) من دون أن يعين أحدا.

1() الخرائطي وابن مردويه والبيهقي كما في الدر المنثور ج 6 ص 94.

2() أبو داود، رقم 4899.

3() أبو داود ج 2 ص 550.

وإيـاك عنـد قصـدك لهـذا، أن تحكم على النـاس من خلال رؤيتك للشريعة، أو مرتبتك في التحقق بها؛ فتقع فيما وقـع فيـه ذلك الصحابي الذي راح يذم بعضـهم بسـبب تقصـيره في بعض الشعائر، فأخبره رسول الله ﷺ أنه خير منه.

فقــد ورد في الحــديث أنّ رجلا مــرّ على قــوم في حيــاة رسول الله ﷺ فسلّم عليهم فردّوا عليه السـلام؛ فلمّـا جـاوزهم قال رجل منهم: إنّي لأبغض هذا للّه، فقال أهل المجلس: واللــه لبئس مـا قلت واللـه لننبّئنّـه.. فقـاموا، فـأخبروه، فـأتى الرّجـل رسـول اللـه ﷺ وحكى لـه مـا قـال وسـأله أن يـدعوه، فـدعاه فسأله، فقال: قد قلت ذلك؟ فقال رسول اللـه ﷺ: لم تبغضـه؟ قال: أنا جاره وأنا به خبير، والله ما رأيتـه يصـلّي صـلاة قـطّ إلّا هذه المكتوبة، قـال الرجـل: فاسـأله يـا رسـول اللـه هـل رآني أخّرتها عن وقتها، أو أسأت الوضوء لهـا أو الرّكـوع أو السـجود؟ فسأله فقال: لا، قال: والله ما رأيتـه يصـوم شـهرا قـطّ إلّا هـذا الشهر الّذي يصومه البرّ والفاجر، قال الرجل: فاسأله يا رسول اللـه هـل رآني قـطّ أفطـرت فيـه أو نقصـت من حقّـه شـيئا؟ فسـأله، فقـال: لا، قـال: واللـه مـا رأيتـه يعطي سـائلا قـطّ ولا مسكينا، ولا رأيته ينفق من ماله شيئا في سـبيل الخـير إلّا هـذه الزكاة الّتي يؤدّيها البرّ والفاجر، قال الرجـل: فأسـأله هـل رآني نقصت منها شيئا أو ماكست فيها طالبها الّذي يسـألها؟ فسـأله، فقال: لا، فقال للرّجل: (قم فلعلّه خير منك)(1)

واعلم ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ أنـه إذا اقتضـت المصـلحة الشرعية اللجوء إلى ذكر الأسـماء، والتصـريح بهـا؛ فـإن الحـرج حينهـا منتـف، كمـا أشـار إلى ذلـك قولـه تعـالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًــا ﴾ [النساء: 148]

(1) أحمد ج 5 ص 455.

ولذلك لا يمكنك أن تلوم شخصا يذكر ظالمه، ويشكو منـه، وتنعته بكونه مغتابا، وتطلب منـه ألا يسـميه، فكيـف يمكنـك أن تنصره، وأنت لا تعرف من ظلمـه، ولـذلك قـال رسـول اللـه ﷺ لبعضهم: (دعوه، فإن لصـاحب الحـقّ مقـالا)(1)، وقـال: (مطـل الغني ظلم)(2)، وقال: (ليّ الواجد يحلّ عرضه وعقوبته) (3)

ومثل ذلك من يريد الاستعانة على تغيـير المنكـر؛ فيضـطر إلى تسمية من وقع فيه، حتى يدعو لنصـحه، والإنكـار عليـه، فلا حرج في ذلك، ما دام المنكر لا يغير إلا بذلك، وقـد قـال الإمـام الصادق في ذلك: (صفة الغيبة أن يذكر أحـد بمـا ليس هـو عنـد الله عيب ويذمّ ما يحمده العلم فيه، وأمّا الخوض في ذكر غائب بما هو عند الله مذموم وصاحبه فيه ملوم فليس بغيبة وإن كره صاحبه إذا سمع به وكنت أنت معافى عنه خاليا منه وتكون مبيّنا للحقّ من الباطل ببيـان اللـه ورسـوله، ولكن على شـرط أن لا يكون للقائل بذلك مراد غير بيان الحـقّ والباطـل في دين اللـه، وأمّا إذا أراد بـه نقص المـذكور بغـير ذلـك المعـنى فهـو مـأخوذ بفساد مراده وإن كان صوابا) (4)

وانتبه ـ أيها المريد الصادق ــ لمـا قيـد بـه الإمـام الصـادق إباحـة ذلـك، وهـو قصـد بيـان الحـق، والبعـد عن أهـواء النفس وأحقادها وأمراضها.

ومثل ذلك المستفتي الذي يذكر حاله للمفتي، أو الشــاكي الذي يذكر حاله للقاضي، فيسمي من ظلمه، أو أخطأ في حقه؛

1() رواه أحمد (6/ 268)

2() البخاري- الفتح 5 (2400)

3() أبو داود وابن ماجه رقم 2427

4() مصباح الشريعة، الباب التاسع والأربعون.

فكل ذلك جـائز، ولا حـرج فيـه، وقـد ورد في الحـديث أن هنـدا قـالت للنـبيّ ﷺ: (إنّ أبـا سـفيان رجـل شـحيح لا يعطيـني مـا يكفيني إيّاي وولدي أفآخذ من غير علمه؟ قال: خذي مـا يكفيـك وولدك بالمعروف)(1)

ومثل ذلك التحذير من رؤساء الشر، ودعـاة الفتنـة، وبيـان عيوبهم وفضائحهم، حتى يحـذر منهم النـاس، وقـد قـال رسـول الله ﷺ في ذلك: (أترعون عن ذكر الفاجر حتّى لا يعرفه النّاس، اذكروه بما فيه يحذره النّاس)(2)

ويـدخل في هـؤلاء المجـاهرون بالفسـق الـدعاة للرذيلـة، الذين ينطبق عليهم قوله ﷺ: (من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له)(3)

إذا عـرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن تلـك النصوص المقدسة التي استثنت تلك المواقـع، تشـبه مـا يفعلـه الطبيب الذي قـد يضـطر إلى القيـام بعمليـة جراحيـة، لا يقصـد منها إيذاء صاحبها، ولكن يقصد استئصال الداء منه.. فإذا تجـاوز ذلـك، وراح يجرحـه في المواقـع الـتي لا تحتـاج إلى جـرح كـان مؤذيا وظالما.

وهكذا الذي قد يضطر إلى الغيبة؛ فإنه لا يقصد منهـا تلبيـة دوافع نفسه الأمارة، فيغذي منابع السوء فيها، وإنما يقصد منهـا الإصلاح، وبيان الحق، والتحـذير من الباطـل.. فـإن تجـاوز ذلـك يكون حالـه كحـال الطـبيب الـذي يعـالج أعضـاء، ويقضـي على أخرى.

1() البخاري- الفتح 4 (2211) واللفظ له، ومسلم (1714)

2() ابن أبي الـدنيا في الصـمت والحكيم في نـوادر الأصـول والحـاكم في الكـنى والشيرازي في الألقاب.

3() البيهقي، الدر المنثور ج 6 ص 97.

إذا عرفت هـذا.. وأردت أن تعـالج نفسـك من هـذا المثلب الخطير؛ فتذكر ما ورد في النصوص المقدسة من أنواع العقوبة المرتبطة به، فقد قال رسول الله ﷺ: (من أكَـلَ برجـلٍ مسـلمٍ أُكْلَةً فإن الله يُطعِمُـهُ مثلهـا من جهنم، ومن كُسِـيَ ثوبـاً برجـلٍ مسلمٍ فإن الله يكسوه مثلـه من جهنم، ومن قـام برجـلٍ مقـام سمعةٍ ورياءٍ؛ فإن الله يقوم به مقام سُمعة ورياء يـوم القيامـة)[1]

وأخبر عن بعض صور ذلك العذاب، فقـال: (لــمَّا عُـرج بي مــررت بقــومٍ لهم أظفــار من نحــاس، يخمشــون وجــوههم، وصـدورهم، فقلت: من هـؤلاء يـا جبريـل؟ قـال: هـؤلاء الـذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم)[2]

وأخــبر عن الجــزاء الوفـاق الـذي ينالـه من تتبـع عـورات إخوانه، فقـال: (يـا معشـر من آمن بلسـانه ولم يـدخل الإيمـانُ قلبَهُ، لا تغتـابوا المسـلمين، ولا تتَّبعـوا عـوراتِهم؛ فإنـه من اتّبـعَ عوراتِهمْ يتّبـع اللـه عورتَـهُ، ومن يتبـعِ اللـه عورتـه، يفضـحْهُ في بيته)[3]

وشبه ﷺ الغيبة بالربا، واعتبر أنهـا أربى الربـا، مـع أن اللـه تعالى توعـد المـرابين بالمحاربـة، فقـال: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَـا إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (278) فَـإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: 278، 279]

فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنـه قـال: (إن من

[1] () أبو داود، 4881،وأحمد،4/229.

[2] () أبو داود، 4878.

[3] () أبو داود، 4880، وأحمد، 4/421، 424.

أربى الرِّبا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق) (1)

وفي حديث آخر أن بعضهم سـأل النـبي ﷺ مسـائل تتعلـق بالقرض وغيره، وكان يقصد الورع عن الربـا، فقـال لـه رسـول الله ﷺ: (عباد الله، وضع الله عنكم الحــرج، إلا من اقـترض من عرض أخيه شيئاً فذلك الذي حرج، وهلك) (2)

ولا تكتـف ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ بتـذكير نفسـك بهـذه العقوبات، بل أضـف إليهـا تلـك الحسـرة الـتي يجـدها من يجـد حسناته التي تعب في جمعها في الدنيا، تـذهب في الآخــرة إلى أولئك الذين اغتابهم، حتى ينـالوا حقهم منـه، كمـا أخـبر رسـول الله ﷺ عن ذلك في حديث المفلس، فقال: (المفلس من أمّتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصـيام وزكـاة، ويـأتي وقـد شـتم هـذا، وقـذف هـذا، وأكـل مـال هـذا، وسـفك دم هـذا، وضـرب هـذا؛ فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته. فـإن فـنيت حسـناته قبل أن يقضى مـا عليـه أخـذ من خطايـاهم فطـرحت عليـه. ثمّ طرح في النّار) (3)

ولهذا روي عن بعض الصالحين أنه قيـل لـه: (إن فلانًـا قـد اغتابك)، فبعث إليه طبقًا من الرطب، وقال: (بلغني أنك أهديتَ إليَّ حسناتِك، فأردتُ أن أكافئك عليها، فاعذرني، فـإني لا أقـدر أن أكافئك بها على التمام) (4)

وقيل لآخر: بلغني أنك تغتابني، فقال: (لم يبلغ قدرك عندي أن أُحكِّمَك في حسناتي)

1() أبو داود، 4876، وأحمد، 1/190.

2() أحمد، 4/278، والحاكم، 4/199، و4/499.

3() مسلم (2581)

4() تنبيه الغافلين: 1/ 176.

وقيل لآخر: إن فلانًا يغتابني، فقال: (قد جلب لك الخير جلبًا) (1)

وقال آخر: (لـولا أني أكـره أن يُعْصـى اللـه، لتمـنيت أن لا يبقى أحـد في المصـر إلا اغتـابني، أي شـيء أهنـأ من حسـنات يجدها الرجل في صحيفته لم يعمل بها؟!)(2)

وقال آخر: (لو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبت والديَّ؛ لأنهما أحــق بحسناتي)

وقال آخر: (يا مكذب، بخلت بدنياك على أصدقائك، وسخوت بآخرتك على أعدائك، فلا أنت فيما بخلت به معذور، ولا أنت فيما سخوت به محمود) (3)

وقال آخر: (إذا بلغك عن أخيك ما يَسُوؤك، فلا تغتم، فإنه إن كان كما يقول، كانت عقوبة عجلت، وإن كان على غير ما تقول، كانت حسنة لم تعملها) (4)

وكتب آخر إلى رجل كان يغتابه: (أما بعد، فإنـه لم يمنعـني أن أكتب إليك أن تتزايد ممَّا أنت فيه إلا كراهيـة أن أعينـك على معصـية اللـه، واعلم أني أرتـع في حسـناتك كمـا تـرعى الشـاة الخضر، والسلام) (5)

إذا عـرفت كـل هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فاجتهـد أن تمسك لسانك عنها، وأن تبتعد عن كل المجـالس الـتي تـدعوك

1() حلية الأولياء: 8/ 108.

2() رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 305.

3() تنبيه الغافلين: 1/ 177.

4() سير أعلام النبلاء: 6/ 264.

5() ترتيب المدارك: 1/ 450.

إليها، واعلم أن الشيطان قد يجرك للجلوس فيها، لتلتذ بهــا من غير أن تشارك فيهـا، موهمـا لـك، ولمن تجلس معهم أنـك تقي ورع، مع أن نفس مجالسـتك لهم، وسـكوتك عن الإنكـار عليهم غيبة، بل ربما تكون أشد منها.

هي تشبه تماما مـا يطلـق عليـه التـدخين السـلبي، فـذلك الذي يجلس بين المدخنين، تسري إليه أمراضـهم والهـواء النتن الذي يفرزونه، وهو يزعم لنفسه أنه بعيد عن التدخين، ولم يبتل به.

ولذلك، فإنك بين أمرين: إما أن تفـارق تلـك المجـالس، أو تقوم بالإنكار عليهم، وإلا كنت شريكا لهم، فمن كثر سواد قــوم كان منهم، وقد ورد في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (ما من امرئٍ يخذل امرؤاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمتــه، وينتقص فيــه من عرضــه، إلا خذلــه اللــه في مــوطنٍ يحب فيــه نصرته، وما من امرئٍ ينصر مسـلماً في موضـع ينتقص فيــه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره اللــه في مــوطنٍ يحب فيه نصرته)[1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (من ردّ عن عـرض أخيـه رد اللـه عن وجهه النار يوم القيامة) [2]

و قال: (من ذبَّ عن لحم أخيه بالغيبة كـان حقـاً على اللـه أن يعتقه من النار) [3]

ولا تكتف بهـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ إن أردت تهـذيب نفســك وتصــفيتها، فلا تكفي العزيمــة على تــرك الغيبــة في

---

[1] () أبو داود، 4884، وأحمد، 4/30.

[2] () أحمد،6/450،والترمذي، 1931.

[3] () أحمد، 6/461.

المستقبل، بل عليـك البحث في ماضـيك، ومن اغتبتهم، لتصـلح ما أخطأته في حقهم، حتى لا يخاصمونك عند الله يوم القيامة.

فإن كنت تعرف من اغتبته، ورأيت أن طلبـك إبـراء الذمـة منه لن يؤثر فيه، أو يغضبه، فاستحل منه، وقد ورد في الحـديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من كانت لأخيه عنـده مظلمـة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هنالك دينار ولا درهم إنّما يؤخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنة أخذ من سيّئات صاحبه فزيدت على سيّئاته)[1]

وقد وصف بعضهم كيفية ذلك، فقال: (تمشي إلى صـاحبك وتقول: كـذبت فيمـا قلت، وظلمت وأسـأت فـإن شـئت أخـذت بحقّك وإن شئت عفوت)

وإن رأيت أن ذلك يؤذيه ويحرجه ويجرحه، فـاكتف بالـدعاء لـه وذكـر محاسـنه لتكفـر عن خطيئتـك باغتيابـه، كمـا ورد في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنّـه قـال: (كفّـارة من اغتبتـه أن تستغفر له)[2]، وقد قال رسول اللـه ﷺ: (اتّـق اللـه حيثمـا كنت وأتبع السّيّئة الحسنة تمحها وخالق النّاس بخلق حسن)[3]

وقد جمـع الإمـام الصـادق بين الأمـرين، فقـال: (إن اغتبت فبلغ المغتاب فاستحلّ منه، وإن لم تبلغه فاستغفر الله له)[4]

النميمة وعلاجها:

1() أحمد ج 2 ص 506.

2() ابن أبي الدنيا في الصمت.

3() رواه الترمذي (1987)، ورواه أحمد (5/ 153، 158، 228، 236)، والدارمي (2794)

4() مصباح الشريعة الباب التاسع والأربعون.

أما النميمة ـ أيها المريد الصادق ـ فتشترك مـع الغيبـة في نشرها للعيوب والفضائح، وتزيد عليها في الغـرض الـذي تهـدف إليه، وهو الإفساد بين المتآخين والمتحابين، بخلاف الغيبـة الـتي قـد لا يكـون مقصـودها سـوى الضـحك واللهـو واللعب، ولا ينتج عنها سوى ذلك الألم الذي يجده من وقعت الغيبة عليه.

ولذلك فإن كـل العقوبـات الـتي ذكـرت في الغيبـة، تكـون للنمامين، ويضاف إليها ذلك الإفساد الذي قاموا بـه، والـذي قـد يتفاقم إلى أن يخـرج من السـيطرة.. وحينهـا قـد يصـبح النمـام قاتلا ومجرما من غير أن يسفك أي دم، أو يقتل أي شخص.

وقــد روي في بعض الحكايــات أن رجلا بــاع عبــدا فقــال للمشتري: ما فيـه عيب إلّا النميمـة قـال: قـد رضـيت فاشـتراه فمكث الغلام أيّاما ثمّ قال لزوجة مولاه: إنّ زوجك لا يحبّك وهو يريد أن يتزوج عليك، وأنا أسحره لك في شعره، فقـالت: كيـف أقدر على أخذ شعره؟ فقـال: إذا نـام فخـذي الموسـى واحلقي من قفاه عند نومه شعرات حتّى أسحره عليها فيحبّـك، ثمّ قـال للزّوج: إنّ امرأتك اتّخذت خليلا، وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتّى تعرف ذلـك، فتنـاوم فجاءتـه المـرأة بالموسـى فظنّ أنّهـا تريـد قتله، فقام، فقتلها، فجاء أهلها وقتلـوا الـزّوج فوقـع القتـال بين القبيلتين وطال الأمر بينهم.

ولهذا، فإن النميمة جريمـة من الجـرائم الكـبرى الـتي قـد تفوق القتل وغيره، ذلك أنها السبب في كل المفاسد، كما عــبر الشاعر عن ذلك بقوله:

تنحّ عن النّميمة   فإنّ النّمّ يحبط

يثير أخو النّميمة   ويكشف للخلائق

ويقتل نفسه وليس النّمّ من

بل إن النمام قد لا يكتفي بالإفساد بين الأفراد المحدودين، وإنما يسري فساده للأمة جميعا، فالطائفية المقيتة التي فرقت بين المسلمين، وزرعت الصراع بينهم، ليست سوى ثمرة لأولئك النمامين الذين ـ بدل أن ينشروا المحبة بين المسلمين ـ راحوا ينشرون الفرقة والصراع بينهم.

ولهذا ذم الله تعالى النمامين ذما شديد، فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم: 10 -ـ 13]، فهذه الأوصاف جميعا هي منابع النميمة وثمارها.. فالنمام لا يرتاح إلا إذا رأى الخلق يتصارعون، ويمنع بعضهم خيره عن الآخر.

وقرن الله تعالى بين النميمة والقطيعة والإفساد في الأرض ونقض المواثيق، فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 26، 27]

وشبه النمام بالذي يحمل الحطب ليشعله، ويحرق الخلق به، كما قال تعالى في وصف امرأة أبي لهب التي كانت تسعى بالنميمة لتفسد بين رسول الله ﷺ وقومه: ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: 4]

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ أن النمام شر الناس، فقد روي أنه قال: (إنّ من شرّ النّاس من اتّقاه النّاس لشرّه)(1) والنمّام منهم.

1() الكافي ج 2 ص 327، والبخاري ومسلم نحوه.

وأخبر أنه (لا يدخل الجنـة نمـام)(1)، وفي روايـة: (لا يـدخل الجنّة قـاطع)(2)، وكيـف يـدخلها، وهـو الـذي إن دخلهـا لن يلتـذ بنعيمها ما لم ير قصورها تهدم، وأشجارها تحرق..

بل إن رسول اللـه ﷺ أخـبر عن تعجيـل العـذاب للنمـامين في البرزخ؛ فقد روي أنه خرج من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت إنسانين يعذبان، في قبريهما فقال: (يعـذبان ومـا يعـذبان في كبير، وإنه لكبـير: كـان أحـدهما لا يسـتتر من البـول، وكـان الآخر يمشي بالنميمة)(3)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاحـذر من أن تتكلم كلمة لا تلقي لها بالا قد تكـون سـببا في فتنـة عظيمـة، لا يمكن أن تسدها؛ فزن كلماتك قبل أن تتحدث بها، حتى لا تكـون وبـالا عليــك، وحــتى لا تــأتي يــوم القيامــة مجرمــا، وأنت لم تقتــل صرصورا واحدا.

ولا تكتف بـذلك، بـل واجـه النميمـة، وأفسـد أغراضـها، ولا تقبل من النمامين، حتى لا تكون معينا لهم.

وإياك أن تسمع للنمام، فهو فاسـق حـتى لـو لبس ملابس العلماء، وتحدث بكلام الحكماء، وقد قال اللـه تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَـةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: 6]

و قد روي عن الإمام عليّ أنّ رجلا أتاه يسعى إليـه برجـل، فقال: (يا هذا نحن نسـأل عمّـا قلت فـإن كنت صـادقا مقتنـاك،

1() البخاري، 6056، ومسلم، برقم 169.

2() البخاري ج 8 ص 6 ومسلم ج 8 ص 8.

3() البخاري، 6055، ومسلم، 292.

وإن كنت كاذبا عاقبناك، فإن شئت أن نقيلك أقلناك؟)، فقال: (أقلني يا أمير المؤمنين)[1]

وروي أن حكيما زاره بعض إخوانه، ونقل له خبرا عن غيره، فقال له الحكيم: (قد أبطأت عن الزّيارة، وأتيتني بثلاث جنايات: بغّضت إليّ أخي، وشغلت قلبي الفارغ، واتّهمت نفسك الأمينة)

وروي عن بعض الأمراء أنّه دخل عليه رجل، فذكر له عن رجل شيئا، فقال له: (إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: 6]، وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم: 11]، وإن شئت عفونا عنك؟) فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدا)[2]

وقال حكيم لبعض الأمراء: (احذر قاتل الثّلاثة)، قال: (ويلك، من قاتل الثّلاثة)؟ قال: الرّجل يأتي الإمام بالحديث الكذب، فيقتل الإمام ذلك الرّجل بحديث هذا الكذّاب، ليكون قد قتل نفسه، وصاحبه، وإمامه)[3]

وروي أن بعض الأمراء كتب إليهم أحد المتملقين له يحثّه على أخذ مال يتيم، وكان مالا كثيرا فكتب على ظهرها يقول له: (النّميمة قبيحة، وإن كانت صحيحة، والميّت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال نمّاه الله، والسّاعي لعنه الله)[4]

---

[1] () رواه المفيد في الاختصاص ص 142.

[2] () إحياء علوم الدين، (3/ 166)

[3] () انظر مساوىء الأخلاق للخرائطي(93)

[4] () الأذكار للنووي(310)

واعلم ـ أيها المريـد الصـادق ـ أن (من نمّ إليـك نمّ عليـك)(1)، وأن من بلغك سب غيرك لك، فقد سبك بغـير لسـانه، وقـد قال الشاعر:

لا تقبلنّ نميمة   وتحفّظنّ من الّذي

إنّ الّذي أهدى   سينمّ عنك بمثلها

وقد قال رجل لبعض الحكماء: إنّ فلانا ما يزال يذكرك في قصصه بشرّ، فقال له الحكيم: (يا هـذا مـا رعيت حـقّ مجالسـة الرّجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أدّيت حقّي حين أعلمتـني عن أخي مـا أكـره، ولكن أعلمـه أنّ المـوت يعمّنـا، والقـبر يضـمّنا، والقيامة تجمعنا، والله تعالى يحكم بيننا، وهو خير الحاكمين)(2)

وأختم لك وصيتي هذه بما أوصـى بـه لقمـان الحكيم ابنـه، فقد قـال لـه: (يـا بـنيّ أوصـيك بخلال إن تمسّـكت بهـا لم تـزل سيّدا: أبسط خلقك للقريب والبعيد، وأمسك جهلك عن الكـريم واللّئيم، واحفظ إخوانـك وصـل أقاربـك وآمنهم من قبـول قـول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويـروم خـداعك، وليكن أخـدانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تغتبهم ولم يغتابوك)

هذه وصيتي إليك ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ فاجتهـد في أن تحفظ نفسك من هذين المثلبين الخطيرين، ولا يمكنك ذلـك مـا لم تطهرها من كل الأمـراض الباطنيـة الـتي تـدفعها لـذلك.. فلا يمكن للحاقد والحاسد والمستكبر، والذي استولت عليـه نفسـه الأمارة أن يحكم لسانه، أو يضبط تصرفاته، وهل يمكن للنار أن تطفئها بالماء، وأنت تزودها كل حين بالوقود الذي يهيجها.

1() إحياء علوم الدين، (3/ 166)

2() المرجع السابق، (3/ 167)

الخداع والمكر

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الخداع والمكر، وما ارتبط بهما من الكيد والتآمر، والدوافع التي تدفع إليها، والثمار التي تثمرها، وكيفية معالجة النفس الأمارة منها، وسر ما ورد من النصوص المقدسة في وصف بعض أفعال الله تعالى بها مع تنزهه وتنزه أفعاله عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الخداع والمكر، ومثلهما الكيد والتآمر، وإن اشتهرت دلالاتها في الرذائل والمثالب، إلا أنها في أصل اللغة لا يراد بها ذلك(1).. وإنما يراد بها كل الطرق الخفية التي توصل إلى تحقيق الأغراض بسهولة ويسر، للحاجة التي تستدعي ذلك.

ويشير إلى هذا قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]، فقد أخبر الله تعالى أنه أتاح ليوسف عليه السلام أن يصطنع تلك الحيلة حتى يبقي أخاه معه، ولو أنه لم يقم بها لما سمح له

1() مما يدل على هذا المعنى قول الرَّاغب الأصفهاني عند حديثه عن المكر، فقد عرفه بقوله: (صرف الغير عمَّا يقصده بِحِيلة، وذلك ضربان:

1 - مكر مَحمود: وذلك أن يتحرَّى بذلك فعلاً جميلاً، وعلى ذلك قال: ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 54]

2 - مكرٌ مذموم: وهو أن يُتحرَّى به فعل قبيح، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: 43]

وقال في الأمرين: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ [النمل: 50][المفردات في غريب القرآن،473]

إخوته بالبقاء.

وبما أن في إبقاء يوسف عليه السلام مصلحة لأخيه، بل لإخوانه جميعا، فقد كان ذلك الكيد طيبا وصالحا.. بل إن الله تعالى أخبر أنه هو الذي أرشده لذلك.

ولهذا نرى القرآن الكريم يصف المكر الذي قام به أعداء الأنبياء عليهم السلام بكونه مكرا سيئا، فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: 42، 43]؛ فالعتاب لم يكن لمكرهم وتخطيطهم، وإنما كان لهدفه الذي كان سيئا.

فالتخطيط في حد ذاته مشروع، ولا حرج فيه، والحرج مرتبط بالهدف الذي يهدف إليه؛ فإن كان الهدف طيبا وصالحا، كان المكر طيبا وصالحا.

ولهذا أخبر الله تعالى أن له المكر جميعا، فقال:﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: 42]، ثم عقب على ذلك ببيان دليله، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 42]

وهذا ما يقال في الخداع؛ فهو إن وضع في غير محله، كان انحرافا وضلالا ومثلبا خطيرا.. لكنه إن وضع في محله الصحيح، واستعمل لسد المفاسد، كان عملا شرعيا وصحيا، يُمدح صاحبه عليه.

فالطبيب الذي يخدع مريضه ببعض الحيل، ليتناول دواءه، ويشفى من مرضه، لا حرج عليه في ذلك ما دام لا يجد سبيلا سوى ذلك[1]..

1() مثلما روي عن ابن سينا أنه داوى مريضا كان يعتقد بأنه بقرة، وكان يطلب من ذويه بإلحاح أن يذبحوه، فانقطع عن الأكل لأنهم رفضوا أن يفعلوا ذلك، فأرسل ابن سينا إليه يخبره بأنه قادم ليذبحه استجابة لطلبه، ولما حضر وفي يده السكين، أمر بربط يدي المريض ورجليه، وطرحه على

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الحـــرب خدعة) (1)، ذلك أن الأذكيـاء في الحــروب هم الـذين يخططـون التخطيط الجيد الذي يقلل الخسائر قدر الإمكان.

ولهذا فإن الخدعة في الحـرب تـدخل في مقتضـيات قولـه تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ وَمِنْ رِبَـاطِ الْخَيْـلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: 60]

ولـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فيمـا ذكـره علمـاء السـير والمغــازي من دور بعض أصــحاب رســول اللـــه ﷺ في تخــذيل الأحزاب وشق صفوفهم، وإلقاء الشكوك بينهم، وخداعــه لهم(2) ما يـدلك على أن المـؤمن لا ينتظـر مـؤامرات غـيره وخـداعهم لتُنفذ عليه، وهو ساكن لا يتحرك، بل إن الذكي هو الذي يتحــرك الحركة الإيجابية التي تحميه وتحمي المستضـعفين، وقــد تكــون سببا في ردع المستكبرين، وقد قال رسول اللــه ﷺ في وصــف المؤمن: (المؤمن كيس فطن حذر) (3)

وفي حديث آخر قال ﷺ: (المؤمن كيس فطن حـذر وقـاف مثبت لا يعجل عالم ورع، والمنافق همزة لمـزة حطمـة لا يقـف عند شبهة ولا عند محرم كحاطب الليل لا يبالى من أين اكتسب ولا فيما أنفق) (4)

الأرض ليذبحه. ولما همّ ابن سينا بالذبح، جس عضلات المريض جسا دقيقا، ثم التفت إلى أهله وقـال لهم بصـوت جهـوري: إن هـذه البقـرة ضـعيفة جـدا، ويجب تسمينها قبل ذبحها، وعندها أخذ المريض من تلك الساعة يأكل بشهية زائدة ليسمن، فقوي جسمه وترك وهمه وشفي من مرضه شـفاء تامـا، عبـد الكريم شحادة، صفحات من تاريخ التراث الطبي العربي الإسلامي.

1() البخاري- الفتح 6 (3030) واللفظ له، مسلم (1739) و(1740)

2() انظر: ابن هشام- السيرة 2/ 229- 230، الواقدي- المغازي 2/ 481.

3() القضاعى (1/107، رقم 128)، الحكيم (4/26). قال العجلونى (2/387)

4() الديلمى (4/175، رقم 6544)

وأخبر عن فطنة المؤمن، فقال: (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) (5)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فإياك أن تقع فيما وقع فيه أولئك الذين لم يقدروا الله حق قدره، فراحوا يصفونه بالمخادع والماكر والمستهزئ، وغيرها بناء على تلك النسب التي وجدوها في القرآن الكريم.. ذلك أن الله تعالى لا يوصف إلا بالكمال، وله الأسماء الحسنى.

ولذلك يمتنع أن يوصف بهذه الأوصاف لسببين:

أولهما: أن الكيد والخداع دليل على القصور والضعف، ولذلك يلجأ المخادع والكائد إلى تلك الطرق الخفية ليحقق أغراضه، والله تعالى منزه عن ذلك؛ فله الكمال المطلق، والقدرة المطلقة التي لا يعجزها شيء.

وثانيهما: أن هذه الألفاظ ـ بحسب ورودها في القرآن الكريم وفي لغة العرب ـ اشتهرت في المثالب أكثر من اشتهارها في المحاسن، ولذلك كان في وصف الله تعالى بذلك، تشويها لجلاله وجماله وعظمته، وخاصة لمن لا يعرف أنواع دلالات هذه الألفاظ، واتساعها للحق والباطل، والخير والشر.

ولهذا؛ فإن كل النصوص المقدسة التي ورد فيها ذكر المكر والخديعة والكيد منسوبا إلى الله تعالى لا يراد بها الحقيقة، وإنما يراد بها الاستعارة ومجاز المقابلة، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، وقال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194]

ومثل ذلك ما اتفقت عليه الأمة جميعا من استحالة

(5) البخاري5782، ومسلم 348.

النسيان على الله تعالى، وأن قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]

ومثله ما ورد من نسبة الملل إلى الله تعالى كما روي في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (عليكم بما تطيقون، فوالله؛ لا يمل الله حتى تملوا)، وفي رواية: (فوالله؛ لا يسأم الله حتى تسأموا) [1]

ومن هذا الباب أيضا يمكن تنزيه المؤمنين عن هذه الألقاب التي اشتهرت في المنكر، وإن كان في أصلها يمكن أن تطلق على المعروف، ولذلك لا يصح وصف المؤمنين بالخداع ولا المكر ولا الكيد ولا التآمر.. وإن كان ذلك صحيحا في أصل اللغة، لأن العبرة بما تعارف عليه الناس، ولا مشاحة في الاصطلاح.

إذا علمت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاسع لتطهير أرض نفسك من أشواك المكر والخديعة والكيد، وكل أصناف العدوان.. وقد ورد في النصوص المقدسة ما يدل على مجامع ذلك وتفاصيله، فتدبر معانيها؛ فلا يعالجك من أدوائك مثلها، وقد قال الله تعالى يصف كلماته المقدسة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 57]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82]

فإياك أن تكون من الظالمين الذين يعرضون عن أدوية ربهم إلى غيرها، فلا يجدون إلا الخسارة والعمى، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾

[1] رواه البخاري (43)، ومسلم (785)

[فصلت: 44]

العلاج المعرفي:

وأول الأدوية القرآنية لهذه المثـالب الخطـيرة الـتي تجعـل صاحبها لا يكتفي بالعدوان المباشر الذي قد يكون بسبب غضب عارض، وإنما يضيف إليه التخطيط والإصرار ووجوه الحيلة التي تظهر خلاف ما يبطن، مـا أخـبر اللـه تعـالى عنـه من أن حـرب المخادعين والماكرين ليست موجهة لأولئك المستضعفين الذين يكيدون لهم، ويتـآمرون عليهم، وإنمـا حـربهم مـع اللـه تعـالى.. وهل يمكن لعاقل أن يحارب ربه؟

ولذلك تذكر ـ أيها المريد الصادق ـ في كل موقف يــدعوك الشـيطان فيـه للتـآمر على أحـد من النـاس اطلاع اللـه عليـك، وعلمه بك، وأن المكـر لا يحيـق إلا بأهلـه، وأن من حفـر حفـرة لأخيه وقع فيها.

والآيات القرآنية التي تدل على ذلـك كثـيرة، فاقرأهـا بعين التنزيه لا بعين التشبيه، فالله تعالى لا يصف نفسـه فيهـا، وإنمـا يهـدد أولئـك العتـاة الغلاظ الــذين لا تنفعهم إلا التهديـدات، ولا يجدي فيهم إلا اللغة المتناسبة مع نفوسهم الأمارة.

ومن تلك الآيـات المهـددة للمـاكرين قولـه تعـالى: وَقَـدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَـانَ مَكْـرُهُمْ لِتَـزُولَ مِنْـهُ الجِبَالُ [إبراهيم:46]

فهذه الآية الكريمـة تشـير إلى أن مكـرهم العظيم، والـذي تكاد تزول الجبال من شدته، وعظم الأحقاد التي تحركـه إلا أنـه لن يصل إلى غرضه، وكيف يصل إلى غرضه، واللـه يحـول بينـه وبينه، كما قال تعـالى: يُرِيـدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُـورَ اللَّهِ بِـأَفْوَاهِهِمْ

وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [التوبة: 32]، وعقب عليها بوعده العظيم بنصرة الدين وإظهاره على كل الأديان، فقال: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة: 33]

وهكذا يتوعد الله تعالى كل الماكرين بأن مكرهم لن ينفعهم، وسيرتد عليهم، وستتحول كل مؤامراتهم إلى عكس ما كانوا يقصدون، قال تعالى: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ القَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ [النحل:26]، وقال: اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا [فاطر:43]

وقد أخبر الله تعالى عن النماذج الكثيرة لذلك الكيد والمكر الذي قام به أعداء الرسل عليهم السلام، وبين أن كل ذلك المكر ارتد عليهم، وأن الخسارة حاقت بهم، قال تعالى ـ مبينا سنته في ذلك ــ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ [الأنعام:123]

والآية الكريمة لا تشير فقط إلى أعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإنما تشير إلى أعداء الحقيقة، وأعداء الصادقين في كل مكان وزمان، وأنهم جميعا سيرتد كيدهم عليهم في نحورهم، ويحفظ الله تعالى المؤمنين من شرورهم، كما ذكرت ذلك السيدة زينب في مواجهتها ليزيد، وقولها له: (فكد كيدك واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم يناد المناد ألا

لعنة الله على الظالمين، فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة، إنه رحيم ودود) (1)

ولذلك فإن نهج الإمام الحسين لا زال قائما، وكلماته لا تزال حية، وتلاميذه وأبناؤه لا يزالون يقاومون الطغيان.. ولا يزالون يرفعون رايات المواجهة الكبرى مع جميع الشياطين والظلمة والمستبدين.. على الرغم من كل أصناف الكيد والمكر والخديعة التي وجهت لهم، وعبر التاريخ جميعا.

ومن النماذج التي ذكرها القرآن الكريم لكيد أعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام الكيد الذي تعرض له نوح عليه السلام الذي مكر به قومه مكرا عظيما، وصفه الله تعالى بقوله ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح:22]، لكن الله تعالى كاد له من حيث لا يحتسبون، فأمره بأمر غريب لم يكن في حسبانهم، قال تعالى:﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ [هود: 38، 39]، وحصل ما أخبر الله عنه، وارتد كل كيدهم عليهم، وأنجى الله نوحا والذين آمنوا معه، و﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: 48]

وهكذا أخبر الله تعالى عن عاد ومكرهم وكيدهم بنبيهم هود عليه السلام، وقوله لهم: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) فَإِنْ تَوَلَّوْا

(1) بحار الأنوار (45/ 135)

فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [هود: 54 ـ 57]، ثم ذكر عاقبة كيـدهم ومكـرهم، فقـال: وَلَمَّا جَـاءَ أَمْرُنَـا نَجَّيْنَـا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَـاهُمْ مِنْ عَـذَابٍ غَلِيـظٍ (58) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُـلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَـوْمَ الْقِيَامَـةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ [هود: 58 - 60]

وهكذا أخبر الله تعالى عن ثمـود ومكـرهم وكيـدهم بنـبيهم صالح عليه السلام، قـال اللـه تعـالى: وَمَكَـرُوا مَكْـرًا وَمَكَرْنَـا مَكْـرًا وَهُمْ لَا يَشْـعُرُونَ [النمـل: 50]، ثم بين عاقبـة مكـرهم، وكيف ارتد عليهم، فقال: فَانْظُرْ كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ مَكْـرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَـةً بِمَـا ظَلَمُـوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَـا الَّذِينَ آمَنُـوا وَكَـانُوا يَتَّقُونَ [النمل: 51 - 53]

وهكـذا أخـبر اللـه تعـالى عن قـوم إبـراهيم عليـه السـلام، وكيدهم له كيدا عظيما بسبب تحطيمه لأصنامهم، قال تعالى: قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُـرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَـاعِلِينَ [الأنبيـاء: 68]، لكن الله تعالى رد عليهم من حيث لا يحتسبون، فقال: قُلْنَا يَـا نَـارُ كُـونِي بَـرْدًا وَسَـلَامًا عَلَى إِبْـرَاهِيمَ [الأنبيـاء: 69]، ثم بين عاقبة كيدهم، فقـال: وَأَرَادُوا بِـهِ كَيْـدًا فَجَعَلْنَـاهُمُ الْأَخْسَـرِينَ [الأنبياء: 70]، وقال: فَـأَرَادُوا بِـهِ كَيْـدًا فَجَعَلْنَـاهُمُ الْأَسْـفَلِينَ [الصافات: 98]

وهكذا أخـبر اللـه تعـالى عن فرعـون، وقولـه لجنـود: إِنْ هَـذَانِ لَسَـاحِرَانِ يُرِيـدَانِ أَنْ يُخْرِجَـاكُمْ مِنْ أَرْضِـكُمْ بِسِـحْرِهِمَا وَيَـذْهَبَا بِطَـرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَـأَجْمِعُوا كَيْـدَكُمْ ثُمَّ ائْتُـوا صَـفًّا وَقَــدْ أَفْلَحَ الْيَــوْمَ مَنِ اسْــتَعْلَى [طــه: 63،ــ 64]، ثم أخــبر

أنه﴿ تَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ [طه: 60]، لكن الله تعالى أخبر أن كيد فرعون ومكره لا يمكنه أن يواجه الله، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: 37]، ولذلك تحقق النصر لموسى عليه السلام والهلاك لفرعون وجنوده من حيث لا يحتسبون، قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال: 54]، وقال: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: 103]

وهكذا أخبر الله تعالى عن مكر اليهود بالمسيح عليه السلام، وارتداد مكرهم عليهم، وإنقاذ الله تعالى المسيح عليه السلام منهم، وإلقاء الشبه على من دبر له المكايد، قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: 54، 55]

وهكذا ورد في الآيات الكثيرة صور الكيد والمكر الذي قامت به قريش واليهود والمنافقون وغيرهم في مواجهة رسول الله ﷺ، لكن كل كيدهم باء بالفشل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30]

لكن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يتحداهم، لأن الله معه، فقال: ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف: 195-196]

وقد أخبر الله تعالى عن عاقبة كيدهم، فقال: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ

كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيـدُونَ ﴾ [الطُّور:42]، وقـال: ﴿ وَمَـا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَـلَالٍ ﴾ [غـافر: 25]، وقـال: ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال:18]

وقد حصل ذلك؛ فقد ارتـد كـل كيـدهم عليهم، ونصـر اللـه رسـوله ﷺ والمستضـعفين الـذين معـه، من حيث لم يحتسـب أولئك الكائدون.

تدبر كل هذه الآيات ـ أيها المريد الصادق ــ وتعلم منهـا أن تلجأ إلى الله، وأن تكون مع الحـق وأهلـه، وألا يزعجـك الباطـل وجنده؛ وإياك أن تكون في صـف الظـالمين المـاكرين، حـتى لا تكون محاربا لرب العالمين.. فأسـعد النـاس من كـان مظلومـا، وأشقاهم من كان ظالما، لأن النصر سيكون حليف المظلومين، والوبال والخسارة ستكون حليف الظالمين ومصيرهم، وقد قال تعالى مخبرا عن عاقبة كيد المنافقين: ﴿ وَإِنْ تَصْـبِرُوا وَتَتَّقُـوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُـونَ مُحِيـطٌ ﴾ [آل عمـران: 120]

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصـادق ــ فاحـذر من كـل مـا يخرج قلبك عن سلامته، ونفسك عن طهارتها.. فكن واضحا في كـل تصـرفاتك، صـادقا في كـل مواقفـا، ولا تلجـأ إلى الخديعـة والمكر.

وإياك أن تكون من أولئـك الـذين يضـعون أقنعـة مختلفـة، ليحتالوا على الجميـع، ﴿مُذَبْـذَبِينَ بَيْنَ ذَلِـكَ لَا إِلَى هَـؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَـؤُلَاءِ ﴾ [النسـاء: 143]، فقـد أخـبر رسـول اللـه ﷺ أنهم شـر الناس، فقال: (إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه

وهؤلاء بوجه)[1]

وقال: (من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار)[2]

إلا إذا كان قصدك من ذلك الاحتيال للإصلاح بين المختلفين، فقد قال رسول الله ﷺ: (ليس الكذّاب الّذي يصلح بين النّاس، ويقول خيرا وينمي خيرا) [3]، قال الراوي: ولم أسمع يرخّص في شيء ممّا يقول النّاس إلّا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين النّاس، وحديث الرّجل امرأته، وحديث المرأة زوجها) [4]

وإياك أن تتوهم أن الخداع والمكر والكيد خاص بأقوام الأنبياء عليهم السلام، أو بما يرتبط بالدين؛ فقد يدخل الخداع في أي شيء تمارسه في حياتك.. وقد ورد في الحديث أنّ رسول الله ﷺ مرّ على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا، فقال: (ما هذا يا صاحب الطّعام؟) قال: أصابته السّماء يا رسول الله. قال: (أ فلا جعلته فوق الطّعام كي يراه النّاس؟ من غشّ فليس منّي)[5]

1() البخاري، 7179، ومسلم، 199- (2526)

2() أبو داود، 4873.

3() البخاري- الفتح 5 (2692). مسلم (2605)

4() البخاري- الفتح 5 (2692). ومسلم (2605)

5() مسلم(102)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (ما من عبد يسترعيه الله رعيّة، يموت يوم يموت وهو غاشّ لرعيّته إلّا حرّم الله عليه الجنّة)[1]

وانتبه جيدا ـ أيها المريد الصادق ـ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (من غشّ فليس منّي)، فليس هو كما يرويه الناس، ويذكرون أن رسول الله ﷺ خص بالغش المؤمنين، فقال: (من غشّنا فليس منّا)، فالغش محرم مطلقا، للمسلم وغير المسلم، وقد قال رسول الله ﷺ: (ألا من قتل نفسا معاهدا له ذمّة الله وذمّة رسوله فقد أخفر بذمّة الله فلا يرح رائحة الجنّة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا)[2]

وهكذا نهى رسول الله ﷺ عن الخديعة والمكر والغش في كل شيء، ففي الحديث عنه قال: (أهل النّار خمسة: الضّعيف الّذي لا زبر[3] له، الّذين هم فيكم تبعا لا يتبعون أهلا ولا مالا. والخائن الّذي لا يخفى له طمع[4] وإن دقّ إلّا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلّا وهو يخادعك عن أهلك ومالك) وذكر البخل أو الكذب، والشّنظير[5] الفحّاش)[6]

وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمر أنّ رجلا ذكر للنّبيّ ﷺ، أنّه يُخدع في البيوع؛ فقال: لا خلابة[7])[8]

---

[1] () البخاري [فتح الباري]، 13(7150)، ومسلم(142)

[2] () الترمذي(1403)

[3] () لا زبر له: أي لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي.

[4] () والخائن الذي لا يخفى له طمع: معنى لا يخفى لا يظهر.

[5] () الشنظير: فسره في الحديث بأنه الفحاش، وهو السيء الخلق.

[6] () مسلم 4(2865)

وقال ﷺ: (ثلاث لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا ينظــر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعــه من ابن السّبيل، ورجل بايع رجلا بسلعة بعـد العصـر فحلـف لـه بالله لأخذها بكذا وكذا فصدّقه، وهو على غير ذلـك، ورجـل بـايع إماما لا يبايعـه إلّا لـدنيا. فـإن أعطـاه منهـا وفى، وإن لم يعطـه منها لم يف)(1)

وجـاءت امـرأة إلى النّـبيّ ﷺ فقـالت: إنّ لي ضـرّة، فهـل عليّ جنـاح أن أتشـبّع من مـال زوجي بمـا لم يعطـني؟ فقـال رسول الله ﷺ: (المتشبّع بما لم يعط، كلابس ثوبي زور)(2)

ونهى عن كـل صـور الخـداع في الـبيع، فقـال: (لا يتلقّى الرّكبان لبيع ولا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا تناجشوا، ولا يبـع حاضر لباد، ولا تصرّوا الإبل والغنم؛ فمن ابتاعهـا بعـد ذلـك فهـو بخير النّظرين، بعد أن يحلبها فإن رضـيها أمسـكها وإن سـخطها ردّها وصاعا من تمر)(3)

وعن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنـه قـال: (نهى رسـول اللـه ﷺ عن بيـع الحصـاة وعن بيـع الغـرر) (4)، وعن آخـر قـال: (نهى النّبيّ ﷺ عن النّجش(5))(6)

7() لا خلابة: لا تخلبوني أي لا تخدعوني.

8() البخاري [فتح الباري]، 12(6964)، ومسلم(1533)

1() مسلم(108)، وبعضه عند البخاري الفتح 5(2353)

2() البخاري [فتح الباري]، 9(5219)، ومسلم(2130).

3() البخاري [فتح الباري]، 4(2150)، ومسلم(1515).

4() مسلم(1513)

5() النجش: الزيادة في ثمن السلعة ممن لا يريد شراءها ليقع غيره فيها.

ومثلـه نهى عن الخـداع في الزكـاة، فقـال: (لا يجمـع بين مفترق ولا يفرّق بين مجتمع خشية الصّدقة)(1)

ومثلـه نهى عن الخـداع والتلاعب في العلاقـات الزوجيـة، فعن ابن مسعود قـال: (لعن رسـول اللـه ﷺ المحلّـل والمحلّـل له)(2)

وأعطى رسول الله ﷺ قاعدة لذلك، فقال: (المؤمن غرّ(3) كريم، والفاجر خبّ(4) لئيم)(5)

واحذر ـ أيها المريد الصادق ـ من أن تكـون كأولئـك الـذين يتاجرون بالدين، ويخدعون الخلـق بـه، أو يسـتعملون ذكـر اللـه والقسم به في غير محله، وقد ورد في الحـديث قولـه ﷺ: (من اقتطع حقّ امرىء مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النّار، وحرّم عليه الجنّة، فقال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسـول اللـه. قال: (وإن قضيبا من أراك)(6)

وإيـاك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن تقتـدي بأولئـك الـذين يعتبرون ذلك شطارة وذكاء.. فالذكي هو الـذي يتـورع أن يأكـل أموال الناس بالباطل أو الكـذب أو الـتزوير، وتـذكر قـول بعض الحكمـاء: (لا يـزال الرّجـل يـزداد في صـحّة رأيـه مـا نصـح

6() البخاري [فتح الباري]، 4(2142)، ومسلم(1516)

1() البخاري [فتح الباري]، 12(6955)، وأبو داود(1567).

2() الترمذي(1120)

3() الغر: الذي لم يجرب الأمور.

4() الخب: الخداع المكار الخبيث.

5() الترمذي(1964)، وأبو داود(4790)

6() مسلم(137)

لمستشيره، فإذا غشّه سلبه الله نصحه ورأيه، ولا يلتفتنّ إلى من قال: إذا نصحت الرّجل فلم يقبل منك فتقرّب إلى الله بغشّه، فذلك قول ألقاه الشّيطان على لسانه، اللهمّ إلّا أن يريد بغشّه السّكوت عنه، فقد قيل: كثرة النّصيحة تورث الظّنّة، ومعرفة النّاصح من الغاشّ صعبة جدّا، فالإنسان لمكره يصعب الاطّلاع على سرّه، إذ هو قد يبدي خلاف ما يخفي، وليس كالحيوانات الّتي يمكن الاطّلاع على طبائعها) (1)

وروي أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى السلعة يبيعها بصَّر عيوبها ثم خيره، وقال: (إن شئت فخذ وإن شئت فاترك)، فقيل له: (إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع)، فقال: (إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم) (2)

وروي عن آخر، وهو واثلة بن الأسقع أنه كان واقفاً؛ فباع رجل ناقة له بثلثمائة درهم فغفل واثلة وقد ذهب الرجل بالناقة؛ فسعى وراءه وجعل يصيح به: يا هذا اشتريتها للحم أو للظهر؟ فقال: بل للظهر، فقال: إن بخفها نقبا قد رأيته وإنها لا تتابع السير، فعاد فردها فنقصها البائع مائة درهم، وقال لواثلة: رحمك الله أفسدت علي بيعي، فقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يحل لأحد يبيع بيعاً إلا أن يبين آفته، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا تبيينه) (3)

وروي عن بعض الصالحين أنه كان بالبصرة وله غلام بالسوس يجهز إليه السكر، فكتب إليه غلامه: إن قصب السكر

1() الذريعة إلى مكارم الشريعة، (ص211)

2() رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، (ص803)

3() رواه الحاكم والبيهقي وقال الحاكم صحيح الإسناد.

قد أصابته آفة في هذه السنة، فاشتر السكر، فاشترى سكراً كثيراً، فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفاً، فانصرف إلى منزله فأفكر ليلته وقال: ربحت ثلاثين ألفاً وخسرت نصح رجل من المسلمين، فلما أصبح غدا إلى بائع السكر فدفع إليه ثلاثين ألفاً، وقال: بارك الله لك فيها، فقال: ومن أين صارت لي؟ فقال: إني كتمتك حقيقة الحال وكان السكر قد غلا في ذلك الوقت، فقال: رحمك الله قد أعلمتني الآن وقد طيبتها لك، قال: فرجع بها إلى منزله وتفكر وبات ساهراً وقال: ما نصحته، فلعله استحيا مني فتركها لي فبكر إليه من الغد وقال: عافاك الله، خذ مالك إليك فهو أطيب لقلبي، فاخذ منه ثلاثين ألفاً[1].

هذه نماذج عن صفاء قلوب الصالحين وصدقهم، وهم الذين ينبغي أن يكونوا أسوة لك، أما من عداهم ممن يعتبرون أنفسهم دهاة وأذكياء، فسينالهم العقاب من حيث لا يشعرون، وأول ذلك العقاب دعوات أولئك الذين ظلومهم وغشوهم، كما عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

يا بائعاً بالغش أنت مُعَرّض... لدعوة مظلوم إلى سامع الشكوى

فكل من حلال وارتدع عن محرم... فلست على نار الجحيم غداً تقوى

ذلك أن الغش والخديعة أخطر أنواع الظلم، فلذلك قد يدعو عليك من غششته أو خدعته، وأنت تظن أنك بعته بيعا شرعيا عن تراض، وقد قال ﷺ: (ثلاثة لا تردّ دعوتهم، الإمام العادل، والصّائم حتّى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السّماء ويقول: بعزّتي،

[1] () إحياء علوم الدين (2/ 78)

لأنصرنّك ولو بعد حين) [2]

هذه وصيتي إليك ـ أيها المريد الصادق ــ فـامتلئ بالصـدق والإخلاص، وإيـاك والحيلـة والـدهاء، ومـا تـؤدي إليـه من المكـر والخداع إلا إذا كان في سبيل الحق ونصـرته، ومواجهـة الباطـل وظلمه.

---

[2] () رواه الترمذي (3598)، وابن ماجه (1752)، وأحمد (2/ 304) (8030)

البهتان والكذب

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن البهتان والكذب، وما ارتبط بهما من الإفك والقذف وشهادة الزور، وكل ما يشوه الحقائق ويزورها، وعن حدودها وأماراتها والمنابع التي تنبع منها، وكيفية مواجهتها واستئصالها لتطهر أرض النفس منها.

وهو سؤال وجيه، ولا يمكن لمن يريد سلوك طريق الله ألا يعرف تفاصيل ما ذكرت، ويدقق فيها، حتى يتجنب كل ما قد يزينه له الشيطان؛ فيتحول إلى كذاب من حيث لا يشعر، وقد قال رسول الله ﷺ: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صدّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً)[1]، وفي رواية: (وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كَذَّاباً)[2]

وهذا الحديث يدل على قاعدة مهمة في السلوك إلى الله تعالى، وهي أن النفس الأمارة بالسوء تتشكل طبيعتها، وتتصور صورتها بحسب السيئات التي تدمن عليها.. والتي قد تبدأ صغيرة يستهين بها صاحبها، ثم تكبر بالمداومة والاستمرار، إلى أن تصبح طبيعة لا يمكن الفكاك منها.

ولهذا ورد في الحديث النهي عن كل كذب، ولو لم يكن له

[1] () البخاري، 6094، ومسلم، 2607.

[2] () مسلم، (2607)، والترمذي، 1971.

أي تأثير عدواني على الآخرين، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الكذب يكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة) (1)

بل روي ما هو أشد من ذلك مما يتساهل فيه الخلق، لكنه يؤدي إلى تغذية هذا المثلب في النفس إلى أن يصبح طبيعة فيها، فقد روي في الحديث عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: دعتني أمي يومًا ورسولُ الله ﷺ قاعدٌ في بيتنا فقالت: ها تعالَ أُعْطِك، فقال لها رسول الله: (ما أردتِ أن تعطيه؟)، قالت: أردت أن أعطيه تمرًا، فقال رسول الله ﷺ: (أمَا إنك لو لم تُعطِيه شيئًا، كُتِبَت عليك كَذِبة) (2)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (مَن قال لصبي: هاك، ثم لم يُعطِه، فهي كذبة)(3)

وحتى ذلك التساهل الذي يتساهل فيه الكثير في نقل الأخبار من دون تثبت، زاعما أنه يلقي عبئها على الراوي، أخبر رسول الله ﷺ عن كونه مثلبا من المثالب التي تغذي النفس الأمارة بالسوء، فقال: (بئس مطية الرجل: زعموا) (4)

ولهذا أخبر الله تعالى أن الصدق الحقيقي لا يكون بالنقل المجرد عن التحقيق، وإنما يكون بالتحقيق والبحث الواعي، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: 36]، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع) (5)

1() أحمد (45/ 465)

2() رواه أحمد، وأبو داود، والبيهقي

3() رواه أحمد

4() رواه أبو داود

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن المنابع التي تمد هذا المثلث الخطير كثيرة جدا، بل إن كل الأمراض النفسية، تدفع صاحبها لتزوير الحقائق، وإذاعة الإفك، وتشويه من يختلف معهم، ولهذا اعتبر الله تعالى الكذب من أعظم الآفات، وأن سببه الأكبر هو ضعف الإيمان أو عدمه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: 105]

وعندما سئل رسول الله ﷺ عن بعض الذنوب، وإمكانية اجتماعها مع الإيمان، أجاب بالإيجاب، لكنه عندما سئل عن اجتماعها مع الكذب نفى ذلك.. ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه سُئل: أيكون المؤمن جباناً ؟ قال: (نعم)، ثم سُئل: أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال: (نعم)، ثم سُئل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: (لا) [1]

ولهذا أخبر الله تعالى أن امتحان الصدق والكذب هو أكبر الاختبارات التي يتعرض لها البشر لتمييز طيبهم من خبيثهم، قال تعالى: قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 2، 3]

بل أخبر أن هدايته لا تتنزل على الكذابين، وكيف تتنزل عليهم، وهم قد ألفوا تشويه الحقائق؛ فصاروا يتهمون كل من يريد هدايتهم بالكذب، قياسا له على أنفسهم، قال تعالى: قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:

5() رواه مسلم.

1() الموطأ (2/990) (19)، البيهقي في شعب الإيمان (6/456) (4472)

[3

ولهذا، فـإن من أكـبر العقوبـات الـتي تتـنزل على الكـاذب استعداده للنفاق، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَـاءَكَ الْمُنَـافِقُونَ قَـالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُـولُهُ وَاللَّهُ يَشْـهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1]

وفي الحديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (آيـة المنـافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)(1)

إذا عرفت هذا ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ فاسـع لأن تحفـظ نفسك وتقيها من هذا الـداء العضـال، فإنـه من المهلكـات الـتي قلما ينجو من أدمن عليها.

العلاج المعرفي:

وأول الأدوية الـتي تحفظـك من هـذا المثلب الخطـير ومـا ارتبط به تأملك لما ورد في القرآن الكريم حوله، لتعلم أن اللـه تعالى لم يصف به سـوى المنـافقين والكـافرين والظـالمين في نفس الوقت الذي وصف فيه المؤمنين بالصدق والصفاء.

فـاقرأ تلـك الآيـات ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ قـراءة تـدبر وتمعن، واعلم أنك إن صدقت مع كل آية منها، فستقوم بـدورها في تطهير نفسك وتزكيتها إلى أن تطهر من هذا الداء الخـبيث؛ فأعظم الأدوية هي الأدوية القرآنية، وأعظم المـربين هـو كتـاب ربنا وكلماته المقدسة.

وبما أني لا أستطيع أن أوردها لك جميعا؛ فسأكتفي بنماذج منها، تكون دليلا لك إلى غيرها:

---

(1) البخاري، رقم 33، ومسلم، رقم 59.

فمن تلـك الآيـات مـا ورد في القـرآن الكـريم من اجـتراء الكاذبين على الله، وهي تشير إلى أن المـدمن على الكـذب، لا يكتفي بالكذب على الخلق والافتراء عليهم، وإنما تطالبه نفســه بالمزيد والمزيـد إلى أن يفـتري على اللـه نفسـه، مثلمـا تفعـل المخدرات بأصحابها، والذين يحتاجون إلى زيـادة الجرعـات كـل حين، حتى يلبوا الحاجات التي لا تنقطع لإدمانهم.

ومن تلك الآيات قوله تعالى في افتراءات اليهود على الله تعالى: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: 181]، وقوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة: 64]

وهي تشير إلى أن اليهود ـ مع كثرة الأنبياء الذين أرســلهم اللـه إليهم ــ إلا أن نفوسـهم الأمـارة الممتلئـة بالكـذب وتزويـر الحقــائق جعلتهم لا يسـتفيدون منهم، وهــو مــا يــدل على أن الكذب والافتراء هو الحجاب الأعظم بين الإنسان والحقائق.

وأخبر الله تعالى أن الكذب والافتراء هو السبب في كل التحريفات التي حصلت للأديان، فقال: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: 103]

ولهذا اعتبر الله تعالى في آيـات عديـدة الكـذب على اللـه والافتراء على دينه أعظم أنواع الظلم، ذلك أنه يشـبه من يضـع السموم في الأدويـة، فيصـبح ملاذ الشـفاء سـبب المـوت، قـال

تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَـرَى عَلَى اللَّهِ كَـذِبًا أَوْ كَـذَّبَ بِآيَاتِـهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: 21]

ثم بين أن الكذب الذي أدمنوا عليه في الـدنيا، يبقى معهم في الآخرة، وأنهم يلجؤون إلى ما كانوا يلجـؤون إليـه في الـدنيا من الاحتيال على تشويه الحقائق بالقسـم ونحـوه، قـال تعـالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًـا ثُمَّ نَقُـولُ لِلَّذِينَ أَشْـرَكُوا أَيْنَ شُـرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُـونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَـالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَـلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: 22 - 24]

وقبل هذه الآيات الكريمة أشار الله تعـالى إلى أن تكـذيب هؤلاء للحقـائق ليس ناشـئا عن ضـعف أدلتهـا، وإنمـا لمـا أدمت عليه نفوسهم من الكذب؛ فصاروا يتصورون كـل الخلـق مثلهم، حتى أنبياء الله، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُـونَ أَبْنَـاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُـونَ ﴾ [الأنعام: 20]

وفي آية أخرى ذكر الله تعالى أن الذين يفـترون على اللـه الكذب، قد يتفاقم وضعهم، إلى أن يدعو تنزل وحي الله عليهم، قـال تعـالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَـرَى عَلَى اللَّهِ كَـذِبًا أَوْ قَـالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَـالَ سَـأُنْزِلُ مِثْـلَ مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: 93]، ثم بين عاقبة هـؤلاء لينفـر النفـوس منهـا، فقـال: ﴿وَلَـوْ تَـرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَـرَاتِ الْمَـوْتِ وَالْمَلَائِكَـةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَـذَابَ الْهُـونِ بِمَـا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْـرَ الْحَـقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِـهِ تَسْـتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93]

وهي تبين أن المنبع الذي نبع منه هذا النوع من الكذب هـو الكبرياء، ذلك أن المستكبر لا يسـتطيع أن يسـلم لغـيره، ولهـذا

يلجأ إلى الكذب والافتراء ليشكل دينا على مقاسه ومزاجه.

ولهذا؛ فإن الكاذب على الله من أخطر المجـرمين، لأنـه لا يقتل أجساد الناس، وإنما يقتل أرواحهم، ويسمم منـابع الهدايـة التي أنزلها اللـه عليهم، قـال تعـالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَـرَى عَلَى اللَّهِ كَـذِبًا أَوْ كَـذَّبَ بِآيَاتِـهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُـونَ﴾ [يـونس: 17]

لا تحسب ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ أن هـذه الآيـات خاصـة بأولئـك اليهـود، أو أولئـك المشـركين، وأن هـذه الأمـة بمعـزل عنها.. ليس الأمر كذلك.. فالتحريف الذي وقـع في تلـك الأديـان وقع في هذه الأمـة.. ولـولا أن اللـه تعـالى تكفـل بحفـظ كتابـه لمسه التحريف والتزوير والتبديل، لكنهم عندما لم يطيقوا ذلـك راحـوا يحرفـون الحقـائق والقيم ويشـوهونها، ويضـيفون إلى رسول الله ﷺ ما لم يقله، ليخلطوا الحـق بالباطـل، أو ليلبسـوا الحق ثوب الباطل.

ولهذا ورد التحذير الشديد من الكذب على رسول اللـه ﷺ، قال ﷺ: (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) [1]

ومثل ذلك في الاجتهاد، والذي قد تدخلـه الأهـواء، وتتلاعب به الأمزجـة، وتتـداخل فيـه المصـالح، فيحلـل المحـرم، ويحـرم الحلال، افتراء على اللـه، قـال تعـالى: ﴿ وَلَا تَقُولُـوا لِمَـا تَصِـفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَـرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: 116]

وقد أشار الله تعالى إلى سنة المجتمعات بعد أنبيائها في ذلك، فقال: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ

1() رواه البخاري ومسلم وغيرهما، قال المنذري: هذا الحديث قد روي عن غير واحد من الصحابة في الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها حتى بلغ مبلغ التواتر.

عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: 169]

وأعطى في آيات أخرى أدوية كثيرة لعلاج هذه الحالة المستعصية، وأولها أن يعلم المجتهد أنه موقع عن رب العالمين، وأن الشريعة شريعة الله لا شريعته، لذلك لا يحل له إقحام عقله وهواه ومزاجه فيها، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: 59]

ثم بين عاقبة هؤلاء المفترين، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: 60]

ثم بين الحضور الدائم لله، حتى يراقب المفتري على الله نفسه، فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: 61]

وقد ورد في النصوص المقدسة ما يبين أن الكذب ليس سمة أهل الكتاب ولا المشركين ولا محرفي الأديان فقط، وإنما هو الصفة الأساسية الغالبة للمنافقين، وهو يعني أن الكذب من منابع النفاق، وأن من أدمن عليه قد يصبح منافقا من حيث لا يشعر.

ولهذا أخبر الله تعالى أن من ثمار الوعود الكاذبة إنبات شجرة النفاق في القلب، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ

لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [التوبة: 75، 76]، ثم بين عاقبة ذلك، فقال: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [التوبة: 77]

وهكذا أخبر أن ذلك الكذب هو الذي أورثهم النفاق وما ينتج عنه من العذاب الشديد، قال تعالى مخبرا عن المنافقين وصفاتهم وأفعالهم: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [البقرة: 8 - 10]

وتذكر ـ أيها المريد الصادق ـ عند ذكرك لهذا تلك العقوبات الشديدة التي ارتبطت بالمنافقين، والذين لم يكونوا ليصبحوا كذلك لولا تساهلهم مع الكذب، ومنها هذه العقوبة الخطيرة التي نص عليها قوله تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا [النساء: 145]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ وعلمت أن الكذيبة تؤدي إلى الكذبة، والكذبة تؤدي إلى الافتراء والبهتان والإفك، وكلها تنتهي إلى النفاق؛ فاحذر من مبادئ الكذب حتى لا تقع في مستنقعاته وأوحاله.

وإياك أن تتوهم ـ أيها المريد الصادق ــ أن عقوبة الكاذب مؤجلة للآخرة، لا.. ليس كذلك.. بل هي معجلة في الدنيا، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إنّ العبد ليكذب الكذب فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به)[1]

[1] الترمذي ج 8 ص 147.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (رأيت كان رجلا جاءني فقال: قم فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس، بيد القائم كلّوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتّى يبلغ كاهله، ثمّ يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمدّه فإذا مدّة رجع الآخر كما كان فقلت للّذي أقامني: ما هذا؟ فقال: هذا رجل كذّاب يعذّب في قبره إلى يوم القيامة)(1)

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاجعل بينك وبين الكذب آلاف الحواجز، ولا تفت لنفسك بأي فتوى، قد تجعلك تغرق في أوحاله، ثم لا تستطيع أن تخرج منها.

وأول ذلك أن تحذر كل الحذر من أن تكون كأولئك اليهود الذين استحلوا الموبقات إن كانت مع غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75]

فالموبقات والذنوب مثلها مثل المنجيات والحسنات قيم ثابتة تطبق مع جميع الناس، وفي جميع الأحوال، ومن راح يميز في معاملته بين قوم وقوم، يكون كاذبا في دعواه.. ولذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]

ولهذا أخبر الله تعالى عن السجناء أنهم قالوا ليوسف عليه السلام: ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36]، وهو يدل

(1) البخاري ج 9 ص 56.

على أن معاملتـــه لهم لم تكن تختلــف عن معاملتـــه مـــع أبيـــه وإخوانه وأهل بيته..

وإياك أن تتعود على إطلاق الوعود، حتى لو كانت بسيطة؛ فإن خلفها من أعظم الكـذب، وقـد قـال اللـه تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]

وأثنى اللـه تعـالى على نبيّـه إسـماعيل عليـه السـلام بأنـه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْـدِ وَكَـانَ رَسُـولًا نَبِيًّا﴾ [مـريم: 54]، وقـد روي عن الإمام الصادق أنه قال: (إنّما سمّي إسماعيل صادق الوعـــد لأنّه وعد رجلا في مكان فانتظره في ذلك المكان سنة؛ فسـمّاه اللـــه صـــادق الوعـــد، ثمّ إنّ الرّجــل أتـــاه بعـــد ذلـــك فقـــال لـــه إسماعيل: ما زلت منتظرا لك)[1]

وهكذا روي عن النبي ﷺ، فقد حدث بعضـهم قـال: بـايعت النّبي ﷺ فوعدتـه أن آتيـه بهـا في مكانـه ذلـك، فنسـيت يـومي والغد فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه، وقال: يا فـتى قـد شققت عليّ أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك)[2]

وإن شـئت أن ترتـدع عن إطلاق الوعـود الكاذبـة، فتـذكر قوله ﷺ: (ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صـام وصـلّى وزعم أنّه مسلم: إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)[3].

وفي حديث آخـر قـال ﷺ: (أربـع من كنّ فيـه كـان منافقـا ومن كانت فيه خلّة منهنّ كانت فيه خلّـة من خلال النفـاق حتّى

1() رواه الصدوق في العلل باب 67.

2() أبو داود ج 2 ص 595. والبغوي في المصابيح 2 ص 154.

3() مسلم ج 1 ص 56.

يدعها: إذا حـدّث كـذب، وإذا وعـد أخلـف، وإذا عاهـد غـدر، وإذا خاصم فجر)(1)

وإذا عرض لك عارض منعك من الوفاء بوعـدك أو عهـدك، فاعتذر لمن وعدتهم وعاهدتهم، واذكر لهم عذرك؛ فقد رفع الله الإصـر على من فعـل ذلـك، وقـد قـال رسـول اللـه ﷺ: (ليس الخلف أن يعد الرجل الرّجل ومن في نيّته أن يفي)، وقـال: (إذا وعد الرّجل أخاه وفي نيّته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه)(2)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ ونشر أفكارك، أو بيع سـلعك، أو الترويج لمنتجاتك بالكذب أو بالمعاريض، فإن ذلك مهلك لـك، ومتلف لسلعتك.. فالكذب شؤم، وما حل بشيء إلا أفسده، وقد قال رسول الله ﷺ: (الكذب ينقص الرزق)(3)

وفي حـديث آخـر قـال رسـول اللـه ﷺ: (إنّ التجّـار هم الفجّار)، فقيل: يا رسول الله أليس الله قد أحـلّ الـبيع؟ فقـال: (نعم ولكنّهم يحلفون فيأثمون، ويحدّثون فيكذبون)(4)

وإياك أن تفهم من هذا الحديث ـ أيها المريد الصـادق ــ أن رسول الله ﷺ يحرم التجارة، أو ينهى عنها، وإنما هـو يحـذر من الفجور فيها، ولـذلك قـال في التجـار الصـادقين:: (الجـالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، والمحتكر في سـوقنا كالملحـد في كتاب الله) (5)

---

(1) مسلم ج 1 ص 56.

(2) أبو داود ج 2 ص 595.

(3) رواه الأصبهاني كما في الترغيب ج 3 ص 596.

(4) البيهقي في الكبرى ج 5 ص 266.

(5) رواه ابن ماجه، والزبير بن بكار في أخبار المدينة والحاكم.

وأخبر ﷺ عن العقوبة الـتي يسـتحقها من ينفقـون سـلعهم بالأيمان الكاذبة، فقال: (ثلاث نفر لا يُكَلِّمُهُمُ اللـه يَـوْمَ الْقِيامَـةِ، ولا ينظـر إليهم، ولا يـزكّيهم: المنّـان بعطيّتـه، والمنفـق سـلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره)(1).

وقال في حديث آخر: (ما حلـف حـالف باللـه فأدخـل فيهـا مثل جناح بعوضة إلّا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة)(2)

وروي أنه ﷺ مرّ بـرجلين يتبايعـان شـاة ويتحالفـان، يقـول أحدهما: والله لا أنقصك من كـذا وكـذا، ويقـول الآخـر: واللـه لا أزيدك على كذا وكذا، فمرّ بالشاة وقد اشـتراها أحـدهما فقـال: (أوجب أحدهما بالإثم والكفّارة)(3)

وإياك ـ أيها المريد الصـادق ــ أن تفهم من هـذه الأحـاديث أن العقوبة فيها مرتبطة بالأيمـان الكاذبـة فقـط، بـل إن مجـرد الكذب خيانة، ولو كان خاليا من الأيمـان، قـال رسـول اللـه ﷺ: (كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثا هو لك مصـدّق وأنت لـه بـه كاذب)(4).

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تقع فيمـا يقـع فيـه الكثـير من قومك من استحلال الكـذب لإضـحاك النـاس، فقـد ورد في الحديث قوله ﷺ: (ويل للّذي يحدّث فيكـذب ليضـحك بـه القـوم ويل له ويل له)(5)

______

1() السنن الكبرى ج 6 ص 265.

2() الترمذي والحاكم.

3() قـال العـراقي: أبـو الفتح الازدى في كتـاب الأسـماء المفـردة من حـديث ناسـخ الحضرمي.

4() البخاري في الادب المفرد وأبو داود.

5() أبو داود ج 2 ص 594.

وإياك أن تفهم من هذا الحديث أن تكـون متزمتـا متشـددا منقبضا، لا تضـحك، ولا تُضـحك، فالحـديث لا يحـرم ذلـك، وإنمـا يحرم الكذب، حتى لا يحول الشيطان الكذب الهـازل إلى كـذب جاد.. وكم ترى في الواقع من ناس يُضحكون غيرهم، ويملـؤون بنفس تلك الأحاديث قلوب آخرين ألما وحسرة.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يمزح مع أصحابه تأليفا لقلـوبهم، ولكن لا يقول إلا حقا، وقد قال في ذلك: (إني لأمزح، ولا أقـول إلا حقا) (1)

ومما رواه الرواة عنه في ذلـك، مـا روي أن عجـوزا قـالت له: ادع اللـه أن يـدخلني الجنـة، فقـال لهـا ﷺ: (يـا أم فلان، إنّ الجنة لا يدخلها عجوز!)، فبكت المرأة، لأنهـا أخـذت الكلام على ظاهره، فأفهمها ﷺ أنها حين تدخل الجنة لن تدخلها عجوزاً، بـل شابة حسناء، وتلا عليها قول اللـه تعـالى في نسـاء الجنـة: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَـاراً عُربـاً أترابـاً﴾ (الواقعـة: 35 ـ 37)(2)

تصور ـ أيها المريد الصادق ـ مقدار فرح تلك العجـوز بهـذه المزحـة الجميلـة المعلمـة الممتلئـة أدبـا، فقـد علمهـا ﷺ أثنـاء مزاحها علما، وبشرها بشارة، وكل ذلك في قالب مضحك مله.

وفي حديث آخر روي أن رجلا جاءه يسـأله أن يحملـه على بعير، فقـال لـه ﷺ: (لا أحملـك إلا على ولـد الناقـة!) فقـال: يـا رسـول اللـه، ومـاذا أصـنع بولـد الناقـة؟! ــ انصـرف ذهنـه إلى الحُوار الصغير ـ فقال ﷺ: (وهل تلد الإبل إلا النوق؟)(3)

1() رواه الطبراني في الكبير.

2() الترمذي.

3() الترمذي.

وروي أن امـرأة جـاءت إلى النـبي ﷺ، فقـالت: إن زوجي يدعوك، فقال ﷺ: (ومن هو؟.. أهو الذي بعينه بيـاض؟)، قـالت: والله ما بعينه بياض! فقال ﷺ: (بلى إنّ بعينه بياضاً)، فقالت: لا، والله، فقال ﷺ: (ما من أحد إلا بعينه بياض) (4)

هل رأيت ـ أيها المريد الصادق ــ كيـف أنـه يمكن بالصـدق أن تعيش حياة طيبة غير متكلفة، وليس فيهـا أي أذى.. ذلـك أن الله تعالى ما حرم شيئا إلا وأعطى البدائل التي تغني عنه.

ولذلك إن اضطررت إلى الكـذب في بعض المواضـع الـتي تكون فيها مصلحة شرعية معتـبرة لا تلجـأ إلى الكـذب الصـريح حتى لا تتعود نفسك عليه، بل الجأ إلى المعاريض، فقد روي في الآثار أن (في المعاريض ما يغني الرّجل عن الكذب)

ومن أمثلتها ما روي عن بعضهم أنه قـال: (إذا بلـغ الرّجـل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقـل: إنّ اللـه ليعلم مـا قلت من ذلك من شيء، فيكون قوله: (مـا) حـرف النفي عنـد المسـتمع وعنده للإبهام)

و كان بعضهم إذا طلبه في الـدّار من يكرهـه يخـطّ دائـرة، ويقول لأهل بيته: ضعوا الإصبع فيها، وقولوا: (ليس هاهنا)

وإيـاك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن تفهم من هـذا إباحـة التعريض فيما لا ضرورة فيه؛ فالأمر ليس كذلك، بل إن للكــذب حدودا شرعية، قد يباح فيها للضرورة التي تستدعي ذلك، ومنها ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِـذِ الْمُؤْمِنُـونَ الْكَـافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَـيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [آل عمران: 28]

4() ابن أبي الدنيا.

فالآيــة الكريمــة تجــيز للمؤمــنين في حــال الضــرورة، وخشيتهم على أنفسهم أو دينهم من أعدائهم أن يكـذبوا عليهم، ولا يصرحوا بمعتقداتهم حفاظا عليها وعلى أنفسهم.

ومنها ما روي عن رسول اللـه ﷺ أنـه قـال: (ليس بكـذّاب من أصلح بين اثنين فقال: خيرا أو نمى خيرا)(1)

و قال: (كلّ الكذب يكتب على ابن آدم إلّا رجـل كـذب بين رجلين يصلح بينهما)(2)

وقال: (مالي أراكم تتهـافتون في الكـذب تهـافت الفـراش في النّار، كلّ الكذب مكتوب كذبا لا محالة إلّا أن يكـذب الرّجـل في الحــرب فـإنّ الحــرب خدعــة، أو يكــون بين رجلين شـحناء فيصلح بينهما، أو يحدّث امرأته يرضيها)(3)

وفي حديث آخر عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: (ما سمعت رسول الله ﷺ يرخّص في شيء من الكــذب إلّا في ثلاث: الرّجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القــول في الحرب، والرّجل يحدّث امرأة والمرأة تحدّث زوجها)(4)

وفي حديث آخر عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: وقع بين رجلين من أصحاب النبيّ ﷺ كلام حتّى تصــادما، فلقيت أحدهما فقلت: مالك ولفلان فقـد سـمعته يحسـن الثنـاء عليـك، ولقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتّى اصطلحا، ثمّ قلت: أهلكت

1() مسلم ج 8 ص 28.

2() أحمد ج 6 ص 455.

3() أبو بكر بن لال في المكارم والطبراني.

4() البخاري ومسلم وأحمد والترمذي.

نفسي وأصلحت بين هذين فأخبرت النبيّ ﷺ فقال: (يا أبا كاهل أصلح بين الناس)(1) أي ولو بالكذب.

وفي حديث آخر أن رجلا قال للنبيّ ﷺ: أكذب أهلي؟ فقال ﷺ: (لا خير في الكذب)، قال: أعدها وأقول لها؟ قـال: (لا جنـاح عليك)(2)

وإياك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ بعـد كـل هـذا أن تقـع في البهتان والحديث في أعراض الناس والقذف وغيرهـا من أعظم الجرائم؛ فهي جرائم عظيمة لا تقل عن قتل النفس بغـير حــق، وهي لا تصـيب بأذاهـا ذلـك الـذي قذفتـه فقـط، وإنمـا تصـيب المجتمع جميعا، وتملؤه بالفواحش والمنكرات.

لقد أشـار اللـه تعـالى إلى آثـار ذلـك في آيـات كثـيرة في سـورة النـور حين تحـدث عن حادثـة الإفـك، وكيـف اسـتثمرها الشيطان في الفساد والإفساد، وكيـف غضـب اللـه تعـالى على من أشاع ذلك الإفك العظيم، وفي حق عرض أشرف خلق اللـه محمد ﷺ.

فاقرأها.. لا باعتبارها تذكر حادثة تاريخية، وإنما لـتربي بهـا نفسك، وتهذب بها أخلاقك، لتكون من أهل ذلك النور الـذي ورد في السورة؛ فهو نور لا يتنزل إلا على القلوب الصافية التي هي مثل ذلك الزيت النقي الذي ﴿ يُضِـيءُ وَلَـوْ لَمْ تَمْسَسْـهُ نَـارٌ نُـورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: 35]

لقد ذكر الله تعالى عظم ذلك البهتـان، فقـال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَـهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُـونَ بِـأَفْوَاهِكُمْ مَـا لَيْسَ لَكُمْ بِـهِ عِلْمٌ وَتَحْسَـبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: 15]

1() الطبراني.

2() رواه مالك في الموطإ ج 2 ص 254.

ثم بين منهج التعامـل مـع أمثـال تلـك الافـتراءات، فقـال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَـا يَكُـونُ لَنَـا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَـذَا سُـبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 16]

ثم بين المنبع الذي تصدر منه أمثال هذه الأخلاق، والمصير الـذي يصـير إليـه أصـحابها، فقـال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِـيعَ الْفَاحِشَـةُ فِي الَّذِينَ آمَنُـوا لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: 19]

وبين في آيـات أخـرى أنـواع العقـاب الـذي يتـنزل على القـاذفين والمفـترين والكـاذبين، فقـال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُـونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَـافِلَاتِ الْمُؤْمِنَـاتِ لُعِنُـوا فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْـدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُـونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: 23 - 25]

بل إن الله تعـالى لم يكتـف بتلـك العقوبـات القدريـة، بـل أضـاف إليهـا عقوبـات تشـريعية، فقـال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُـونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: 4]

ولهذا أخبر رسول اللـه ﷺ أن القـذف من الموبقـات الـتي تهلك صاحبها، فقال: (اجتنبوا السّبع الموبقات) قيـل: يـا رسـول الله ما هي؟ قـال: (الشّـرك باللـه، والشّـحّ، وقتـل النّفس الّـتي حرّم الله إلّا بالحقّ، وأكل الرّبا، وأكل مال اليتيم، والتّـولّي يـوم الزّحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[1]

فـاقرأ هـذه النصـوص المقدسـة ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ واعلم أنها تحمل الحقائق المطلقة التي لا شك فيهـا ولا جـدال،

[1] () النسائي(6/ 257)

واحذر أن تكون من الـذين يلقونهـا وراء ظهـورهم، ولا ينتفعـون بها، ويرتضون بدلها السـماع لأولئـك المرجئـة الـذين يوهمـونهم بأن كل ذنوبهم يمكن مغفرتها بوضوء أو صـلاة ركعـتين أو حجـة أو عمـرة أو شـفاعة، وهم لا يعلمـون أن عدالـة اللـه تـأبى إلا القصاص من هـؤلاء الـذين نهشـوا أعـراض إخـوانهم، وأشـاعوا الفاحشة بين المؤمنين.

وكيف يقولـون ذلـك، وقـد رتب اللـه لعنتـه على الكـاذبين، واللعن هو الطرد من رحمة الله، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْـدِ مَـا جَـاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُـلْ تَعَـالَوْا نَـدْعُ أَبْنَاءَنَـا وَأَبْنَـاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61]، وذكـر في شـهادة من يقـذف زوجته أن يقول في الخامسـة: ﴿وَالْخَامِسَـةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْـهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: 7]

وإياك بعـد هـذا أن تقـع في شـهادة الـزور؛ فهي من أكـبر الكبـائر، وقـد وصـف اللـه تعـالى المؤمـنين، فقـال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِـاللَّغْوِ مَـرُّوا كِرَامًـا﴾ [الفرقـان: 72]، وأخبر أنهم ﴿بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: 33]

ومن أعظم الزور ـ أيها المريد الصادق ـ أن تكتم الشـهادة في حال الحاجة إليهـا، وقـد قـال تعـالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُـوا الشَّـهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَـا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُـهُ ﴾ [البقـرة: 283]، وقـال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَـهَادَةً عِنْـدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَـا اللَّهُ بِغَافِـلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 140]

ومن أعظم الـزور أن تفـرق في شـهادتك بين من تحب وتبغض، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْـطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْـرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ

تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن شهادة الزور من أعظم الموبقات، فقد سُئلَ عن الكبائر قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور)[1]

وروي أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: (الإشراك بالله)،قال: ثم ماذا؟ قال:(ثم عقوق الوالدين)، قال: ثم ماذا؟ قال:(اليمين الغموس)، قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: (الذي يقتطع مال امرئٍ مسلم هو فيها كاذب)[2]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (من لم يدع قول الزور والعمل به، والجهل، فليس لله حاجة أن يدع طعامه، وشرابه)[3]

وعن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: صلى النبي ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائماً فقال: (عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج: 30])[4]

هذه وصيتي إليك ـ أيها المريد الصادق ـ وهي لا تشمل كل موارد الكذب؛ فهي أكثر من أن تحصى؛ فكن حذرا من أن توبق

1() البخاري، رقم 2653، ومسلم، رقم 88.

2() البخاري، رقم 6920.

3() البخاري، رقم 1903.

4() أبو داود، رقم 3599، والترمذي، رقم 2300.

نفسك بكذبة قد تفرح لها بعض ساعات، وقد يسر بها جلساؤك، لكن تبعاتها تبقى في رقبتك آمادا طويلة، وقد قال رسـول اللـه ﷺ في ذكر بعض عقوبات الكذب الذي يستهين به الخلـق: (من تحلّم[1] بحلم لم يره كلّف أن يعقد بين شعيرتين[2]، ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرّون منه صبّ في أذنه الآنك[3] يوم القيامة، ومن صوّر صورة عذّب وكلّف أن ينفخ فيها وليس بنافخ)[4]، وقال ﷺ: (من أفرى الفرى[5] أن يري عينه ما لم تر)[6]

[1] () من تحلم: تكلف الحلم.

[2] () أن يعقد بين شعيرتين: تعجيزا وتعذيبا.

[3] () الآنك: الرصاص المذاب.

[4] () البخاري [فتح الباري]، 12(7042)

[5] () من أفرى الفرى: أي من أعظم الكذبات.

[6] () البخاري [فتح الباري]، 12(7043)

البغي والظلم

كتبت إلي ــ أيهــا المريــد الصــادق ــ تســألني عن البغي والظلم مـا يرتبـط بهمـا من التعـدّي والاسـتطالة وكـل أصـناف العـدوان، وعن المنـابع الـتي تنبـع منهـا، والثمـار الـتي تثمرهـا، وكيفيــة تهــذيب أرض النفس من أشــواكها وحجارتهــا ونيرانهــا وحياتها وعقاربها.

وكل هذه الأسئلة وجيهـة؛ فلا يمكن لمن يسـير في طريـق الله، إلا أن يكون مسالما طيبا متلئا بالعدل الـذي ينـافي الظلم، والمحبة التي تنافي الظغينة، فأرض نفوس الطيبين طـاهرة من كل هذه المثالب، ولذلك لا تثمر إلا الثمار اليانعة الطيبة.

أما النفـوس الأمـارة، فهي نفـوس ممتلئـة بـالظلم، ولـولا الظلم مــا كــان في النفس كــل تلــك الأمــراض والمثــالب والمهلكات، ذلك أن السـبب الأول فيهـا هـو وضـعها للأمـور في غير موضعها، كما قال تعـالى في تحديـد معـنى الظلم: ﴿فَبَـدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَـا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُـوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: 59]

فأول صـفات الظـالمين هي التبـديل المبـني على الأهـواء والأمزجة، لا على الحقائق، ولـذلك فـإن المعجب بنفسـه ظـالم لها، ذلك أنه يعطيها فوق حقها، ويصورها بغير صورتها، وذلك ما يحول بينه وبين السعي إلى إكمالها وتهذيبها وتربيتها.

ومثل ذلك المستكبر؛ فهـو يبـدل مـراتب الخلـق، ويتلاعب بهــا، ويضــع نفســه في المرتبــة الأعلى، ويطلب من غــيره أن ينحني ويذل له، بمجرد اعتباره لنفسه كذلك.

ومثل ذلك المغـرور الـذي يتـوهم أنـه من يصـنع الحقـائق، ويضع معايير القيم.. لا الله تعـالى خـالق الخلـق، ومـدبر الأمـر، ومنظم شؤون الكون.

وهكذا، فإن لو تأملت كل ما ذكرته لك من مثالب لوجــدت أنها ناتجة عن الظلم، ونابعة منه.. لذلك كان الظلم أساســا من أســس الشــر، ومنبعـا من منـابع الرذيلـة، ولا يمكن أن تتطهـر النفس إلا بعد أن تتخلص منـه كليـا.. فكـل ذرة ظلم يمكنهـا أن تحطم كل القيم التي اكتسبها الإنسان.

ولـذلك شـرط اللــه تعـالى النجـاة باتقـاء الظلم، فقـال: ﴿الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]، فالظلم في الآيـة الكريمـة يشـمل كـل تبديل للأوضاع على مـا هي عليـه في الواقـع، سـواء كـان ذلـك التبـديل في عـالم الحقـائق، أو في عـالم القيم.. ولـذلك فـإن الأمن الحقيقي لا ينالـــه إلا من وضـــع الأمـــور في مواضـــعها الصـحيحة، وفـق مـا هي في الواقـع، لا وفـق مـا تملي عليـه الأهواء.

إذا عرفت ذلك ـ أيها المريد الصـادق ــ فـاعلم أن الظلم ـ كما يغذي كل المثالب، وينميها ـ فإنه كذلك يتغـذى منهـا، ويكـبر بسببها؛ فالشر يتزود بعضه من بعض، ويـربي بعضـه بعضـا، إلى أن يصل إلى الحالة التي لا يمكن للنفس السيطرة عليها.

لذلك كان على العاقـل أن يـراقب نفسـه الأمـارة بالسـوء قبل أن تستفحل فيهـا الأدواء؛ فيخـرج الأمـر من يـدها، بعـد أن يطبــع على القلب، ويختم عليــه، فلا يعــرف معروفــا ولا ينكــر منكرا، بل قد يصبح المعروف عنده منكرا، والمنكر معروفا، لأن الهوى صار المتحكم.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك، فقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الروم: 29]

ولذلك كان الظلم هو أداة الضلالة، فلا يضل السبيل إلا من ظلم الحقائق؛ فوضعها في غير مواضعها، وظلم نفسه، فأنزلها غير منزلتها، وظلم الخلق؛ فتعامل معهم بغير ما أمر أن يتعامل به.

ولذلك تربط النصوص المقدسة بين الظلم وكل الجرائم، وتعتبرها نابعة منه، وثمرة من ثماره الخبيثة، ولذلك كان أحسن وصف للظلم هو كونه ظلمات، كما عبر رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (اتقوا الظّلم فإنّ الظّلم ظلمات يوم القيامة، واتّقوا الشّحّ فإنّ الشّحّ أهلك من كان قبلكم. حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم)[1]

ذلك أن الظلم هو الذي يجعل البصيرة في ظلام دامس لا ترى الواقع بصورته الحقيقية؛ فلذلك تلتبس على صاحبها الأمور، ويخلط في كل شيء.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لاستعمال هذه الأدوية التي سأصفها لك، والتي وصفها لنا ربنا في صيدليته المقدسة صيدلية القرآن الكريم الذي جعله الله شفاء من كل الأدواء، ومطهرا للنفس من كل المثالب.

العلاج المعرفي:

وأول الأدوية التي تحفظك من هذا المثلب الخطير وما ارتبط به تأملك لما ورد في القرآن الكريم حول الظلم وما ينتج

[1] () مسلم(2578) وخرج البخاري أوله [الفتح] 5(2447)

عنه من ثمار، وما يحيق بصاحبه من العقوبة.. ذلك أن الظلم قد يبدأ صغيرا، ثم يكبر، ويستشري في النفس إلى أن يحولها عن حقيقتها؛ فيخسر صاحبها نفسه خسارة أبدية، لا يمكن أن تعوض.

ولذلك فإن أول عاقبة للظالم هو خسارة نفسه، كما قال تعالى عن بني إسرائيل الذي أنعم الله عليهم أصناف النعم الحسية والمعنوية، وبدل أن يضعوا تلك النعم في مواضعها المناسبة لها، راحوا يغيرون ويبدلون، وهم يتوهمون أنهم يخادعون الله، قال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: 57]

وقال عن ظلمهم للشريعة السمحة التي كلفهم الله بها، لكنهم راحوا يبدلون ويغيرون حتى حولوها إلى شريعة ممتلئة بكل أنواع الحرج الذي تنافى مع الفطرة السليمة، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 118]

وهكذا أخبر أن الظالمين الذين يشوهون الحقائق والقيم لا يشوهون في الحقيقة إلا أنفسهم، ذلك أن الحقائق والقيم ثابتة لا يمكن أن يؤثر فيها أحد، وكيف يؤثر فيها، وهي مستندة لله تعالى، مرتبطة به، قال تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: 177]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: 44]

ولهذا، فإن أول ما يعاقب به الظالم حرمانه من معرفة الحقائق والتسليم لها، ذلك أن إدمانه على تبديل الأشياء عن مواضعها، يجعله لا يثق في شيء، حتى في عينيه، ذلك أنه

يتوهم أنهما ربما تكونان قد سحرتا، قال تعالى مخبرا عن قوم رسول الله ﷺ وكيف جرهم الظلم إلى نكران كل تلك الآيات التي كانوا يرونها بأعينهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 47، 48]، وقال: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: 7 - 9]

وهكذا؛ فإن الظالم يحجب عن رؤية آيات الله الواضحة في الأرض والسماء، وفي كل شيء، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: 99]

وأخبر أن من عواقب الظلم وثماره الضلال المبين الواضح، فقال ــ متحدثا عن المشركين وغفلتهم عن أبسط الحقائق بسبب ظلمهم ـ: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان: 11]، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر: 40]، وقال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم: 38]

ولــذلك؛ فــإن ســبب الجحــود ليس العلم ولا البرهــان ولا اختلاف وجهات النظر ولا نسبية المعرفـة، بـل هـو الظلم الـذي يجعل النفس تأبى أن تتلقى الحقـائق من مصـادرها، لأنهـا تريـد أن تضع لها مصادر من عندها، قال تعـالى: ﴿وَمَـا كُنْتَ تَتْلُـو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُـونَ (48) بَـلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَـدُ بِآيَاتِنَـا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 48، 49]

ولهذا؛ فـإن كـل أنـواع الكفـر والضـلال والشـرك والإلحـاد ليس سوى ثمرة من ثمـار الظلم، قـال تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَـأْتِيَ يَـوْمٌ لَا بَيْـعٌ فِيـهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 254]

وأخبر عن أن الانحراف العظيم الذي وقع فيه بنو إسرائيل لم يكن إلا بســبب ظلمهم، وتــركهم لهــارون عليــه الســلام، ولجوئهم إلى السامري، ونسياتهم لتعاليم أنبيائهم، قـال تعـالى: ﴿وَإِذْ وَاعَـدْنَا مُوسَـى أَرْبَعِينَ لَيْلَـةً ثُمَّ اتَّخَـذْتُمُ الْعِجْـلَ مِنْ بَعْـدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [البقرة: 51]

ولهذا، يذكر القرآن الكريم أن كل التحريفـات الـتي وقعت للأديان، كـانت بسـبب الظلم، قـال تعـالى: ﴿ فَمَنِ افْتَـرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْـدِ ذَلِـكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [آل عمـران: 94]، وقـال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَـرَى عَلَى اللَّهِ كَـذِبًا أَوْ كَـذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 21]

ولهذ اعتبر الافتراء الأعظم، وهو الشـرك، نوعـا من أنـواع الظلم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَـابُنَيَّ لَا تُشْـرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]

وقد أخبر القـرآن الكـريم أن الظلم المرتبـط بـالتحريف لا يتوقف على الحجاب أو الافتراء بل ينتقل إلى البغي والعدوان.. ولذلك كان البغي هو الوسيلة التي اسـتعملها الشـيطان لتوجيـه الأديـــان وجهـــة شـــيطانية عـــبر محاربـــة الصـــالحين، وتمكين المفسدين.

وقد أشارت آيات كثيرة لـذلك، منهـا قولـه تعـالى:: ﴿كَـانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِـدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنْـذِرِينَ وَأَنْـزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَـا اخْتَلَفُـوا فِيـهِ وَمَـا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًـا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا لِمَـا اخْتَلَفُـوا فِيـهِ مِنَ الْحَـقِّ بِإِذْنِـهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ﴾ [البقـرة: 213]، وقـال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَـا اخْتَلَـفَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَـاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًـا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُـرْ بِآيَـاتِ اللَّهِ فَـإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19]

وهكذا نجد هذا المعنى في آيات كثيرة، تبين أسبابه وآثاره، وكيفية مواجهته؛ فالله تعالى يضرب المثل على أقرب الأمم زمانا بالأمة الإسلامية، وهي أمة بني إسرائيل؛ فيقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: 16، 17]

ثم بين كيف مواجهة ذلك البغي والتحريف الذي حصــل، أو يحصل، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـاكَ عَلَى شَـرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْـرِ فَاتَّبِعْهَـا وَلَا تَتَّبِـعْ أَهْـوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُـونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُـوا عَنْـكَ مِنَ اللَّهِ شَــيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُــهُمْ أَوْلِيَــاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: 18،ـ 19]، وهو تصريح من الله تعالى بأن الذي يخـرج

الأمة من مأزق البغي والضلال الذي يمكن أن تقع فيه هو اتبــاع البينات التي جـاء بهـا الكتـاب، والقيم الرفيعـة الـتي دل عليهـا، بعيدا عن الأهواء.

بناء على كل هذه الجرائم الـتي يثمرهـا الظلم والبغي ورد في القرآن الكريم ذكر أصناف العقوبات المرتبطة به، والـتي لا يُقصد منها تقرير الحقائق وذكرها فقط، وإنمـا تنبيـه النفس إلى الحــذر من الظلم، والابتعــاد عنــه، وعن مبادئــه قبــل تمكنيــه ورســوخه ليتحــول إلى منبــع من منــابع الشــرور الــتي تســقي النفس الأمارة.

ولهذا يخبر الله تعالى عن عدم فلاح الظالمين، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: 135]

وكيف يفلحون، وقد تولوا غير اللــه تعـالى، ولـذلك لم يعـد لهم ولي ولا نصـير، قـال تعـالى: ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَـا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى: 8]

ويخبر القرآن الكريم أن عقوبات الظلمة لا تؤجل للآخــرة، بل إنها تعجل لهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـاكُمْ عَـذَابُ اللَّهِ بَغْتَـةً أَوْ جَهْـرَةً هَـلْ يُهْلَـكُ إِلَّا الْقَـوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 47]، وقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُـوا وَالْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: 45]

وأخبر عن هلاك القرى، والسبب في هلاكهـا، فقـال: ﴿وَمَـا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِـكَ الْقُـرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَـا رَسُـولًا يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: 59]

وضرب الأمثلة على أنواع ذلك الهلاك، والذي يتناسـب مـع جرائمهم، فقال:﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا

وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْـهُ الصَّـيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَـفْنَا بِـهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَــا وَمَــا كَــانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَــانُوا أَنْفُسَــهُمْ يَظْلِمُونَ [العنكبوت: 40]

ويخبر أن القوة التي كان يتمتع بهـا الظلمـة لم تجـد عنهم شيئا، فمصير الظالم هو الهلاك مهما كـانت قوتـه، قـال تعـالى: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَـدَّ مِنْهُمْ قُـوَّةً وَأَثَـارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَـا أَكْثَـرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَـا كَـانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [الروم: 9]

وأخبر أن السبب في انحراف القرى من الأمن والطمأنينـة والوحـدة والاسـتقرار إلى الاضـطراب والتفـرق والخـوف هـو الظلم، قال تعالى:وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَـةً كَـانَتْ آمِنَـةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِـأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَـا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَـا كَـانُوا يَصْـنَعُونَ (112) وَلَقَـدْ جَـاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَـذَهُمُ الْعَـذَابُ وَهُمْ ظَـالِمُونَ [النحـل: 112، 113]

وضرب مثالا على ذلك بقوم نوح عليه السلام، قال تعـالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِـينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ [العنكبـوت: 14]، وقـال: وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ [هود: 37]

وضرب مثالا عنه بقوم صالح، قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَـهُ بِرَحْمَـةٍ مِنَّا وَمِنْ خِـزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [هود: 66، 67]

وضرب مثالا عنه بقوم شعيب، قال تعالى:﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: 94، 95]

وضرب مثالا عنه ببني إسرائيل، قال تعالى:﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: 161، 162]

وضرب مثالا عنه بأصحاب السبت، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 165]

ويخبر القرآن الكريم أن عقوبات الظلمة لا تعجل لهم في الدنيا فقط، بل ما ينتظرهم في الآخرة أعظم.. وأول الآخرة لحظات الموت، قال تعالى واصفا كيفية قبض أرواح الظالمين: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: 93، 94]

ويخبر القرآن الكريم أن تأخير العقاب لا يعني رفعها؛ فالله تعالى يمهل ولا يهمل، ولذلك فإن العقاب الي يرونه في الآخرة لا يمكن تصوره، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ

مُقْنِعِي رُءُوسِـــهِمْ لَا يَرْتَـــدُّ إِلَيْهِمْ طَـــرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَـــوَاءٌ [إبراهيم:42، 43]

وقـد وصـف القـرآن الكـريم في آيـات كثـيرة بعض صـور عقاب الظالمين، لتمتلئ النفس بالمخافة والخشية، ومنها قولـه تعالى: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَـذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ [النحل: 85]

وأخبر عن ذلك الذل الذي يغشـى الظـالمين المسـتكبرين، وأنواع التوبيخات التي يتعرضون لها، فقال: وَأَنْـذِرِ النَّاسَ يَـوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَـا أَخِّرْنَـا إِلَى أَجَـلٍ قَـرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَـا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44) وَسَــكَنْتُمْ فِي مَسَــاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُــوا أَنْفُسَــهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَـرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَـالَ [إبـراهيم: 44، 45]

وأخبر عن الندامة التي يجدها الظلمة، فقال:وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَـرُّوا النَّدَامَـةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [يونس: 54]

وغيرها من الآيات الكثيرة التي لا يمكن لمن تدبرها بصدق وإخلاص إلا أن يمتلئ قلبـه بالمخافـة من الظلم وثمـاره المـرة الكثيرة التي يعقبهـا العقـاب المهين الطويـل، وكـل ذلـك يـردع النفس، ويزكيهـا، ويزيـل عنهـا كـل الـدوافع الداعيـة إلى الظلم بمراتبه المختلفة.

فــإذا ضــم إلى ذلــك مــا ورد في الســنة المطهــرة من العقوبات المرتبطة بالظالمين، كان لذلك تأثيره الكبـير في ردع النفس وزجرها، بشرط ألا تصـغي للمرجئـة الـذين يهونـون من شأن تلك العقوبات، ويبطلون مفعولا من باب الهوى والأماني.

ومن تلك الأحاديث ما أخبر عنه رسول الله ﷺ من استجابة الله لدعوة المظلوم، حتى لو كان فاسقا أو كافرا، وحتى لو كان الظالم في ظاهره تقيا صالحا، ومنها قوله ﷺ: اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافرا، فإنه ليس دونها حجاب)[1]

وأخبر ﷺ عن سرعة إجابة الله تعالى لها، فقال:(اتّقوا دعوات المظلوم فإنّها تصعد إلى السّماء كأنّها شرار)[2]

وأعظم بهذه العقوبة خطرا، فالمظلوم لن يكتفي بالدعاء على ظالمه بما يتعلق بشؤون الدنيا، بل يضم إليها شؤون الآخرة، وقد لا يتوقف دعاؤه على الفترة التي وقع فيها الظلم عليه، بل قد يمتد إلى طول عمره.

وقد قال الشاعر معبرا عن هذا المعنى:

يا بائعاً بالغش أنت	لدعوة مظلوم إلى
فكل من حلال وارتدع	فلست على نار

وقال آخر:

لا تظلمنّ إذا ما	فالظلم آخره يأتيك
نامت عيونك	يدعو عليك وعين

وقال آخر:

يا أيّها الظّالم	فالظّلم مردود على
إلى متى أنت	تسلو المصيبات

1() أحمد (20/ 22)، وابن معين في تاريخه 2/355، والقضاعي في مسند الشهاب (960)

2() الحاكم(1/ 29)

أما في الآخرة؛ فقد أخبر رسول الله ﷺ أن الظالم يعـاقب بجنس عملـه، وبمـا أنـه حجب الحقـائق عن نفسـه في الـدنيا، وقلبها وغيرها؛ فإنه في الآخرة سـيعيش وسـط الظلمـات الـتي شكلها لنفسه في الدنيا، وذلك في الوقت الذي يكون فيه أحوج ما يكون إلى النور، قـال ﷺ: (اتقـوا الظّلم فـإنّ الظّلم ظلمـات يـوم القيامـة، واتّقـوا الشّـحّ فـإنّ الشّـحّ أهلـك من كـان قبلكم. حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم)[1]

وقال: (إيّـاكم والشّـحّ فإنّـه أهلـك من كـان قبلكم، أمـرهم بالظلم فظلموا وأمـرهم بالقطيعـة فقطعـوا، وأمـرهم بـالفجور ففجروا، وإيّاكم والظّلم فإنّ الظّلم ظلمات يوم القيامة، وإيّاكم والفحش فـإنّ اللـه لا يحبّ الفحش ولا التّفحّش)، فقـام إليـه رجل فقال: يا رسول اللـه! أيّ المسـلمين أفضـل؟ فقـام رجـل فقـال: يـا رسـول اللـه، أي الإسـلام أفضـل؟ قـال: (أن يسـلم المسلمون من لسانك ويدك) [2]

وأخبر ﷺ عن البلايا العظيمة التي يتعرض لها الظلمـة كـل حين، وهم يتعرضـون لمن آذوهم وظلمـوهم طـالبين القصـاص منهم، قـال ﷺ: (إذا خلص المؤمنـون من النّـار حبسـوا بقنطـرة بين الجنّة والنّار، فيتقاصّون مظالم كانت بينهم في الدّنيا)[3]

وأخـبر ﷺ عن مضـاعفة اللـه تعـالى للظـالمين العقوبـة، بسبب آثارها، فقال: (من أخذ شبرا من الأرض ظلما طوّقه إلى سبع أرضين)[4]

1() مسلم(2578) وخرج البخاري أوله من حديث ابن عمر الفتح 5(2447)

2() أحمد (11/ 26)، وابن حبان (5176)

3() البخاري [فتح الباري]، 5(2440)

4() البخاري [فتح الباري]، 5(2452) ومسلم(2610)

فتفكر ـ أيها المريد الصادق ـ في كل هذه العقوبـات، واملأ بها عقلك وقلبك، وكلما حدثتك نفسـك بظلم أي أحـد؛ فتـذكرها لتردعك، وتحميك من شـر نفسـك، فـالخوف سـوط اللـه الـذي يربي به خلقه، فإياك أن تدعه، وتتبـع المشـاغبين والمتلاعـبين.. فلأن تجد من يخوفـك حـتى تلقى الأمـان، خـير من أن تجـد من يؤمنك حتى تلقى المخافة.

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ وامتلأت بـه نفسـك، فاسع لأن تبحث عند الفقهاء عن الموارد التي يتحقق بها الظلم لتجتنبها.

ولا تحدثك نفسك أنها قليلة محـدودة، بـل إنهـا من الكـثرة بحيث تشــمل الشــريعة جميعــا، ذلــك أن أي تعــد لهــا ظلم؛ فالشـريعة هي نمـط الحيـاة الـذي اختـاره اللـه لعبـاده رعايـة لمصـالحهم؛ فـإذا مـا خـالفوه أو تـدخلوا فيـه بـأهوائهم ظلمـوا أنفسهم، قـال تعـالى: ﴿ تِلْـكَ حُـدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَـدُوهَا وَمَنْ يَتَعَـدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 229]

ولهذا اعتبر التحاكم لغيرها في أي شأن من شؤون الحيـاة الخاصة أو العامة ظلم، قـال تعـالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45]

وأخبر عن الظلم الذي يقع فيه أولئـك الـذين يعبـدون اللـه على حرف؛ فيختـارون من الشـريعة مـا يتناسـب مـع أهـوائهم، ويـتركون غيرهـا، فقـال: ﴿ وَإِذَا دُعُـوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُـولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُـونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَـقُّ يَـأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَـابُوا أَمْ يَخَـافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النــور: 48

[50 -

وفي المقابل أخبر عن المؤمنين الـذين يقبلـون الشـريعة، ويطبقونها في جميع مجالات الحياة، بـل لا يقـدمون على عمـل قبل أن يعلموا حكم الله فيه، فقال: إِنَّمَا كَانَ قَـوْلَ الْمُـؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ [النور: 51، 52]

ومن مظاهر الظلم الخطيرة التي حذر منها القرآن الكريم موالاة الظلمـة ونصـرتهم، وخـذلان المستضـعفين والقعـود عن الوقوف معهم في وجه ظالميهم، ذلك أن كل هـذا تبـديل للقيم عن محالها المناسبة، قال تعالى: وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَـرُونَ [هود: 113]، وقـال: إِنَّمَـا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَـاتَلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَأَخْرَجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ وَظَـاهَرُوا عَلَى إِخْـرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [الممتحنة: 9]

وفي الحـديث قـال رسـول اللـه ﷺ: (إن النـاس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشـك أن يعمهم اللـه بعقـاب من عنده) (1)

وفي حديث آخر قـال ﷺ: (إذا رأيت أمـتي تهـاب أن تقـول للظالم يا ظالم فقد تُوُدِّع منهم) (2)

وقـال: (إذا كـان يـوم القيامـة نـادى منـاد أين الظلمـة وأعـوانهم ؟ من لاق لهم دواة، أو ربـط لهم كيسـا، أو مـد لهم

1() رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

2() رواه أحمد.

مدة قلم، فاحشروهم معهم) (1)

وقال: (من علق سوطا بين يدي سلطان جائر جعـل اللـه ذلك السوط يوم القيامة ثعبانا من النـار طولـه سـبعون ذراعـا، يسلط عليه في نار جهنم وبئس المصير) (2)

وقال: (من أعان ظالما سلطه الله عليه) (3)

وقال: (من أعان على قتل مـؤمن ولـو بشـطر كلمـة لقي الله مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله) (4)

وقال: (من أعان ظالما بباطل ليدحض بـه حقـا فقـد بـرئ من ذمة الله ورسوله) (5)

وقال: (من أعان على خصومة بغـير حـق كـان في سـخط الله حتى ينزع) (6)

وقال: (من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقـد خرج من الإسلام) (7)

وقال الإمام الصادق: (العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم) (8)

1() بحار الأنوار: 75 / 372 / 17.

2() بحار الأنوار: 75 / 369 / 3.

3() كنز العمال: 7593.

4() رواه ابن ماجة.

5() رواه الطبراني في الأوسط والحاكم.

6() رواه الحاكم وصححه.

7() رواه البخاري في تاريخه والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان.

وأجاب من سأله عن عـون الظـالم للضـيق والشـدة: (مـا أحب أني عقدت لهم عقـدة أو وكيت لهم وكـاء وإن لي مـا بين لابتيهـا، لا ولا مـدة بقلم ! إن أعـوان الظلمـة يـوم القيامـة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد) (1)

وقال: (لولا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم، ويجـبي لهم الفيء، ويقاتل عنهم، ويشهد جماعتهم، لما سلبونا حقنا) (2)

وقـال الإمـام الرضـا في أعمـال السـلطان: (الـدخول في أعمــالهم والعــون لهم والســعي في حــوائجهم عــديل الكفــر، والنظر إليهم على العمد من الكبائر التي يستحق به النار) (3)

ولهذا اعتبر الله تعالى الذين يوالون أقاربهم المعتــدين من الظلمة، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِـذُوا آبَـاءَكُمْ وَإِخْـوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبـة: 23]، ثم بين بعـدها أن مـوالاة الظلمـة مهما كانت قرابتهم فسوق يستحق العقاب الشديد، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْـوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِـيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـاكِنُ تَرْضَـوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَجِهَـادٍ فِي سَـبِيلِهِ فَتَرَبَّصُـوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24]

وفي الحديث سئل رسول الله ﷺ: (أمن المعصية أن يحب الرجل قومـه؟)، قـال: (لا، ولكن من المعصـية أن يعين الرجـل

8() الكافي: 2 / 333 / 16.

1() الكافي: 5 / 107 / 7.

2() الكافي: 5 / 106/4.

3() بحار الأنوار: 75 / 374 / 25.

قومه على الظلم) (1)

وقال ﷺ: (من مشى مع قوم يرى أنه شاهد وليس بشـاهد فهـو شـاهد زور، ومن أعـان على خصـومة بغـير علم كـان في سخط الله حتى ينزع، وقتال المسلم كفر وسبابه فسوق)(2)

وقد أخـبر اللـه تعـالى عن ذلـك الصـراع الـذي يجـري بين الظـالمين والمظلـومين الـذين اتبعـوهم في الـدنيا، ولم ينكـروا عليهم، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَـــوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُـــؤْمِنِينَ (31) قَـــالَ الَّذِينَ اسْـــتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْـعِفُوا أَنَحْنُ صَـدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُـدَى بَعْـدَ إِذْ جَـاءَكُمْ بَـلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَـلْ مَكْـرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْـدَادًا وَأَسَـرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَـا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَـاقِ الَّذِينَ كَفَـرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: 31 ـ33]

ولهذا، فإن القرآن الكريم ينفي الظلم عن الـذين انتصـروا بعد ظلمهم، أو وقفوا في وجوه ظالميهم، قـال تعـالى: ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَـا السَّـبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَـقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 41ـ 42] لكنه يعود ويـذكر بمبـادئ السماحة الإسلامية في العفـو عن الظلمـة عنـد القـدرة عليهم، فيقول: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: 43]

بل إن اللـه تعـالى يثـني على من انتصـر على ظالميـه في

(1) رواه البيهقي.

(2) رواه البيهقي.

مواجهته لهم وعدم ركونه إليهم، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227]

وأثنى رسول الله ﷺ على من أعان المظلومين على ظالميهم، فقال: (من أخذ للمظلوم من الظالم كان معي في الجنة مصاحبا) (1)

وقال: (إن داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عز وجل: يا رب أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك قال: يا داود أحب عبادي إلي نقي القلب نقي الكفين لا يأتي إلى أحد سوءا ولا يمشي بالنميمة تزول الجبال ولا يزول أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى عبادي قال: يا رب إنك لتعلم إني أحبك وأحب من يجبك فكيف أحببك إلى عبادك قال: ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي يا داود إنه ليس من عبد يعين مظلوما أو يمشي معه في مظلمته إلا أثبت قدميه يوم تزل الأقدام) (2)

وقال: (من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة) (3)

وقال الإمام علي: (أحسن العدل نصرة المظلوم) (4)، وقال: (إذا رأيت مظلوما فأعنه على الظالم) (5)

وقال موصيا الحسن والحسين: (قولا بالحق، واعملا للأجر،

1() بحار الأنوار: 75 / 359 / 75.

2() رواه البيهقي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (3/ 12)

3() رواه أحمد.

4() غرر الحكم: 2977.

5() غرر الحكم: 4068.

وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا) (1)

وقال الإمام الصادق: (ما من مؤمن يعين مؤمنا مظلوما إلا كان أفضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام، وما من مؤمن ينصر أخاه وهو يقدر على نصرته إلا نصره الله في الدنيا والآخرة، وما من مؤمن يخذل أخاه وهو يقدر على نصرته إلا خذله في الدنيا والآخرة)(2)

وهكذا؛ فإن الظلم ـ أيها المريد الصادق ـ يشمل كل وضع للأشياء في غير مواضعها؛ فإذا سخرت ممن أمرت بتكريمه، أو بدلت اسمه، أو لمزته، أو همزته، أو اغتبته، أو آذيته بأي نوع من أنواع الأذى فهو ظلم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11]

هذه وصيتي إليك ــ أيها المريد الصادق ــ فاجتهد في تنفيذها، وطهر أرض نفسك من أشواك الظلم وحياته وعقاربه، فالسائر في طريق الله يحتاج إلى التزود من الأنوار ليسلك بها سبيله، والظلم ظلمات تحول بينه وبين الحقائق.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ــ أنه لا يمكن أن يفتح على سالك يظلم غيره، أو هناك من يدعو عليه لظلمه له، فلذلك استحل كل من ظلمته، وبرئ ذمتك منه، وعاهد الله تعالى على ألا تظلم أحدا، وإن خيرت بين أن تكون ظالما أو أن تكون مظلوما؛ فاختر أن تكون مظلوما؛ فذلك أجدى لك عند ربك.

1() بحار الأنوار: 100 / 90 / 75.

2() بحار الأنوار: 75 / 20 / 17.

أكل الحرام

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن سر ذلك الحجاب الذي وقع فيه الرجل الذي ذكره ﷺ، وأنه (يمدّ يديه إلى السّماء. يا ربّ! يا ربّ! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك؟)[1]، وهل لذلك علاقة بالدعاء وتحقيق الحاجات فقط، أم أن له علاقة بأبواب السير إلى الله والمعرفة به، والتحقق بما فتح الله لأوليائه والعارفين به.

وهذا سؤال وجيه، والجواب عليه ركن من أركان السير إلى الله؛ فالمطعم الحرام والمشرب الحرام والمسكن الحرام والملبس الحرام.. وغيرها من حاجات الإنسان عوائق وحجب تحول بينه وبين ربه.. لا بينه وبين تحقق حاجاته بالدعاء فقط، وإنما بينه وبين السير إليه، أو تنزل الفتوح والبركات على قلبه، وفي حياته وأمواله وأهله وكل شؤونه.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك، فقال: (من اشترى ثوبا بعشرة دراهم في ثمنه درهم حرام، لم يقبل الله له صلاة ما كان عليه)[2]، فعدم قبول الصلاة لا يعني فقط ارتفاع وزر تركها، أو عدم نيل أجرها، وإنما يعني فوق ذلك بركتها التي هي الفتح الإلهي، وتنوير القلب بالإيمان، والنفس بالطمأنينة والطيبة.

ومثل ذلك أخبر ﷺ عن تأثير الأكل الحرام في الحج، فقال: (إذا خرج الرجل حاجا بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغرز،

1() مسلم(1015)

2() أحمد: 2/98.

فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لبيـك وسـعديك وزادك حلال، وراحلتـك حلال، وحجـك مـبرور غـير مـأزور، وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز، فنادى لبيك اللهم لبيك، ناداه منـاد من السـماء: لا لبيـك ولا سـعديك، زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور)(1)

وأخبر ﷺ عن دور الأكل الحـرام في الحيلولـة بين الـداعي وإجابة دعائه، أو تقبل عمله؛ فقال لمن سأله يدعو الله لـه بـأن يجعله مستجاب الدعوة: (أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيـده، إن العبـد ليقـذف اللقمـة الحـرام في جوفه ما يتقبل الله منه عمل أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمـه من سحت، فالنار أولى به)(2)

وأخبر ﷺ أن مضار الخمر الصحية لا تتعلق فقـط بالجسـد، وإنما تتعلق قبل ذلك بالروح، وبالصلة مع الله، فقال(من شـرب الخمر لم يقبل الله له صلاة أربعين يوما)(3)

ولهذا أخبر ﷺ أن أكـل الحلال والحـرص عليـه، والبعـد عن الحرام والشبهات، معراج من معارج السـلوك إلى اللـه، فقـال: (من أكــل الحلال أربعين يومــا نــوّر اللّــه قلبــه، وأجــرى ينــابيع الحكمة من قلبه على لسانه)(4)، وقال: (العبـادة سـبعون جـزءا أفضلها طلب الحلال)(5)

1() المعجم الأوسط (5228)

2() المعجم الأوسط (6495)

3() الطيالسي (1901)، وعبد الرزاق (17058) و(17059)، وأحمد 2/35، والترمذي (1862)

4() أبو نعيم في الحلية.

5() الكافي، ج 5 ص 78 تحت رقم 6.

ولهذا نجد الله تعالى يدعو الأنبياء عليهم السلام إلى الأكـل من الطيبـات، وهي لا تعـني الأكـل اللذيـذ، أو الحيـاة المترفـة، وإنمـا تعـني الحلال، قـال تعـالى: يَـا أَيُّهَـا الرُّسُـلُ كُلُـوا مِنَ الطَّيِّبَـاتِ وَاعْمَلُـوا صَـالِحًا إِنِّي بِمَـا تَعْمَلُـونَ عَلِيمٌ [المؤمنـون: 51]

وهكذا خاطب الله تعالى المؤمنين، فقال: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ [البقرة: 172]

وأخـبر عن أهـل الكهـف، وأنهم مـع خـوفهم الشـديد من أعـدائهم إلى أنهم كـانوا يحرصـون على الأكـل الطيب، ولـذلك قالوا: فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِـوَرِقِكُمْ هَـذِهِ إِلَى الْمَدِينَـةِ فَلْيَنْظُـرْ أَيُّهَـا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا [الكهف: 19]

ولذلك احذر ـ أيها المريد الصادق ـ من أن تكون من أولئك الذين يبحثون عن الرخص التي تبيح لهم أكل الحرام؛ فقد أخـبر رسول الله ﷺ أن هذا واقع في الأمة؛ فقال: (ليأتينّ على النّاس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المـال، أ من الحلال أم من حـرام) (1)

بـل ورد في الحـديث مـا يشـير إلى أن مـا وقـع فيـه أهـل السبت، وتحايلهم على الحرام، ستقع فيه هذه الأمة أيضـا، فقـد روي أنه ﷺ قال، وهو بمكّة عام الفتح: (إنّ اللـه ورسـوله حـرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام)، فقيـل: يـا رسـول اللـه أ رأيت شحوم الميتة فإنّه يطلى بها السّفن، ويـدهن بهـا الجلـود، ويستصبح بها النّاس، فقال: (لا، هو حرام)، ثمّ قال: (قاتـل اللـه

(1) البخاري [فتح الباري]، 4(2083)

اليهود، إنّ الله لمّا حرّم شحومها جملوه(1) ثمّ باعوه فأكلوا ثمنه)(2)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن تدبر أمر نفسك، وما تطالبك به من شهوات عاجلة، بهذه الوصفات الربانية التي وردت في النصوص المقدسة.

العلاج المعرفي:

أول علاج تنطلق منه ـ أيها المريد الصادق ـ لإبعاد نفسك الأمارة بالسوء عن المطالبة بالحرام هو أن تذكرها بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: 100]، فالآية الكريمة تشير إلى أن البركة ليست في الكثرة، وإنما في الطيبة، وأول الطيبة الحلال..

ولذلك يمكن للنفس أن تنال حاجاتها بأشياء قليلة محدودة، لكن الله تعالى ينزل عليها من البركات ما يغنيها عن الكثير الذي يضرها.. فبيت واحد يبنى بالحلال خير من عشرات القصور المبنية بالحرام.. وثوب واحد حلال خير من عشرات الثياب المختلطة بالحرام.. وهكذا؛ فإن الله تعالى جعل حاجات الإنسان بسيطة محدودة مقدورا عليها، ويمكن تحقيقها بالحلال الطيب؛ فلذلك لا يلجأ إلى الحرام إلا أصحاب النفوس الجشعة الحريصة التي لا تقنع، كما أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (لو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون له ثان، ولو كان له واديان لأحب أن يكون إليهما ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب) (3)

(1) جملوه: أي أذابوه واستخرجوا دهنه.

(2) البخاري [فتح الباري]، 4(2236)

(3) رواه البخاري ومسلم.

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (إنّ ممّا أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدّنيا وزينتها)؛ فقيل له: يا رسول الله، أو يأتي الخير بالشّرّ؟ فسكت النّبيّ ﷺ هنيهة، ثم قال: (إنّه لا يأتي الخير بالشّرّ، وإنّ ممّا ينبت الرّبيع يقتل أو يلمّ، إلّا آكلة الخضراء، أكلت حتّى إذا امتدّت خاصرتاها استقبلت عين الشّمس فثلطت ورتعت، وإنّ هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السّبيل، وإنّ من يأخذه بغير حقّه كالّذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيدا عليه يوم القيامة) (4)

ولذلك يقترن الزهد بالورع؛ فلا يمكن أن يتحقق الورع ما لم تمتلئ النفس بالزهد وعدم التثاقل إلى الدنيا وأهوائها، وإلا فإن محب الدنيا سيبحث عن أي وسيلة تجره إليها حتى لو كانت من الحرام.

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن أكل الحرام من أسباب العقوبة الإلهية في الدنيا والآخرة.. ذلك أن آكل الحرام من المعتدين الظالمين.. إما على حدود الله، بتجاوزه لها، وأكله مما حرم الله عليه.. أو على خلق الله حين راح يفتي لنفسه بأكل أموالهم بالباطل.

وقد أشار الله تعالى في قصة آدم عليه السلام وأكله من الشجرة إلى هذا، ذلك أن تلك الشجرة التي حرمها الله عليه كانت سببا في خروجه من الجنة، التي كان يعيش فيها براحة وسعادة تامة، حيث خوطب فيها من الحق تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: 118، 119]

لكنه مباشرة بعد أكله من الشجرة، أصابه شؤمها فسقط عنه لباس الرخاء ليلبس لباس التعب والعناء، قال تعالى:

4() البخاري- الفتح 3 (1465)، 6 (2842)

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121]

وهكذا أخبر تعالى عن جزائه للذين: ﴿أَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ (الفجر: 12) بأنه: ﴿صَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: 13)

ولهذا أخبر الله تعالى أن ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: 10]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إنّه لا يربو لحم نبت من سحت إلّا كانت النّار أولى به)[1]، وقال: (من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال اللّه من أين أدخله النار)[2]، وقال: (كلّ لحم نبت من حرام فالنّار أولى به) [3]

وذكر رسول الله ﷺ صورة من صور ذلك العذاب، فقال لمن أخذ رشوة على عمله: (ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي؛ أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمّه حتّى ينظر أ يهدى إليه أم لا؟ والّذي نفس محمّد بيده! لا ينال أحد منكم فيها شيئا إلّا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه بعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر) [4]

وفي حديث آخر ذكر رسول الله ﷺ عقوبة أعظم من هذه، وهي إعراض الله تعالى عن آكل الحرام، فقد روي أنه: جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النّبيّ ﷺ، فقال الحضرميّ: يا رسول الله، إنّ هذا قد غلبني على أرض كانت

1() الترمذي(614) وقال: هذا حديث حسن غريب، والنسائي(7/ 160) والحاكم (4/ 422).

2() أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

3() رواه الطبراني في الصغير كما في مجمع الزوائد ج 10 ص 291.

4() البخاري [فتح الباري]، 13(7197)، ومسلم(1832)

لأبي. فقال الكنديّ: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حقّ. فقال رسول الله ﷺ للحضرميّ (أ لك بيّنة؟) قال: لا. قال: (فلك يمينه) قال: يا رسول الله إنّ الرّجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورّع من شيء. فقال (ليس لك منه إلّا ذلك) فانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ لمّا أدبر: (أما لئن حلف على ماله ليأكله ظلما، ليلقينّ الله وهو عنه معرض)(1)

وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى أن عقوبة آكل الحرام لا تؤجل للآخرة فقط، بل قد تعجل في الدنيا، فقد قال تعالى في التحذير من أكل مال اليتامى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: 9]، وهو تذكير لآكلي أموال اليتامى بأنهم قد يتركون ذرية ضعافا يستولي غيرهم على أموالهم، مثلما يفعلون هم مع أموال غيرهم.

ثم ذكر بعدها العقوبة الأخروية، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]

وقد أشار الإمام الباقر إلى بعض العقوبات المرتبطة بأكل مال اليتيم في الدنيا؛ فقال: (إن الله أوعد في أكل مال اليتيم عقوبتين: عقوبة في الدنيا، وعقوبة في الآخرة، ففي تحريم مال اليتيم استبقاء اليتيم واستقلاله بنفسه والسلامة للعقب أن يصيبهم ما أصابه لما أوعد الله من العقوبة مع ما في ذلك من طلب اليتيم بثأره إذا أدرك وقوع الشحناء والعداوة والبغضاء حتى يتفانوا) (2)

وهذه الرواية تشير إلى الخوف الذي يعيشه آكل الحرام،

1() مسلم(139)

2() بحار الأنوار: 72/ 8.

ذلك أنه معرض في كل لحظة لانتقام من أكل أموالهم بغير حق..

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ وعزمت على أن تتحكم في مطالبك وحاجاتك حتى لا تجرك إلى أكل الحرام؛ فعليك أن تسأل الفقهاء عن كل صغيرة وكبيرة تريد أن تقوم بها في شؤون رزقك، حتى لا يتسرب إليك الحرام من حيث لا تشعر.

وإياك أن تلجأ لأولئك الفقهاء الذين يحتالون لك ولأهوائك، بل عليك بالورع، وقد قال رسول الله ﷺ: (استفت قلبك، واستفت نفْسَك ثلاث مرات؛ البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك) [1]

وإياك وما يوهمه به أولئك المتساهلون المتلاعبون بالدين من أن المستفتي سيتحمل جميع تبعات من أفتاه، فذلك صحيح من جهة مضاعفة إثمه، وليس صحيحا من جهة رفع العقوبة عن المستفتي.

وقد رسم القرآن الكريم صورا لتبرئ المفتي من المستفتي باعتبار المستفتي تابعا، والمفتي متبوعا، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 166، 167]

1() رواه أحمد 18006 والدارميُّ 2533.

وأول ما عليك تركه من الحرام ـ أيها المريد الصادق ــ ما سماه القرآن الكريم [أكل المال بالباطل]، ذلك الذي ذكره الله تعالى، فقال: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة: 188]

ويدخل فيه كل مال كسبته من غير تعب ولا جهد ولا خدمة قدمتها، وأوله **السرقة**، فقد ورد التشديد فيها، بل قد نص القرآن على أن مرتكبها يعاقب بقطع يده، قال تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (39) (المائدة)

وكان من نصوص المبايعة التي يبايع بها رسول الله أصحابه المبايعة على عدم السرقة، قال تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) (الممتحنة)

وإياك أن تتوهم أنها محصورة في أولئك المجرمين الذين يقتحمون بيوت الناس، ليأخذوا ما فيها، وإنما السرقة قد تكون في أي شيء أخذت أجره كاملا، لكنك أديته منقوصا، فالمال الزائد ليس سوى سرقة ونهب وأكل لأموال الناس بالباطل.

ومنها التسول.. وهو نوع آخر من أنواع السرقة.. وليس خاصا بالشحاذين، بل كل من يأخذ أموال الناس عبر أي حيلة يحتال بها عليهم، ليس سوى متسول وضيع، وإن كان يبدو بينهم غنيا كريما.

ولـذلك ورد في النصـوص المقدسـة تحـريم السـؤال لغـير المحتاج، ولغير العاجز، ففي الحديث قال ﷺ،: (لا تزال المســألة بأحدكم حتّى يلقى اللّه، وليس في وجهه مزعة لحم)(1)

وقال: (ليس المسـكين بهـذا الطّـوّاف الّـذي يطـوف على النّاس، فتردّه اللّقمة واللّقمتان، والتّمرة والتّمرتان). قالوا: فما المسكين يا رسـول اللّـه؟ قـال: (الّـذي لا يجـد غـنى يغنيـه، ولا يفطن له فيتصدّق عليه، ولا يسأل النّاس شيئا)(2)

وقال: (من يكفل لي أن لا يسأل النّـاس شـيئا وأتكفّـل لـه بالجنّة؟) فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحدا شيئا)(3)

وروي عن بعض أصحاب رسول اللـه ﷺ أنـه قـال: تحمّلت حمالة(4)، فـأتيت رسـول اللّـه ﷺ أسـأله فيهـا. فقـال: (أقم حتّى تأتينـا الصّـدقة فنـأمر لـك بهـا) قـال: ثمّ قـال: (يـا قبيصـة! إنّ المسـألة لا تحـلّ إلّا لأحـد ثلاثـة: رجـل تحمّـل حمالـة فحلّت لـه المسألة حتّى يصيبها ثمّ يمسك. ورجل أصـابته جائحـة اجتـاحت مالـه فحلّت لـه المسـألة حتّى يصـيب قوامـا من عيش. ورجـل أصـابته فاقـة حتّى يقـول ثلاثـة من ذوي الحجـا من قومـه: لقـد أصابت فلانـا فاقـة. فحلّت لـه المسـألة حتّى يصـيب قوامـا من عيش فما سواهنّ من المسألة، يا قبيصة سـحتا يأكلهـا صـاحبها سحتا)(5)

وعن صحابي آخر أنه قـال: سـألت النّـبيّ ﷺ فأعطـاني، ثمّ

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه أحمد وأبو داود.

(4) الحمالة بفتح الحاء: الدية والغرامة التي يحملها الإنسان بسبب الصلح بين الناس.

(5) رواه مسلم.

سألته فأعطاني، ثمّ سألته فأعطـاني، ثمّ قـال: (إنّ هـذا المـال خضرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك لـه فيـه ومن أخـذه بإشراف نفس[1] لم يبـارك فيـه وكـان كالّـذي يأكـل ولا يشـبع، واليد العليا خير من اليد السّفلى)[2]

وعن آخر قال: كنّا عنـد رسـول اللّـه تسـعة أو ثمانيـة أو سبعة. فقال: (ألا تبايعون رسول اللّه؟) وكنّا حديثي عهـد ببيعـة. فقلنا: قد بايعناك يـا رسـول اللّـه ثمّ قـال: (ألا تبـايعون رسـول اللّه؟) فقلنا: قد بايعنـاك يـا رسـول اللّـه. ثمّ قـال: (ألا تبـايعون رسول اللّه؟) قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قـد بايعنـاك يـا رسـول اللّه! فعلام نبايعك؟ قال: (على أن تعبـدوا اللّـه ولا تشـركوا بـه شـيئا، الصّـلوات الخمس، وتطيعـوا (وأسـرّ كلمـة خفيّـة)، ولا تسألوا النّاس شيئا، فلقد رأيت بعض أولئك النّفر يسقط سـوط أحدهم، فما يسأل أحدا يناوله إيّاه)[3]

ومن أكل أموال الناس بالباطل الرشوة.. لأن فيها اسـتيلاء على حقـوق الآخـرين بطـرق غـير مشـروعة.. ولهـذا اعتبرهـا القرآن الكريم من أكل أموال الناس بالباطل، قال تعـالى: وَلا تَـأْكُلُوا أَمْـوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِـلِ وَتُـدْلُوا بِهـا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَـأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (188) (البقـرة)، أي لا تصانعوا الحكام بها ولا ترشوهم ليقتطعوا لكم حقّا لغيركم وأنتم تعلمون أنّ ذلك لا يحلّ لكم.

وقد قال رسول الله : (الرّاشي والمرتشي في النّار)[4]

1() بإشراف نفس: أي بتطلع وطمع.

2() رواه مسلم.

3() رواه مسلم.

4() رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (ما من قوم يظهـر فيهم الرّبـا إلّا أخـذوا بالسّـنة[1] ومـا من قـوم يظهـر فيهم الرّشـا إلّا أخـذوا بالرّعب)[2]

وقـال: (من ولي عشـرة فحكم بينهم بمـا أحبّـوا، أو بمـا كرهوا جيء به مغلولة يده، فـإن عـدل، ولم يـرتش، ولم يحـف فكّ اللّه عنه، وإن حكم بغير ما أنزل اللّه وارتشى، وحابى فيـه. شدّت يساره إلى يمينه ثمّ رمي بـه في جهنّم، فلم يبلـغ قعرهـا خمسمائة عام)[3]

وقال: (من شفع لأخيه بشـفاعة، فأهـدى لـه هديّـة عليهـا، فقبلها، فقد أتى بابا عظيما من أبواب الرّبا)[4]

ومن أكل أموال الناس بالباطل **الاحتكار**.. وهو أن يضـيق على الناس بأن يخزن السلع الضرورية ليرفع أسعارها، فإذا مـا ارتفعت باعها لهم، وقد قال مبينـا جريمـة المحتكـر باحتكـاره الذي أداه إليه جشعه: (لا يحتكر إلّا خاطىء)[5]

وقـال: (من احتكـر على المسـلمين طعامـا ضـربه اللّـه بالجذام والإفلاس)[6]

وقال: (من احتكر طعاما أربعين ليلة، فقـد بـريء من اللّـه تعالى وبريء اللّه تعالى منه، وأيّما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ

1() السّنة: القحط والجدب.

2() رواه أحمد.

3() رواه الحاكم والطبراني في الأوسط والكبير ورجاله ثقات.

4() رواه أبو داود.

5() رواه مسلم.

6() رواه أحمد وابن ماجة.

جائع فقد برئت منهم ذمّه اللّه تعالى)[7]

ومن أكــل أمــوال النــاس بالباطــل **التطفيف**.. وهــو الاستيفاء من النّاس عند الكيـل أو الـوزن، والإنقـاص والإخسـار عند الكيل أو الوزن لهم.. ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير الّتي يتعامل بها النّاس.

وقـد ورد الوعيـد الشـديد لمن يقـع في هـذا، قـال تعـالى: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتـالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْـتَوْفُونَ (2) وَإِذا كــالُوهُمْ أَوْ وَزَنُــوهُمْ يُخْسِــرُونَ (3) أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعــالَمِينَ (6) (المطففين)

بل إن الله تعالى أخـبر أنـه أرسـل رسـولا من رسـل اللـه الكرام جـل رسـالته النهي عن التطفيـف في المـوازين والعبث بها، قال تعالى: وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قـالَ يـا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْـلاحِها ذلِكُمْ خَيْـرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (85) (الأعـراف)، وقـال: كَـذَّبَ أَصْـحابُ الْأَيْكَـةِ الْمُرْسَـلِينَ (176) إِذْ قـالَ لَهُمْ شُـعَيْبٌ أَلا تَتَّقُـونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ (178) فَـاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمـا أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعـــالَمِينَ (180) أَوْفُـــوا الْكَيْـــلَ وَلا تَكُونُـــوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) (الشعراء)

وقد أخبر عن الوعيد الشديد الذي ينال المطففين الذين اختلت عندهم الموازين، فقال: (خمس بخمس، قيل: يا رسـول اللّه وما خمس بخمس؟ قال: ما نقض قوم العهد إلّا سلّط اللّـه عليهم عـدوّهم، ومـا حكمـوا بغـير مـا أنـزل اللّـه إلّا فشـا فيهم

[7]) رواه أحمد.

المـوت، ولا منعـوا الزّكـاة إلّا حبس عنهم القطـر، ولا طفّفـوا المكيال إلّا حبس عنهم النّبات، وأخذوا بالسّنين)(1)

وقال: (إذا وزنتم فأرجحوا)(2)

وقال مخاطبا أصحاب الكيل والوزن: (إنّكم قـد ولّيتم أمـرا فيه هلكت الأمم السّالفة قبلكم)(3)

ومن أكل أموال الناس بالباطل **التّناجش**(4).. ذلـك الـذي ورد في قولـه (إيّـاكم والظّنّ فـإنّ الظّنّ أكـذب الحـديث، ولا تجسّسـوا ولا تناجشـوا، ولا تحاسـدوا، ولا تباغضـوا، ولا تـدابروا، وكونوا عباد اللّه إخوانا)(5)

وقال : (لا يتلقّى الرّكبان لـبيع، ولا يبـع بعضـكم على بيـع بعض، ولا تناجشـوا، ولا بيـع حاضـر لبـاد(6)، ولا تصـرّوا الإبـل

1() رواه الطبراني في الكبير.

2() رواه ابن ماجة.

3() رواه الترمـذي والحـاكم، وقـال: هـذا حـديث صـحيح الإسـناد ولم يخرجـاه. وقـال الترمذي: روي بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا.

4() له صور عديدة ذكرها العلماء، منها أن يشترك النّاجش والبائع للسّـلعة في خـداع المشتري بأن يتواطأ كلاهما على ذلك.. ومنها أن يقع الإغراء بدون علم البائع بأن يتطـوّع النّاجش من تلقاء نفسه برفع ثمن السّلعة.. ومنها انفراد البائع بعمليّة الإغـراء بـأن يـزعم أنّه اشترى بأكثر ممّا اشتراها به، وربّما حلف على ذلك ليغرّ المشتري، وقد يقع ذلك منـه بأن يخبر بأنّه أعطي في السّلعة ما لم يعط.. ومنهـا أن يـأتي شـخص إلى وليّ أمـر فتـاة وقد حضر من يخطبها فيذكر مهرا أعلى ليغرّ الخاطب بـذلك، أو يـذمّها.. ومنهـا أن يمـدح شخص سلعة ما كي تباع، أو يـذمّها كي لا تنفـق على صـاحبها، وذلـك كمـا في الإعلانـات المغرضة الّتي لا تتّفق مع الواقع.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() أي لا يكون الحاضر (ساكن الحضر) للبادي (ساكن البادية) سمسارا، أي يتقاضـى أجرة منه ليبيع له بضاعته، ويجوز ذلك إذا كان البيع بدون أجرة. من باب النصيحة.

والغنم(1)، فمن ابتاعهـا بعـد ذلـك فهـو بخـير النّظـرين بعـد أن يحلبها، فإن رضيها أمسكها، وإن سخطها ردّها وصـاعا من تمـر) (2)

ومن أكل أمـوال النـاس بالباطل **الميسر**(3).. ذلـك الـذي ورد النهي المشدد عنه في قوله تعـالى: يَسْـئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْـرِ وَالْمَيْسِرِ قُـلْ فِيهِمـا إِثْمٌ كَبِـيرٌ وَمَنـافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمـا أَكْبَـرُ مِنْ نَفْعِهِما وَيَسْئَلُونَكَ ماذا يُنْفِقُـونَ قُـلِ الْعَفْـوَ كَـذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) (البقرة)، وقوله: يا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْـرُ وَالْمَيْسِـرُ وَالْأَنْصـابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَـلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّما يُرِيـدُ الشَّـيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِـرِ وَيَصُـدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) (المائدة)

وقد ورد تحريمه بكـل أنواعـه في قولـه : (إيّـاكم وهاتـان الكعبتـان(4) الموسـومتان اللّتـان تزجـران زجـرا؛ فإنّهـا ميسـر العجم)(5)

وقوله: (الخيل ثلاثـة: ففـرس للـرّحمن، وفـرس للإنسـان، وفرس للشّيطان، فأمّا فرس الرّحمن، فالّذي يرتبط في سـبيل اللّه عزّ وجلّ فعلفه وبوله وروثه وذكر ما شاء اللّه، وأمّـا فـرس

1() لا تصروا الإبـل والغنم: من التصـرية وهي الجمـع، والمعـنى: لا تجمعـوا اللبن في ضرعها عند إرادة بيعها حتى يعظم ضرعها فيظن المشتري أن كثرة لبنها عادة لها.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() الميسر: هو القمار بأيّ نوع كان، مثل النّرد والشّطرنج أو الفصـوص، أو الكعـاب، أو البيض، أو الجوز، أو الحصى، أو ما شـابه ذلـك، وهـو من أكـل أمـوال النّـاس بالباطـل (الكبائر للذهبى: 88)

4() الكعبتان مثنى كعبة وهي الواحد من فصوص النرد.

5() رواه أحمد والطبراني ورجال الطبراني رجال الصحيح.

الشّـيطان فالّـذي يقـامر عليـه ويـراهن، وأمّـا فـرس الإنسـان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من فقر)(1)

وقوله: (مثل الّذي يلعب بالنّرد ثمّ يقوم فيصلّي مثل الّـذي يتوضّأ بالقيح ودم الخنزير ثمّ يقوم فيصلّي)(2)

وقوله: (من حلف فقال في حلفه: واللّات والعزّى، فليقل: لا إله إلّا اللّه. ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدّق)(3)

وقولـه: (من لعب بالنّردشـير فكأنّمـا صـبغ يـده في لحم خنزير ودمه)(4)

ومن أكل أموال الناس بالباطل **الربا**. ذلك الـذي حـذرت منـه النصـوص المقدسـة أشـد التحـذير.. قـال تعـالى: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِـأَنَّهُمْ قـالُوا إِنَّمَـا الْبَيْـعُ مِثْـلُ الرِّبـا وَأَحَـلَّ اللَّهُ الْبَيْـعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جـاءَهُ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّهِ فَـانْتَهى فَلَـهُ مـا سَـلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيهـا خالِـدُونَ (275) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُـلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276) (البقرة)

وقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَـا أَضْـعافاً مُضـاعَفَةً وَاتَّقُـوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ (130) وَاتَّقُـوا النَّارَ الَّتِي أُعِـدَّتْ لِلْكـافِرِينَ (131) وَأَطِيعُـوا اللَّهَ وَالرَّسُـولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـونَ (132) (آل عمران)

1() رواه أحمد ورجاله ثقات.

2() رواه أحمد وأبو يعلى وزاد (لا تقبل صلاته) والطبراني.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه مسلم.

وأخبر الله تعالى أنـه لخطورتـه كـان محرمـا في الـديانات الســابقة، قـال تعـالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هـادُوا حَرَّمْنـا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (160) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَـوا وَقَـدْ نُهُـوا عَنْـهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْـوالَ النَّاسِ بِالْباطِـلِ وَأَعْتَـدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (161)﴾ (النساء)

وقـد أخـبر ﷺ عن الشـدة الـتي تنتظـر المـرابين في الـدنيا والآخرة، فقال: (يأتي آكل الرّبا يـوم القيامـة مخبّلا يجـرّ شـقّيه، ثمّ قـرأ: ﴿ الَّذِينَ يَـأْكُلُونَ الرِّبـا لا يَقُومُـونَ إِلَّا كَمـا يَقُـومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ.. (275)﴾ (البقرة)[1]

وعن ابن مسعود أنه ذكر حديثا عن النّبيّ ﷺ قال فيـه: (مـا ظهر في قوم الزّنا والرّبا إلّا أحلّوا بأنفسهم عذاب اللّه)[2]

وقال ﷺ: (ما أحد أكـثر من الرّبـا إلّا كـان عاقبـة أمـره إلى قلّة)[3]

وقــد لعن رســول اللــه ﷺ كــل من رابى أو تعامــل مــع المرابين، فعن ابن مسعود قال: (آكل الرّبا وموكلـه، وشـاهداه، وكاتباه إذا علموا بـه، والواشـمة والمستوشـمة للحسـن، ولاوي الصّـدقة، والمرتـدّ أعرابيّـا بعـد الهجـرة، ملعونـون على لسـان محمّد ﷺ)[4]

وعن جـابر قـال: لعن رسـول اللّـه ﷺ آكـل الرّبـا، وموكلـه،

1() رواه الطبراني والأصبهاني.

2() رواه أبو يعلى بإسناد جيد، ورواه الحاكم وصححه.

3() رواه ابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

4() رواه أحمد، وأبو يعلى، وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحيهما.

وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء)(5)

وإياك بعد هذا أن تتوهم ـ أيها المريد الصادق ـ أنه يحل لك التصرف في مالـك بعـد أن تكسـبه من الحلال؛ فـذلك لا يكفي، بل عليك أيضا أن تنفقه في الوجوه الـتي أمـرت بهـا الشـريعة، وإلا تحول ذلك المال الذي كسبته من حلال إلى حرام.

ولهـذا ذكـر اللـه تعـالى العقوبـة الـتي يتعـرض لهـا الـذين يكـنزون أمـوالهم، وإن كـانوا قـد كسـبوها من حلال، فقـال: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِـزُونَ الـذَّهَبَ وَالْفِضَّـةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَـا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّـرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَـوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَـا فِي نَـارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَـا كَنَـزْتُمْ لِأَنْفُسِـكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: 34، 35]

وقال ﷺ: (ما من صاحب ذهب ولا فضّة لا يؤدّي منها حقّها إلّا إذا كان يوم القيامة، صفّحت له صفائح من نار فأحمي عليهـا في نـار جهنّم، فيكـوى بهـا جنبـه وجبينـه وظهـره، كلّمـا بـردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتّى يقضـى بين العباد فيرى سبيله، إمّا إلى الجنّـة وإمّـا إلى النّـار) قيـل: يـا رسول الله: فالإبل؟ قال: (ولا صاحب إبل لا يـؤدّي منهـا حقّهـا، ومن حقّها حلبها يـوم وردهـا إلّا إذا كـان يـوم القيامـة، بطح لهـا بقاع قرقـر أوفـر مـا كـانت، لا يفقـد منهـا فصـيلا واحـد، تطـؤه بأخفافها وتعضّه بأفواهها، كلّما مرّ عليه أولاهـا ردّ عليـه أخراهـا في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتّى يقضى بين العبـاد. فيرى سبيله إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النّار) قيل: يـا رسـول اللـه، البقر والغنم؟ قال: (ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدّي منهـا حقّهـا إلّا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقـر لا يفقـد منهـا شـيئا، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضـباء تنطحـه بقرونهـا وتطـؤه

(5) رواه مسلم.

بأظلافها كلّما مرّ عليه أولاها ردّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. حتّى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النّار)[1]

وقال: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلّا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهمّ أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهمّ أعط ممسكا تلفا) [2]

هذه وصيتي إليك ـ أيها المريد الصادق ـ وأنا لم أطل عليك فيها، ولم أذكر لك تفاصيل الأحكام المرتبطة بها، لأني أعلم أن الفقهاء قد يختلفون في بعض المسائل، وليس دوري أن أبث لك رأيي في الخلاف الجاري بينهم، وإنما دوري ــ الذي وثقت بي فيه ـ أن أعلمك كيف تهذب نفسك.. وأنت أدرى بعد ذلك بالفقهاء العلماء الورعين الذين ترجع إليهم في شؤون دينك ودنياك.

1() البخاري [فتح الباري]، 3(1402 ـ 1403)، مسلم(987)

2() البخاري [فتح الباري]، 3(1442) ومسلم(1010)

الوهن والكسل

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الوهن والكسل.. وسر كونهما مثلبا من المثالب الحائلة بين النفس وكمالها وطيبتها وطمأنينتها، وعن الدوافع التي تدفع إليهما، وكيفية التخلص منهما، وقاية وعلاجا.

وهذه أسئلة وجيهة؛ فلا يمكن للنفس أن ترتقي مراقي الكمال، وهي تتصف بما ذكرت من صفات، ذلك أنها حجب كبرى حائلة بينها وبين سلوك طريق الله؛ فهو طريق يحتاج نفسا صاحبة عزيمة وقوة؛ ولا يمكن لمن لم يكن كذلك أن يسير فيه، ولهذا قرن الله تعالى هدايته بالمجاهدة في سبيله، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:69)

ووصف المؤمنين الصادقين أصحاب الهمم العالية الذين يخلص الله بهم المستضعفين من المستكبرين بأنهم أولو بأس شديد، فقال: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: 5]

ونهى المؤمنين من الوهن، وكل ما يؤدي إليه، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 104]

وأخبر أن الألم والكآبة والحزن في طريق الكسل، لا في طريق الجد والعمل، ذلك أن الجاد يعمل، وهو يأمل في فضل الله، وفي عظم الأجور التي ينالها بخلاف الكسول، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: 139]، ثم عقب عليها بقولـه:إِنْ يَمْسَسْـكُمْ قَـرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَيَتَّخِـذَ مِنْكُمْ شُـهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [آل عمران: 140]

ولهذا يقترن ذكر مواثيق الله تعالى وعهـوده بـالقوة، ذلـك أنـه لا يمكن أن ينفـذها إلا الأقويـاء أصـحاب العـزائم، كمـا قـال تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام: وَكَتَبْنَا لَـهُ فِي الْأَلْـوَاحِ مِنْ كُلِّ شَـيْءٍ مَوْعِظَـةً وَتَفْصِـيلًا لِكُـلِّ شَـيْءٍ فَخُـذْهَا بِقُـوَّةٍ وَأْمُـرْ قَوْمَـكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ [الأعراف: 145]

وقال عن يحي عليه السلام:يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا [مريم: 12]

وأخـبر أنـه أخـذ الميثـاق على بـني إسـرائيل بـأن يأخـذوا المواثيق مأخذ الجـد، فقـال: وَإِذْ أَخَـذْنَا مِيثَـاقَكُمْ وَرَفَعْنَـا فَـوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ [البقـرة: 63]

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن القوة صفة من صفات المؤمن الأساسـية، فقـال: (المـؤمن القـويّ خـير وأحبّ إلى اللـه من المـؤمن الضّـعيف، وفي كـلّ خـير، احـرص على مـا ينفعـك، واسـتعن باللـه ولا تعجـز، وإن أصـابك شـيء فلا تقـل: لـو أنّي فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإنّ لـو تفتح عمل الشّيطان)[1]

وأخبر أن السبب الأكبر في ضعف الأمة هو وهنها وكسـلها وضـعف همتهـا، بسـبب ركونهـا إلى الـدنيا، ونفورهـا من دينهـا، فقال: (يوشـك الأمم أن تـداعى عليكم كمـا تـداعى الأكلـة إلى قصـعتها، فقـال قائـل: ومن قلّـة نحن يومئـذ؟. قـال: (بـل أنتم

[1] مسلم(2664)

يومئذ كثير، ولكنّكم غثاء كغثاء السّيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟. قال: (حبّ الدّنيا وكراهية الموت)(1)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما ورد في النصوص المقدسة من وصفات علاجية يمكنها أن تخلصك من هذا الداء العضال الذي يحجبك عن كل المكارم، ويحجب نفسك عن كل ما أتيح لها من كمال.

العلاج المعرفي:

أول علاج تنطلق منه ـ أيها المريد الصادق ـ لإخراج نفسك من زمرة الكسلاء المتهاونين الممتلئين بالوهن هو أن تعرف بأن الطريق إلى التزكية، والتحقق بحقائقها، ونيل ثمارها يستحيل مع الكسل والوهن، ذلك أن الطريق جد، ولا يقوى عليه إلا أصحاب الجد والعزائم.

وقد أرسل بعض المشايخ لمريد له رأى عزيمته لا تتناسب مع جهده، يقول له: (يا مخنث العزم أين أنت والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمي في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحي، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ، تزهى أنت باللهو واللعب)(2)

ثم أنشده قول الشاعر:

1() أبو داود(4297)، أحمد(5/ 278)

2() الفوائد لابن القيم (ص: 42)

فيا دارها بالحزن   قريب ولكن دون

وأرسل آخر لمريده الذي شكا له بعض المكدرات البسيطة التي تحول بينه وبين السير، يقول له: (من ذا الذي حصل له غرض ثم لم يكدر ؟ هذا آدم، طاب عيشه في الجنة، وأخرج منها، ونوح سأل في ابنه فلم يعط مراده، والخليل ابتلي بالنار، وإسماعيل بالذبح، ويعقوب بفقد الولد، ويوسف بمجاهدة الهوى، وأيوب بالبلاء، وداود وسليمان بالفتنة، وجميع الأنبياء على هذا.. وأما ما لقي محمد ﷺ من الجوع والأذى وكدر العيش فمعلوم، ويفوق الوصف) (1)

ثم أنشده قول الشاعر:

طبعت على كدر   صفوا من الأقذاء

ومكلف الأيام ضد   متطلب في الماء

ولذلك لا تلتفت ـ أيها المريد الصادق ـ لتلك التبريرات والأعذار التي يختلقها الكسالى لأنفسهم؛ فهم لا يختلفون فيها عن أولئك الذين قعدوا عن نصرة رسول الله ﷺ، وركنوا إلى الدنيا ومتاعها القليل، وضيعوا الآخرة ومتاعها العظيم.

وقد وصف الله أولئك المتخلفين الكسالى أصحاب الأعذار الواهية ليكونوا عبرة للمعتبرين، فقال: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: 86]

وذكر فرحهم عند تخلفهم عن رسول الله ﷺ وعصيانهم لأوامر الله، فقال: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾

(1) صيد الخاطر ص 441

[التوبة: 81]

ثم بين أن ذلك الفرح الذي ركنوا إليه، وفرطوا في صـحبة رسول الله ﷺ من أجله ليس سـوى ثمن قليـل بـاعوا بـه نعيمـا عظيما، واشتروا به عذابا أليما، فقال: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُـوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 82]

وفي هـذه الآيـة إشـارة إلى مـا للجـزاء الإلهي من أدوار تربوية وإصلاحية للنفس؛ وقد روي عن بعض الصالحين أنه كـان إذا أوى إلى فراشه، يقول: (اللهم إن ذكر جهنم لا يدعني أنام)، فيقوم إلى مصلاه[1].

وروي عن آخر أنه كـان يسـهر الليـل ويبكي، فعـوتب على ذلك، فقال: (إني إذا ذكرت الجنة طال شوقي، وإذا ذكرت النار طار نومي)

وكان آخر ينام أول الليل، ثم ينتفض فزعـاً مرعوبـاً ينـادي: (النار النار، شغلني ذكر النار عن النوم والشـهوات)، ثم يتوضـأ، ويقول على أثر وضوئه: (اللهم إنك عالم بحاجتي غير معلم، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار)

وقـال آخـر: (سـهوت ليلـة عن وردي ونمت فـإذا أنـا في المنام بجاريـة كأحسـن مـا يكـون وفي يـدها رقعـة فقـالت لي: أتحسن تقرأ؟ فقلت: نعم، فدفعت إلي الرقعة فإذا فيها[2]:

أألهتك اللذائذ عن البيض الأوانس

1() هذه الروايات من كتاب: التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لابن رجب، (ص: 37) فما بعدها.

2() إحياء علوم الدين (1/ 355)

تعيش مخلدا لا   وتلهو في الجنان مع
تنبه من منامك   من النوم التهجد

وقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى، فقال يصف الصالحين وجدهم واجتهادهم:

إذا ما الليل أظلم   فيسفر عنهم وهم
أطار الخوف   وأهل الأمن في

وقال آخر:

منع القرآن بوعده   مقل العيون بليلها
فهموا عن الملك   فرقابهم ذلت إليه

وأنشدوا أيضا

يا طويل الرقاد   كثرة النوم تورث
إن في القبر إن   لرقادا يطول بعد
ومهادا ممهدا لك   بذنوب عملت أو
أأمنت البيات من   ت وكم نال آمنا

وقال آخر:

وما فرشهم إلا أيامن   وما وسدهم إلا ملاء
وما ليلهم فيهن إلا   وما نومهم إلا
وألوانهم صفر كأن   عليا جساد هي
نواحل قد أزرى بها   إلى الله في الظلماء
ويبكون أحياناً كأن   إذا نوم الناس

ومجلس ذكر فيهم قد ... وأعينهم من رهبة

أنا لا أدعوك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تقتدي بهؤلاء في كل ما فعلوه، فنحن لم نؤمر باتباع أحد غير المعصومين، ولكني مع ذلك أدعوك لأن تفكر في تلك الخسارة العظيمة التي يجدها من ضيع وقته في الدنيا في تلبية حاجات كسله ووهنه، ليجد نفسه في الآخرة فقيرا من كل شيء.

ويجد تلك الأعذار التي كان يختلقها ليفر من التكليف أو ما يدعوه إليه الاجتهاد، لا تختلف كثيرا عن الأعذار التي كان يختلقها الكسالى في عهد رسول الله ﷺ، والذين ذكرهم القرآن الكريم ليكونوا عبرة لنا، قال تعالى في وصف بعضهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: 11]

وهؤلاء ـ كما يخبر القرآن الكريم ـ أكثر الناس إسراعا إلى الفتن، ذلك أن عزائمهم لا تتناسب مع الصدق بقدر ما تتناسب مع الفتنة، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: 13، 14]

وفي مقابل هذا يصف الله تعالى المؤمنين؛ فيقول: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 146، 147]

ثم بين الجزاء العظيم الذي ظفروا بـه مقابـل ذلـك الجهـد القليل، فقال: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَـوَابَ الـدُّنْيَا وَحُسْـنَ ثَـوَابِ الْآخِـرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 148]

ووصـفهم في آيـة أخـرى، فقـال: ﴿مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَـدُوا اللَّهَ عَلَيْـهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَـى نَحْبَـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23]

ثم بين الجــزاء الــذي أعــد لهم، مقارنــة بــالجزاء المعــد للكســالى؛ فقــال: ﴿لِيَجْـزِيَ اللَّهُ الصَّـادِقِينَ بِصِـدْقِهِمْ وَيُعَـذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ غَفُـورًا رَحِيمًـا ﴾ [الأحزاب: 24]

وأخبر عن الدرجة العظيمة التي ينالها أصحاب الجد مقارنة بغيرهم، ولو كـانوا من المؤمـنين، فقـال: ﴿لَا يَسْـتَوِي الْقَاعِـدُونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ غَيْـرُ أُولِي الضَّــرَرِ وَالْمُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فَضَّـلَ اللَّهُ الْمُجَاهِـدِينَ بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: 95]

فانظر ـ أيها المريد الصادق ـ لهذه المشاهد التي ينقلها لك القـرآن الكـريم، ثم اخـتر لنفسـك مـا تـراه مناسـبا.. هـل ذلـك الطريـق الـذي سـار فيـه الأنبيـاء والأوليـاء والصـديقون، الـذي صدقوا مـا عاهـدوا اللـه عليـه، وجاهـدوا أنفسـهم في اللـه.. أم طريق أولئك الكسالى الوهنين الذين جعلهم كسلهم يقعون في كل الموبقات بما فيها النفاق نفسه.

وإن لم تجـد هـذا العلاج كافيـا لإقنـاع نفسـك بفضـل الجـد والاجتهاد؛ فحدثها عن تلك الأجور العظيمة التي ينالها الجــادون، ويقعد دونها الكســالى.. فـالمؤمن الجـاد سـاع في بنـاء آخرتـه، يحــول بين نفســه والأهــوال العظيمــة الــتي تنتظــره، بخلاف

الكسول المنشغل باللذات المحدودة عن تبعاتها الخطيرة.

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فعليك أن تجاهد نفسك، وتدربها على الجد والاجتهاد، وتمنعها من كل تلك المبررات التي كان يستعملها المخلفون والمنافقون والكسالى ليقعدوا عن المراتب العلية التي هيئت لهم، وقد قال رسول الله ﷺ: (يا معشر المسلمين! شمروا فإن الأمر جد، وتأهبوا فإن الرحيل قريب، وتزودوا فإن السفر بعيد، وخففوا أثقالكم، فإن وراءكم عقبة كؤودا ولا يقطعها إلا المخفون) [1]

وقال: (الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانيّ)[2]

وبهذا أوصاك كل ورثته وأئمة الهدى من بعده؛ فلا يدرك الكمال من استسلم للكسل ودواعيه، وقد قال الإمام علي: (عليكم بالجد والاجتهاد، والتأهب والاستعداد، والتزود في منزل الزاد، ولا تغرنكم الحياة الدنيا كما غرت من كان قبلكم من الأمم الماضية والقرون الخالية) [3]

وقال: (طاعة الله سبحانه لا يحوزها إلا من بذل الجد، واستفرغ الجهد) [4]

وقال: (صابروا أنفسكم على فعل الطاعات، وصونوها عن

1() أعلام الدين: ٣٤٣.

2() الترمذي والحاكم وأحمد وابن ماجه رقم 4260.

3() نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٠.

4() غرر الحكم: ٦٠٠٩، ٥٨٩١.

دنس السيئات، تجدوا حلاوة الإيمان) (1)

وقال الإمام الصادق: (أعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد في طاعتـه، فـإن اللـه لا يـدرك شـيء من الخـير عنـده إلا بطاعتـه واجتناب محارمه) (2)

وقال: (اعلموا أنه ليس بين الله وبين أحد من خلقـه ملـك مقــرب ولا نــبي مرســل ولا من دون ذلــك من خلقــه كلهم إلا طاعتهم له، فاجتهدوا في طاعة الله) (3)

وسـئل: (على مـاذا بـنيت أمـرك؟)، فقـال: (على أربعـة أشـياء: علمت أن عملي لا يعملـه غـيري فاجتهـدت، وعلمت أن الله عز وجل مطلع علي فاستحييت، وعلمت أن رزقي لا يأكلـه غيري فاطمأننت، وعلمت أن آخر أمري الموت فاستعددت) (4)

واعتبر الإمـام الرضـا العزيمـة الخاليـة من الجـد والاجتهـاد دعـاوى كاذبـة، فقـال: (سـبعة أشـياء بغـير سـبعة أشـياء من الاسـتهزاء: من اسـتغفر بلسـانه ولم ينـدم بقلبـه فقـد اسـتهزأ بنفسه، ومن سأل الله التوفيق ولم يجتهد فقد اسـتهزأ بنفسـه، ومن استحزم ولم يحـذر فقـد اسـتهزأ بنفسـه، ومن سـأل اللـه الجنة ولم يصبر على الشـدائد فقـد اسـتهزأ بنفسـه، ومن تعـوذ بالله من النار ولم يترك شهوات الدنيا فقد استهزأ بنفسه، ومن ذكر الله ولم يستبق إلى لقائه فقد استهزأ بنفسه) (5)

1() غرر الحكم: ٦٠٠٩، ٥٨٩١.

2() الكافي: ٨ / ٧ / ١ وص ١١.

3() الكافي: ٨ / ٧ / ١ وص ١١.

4() البحار: ٧٨ / ٢٢٨ / ١٠٠

5() البحار: ٧٨ / ٣٥٦ / ١١.

إذا علمت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فاسـع لأن تلـزم نفســك بمــا ألــزم الصــالحون بــه أنفســهم من المشــارطات والمعاهدات والمرابطات التي دعا إليها قولـه تعـالى: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُــوا اصْــبِرُوا وَصَــابِرُوا وَرَابِطُــوا وَاتَّقُــوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [آل عمران: 200]

فالمرابطة ـ كما أنها تعني لزوم الثغر الـذي يخـاف هجـوم العـدو منـه في الظـاهر ــ فهي تعـني كـذلك، وبالدرجـة الأولى، لزوم ثغر القلب لئلا يـدخل منـه الهـوى والشـيطان فيزيلـه عن مملكته.

بل قد ورد في النصوص ما يدل على أن من أفضل الرباط وأعظمه الرباط على النفس حماية لها من وساوس الشياطين، وترفعا بهـا إلى المعـالي، فقـد قـال رسـول اللـه ﷺ: (ألا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدّرجات؟) قــالوا: بلى، يا رسول الله قال: (إسباغ الوضوء على المكـاره وكـثرة الخطـا إلى المساجد، وانتظار الصّلاة بعد الصّلاة، فذلكم الرّباط)[1]

وقال: (أفضل الرباط الصلاة، ولزوم مجـالس الـذكر، ومـا من عبد يصلي ثم يقعد في مصـلاه إلا لم تـزل الملائكـة تصـلي عليه حتى يحدث أو يقوم) [2]

والمرابط على نفسه في هذه الحالة لإصلاحها لا يقل أجره عن رباط الجهاد في سبيل الله، لأنه لا يمكن للمجاهد جهاده إذا لم يهذب نفسه التي تحول بينه وبين الجهاد في سبيل الله، وقد قال رسول الله ﷺ في ذكر ثواب الرباط: (رباط يوم وليلة خـير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جـرى عليـه عملـه الّـذي كـان

1() مسلم (251)

2() رواه الطيالسي.

يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتن) [1]

واقتد بالصالحين الذين بايعوا الله والصالحين من عباده، والتزموا بما بايعوا عليه، كما روي عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ وكيف أنه ـ بعد أن لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدرا بسبب الظروف التي مرت عليه ـ راح يعوض عن ذلك في أحد، ويعاهد الله تعالى ويلزم نفسه بالوفاء، فقد روي أنه قال: (أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غيّبت عنه، وإن أراني الله مشهدا، فيما بعد، مع رسول الله ﷺ، ليراني الله ما أصنع)

وروي أنه شهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له: (يا أبا عمرو! أين؟)، فقال: (واها لريح الجنّة، أجده دون أحد)، فقاتلهم حتّى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية) [2]

وإن عجزت أن تلزم نفسك بما يؤدبها ويهذبها ويملؤها بالنشاط، فاستعن بإخوانك الصالحين، فملكهم أمر نفسك، واجعلهم يحاسبونك على تقصيرك، وقد روي في حكمة آل داود: (حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلى فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن في هذه الساعة عونا على تلك الساعات، وإجماماً للقلوب) [3]

ولا تقصر اجتهادك على أمور دينك، بل إن الاجتهاد والجد

1() الترمذي (1165) وقال: حديث حسن صحيح.

2() البخاري- الفتح 6 (2805). ومسلم (1903)

3() روى مرفوعًا من كلام النبى ﷺ، رواه أبو حاتم وابن حبان وغيره، وروي قريب منه عن الإمام علي في نهج البلاغة / 545 حكمة 390..

يكون في جميع شؤون الحياة، فلا يمكن أن يستقيم الدين من غير أن تستقيم الدنيا، وقد قال رسول الله ﷺ: (لأن يأخذ أحدكم أحبلا، فيأخذ حزمة من حطب فيبيع فيكفّ الله بها وجهه خير من أن يسأل النّاس أعطي أم منع)(1)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:(لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره، فيتصدّق به ويستغني به من النّاس، خير له من أن يسأل رجلا، أعطاه أو منعه ذلك. فإنّ اليد العليا أفضل من اليد السّفلى. وابدأ بمن تعول)(2)

وقال: (الأيدي ثلاثة: فيد الله العليا، ويد المعطي الّتي تليها، ويد السّائل السّفلى، فأعط الفضل ولا تعجز عن نفسك)(3)

واستعن على ذلك بما كلفك الله به من شعائر وشرائع، فمن مقاصدها العظمى إخراجك من كسلك، وملئك بالنشاط والاجتهاد والجد الذي يعود نفعه على حياتك جميعا، كما قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: 45، 46]

ولذلك ذكر الله تعالى تثاقل المنافقين عن الصلاة، وكسلهم في أدائها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: 142]

ولهذا شاء الله تعالى ــ بحكمته في رعاية خلقه ــ أن

1() البخارى ـ الفتح 5(2373)

2() البخاري [فتح الباري]، 3(1470)، ومسلم(1042) واللفظ له.

3() أبو داود(1649) واللفظ له، والحاكم(1/ 408)

يكلفهم بصــلاة الصــبح في ذلــك الــوقت الــذي يتكاســل فيــه المتكاسلون، حـتى يتـبين الصـادقون في عـزيمتهم من غـيرهم، وقد قال رسول الله ﷺ: (إنّ أثقل صـلاة على المنـافقين صـلاة العشاء وصلاة الفجر. ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا) (1)

وذكــر دور الشـيطان في الـدعوة للكسـل، فقـال: (يعقـد الشّـيطان على قافيـة رأس أحـدكم(2) ثلاث عقـد إذا نـام، بكـلّ عقدة يضرب عليك ليلا طويلا، فإذا استيقظ، فذكر اللــه، انحلّت عقدة. وإذا توضّأ، انحلّت عنه عقدتان، فإذا صلّى انحلّت العقــد. فأصبح نشيطا طيّب النّفس، وإلّا أصبح خبيث النّفس كسلان)(3)

وذكــر ﷺ فضــل بعض الشــعائر التعبديــة، لمشــقتها على النفس، ودورها في مقاومة الـوهن والكسـل، فقـال: (ألا أدلّكم على ما يكفّر الله به الخطايا ويزيد في الحسـنات؟) قـالوا: بلى يـا رسـول اللـه. قـال: (إسـباغ الوضـوء في المكـاره، وانتظـار الصّلاة بعد الصّلاة.. ما منكم من رجـل يخـرج من بيتـه فيصـلّي مع الإمام ثمّ يجلس ينتظر الصّلاة الأخـرى إلّا والملائكـة تقـول: اللهمّ اغفر له، اللهمّ ارحمه) (4)

وهكذا ذكر الـذكر بعـد صـلاة الصـبح إلى طلـوع الشـمس، فقال: (من صلى الفجر في جماعـة، ثم قعـد يـذكر اللـه، حـتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كـأجر حجـة وعمـرة، تامة تامة تامة)(5)

1() البخاري- الفتح 2 (644). مسلم (651)

2() قافية رأس أحدكم: أي آخر الرأس.

3() البخاري [فتح الباري]، 3(1142)، ومسلم(776) واللفظ له.

4() مسلم (251) بنحوه، وابن خزيمة برقم (357) واللفظ له.

5() الترمذي، رقم (586)

بل اعتبر رسول الله ﷺ أن أفضل أوقات البركـة هـو ذلـك الوقت الذي يحبه الكسالى للنوم، لا للعمل، فقال: (اللهم بـارك لأمـتي في بكورهـا)، قـال الـراوي: وكـان ﷺ إذا بعث سـرية أو جيشـا بعثهم من أول النهـار، وكـان صـخر تـاجرا، وكـان يبعث تجارته أول النهار فأثرى وكثر ماله) (1)

وهكذا ذكر رسـول اللـه ﷺ كـثرة أعمـال الخـير وتشـعبها، وتعلقها بجميع المجالات، وجميع الأوقات، وهو مـا ينفي الضـجر والملل الذي قد يدعو إليه الكسل، وقد قال الله تعـالى مشـيرا إلى تغير الأوقـات، ودورهـا في الحث على العمـل: ﴿وَهُـوَ الَّذِي جَعَـلَ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ خِلْفَـةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَـذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُـكُورًا﴾ [الفرقان: 62]

وأشار رسول الله ﷺ إلى كثرة أعمال الـبر وتنوعهـا بحيث تشمل كل المجالات: (تبسّمك في وجـه أخيـك صـدقة، وأمـرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرّجـل في أرض الضّلال لك صدقة، وبصرك للرّجـل الـرّديء البصـر لـك صـدقة، وإماطتـك الحجـر والشّـوكة والعظم عن الطّريـق لـك صـدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة) (2)

ولهذا يمكن أن يختار أي شخص الأعمال التي تتناسب مــع طبيعته، ليقوم بها، بدل أن يكلف نفسـه بمـا لا تطيـق، أو مـا لا ترغب، وقد ورد في الحديث ناسا من أصحاب النّبيّ ﷺ، اشتكوا لـه، فقـالوا: (يـا رسـول اللـه ذهب أهـل الـدّثور ــ أي الأغنيـاء ـ بالأجور، يصلّون كما نصلّي، ويصـومون كمـا نصـوم، ويتصـدّقون بفضول أموالهم، ولا نتصدق)، فقال رسول الله ﷺ: (أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون؟ إنّ بكلّ تسبيحة صدقة، وكلّ تكبيرة

(1) أبو داود الترمذي وقال حديث حسن.

(2) الترمذي (7195) وقال: هذا حديث حسن غريب.

صدقة، وكلّ تحميدة صدقة، وكلّ تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة) [1]

هـذه وصـيتي إليـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فاجتهـد في تنفيذها، واعلم أنه لن يكلفـك ذلـك سـوى بعض الجهـد القليـل، وبعدها سترى كيف يقذف الله حلاوة العمل الصـالح في قلبـك؛ فتتحول من الكسل إلى العمـل، ومن الـوهن إلى النشـاط، من غــير أن تشــعر، ولــذلك ورد في الأثــر: (منهومــان لا يشــبعان: طالب علم، وطالب دنيا) [2]

ومثلهما كل من أدمن على أي شيء من الأشياء؛ فـالنفس إن تحركت للطاعة، والعمل الصالح، حببه الله إليها، حتى يصـبح أحب إليها من المـاء البـارد على الظمـأ، ولـذلك لا يجـد مشـقة التكليف إلا الكسالى، أما الصادقون، فإنهم ــ كمـا يـذكرون عن أنفسهم ـ يعيشون في سعادة لو علمها الملوك لقاتلوهم عليها.

1() مسلم (1006)

2() كشف الأستار عن زوائد البزار (1/ 95)

اللؤم والدناءة

كتبت إلي ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ تسـألني عن اللـؤم والدناءة وما ارتبط بهمـا من الخسـة وصـغر النفس وحقارتهـا.. وعن الـدوافع الـتي تـدفع إليهـا، والثمـار الـتي تثمرهـا، وكيفيـة التخلص منها، لتحل الهمـة العاليـة بـدلها، وتحـل معهـا كـل قيم النبل والمكارم.

وهذه أسئلة وجيهة؛ فاللؤم والدناءة والخسة وصغر النفس وحقارتهـا من صـفات النفس الأمـارة بالسـوء، وهي من أكـبر الحجب التي تحول بينها وبين السير إلى الله، والتحقق بحقـائق أهل الله، ذلك أن أول صفاتهم الهمة العالية، والأدب الرفيع.

ولذلك كانوا أبعد الخلق عن اللؤم.. وكيف يكونـون كـذلك، وما هو إلا نزول الإنسان من المحل الرفيع الذي أقامه الله فيـه إلى أسفل سافلين، فبدل أن يرقى بهمته إلى المعالي ينزل بها إلى المنحـدرات، ثم هـو في نزولـه لا يقـع إلا على الخنـافس والجرذان، ولا يجد رفيقا له إلا الخنازير والسباع.

ولهـذا ذكـر رسـول اللـه ﷺ أن (اللـه يحبّ معـالي الأمـور وأشرافها، ويكره سفسافها[1])[2]، واعتبر اللـؤم صـفة الفـاجر، فقال: (المؤمن غرّ كريم، والفاجر خبّ لئيم)[3]

وأخبر عن الفـرق بين مكـارم المؤمـنين، ولـؤم الفـاجرين، فقـال: (إن اللــه يبغض الفحش والتفحش، والـذي نفس محمـد بيده، لا تقوم الساعة حتى يخون الأمين، ويؤتمن الخـائن، حـتى

1() سفسافها: السفساف: الحقير الرديء من كل شيء وعمل.

2() رواه الطبراني في الكبير.

3() رواه أبو داود والترمذي وغيرهما.

يظهر الفحش والتفحش، وقطيعة الأرحام، وسوء الجوار، والذي نفس محمد بيده، إن مثل المؤمن لكمثـل القطعـة من الـذهب، نفخ عليهـا صـاحبها فلم تغـير، ولم تنقص، والـذي نفس محمـد بيده، إن مثل المؤمن لكمثل النحلة، أكلت طيبا، ووضعت طيبـا، ووقعت فلم تكسر ولم تفسد) (1)

وقال في حديث آخر: (والـذي نفس محمـد بيـده، لا تقـوم السـاعة حـتى يظهـر الفحش والبخـل، ويخـون الأمين، ويـؤتمن الخائن، ويهلك الوعول، وتظهر التحوت)، قالوا: يـا رسـول اللـه وما الوعول والتحوت؟ قال: (الوعول: وجوه النـاس وأشـرافهم والتحوت: الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم) (2)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ وأنت تروم التخلص من اللؤم والدناءة لتتحقق بما تتطلبه الهمـة العاليـة من المكـارم أن تقـع فيما وقع فيه أولئك المتثاقلون للدنيا، الذين حصروا علـو الهمـة في المناصب الرفيعة، والجاه العـريض، فبـاعوا دينهم بـدنياهم، وعقلهم بهواهم، ولم يستمتعوا بدنيا، ولم يتزودوا لآخرة.

وقد روي عن بعض هؤلاء أنه كان لا يكاد ينـام في شـبيبته؛ فسئل عن ذلك، فقال: ذهن صاف، وهم بعيد، ونفس تتـوق إلى معالي الأمور، مـع عيش كعيش الهمج الرعـاع، فقيـل لـه: فمـا الذي يبرد غليلك؟ قال: الظفـر بالملـك، قيـل: فاطلبـه، قـال: لا يطلب إلا بالأهوال، قيـل: فـاركب الأهـوال، قـال. العقـل مـانع، قيـل: فمـا تصـنع ؟ قـال: سـأجعل من عقلي جهلاً، وأحـاول بـه خطراً لا ينال إلا بالجهل، وأدبر بالعقل ما لا يحفـظ إلا بـه، فـإن الخمول أخو العدم.

1() رواه أحمد (11/ 458)

2() ابن حبان، 6844، الحاكم، 8664.

وقد قام هذا المسكين بما دعت إليه همتـه؛ فأجهـد نفسـه للدنيا، ووصل إلى أعلى مراتبها، لكنه لم ينل منها شـيئا.. فقـدم على الآخرة خالي الوفاض.. فلم ينل لا الدنيا، ولا الآخرة.

أو ذلك الذي راح يقاتل سبط رسول الله ﷺ وسـيد شـباب أهل الجنـة من أجـل ذلـك الملـك المحـدود الـذي تصـور نفسـه صاحب همة عالية إن ناله، لكنه لم ينله.

لقـد قـال يتحـدث عن الخيـارات الـتي وضـعت بين يديـه، وكيف تلاعب به الشيطان، وسول له الهـوى ليختـار اللـؤم على الكرم، والدناءة على الهمة:

فوالله لا أدري وإنّي   أُفكّر في أمري
أأترك ملكَ الريِّ   أم أرجع مأثوماً
حسينُ ابنُ عمّي   لَعَمري ولي في
وإنّ إلهَ العرشِ يغفر   ولو كنتُ فيها أظلمَ
ألا إنّما الدنيا لَخيرُ   وما عاقلٌ باع
يقولون إنّ اللهَ خالقُ   ونارٍ وتعذيبٍ وغلِّ
فإنْ صدقوا فيما   أتوب إلى الرحمن
وإنْ كذبوا فُزنا بدنيا   وملكٍ عقيمٍ دائمِ

وقد رد عليه بعضهم، فقال:

ألا أيّها النغلُ الذي   ويمضي من الدنيا
إذا أنت قاتلت   وأنتَ تراه أشرفَ
فلا تحسبنَّ الريَّ يا   تفوز به من بعد

ومثله ذلك الشـاعر الـذي قضـى عمـره يبحث عمن يوليـه

بعض الولايات، وكان يقول:

وفي الناس من يرضى ... ومركوبه رجلاه

ولكنَ قلباً بين جنبي ما ... مدى ينتهي بي في

يرى جسمه يكسي ... فيختار أن يكسى

وكان يقول:

على قدرِ أهلِ العزمِ ... وتأتيْ على قدرِ

وتعظمُ في عينِ ... وتصغرُ في عينِ

وقد توهم نفسه صاحب همة علية، لكنه لم يكن كذلك.. فالهمة العالية لا تكون إلا لمن ترقوا بأرواحهم عن ثقل الطين، ومن عداهم لا يختلفون عن ذلك الذي وصفه الله تعالى، فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175، 176]

ولذلك اجعل مصدرك في تحديد الهمم العالية، وما ارتبط بها من المكارم، ما ورد في النصوص المقدسة، فهي التي تبين الحقائق، وتعطي القيم الحقيقية للأشياء، أما من عداها، فهي تكذب عليك، وتوهمك بالأماني الكاذبة التي لن تجد في نهايتها إلا السراب.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال ــ وهو يخبر عن بني إسرائيل ـ: (كانت امرأة ترضع ابنا لها في بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب وقال: اللهم لا تجعلني

مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه، ثم مر بأمة فقـالت أمـه: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها وقـال: اللهم اجعلـني مثلهـا فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهـذه الأمـة يقولون: سرقت زنت، ولم تفعل)[1]

وأخبر ﷺ عن فساد المـوازين والمعـايير الـتي يتعامـل بهـا البشـر مـع اللـؤم والكـرم، فقـال: (سـيأتي على النّـاس سـنون يصدّق فيها الكاذب، ويكذّب فيها الصّـادق، ويخـوّن فيهـا الأمين، ويؤتمن فيها الخائن، وينطـق فيهـا الرّويبضـة)، قيـل: يـا رسـول الله؛ وما الرّويبضة؟ قال: (السّفيه يتكلّم في أمر العامّة) [2]

لذلك لا تعتمد ما يقوله عامة الناس أو خاصتهم في تحديـد المكارم، بـل اعتمـد الحقـائق والقيم الـتي وردت في النصـوص المقدسة، فهي التي تمثل الحقيقة، أما ما عداها، فليست سوى أوهام وأماني تضرك أكثر مما تنفعك.

إذا علمت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فاسـمع لهـذه الوصفات الربانية التي تطهر نفسك من كل لؤم ودنـاء وخسـة، لتملأها بالهمة العالية الحقيقية، والأخلاق العظيمة المرتبطة بها.

العلاج المعرفي:

أول علاج تنطلق منه ـ أيها المريـد الصـادق ــ للتخلص من اللؤم والدناءة وما يرتبط بها من الخسـة والوضـاعة، أن تعـرف الجوائز والعقوبات التي أعدت لكلا الطرفين: اللؤماء والكرماء، وأصحاب الهمم العالية والهمم الدنية.. والـتي أشـار إليهـا قولـه تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَـاءُ لِمَنْ نُرِيـدُ ثُمَّ جَعَلْنَـا لَـهُ جَهَنَّمَ يَصْـلَاهَا مَـذْمُومًا مَـدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ

[1] () البخاري ومسلم.

[2] () ابن ماجة (4036). وأحمد (2/ 291). والحاكم في المستدرك (4/ 512)

الْآخِـرَةَ وَسَـعَى لَهَـا سَـعْيَهَا وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَـانَ سَـعْيُهُمْ مَشْكُورًا [الإسراء: 18، 19]

ثم أخـبر بعـدها أن اللـه تعـالى يعطي كـل نفس بحسـب همتها، فقال: كُلًّا نُمِدُّ هَـؤُلَاءِ وَهَـؤُلَاءِ مِنْ عَطَـاءِ رَبِّكَ وَمَـا كَـانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا [الإسراء: 20]

ثم بين أن الدرجات والمراتب الـتي تفـرق بين النـاس في الدنيا هي نفسها التي تفرق بينهم في الآخرة، ولكن مع الفوارق العظيمة، قال تعـالى: انْظُـرْ كَيْـفَ فَضَّـلْنَا بَعْضَـهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا [الإسراء: 21]

ولذلك وصف الله تعالى الآخرة بأنها [خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ]، فهي تخفض المرتفعين المستكبرين الذين يتوهم الناس أنهم أصحاب المكـارم والهمم العاليـة، في نفس الـوقت الـذي ترفـع فيـه البسـطاء الـذين خفضـهم الظلمـة، واحتقـرهم النـاس، لـتريهم صورهم الحقيقية الممتلئـة بالجمـال، والـذي كـان مغطى بـذلك الوشاح الدنيوي الذي حال بين البشر ورؤيتهم.

لذلك اسع ـ أيها المريد الصادق ــ لأن تتحقـق بتلـك الهمـة العالية التي تجعلك من الذين يتبـوؤون تلـك المناصـب الرفيعـة في الـدار الآخـرة، والـذين ورد ذكـرهم وذكـر أوصـافهم في النصـوص المقدسـة، لا لتتسـلى بـالتعرف عليهم، وإنمـا لتكـون أحدهم.

فالله تعالى قد وعد عباده بالجوائز العظيمة إن هم نجحـوا في الاختبـارات الـتي يمتحنهم فيهـا، فاحـذر أن تكـون من الراسـبين الفاشـلين، فـأنت في السـوق الـذي لا يـربح فيـه إلا أصحاب الهمم العالية.

لقد قال صاحب هذه السوق يخاطبك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا

هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [الصف: 10]

ثم بين لـك الثمن الـذي تبـاع بـه سـلع الآخـرة، فقـال: تُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَتُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ بِـأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [الصف: 11]

ثم ذكـر لـك الثمن الـذي يمكنـك قبضـه، والـذي لا يمكن وصـفه، فقـال: يَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ وَيُـدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُـؤْمِنِينَ [الصف: 12، 13]

وهو ثمن يشمل الدنيا والآخرة.. فالله تعالى ربهما جميعا.. ولـذلك يجـازي من نجح في الاختبـار بهمـا جميعـا، قـال تعـالى: مَنْ عَمِـلَ صَـالِحًا مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَـاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97]

وهذا الجزاء العظيم يسـتدعي الاجتهـاد العظيم، وقـد قـال رسول اللـه ﷺ: (من خـاف أدلج، ومن أدلج بلـغ المـنزل، ألا إنّ سلعة اللّه غالية، ألا إنّ سلعة اللّه الجنّة) [1]

ولهذا، فإن القرآن الكريم يدعونا إلى المسارعة؛ فالسرعة لنيل المكارم دليل على الهمة العالية، قـال تعـالى: وَسَـارِعُوا إِلَى مَغْفِـرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـهَا السَّـمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِـدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ [آل عمران: 133]

ثم وصـفهم، ووصـف أعمـالهم وكـرمهم ونبلهم، فقـال: الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ فِي السَّـرَّاءِ وَالضَّـرَّاءِ وَالْكَـاظِمِينَ الْغَيْـظَ وَالْعَـافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِـنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا

[1] () رواه الترمذي رقم (2452) وقال هذا حديث حسن غريب.

فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِـذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِـرُّوا عَلَى مَـا فَعَلُـوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ [آل عمران: 134، 135]

ثم بين الجزاء العظيم المعد لهم، فقال: أُولَئِكَ جَـزَاؤُهُمْ مَغْفِـرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [آل عمران: 136]

وهكـذا بعـد أن وصـف النعيم المعـد للأبـرار، فقـال: إِنَّ الْأَبْـرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُـرُونَ (23) تَعْـرِفُ فِي وُجُـوهِهِمْ نَضْـرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْـقَوْنَ مِنْ رَحِيـقٍ مَخْتُـومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ [المطففين: 22 ـ 26]، ختمها بالدعوة للتنافس للحصـول عليهـا، فقـال: وَفِي ذَلِـكَ فَلْيَتَنَـافَسِ الْمُتَنَافِسُـونَ [المطففين: 26]

فاجعل همتك ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ في هـذا النـوع من التنافس والسباق، وإياك أن تصـبح همتـك كهمـة صـاحب الـري الذي ضحى بسبط رسـول اللـه ﷺ من أجـل ملـك لا ينفعـه في دنياه، ولا في آخرته.

وإن أردت أن تكون همتك أعلى؛ فـاترك كـل شـيء لأجـل ربك حتى تتحقق بعبودية الأحرار تلك التي وصفها الإمـام علي، فقال: إن قوما عبدوا الله رغبة فتلـك عبـادة التجـار، وإن قومـا عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا اللـه شـكرا فتلك عبادة الاحرار) [1]

وقال الإمـام الصـادق: (إن العبـاد ثلاثـة: قـوم عبـدوا اللـه عزوجل خوفا فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الاجراء، وقوم عبدوا الله عزوجل حبـا

[1] () نهج البلاغة: الحكمة 237.

له، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة) (1)

وقال: (إن الناس يعبدون الله عزوجل على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء، وهو الطمع، وآخرون يعبدونه فرقا من النار فتلك عبادة العبيد، وهي الرهبة، ولكني أعبده حبا له عزوجل فتلك عبادة الكرام، وهو الأمن، لقوله عزوجل: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: 89] ولقوله عزوجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]، فمن أحب الله أحبه الله عزوجل، ومن أحبه الله عزوجل كان من الآمنين) (2)

وقال الإمام السجاد: (إني أكره أن أعبد الله ولا غرض لي إلا ثوابه، فأكون كالعبد الطمع المطمع، إن طمع عمل وإلا لم يعمل، وأكره أن لا أعبده إلا لخوف عقابه، فأكون كالعبد السوء، إن لم يخف لم يعمل)، قيل: فلم تعبده ؟ قال: (لما هو أهله بأياديه علي وإنعامه)(3)

وقال الإمام الرضا: (لو لم يخوف الله الناس بجنة ونار لكان الواجب أن يطيعوه ولا يعصوه، لتفضله عليهم وإحسانه إليهم وما بدأهم به من إنعامه الذي ما استحقوه)(4)

فارتق بهمتك ـ أيها المريد الصادق ـ لما ذكره أئمة الهدى، فلا تنال الهمة العالية إلا بذلك، وقد قال بعض الصالحين: (إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة

1() الكافي: 2 / 84 / 5.

2() الخصال: 188 / 259.

3() البحار: 70 / 210 / 33.

4() عيون أخبار الرضا: 2 / 180 / 4.

فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟)[1]

وقيــل لبعض العبــاد: (أي شــئ هاجــك إلى العبــادة؟)، فسكت، فقيل له: (ذكر المـوت)، فقـال: (وأي شـئ المـوت؟)، فقيل له: (ذكر القبر والبرزخ)، فقال: (وأى شئ القبر؟)، فقيــل له: (خوف النار ورجاء الجنة)، فقال: (وأي شـئ هـذا.. إن ملكـا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينـك وبينـه معرفة كفاك جميع هذا)

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ وعـزمت على أن تتخلص من اللــؤم والــدناءة ومــا يرتبــط بهمــا من الخســة والوضاعة، فعليك بكل أخلاق الكرام الطيبين أصحاب المـروءة، وهي أخلاق متفـق عليهـا بين جميـع العقلاء والحكمـاء؛ فعليـك بحمـل نفسـك عليهـا، فلا يمكن أن تجتمـع معـالي الأمـور مـع سفسافها، ولا علو الهمة مع دنوها.

وأول ذلك أن تخلص نفسك من أول صفات اللؤمــاء، وهي **الفحش**.. فاللئيم لا يكون إلا فاحشـا مقيتـا.. يسـرع إلى الخنـا من القـول، ويتكلّـف سـبّ النّـاس ويتعمّـده.. ويجعلـه وسـيلته للسيطرة عليهم.

ولذلك وردت النصـوص المقدسـة بتحـذير المؤمـنين منـه، وببيان العقاب الذي أحله الله به لتملأ النفوس رهبة من سـلوك سبيله، ففي الحديث أن رجلا استأذن على رسول اللّه فقـال: (ائذنوا له، بئس أخو العشيرة)، فلمّا دخل ألان لـه الكلام. قلت: يا رسول اللّه، قلت الّذي قلت ثمّ ألنت له الكلام. قال: (إنّ شرّ

---

[1] () إحياء علوم الدين (4/ 310)

النّاس من تركه النّاس اتّقاء فحشه)(1)

وروي أنّ يهود أتوا النّبيّ فقـالوا: السّـام عليكم، فقـالت عائشة: عليكم، ولعنكم اللّه، وغضب اللّه عليكم، فقـال رسـول الله ﷺ: (مهلا يا عائشة، عليك بالرّفق، وإيّاك والعنف والفحش) قـالت: أو لم تسـمع مـا قـالوا، قـال: (أو لم تسـمعي مـا قلت، رددت عليهم فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيّ)(2)

وروي أنه قسم قسما، فقيـل لـه: واللّـه يـا رسـول اللّـه لغير هؤلاء كان أحقّ به منهم، قال: (إنّهم خيّـروني أن يسـألوني بالفحش أو يبخّلوني، فلست بباخل)(3)

وفي حـديث آخـر قـال: (الظّلم ظلمـات يـوم القيامـة، وإيّاكم والفحش، فإنّ اللّه لا يحبّ الفحش ولا التّفحّش، وإيّـاكم والشّـحّ، فـإنّ الشّـحّ أهلـك من كـان قبلكم، أمـرهم بالقطيعـة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا..)(4)

وقال : (ليس أحد أحبّ إليه المدح من اللّـه- عـزّ وجـلّ-، من أجل ذلك مدح نفسـه، وليس أحـد أغـير من اللّـه، من أجـل ذلك حرّم الفواحش..)(5)

وقال: (ليس المؤمن بالطّعّان، ولا اللّعّان، ولا الفاحش، ولا البذيء)(6)

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه مسلم.

4() رواه أبو داود وأحمد.

5() رواه البخاري ومسلم.

6() رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

وقال: (ما كان الفحش في شيء إلّا شانه، وما كان الحياء في شيء إلّا زانه)(1)

وقال: (الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنّة، والبذاء(2) من الجفاء، والجفاء في النّار)(3)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ والبذاءة والسباب، ولو كنت صادقا؛ فهي من صفات اللؤماء؛ فاحذر منها، وطهر لسانك مما تنفر منه نفوس الطيبين، وإن كنت تراه كلاما عاديا لا حرج فيه.

وكيف لا تطهر لسانك منها، وقد نهى الله عنها، وأخبر أنه لا يحبها، فقال: ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (148)﴾ (النساء)

بل إنه عاتب عتابا شديدا من وقع فيها فقال: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ (16)﴾ (النور)

بل اعتبر أهلها من المنافقين، فقال:﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (19)﴾ (الأحزاب)، وقال:﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)﴾ (الممتحنة)

1() رواه الترمذي وقال حديث حسن، وابن ماجة.

2() البذاء: الفحش في الكلام.

3() رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أنها من صفات اللؤماء، فقـال: (لا تسبّوا أمواتنا، فتؤذوا أحياءنا، ألا إنّ البذاء لؤم)[1]

بل اعتبرها من النفاق، فقـال: (الحيـاء والعيّ شـعبتان من الإيمان والبذاء والبيان[2] شعبتان من شعب النّفاق)[3]

بـل حـذر أصـحابها من النـار، فقـال: (الحيـاء من الإيمـان، والإيمان في الجنّة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النّار)[4]

ولـذلك أخـبر رسـول اللـه ﷺ أن البـذيء لا يسـتحق اسـم الإيمان، فقال: (ليس المؤمن بالطّعّـان ولا اللّعّـان ولا الفـاحش ولا البذيء)[5]

وبين بغض الله للبذيء، فقال: (ما شيء أثقــل في مــيزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإنّ اللّـه ليبغض الفـاحش البذيء)[6]

وحذر من الوقوع فيهـا، فقـال: (إنّ أنسـابكم هـذه ليسـت بسباب على أحد، وإنّما أنتم ولـد آدم، طـفّ الصّـاع لم تملـؤوه، ليس لأحد فضـل إلّا بالـدّين أو عمـل صـالح. حسـب الرّجـل أن يكون فاحشا بذيّا بخيلا جبانا)[7]

1() رواه النسائي بإسناد صحيح.

2() المراد بالبيان: كشف ما لا يجوز كشفه، أو المراد بـه المبالغـة في الإيضـاح حـتى ينتهي إلى حد التكلف.

3() رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه على شرطهما.

4() رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

5() رواه الترمذي وقال: حسن غريب. وأحمد والحاكم وصححه.

6() رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

7() رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وبقية رجاله وثقوا.

بل اعتبرها من الكبـائر، فقـال: (من الكبـائر شـتم الرّجـل والديه). قالوا: يا رسول اللّه، وهل يشتم الرّجـل والديـه؟ قـال: (نعم، يسبّ أبا الرّجل فيسبّ أباه ويسبّ أمّه فيسبّ أمّه)(1)

إذا علمت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ـ فإيـاك والمسـارعة إلى الكلام البذيء الذي لا يليق، ولو كـان موجهـا لمـا لا يعقـل.. ففي الحديث أنّ رسـول اللّـه ، دخـل على أمّ السّـائب فقـال: (مالك يا أمّ السّائب تزفـزفين(2)؟) قـالت: الحمّى لا بـارك اللّـه فيها، فقال: (لا تسبّي الحمّى، فإنّها تذهب خطايـا بـني آدم كمـا يذهب الكير خبث الحديد)(3)

ولعن رجل الـرّيح، على عهـد النّـبيّ ، فقـال النّـبيّ : (لا تلعنها، فإنّها مأمورة، وإنّـه من لعن شـيئا ليس لـه بأهـل رجعت اللّعنة عليه)(4)

وجاء أعرابيّ جـريء إلى رسـول اللّـه فقـال: يـا رسـول اللّه: أخبرنا عن الهجرة إليك أينما كنت، أو لقوم خاصّـة، أم إلى أرض معلومة، أم إذا متّ انقطعت؟ قال: فسكت عنه يسيرا ثمّ قال: (أين السّائل؟) قال: ها هو ذا يا رسول اللّه. قال: (الهجرة أن تهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، ثمّ أنت مهاجر وإن متّ بالحضر)(5)

وأخبر ﷺ أن الصيام الحقيقي هو صـيام الكرمـاء، لا صـيام اللؤماء الذين لا يطهرون أنفسهم من الفحش والرفث، قال ﷺ:

1() رواه البخاري ومسلم.

2() تزفزفين: يعني تتحركين حركة شديدة وترتعدين.

3() رواه مسلم.

4() رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب.

5() رواه أحمد.

(الصّيام جنّة، فلا يـرفث ولا يجهـل، وإن امـرؤ قاتلـه أو شـاتمه، فليقـل: إنّي صـائم- مـرّتين- والّـذي نفسـي بيـده لخلـوف فم الصّائم أطيب عند اللّه من ريح المسك، يـترك طعامـه وشـرابه وشهوته من أجلي، الصّيام لي وأنـا أجـزي بـه، والحسـنة بعشـر أمثالها)(1)

وقال: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجـة في أن يدع طعامه وشرابه)(2)

وقال: (رب صائم حظه من صيامه الجـوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر) (3)

وأخبر أن المسارعين إلى اللعن والسب لا تتاح لهم تلك المكارم التي تتاح للمؤمنين في الآخـرة، فقـال: (إنّ اللّعّـانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة)(4)

ولذلك كـان ﷺ يطلب من أصـحابه أن يعاهـدوه على عـدم الوقوع في هذا المثلب الخطير المشوه للمسلم، ففي الحـديث عن جابر بن سليم، قـال: رأيت رجلا يصـدر النّـاس عن رأيـه، لا يقول شيئا إلّا صدروا عنه، قلت: من هـذا؟ قـالوا (هـذا) رسـول اللّه . قلت: عليك السّلام يا رسول اللّه- مرّتين- قال: (لا تقـل عليـك السّـلام! فـإنّ عليـك السّـلام تحيّـة الميّت، قـل: السّـلام عليك) قال: قلت: أنت رسـول اللّـه ؟ قـال: (أنـا رسـول اللّـه الّذي إذا أصابك ضرّ فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عـام سـنة فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء أو فلاة فضلّت راحلتك

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري (1804)

3() رواه أحمد (8693)

4() رواه مسلم.

فدعوته ردّها عليك)، قلت: اعهد إليّ، قال: (لا تسبّنّ أحدا) قال: فما سببت بعده حرّا ولا عبدا، ولا بعيرا ولا شاة، قال: (ولا تحقرنّ شيئا من المعروف، وأن تكلّم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إنّ ذلك من المعروف.. وإن امرؤ شتمك وعيّرك بما يعلم فيك فلا تعيّره بما تعلم فيه، فإنّما وبال ذلك عليه)(1)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ــ والنجوى.. فإنها من صفات أهل اللؤم والخسة، ولهذا نهى الله تعالى عنها، فقال: لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (114) (النساء)، وقال: وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (47) (الإسراء)

ونهى رسول الله ﷺ عنها، فقال: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتّى تختلطوا بالنّاس من أجل أنّ ذلك يحزنه)(2)

وقال: (لا يتناجى اثنان دون صاحبهما، ولا يقيم الرّجل أخاه من مجلسه ثمّ يجلس)(3)

وقال: (لا يتناجى اثنان دون الثّالث؛ فإنّ ذلك يؤذي المؤمن، واللّه يكره أذى المؤمن)(4)

1() رواه أبو داود.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه أحمد.

4() رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط.

وقال: (لا يتسارّ اثنان دون الثّالث)(1)

وكل هذه الأحـاديث تشـير إلى أن الغـرض من النهي عنهـا هو أداؤها لإذيـة المـؤمن؛ فـإن خلت من ذلـك، أو كـان الغـرض منها صالحا؛ فهي من المستثنيات التي نص عليها قوله تعالى: لا خَيْرَ فِي كَثِـيرٍ مِنْ نَجْـواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَـرَ بِصَـدَقَةٍ أَوْ مَعْـرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ (114) (النساء)

وفيما عدا ذلك فالتّسارّ مذموم يسـوّل بـه الشّـيطان ليقـع سوء الظّنّ بين النّاس، قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْـوَى ثُمَّ يَعُـودُونَ لِمَـا نُهُـوا عَنْـهُ وَيَتَنَـاجَوْنَ بِـالْإِثْمِ وَالْعُـدْوَانِ وَمَعْصِـيَتِ الرَّسُـولِ وَإِذَا جَـاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَـا لَمْ يُحَيِّكَ بِـهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَـوْلَا يُعَـذِّبُنَا اللَّهُ بِمَـا نَقُـولُ حَسْـبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ [المجادلة: 8]

وقـد اشـتملت آيـة أخـرى على المحمـود والمـذموم من التّناجي فقال تعالى ناهيا عن التّناجي المذموم وآمـرا بالتّنـاجي المحمـود: يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذا تَنـاجَيْتُمْ فَلا تَتَنـاجَوْا بِـالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُـولِ وَتَنـاجَوْا بِـالْبِرِّ وَالتَّقْـوى وَاتَّقُـوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) (المجادلة)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ والإسراف.. فإنـه من صـفات أهل اللؤم والخسة.. وهو ليس خاصا بالطعام، بل هو يشمل كل شيء، كما قـال تعـالى مخـبرا عن الصـالحين واسـتغفارهم من الإسراف: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِمـا أَصـابَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَمـا ضَـعُفُوا وَمَـا اسْـتَكانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (

(1) رواه أحمد.

147) فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْـنَ ثَـوابِ الْآخِـرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148) (آل عمران)

وقال تعالى يبين عمـوم الإسـراف: قُـلْ يـا عِبـادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلى أَنْفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِـرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) (الزمر)

وذكــره رســول اللــه في أمــور كثــيرة، فقــال: (كلــوا وتصـدّقوا والبسـوا في غـير إسـراف ولا مخيلـة)(1)، وقـال: (إنّ اللّه- عزّ وجلّ- حرّم عليكم عقوق الأمّهات، ووأد البنـات، ومنعـا وهات، وكـره لكم ثلاثـا: قيـل وقـال، وكـثرة السّـؤال، وإضـاعة المـال)(2)، وقـال: (إنّ اللّـه يرضـى لكم ثلاثـا ويكـره لكم ثلاثـا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل اللّه جميعا ولا تفرّقوا، ويكـره لكم قيـل وقـال، وكـثرة السّـؤال وإضاعة المال)(3)

وجــاء أعــرابيّ إلى النّــبيّ يســأله عن الوضــوء، فــأراه الوضوء ثلاثا ثلاثا ثمّ قـال: (هكـذا الوضـوء. فمن زاد على هـذا، فقد أساء وتعدّى وظلم)(4)

وقال : (المؤمن يأكل في معي واحد، والكـافر يأكـل في سبعة أمعاء)(5)

وقال: (ما ملأ آدميّ وعاء شـرّا من بطن، بحسـب ابن آدم

1() رواه النسائي وابن ماجة.

2() رواه أحمد والطبراني في الأوسط.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه النسائي واللفظ له، وأبو داود وابن ماجة.

5() رواه البخاري.

أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)(1)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ والجهر بالسوء.. فإنها من صفات أهل اللؤم والخسة، وقد نهى الله تعالى عنها، فقال: لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (118) (النساء)، وقال: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (19) (النور)

ونهى رسول الله ﷺ عنها، وبين عظم جرمها، فقال: (كلّ أمّتي معافى إلّا المجاهرين، وإنّ من المجاهرة أن يعمل الرّجل باللّيل عملا، ثمّ يصبح وقد ستره اللّه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربّه، ويصبح يكشف ستر اللّه عنه)(2)

وقال: (ما ظهر في قوم الرّبا والزّنا إلّا أحلّوا بأنفسهم عقاب اللّه)(3)

وقال:(يكون في آخر هذه الأمّة خسف ومسخ وقذف). قالت، قلت: يا رسول اللّه، أنهلك وفينا الصّالحون؟ قال: (نعم إذا ظهر الخبث)(4)

وقال: (إنّ اللّه لا يحبّ الفحش، أو يبغض الفاحش والمتفحّش، ولا تقوم السّاعة حتّى يظهر الفحش والتّفاحش،

1() رواه الترمذي واللفظ له، وقال: حسن صحيح. وابن ماجة والحاكم وصححه. وابن حبان.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه أحمد وأبو ادود، وبعضه عند أبي داود.

4() رواه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب.

وقطيعة الرّحم، وسوء المجاورة، وحتّى يؤتمن الخـائن، ويخـوّن الأمين)(1)

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن أخطـر مظـاهر المجـاهرة إظهار المعصية، كمـا يفعـل المسـتهترون بحـدود اللّـه.. والّـذي يفعل ذلك يكون كمن وصفهم الله تعـالى، فقـال: ﴿وَهُمْ يَنْهَـوْنَ عَنْـهُ وَيَنْـأَوْنَ عَنْـهُ وَإِنْ يُهْلِكُـونَ إِلَّا أَنْفُسَـهُمْ وَمَـا يَشْـعُرُونَ ﴾ [الأنعام: 26]؛ فهو لم يكتـف بنهي نفسـه عن المعـروف، وإنمـا راح ينهى غيره أيضا.

ولا يقل عن هؤلاء أولئك الذين سـترهم اللـه تعـالى، لكنهم راحــوا يفضــحون أنفســهم، ويتحــدثون بمــا وقعــوا فيــه من المعاصي، بل يتحدثون بها تفاخرا أو استهتارا بستر اللّـه تعـالى، وهؤلاء هم الّـذين قصـدهم رسـول اللـه ﷺ، فقـال: (كـل أمـتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجانة أن يعمل الرجـل بالليـل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله فيقـول: (يـا فلان عملت البارحـة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف سـتر اللـه عنـه)، وقال: (وإن من الإجهار والمجانة عدم المبالاة بـالقول والفعـل) (2)

وإياك ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ وعـدم الاهتمـام بالطهـارة والنظافة بكل أنواعها.. فإنهـا من صـفات أهـل اللـؤم والخسـة، وقـد قـال رسـول اللـه ﷺ: (إن اللـه تعـالى طيب يحب الطيب، نظيـف يحب النظافـة، كـريم يحب الكـرم، جـواد يحب الجـود؛ فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود) (3)

1() رواه أحمد.

2() البخاري، رقم 6096، ومسلم، رقم 2990.

3() الترمذي وقال: غريب.

ولذلك بادر إلى الطهارة عن الأحداث والأخبـاث.. وقـد ورد في الحديث عن جابر أنّه قـال: أتانـا رسـول اللّـه فـرأى رجلا شعثا قد تفرّق شعره، فقال: (أما كـان يجـد هـذا مـا يسـكّن بـه شعره؟) ورأى رجلا آخر وعليه ثياب وسخة. فقال: (أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه؟)(1)

وروي أنـه مـر على قـبرين فقـال: (إنّهمـا يعـذّبان ومـا يعذّبان في كبير: أمّا هـذا فكـان لا يسـتنزه من بولـه، وأمّـا هـذا فإنّه كان يمشي بالنّميمة)، ثمّ دعا بعسيب رطب فشـقّه بـاثنين فغرس على هذا واحدا، وعلى هذا واحدا ثمّ قال: (لعلّـه يخفّـف عنهما ما لم ييبسا)(2)

ولا تكتف بـذلك.. بـل اسـع لتطهـير جوارحـك عن الجـرائم والآثام، بماء التوبة والأوبة والإنابة.. فلا يمكن لأي ماء في الدنيا أن يطهر الجوارح المتسـخة بـالظلم والإثم والجريمـة غـير تلـك المياه الطاهرة.

ولا تكتــف بــذلك.. بــل اســع لتطهــير قلبــك عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة، وكـل المثـالب الـتي تحـول بينـك وبين إنسانيتك التي كرمها الله تعالى.

ولا تكتف بذلك.. بل اسع لتطهـير روحـك عمـا سـوى اللـه تعالى.. فهذه الطهارة هي طهـارة الأنبيـاء والصـديقين.. فـارفع همتك لأن تكون معهم، وفي صفهم، فلا يفلح إلا من كان كذلك.

1() رواه أبو داود والنسائي والحاكم.

2() رواه البخاري ومسلم.

الحرص والبخل

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق تسألني عن الحرص والبخل، والمنابع التي تنبع منها، والثمار التي تثمرها، وكيفية تخليص النفس منها، وأسرار ما ورد في النصوص المقدسة حولها.

وهذه أسئلة وجيهة، لا يمكن لمن يريد تهذيب نفسه لتصبح صالحة للسير في طريق التحقق والتخلق، ألا يعرف الإجابة عنها، حتى يتخلص من هذين المثلبين الخطيرين اللذين يحولان بينه وبين الكمال المتاح له.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى دورهما في ذلك، فقال: (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبّتان من حديد من ثديّهما إلى تراقيهما؛ فأمّا المنفق فلا ينفق إلّا سبغت، أو وفرت على جلده حتّى تخفي بنانه وتعفو أثره. وأمّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلّا لزقت كلّ حلقة مكانها، فهو يوسّعها ولا تتّسع)[1]

وهو يشير إلى أن الانقباض النفسي الذي يعاني منه البخيل بسبب حرصه على المال، يحول بينه وبين كل المكارم، بل يجعله يرى كل شيء من نوافذ ذلك الحرص الذي ارتضاه لنفسه، ولذلك لا ينال أي خير، ولن يتمكن من إصلاحه أي توجيه.

ذلك أنه يرمي كل من يدعوه لذلك بكونه شحاذا أو متسولا، لا يريد إصلاحه، وإنما يريد الاستيلاء على ماله، وذلك ما يكون أعظم حجاب بينه وبينه.

ولهذا ذكر الله تعالى عن الرسل جميعا استغناؤهم عن

1() البخاري [فتح الباري]، 3(1443) واللفظ له، ومسلم(1021)

أموال الناس، وتصريحهم بذلك، حتى لا يكون ذلك حجابا بينهم وبين قبول الحق، كما قال تعالى مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:90)، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: 57)، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (صّ:86)

ولهذا اعتبر القرآن الكريم من أدلة صدق رسول الله ﷺ عفافه عن أموال قومه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (الطور:40)، وقال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (المؤمنون:72)

بل إن الله تعالى أخبر عباده أنه لا يريد أموالهم، ولا رزقهم ولا طعامهم، وإنما يريد عبادتهم التي هي الوسيلة الوحيدة لتهذيبهم والسير بهم في معارج الكمال، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56 - 58]

لكن الحريص على الأموال، والمحب لها لا يسمع لذلك، لأن الموازين عنده تختل اختلالا شديدا؛ فالذهب والفضة وكل أصناف الأموال تتحول إلى جدر حصينة تحول بين عقله وبين إدراك الحقائق والتسليم لها، مثلما حصل لفرعون عندما نظر إلى موسى؛ فاحتقره وازدراه، وكانت حجته في ذلك ما عبر عنه بقوله ـ مخاطبا قومه ــ: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: 51 - 53]

وهكذا فعل قوم رسول الله ﷺ حين قالوا: ﴿مَالِ هَذَا

الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا [الفرقان: 7، 8]

وهذا الحال النفسي الذي حال بين أقوام الأنبياء وأنبيائهم هو نفسه الذي حال بين أهل الحق وأهل الباطل والغفلة في كل العصور، ذلك أنهم قبل أن يسمعوا للحقائق، ينظرون إلى أحوال الداعين لها، ومدى ثرائهم.

بل إن القرآن الكريم يخبر أن السبب الأكبر في تحريف الأديان هو ذلك الحرص والجشع الذي حول الدين إلى تجارة، فتحول رجال الدين من وظيفة الهداية إلى وظيفة الجباية، ومن هداة إلى الله إلى لصوص باسم الله، كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [التوبة: 34]

بل إن الحرص بلغ بهم ما هو أعظم من ذلك، حيث أنهم كانوا يكتمون الحقائق، ويحرفونها، حتى تتناسب مع نفوسهم الجشعة، قال تعالى: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ [البقرة: 79]، وقال: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ [البقرة: 174، 175]

وهكذا كان الحرص والبخل منبعا لأكثر الرذائل والانحرافات التي حصلت للمجتمعات البشرية في جميع العصور، كما أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (اتقوا الظّلم

فإنّ الظّلم ظلمات يوم القيامة، واتّقوا الشّحّ فـإنّ الشّـحّ أهلـك من كـان قبلكم. حملهم على أن سـفكوا دمـاءهم واسـتحلّوا محارمهم)(1)

فقد قرن رسول الله ﷺ بين البخل والظلم، وبين أن الشح هو السـبب في الحـروب وانتهـاك الأعـراض، وهـو مـا نـراه في الواقع البشـري، وفي جميـع فـترات التـاريخ، فـالحروب ليسـت سوى مطامع نفوس حريصة، لم يكفها ما أفاض اللـه عليهـا من رزقه، فراحت تسرق رزق غيرها.

وهكذا؛ فإنك لو تأملت ـ أيها المريد الصـادق ــ مـا ورد في النصوص المقدسة حول الحرص والبخل، لعلمت أنهمـا منبعـان لكـل الرذائـل والمثـالب والمآسـي الـتي حصـلت في تـاريخ البشرية، وأنهما الحائلان الأكبران بين الإنسان وبلوغ الكمال.

فقد أخبر الله تعالى أنهما يورثان النفاق، وهو المحل الذي تجتمع فيه كل المثالب والرذائل، كما قـال تعـالى ــ مخـبرا عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وكيف أخرجه الحرص على المـال والبخل به عن تلك الصحبة المقدسة إلى النفـاق ــ: ﴿مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّـالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُـونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَـوْمِ يَلْقَوْنَـهُ بِمَـا أَخْلَفُـوا اللَّهَ مَـا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: 75 - 77]

وهكـذا نجـد الأحـاديث النبويـة الشـريفة تقـرن بين البخـل والحرص وأنواع الرذائل لتنبـه إلى العلاقـة الشـديدة بينهـا، كمـا ورد في الدعاء عن رسـول اللـه ﷺ أنـه كـان يقـول: (اللهمّ إنّي أعوذ بك من العجز والكسـل، والجبن والبخـل، والهـرم وعـذاب القبر. اللهمّ آت نفسي تقواها، وزكّهـا أنت خـير من زكّاهـا، أنت

1() مسلم(2578) وخرج البخاري أوله [الفتح] 5(2447)

وليّها ومولاها، اللهمّ إنّي أعوذ بك من علم لا ينفـع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)[1]

وفي حديث آخـر قـرن رسـول اللـه ﷺ بين الجبن والشـح، فقال: (شرّ ما في رجل: شحّ هالع، وجبن خالع)[2]

وفي حديث آخـر قـرن رسـول اللـه ﷺ بين البخـل واللـؤم والجبن، فقال: (إنّ أنسابكم هذه ليست بسباب على أحد، وإنّما أنتم ولد آدم طفّ الصّاع، لم تملؤوه، ليس لأحد فضل إلّا بالدّين أو عمل صالح، حسب الرّجل أن يكون فاحشـا بـذيّا بخيلا جبانـا)[3]

بل إن رسول الله ﷺ أخبر أن البخل، لا يبقى محصورا في الأموال، وإنما يمتد لغيرها، مثل سائر الطباع، فقال: (إنّ أعجــز النّاس من عجز عن الدّعاء، وأبخل النّاس من بخل بالسّلام)[4]، وقال: (البخيل من ذكرت عنده ثمّ لم يصلّ عليّ)[5]

ويروى أن رجلا أتى النّبيّ ﷺ، فقال: إنّ لفلان في حـائطي عذقا، وإنّه قد آذاني وشقّ عليّ مكان عذقه، فأرسل إليه النّـبيّ ﷺ، فقال: (بعني عذقك الّـذي في حائـط فلان)، قـال: لا. قـال: (فهبه لي) قال: لا. قال: (فبعنيه بعذق في الجنّة) قال: لا. فقال النّبيّ ﷺ: (ما رأيت الّذي هو أبخل منك إلّا الّذي يبخل بالسّــلام)[6]

1() مسلم(2722)

2() أحمد(2/ 302، 320)، وابن حبان(3250)

3() أحمد(4/ 145)

4() الطبراني (2/ 811)

5() الترمذي(3546)، وأحمد(1/ 201) والحاكم(1/ 549)

6() أحمد(3/ 328)

العلاج المعرفي:

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن المنبع الأكبر لهذا المثلب وأخواته، هو الجهل بالحقائق، واختصار الحياة في هذه الحياة الدنيا، وعدم الإيمان بالآخرة، وبأنواع الجزاء المرتبطة بها.

ولذلك كان أول علاج لهذا المرض الخطير هو تصحيح الإيمان واليقين بالله تعالى، وباليوم الآخر، وبحقيقة الحياة، وبدور الإنسان فيها؛ فهذه الحقائق كلها هي التي تهذب النفس، وتزرع فيها كل المكارم، وتنفي عنها كل الرذائل والمثالب.

ولهذا كان أكثر الناس معرفة بالله أكثرهم كرما، لعلمهم بأن كل فضل أو رزق من الله تعالى، وليس من عندهم، ولا بحيلتهم، فلذلك لا يثقون في خزائنهم بقدر ثقتهم في الله، كما عبر عن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: (الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك)(1)

وقد روي في الحديث أن رسول الله ﷺ دخل على بلال، وعنده صُبرة من تمرٍ، فقال: ما هذا يا بلال؟ قال: يا رسول الله ادّخرته لك ولضيفانك، فقال: (أما تخشى أن يكون له بخار في النار؟ أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً)

فهذا الحديث يشير إلى أن رسول الله ﷺ كان ينظر إلى ما عند الله من الفضل العظيم الذي لا حدود له، فلذلك صارت تلك الصبرة لا تساوي شيئا بالنسبة له..

(1) رواه الترمذي.

وهكذا؛ فإن المعرفة بحقيقة المال، وكونه مجرد عرض زائل، وأن الغرض منه أن يكون وسيلة فقط، لا هدفا مقصودا، يساهم كثيرا في نزع الحرص عليه؛ ذلك أنه قد يصبح سببا لعذاب كبير، وآلام كثيرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55]

ومما يروى في هذا أنه حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصّع بالجواهر لم ير له نظير، ففرح الملك بذلك فرحا شديدا، فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا؟ قال: أراه مصيبة أو فقرا، قال: كيف؟ قال: إن كسر صارت مصيبة لا جبر لها، وإن سرق صرت فقيرا إليه ولم تجد مثله وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر.. ثمّ اتّفق أن كسر يوما وعظمت مصيبة الملك فيه فقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا[1].

ولو أنك ــ أيها المريد الصادق ــ قرأت ما يكتب في الأحداث اليومية لوجدت الكثير من أمثال هذا الملك من أولئك الذين امتلأت قلوبهم بالحرص على المال؛ فلم ينتفعوا به، لا في دنيا، ولا في آخرة..

ذلك أن من ثمار البخل على الخلق البخل على النفس.. فالحرص الشديد على المال يجعل صاحبه يبخل على كل شيء حتى على نفسه.

ولذلك كان من عقوبة البخيل أن يعاقب بنفس المال الذي بخل به، وحرص عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ

1() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج6، ص: 90.

وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [آل عمران: 180]

وذكر الله تعالى أنواع العسر التي يمر بها الحريص والبخيل، وكيف لا يغني عنه ماله شيئا، فقال: وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11) [الليل: 8، 9]

وفي مقابله ذكر المؤمن التقي الكريم، فقال: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [الليل: 5 - 7]

ولهذا أخبر عن أبي لهب أن ماله لم يغنه، قال تعالى: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ [المسد: 1 - 3]، وفي ذلك إشارة إلى أن السبب الأكبر في عتوه وكفره بخله وحرصه على ماله.

وقد سبق أن ذكرت لك في رسائل سابقة ما ورد في أحاديث رسول الله ﷺ من تفاصيل العقوبات التي جعلها الله تعالى للكانزين لأموالهم، الحريصين عليها، الذين لا يؤدون حقوق الله فيها؛ فلذلك استعن بها على نفسك وتهذيبها، فوظيفة رسول الله ﷺ في تزكية أمته ليست قاصرة على الذين عاصروه، وإنما هي ممتدة لكل العصور.

وأضف إلى ذلك ما ورد من أحاديث في فضل الكرم، وبيان عظم الجزاء الذي يناله أهله.. فالبخل والكرم خلقان متضادان، بقدر ما اقتربت من أحدهما، بقدر ما فررت من الآخر.

ومن تلك الأحاديث ما ورد في الدلالة على قرب السخي من الله، بسبب كون (السخاء خلق الله الأعظم)(1) كما أخبر

(1) ابن النجار عن ابن عباس.

رسول الله ﷺ، وذكـر أن (السـخي قـريب من اللـه، قـريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيـد من اللـه، بعيـد من النـاس، بعيـد من الجنـة قـريب من النـار، والجاهـل السخي أحب إلى الله من عابد بخيل)(1)

وأخبر أن أحب الأعمال إلى الله الكرم، فقال: (أحب الأعمال إلى الله تعالى، من أطعم مسكينا من جوع، أو دفع عنه مغرما، أو كشف عنه كربا)(2).. وقال: (أحب الأعمال إلى الله بعد الفرائض، إدخال السرور على المسلم)(3)

وأخبر عن حب الله للمكرمين، فقال: (إن أحب عبـاد اللـه إلى الله، من حبب إليه المعروف، وحبب إليه أفعاله)(4).. وقال: (إن الله تعالى استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لـدينكم إلا السخاء وحسـن الخلـق، ألا فزينـوا دينكم بهمـا)(5).. وقـال: (إن اللـه تعـالى جـواد يحب الجـود، ويحب معـالي الأخلاق، ويكـره سفسافها)(6)، وقال: (ما عظمت نعمة الله على عبد إلا اشتدت عليه مؤنة الناس، فمن لم يحتمل تلك المؤنة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال)(7)

وقال: (خلقان يحبهمـا اللـه، وخلقـان يبغضـهما اللـه، فأمـا اللذان يحبهما الله فالسـخاء والسـماحة، وأمـا اللـذان يبغضـهما

1() الترمذي والبيهقي.

2() الطبراني.

3() الطبراني.

4() ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ.

5() الطبراني.

6() البيهقي، وأبو نعيم في الحلية.

7() ابن أبي الدنيا والبيهقي.

الله تعالى، فسوء الخلق والبخل، وإذا أراد الله بعبد خيرا، استعمله على قضاء حوائج الناس)(1)

وأخبر عن تأثير الكرم في الوقاية من نيران الدنيا، فقال: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا، هم أهل المعروف في الآخرة، وإن أهل المنكر في الدنيا، هم أهل المنكر في الآخرة)(2)

بل ذكر ما هو أعظم من ذلك، فقال: (تسد الصدقة سبعين بابا من السوء)(3)، وقال: (الصدقة تمنع سبعين نوعا من أنواع البلاء، أهونها الجذام والبرص)(4)، وقال: (الصدقة تمنع ميتة السوء)(5)، وقال: (مناولة المسكين تقي ميتة السوء)(6)، وقال: (تداركوا الهموم والغموم بالصدقات، يكشف الله تعالى ضركم، وينصركم على عدوكم)(7)، وقال: (الصدقة على وجهها، واصطناع المعروف، وبر الوالدين، وصلة الرحم، تحول الشقاء سعادة، وتزيد في العمر، وتقي مصارع السوء)(8)

وأخبر عن الجزاء المعد للكرماء في الدنيا قبل الآخرة، فقال: (إذا أراد الله بقوم نماء، رزقهم السماحة والعفاف، وإذا

---

(1) البيهقي.

(2) الحاكم.

(3) الطبراني.

(4) الخطيب.

(5) القضاعي.

(6) الطبراني والبيهقي.

(7) الديلمي.

(8) أبو نعيم في الحلية.

أراد الله بقوم اقتطاعا فتح عليهم باب خيانة)[1]، وقال: (استعينوا على الرزق بالصدقة)[2]، وقال: (استنزلوا الرزق بالصدقة)[3]

وأخبر (أن ملكين ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا)[4]، وقال: (إن الله تعالى يقول يا ابن آدم أودع من كنزك عندي، ولا حرق، ولا سرق، ولا غرق، أوفيكه أحوج ما تكون إليه)[5]

وأخبر عن عظم الغبن الذي يحيق بالبخلاء، فقال: (اعلموا أنه ليس منكم أحد، إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت)[6]، وفي رواية: (أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله، فإن ماله ما تقدم، ومال وارثه، ما تأخر)[7]

وغيرها من النصوص الكثيرة التي جعلت الكرم من القيم النبيلة التي يتنافس فيها الأغنياء والفقراء على حد سواء.

العلاج السلوكي:

إذا عرفت كل هذا ـ أيها المريد الصادق ـ وعزمت على أن تتخلص من هذا المثلب الخطير؛ فانظر إلى مالك باعتباره

1() ابن عساكر، والطبراني.

2() الديلمي.

3() البيهقي.

4() الشيخان وغيرهما.

5() البيهقي.

6() النسائي.

7() أحمد، والترمذي.

سؤالا من أسئلة الامتحان التي كلفت بها، وأن نجاحك وفوزك مرتبط بمدى صحة إجابتك عنه.

وهي إجابة تحددها أحكام الشريعة، لا الهوى، فأنت لست حرا في إنفاقك لمالك، فقد تدعوك نفسك للكرم، لا لتتحقق من خلال ذلك عبوديتك لربك، وإنما لتتحقق من خلالها عبوديتك لها.. فاحذر أن تخرج من عبودية المال إلى عبودية نفسك.

ولهذا أخبر الله تعالى عن كرم الذين واجهوا رسول الله ﷺ وحاربوه، فقال ـ يحكي عن بعضهم قوله ـ: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ [البلد: 6]

وأول ذلك ما ورد في النصوص المقدسة من إطعام المساكين والأيتام والمستضعفين والعناية بهم، كما قال تعالى في وصف الأبرار، وأعمالهم التي استحقوا بها الجنة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: 8 - 10]

وقال في وصف أهل النار، وأفعالهم التي أوجبت لهم النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ [المدثر: 42 - 44]

بل نجد هذا في سورة كاملة تعتبر من لا يحض على طعام المسكين مكذبا بالدين: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون:1 ـ 7)

ولهذا، فإن عليك ــ أيها المريد الصادق ــ أن تعلم أنك مستخلف في مالك، وأن أول الأفواه التي عليك إطعامها فمك،

وفم من كلفت بهم.. فإذا فضل عليك بعدها؛ فعليك الإنفاق منه على من ترى الشريعة حاجته، لا أنت ولا هواك، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ [البقرة: 219]

ولا تحتقر أي شيء تقدمه في هذا السبيل؛ فأنت في امتحان، والله تعالى لا ينظر إلى حجم أو وزن ما أنفقت، وإنما ينظر إلى نفسك التي لم تجد إلا ذلك، وقد ورد في الحديث ما يشير إلى تنمية الله لذلك القليل الذي أنفقته حتى يصبح كثيرا، وتنال عليه الأجر العظيم، قال ﷺ: (إن الله يقبل الصدقة، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد)(1)، وفي رواية: (إن الله ليربي لأحدكم التمرة واللقمة، كما يربي ولده، أو فصيله حتى يكون مثل أحد)(2).. وقال: (إن العبد ليتصدق بالكسرة، تربو عند الله حتى تكون مثل أحد)(3)

ولهذا دعا إلى عدم احتقار أي شيء يبذل في سبيل الله، وفي تطهير النفس من الحرص والبخل، فقال: (ليتق أحدكم وجهه من النار ولو بشق تمرة)(4).. وقال: (اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة)(5)، وفي رواية: (اجعلوا بينكم وبين النار حجابا ولو بشق تمرة)(6)، وفي أخرى: (تصدقوا ولو بتمرة، فإنها تسد من الجائع، وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء

1() الترمذي.

2() أحمد، وابن حبان في صحيحه.

3() الطبراني.

4() أحمد.

5() الشيخان.

6() الطبراني.

النار)(1)، وفي حديث آخر قال: (تصدقوا فـإن الصـدقة فكـاككم من النار)(2)، وقال: (إن الصدقة لتطفئ عن أهلهـا حـر القبـور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظـل صـدقته)(3)، وقـال: (من أطعم أخاه من الخبز حتى يشبعه، وسـقاه من المـاء حـتى يرويـه، بعـده اللـه من النـار سـبع خنـادق، كـل خنـدق مسـيرة سبعمائة عام)(4)

وأخبرﷺ عن بعض الجـزاء الـذي ينالـه من ينفـق مـا يقـدر عليه حتى لو كان قليلا، فقال: (ما من مسلم ينفق من كل مـال له زوجين في سبيل الله، إلا استقبلته حجبة الجنة، كلهم يدعوه إلى ما عنده)(5)، وقال: (كم من حوراء عيناء، ما كان مهرها، إلا قبضة من حنطة، أو مثلها من تمر)(6)

وهذه الأحاديث كلها برواياتها المختلفة، لا تشير فقـط إلى عظم الجزاء الأخروي للصدقة مهمـا كـانت قليلـة، وإنمـا تشـير أيضا إلى تأثيرهـا الـتربوي ودورهـا في تهـذيب النفس، ذلـك أن الله تعالى يجازي المبادرين بالهداية إلى المزيد منهـا، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَـدَوْا زَادَهُمْ هُـدًى وَآتَـاهُمْ تَقْـوَاهُمْ﴾ [محمـد: 17]

وإيـاك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن يغـرك الشـيطان عن نفسك؛ فتتوهم أنه يكفيـك أن تتصـدق بشـق تمـرة مـع أنـه في

1() الطبراني.

2() الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية.

3() الطبراني.

4() النسائي، والحاكم.

5() أحمد، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم.

6() العقيلي في الضعفاء.

إمكانك أن تتصدق بالقناطير من التمر من غير أن يصيبك أي حرج.. فذلك مما يسوله الشيطان للأغنياء الذين يسرفون على شهواتهم وترفهم، ثم يقدمون الفضلات للفقراء والمساكين، وهم يتوهمون أنهم قد ضمنوا الجنة بذلك.. وكل ذلك غرور وخداع للنفس، فالله تعالى يحاسب كل نفس بحسب ما آتاها..

ولذلك فإن تلك الأحاديث التي تدعو إلى التصدق بأي شيء، ليست خاصة بالمترفين الأغنياء، وإنما هي خاصة بالذين لا يجدون إلا ذلك.

فلذلك اعتبر نفسك ــ أيها المريد الصادق ــ أحد أولئك الفقراء المعوزين؛ فأطعمها بحسب حاجتها، لا بحسب ما يقتضيه الترف، فأنت موظف في مالك، ولست مالكا له.. فخذ ما يكفيك، وضع الباقي في محله الذي أمرتك الشريعة أن تضعه فيها..

والشريعة لم تحرم عليك أن تملك، ولكنها حرمت عليك أن تتلاعب بما تملك، لأن في ذلك الهلاك، لا لك فقط، وإنما لكل من سكت عن الترف والمترفين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16]

موالاة الظالمين

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن أولئك الـذين يـدّعون الولايـة والقـرب من اللـه والسـير إليـه، ويتحـدثون عن المعاني المرتبطة بهـا، وربمـا يتوهمـون أنهـا خاصـة بهم، وأنهم أهلهـا، ولا ينافسـهم أحـد فيهـا.. لكنهم يقفـون مـع كـل ظـالم، ويسـندون كـل مسـتبد، ويشـوهون طريـق اللـه بـذلك أعظم تشويه.

ثم سـألتني عن حـظ هـؤلاء من ولايـة اللـه، ونصـيبهم من تهذيب أنفسهم، وهـل أن سـلوكهم ذلـك لا يقـدح في الولايـة أو في الطريق إليها، أم أنه قادح من القوادح، ومثلب من المثـالب التي لا يمكن العروج إلى الله بصحبتها.

وهذا سؤال وجيه وواقعي ومهم للغاية.. فالسلوك إلى الله يقتضي توضيح كل الحقائق، وبشفافية ووضوح، بعيدا عن جميـع الأهواء، ومراعاة مشاعر أي كان؛ فالحق أحق أن يتبع، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَـوَّامِينَ بِالْقِسْـطِ شُـهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135]

والحقائق التي تنص عليها المصادر المقدسة تـدل على أن ولايـة اللـه مرتبـة رفيعـة لا تُنـال بالـدعوى، وإنمـا بالمجاهـدة والمكابدة ورياضـة النفس والـتزام الشـريعة في كـل الأحـوال، وقد قال الله تعالى يصف المتقين: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَـاءَ اللَّهِ لَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: 62ــ 63]، وقـد وصـفتهم الآيـة الكريمـة بصـفتين: الإيمـان والتقوى.. وهما صفتان تعنيان التسليم والإذعـان لكـل الحقـائق والقيم التي جاء بها الإسلام، ونصت عليها النصوص المقدسة.

ومثل ذلك ما ورد في تعريف الولاية في قوله تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَـالُوا رَبُّنَـا اللَّهُ ثُمَّ اسْـتَقَامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَـةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: 30]، والتي عقبها الله تعالى بقوله: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُـكُمْ وَلَكُمْ فِيهَـا مَـا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: 31]

وكلا الموضعين من القرآن الكـريم يـدلان على مـدى دقـة السراط المستقيم الذي يسلكه الأولياء، وأن أي انحراف بسيط قد يخرجهم من الولاية، كما ذكـر اللـه تعـالى ذلـك عن بلعم بن باعوراء الذي ابتعـد عن طريـق الأوليـاء بسـبب بعض المواقـف التي وقفها، كما قال تعالى: ﴿وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ الَّذِي آتَيْنَـاهُ آيَاتِنَـا فَانْسَلَخَ مِنْهَـا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَـوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الأعراف: 175، 176]

لذلك كان الهوى منزلقا من منزلقات السالكين في طريق العلم أو طريق الولاية، والذين يُختبرون كـل حين في معـارفهم وسـلوكهم ومـواقفهم، حـتى يُمحصـوا ويمـيز الطيب منهم من الخبيث..

وقد ورد في النصـوص المقدسـة مـا يشـير إلى أن الابتلاء الذي يتعرض له هؤلاء أكبر من الابتلاء الذي يتعرض لـه غـيرهم، فقد قال ﷺ: (أشد الناس بلاء الانبياء ثم الأمثـل فالأمثـل، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فمـا يـبرح البلاء بالعبـد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)[1]

وهو لا يشير فقط إلى ذلك البلاء الذي يتوهمه أكثر الناس،

[1] () أحمد والبخاري وابن ماجة والترمذي وابن حبان والحاكم.

والمرتبــط بنقص المــال والأنفس، وإنمــا هــو البلاء المرتبــط بالمواقف الـتي يوضـع فيهـا النـبي أو العـالم أو مـدعي الولايـة، والتي قد تصبح بعد ذلك محل قدوة وهداية للغير.

ولذلك كان العلماء والمشـايخ والمربـون والسـالكون أدلاء وهداة.. وقد تكون هدايتهم لله، وقد تكون لغـيره.. ولـذلك كـان انحرافهم عن السـبيل خطـيرا، لأنـه لا يتعلـق بهم فقـط، وإنمـا يتعلق بالذين يدلونهم، ويوجهونهم، كمـا روي عن المسـيح عليـه السلام أنه قال: (مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الـزرع، ومثل علمـاء السـوء كمثـل قنـاة الحشّ ظاهرهـا جصّ وباطنهـا نتن، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى)

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (العلمــاء رجلان: رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج، وعالم تارك لعلمـه فهـذا هالـك، وإنّ أهل النّار ليتأذّون من ريح العـالم التـارك لعلمـه، وإنّ أشـدّ أهل النّار ندامة وحسرة رجل دعا عبـدا إلى اللـه فاسـتجاب لـه وقبل منه فأطاع الله وأدخلـه اللـه الجنّـة وأدخـل الـدّاعي النّـار بتركه علمه واتّباعه الهوى وطول الأمل، أمّا اتّباع الهـوى فيصـدّ عن الحقّ وأمّا طول الأمل ينسي الآخرة)[1]

ولذلك؛ فإن المرجع الذي علينا الرجوع إليه ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ لتحديـد الولايـة والأوليـاء، هـو مـا ورد في النصـوص المقدسة المعصومة التي لم تختلـط بـالأهواء، ولم يصـبها دنس النفوس الأمارة.. فهي وحدها المرجع الذي تعرف بـه الحقـائق، وتميز به القيم.

أما مدعو الولايـة، مهمـا كـان شـرفهم ورتبتهم ومكـانتهم؛ فيظلون بشرا من البشـر، ولا يمكن اعتبـارهم قـدوة ولا أسـوة

[1] () الكافي: 1/44.

خاصة إن انحرفوا عن السراط المستقيم، الـذي وضـحته أنـوار الهداية الإلهية.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن مـا أشـرت إليه من ولاية الظـالمين والمسـتبدين والمسـتكبرين، والوقـوف معهم في وجـه المستضـعفين والمظلـومين والمحتقـرين قـادح في الولاية، ومؤثر فيها، ذلك أن من أكبر الكبائر وأعظم الذنوب موالاة المسـتكبرين، والـبراءة من المستضـعفين المظلـومين.. والذي يفعل ذلك لا يختلف عن الظالمين أنفسهم.

ومما يروى في هذا أن اللّه تعالى أوحى إلى موسـى عليـه السـلام: (هـل عملت لي عملا قـط؟) فقـال: (إلهي إني صـليت لك، وصمت، وتصدقت وزكيت)، فقال: (إن الصلاة لـك برهـان، والصـوم جنـة والصـدقة ظـل، والزكـاة نـور، فـأي عمـل عملت لي؟)، قال موسى: (إلهى دلني على عمـل هـو لـك)، قـال: (يـا موسى هل واليت لي وليا قط؟ وهل عاديت فيّ عدوا قط؟)

أنا أعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أنك ستذكر لي ما يمكن أن يذكره المحدثون عن أمثال هذه الرواية، وعـدم ثبوتهـا.. ولـذلك يمكنك أن تعود بدلها لقولـه ﷺ: (أوثـق عـرى الإيمـان، المـوالاة في الله والمعاداة في الله، والحبّ في اللـه، والبغض في اللـه) (1)، وقوله: (من أعطى لله، ومنع للـه، وأحب للـه، وأبغض للـه، وأنكح لله، فقد استكمل إيمانه) (2)

ويمكنك أن تعود قبلها لتلك الأحاديث المتواترة في القرآن الكريم عن هـذا المعـنى، وهي كثـيرة جـدا، وتـدلك على أن من العلامـات الكـبرى للإيمـان مـوالاة المؤمـنين المستضـعفين

1() الطبراني في الكبير.

2() رواه أحمد والترمذي.

المظلومين ونصـرتهم والوقـوف في صـفهم، في نفس الـوقت الذي يقفـون فيـه في الصـف المواجـه لأعـدائهم من الظـالمين المستكبرين.

ومن تلـك الآيـات الواضـحة الصـريحة مـا ورد في سـورة الممتحنة، والتي يدل اسمها على معناها؛ فكل ما فيها من معان هي امتحانات من الله تعالى لعباده، لتمحيصهم، وتمييز الصادق في إيمانه من الكاذب فيه.

وقد بـدأ اللـه تلـك السـورة بقولـه: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنـة: 1]، وهـو نهي صـريح عن نصـرة ومحبـة أعـداء اللـه وأعـداء المؤمـنين، والـذين وصـفتهم الآيـة الكريمـة بـأنهم ﴿كَفَـرُوا بِمَـا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ [الممتحنـة: 1]

فالآيــة الكريمــة لم تصــفهم بــالكفر الــذي هــو اختيــارهم الشخصـي فقـط، وإنمـا وصـفتهم بالعـداوة للمؤمـنين، وإخـراج الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بسبب إيمـانهم.. وهـو دليـل على أن كفرهم ليس كفرا مرتبطـا بعـدم الاقتنـاع بـبراهين الإيمـان، وإنما كفر ناشئ عن الاستكبار والاستعلاء والظلم.

ولذلك كان الموقف منهم هـو الموقـف من الظلم نفسـه، لأن الظلم والعدوان والكبرياء تجلت فيهم، فصاروا مظهرا لها.. ولذلك صار من أحبهم محبا للظلم، ومن ناصـرهم مناصـرا لـه.. ولا يمكن أن يجتمع حب الظلم وحب العدل في مكان واحد.

ولذلك لم ينه الله تعالى المؤمنين عن المودة والـبر الـذي يبذلونه لمن يخالفهم في دينهم إذا لم يكن معتديا ولا ظالمـا ولا

مستكبرا، كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]

بل إنه دعا إلى اللين لهم وتـأليف قلـوبهم والتعامـل معهم بكل ما يقتضيه اللطف من أخلاق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَـادِلُوا أَهْـلَ الْكِتَـابِ إِلَّا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: 46]، وهي آية ترسم العلاقة بين المسلمين وغيرهم من المسالمين، وهي علاقة مبينة على الحـوار لا على الصـراع، وعلى الألفة لا على العداوة إلا الظالمين الذين لا يكتفون بظلم أنفسهم بالإعراض عن الحق، وإنما يظلمون غيرهم أيضا.

بـل إن القـرآن الكـريم يـدعو إلى البحث عن المشـتركات التي تجمع بين المؤمنين وغيرهم من أهل الأديان، حتى تستثمر في مواجهة الظلم والاستبداد والاستكبار، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 64]

ولهذا كله؛ فإن سورة الممتحنة تبين أسباب تلك المواقـف العدائية التي على المؤمنين اتخاذها اتجاه الظلمة والمستكبرين والمستعلين في الأرض، قال تعـالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُـوكُمْ يَكُونُـوا لَكُمْ أَعْـدَاءً وَيَبْسُـطُوا إِلَيْكُمْ أَيْـدِيَهُمْ وَأَلْسِـنَتَهُمْ بِالسُّـوءِ وَوَدُّوا لَـوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: 2]

أي أنهم يستعملون كل الوسائل لإيذاء المؤمنين، وصرفهم عن الحـق الـذي اقتنعـوا بـه.. ولـذلك كـان الـولاء لهم عـداوة للإيمان والمؤمنين.

وقال في آية أخرى:﴿ إِنَّمَا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَـاتَلُوكُمْ

فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ وَظَـاهَرُوا عَلَى إِخْـرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: 9]

وهذه الآيات الكريمـة لا تنطبـق على قـريش وحـدها، تلـك الـتي حـاربت رسـول اللـه ﷺ واسـتعملت كـل الوسـائل لإذيـة المؤمـنين، وإنمـا ينطبـق على غيرهـا، وفي جميـع العصـور.. فالمؤمن هو الذي يبرأ إلى الله من كل ظلم وعدوان وقع، وفي أي زمان، أو مكان، ومن أي جهة.. ذلـك أن الـبراءة من الظلم، تستدعي الـبراءة من الظـالمين.. ومن ادعى أنـه يبغض الظلم، ثم لا يبغض الظالمين وجرائمهم، فهو يكذب على نفسه.

إذا عرفت كل هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما تورده لك النصـوص المقدسـة من أدويـة لتعـالج هـذا المثلب الخطـير الـذي يخرجـك من صـفوف أوليـاء اللـه ليضـعك في صـفوف أعدائه.

العلاج المعرفي:

وأول ذلك، وآخره، أن تقرأ ما ورد في النصوص المقدسـة حول هذا المثلب، وبيان أنه من الاختبارات الإلهيـة الـتي يُمتحن بهـا الإيمـان، ليُمـيز بين الصـادقين الثـابتين في إيمـانهم، وبين المذبذبين الذين يخافون على مصالحهم، ولذلك يحاولون الجمع بين الكينونة مع المؤمنين وغيرهم.

وقد اعتبر الله تعـالى ذلـك نفاقـا، فقـال: ﴿ إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَـالَى يُـرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَـذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُذَبْـذَبِينَ بَيْنَ ذَلِـكَ لَا إِلَى هَـؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَـؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْـلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِـدَ لَـهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء: 142، 143]

ثم عقبها بالنهي الشديد عن تولي أعـداء اللـه؛ فقـال: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَتَّخِـذُوا الْكَـافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ الْمُـؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: 144]

ثم ختمها بقولـه: ﴿ إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ فِي الـدَّرْكِ الْأَسْـفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِـــدَ لَهُمْ نَصِـــيرًا (145) إِلَّا الَّذِينَ تَـــابُوا وَأَصْـــلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 145، 146]

وهكـــذا ربـــط في مواضـــع أخـــرى بين النفـــاق ومـــوالاة الظالمين، وبين سبب ذلـك، فقـال:﴿ بَشِّـرِ الْمُنَـافِقِينَ بِـأَنَّ لَهُمْ عَـذَابًا أَلِيمًـا (138) الَّذِينَ يَتَّخِـذُونَ الْكَـافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النســاء: 138، 139]

وكـل ذلـك يـدل على أن الإيمـان الحقيقي يقتضـي تسـليم القلب لله وحده.. وهو يقتضي أن يكون الـولاء لكـل من يـوالي الله، والعداء لكل من يعاديه ويحارب أولياءه.

ولهـذا وصـف اللـه تعـالى رسـله وأوليـاءه بـبراءتهم من الظالمين المعتدين، فقـال: ﴿ قَـدْ كَـانَتْ لَكُمْ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَـاءُ أَبَـدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَـا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْـكَ أَنَبْنَـا وَإِلَيْـكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: 4]

ونهى أن يُقدم على ولايـة اللـه وولايـة المؤمـنين أي ولايـة أخرى، حتى لو كـانت لأقـرب الأقـربين، قـال تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْـتَحَبُّوا الْكُفْـرَ

عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [التوبة: 23، 24]

وأخبر أن كل ولاية ومحبة ونصرة تكون خارج ذلك النطاق تتحول إلى عداوة يوم القيامة، قال تعالى: لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [الممتحنة: 3]

ولم يكتف القرآن الكريم بكل تلك المفاهيم، وإنما أشار إلى مصاديقها في الوقع والتاريخ حتى يقيم الحجة على الخلق، ومن تلك الإشارات الواضحة ما ورد في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [المائدة: 54]

فهذه الآية الكريمة تحدد بدقة المؤمنين الذين ينبغي أن تمتد إليهم أيدي الولاية والنصرة، وهم الذين يقومون بواجباتهم في نصرة المستضعفين، والوقوف بجانبهم، في وجه المستكبرين الظالمين.

وقد عقب الله تعالى تلك الآية الكريمة بما يزيدها وضوحا، فقال: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ [المائدة: 55]

ثم بين أن هؤلاء هم حزب الله الحقيقي، فقال: وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ

[المائدة: 56]

ولا أراك ـ أيها المريد الصادق ـ بما آتاك الله من بصيرة وإيمان إلا وقد عرفت المقصود من هذه الآيات ومصاديقها التي دل عليها التاريخ والواقع.. فكل ما أصاب الإسلام من انحرافات كان بسبب تعطيل تلك الآيات الكريمة حرصا على أولئك الذين ادعوا مراتب من الولاية لا تليق بهم، وليسوا أهلا لها.

ثم جاء أصحاب الورع البارد؛ فوضعوا الأولياء والأشقياء، والمستضعفين والمستكبرين في سلة واحدة، وتوهموا أن الورع في السكوت عن الباطل، وخالفوا بذلك هدي نبيهم ﷺ، وهدي ورثته من بعده.

ولو أنهم رجعوا إلى سنة نبيهم ﷺ، ومن المصادر التي يتفقون على قبول رواياتها لوجدوا البينات الواضحات التي تدلهم على الحقيقة، وتميز بين أولياء الله الذين تجب نصرتهم، وأعداؤه الذين تجب مواجهتهم.

وأول ذلك ما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين: (أنا حرب لمن حاربتم، وسلم لمن سالمتم) (1)

فاجعل هذا الحديث ـ أيها المريد الصادق ـ مقدمة لك، لتصل إلى أهل الولاية الذين أمر الله تعالى بنصرتهم ومحبتهم والوقوف معهم.. وسترى إن كنت صادقا أعلام الهداية وأعلام الضلالة.. فلا يمكن أن يأمرنا الله بشيء، ثم لا يعلمنا كيفية تنفيذه.

العلاج السلوكي:

(1) رواه الترمذي ج 2 ص 319، الحاكم: 3/ 149.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ وأردت أن تتخلص من هذا المثلب الخطير، وكل ما ينتج عنه من ثمار وآثار، فاستمع لكلمات ربك المقدسة التي تدلك على الطريق الذي يمكنك أن تنفذ به تلك التعليمات.

وأولها ألا تجعل ولاءك للمحاربين لدينك، أو للمستضعفين الظالمين، والذين ذكر القرآن الكريم أن أكثرهم من اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51]

وقد دل الواقع والتاريخ على ما ذكره القرآن الكريم؛ فأكثر ما تراه في عصرك هذا، وفي عصور سابقة من الاعتداء والظلم والاستعمار والحروب تجده ممن يدعون نسبتهم لليهودية والنصرانية.. ولذلك نهى القرآن الكريم عن ولايتهم، لا ليهوديتهم ونصرانيتهم، وإنما لتلك المظالم التي يمارسونها باسمهما.

ولذلك أثنى الله تعالى على النصارى الصادقين الذين لم يحاربوا المستضعفين، ولم يظلموهم، بل أقروا بالحق بعد أن عرفوه، فقال: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: 82، 83]

وأخبر أن أهل الكتاب، سواء كانوا من اليهود والنصارى، ليسوا في درجة واحدة، فقال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل

عمران:113)

وضرب نموذجا عن أسباب ذلك التميز، فقال: ﴿وَمِنْ أَهْــلِ الْكِتَـابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْـهُ بِقِنْطَـارٍ يُـؤَدِّهِ إِلَيْـكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْـهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَـا دُمْتَ عَلَيْـهِ قَائِمـاً ذَلِـكَ﴾ (آل عمـران: 75)

وبهذا؛ فإنـك لـو تـأملت ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ القـرآن الكريم، لوجدت أنه عنـد ذكـره للـولاء والـبراء، لا يقصـد ربطـه بـاليهود ولا النصـارى، ولا أي دين آخـر، وإنمـا يقصـد المعتـدين الظـــالمين، والـــذين كـــانوا في ذلـــك الحين وبعـــده من تينـــك الطائفتين، ولهذا قال الله تعالى يخبر عن الذين ادعـوا الإيمـان، وفي نفس الـوقت يوالـون أعـداءه: ﴿فَتَـرَى الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَـى أَنْ تُصِـيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَـى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْـرٍ مِنْ عِنْـدِهِ فَيُصْـبِحُوا عَلَى مَـا أَسَـرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: 52]

وهكـذا تـرى القـرآن الكـريم يشـتد اشـتدادا عظيمـا على الأعراب المعاصرين لرسول الله ﷺ، لمـا صـدر عنهم من أنـواع الانحراف، كما قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُـــوا حُـــدُودَ مَـــا أَنْـــزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُـــولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:97)، وقال: ﴿وَمِنَ الْأَعْـرَابِ مَنْ يَتَّخِـذُ مَـا يُنْفِـقُ مَغْرَمـاً وَيَتَـرَبَّصُ بِكُمُ الـدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّـوْءِ وَاللَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة:98)

لكنه في نفس الوقت يثني ثناء عظيما على من لم يتخلــق بتلــك الأخلاق، ولم يســلك ذلــك الســلوك، قــال تعــالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَـلَوَاتِ الرَّسُـولِ أَلا إِنَّهَـا قُرْبَـةٌ لَهُمْ سَـيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:99)

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فإياك أن تسلك سبيل أولئك الذين اختلطت عليهم الأمور، ووضعوا النصوص المقدسة في غير مواضعها، فراحوا يوالون المستكبرين الظالمين، ويستعينون بهم على ضرب إخوانهم من المؤمنين المستضعفين في نفس الوقت الذين يشتدون فيه على عامة الناس من أهل الكتاب ممن لم يحاربوا المؤمنين، فيستحلوا دماءهم وأموالهم بغير حق، ويحجبونهم بذلك عن دين الله بما ابتدعوه من أديان.

ولو أنهم أعملوا عقولهم التي لا يفهم الوحي إلا بها، لعرفوا مراد الله تعالى من الأمر بالبراءة من الكافرين، وكونه ليس مرتبطا بجحودهم للحق، وإنما بمحاربتهم له، وصراعهم معه، ومع من يمثله.

ولهذا اقترن الإذن الإلهي بالجهاد مع الظلم، ولم يقترن بالدين؛ فالله تعالى لم يأذن بالجهاد لإخراج الناس عن أديانهم، وإدخالهم الإسلام، وإنما أذن بذلك لمحاربة المستكبرين الظالمين من أي دين كانوا، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)﴾ (الحج: 39 - 40)

بل ورد الأمر بنصرة المستضعفين من غير اهتمام بالأديان التي هم عليها، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء: 75)، فالآية الكريمة تقرر

أن الغايــة من الجهــاد هي ردع الظــالمين المجــرمين، وحمايــة المستضعفين من أي دين كانوا.

ويــذكر القــرآن الكــريم أن مــا مــورس من جهــاد في عهــد النبي ﷺ لم يكن يعدو هــذا الغــرض، فهــو يوضــح أن المســلمين كانوا مستهدفين من الأعداء في كــل حين، وأنــه لــولا مــا آتــاهم اللــه من قــوة وســلاح لأجهــز عليهم الأعــداء، قــال تعــالى: ﴿وَلَا يَزَالُـونَ يُقَـاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَـرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْـتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَـافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَالْآَخِـرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ﴾ (البقرة:217)

ولهذا لا نجـد في سـيرة رسـول اللـه ﷺ أي بـدء بالعـدوان على قرية أو مدينة أو أي جهة من الجهات، بل كان السـلام هـو الشعار الذي حمله رسول الهداية ورحمة الله للعالمين.

بـل إن رسـول اللـه ﷺ كـان يتعامـل مـع النـاس بكـل مـا تسـتدعيه الأخلاق الطيبـة، من غـير نظـر إلى الأديـان الـتي هم عليها، وقد روي أنـه عنـدما دخـل وفـد نصـارى نجـران المدينـة المنورة دخلوا عليه مسجده بعد العصر، فحانت صلاتهم فقـاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول اللـه ﷺ: (دعـوهم)، فاسـتقبلوا المشـرق فصـلوا صـلاتهم وكـانوا سـتين راكبا[1].

وهكــذا أوصــى رســول اللــه ﷺ بــالرفق بأهــل الكتــاب، والتعامــل معهم بكــل مــا يســتدعيه الــبر والتســامح والأخلاق الحسنة من معاملات، وقد روي أنه ﷺ أوصـى بأهـل مصـر، مـع علمهم أنهم كانوا من أهل الكتاب، فقال: (إنكم ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيهـا القـيراط فـإذا فتحتموهـا فأحسـنوا إلى

[1] انظر: زاد المعاد:3/ 629، هداية الحيارى:27.

أهلها فإن لهم ذمة ورحما) (1)

وعلى هذا سار أئمـة الهـدى الـذين مثلـوا الـدين الحقيقي، ولم ينحرفـوا إلى تلـك السـبل الـتي ابتـدعها أصـحاب الملـك العضـوض، ومن سـاندهم من العلمـاء والفقهـاء، وقـد روي عن الإمام علي وصيته لولاته برعاية المظلومين والمستضـعفين من أي دين كانوا، فقد قال في عهده إلى مالك الأشتر: (ولا تكــونن عليهم سبعا ضـاريا تغتنم أكلهم، فـإنهم صـنفان إمّـا أخ لـك في الدين، أو نظير لك في الخلق. يفـرط منهم الزلـل وتعـرض لهم العلـل، ويـؤتي على أيـديهم في العمـد والخطـأ، فـأعطهم من عفوك وصـفحك مثـل الـذي تحب وترضـى أن يعطيـك اللـه من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم ووليّ الأمر عليك فوقك، واللّه فوق من ولّاك)(2)

ولذلك فإنـه ليس من الـبراءة من المسـتكبرين الظـالمين إذية أصحاب أي دين كان، ولا التدخل في خصوصياتهم، ولا هدم معابدهم، أو التكبر عليهم بأي لون من ألـوان التكـبر.. بـل نحن مطالبون عكس ذلك بتأليف قلوبهم ومراعاة مشاعرهم، وعـدم التعرض لمقدساتهم بالشتم أو السب أو الإساءة.

وقد علمنـا اللـه ذلـك مـع أشـد النـاس كفـرا، فقـال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْـرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: 108]، فالله تعالى لم يكتف بـالنهي عن سـبهم، وإنمـا راح يـبرر سـبهم في حـال حصـوله بكونـه اسـتفزازا، وعن غـير علم.

هـذه هي المعاملـة الشـرعية الـتي مثلهـا رسـول اللـه ﷺ

1() مسلم (7/ 190)

2() نهج البلاغة: الكتب، ص 53.

أحسن تمثيـل، سـواء مـع من جـاوره من اليهـود، أو مـع أولئـك النصـارى الـذين وفـدوا إليـه من نجـران.. فقـد أنـزلهم في المسجد، وكانوا يصلون في جانب منـه، وعنـدما حـاورهم طبـق في حواره لهم ما أمرنا اللـه تعـالى بـه في قولـه: ﴿وَلَا تُجَـادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْهُمْ وَقُولُـوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَـا وَإِلَهُكُمْ وَاحِـدٌ وَنَحْنُ لَـهُ مُسْـلِمُونَ ﴾ [العنكبـوت: 46]، ولم يكـرههم على الـدخول في الإسلام، بل ترك لهم الحريـة في الاختيـار، وقـد أسـلم بعضـهم بعدما رجعوا إلى نجران[1].

ومثّله ﷺ حين كان يوصي بأهل الذمة والمستأمنين وسائر المعاهـدين، ويـدعو إلى مراعـاة حقـوقهم، والإحسـان إليهم، وينهى عن إيـذائهم؛ فيقـول: (ألا من ظلم معاهـداً أو انتقصـه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ فأنـا حجيجـه ـ أي أنا الذي أخاصمه وأحاجه ــ يـوم القيامـة)[2]، ويقـول: (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنـة، وإن ريحهـا توجـد من مسـيرة أربعين عاما)[3]

لكن كل هذا لا يعني ـ أيها المريد الصادق ـ أن نسـكت عن نصيحتهم وتوجيههم وحوارهم ومناظرتهم؛ فاحترامنا لمقدسـات الآخر لا تعني سكوتنا عليها، أو اعتبارها وجهة نظر، بل علينـا أن ندعو إلى تصحيحها، ونستعمل كل الحجج لأجل ذلك، كما علمنـا ربنـا عنـد حديثـه عن الـذين ضـلوا من أهـل الكتـاب وأسـباب ضلالهم، والردود العقلية القوية على ذلك.

فمن الخــداع لهم أن نعتــبر مــا يقعــون فيــه من الضــلالة

1() زاد المعاد في هدي خير العباد، (3/ 549)

2() رواه أبو داود (3052)

3() رواه أحمد 2/171 (6592)

هدايـة، أو نقـرهم على ذلـك، مـع أن اللـه تعـالى أخـبر بـأنهم انحرفوا بذلك انحرافـا خطـيرا، قـال تعـالى: ﴿ لَقَـدْ كَفَـرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَـهٌ وَاحِـدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُـوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّـنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائـدة: 73]، فالله تعالى اعتبر القائلين بذلك كفارا، وتوعدهم بالعـذاب الشديد، ومن احترامنا لكلام الله أن نردد ما قاله، لا أن نناقضه، ونخالفه، ونخدع بذلك أنفسنا، ونخدع قبل ذلك أولئك الذين كان علينا أن ننصحهم، لا أن نجاملهم.

ومن تلك الحدود ألا تنسـجم نفوسـنا مـع الباطـل، وتقـره، وتذعن لـه، بحجـة التسـامح وحريـة الفكـر والـرأي.. فليس من ولاية الله أن يسمع مسلم ملحدا يسخر بالله أو يستهزئ به، ثم لا يتحرك له جفن، ولا يهتز له عرق، وكأن شـيئا لم يحصـل، مـع أنه لو تعرض أحد لأبسط شيء يتعلق به لقامت قيامتـه، وتخلى عن كل ألوان التسامح والعفو وسعة الصدر.

وهذا المعنى هو الذي يشـير إليـه قولـه تعـالى مخـبرا عن بعض عقائـد أهـل الكتـاب أو غـيرهم من الأديـان ﴿وَقَـالُوا اتَّخَـذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ [مريم: 88]، ثم بين تأثير هذه الكلمـة العظيمـة على الكون جميعا، وكيف ينفعل لها، فقال: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِـرُّ الْجِبَـالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلـرَّحْمَنِ وَلَـدًا (91) وَمَـا يَنْبَغِي لِلـرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: 89 ـ 92]

ولهذا فإن عدم اهتزاز قلب المؤمن لما يقال في حق اللـه مما لا يتناسب مع جلاله وعظمته وقدره هو ضعف في الإيمـان، وقصور فيه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يتأثر كثيرا بسبب مـا يقـع فيه المشـركون وغـيرهم من أنـواع الضـلالة، كمـا قـال تعـالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3]

فاستن ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ بسـنة نبيـك ﷺ في اللين والشدة، وفي كل شيء.. فهو حامل راية الهداية، وهـو السـراج المنير، ومن استضاء بغيره أطبقت عليه الظلمات، وانحرف عن الهدى، وسلك سبيل الغواية.

خذلان الحق

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن تفسير ما ذكرته لك في بعض رسائلي السابقة مما سميته [خذلان الحق]، ومظاهره، ومنابعه، وكيفية تطهير أرض النفس الأمارة منه.

وجوابا لسؤالك الوجيه أذكر لك أن الموقف من الحق وأهله امتحان من الامتحانات الكبرى التي يمتحن الله بها إيمان عباده.. ذلك أنه لا يكفي أن يعرف المؤمن الحق، أو يذعن له، أو يسلم لأهله.. وإنما عليه أيضا أن ينصره، ويقف في صفه، ويكثر سواد أصحابه، لا سواد أعدائه.. ولا يقبل منه صدق الإيمان إلا ذلك.

ألا ترى ـ أيها المريد الصادق ـ ما فعله السحرة عندما تغلغل الإيمان إلى قلوبهم؛ فقد كان في إمكانهم أن يؤجلوا إعلان إيمانهم، ولا يبثوه في تلك اللحظات الحرجة، حرصا على أنفسهم إلى أن تحين الفرصة لهم، للقاء موسى عليه السلام، ليعلنوا إيمانهم حينها، أو يكتفوا بإيمانهم في قلوبهم؛ فالله تعالى يعلم السر وأخفى..

لكنهم لم يفعلوا.. وإنما راحوا يقفون ذلك الموقف البطولي الذي أشاد به القرآن الكريم، واعتبرهم لأجله نماذج صالحة للمؤمنين.. ولولا لم يفعلوا ذلك ما أشاد بهم القرآن الكريم، ولما ذكرهم.. لأن قيمة إيمانهم لم تكن في إذعانهم وحدهم للحق، وإنما في ذلك الإعلان الذي كان له تأثيره في كل من سمعه.

وهكذا أثنى القرآن الكريم على الذي أعلن إيمانه في

الوقت الذي اقتضى منه الحق ذلك، فلم يخذل الحق، وإنما نصره أعظم نصرة، وذلك ما يثبت أن كتمانه للإيمان لم يكن لأجل حفظ نفسه، وإنما لأجل حفظ الحق الذي يحمله..

وقد ذكر الله تعالى خطبته البليغة في الملأ من قومه، وأمام فرعون وزبانيته، ومنها قوله: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: 28، 29]

وقد ذكر الله تعالى أنه حفظه بعد قيامه بواجبه في نصرة الحق، ليبين للمتخاذلين أن الناصر للحق قد يمن الله تعالى عليه بالموت في سبيل الله، مع الفضل العظيم الذي ينتظره بعده، وقد يمن عليه بالحياة ليعيش في سبيل الله، وفي كلاءة الله، ليؤدي واجباته التي كلف بها في نصرة الحق وأهله.

وهكذا ذكر الله تعالى ذينك الرجلين من قوم موسى عليه السلام، والذين خالفوا قومهم الجبناء، فبعد أن قال لهم موسى عليه السلام: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 21]، وأجابه قومه بقولهم: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: 22]

حينها رأى ذانك الرجلان الصالحان أن السكوت في ذلك الحين خذلان للحق، فراحا يقولان: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]

وقد وصفهما الله تعالى بصفتين، تنطبقان على كل ناصر

للحـق، فقـد وصـفهما بأنهمـا: ﴿ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَـافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: 23]

والرجولة بالمعنى القـرآني لا تعـني الـذكورة، وإنمـا تعـني الشـهامة والنبـل والمـروءة وكـل الصـفات النبيلـة الـتي تـدفع صاحبها إلى نصرة الحق وأهله وفي أحـرج المواقـف، كمـا قـال تعالى في وصف الصادقين من أصحاب رسول الله ﷺ وغـيرهم ممن ينصـر الحـق بعـدهم: ﴿مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَـدَقُوا مَـا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِـرُ وَمَـا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: 23]

وأثنى بهذا الوصف على ذلك الرجل الشهم الذي جاء لينبه موسـى عليـه السـلام إلى تـآمر الملأ من قـوم فرعـون عليـه، فقال: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَــى إِنَّ الْمَلَأَ يَـأْتَمِرُونَ بِـكَ لِيَقْتُلُـوكَ فَـاخْرُجْ إِنِّي لَـكَ مِنَ النَّاصِـحِينَ﴾ (القصص:20)

وأثنى به على ذلك الشهم الـذي جـاء ينتصـر لرسـل اللـه، ويحث قومـه على اتبـاعهم، قـال تعـالى: ﴿وَجَـاءَ مِنْ أَقْصَــى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَـوْمِ اتَّبِعُـوا الْمُرْسَـلِينَ (20) اتَّبِعُـوا مَنْ لَا يَسْـأَلُكُمْ أَجْـرًا وَهُمْ مُهْتَـدُونَ (21) وَمَـا لِيَ لَا أَعْبُـدُ الَّذِي فَطَـرَنِي وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ (22) أَأَتَّخِـذُ مِنْ دُونِـهِ آلِهَـةً إِنْ يُـرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَـيْئًا وَلَا يُنْقِـذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِـرَبِّكُمْ فَاسْـمَعُونِ﴾ [يس: 20 - 25]

وقد أشـار القـرآن الكـريم إلى قتلهم لـه، وإلى اسـتمراره في نصرة الحق بعد شـهادته، قـال تعـالى: ﴿ قِيـلَ ادْخُـلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُـونَ (26) بِمَـا غَفَـرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: 26، 27]

وهكذا يعتبر القـرآن الكـريم نصـرة الحـق وأهلـه من أكـبر الموازين التي يوزن بها إيمان المؤمـنين، ومـرتبتهم من الـدين، وصدق تحققهم بولاية الله، قال تعالى في بيان أقسام المؤمنين ودرجـاتهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَهَـاجَرُوا وَجَاهَـدُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَـرِيمٌ (74) وَالَّذِينَ آمَنُـوا مِنْ بَعْـدُ وَهَـاجَرُوا وَجَاهَـدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَـامِ بَعْضُـهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَـابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 74، 75]

فمع أن الجميع مؤمنون إلا أن الله تعالى فـرق بين أولئـك الـذين هـاجروا وجاهـدوا ونصـروا الحـق، وبين المقصـرين المتأخرين، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْـرُ أُولِي الضَّـرَرِ وَالْمُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ عَلَى الْقَاعِـدِينَ دَرَجَـةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْـنَى وَفَضَّـلَ اللَّهُ الْمُجَاهِـدِينَ عَلَى الْقَاعِـدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُـورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 95، 96]

بل إن الله تعالى يفرق بين من نصر الحق في فترة البلاء، وبين من تأخر نصره له، فقال: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَـقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَـةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُـوا مِنْ بَعْـدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديـد: 10]

وهكـــذا ورد في الســـنة النبويـــة المطهـــرة الكثـــير من التوجيهـات الـتي تـدل على الفـروق العظيمـة بين المنتصـرين للحق، والخاذلين له، بحيث يمكن اعتبار الانتصار للحق ركنـا من أركان الإيمان، وعلامة من علامات المسلم الحقيقي، الذي نجح في اختبارات الإيمان.

وقد قال ﷺ وهـو يحض على رعايـة هـذا الـركن:(المسـلم أخو المسلم لا يظلمـه، ولا يخذلـه، ولا يحقـره) (1)، وفي روايـة: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجـة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربـة فـرّج اللـه عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما سـتره اللـه يوم القيامة)(2)

وقال: (من أذلّ عنده مؤمن فلم ينصره وهو قـادر على أن ينصره أذلّه الله ـ عزّ وجلّ ـ على رؤوس الخلائق يـوم القيامـة) (3)

وقال: (من أكل برجل مسلم أكلة فإنّ اللـه يطعمـه مثلهـا في جهنّم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء، فإنّ الله يقوم بـه مقام سمعة ورياء يوم القيامة)(4)

وفي حديث آخر عمد رسول الله ﷺ إلى مثل كان معروفـا في الجاهلية، وهو (انصر أخاك ظالماً أو مظلومـاً)، فـردده على مسـامعهم، فاسـتغربوا، وقـالوا: يـا رسـول اللـه، هـذا ننصـره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ فقال ﷺ: (تأخذ فوق يديه)(5)

وفي حديث آخـر عن جـابر قـال: اقتتـل غلامـان: غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار فنادى المهـاجر أو المهـاجرون: يـا للمهاجرين، ونادى الأنصاريّ: يا للأنصار، فخرج رسـول اللـه ﷺ، فقال: (ما هذا؟ دعوى أهل الجاهليّة؟)، قالوا: لا يا رسول اللـه!

1() مسلم (2564)

2() البخاري [فتح الباري]، 5(2442) واللفظ له، مسلم(2580)

3() أحمد(3/ 487)

4() رواه أبو داود(4881) وأحمد (4/ 229)

5() البخاري [فتح الباري]، 5(2444)، ومسلم (2584)

إلّا أنّ غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخـر، فقـال ﷺ: (فلا بـأس، ولينصر الرّجل أخاه ظالما أو مظلومـا: إن كـان ظالمـا فلينهـه؛ فإنّه له نصر، وإن كان مظلوما فلينصره) [1]

العلاج المعرفي:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الله تعـالى ذكر في كلماته المقدسة المعاني الـتي تعين على نصـرة الحـق وأهله، والتضحية في سبيل ذلك بكـل شـيء، وذلـك عنـد ذكـره لمواقف الناصرين للحق، والأسباب التي دعتهم لذلك.

ولعـل أولهـا مـا ذكـره اللـه تعـالى عن السـحرة وجـوابهم لفرعــون، ففي كلمتهم القويــة الــتي ألقوهــا أمــام الجمــوع المحتشدة جميع المعـارف الـتي يحتـاج إلى تعميقهـا في نفسـه كل من يريد أن يتخلص من هذا المثلب.

لقد ذكر الله تعالى ـ تمهيدا لذكر مقولتهم ـ التحـدي الـذي واجههم به فرعون، ليبين عظمة الموقف الذي وقفوه، فقال: ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّـحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْـــدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَـــلِّبَنَّكُمْ فِي جُـــذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: 71]

حينها، وأمام تلـك التهديـدات الشـديدة، ومـع أنـه لم يمض على إيمانهم لحظات معدودة، ردوا عليه بثبات وصـدق قـائلين: ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَـا فَـاقْضِ مَـا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّـحْرِ وَاللَّهُ خَيْـرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَـهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُـوتُ فِيهَـا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِـلَ الصَّـالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الـدَّرَجَاتُ

[1] () مسلم (2584)

الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَـدْنٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى [طه: 72 - 76]

وهـذه الكلمـات المقدسـة الـتي حكاهـا اللـه عنهم لم تكن مجـرد كلمـات، بـل هي عقـاقير وأدويـة، بـل هي صـيدلية لكـل المعـاني الطيبـة الـتي تملأ المـؤمن بـالقوة والشـجاعة لينصـر الحق، ويقف مع أهله غير مبال بما قد يصيبه في سبيله.

وأول تلك العقاقير ما عبروا عنه بقولهم: لنْ نُـؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا [طـه: 72]، وهـو يـدل على أن إيمانهم كـان مؤسسـا على أدلـة قويـة، جعلتـه بالنسـبة لهم واضحا بينا لا يمكن أن يجادلهم فيـه أحـد.. وذلـك يـدل على أن السبب في خذلان الحق هو ضعف الإيمان، وعدم حصــوله على اليقين الكـافي الـذي يجعـل صـاحبه مستسـلما استسـلاما كليـا لمقتضياته.

ولذلك كان أول العلاج هو تحقيـق اليقين، وتحويـل الإيمـان من مجرد معارف ذهنية محدودة إلى حقائق يقينية بينـة، يشـعر بها صاحبها، بل يراها رأي العين.

ولذلك قالوا بعد ذلك: فَـاقْضِ مَـا أَنْتَ قَـاضٍ إِنَّمَـا تَقْضِـي هَـذِهِ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا [طـه: 72]؛ فقـد أدركـوا أن الحيـاة الـتي يهددهم فرعون بسلبها منهم ليست سوى حياة دنيـا، وأن هنـاك حياة أخرى تنتظرهم أشـرف وأكـرم، وأمرهـا ليس بيـده، ولكن بيد الله تعالى.

ولــذلك راحــوا ينحــازون إلى الجنــاب الإلهي لأن الحيــاة الحقيقية عنـده، لا عنـد فرعـون، ولـذلك قـالوا: إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَـا لِيَغْفِـرَ لَنَـا خَطَايَانَـا وَمَـا أَكْرَهْتَنَـا عَلَيْـهِ مِنَ السِّـحْرِ وَاللَّهُ خَيْـرٌ وَأَبْقَى [طه: 73]

ثم ذكروا لـه العـواقب الـتي ينالهـا المقصـرون في نصـرة الحـق، أو المنحـازون إلى الباطـل، فقـالوا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَـأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: 74]

وذكروا له في مقابل ذلـك الجـزاء العظيم الـذي ينالـه من وقف مـع الحـق ونصـره، فقـالوا: ﴿وَمَنْ يَأْتِـهِ مُؤْمِنًـا قَـدْ عَمِـلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَـدْنٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طـه: 75، 76]

وكـــل هـــذه الحقـــائق هي الـــتي يمكنهـــا أن تملأ النفس بالشجاعة والقوة، وتخلصها من الجبن والخور، حتى تستطيع أن تؤدي وظائفها المرتبطة بالموقف من الحق ونصرته.

ولذلك كـان سـعيك لتحصـيل هـذه المعـاني ــ أيهـا المريـد الصادق ــ هـو العلاج الـذي يطهـر أرض نفسـك من هـذا الوبـاء الخبيث الذي أخبر الله تعالى أن كل الأمم ابتليت به.. فلا يكفي أن تدعي الإيمـان، مـا لم تقم بنصـرة أهلـه الصـالحين؛ وتواجـه النـــاكثين والقاســطين والمـــارقين والبغـــاة وكـــل المحـــرفين والمنحرفين.

ولـــذلك يـــذكر القـــرآن الكـــريم في مواضـــع كثـــيرة أن المسلمين سيتعرضون للبلاء في هذا الجـانب في حيـاة رسـول الله ﷺ وبعده؛ فالاختبار سنة إلهيـة لتميـيز الطيب من الخـبيث، والنفـوس الأمـارة عن النفـوس المطمئنـة، قـال تعـالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُـولِهِ وَلَا الْمُـؤْمِنِينَ وَلِيجَـةً وَاللَّهُ خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 16]

وهكذا، فإن القرآن الكريم يحـذر من حصـول التمـرد على

قيم الدين بعد وفاة رسول الله ﷺ، في آيات كثـيرة منهـا قولـه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُـولٌ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِـهِ الرُّسُـلُ أَفَـإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَـابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْـهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]

وهكذا حذر رسول الله ﷺ من وقـوع التحريـف في الـدين، واستبدال قيم السلام والسماحة والأخلاق النبيلة فيـه إلى القيم المنافية لها، والتي تحـولت الأديـان بسـببها إلى أدوات للصـراع والظلم والاستبداد، ففي الحديث قال ﷺ: (ما كان نـبي إلا كـان له حواريون يهدون بهديه، ويستنون بسـنته، ثم يكـون من بعـده خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويعملون ما تنكرون)(1)

وأخبر عن الدور الذي يقوم به الساسة في التحريف، ذلـك أنه لا يمكن للمسـتبدين الظلمـة أن يمكنـوا لأنفسـهم في ظلال القيم الدينية الأصيلة؛ فلـذلك يقومـون بثـورة مضـادة على قيم الدين، لتتحول الرعية إلى سدنة للحاكم، ومطيعـة لأمـره ونهيـه ولو على حساب قيم الدين الأصيل، قال ﷺ: (ألا وإن السـلطان والكتاب سيفترقان ألا فلا تفارقوا الكتاب)(2)

وأخبر ﷺ أن البغي لن يكون فقط في الجانب السياسي، وإنما سيمتد إلى الجانب الديني، وأن السلطات الظالمة، ستقرب من يخدمها في هذا الجانب، ليؤدي دوره في الثورة المضادة للدين، بل اعتبر ﷺ أن البغي المرتبط برجال الدين أخطر من البغي المرتبط برجال السياسة؛ ففي الحديث قال ﷺ: (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلون)(3)

---

(1) رواه مسلم (1: 70)، وأحمد (1: 458، 461)

(2) رواه الطبراني في المعجم، 20/90، مجمع الزوائد، 5/228.

(3) رواه أحمد 6/441.

وأخبر ﷺ عن الوسيلة التي يستعملها الأئمة البغاة لتحقيق ثورتهم المضادة على الدين، وهي تأويل القرآن، وتحريف معانيه لتنسجم مع مطالب السياسيين، وتحول الرعية إلى ذلك الشكل الذي حولها إليه فرعون، كما قال تعالى عنه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: 54]

ولذلك كله كان الاختبار الإلهي لهذه الأمة مرتبطا بمواجهة تلك التحريفات التي حصلت للدين، والبحث عن الدين الإلهي الحقيقي الذي لم يحرف، ولم يبدل، ونصرته، والدعوة إليه.

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاجعل من نفسك جنديا للحق، ووطن نفسك على نصرته، مهما كانت الظروف والاختبارات التي تتعرض لها، ولو كان في ذلك حتفك، فقد قال الله تعالى في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39]

وذكر مقولتهم لمن يخوفونهم من الناس: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]

وأخبر عن هداية الله ومحال تنزلها، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18]

ولهذا اعتبر رسول الله ﷺ من يفعل ذلك، فيقتل، ليس

شهيدا فقط، وإنما سيد الشهداء، قال ﷺ: (سيد الشهداء حمـزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)

وقال: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)[1]

ولهذا قرن الله تعـالى بين الأنبيـاء والآمـرين بالقسـط من الناس، وأخبر أن كليهمـا تعـرض للأذى بـل للقتـل، فقـال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُـرُونَ بِآيَـاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُـونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْـرِ حَـقٍّ وَيَقْتُلُـونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْـطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّـرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: 21]،

ولهذا فإن التفريط في مثل هذه الفرص لعوام المؤمـنين، والتي تجعلهم في مرتبـة واحـدة مـع الأنبيـاء والأوليـاء، خسـارة عظيمـة، واحتقـار عظيم للنفس، كمـا عـبر رسـول اللـه ﷺ عن ذلك، فقال: (لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله تعالى فيه مقال، فلا يقول: يا رب خشيت الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى)[2]

وقال: (ألا لا يمنعن رجلا مهابة النـاس أن يتكلم بـالحق إذا علمه.. ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) [3]

ولهذا، فإن طريق الولاية ـ أيها المريد الصادق ــ لا يتحقـق بالعزلة المطلقة عن الناس، أو الهرب من الإدلاء بالشـهادة في حال الحاجة إليها، وإنما يتحقق بالمبادرة، والبذل والتضحية.

ولهـذا أخـبر ﷺ ـ في أحـاديث كثـيرة ــ أن النـاجحين في الاختبارات الإلهية هم الذين يقفون في صف الحـق؛ فينصـرونه،

1() رواه أحمد وابن ماجة وغيرهما.

2() رواه أحمد وابن ماجة.

3() رواه أحمد والترمذي والحاكم.. وغيرهم.

ولا يخذلونه، مهما كلفهم ذلك من تضحيات.

ومنها قوله ﷺ: (سيكون أمراء من بعدي يعرفون وينكـرون فمن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم ومن خالطهم هلك)(1)

وقـال: (سـيكون بعـدي أمـراء يكـذبون ويظلمـون فمن صدقهم بكذبهم وأعـانهم على ظلمهم فليس مـني ولسـت منـه ولم يرد على الحوض)(2)

وقال:(ستكون أمراء فتعرفون وتنكـرون، فمن كـره بـرئ، ومن أنكر سلم ولكن من رضي وتابع)(3)

وقال: (ما من نبي بعث الله في أمـة من قبلي إلا كـان لـه من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويتقـدون بـأمره، ثم إنهـا تخلـف منهم من بعـدهم خلـوف يقولـون مـا لا يفعلـون، ويفعلون مـا لا يـأمرون، فمن جاهـدهم بيـده فهـو مـؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهـو مـؤمن، ومن جاهـدهم بقلبـه فهـو مـؤمن، ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل)(4)

وقال: (الجهاد أربع: الامر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والصدق في مواطن الصبر، وشنآن الفاسق)(5)

وقال: (خذوا العطاء ما دام عطـاء، فـإذا صـار رشـوة على الـدين فلا تأخـذوه ولسـتم بتاركيـه، يمنعكم من ذلـك المخافـة

1() رواه الطبراني وفيه هياج بن بسطام وهو ضعيف.

2() رواه النسائي والترمذي وصححه والحاكم.

3() رواه مسلم وأبو داود.

4() رواه أحمد ومسلم.

5() رواه أبو نعيم في الحلية.

والفقر، ألا وان رحى الايمان دائـرة، وان رحى الا سـلام دائـرة، فــدوروا مــع الكتــاب حيث يــدور، ألا وان الســلطان والكتــاب سيفترقان ألا فلا تفارقوا الكتـاب، ألا انـه سـيكون عليكم أمـراء ان أطعتموهم أضلوكم، وان عصيتموهم قتلوكم)، قالوا: فكيــف نصنع يا رسول الله؟ قال: (كما صنع أصحاب عيسـى ابن مـريم حملوا على الخشب ونشروا بالمناشـير، مـوت في طاعـة اللـه، خير من حياة في معصية الله) (1)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ــ أن تتـوهم أن هـذه الأحـاديث مرتبطة بواقع تاريخي معين؛ فالرسول ﷺ أعظم من أن تنحصر تعليماته ونصائحه وتوجيهاته بواقع دون واقع، أو ببيئة دون بيئة..

فلذلك ابحث في واقعك عمن يمثلون الحــق، أو ينصـرونه، لتكون سندا لهم، ونصيرا يؤيدهم ويعينهم، وإياك أن تتوقـف عن ذلك بحجة عدم تمييزك أهل الحق عن أهل الباطـل، فقـد وضـع الله تعالى لأهل الحق علامات واضحة، لا يزيغ عنهـا إلا من اتبـع هواه.

لقد قال اللـه تعـالى يـذكر تلـك العلامـات: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَـافِرِينَ يُجَاهِـدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54]

فــإن وجــدت قومــا ينصــرون المستضــعفين، ويواجهــون المستكبرين، ويتعرضون لكل أصناف الضغوط والعدوان بسـبب ذلـك، وهم مـع ذلـك في غايـة الحلم والأدب والأخلاق الرفيعـة؛ فـاعلم أنهم هم المقصـودون؛ فإيـاك أن تفـرط في نصـرتهم.. وإياك أن يجرك الشيطان لعداوتهم.. فما أفلح من عاداهم، وقد

(1) رواه الطبراني في المعجم، 20/ 90، مجمع الزوائد، 5/ 228.

قال رسول الله ﷺ محذرا من ذلك: (إن الله قال من عـادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ومـا تقـرب إلي عبـدي بشـيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يـزال عبـدي يتقـرب إلي بالنوافـل حـتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الـذي يبصـر به ويده الـتي يبطش بهـا ورجلـه الـتي يمشـي بهـا وإن سـألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعلـه ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) (1)

1() البخاري (8/ 131)

الفواحش والمنكرات

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسـألني عن سـر تقسـيم الذنوب الوارد في قوله تعالى: وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَـرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ [النحـل:90]، وكيفيـة اشـتماله على جميع أنواع الذنوب والمعاصي مع فروعها الكثيرة.

وسألتني عن علاقة ذلك التقسيم بتطهير النفس وتهـذيبها، وعلاقته بما بدئت به الآية من قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى [النحل:90]

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن هذه الآيـة الكريمـة من أمهات الآيات التي تحوي أصول التزكيـة، ومنابعهـا، وكيفيـة علاجها.. وهو ما يدل على أن القرآن الكريم هـو كتـاب التزكيـة الأعظم، الـذي لا يكتفي بوصـف الأدواء، وإنمـا يستأصـلها من جذورها، ويضع بدلها كل أنواع العافية.

وقد فصلت آياته بحيث يمكنها أن يتنزل عليـك من فهومهـا بحسب الزاوية التي تريد أن تراها، أو تعالج نفسك من خلالهـا.. وهـو في ذلـك أشـبه بالأطعمـة والأشـربة الـتي وفـر اللـه فيهـا الحاجات المختلفـة؛ ليتنـاول كـل شـخص منهـا مـا يتناسـب مـع حاجته.

وبخصوص ما ذكـرت من الآيـة الكريمـة، وبعيـدا عن خلاف العلماء في تفسيرها؛ فإني أذكر لك أن تلك التقسيمات تشـمل جميع منابع المثالب ومظاهرها، ذلك أنها ذكرت ثلاثـة أنـواع من أصول المثالب، وهي الفحشاء والمنكر والبغي.

أما أولها، وهو [الفحشاء]؛ فإننا عنـدما ننظـر إلى مواردهـا في القرآن الكريم نجد أنهـا مرتبطـة بمنـابع البهيميـة في نفس

الإنسان، وهي في أصلها منابع فطرية، ذلك أن الله تعـالى أودع في الإنسان من الشهوة ما يحفظ به وجـوده على هـذه الأرض، فلولا شهوة الأكل لفني جسده، ولم يستطع أداء ما كلف به من وظيفة، وهكذا غيرها، والتي لولاها ما استمر نوعه.

لكن الانحراف هو استعمال هذه الشهوة في غير ما خلقت له، كما عبر تعالى عن انحراف قوم لوط حين خرجـوا بالشـهوة عن محلهـا الـذي خلقت لـه، فقـال: ﴿ أَتَـأْتُونَ الـذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَـقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَـلْ أَنْتُمْ قَـوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء:166)

وقال عن انحراف الزنا الذي يضع الشهوة في غير محلهـا: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الاسراء: 32)

وينبع من هذه الصفات كـل الرذائـل الـتي تحـول الإنسـان إلى بهيمة همها الأكل والشرب والشهوات، وتختصر الحيـاة في توفير البيئة المناسبة لها، وكأن الله تعالى لم يخلق الإنسـان إلا لأجلها، أو خلقه بهيمة في أسطبل ليروي كل ما تحتاجه غرائـزه من أصناف الشهوات.

وأما ثانيها، وهو [المنكر]؛ فيشير إلى كل ما ينكـره العقـل السليم، والفطرة النقية، والتي جاءت الشريعة بمقتضاها، وتنبع منـه أكـثر الرذائـل الظـاهرة والباطنـة.. فـالمعجب بنفسـه أو المغرور أو المستكبر أو الحسود.. كل هؤلاء سبب ما وقعوا فيه عدم استعمالهم لعقـولهم الاسـتعمال الصـحيح؛ فلـذلك توهمـوا أنهم على الحق، وغيرهم على الباطل.

وهكذا الذي يحاد الله ويعانده ويعارضه.. يخالف عقله الذي يلزمه بذلك، بناء على كونه الإله الذي يجب أن يطاع.. كما تـدل على ذلك الفطرة السليمة.

وهكذا؛ فإن المنكر هو ذلك التغيير الذي يحصل للقوة العقلية التي أودعها الله في الإنسان، ليفكر التفكير السليم، ويقرر القرارات المناسبة، لكن ذلك التغيير الذي يتدخل فيه الشيطان والهوى، يحول من تلك القوة إلى قوة وهمية خادعة، تكذب على صاحبها، وتحرف له الحقائق، وتغير له معايير القيم.

وقد أطلق الحكماء على هذا النوع من المثالب ومنبعها بكونها صفات **[شيطانية]**، وهي الصفات التي ابتدأت بها شيطانية الشيطان، ومنها انطلقت، ولذلك أطلق الله هذا اللقب على الإنس كما أطلقه على شياطين الجن، فقال: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة:14)، وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (الأنعام: 112)، وقال: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ (الاسراء: 27)

بل أمر بالاستعاذة من شياطين الإنسان، كالاستعاذة بشياطين الجن سواء بسواء، فقال: ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس:4 ـ 6)، ذلك أن هؤلاء الشياطين يحرفون الحقائق والقيم ويغيرونها، وذلك ما يؤثر في نفس الإنسان، فيرى المعروف منكرا، والمنكر معروفا.

وأما ثالثها، وهو [البغي]؛ فهو يجمع كل ما أطلق عليه الحكماء وصف **[السبعية]**، ويقصدون بها الانحرافات التي تحول الإنسان إلى حيوان متوحش مثل السباع..

مع أن أصل هذه الصفة فطري في الإنسان، ذلك أن الله تعالى أودع الإنسان من الغضب والحمية ما يدافع به عن وجوده

على هذه الأرض، لأنه لولا هذه الحمية لافترسته السباع، ولما استطاع حفظ وجوده الذي تتعلق به وظيفته، كما عبر عن ذلك بعض الحكماء، فقال في بيان الحاجة إلى هذه الغرائز: (فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين: باطن، وهو الشهوة. وظاهر، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء، فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه، وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين: باطن، وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء. وظاهر، وهو اليد والرجل اللتين بهما يعمل بمقتضى الغضب، وكل ذلك بأمور خارجة؛ فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها)[1]

ولذلك ينبع من انحراف هذه الصفة عن الموازين التي ضبطها الله بها، الكثير من الرذائل من الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والقتل واستهلاك الأموال، وغيرها، مما سبق لي أن حدثتك عنه في المثالب المرتبطة بالعدوان.

وبذلك، فإنك يمكنك ـ أيها المريد الصادق ــ أن تقسم كل أصناف الذنوب من حيث منابعها أو مظاهرها إلى هذه الأقسام الثلاثة.. وحتى يتيسر عليك ذلك، يمكنك أن تنظر في الواقع إلى أصناف المجرمين والآثمين، لتجد أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

أولهم الذين يمثلون الفحشاء، وهم الذين ينشرون الرذيلة، ويحولون الحياة إلى ماخور كبير من مواخيرها، إما باسم الحرية الشخصية، أو باسم الثقافة والفن، وغيرها.

وثانيهم الذين يمثلون المنكر، وهم الذين ينشرون الأفكار المنحرفة والمفاهيم الفاسدة في الدين والسياسة والثقافة والاقتصاد وكل جوانب الحياة.. وينجر عن عملهم تحريف

1() إحياء علوم الدين: 3/6.

الإنسـان نفسـه ليتحـول عن صـفاته الإنسـانية إلى صـفات الشيطان نفسه.

وثـالثهم الـذين يمثلـون البغي والظلم والعـدوان من اللصوص والمختلسين والمستعمرين والإرهابيين والمستبدين وقطاع الطرق والمرابين وغيرهم كثير.

وهذا لا يعني أن كل صنف من هذه الأصناف خال من غيره؛ فالأمر ليس كذلك، فكما أن الغذاء يحوي فيتامينات ومعادن وبروتينات وغيرها من أصناف المغذيات.. فكذلك النفس الأمارة الآثمة، يمكنها أن تتحقق بجميع تلك الصفات، لأن بعضها يعين على بعض.. لكن شهرتها ببعض الصفات، نتيجة غلبتها عليها، مثلما تغلب بعض العناصر في الطعام على غيره، فيصنف على أساس ذلك.

أما بخصوص ما سألت عنه مما ورد في مقدم الآية، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل:90]، ففيها إشارات كثيرة إلى كيفية علاج تلك المثالب.. منها ما يرتبط بالإنسان نفسه، ومنها ما يرتبط بالمجتمع جميعا.

أما ما يرتبط بالإنسان نفسه؛ فقد عرفت أن تلك الرذائل جميعا، ليست متولدة من خارج الإنسان، بل هي نابعة منه، فكلها متوفرة فيه.. لكن الذي حولها إلى انحرافات هو خروجها عن المقادير والحدود التي وضعت لها.. ولذلك كان العدل هو الذي يحولها إلى مسارها الصحيح، وكان الإحسان هو الذي يحولها إلى فضائل وأخلاق طيبة، وكان لإيتاء ذي القربى ما يساهم في تنميتها ونشرها وتوفير البيئة المناسبة لها.

أما ما يرتبط بالمجتمع والأمة؛ فإنك ـ أيها المريد الصادق ـ

إذا تأملت في كل المؤسسات التي دعت الشريعة إلى توفيرها لنشرها قيم الفضيلة، وردع قيم الرذيلة، لوجدت أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

أولها مؤسسات القضاء والحسبة والدولة، والتي يمكنها عبر سن القوانين الصالحة أن تحمي المجتمع من كل أنواع الرذيلة، ولهذا كان توفيرها واجبا شرعيا، ولذلك ورد في الأثر: (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)

وقد نص القرآن الكريم على هذا المعنى في قوله تعالى عند بيان حد الفاحشة: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: 2]، فهذا الأمر الإلهي لا يمكن تطبيقه إلا في ظل دولة تؤمن بحاكمية الشريعة، ولهذا ربط الله تعالى بين عقوبة الزناة مع أمره بحضور جماهير الناس للعقوبة، حتى يكون ذلك وازعا تربويا لهم.

وهكذا ذكر الله تعالى علاج البغي، ودور مؤسسات الدولة العادلة فيه، فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179]، ذلك أن إقامة القصاص على فرد واحد يحمي المجتمع من سريان مثل هذه الظاهرة فيه، وبذلك يحيا المجتمع جميعا بحمايته من أمثال هذه الجرائم.

وهكذا فرض قتال الباغين على الحق، حتى يعودوا إليه ويفيئوا، قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤمِنِين اقْتَتَلُوْا فَأَصْلِحُوا بَينَهُمَا فإنْ بَغتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغي حَتى تَفِئ إِلى أمْرِ الله﴾ [الحجرات:9])

وهكذا يمكن لهذه المؤسسات أن تراقب الأفكار

المنحرفة، أو قنوات الفتنة والضلالة وغيرها، لتصد شـرورها عن المجتمع، باعتبارها محاربة لله ورسوله، كما قـال تعـالى: ﴿إِنَّمَـا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَـارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَيَسْـعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَـادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَـوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِـكَ لَهُمْ خِـزْيٌ فِي الـدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِـرَةِ عَـذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: 33]

وثانيها مؤسسـات الإحسـان، وهي كـل المؤسسـات العلمية والتربوية والدينية وغيرها، والتي تعمق أنـواع الفضـائل، وتحمي المترددين عليها من كل أنواع الرذائل، كما قـال تعـالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْـوَى مِنْ أَوَّلِ يَـوْمٍ أَحَـقُّ أَنْ تَقُـومَ فِيـهِ فِيـهِ رِجَـالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبـة: 108]؛ فالآية الكريمة تبين أن الغـرض من المسـجد هـو إقامـة التقوى والطهارة في المجتمع.

ولـذلك حـذر من المسـجد الـذي تبنيـه الشـياطين لتنشـر الفرقة والخلاف والصراع، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَـذُوا مَسْـجِدًا ضِرَارًا وَكُفْـرًا وَتَفْرِيقًـا بَيْنَ الْمُـؤْمِنِينَ وَإِرْصَـادًا لِمَنْ حَـارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: 107، 108]

وثالثها مؤسسة الأسرة والعائلة، والتي كـنى اللـه تعـالى عنها بذي القربى، ذلك أنهـا من أهم المؤسسـات الـتي تسـاهم في توجيه الإنسان وتربيته والحفاظ على فطرته السـليمة، كمـا قال ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة - وفي روايـة: على هـذه الملة - فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كمـا تولـد البهيمـة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)[1]

ولهذا ورد في القرآن الكريم التوجيهات الكثيرة المرتبطـة

[1] () رواه البخاري ومسلم.

بالأسرة، والأسس التي تقوم عليها، وكيفيـة حـل الخلافـات بين أفرادها، وكل ذلك لتوفير البيئة المناسبة لتحقيق التقوى.

ولهذا كله قدم الله تعالى الدعوة لتحقيق هذه المؤسسات على ذكـره للمثـالب ومنابعهـا، فقـال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَالْإِحْسَـانِ وَإِيتَـاءِ ذِي الْقُـرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَـرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 90]، ذلـك أن الوقايـة خير من العلاج.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما سـأحدثك عنه من علاج الفحشاء والمنكر، ذلـك أني أرسـلت لـك رسـائل سابقة حول البغي، وكيفية علاجـه، ويمكنـك أن ترجـع إليهـا في ذلك.

الفواحش وعلاجها:

أمـا الفـواحش ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فهي من أمهـات الرذائل التي تحجب عن الحق، وكل القيم الطيبة المرتبطة بـه، ذلك أن الواقع فيهـا، والمـدمن عليهـا، يختصـر الحيـاة في تلـك البهيمية التي يتصـور أنهـا غايـة الحيـاة ومنتهاهـا، ولـذلك كـانت السـبب الأكـبر في كـل خـراب يحـل بـالعمران، بـل الجرثومـة الكـبرى الـتي تنبت كـل أنـواع الكفـران، وتحطم جميـع بنيـان الإنسان.

ولهذا أخبر رسـول اللـه ﷺ أنهـا حجب حائلـة عن الإيمـان، فقال: (من زنى وشرب الخمر نزع اللّه منـه الإيمـان كمـا يخلـع الإنسان القميص من رأسه)(1)

وقال: (لا يزني الزّاني حين يزني وهـو مـؤمن، ولا يشـرب

(1) رواه الحاكم على شرط مسلم.

الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السّـارق حين يسـرق وهــو مــؤمن، ولا ينتهب نهبــة ذات شــرف يرفــع النّــاس إليــه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن)(1)

ولا يقتصر ضرر الفواحش على ذلك فقط، بل إنهـا تخـرب المجتمع، وتدمر كل أواصر علاقاته، وتصرفه عما تقتضيه الهمـة العلية من شؤون الدين والدنيا، كما أشار إلى ذلك قوله ﷺ حين نـزلت آيـة الملاعنـة: (أيّمـا امـرأة أدخلت على قـوم رجلا ليس منهم فليست من اللّه في شـيء، ولا يـدخلها اللّـه جنّتـه، وأيّمـا رجل جحـد ولـده وهـو ينظـر إليـه احتجب اللّـه عـزّ وجـلّ منـه، وفضحه على رؤوس الأوّلين والآخرين يوم القيامة)(2)

وقيل يا رسول اللّـه: مـتى نـترك الأمـر بـالمعروف والنّهي عن المنكـر؟ قـال: (إذا ظهـر فيكم مـا ظهـر في الأمم قبلكم) قلنا: يا رسول اللّه، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: (الملــك في صغاركم والفاحشة في كباركم، والعلم في رذالتكم) (3)

ولهـذا قـرن رسـول اللــه ﷺ بينـه وبين الشـرك والقتـل والسرقة، فعن سـلمة بن قيس قـال: (إنّمـا هي أربـع، فمـا أنـا بأشحّ منّي عليهنّ يوم سمعتهنّ من رسول اللّه ، ألا لا تشركوا باللّه شيئا، ولا تقتلوا النّفس الّتي حرّم اللّه إلّا بـالحقّ، ولا تزنـوا ولا تسرقوا)(4)

وهي جميعا مترابطة يؤدي بعضها إلى بعض، فمن اسـتحل الفاحشـة اسـتحل بعـدها كـل المنكـرات، وصـغرت في عينـه،

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه النسائي وأبو داود والدارمي والحاكم، وقال: صحيح.

3() رواه أحمد وابن ماجة.

4() رواه الطبراني في الكبير.

وتيسر عليه ارتكابها، لأنه حينها يصبح مثل البهيمة التي تبحث عن إرضاء غرائزها، من غير أي عقل أو حكمة تضبطها.

ولهذا ورد في النصوص المقدسة التنفير منه بكل الوسائل والأساليب، ومنها ما رتبه الله عليه من العقوبات القدرية مثلما نص على ذلك قوله : (يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ، وأعوذ باللّه أن تدركوهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ، حتّى يعلنوا بها إلّا فشا فيهم الطّاعون والأوجاع الّتي لم تكن مضت في أسلافهم الّذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلّا أخذوا بالسّنين وشدّة المؤونة، وجور السّلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلّا منعوا القطر من السّماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد اللّه وعهد رسوله، إلّا سلّط اللّه عليهم عدوّا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمّتهم بكتاب اللّه، ويتخيّروا ممّا أنزل اللّه، إلّا جعل اللّه بأسهم بينهم)(1)

ومنها تلك الحجب التي تحول بين الواقعين في الفواحش واستجابة الدعاء، فقد قال ﷺ: (تفتح أبواب السماء نصف الليل فينادي مناد هل من داع فيستجاب له ؟ هل من سائل فيعطى ؟ هل من مكروب فيفرج عنه ؟ فلا يبقى مسلم يدعو دعوة إلا استجاب الله عز وجل له إلا زان أو زانية أو عشارا)(2)

ومنها العقوبات المرتبطة بالبرزخ والآخرة، والتي وصف رسول الله ﷺ بعضها، فقال: (إن الزناة تشتعل وجوههم نارا)(3)، وقال يصف بعض العقاب الذي يجدونه في البرزخ:(رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني إلى أرض مقدسة)ـ فذكر

1() رواه ابن ماجة والحاكم.

2() أحمد والطبراني.

3() الطبراني.

الحـديث إلى أن قـال ــ:(فانطلقنـا إلى نقب مثـل التنـور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته نـار فـإذا ارتفعت ارتفعـوا حـتى كادوا أن يخرجوا وإذا خمدت رجعوا فيهـا، وفيهـا رجـال ونسـاء)(1)، وفي رواية قال :(فانطلقنا إلى مثـل التنـور، فاطلعنـا فيـه فإذا فيه رجال ونساء، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلـك اللهب صـاحوا)، وفي آخـره:(وأمـا الرجـال والنسـاء الذين هم في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني)

ولـذلك وضـع اللـه لعبـاده الكثـير من الشـرائع الـتي تنفي سريان الفواحش في نفوسهم ومجتمعاتهم، ومنها ما عــبر عنــه رسـول اللـه بقولـه: (يـا معشـر الشـباب من اسـتطاع منكم البـاءة، فليـتزوج، فإنـه أغض للبصـر، وأحصـن للفـرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)(2)

وقال:(ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل اللـه، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف)(3)

وهكذا نهى ﷺ عن عضل أي امرأة عن الزواج بمن تتحقـق فيه شرائط الكفاءة، فقال: (إذا أتاكم من ترضـون دينـه وخلقـه فأنكحوه إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) (4).

وهكـذا دعـا إلى تيسـير رسـوم الـزواج من المهـر وغـيره، ففي الحديث قال :(أعظم النسـاء بركـة أيسـرهن صـداقا)(5)،

1() البخاري.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه النسائي والترمذي، وقال: هذا حديث حسن.

4() رواه الترمذي وقال حسن غريب.

5() رواه ابن حبان والحاكم والبيهقي.

وقال لرجل: (تزوَّجْ ولو بخاتَم من حديد)(1)

ومن الشرائع التي أمر الله بها، والتي لها دورها الكبير في التحصين من الفواحش ما نص عليه قوله تعالى مخاطبا الرجال: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ [النور: 30]

وقوله مخاطبا النساء: وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [النور: 31]

وفي الحديث **ورد في نظر الرجال للنساء** قوله : (لا تتبع النّظرة النّظرة، فإنّ لك الأولى، وليست لك الآخرة)(2)

وفي خصوص النساء حدثت أمّ سلمة قالت: كنت عند رسول اللّه وميمونة، قالت: فبينا نحن عنده أقبل ابن أمّ مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب. فقال رسول اللّه : (احتجبا منه)، فقلت: يا رسول اللّه؛ أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول اللّه : (أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه)(3)

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وقال: حسن غريب.

(3) رواه أبو داود.

وقبل ذلك كله وبعده أمرت الشريعة بحفظ الأعراض، وعدم إشاعة الفاحشة في المجتمع، كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [النور: 19]

وورد النهي الشديد عن الحديث في الفضائح والمثالب ونشرها، حتى لا يؤدي ذلك إلى استساغتها في المجتمع، والتهوين من شأنها، قال تعالى: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [النور: 14 - 17]

ولم تكتف الشريعة الحكيمة بكل ذلك، بل راحت تدعو إلى غرس الغيرة في نفوس جميع أبناء المجتمع ليحموا أعراضهم من العبث بها.. ولهذا وردت الأحاديث ذامة للدياثة، ومخبرة عن العذاب الشديد الذي ينتظر الديوث، ففي الحديث قال : (ثلاثة لا ينظر اللّه عزّ وجلّ إليهم يوم القيامة: العاقّ لوالديه، والمرأة المترجّلة، والدّيّوث. وثلاثة لا يدخلون الجنّة: العاقّ لوالديه، والمدمن على الخمر، والمنّان بما أعطى)[1]

وفي مقابل ذلك مدحت الغيرة المنضبطة بالضوابط الشرعية، فقد وردت النصوص الكثيرة تبين فضل غيرة الرجل على أهله، وتبين في نفس الوقت خطورة موت القلب والدياثة التي تجعل الرجل لا يبالي بعرضه.

وقد بين أن هذه الغيرة الشرعية دليل كمال على رجولة

[1] رواه النسائي.

الرجـل، بـل على إيمـان المـؤمن، بـل اعتـبر المـؤمن متخلقـا بالتخلق بهذا بوصف من أوصاف الله تعالى، قـال ﷺ: (المـؤمن يغار والله يغار ومن غيرة الله أن يأتي المؤمن شيئا حـرم اللـه) (1)

وأخبر عن نفسه وهو الأسوة الحسنة، والإنسان الكامــل وخير أنموذج عن الرجولة الكاملة عندما قال له سعد بن عبادة: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلـك النبي فقال:(أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه واللـه أغـير مني) (2)

ولكن هذه الغـيرة – مـع هـذا - لا ينبغي أن تشـتط فتخـرج إلى الحرام، بـل يجب أن تنضـبط كمـا تنضـبط جميـع سـلوكات المسـلم بالضـوابط الشـرعية، وقـد جمـع تلـك الضـوابط في قوله :(إن من الغيرة ما يحب الله عز وجـل، ومنهـا مـا يبغض الله، ومن الخيلاء ما يحب الله عز وجل ومنها ما يبغض الله عـز وجـل، فأمـا الغـيرة الـتي يحب اللـه فـالغيرة في الريبـة، وأمـا الغيرة التي يبغض الله فـالغيرة في غـير ريبـة، والاختيـال الـذي يحب اللـه عـز وجـل اختيـال الرجـل بنفسـه عنـد القتـال وعنـد الصــدقة، والاختيــال الــذي يبغض اللــه عــز وجــل الخيلاء في الباطل)(3)

ولم تكتـف الشـريعة بكـل ذلـك، بـل وضـعت التشـريعات المتشــددة الــتي تحفــظ أبنــاء المجتمــع من الوقــوع ضــحايا الفواحش.. ومن ذلك الأمر بالحجاب، كمـا قـال تعـالى: يَاأَيُّهَـا النَّبِيُّ قُـلْ لِأَزْوَاجِـكَ وَبَنَاتِـكَ وَنِسَـاءِ الْمُـؤْمِنِينَ يُـدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه أبو داود والنسائي وابن حيان والدارمي والبيهقي.

جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِــكَ أَدْنَى أَنْ يُعْــرَفْنَ فَلَا يُــؤْذَيْنَ وَكَــانَ اللَّهُ غَفُــورًا رَحِيمًا [الأحزاب: 59]

وقال ناهيا عن كل خضوع قد يطمع القلوب المريضة: يَا نِسَــاءَ النَّبِيِّ لَسْــتُنَّ كَأَحَــدٍ مِنَ النِّسَــاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَــعْنَ بِـالْقَوْلِ فَيَطْمَــعَ الَّذِي فِي قَلْبِــهِ مَــرَضٌ وَقُلْنَ قَــوْلًا مَعْــرُوفًا [الأحزاب: 32]

وقال ناهيا عن التبرج: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَـرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى [الأحزاب: 33]

ووردت الأحاديث الكثيرة تؤكد هـذه المعـاني، وتفصـل في كيفية تنفيذها، ومن ذلـك قولـه : (ثلاثـة لا تسـأل عنهم: رجـل فارق الجماعة وعصى إمامـه ومـات عاصـيا، وأمـة أو عبـد أبـق فمات، وامرأة غاب عنها زوجها قد كفاهـا مؤنـة الـدّنيا فتـبرّجت بعده. فلا تسأل عنهم)(1)

وقال: (إذا اسـتعطرت المـرأة فمـرّت على القـوم ليجـدوا ريحها فهي زانية)(2)

وقال: (سيكون في آخر أمّتي نساء كاسـيات عاريـات على رؤوسهنّ كأسنمة البخت، العنوهنّ، فإنّهنّ ملعونات)(3)

وقال: (صنفان من أهل النّار لم أرهمـا. قـوم معهم سـياط كأذنـاب البقـر يضـربون بهـا النّـاس، ونسـاء كاسـيات عاريـات، مميلات مـائلات، رؤوسـهنّ كأسـنمة البخت المائلـة. لا يـدخلن

1() رواه أحمد والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

2() رواه أبو داود والنسائي والترمذي، وقال: حسن صحيح. والحـاكم، وقـال: صـحيح الإسناد.

3() رواه الطبراني في الصغير.

الجنّة ولا يجدن ريحها. وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة كـذا وكـذا)[1]

وجاءت امرأة إلى رسول اللّه تبايعه على الإسلام فقال: (أبايعك على أن لا تشركي باللّـه شـيئا، ولا تسـرقي، ولا تـزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يـديك ورجليـك، ولا تنوحي ولا تبرّجي تبرّج الجاهليّة الأولى)[2]

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ بعض مـا وضـعته الشـريعة من أحكام وتوجيهات لتهذيب الفرد والمجتمع وحمايته من هذا النوع من المثـالب، فاسـع لتطبيقهـا ونشـرها، فـأنت لسـت مطالبـا بحماية نفسك فقط، وإنما مطالب بحماية كل المجتمع، حـتى لا تسري إليك عدواه.

المنكرات وعلاجها:

أما المنكـرات ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فهي، بحسـب مـا ذكرت لك، أو ما وصل إليه فهمي وتـدبري لمـا ورد في القـرآن الكريم، تعني ذلك الخلل الذي يصيب جهاز الحقــائق والقيم في نفس الإنســان، أو عقلـه بحيث يصـيبه الـران، ويغلـف بـالهوى؛ فيرى الأشياء على غير الصورة التي هي عليها، أو يتعامل معهــا بغير ما عليه أن يفعل.. فيصبح حاله مثل ذلك الذي يضع طعامه في آلة الغسيل، أو يحرث الأرض بسـيارته، ويتجـول في المـدن بجراره..

لا تضحك من هذا المثال ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ فالبشـر يفعلون ما هو أعظم منه، ولو كشف عنهم الغطاء، لرأوا حـالهم أسوأ من حاله؛ فهم يتوجهون بنعم الله إلى غير مـا خلقهـا اللـه

1() رواه مسلم.

2() رواه أحمد، ونحوه عند النسائي والترمذي وقال: حديث حسن صحيح..

لها، فيفعلون مثل ذلك المجنون الذي لا يشعر بالراحة حتى يعض يديه، ويلطم وجهه، ويخمش جسده ليرى الدم، وهو يسيل منه.

ولهذا يصور الله تعالى أولئك الذين يقعون في الموبقات، وهم يتوهمون أنهم يخادعون الله بأنهم في حقيقتهم لا يخادعون إلا أنفسهم، وإن سخروا، فهم لا يسخرون إلا منها.

ولو أنك ـ أيها المريد الصادق ـ رجعت إلى لفظة [المنكر] في القرآن الكريم لوجدت دلالتها على أمرين: إما الحقائق، وإما القيم.

أما إنكار الحقائق والعبث بها؛ فقد ورد في قوله تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [الحج: 72]؛ فالمنكر المراد هنا هو تجاهل تلك الحقائق، والذي قد يتجلى في صور كثيرة كاللامبالاة بها، أو السخرية منها، كما قال تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ [البقرة: 13]

ومثل ذلك قوله تعالى في الموقف من الرسل عليهم السلام: أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ [المؤمنون: 68، 69]

ومثل ذلك قوله تعالى في الموقف من الكتب المقدسة: وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ [الأنبياء: 50]

وأما إنكار القيم، والعبث بها، فقد أشار إليه قوله تعالى: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ [العنكبوت: 28ـ 29]، حيث اعتبر لوط عليه

السلام ما يفعلـه قومـه من ألـوان الشـذوذ والانحـراف عن الفطـرة الإنسانية السوية منكرا.

وقد جمع الله بين الأمرين، وأخبر عن مصدرهما، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَـا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَـدٍ أَبَـدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُـزَكِّي مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: 21]

وجمـع بينهمـا عنـد ذكـره لأهم وسـائل العلاج وأدويتـه، فقـال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّـلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَـرِ﴾ [العنكبـوت: 45]

ولو أنك ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ رجعت إلى الصـلاة، وهيئتهـا، والمعاني المرتبطة بهـا، لوجـدت أنهـا مدرسـة من مـدارس التزكيـة الكبرى(1)، ذلك أنها بأركانها ومواقيتها وشروطها ومـا يقـرأ فيهـا من القرآن تذكر الملتزم بهـا بحقـائق الوجـود والنظـام الـذي بـني عليـه والقيم التي عليه أن يعيش بها، ولأجلها.

ولو أنك اكتفيت منها بما يقرأ في كل ركعـة منهـا، وهي سـورة الفاتحة، لوجدت أنها سورة تذكر الإنسان بكـل الحقـائق الـتي تحمي فطرته من الانحراف، وتذكره بالسراط المستقيم، وأهلـه الصـالحين الطيبين، والمصير الذي ينتظره، والأعداء الذين يتربصون به.. ولكــل ذلـك تـأثيره في تغيـير المنكـر الـذي قـد يحـل بالعقـل، فيشـوه لـه الحقائق والقيم.

ذلـك أن الشـيطان الـرجيم في سـعيه للانحـراف بالإنسـان، لا يكتفي بإغرائه بالفواحش، وإنما يحاول أن يجعل منها سلما للوصـول إلى عقلـه وقلبـه ليحولـه من الإيمـان إلى الكفـر، ومن الهدايـة إلى الضلالة، ولهذا قدم الله تعالى الفحشاء على المنكـر في قولـه: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَتَّبِعُـوا خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِـعْ خُطُـوَاتِ

(1) سنشرح ذلك بتفصيل في كتاب [مدارس النفس اللوامة]

الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [النـور: 21]، وقولـه: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُـوا خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ (168) إِنَّمَـا يَـأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 168، 169]، وغيرها من المواضع.

وإلى ذلـك الإشـارة الصـريحة في قولـه تعـالى، وهـو يصـور المراحل التي يمارس بها الشيطان إغواءه للإنسان: ﴿ يَـا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَـوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْـزِعُ عَنْهُمَـا لِبَاسَـهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَـرَاكُمْ هُـوَ وَقَبِيلُـهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَـرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَـا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27]

ثم ذكر عقبها كيف يحول من تلك الفواحش أمرا عاديا، يجـادل البشر فيه، باعتباره من الأعراف التي توارثوهـا، قـال تعـالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَـا وَاللَّهُ أَمَرَنَـا بِهَـا قُـلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28]

ولـذلك كـان المنكـر هـو الخطـر الأعظم الـذي يسـعى إليـه الشـيطان، لأنـه إذا تمكن من تحويلـه إلى معـروف صـار كـل شـيء عنده هينا، وحتى الفاحشـة لن تبقى في أذهـان النـاس فاحشـة، بـل ستتحول إلى حرية شخصية، وأمر عادي، بل قـد تتحـول إلى مكرمـة من المكارم.

ولهذا أخبر الله تعالى عن ذلك الهجاء الذي هجى به قـوم لـوط عليه السلام نبيهم، وهم يتوهمون أنهم قد سبوه أعظم مسـبة، حيث قالوا: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَـرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 82]

لا تستغرب ـ أيها المريد الصادق ــ ذلـك؛ فقومـك يفعلونـه.. ألا تراهم يرمون الطيبين والطيبات الذي يزين الحيـاء وجـوههم، والأدب أخلاقهم، بـأنهم معقـدون، وغـير طبيعـيين، في نفس الـوقت الـذي يعشـقون فيـه الراقصـين والراقصـات، ويعتـبرونهم أصـحاب أذواق رفيعة، وفن نبيل.

ألا تراهم يهينون العلماء ويحتقرونهم، ولا يبالون بهم، في نفس الوقت الذي يمجدون فيه اللاعبين والسياسيين وأصناف المهـرجين.. وفي كل ذلك تشويه للقيم، وانتكاسة بالإنسان.

لقد أخبر القـرآن الكـريم عن هـذا، واعتـبره نوعـا من النفـاق، فقال: ﴿ الْمُنَـافِقُونَ وَالْمُنَافِقَـاتُ بَعْضُـهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَـأْمُرُونَ بِـالْمُنْكَرِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمَعْـرُوفِ وَيَقْبِضُـونَ أَيْـدِيَهُمْ نَسُـوا اللَّهَ فَنَسِـيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67]

وأخبر رسول الله ﷺ عن كيفيـة تحويـل الشـيطان المنكـر معروفـا على مسـتوى النفس الإنسـانية، ودور التسـاهل في الذنوب في ذلك، فقـال: (تعـرض الفتن على القلـوب كالحصـير عودا عودا، فأيّ قلب أشربها نكت فيـه نكتـة سـوداء، وأيّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتّى تصـير على قلـبين، على أبيض مثل الصّفا، فلا تضرّه فتنة ما دامت السّماوات والأرض، والآخـر أسـود مربـادّا[1] كـالكوز مجخّيا[2]، لا يعـرف معروفـا ولا ينكـر منكرا إلّا ما أشرب من هواه)[3]

وأخـبر عن كيفيـة تحويـل الشـيطان المنكـر معروفـا على مستوى المجتمعات، ودور السكوت عن التغيـير فيهـا في ذلـك، فقال: (إنّ أوّل ما دخل النّقص على بني إسـرائيل كـان الرّجـل يلقى الرّجل فيقول: يا هذا اتّق الله، ودع ما تصنع، فإنّه لا يحـلّ لك، ثمّ يلقاه من الغد فلا يمنعـه ذلـك أن يكـون أكيلـه وشـريبه وقعيده، فلمّا فعلوا ذلـك ضـرب اللـه قلـوب بعضـهم ببعض، ثمّ قـال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ عَلَى لِسَـانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَـانُوا يَعْتَـدُونَ (78) كَـانُوا لَا

1() مربادّا: مسودّا.

2() مجخّيا: مائلا.

3() البخاري [فتح الباري]، 2(525) ومسلم(144)

يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَبِئْسَ مَـا قَـدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُـهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُو [المائدة: 78 - 80]

ثمّ قال رسـول اللـه ﷺ تعقيبـا على ذلـك، وتحـذيرا من أن تقـع الأمـة فيمـا وقعت فيـه بنـو إسـرائيل: (كلّا واللـه لتـأمرنّ بـالمعروف ولتنهـونّ عن المنكـر ولتأخـذنّ على يـدي الظّـالم ولتأطرنّه(1) على الحقّ أطرا، ولتقصرنّه على الحقّ قصرا)(2)

ولهذا دعـا رسـول اللـه ﷺ إلى مواجهـة المنكـر، وتسـميته باسـمه، عنـدما يصـبح دور الساسـة ومن سـاندهم من علمـاء السـوء تحريـف الحقـائق والقيم، فقـال: (إنّـه يسـتعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء ومن أنكـر فقـد سلم، ولكن من رضي وتابع)(3)

وأخــبر رســول اللــه ﷺ عن تمكن الشــيطان من تغيــير الحقائق عند الكثير من الخلق، فقال: (ما من نبيّ بعثه الله في أمّة قبلي إلّا كان له من أمّته حواريّون وأصحاب يأخذون بسنّته، ويقتدون بأمره، ثمّ إنّها تخلف من بعدهم خلـوف. يقولـون مـا لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مـؤمن، ومن جاهـدهم بلسـانه فهـو مـؤمن، ومن جاهـدهم بقلبـه فهـو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل)(4)

وحـدث عن المراحـل الـتي يمـر بهـا التحريـف الشـيطاني للحقـائق والقيم، حـتى يكـون ذلـك داعيـة للبحث عن الـدين

1() ولتأطرنه: أي لتردنه إلى الحق ولتعطفنه عليه.

2() أحمد في المسند(1/ 391) برقم(3712)

3() مسلم(1854)

4() مسلم(50)

الأصيل، فعن حذيفة بن اليمان قال: كان النّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسـأله عن الشّـرّ مخافـة أن يـدركني، فقلت: يا رسول الله، إنّا كنّا في جاهليّة وشرّ، فجاءنا اللـه بهـذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرّ؟ قال: (نعم)، قلت: وهل بعد هذا الشّـرّ من خـير؟ قـال: (نعم وفيـه دخن) قلت: ومـا دخنـه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر) قلت: فهل بعد ذلـك الخـير من شـرّ؟ قـال: (نعم، دعـاة إلى أبـواب جهنّم، من أجابهم إليها قذفوه فيها)، قلت: يا رسول الله صفهم لنـا فقـال: (هم من جلــدتنا ويتكلّمــون بألســنتنا) قلت: فمــا تــأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم) قلت فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: (فـاعتزل تلـك الفـرق كلّهـا، ولو أن تعضّ بأصل شجرة حتّى يدركك الموت وأنت على ذلـك) (1)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن أول مـا عليك فعله لتخليص نفسك من آثار المنكر، أن تبذل كل جهــدك لتمييز الحقائق والقيم التي دخلها التحريـف، حـتى لا تكـون من الذين عُميت عليهم؛ فصار المنكر عنـدهم معروفـا، والمعـروف منكـــرا، وربمـــا صـــاروا من الـــدعاة إلى المنكـــر من حيث لا يشعرون.

ولذلك اتفق الحكماء على أنـه لا يمكن تغيـير المنكـر على مستوى النفس والمجتمع إلا بعـد العلم بكونـه منكـرا، وإلا كـان ذلك التغيير تحريفا وانتكاسة.

ولعلك ـ أيها المريـد الصـادق ــ تلاحـظ أولئـك المتطـرفين الــذين يشــوهون الــدين، ويقتلــون الخلــق، وهم يتوهمــون أنهم يجاهدون في سبيل الله بينما هم تلاميذ في مدرسـة الشـيطان، يتلاعب بهم وبعقولهم ودينهم.

1() البخاري [فتح الباري]، 6(3606) واللفظ له. ومسلم(1847)

فإذا عرفت المنكر، وميزته عن المعروف، فلا تكتف بذلك، بـل عليـك بالـدعوة لمـا عرفتـه، فخـير مـا يثبت المعـروف في نفسك، وخير ما يزيل المنكر منها، تلك الصيحات الـتي تصـيحها في وجه المغيرين والمبدلين، كمـا قـال رسـول اللـه ﷺ: (مثـل القائم على حدود الله والواقـع فيهـا كمثـل قـوم اسـتهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الّـذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فـوقهم، فقـالوا: لـو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فـإن تركـوهم ومـا أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجـوا جميعـا) (1)

فقد اعتبر رسول اللـه ﷺ السـاكت عن الإنكـار، ولـو كـان عالمـا وعارفـا هالكـا من الهـالكين، ذلـك أن طوفـان المنكـر سيستولي عليه، ولذلك كان في مواجهته ومقاومته حجاب حائل بينـه وبينـه.. ولـذلك دور الإنكـار ليس متعـديا فقـط، بـل خـاص بصـاحبه أيضـا، لأنـه أثنـاء إنكـاره يقـرر الحقـائق في نفسـه ويصححها.

ولهذا قرن لقمان عليه السلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصلاة في وصيته لابنه، فقال: ﴿يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُـرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَـا أَصَـابَكَ إِنَّ ذَلِـكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17]

ومثـل ذلـك مـا ورد في سـورة العصـر، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَـوْا بِالصَّـبْرِ (3)﴾ [العصـر: 1 - 3]، فذلك كله تربية وتهذيب للنفس، لأن هناك من الأخلاق ما لا يمكن اكتسـابها إلا بــذلك التواصـي، ومن الرذائـل مـا لا يمكن إزالته إلا بها.

1() البخاري [فتح الباري]، 5(2493)

المراء والجدال

كتبت إلي ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ تسـألني عن المـراء والجدال، وسر ما ورد في التنفير منهما، والنهي عنهما، والفرق بينهما وبين الحوار والمناظرة والجدال بالتي هي أحسن وغيرها من أساليب التواصل.. وعن المنـابع الـتي تنبـع منهـا الخصـومة الناتجة عنهما، وكيفيـة سـدها، وتحويـل الجـدل إلى حـوار نـافع، ومناظرة مفيدة.

وأكثر أسئلتك ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ سـأجيبك عنهـا في هذه الرسالة، أما ما عـداها من الحـديث عن الحـوار وشـروطه وآدابــه وغيرهــا، فســأحدثك عنهــا في وقتهــا المناسب[1]، لأن حديثنا في هذه الرسائل قاصر على المثالب، لا غيرها.

وأحب أن أنبهك قبـل جـوابي على أسـئلتك بـأن الشـيطان في أكـثر أحوالـه يعمـد إلى أشـياء صـحيحة مشـروعة مملـوءة بالخير، ليوجهها نحو عالم الشر والشيطنة، كما عرفت ذلـك في أكثر المثالب التي سبق حديثي لك عنها.

وهكذا الأمر بالنسبة للمراء والجدال؛ فهـو في أصـله يـدل على شوق النفس للتعرف على الحقائق، والتثبت منهـا، وعــدم القبول بها ما لم تستوف أدلتها التي تدل عليها..

ولذلك اختلـف المجـادل عن الإمعـة ذلـك الـذي يقبـل كـل شيء من غير أن يُعمل عقله، ولا أن يفكر في صحة مـا يطـرح عليه، والذي ذمه رسول الله ﷺ ذمـا شـديدا، فقـال: (لا تكونـوا إمّعـة، تقولـون: إن أحسـن النّـاس أحسـنّا، وإن ظلمـوا ظلمنـا،

---

[1] () سنتحدث عنها بتفصيل في كتاب [مدارس النفس اللوامة]

ولكن وطّنوا أنفسكم، إن أحسن النّاس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا)(1)

وأخبر عن انتشار هذا الصـنف في أمتـه في العصـور الـتي يفشو فيها التقليد البعيد عن التحقيق، فقال: (يذهب الصّـالحون الأوّل فـالأوّل، ويبقى حفالـة، كحفالـة الشّـعير(2)، أو التّمـر لا يباليهم الله بالة(3))(4)

وقال الإمام علي مخاطبا صاحبه كميل بن زياد: (يا كميـل: إنّ هـذه القلـوب أوعيـة فخيرهـا أوعاهـا للخـير، والنّـاس ثلاثـة: فعالم ربّانيّ، ومتعلّم على سـبيل نجـاة، وهمج رعـاع أتبـاع كـلّ ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجـأوا إلى ركن وثيـق)، ثم قال: (أفّ لحامل حقّ لا بصيرة له، ينقدح الشّكّ في قلبـه بـأوّل عارض من شبهة لا يدري أين الحقّ، إن قـال أخطـأ، وإن أخطـأ لم يدر، مشغوف بما لا يدري حقيقته، فهو فتنة لمن فتن به)

وقال ابن مسعود: (كنّا في الجاهليّة نعدّ الإمّعـة الّـذي يتبـع النّاس إلى الطّعام من غـير أن يـدعى، وإنّ الإمّعـة فيكم اليـوم المحقب(5) النّاس دينه)(6)، وقال: (ألا لا يقلّدنّ أحدكم دينه رجلا إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإنّه لا أسوة في الشّرّ)(7)

1() الترمذي(2007)

2() الحفالة والحثالة: الرديء من كل شيء، والحفالة أيضا بقية الأقماع والقشور في التمر والحب.

3() لا يباليهم اللّه بالة: أي لا يرفع لهم قدرا ولا يقيم لهم وزنا.

4() البخاري [فتح الباري]، 11(6434)

5() المحقب: الذي يقلد دينه لكل أحد.

6() لسان العرب(أ م ع)

7() الاعتصام(2/ 359)

وفي مقابل هؤلاء أولئك الذين يرفضون الحق من غير أي برهان، ولا دليل، وإنما بالهوى المجرد، كما قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ (الحج:8)

وعاتب أهل الكتاب الذين يحاجون فيما ليس لهم به علم، فقال: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [آل عمران: 65، 66]

وبذلك؛ فإن الجدال والمراء نابع من ذلك العجب والغرور الذي يوهم النفس أنها تعرف الحقائق مع أنها خالية عنها، ولذلك تضع الموازين التي تشاء، وتحكم بها على ما تشاء من غير رجوع إلى الثوابت التي تميز بها الأشياء، ولذلك ذكر الله تعالى افتقار المجادل إلى ثلاثة أشياء: العلم والهدى والكتاب المنير..

ولذلك يلجأ بدلها إلى نفسه ومزاجه وهواه ليحكم على كل شيء من خلاله، فما أعجبه، فهو الحقيقة التي يجادل عنها، وما لم يعجبه فهو الباطل الذي يرفضه، ويتولد من ذلك ثلاثة مثالب:

أولها المراء، وهو الطعن الذي لا يهدف إلا إلى إسقاط المتحدث، لتحقيره وإظهار الخلل في حديثه(1)، وإليه الإشارة

1() أقرب المعاني إلى هذا المغالطة التي يطلق عليها [الشخصنة] أو [القدح الشخصي]، وهو صنف شائع من المغالطات، بحيث أن الدعوى أو الحجة تكون خاطئة، بسبب معلومات (عيوب) متعلقة بالكاتب أو بالشخص الذي يعرض هذه الدعوى، وليس بالدعوى نفسها.

وفي العادة تتخذ هذه المغالطة خطوتان: الأولى، هي هجوم على الشخص الذي يتبنى الدعوى بسبب ظروفه أو أفعاله أو أي شيء متعلق بشخصيته.. الثانية، يتم تمديد الهجوم ليكون دليلا ضد الدعوى أو الحجة.

بقولـه ﷺ: وقـال: (أنـا زعيم بـبيت في ربض الجنـة، وبـبيت في وسط الجنة وببيت في أعلى الجنـة لمن تـرك المـراء وإن كـان محقا، وترك الكذب وإن كان مازحا، وحسن خلقه)(1)

وثانيها الجدل، وهو دفع المـرء خصـمه عن إفسـاد قولـه بحجّة أو شبهة، أو هو ما يقصد به تصحيح كلامه، أو هو ما يتعلق بإظهار الآراء وتقريرهـا، كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْـرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُـولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: 25]، وقـال: ﴿ كَمَـا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ لَكَـارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَـاقُونَ إِلَى الْمَـوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: 5، 6]

وثالثها الخصـومة، وهي ثمـرة من ثمـار المبالغـة في الجدل.. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَـرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ خَصِـمُونَ (58) إِنْ هُـوَ إِلَّا عَبْـدٌ أَنْعَمْنَـا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الزخرف: 57 - 59]

وهذا النوع من المغالطة يسير بالنحو التالي:

شخص (أ) يطرح دعوى (س).

شخص (أ) يتسم بالعيب (ك).

العيب (ك) هو في المدعي (أ) وليس في الدعوى (س).

إذن، دعوى (س) خاطئة.

السـبب في كـون [الهجـوم على الشـخص] يعتـبر مغالطـة، هي أن الشخصـية، أو الظروف أو أفعال الشخص، لا علاقة لها بصحة أو بخطأ الدعوى المطروحـة، فحقيقـة أن [1+1=2] لا تختلف إطلاقا مهما كان قائلها لأنها لا تعتمد على الشخص.

(1) رواه البزار والطبراني في معاجمه الثلاثة.

وفي الحديث، قال رسول الله : (كفى بك أن لا تزال مخاصما)(1)، وقال: (أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)(2)، أي كثير الخصومة.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الخير والشر في هذا المثلب قد يختلطان، ويعسر التمييز بينهما، ولذلك قيد الله تعالى الجدال بشرط الحسن، فقال: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [العنكبوت: 46]، وقال: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل: 125]

وهذا القيد يجعل من الجدال المؤدي إلى الخصومة حوارا يبحث عن الحقيقة، ويطرح كل طرف وجهة نظره بطريقة هادئة، وبعيدا عن كل الأهواء النفسية، وهو ممدوح في كل الأحوال، لأنه وسيلة من وسائل طلب العلم.. ولهذا لم يذمه القرآن الكريم مطلقا، بل ورد ما يشير إلى مدحه، ومن ذلك قوله تعالى: قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) (الكهف)، وقوله: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) (المجادلة)

والفرق بين الحوار أو الجدال بالتي هي أحسن، والذي ورد الثناء عليه، بالمراء والجدال والخصومة يكمن في المنابع التي ينبع منها، والدوافع التي تدفع لها.. فهي في الحوار طلب البحث عن الحقيقة، أو توضيحها، وذكر أدلتها.. مع صفاء النفس وسلامة القلب، أما في الجدال والمراء، فهي الأمراض النفسية الكثيرة، والتي ذكر الحكماء منها (قصد الغلبة والإفحام وإظهار

---

(1) رواه الترمذي وقال غريب.

(2) رواه البخاري.

الفضــل والشــرف والتشــدّق عنــد النــاس، وقصــد المباهــاة والممــاراة واســتمالة وجــوه النــاس هي منبــع جميــع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدوّ الله إبليس)(1)

ويتفرع عن هذه الخصال خصال أخرى كثيرة، مثل (الأنفة، والغضب، والبغضاء، والطمع، وحب طلب المال، والجاه للتمكن من الغلبــة، والمباهــاة، والأشــر، والبطــر، وتعظيم الأغنيــاء والســلاطين والــتردد إليهم والأخــذ من حــرامهم، والاســتحقار للناس بالفخر والخيلاء، والخــوض فيمــا لا يعــني، وكــثرة الكلام، وخروج الخشية والخوف والرحمــة من القلب، واســتيلاء الغفلــة عليه)(2)

وهي جميعا تنبع من أربعة منابع كبرى.. أولها **الحسد** الذي (يأكل الحســنات كمــا تأكــل النــار الحطب)(3).. فكــل الحســنات الــتي تنبت من العلاقــات الطيبــة بين المتحــاورين تأكلهــا نــار الحسد.. وسر ذلك أن المحــاور تــارة يغلب وتــارة يُغلب، وتــارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره.. وهو لذلك إن حمــد كلامــه امتلأ إعجابا بنفسه.. وإن حمــد كلام غــيره امتلأ حســدا وحقــدا.. فهو لذلك يتمــنى زوال النعم عنــه وانصــراف القلــوب والوجــوه عنه إليه، ولهذا قال ابن عباس:(خذوا العلم حيث وجــدتموه، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة)

وثانيها **الكبر**، وينشــأ من اعتقــاد المحــاور لغلبتــه وتفضــله على مخالفــه، فلا ينفــك (عن التكــبر على الأقــران والأمثــال والترفع إلى فوق قدره.. وربمــا يتعلــل الغبــي والمكــار الخــداع

1() الإحياء: 1/45.

2() الإحياء: 1/45..

3() رواه ابن ماجة.

منهم بأنه يبغي صيانة عز العلم، وأن المـؤمن منهيٌّ عن الإذلال لنفسه، فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل، وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفاً للاسم وإضلالاً للخلق به)

وثالثها **الرياء**، وهو اشتغال النفس برؤية نفسها عن رؤية الحق أو الدفاع عنه أو الدعوة إليه.. ومحال أن يتجلى الحق والنفس في مرآة واحدة.

ورابعها **البغي**، ذلك أن من امتلأت نفسه بالحسد والكبر والإعجاب بالنفس والتباهي بها لن ينظر إلى غيره إلا بعين البغي والظلم والعدوان.. فلذلك تجده في حواره كسبع ضار ليس له من هم إلا افتراس فريسته، وقد ذكر القرآن الكريم كيف يقف البغي والظلم حجابا دون الحق، فقال: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (الأنعام:33)، وهي تشير إلى أن الظلم هو السبب في جحود الظالمين لآيات الله، لا كون الآيات في نفسها تستحق أن تكذب.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما سأورده لك من أدوية ربانية وردت في النصوص المقدسة، وهي كافية لحمايتك من هذا المثلث وكل ما يثمره من أصناف العداوة والبغضاء.

العلاج المعرفي:

كما عرفت ـ أيها المريد الصادق ـ من رسائلي السابقة إليك؛ فإن العلاج المعرفي هو الأساس والمنطلق، ذلك أن قناعتك بكون الداء داء، ومعرفتك بخطره عليك، وثماره السامة التي يحدثها فيك، تجعلك تشعر بضرورة التخلص منه،

واستعمال كل الوسائل لذلك.. وذلك هو مقدمة الشفاء.

وقد يكون لك ـ أيها المريد الصادق ـ من الصدق والإخلاص ما يجعل من العلاج المعرفي كافيا لشفائك التام، ومن أكثر الأمراض، ذلك أن أكثر الأمراض النفسية عبارة عن أوهام تقذفها الشياطين في النفس؛ فإذا ما حلت المعرفة، ارتفع الداء.

ولهذا كان في البشارات والإنذارات الواردة في النصوص المقدسة ما يكفي لعلاج كل الأمراض، بشرط تحقيق اليقين والصدق في النبوة، مثلما نفعل مع الطبيب حين نثق فيه، ونمارس الحمية التي يطلبها، مع شدتها، حذرا من المخاطر التي ينبه إليها.

وهكذا إن رجعت إلى النصوص المقدسة تجد ذلك الذم الشديد للمراء والجدال الذي لا يقصد منه طلب الحقائق، وإنما يقصد منه تحقير القائلين بها، وعدم القبول منهم، من غير حجة ولا برهان.

لذلك كان المتشبه بهم في الجدال داخلا فيهم، فالتشاكل بين النفوس ناتج عن اشتراكها في القيم والأعمال التي تقوم بها.

ولذلك قرن الله تعالى المجادلين بالطواغيت والمستبدين والمجرمين، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35]، ثم قال بعدها: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ

فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ [غافر: 36، 37]

وهكذا ضرب المثل بالملك الذي جادل إبراهيم في ربه، قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [البقرة: 258]

ولذلك قرن الله تعالى الجدال بالطغيان والاستكبار، فقال: إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [غافر: 56]

بالإضافة إلى هذا؛ فقد وردت النصوص الكثيرة تأمر بتهذيب هذه القوة الداعية إلى الجدل، وتعد بالوعد الجزيل من استطاع التحكم فيها، وتتوعد بالوعيد الخطير من ركن لها، فراحت تتحكم فيه.

ففي الوعد ورد قوله : (من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة، ومن تركه وهو محق بني له في وسطها، ومن حسن خلقه بني له في أعلاها)(1)

وقال: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة، وببيت في وسط الجنة وببيت في أعلى الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وترك الكذب وإن كان مازحا، وحسن خلقه)(2)

وفي الوعيد قال : (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه

1() رواه أبو داود والترمذي واللفظ له وابن ماجه والبيهقي وقال الترمذي حديث حسن ورواه الطبراني في الأوسط.

2() رواه البزار والطبراني في معاجمه الثلاثة.

إلا أوتوا الجدل)، ثم قرأ: مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا (الزخرف: 58)(1)

وقال: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد(2) الخصم)(3)

وقال: (كفى بك إثما أن لا تزال مخاصما)(4)

وقال: (المراء في القرآن كفر)(5)

وروي عن جمع من أصحاب رسول الله قالوا خرج علينا رسول الله يوما ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله، ثم انتهرنا، فقال: (مهلا يا أمة محمد إنما هلك من كان قبلكم بهذا.. ذروا المراء لقلة خيره.. ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري.. ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته.. ذروا المراء فكفى إثما أن لا تزال مماريا.. ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة.. ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في رباضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق.. ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء)(6)

وروي عن أبي سعيد قال: كنا جلوسا عند باب رسول الله نتذاكر، ينزع هذا بآية، وينزع هذا بآية، فخرج علينا رسول الله

1() رواه الترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وغيره وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

2() الألد: هو شديد الخصومة.

3() رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

4() رواه الترمذي وقال حديث غريب.

5() رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه ورواه الطبراني وغيره.

6() رواه الطبراني في الكبير.

 كما يفقأ في وجهه حب الرمان، فقال: (يا هـؤلاء بهـذا بعثتم؟ أم بهذا أمـرتم؟ لا ترجعـوا بعـدي كفـارا يضـرب بعضـكم رقـاب بعض)(1)

وهكذا حذر أئمة الهدى من ذلك الجدل، وما ارتبـط بـه من منـاظرات ظهـرت في عصـورهم؛ فقـد قـال الإمـام علي: (من طلب الدّين بالجدل تزندق)(2)

و روي أنّ رجلا قـال للإمـام الحسـين: اجلس حتّى نتنـاظر في الدّين، فقال له الإمام: (يـا هـذا أنـا بصـير بـديني مكشـوف عليّ هـداي، فـإن كنت جـاهلا بـدينك فـاذهب فاطلبـه، مـالي وللمماراة)(3)

ونصح الإمام الكاظم بعض أصحابه، فقال: (إيّاك وأصـحاب الخصومات، والكذّابين علينا فإنّهم تركوا ما أمروا بعلمه وتكلّفوا مـا لم يـؤمروا بعلمـه حتّى تكلّفـوا علم السـماء)، ثم قـال لـه: (خالقوا الناس بأخلاقهم، وزايلوهم بأعمالهم، إنّا لا نعـدّ الرجـل فقيهـا عـاقلا حتّى يعـرف لحن القـول، ثمّ قـرأ هـذه الآيـة وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ [محمد: 30])(4)

وقـال: (الخصـومة تمحـق الـدّين وتحبـط العمـل وتـورث الشكّ)(5)

1() رواه الطبراني في الكبير.

2() الاعتقادات، ص 74.

3() مصباح الشريعة، باب 48.

4() توحيد الصدوق، ص 476.

5() توحيد الصدوق، ص 476.

وعن الإمام الصادق أنه قال: (لا يخاصم إلّا شاكٌ أو من لا ورع له)[1]، وفي رواية: (إلّا من ضاق بما في صدره)[2]

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاجعل تلك الوصايا بين عينيك في كل مجلس تجلس فيه، أو حديث تريد أن تتحدث به، أو كلمة تريد أن تكتبها؛ فإن رأيت أن منابعها هي منابع الحوار الهادئ، والنصيحة الخالصة، فقلها أو أكتبها.. وإن رأيت أن منابعها الكبر والحسد والرياء وتلك الأمراض الخبيثة؛ فدعها حتى لا تقتلك سمومها.

وهكذا في الخصومة، فإن رأيت أنك بها تنتصر للحق، وتواجه الباطل؛ فيمكنك أن تقوم بها، بل يجب عليك ذلك، فالمؤمن الحقيقي هو الذي يخاصم الباطل ليدحضه، ولذلك استثني المظلومين من المخاصمة، فقال: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 148]

لكن إياك، وأن تتحول من مظلوم إلى ظالم، فقد ذكر الحكماء أن ذم الخصومة متوجه لمن (خاصم بباطل، أو بغير علم.. أو من طلب حقا، لكنه لم يقتصر على قدر الحاجة منه، بل أظهر اللدد والكذب للإيذاء أو التسليط على خصمه.. وكذلك من يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره.. وكذلك من يخلط الخصومة بكلمات تؤذي، وليس له إليها ضرورة في التوصل له إلى غرضه، فهذا هو المذموم.. أما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف

---

[1] () توحيد الصدوق، ص 478.

[2] () توحيد الصدوق، ص 479.

وزيادة لجاج على الحاجة من غير قصد عناد ولا إيذاء ففعله هذا ليس مذموما ولا حراما، لكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا؛ لأن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر والخصومة توغر الصدور وتهيج الغضب، فإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما حتى يفرح كل واحد منهما بمساءة الآخر ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه)

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تجادل أو تحاور بما لا علم لك فيه، بدعوى أنك تريد أن تنصر للحق؛ فالحق لا ينتصر بالجهل، وإنما بالعلم، ومثل من يفعل ذلك من يدخل المعركة لمواجهة أعدائه من دون سيوف، فيقتل نفسه، ويشمت بالحق الذي يحمله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (الحج:8)

وقد ضرب الله تعالى المثل على ذلك باليهود والنصارى الذي جادلوا في إبراهيم عليه السلام من غير علم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة:113)

ومثل ذلك جدالهم عن أنفسهم، ورفعهم لها، بناء على الأماني الكاذبة، لا الحقائق الصادقة، قال تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (المائدة: 18)

ومثل ذلك جدالهم عن تلك التشويهات التي شوهوا بها الحقائق، قال تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة: 64)، وقال:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة:30)؟

وكل هذه الآيات تدعونا إلى التأكد من الحقائق وبراهينها قبل الجدال عنها، وهو ليس خاصا باليهود والنصارى فقط، بل عام في كل المجالات، ولكل الناس.

وإيـاك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن تسـيء فهم بعض مـا أوردتــه عليــك من التحــذيرات؛ فتتكــبر على من يطلب منــك المحـاورة في الحـق، لتدلـه على الهـدى، فـأنت مطـالب ببيـان الحق له، ولا عليك ألا يقبله.

وكيـف تتكـبر عليـه، وقـد حـاور اللـه تعـالى مـع عظمتـه وقدسيته إبليس، قال تعالى:﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (لأعـراف: 12)

وذكر القرآن الكريم حواره تعالى مع ملائكته، قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَـلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:30)

وذكر القـرآن الكـريم أن إبـراهيم ﵇ حـاور الملائكـة، بـل اعــترض عليهم، قــال تعــالى:﴿ وَلَمَّا جَــاءَتْ رُسُــلُنَا إِبْــرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَـهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32)﴾ (العنكبوت)

بل إن الله سمى حـواره للملائكـة جـدالا، وهـو دليـل على تكرر مراجعته لهم، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْـرَاهِيمَ الـرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَـا فِي قَـوْمِ لُـوطٍ (74) إِنَّ إِبْـرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْــرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)﴾ (هود)

وفوق هذا كله، فإن القرآن الكريم حاور أهل الكتاب في قضايا دينهم، لا يترك في ذلك قضية من القضايا الكبرى إلا طرحها.

بل إنه ـ فوق ذلك كله ــ أمرنـا بحـوارهم دون أن يسـتثني عقيدة أو غيرها، قال تعالى: وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَـابِ إِلَّا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُـوا مِنْهُمْ وَقُولُـوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْنَـا وَأُنْـــزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَـــا وَإِلَهُكُمْ وَاحِـــدٌ وَنَحْنُ لَـــهُ مُسْـــلِمُونَ (العنكبوت:46)

فهذه الآية الكريمة ـ فضلاً عن مطالبتها بالجدال بـالتي هي أحســن ـــ كأنهــا تقــول للمســلمين: إذا لم يكن في جعبتكم الأسلوب الأحسن في الجدال فلا تجادلوا أهل الكتاب.

هذه وصيتي إليك ـ أيها المريد الصادق ــ فاحفظهـا، واعلم أن تنفيذها يحتاج وعيا وإدراكـا عظيمـا، لاختلاط الحـق في هـذا المثلب بالباطل، وعسـر التميـيز بينهمـا، لـذلك الجـأ إلى الـورع والاحتيـاط في حـال خوفـك على نفسـك ودينـك، فمـا نجـا إلا أصحاب الورع.

اليأس والقنوط

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن اليأس والقنوط، وما يثمران من التطير والتشاؤم، وما يرتبط بهما من ضيق الصدر والعبوس والتجهم والتقطيب والجفاء وغلظ الطبع وقلة البشاشة.. وعن المنابع التي تنبع منها، والثمار التي تثمرها، وطريق العلاج الذي يسد منافذها عن النفس.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن اليأس والقنوط قد يكون سببا لما ذكرت من ثمار.. وقد لا يكون سببا لها.. ذلك أن العبوس القمطرير قد لا يكون سبب عبوسه وتجهمه يأسه، ولا قنوطه، ولا تشاؤمه، وإنما طبع طبع نفسه عليه، أو كبر استحوذ على نفسه؛ فصار لا يستطيع الفكاك منه.

ولذلك بدل أن أحدثك عن تفاصيل الأعراض التي وصفت.. أحدثك عن المنابع التي قد يكون ما ذكرت من ثمارها، وقد يكون الكبر أو العجب أو الغرور أو غيرها من المثالب هي المنابع التي تنبع منها، وقد سبق لي الحديث معك عنها.

أما اليأس والقنوط، فهما مثلبان خطيران يحولان بين النفس وبين التحقق بكل الكمالات المتاحة لها، لأنهما يمتدان إلى محال العزيمة والإرادة في الإنسان، ليملآها بالعجز والوهن.

وهما لا يفعلان ذلك فقط في عالم النفس، بل يمتدان إلى ما هو خارجها، فاليائس ينظر إلى الحياة نظرة سوداوية مملوءة بالتشاؤم، تجعله لا يفكر في شيء كما يفكر في التخلص منها.

ولذلك لم يكن هذان المثلبان مضادين للأخلاق الطيبة فقط، وإنما هما مضادان للإيمان ومتناقضان معه في كل

الجوانب؛ ذلك أنه لا ييأس إلا من لا يعرف الله ورحمتـه ولطفـه وكرمه، فيتوهم الكون بصورة عبثية، ويتصـور خالقـه ــ إن كـان يؤمن به ـ بصورة مشوهة مملوءة بالكدورة.

وهكذا ينظر إلى الحياة بتلك النظرة المادية التي تختصرها في هذه الدنيا المحدودة الضـيقة الممتلئـة بأصـناف المنغصـات وألوان البلاء.. والتي يتعجب من سر وجودها، وسر وجوده فيها، كما قال اللـه تعـالى مخـبرا عنهم: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَـدْ يَئِسُـوا مِنَ الْآخِـرَةِ كَمَـا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة: 13]

ولهـذا وصـف اللــه تعـالى الإنسـان الخـالي من الإيمـان بمسارعته إلى اليأس والقنوط، لأي نازلة تنزل به، قـال تعـالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـا الْإِنْسَـانَ مِنَّا رَحْمَـةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَـا مِنْـهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: 9]

وذكـر تـأثير النعمـة السـلبي عليـه، فقـال: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـاهُ نَعْمَاءَ بَعْـدَ ضَـرَّاءَ مَسَّـتْهُ لَيَقُـولَنَّ ذَهَبَ السَّـيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَـرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: 10]

ثم ذكر المسـتثنين من هـذا المثلب الخطـير، فقـال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ وَأَجْـرٌ كَبِـيرٌ﴾ [هــود: 11]، وهم المؤمنــون باللــه واليــوم والآخــر، ذلــك أن معــرفتهم بمغفـرة اللــه والأجـور المعـدة لهم، والفضـل الـذي ينتظرهم يجعلهم دائما في راحة تامـة، من غـير أن يفرقـوا بين حال النعمة، وحال البلاء، كما ورد في الحديث عن رسـول اللــه ﷺ أنه قال: (عجبا لأمر المؤمن إنّ أمره كلّـه خـير، وليس ذلـك لأحد إلّا للمؤمن؟ إن أصابته سـرّاء شـكر، فكـان خـيرا لـه، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له) [1]

[1] () مسلم (2999)

وقد عقب الله تعالى تلك الآيات الكريمة بخطابه لرسول الله ﷺ في تلك الفترة الشديدة التي حاول المشركون فيها أن يملأوه باليأس من نجاح دعوته، فقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: 12]

فالآية الكريمة ــ بعد أن ذكرت أفعالهم، وتأثيرها في رسول الله ﷺ ـ طمأنته بأن الله هو الوكيل، وأن دينه سينتصر، وأن الحق سيعلو على الباطل..

ولذلك كان الإيمان بالله، وحضوره الدائم مع خلقه، ليلبي حاجتهم، ويحقق أمنياتهم، هو العلاج الأكبر لذلك المثلب الخطير.

ولهذا نرى الله تعالى في القرآن الكريم يكثر من ذكر حضوره الدائم مع خلقه، وفي كل شؤونهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد 4]، وقال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة 40]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق 16]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف 84]، وقال: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 3]

ولهذا يخبر الله تعالى عن رسل الله وأوليائه، وكيف يتجاوزون في أحلك الفترات كل ما يدعوهم إلى اليأس والقنوط اعتمادا منهم على فضل الله.

ومن النماذج على ذلك يعقوب عليه السلام، الذي جعله الله تعالى نموذجا للمنتظر لفضل الله وفرجه، وفي أدق الظروف وأحرجها، فهو الذي قال لأبنائه بعد تلك السنين الطويلة من غياب أخيهم يوسف: ﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: 87]

وأخبر الله تعالى عن موسى عليه السلام، وأنه قال لأصحابه ـ بعد أن امتد إليهم اليأس، فقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61] ـ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]

وأخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال لصاحبه، وهو في الغار ينظرون إلى المشركين الذين يكادون يكتشفون مكانه: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]

وأخبر عن أصحاب رسول الله ﷺ المنتجبين، وأنهم في أحلك الفترات التي مروا بها، رددوا ما ردده رسل الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:173)

وأما غيرهم من الجبناء الساقطين في الاختبار فقد قال تعالى في شأنهم: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ (المائدة:52)

وهكذا أخبر عن أصحاب موسى عليه السلام المنتجبين، فقال: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة:23)

وفي مقابلهم ذكر الساقطين الجبناء الذين قالوا: ﴿يَا

مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَـدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُـوا مِنْهَـا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (المائدة:22)، وقالوا بكل تبجح: ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَـا دَامُـوا فِيهَـا فَـاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة:24)

إذا عرفت كل هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسـع لأن تطهـر نفسك من هذا المثلب الخطير، فهو لا يهدد أخلاقك فقط، وإنما يهدد إيمانك أيضا، فاحذر منها، فالمعاصي ليست بريدا للسيئات فقط، وإنما هي بريد للكفر أيضا.

العلاج المعرفي:

أول علاج تنطلق منه ـ أيها المريـد الصـادق ـ للتخلص من اليأس والقنوط وثمارهما علمـك بخطرهمـا وآثارهمـا، وأن اللـه تعالى يبتلي عباده ليختبر مواقفهم منه، وهـل يثقـون فيـه، وفي فضله وكرمه ورحمته، أم أنهم يتخلون عن ذلك وفي أي عارض بلاء يمر بهم.

لقد ذكر الله تعالى ذلـك في القـرآن الكـريم، وذكـر كيـف يمحص الناس، ويميزون على أساس هذا الاختبار، ومن ذلك مـا ذكـره في البلاء العظيم الـذي تعـرض لـه المؤمنـون في غـزوة الأحـزاب، والـذي مـيز بين المؤمـنين الصـادقين في إيمـانهم، وغيرهم من المنافقين ومرضـى القلـوب، قـال تعـالى: ﴿ يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُـرُوا نِعْمَـةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَـاءَتْكُمْ جُنُـودٌ فَأَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَـارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُـوبُ الْحَنَـاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَـا (10) هُنَالِـكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) ﴾ [الأحزاب: 9 - 11]

ثم ذكـر موقـف الراسـبين في ذلـك الاختبـار، فقـال:﴿وَإِذْ

يَقُــولُ الْمُنَــافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُــوبِهِمْ مَــرَضٌ مَــا وَعَــدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا [الأحزاب: 12]

وذكــر كيــف كــانوا يــبررون لأنفســهم كــل أصــناف الأعــذار بسبب يأسهم من نصر الله، قال تعالى: وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَـامَ لَكُمْ فَـارْجِعُوا وَيَسْـتَأْذِنُ فَرِيـقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَـا تَلَبَّثُـوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا [الأحزاب: 13، 14]

وبخلافهم أولئك المؤمنون الذين لما رأوا الْأَحْـزَابَ قَـالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَصَـدَقَ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَمَـا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا [الأحزاب: 22]

ولهذا، فاعتبر كل محنــة أو بلاء يعــبران بــك ــ أيهــا المريــد الصادق ـ نوعا من أنواع الاختبار الإلهي، وأن نجاحــك فيــه بقــدر رجوعك إلى الله، وثقتــك فيــه، وتوكلــك عليــه، فاللــه تعــالى لم ينزل ذلك البلاء بك ليعذبك، وإنما ليربيك، ويختبر صدق إيمانــك، ولذلك كان دعاؤك وتوكلك علامة على نجاحك في الاختبار، قال تعـالى: وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَأَخَـذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَـاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَـاءَهُمْ بَأْسُـنَا تَضَـرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَــتْ قُلُـوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ [الأنعام: 42، 43]

وتذكر كل حين ذلك البلاء الذي اختبر الله تعالى به إبراهيم عليه السلام، وكيف أنه بعد نجاحه فيه أهداه اللــه تلــك الجــائزة العظيمة..

وهكذا، فإن تلك الحادثة تتكرر كــل حين، وبصــور مختلفــة، أما الفاشلون، فيعبر بهم البلاء بعد أن ينزع من قلوبهم كــل ذرة

خير وإيمان، وأما الصادقون؛ فيزيدهم إيمانا ويقينـا ولجـوءا إلى الله، لينالوا جوائز لا تختلف كثـيرا عن تلـك الجـائزة الـتي نالهـا إبراهيم عليه السلام.

ولـذلك، فـإن علامـة صـدق المؤمـنين هـو الثبـات في كـل الأوقات.. ثبات إيمانهم، وثبـات أخلاقهم، وثبـات مـواقفهم.. أمـا غيرهم، فيتغيرون بتغـير مـا يـنزل عليهم، ويحـل بهم، كمـا قـال تعـالى: ﴿ لَا يَسْـأَمُ الْإِنْسَـانُ مِنْ دُعَـاءِ الْخَيْـرِ وَإِنْ مَسَّـهُ الشَّـرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّـتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـذَا لِي وَمَـا أَظُنُّ السَّـاعَةَ قَائِمَـةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُـذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيـظٍ (50) وَإِذَا أَنْعَمْنَـا عَلَى الْإِنْسَـانِ أَعْـرَضَ وَنَـأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: 49 - 51]

ووصـف بعضـهم، فقـال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُـدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَـأَنَّ بِـهِ وَإِنْ أَصَـابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةَ ذَلِـكَ هُـوَ الْخُسْـرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: 11]

أنـا أعلم ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أنـك أرفـع من أن تهتم لشؤون الدنيا، وما يصيبك فيهـا من البلاء، وأن حزنـك ليس لمـا فاتك منها، أو ما قد يفوتك، وإنما لتفريطك في حـق ربـك، وفي بعض تلك المخالفات التي وقعت فيهـا، وخشـيت أن ترديـك، أو تسخط ربك عليك.

فلا تحزن، ولا تيـأس.. فربـك أرحم وأكـرم من أن يعاقبـك على ذنب نـدمت عليـه، ورجعت إليـه فيـه، وقـد قـال مخاطبـا المسـرفين على أنفسـهم: ﴿ يَـا عِبَـادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعًـا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]

وقد شبه رسول الله ﷺ فضل الله على عباده المقبلين عليه تشبيها رمزيا، فقال: (للّه أشدّ فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل بأرض دوّيّة(1) مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت؛ فطلبها حتّى أدركه العطش، ثمّ قال: أرجع إلى مكاني الّذي كنت فيه، فأنام حتّى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشّد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده)(2)

وقرب ذلك المعنى في حديث آخر، فقال: (إنّ الله خلق الرّحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلّهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكلّ الّذي عند الله من الرّحمة لم ييأس من الجنّة، ولو يعلم المسلم بكلّ الّذي عند الله من العذاب لم يأمن من النّار)(3)

وقال: (إنّ للّه مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجنّ والإنس والبهائم والهوامّ فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها. وأخّر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم الله بها عباده يوم القيامة)(4)

وفي الحديث القدسي، قال تعالى: (يا ابن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السّماء ثمّ استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنّك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثمّ لقيتني

1() الدوية: الأرض القفر والفلاة الخالية.

2() البخاري، الفتح 11(6308)، ومسلم(2744)

3() البخاري [فتح الباري]، 11(6469)، ومسلم(2755)

4() البخاري [فتح الباري]، 10(6000). ومسلم(2752)

لا تشرك بي شيئا لقيتك بقرابها مغفرة)[1]

وفي حـديث قدسـي آخـر فصـل ذلـك، فقـال: (من جـاء بالحسنة فلـه عشـر أمثالهـا وأزيـد، ومن جـاء بالسّـيّئة فجـزاؤه سيّئة مثلها أو أغفر، ومن تقرّب منّي شـبرا تقـرّبت منـه ذراعـا، ومن تقرّب منّي ذراعا تقرّبت منه باعا، ومن أتاني يمشي أتيتــه هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض[2] خطيئـة لا يشـرك بي شـيئا لقيته بمثلها مغفرة)[3]

واعلم ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن يأسـك من رحمـة اللـه ومغفرتــه أعظم من ذنبــك، ذلــك أنــك اتهمت اللــه في أعظم صفاته وأسمائه، فزعمت أنه ليس غفورا، ولا رحيما، مع أن الله تعالى ذكر ذلك في أسمائه، بل إنـه اعتبرهـا من الأسـماء الـتي لها أوسع المجـالات، قـال تعـالى: ﴿فَـإِنْ كَـذَّبُوكَ فَقُـلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِـعَةٍ وَلَا يُـرَدُّ بَأْسُـهُ عَنِ الْقَـوْمِ الْمُجْـرِمِينَ ﴾ [الأنعـام: 147]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَـائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَـوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُـوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَـأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُـونِ أُمَّهَـاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَـكُمْ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32]

ولهذا؛ فإن ما يحصـل لنفسـك من يـأس وقنـوط ليس من الله، وإنمـا من الشـيطان، قـال اللـه تعـالى: الشَّـيْطَانُ يَعِـدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِـرَةً مِنْـهُ وَفَضْـلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268]

وقد ذكـر اللـه تعـالى في الحـديث القدسـي فضـل حسـن

[1] () الترمذي(3540) وقال: حديث حسن.

[2] () قراب الأرض: أي ما يقارب ملأها.

[3] () مسلم(2687).

الظن به، ودوره في تفريج الكروب، فقال: (أنا عنـد ظنّ عبـدي بي وأنـا معـه حين يـذكرني، إن ذكـرني في نفسـه ذكرتـه في نفسـي، وإن ذكـرني في ملأ ذكرتـه في ملأهم خـير منهم، وإن تقـرّب منّي شـبرا تقـرّبت إليـه ذراعـا، وإن تقـرّب إليّ ذراعـا تقرّبت منه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) (1)

وفي حديث قدسي آخر قال الله تعالى: (لا يتّكل العاملون على أعمالهم الّتي يعملونهـا لثـوابي فـإنّهم لـو اجتهـدوا وأتعبـوا أنفسهم في عبادتي كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كنـه عبـادتي فيمـا يطلبـون عنـدي من كرامـتي والنعيم في جنّـاتي ورفيـع الـدّرجات العلى في جـواري، ولكن برحمـتي فليثقـوا وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظنّ بي فليطمئنّوا، فـإنّ رحمـتي عنـد ذلـك تـدركهم ومنّي يبلغهم رضـواني ومغفـرتي تلبسـهم عفوي فإنّي أنا الله الرّحمن الرّحيم وبذلك تسمّيت)(2)

وقال ﷺ: (والّذي لا إله إلّا هـو مـا أعطي مـؤمن قـطّ خـير الدّنيا والآخرة إلّا بحسـن ظنّـه باللـه ورجائـه لـه وحسـن خلقـه والكفّ عن اغتياب المؤمنين، والّذي لا إله إلّا هـو لا يعـذّب اللـه مؤمنا بعد التوبة والاستغفار إلّا بسـوء ظنّـه باللـه وتقصـيره من رجائه وسـوء خلقـه واغتيابـه للمؤمـنين، والّـذي لا إلـه إلّا هـو لا يحسن ظنّ عبد مؤمن بالله إلّا كان الله عند ظنّ عبده المـؤمن لأنّ الله كريم بيده الخيرات يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظنّ ثمّ يخلـف ظنّـه ورجـاءه، فأحسـنوا باللـه الظنّ وارغبوا إليه)(3)

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إنّ حسن الظّنّ بالله تعـالى من

1() البخاري- الفتح (7536)، ومسلم (2675)

2() الكافي، ج 2 ص 71.

3() الكافي، ج 2 ص 71.

حسن العبادة) [4]

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ وتحقـق لـك الإيمـان بسعة فضل الله ورحمته، فاعلم أن من موجبات ذلك مواجهتـك للبلاء، ومنازعة الأقدار بالأقدار؛ فلا تستسـلم لمـا يحـل بـك من بلاء انتظارا لتفريج اللـه لكربتـك، فقـد يكـون ذلـك الفـرج على يديك، وما حصل لك من البلاء بسببك.

لقـد أشـار اللـه تعـالى إلى أولئـك الـذين يعيشـون حيـاة مملوءة بالنكد والضيق نتيجة تمسكهم بالأرض التي ولدوا فيهـا، أو تعلقـوا بهـا، وهم يتوهمـون أنهم مستضـعفون يجـازون على بلائهم، لكن الله تعـالى اعتـبرهم من الظـالمين لأنفسـهم، لأنـه كان بإمكانهم أن يخرجوا من الحال التي وجدوا أنفسـهم عليهـا، لكنهم قصروا أو أبـوا، قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَـةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَـاجِرُوا فِيهَـا فَأُولَئِكَ مَـأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء: 97)

وهكذا يدعو الله تعالى عباده لاختيار البيئة المناسـبة الـتي تساعدهم على أن يعيشوا حيـاتهم بصـورة طبيعيـة، تمكنهم من عبادة ربهم، وأداء التكـاليف الـتي كلفـوا بهـا، قـال تعـالى: ﴿يَـا عِبَـادِيَ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ أَرْضِـي وَاسِـعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُـدُونِ﴾ (العنكبوت:56)، وقـال: ﴿قُـلْ يَـا عِبَـادِ الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا حَسَـنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِـعَةٌ إِنَّمَـا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:10)

وقـد ورد في الحـديث أن رسـول اللـه ﷺ بعث سـريّة إلى

4() أبو داود(4993)، والترمذي(3679)

خثعم، فاعتصم ناس منهم بالسّجود فأسرع فيهم القتل، فبلغ ذلك النّبيّ ﷺ فقال: (أنا بريء من كلّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين) (1)

ذلك أن المسلم الذي يفعل ذلك، ويترك نفسه بين يدي من يضيق عليه، ويملأ حياته بالحرج، يكون هو المتسبب فيما وقع فيه.

ولهذا ورد في الحديث عدم استجابة الله تعالى لدعاء من قدر على أن يخرج من البلاء، لكنه لم يفعل، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن أصنافا من أمتي لا يستجاب لهم دعاؤهم: رجل يدعو على والديه، ورجل يدعو على غريم ذهب له بماله فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه، ورجل يدعو على امرأته وقد جعل الله عزّ وجلّ تخلية سبيلها بيده، ورجل يقعد في بيته ويقول: يا رب ارزقني، ولا يخرج ولا يطلب الرزق، فيقول الله عزّ وجلّ له: عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والتصرف في الأرض، بجوارح صحيحة، فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتباع أمري، ولكيلا تكون كلا على أهلك، فإن شئت رزقتك، وإن شئت قترت عليك، وأنت معذور عندي، ورجل رزقه الله مالا كثيرا فأنفقه ثم أقبل يدعو: يا رب ارزقني، فيقول الله عزّ وجلّ: ألم أرزقك رزقا واسعا، فهلا اقتصدت فيه كما أمرتك، ولم تسرف، وقد نهيتك عن الاسراف؟ ورجل يدعو في قطيعة رحم) (2)

ولهذا حذر أئمة الهدى من تلك الظاهرة التي وقعت في المجتمعات الإسلامية نتيجة التأثر برهبان النصارى وغيرهم، حيث أصبح التدين مرتبطا بالقعود عن الرزق، انتظارا لفضل

1() أبو داود حديث (2645)، الترمذي (1604)

2() الكافي: 5 / 67.

اللـه، فقـد روي عن الإمـام الصـادق أنـه قـال: (إني لأركب في الحاجة التي كفانيها الله، مـا أركب فيهـا إلا لالتمـاس أن يـراني الله أضحي في طلب الحلال، أمـا تسـمع قـول اللـه عـزّ وجـلّ: ﴿ فَإِذَا قُضِـيَتِ الصَّـلَاةُ فَانْتَشِـرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُـوا مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: 10] ؟ أرأيت لو أن رجلا دخل بيتا، وطين عليـه بابه، وقال رزقي ينزل عليّ، كان يكون هذا؟ أما انه يكـون أحـد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم دعوة) [1]

فسئل عن هؤلاء الثلاثة الذين ذكرهم، وأن الله لا يستجيب لهم، فقال: (رجل عنده المـرأة فيـدعو عليهـا فلا يسـتجاب لـه، لأن عصمتها في يده، ولو شاء أن يخلي سبيلها، والرجـل يكـون له الحق على الرجل فلا يشهد عليه، فيجحده حقه، فيدعو عليـه فلا يستجاب له، لأنه ترك ما أمر به، والرجل يكون عنده الشيء فيجلس في بيتـه فلا ينتشـر ولا يطلب ولا يلتمس الـرزق، حـتى يأكله، فيدعو فلا يستجاب له) [2]

وروي أنه سئل عن رجل قيل لـه: أصـابته الحاجـة، فقـال: فما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربه، قال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه، فقال: (والله للذي يقوته أشد عبادة منه) [3]

واحذر ـ أيها المريد الصادق ـ من كل من يملـؤك يأسـا من ربك ورحمته ومغفرته، فإنه شـيطان رجيم، وهـو لا يختلـف عن ذلك الذي يؤمنك ويجرئك عليه.. فكلاهمـا عـدوان لـك، وكلاهمـا عدوان للحقيقة.

1() من لا يحضره الفقيه: 2 / 69.

2() من لا يحضره الفقيه: 2 / 69.

3() التهذيب 6: 324 / 889.

وقـد ورد في الآثـار أنّ اللـه تعـالى أوحى إلى داود عليـه السّلام قولـه: (أحبّـني، وأحبّ من يحبّـني، وحبّبـني إلى خلقي)، فقال داود عليه السّلام: يا ربّ كيـف أحبّبـك إلى خلقـك؟ قـال: (اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني، وذكّرهم ذلـك فإنّهم لا يعرفون منّي إلّا الجميل)

وروي في الآثـار أن رجلا من بـني إسـرائيل كـان يقنـط الناس ويشدّد عليهم، فأوحى الله تعـالى إلى نـبيهم، وقـال لـه: (يقول الله تعالى يوم القيامة: اليـوم أو يسـك من رحمـتي كمـا كنت تقنط عبادي منها)

هذه وصيتي إليك ـ أيها المريد الصادق ـ فاحفظهـا، والـتزم بهـا، وسـترى كيـف يمن اللـه عليـك بفضـله العظيم من حيث تحتسب، ومن حيث لا تحتسب.

العجلة والطيش

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن العجلة والطّيش وما يرتبط بهما من النّزق وخفّة العقل، وما يؤديان إليه من التهور والتسرع والحمق والسفاهة، وما يقضيان عليه من التأني والحلم والرفق والوقار.. ومنابع ذلك، وثماره، وكيفية تخليص النفس الأمارة منه.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن العجلة هي أم كل ما ذكرت من مثالب، ومعدنها، ومنبعها، فهي تؤدي إلى الطيش والتسرع في اتخاذ القرارات، وكل ذلك يجعل المتخلق بها متهورا سفيها، تغلب عليه الحماقة، ويبتعد عنه الوقار والحلم والتؤدة.

ولذلك وصف الله تعالى بها الملأ الذين واجهوا الأنبياء عليهم السلام، وردوا قولهم، واعترضوا على الحجج التي جاءوهم بها مع وضوحها وقوتها.. ولو أنهم اتأدوا قليلا، ورجعوا إلى أنفسهم، وأتاحوا لعقولهم الفرصة للتفكر والتأمل والتدبر، لربما كان حالهم مختلفا تماما.

ولهذا اتفق الحكماء على أن (الأناة حصن السّلامة، والعجلة مفتاح النّدامة)، وقالوا: (التّأنّي مع الخيبة خير من التّهوّر مع النّجاح)[1]

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ أن (التأنّي من الله، والعجلة من الشّيطان، وما أحد أكثر معاذير من الله، وما من شيء أحبّ إلى الله من الحمد)[2]

1() التمثيل و المحاضرة(420)

2() أبو يعلي(4/ 206)/ 4240، و البيهقي(10/ 104)

وأثنى الرسول ﷺ على الرفق النـاتج عن الهـدوء والتـؤدة، فقال: (إنّ الله عزّ وجـلّ ليعطي على الرّفـق مـا لا يعطي على الخـرق، وإذا أحبّ اللـه عبـدا أعطـاه الرّفـق. مـا من أهـل بيت يحرمون الرّفق إلّا حرموا)[1]

وهكـذا أخـبر ﷺ عن السـفهاء الـذين يظهـرون في أمتـه، ليشوهوا الدين بخفـة عقـولهم، وعجلتهم، وتسـرعهم في اتخـاذ القرارات من غير علم ولا حكمة، فقال: (يأتي في آخـر الزّمـان قـوم حـدثاء الأسـنان، سـفهاء الأحلام، يقولـون من قـول خـير البريّة، يمرقون من الإسـلام كمـا يمـرق السّـهم من الرّميّـة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينمـا لقيتمـوهم فـاقتلوهم، فـإنّ في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة)[2]

وفي وصفه ﷺ لهؤلاء المنحرفين عن سنته بحداثـة السـن، وسـفاهة العقـل، مـا يشـير إلى أن سـبب مـا وقعـوا فيـه استعجالهم، ذلك أن الشباب مقترن في أصـله بالعجلـة الناتجـة عن قلة الخـبرة، ولـذلك كـان الشـباب الحكيم هـو الـذي يرجـع للشيوخ والعلماء وأصحاب الخبرة، ولا يسـتبد بـأي قـرار دونهم، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَـكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِـدَيَّ ﴾ [الأحقـاف: 15]، وهي تشـير إلى الاسـتواء والاشـتداد واكتمال العقل مرتبط بتلك السن.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لهـذه الأدويـة الربانيـة الـتي استخلصـتها لـك من أشـجار الهدايـة المقدسـة، فاشربها بكـل كيانـك، عسـاها تنقـذك من شـر نفسـك الأمـارة، لتلبسك لباس نفسك المطمئنة.

[1] () الطبراني في الكبير(2/ 306)/ 2274.

[2] () البخاري [فتح الباري]، 6(3611)

العلاج المعرفي:

أول علاج تنطلق منه ـ أيها المريـد الصـادق ــ للتخلص من العجلة وما يرتبط بهـا من مثـالب علمـك بخطرهـا وآثارهـا على حقيقتك ومصيرك وجميع مصالحك.

وأول تلك المخاطر ما أشار إليه القرآن الكـريم من كونهـا السبب في الحيلولة بين البشر والإيمان ومقتضياته، فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ [القيامـة: 20،ـ 21]، وقال: ﴿إِنَّ هَـؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَـةَ وَيَـذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًـا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان: 27]

وهي تشير إلى ما يعبر عنه المغرورون بقولهم: (النقد خير من النسيئة)، أو (اليوم خمـر وغـدًا أمـر)، أو (عصـفور في اليـد خير من عشرة على الشجرة)، ويقصدون بـذلك اغتنـام اللـذات العاجلة الحاضرة، وعدم التضحية بها في سـبيل اللـذات الآجلـة الغائبة.

ولهذا أخبر الله تعالى أنه يمدهم بما يريدونـه، لكنـه إمـداد يضرهم، ولا ينفعهم، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيـدُ الْعَاجِلَـةَ عَجَّلْنَـا لَهُ فِيهَا مَا نَشَـاءُ لِمَنْ نُرِيـدُ ثُمَّ جَعَلْنَـا لَـهُ جَهَنَّمَ يَصْـلَاهَا مَـذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: 18]

وحال هـؤلاء حـال ذلـك المـريض الـذي نهـاه الطـبيب عن بعض الأكلات الـتي قـد تضـره، لكنـه راح لا يبـالي لأن اللـذات حاضرة، ونفسه تشتهيها، والمرض آجل، ولم يحن حينه، ولــذلك لا يضر مثل هذا إلا نفسه.

وهكذا أخبر القـرآن الكـريم عن تسـرع أقـوام الأنبيـاء في الــرد على أنبيــائهم من غــير إتاحــة الفرصــة لعقــولهم لســماع

حججهم، والنظر فيها، فقال مخبرا عن موقف ثمود من نبيهم صالح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل: 45، 46]

وأخبر عن موقف عاد من نبيهم هود عليه السلام، واستعجالهم للعذاب الذي حذرهم منه، فقال: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: 24]

وأخبر عن موقف قوم موسى، واستعجالهم لعبادة العجل مباشرة بعد غياب نبيهم، فقال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: 150]

وأخبر عن قريش وغيرها من القبائل من رسول الله ﷺ، وكيف صدتهم العجلة عن الإيمان، فقال: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: 36]

وهكذا أخبر عن استعجالهم للعذاب الذي حذرهم منه رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6]، وقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47]، وقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 53، 54]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تدل على ذلك الطيش الذي تميز به أقوام الأنبياء عليهم السلام، والذي وصل بهم إلى حد سؤال العذاب، ليروا الدليل الحسي على صدق نبيهم، قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2) ﴾ [المعارج: 1 - 2]

ولهذا، فإنهم ــ بدل أن يتفكروا في الأدلة التي ذكرها القرآن الكريم ليوم القيامة وما يرتبط بها من البعث والنشور ـ راحوا يسألون عن الموعد، وكأن تأخر موعدها هو البرهان على عدم وقوعها، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: 38]

ولهذا رد عليهم القرآن الكريم بأن أمرها بيد الله، وهو الذي يحدد أجلها، لا استعجالهم، قال تعالى: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: 40]، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: 71، 72]

وأخبر عن التوبيخ الذي يلقونه في جهنم، نتيجة اكتفائهم بالسؤال عن الساعة بدل التحضير لها، فقال واصفا حال المشركين عندما تذكر أمامهم القيامة: ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: 12]، ثم رد عليهم متهكما بقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: 13، 14]

وقد لقن الله تعالى رسوله ﷺ ما يقوله لهم عندما يسألونه عن الساعة، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ: 29،ـ 30]، وقال: ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَـرًّا وَلَا نَفْعًـا إِلَّا مَـا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْـتَأْخِرُونَ سَـاعَةً وَلَا يَسْـتَقْدِمُونَ [يـونس: 48، 49]، وقـال: وَيَقُولُـونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَـا الْعِلْمُ عِنْـدَ اللَّهِ وَإِنَّمَـا أَنَـا نَذِيرٌ مُبِينٌ [الملك: 25، 26]

وكل هذه الإجابات تدلك ـ أيها المريد الصـادق ـ على دواء مهم من أدوية العجلة والطيش، وهو الاهتمام بـأداء الـواجب، لا بالنتيجة التي يؤول إليها.. فالعامل الصادق هو الذي يقدم عملـه لله تعالى بكل إخلاص وصدق وإتقان، ثم يتركه لله، ليربيه كيف يشاء، ويجازيه عليه متى شاء.

ويشير إلى هذا قوله ﷺ: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل) [1]

ويشير إليه ما ورد في النصوص المقدسة من نهي رسـول اللـه ﷺ عن اسـتعجال الهدايـة أو طلبهـا لمن لم تتـوفر فيـه شروطها، قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُـدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْـدِي مَنْ يَشَاءُ (النسـاء:272)، وقـال تعـالى: إِنَّكَ لَا تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (الكهف:56)

ذلك أن دور رسول الله ﷺ قاصر على أداء ما كلف به من التبليغ، ثم ترك شؤون الخلق لله، قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَـا عَلَيْـكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِـلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (الزمـر:41)، وقـال: فَـذَكِّرْ إِنَّمَـا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (عبس:21)

وغيرها من الآيات الكريمة التي تدعو إلى أداء الواجب، ثم

[1] () الطيالسى (ص 275، رقم 2068) ، وأحمد (3/191، رقم 13004) ، وعبد بن حميد (ص 366، رقم 1216) ، والبخـارى فى الأدب المفـرد (1/168، رقم 479)

ترك النتائج لله تعالى، مثلما يفعل الفلاح الذي يغرس أشـجاره، ويعتني بها، دون أن يستعجل ثمارها، لأن لها أجلها الخاص بها.

وخطر الاستعجال ليس في ذلك فقـط، بـل إنـه قـد يحـول بين الإنسان وتحقيـق طلبـه، وقـد ورد في الحـديث عن رسـول الله ﷺ ما يبين دور العجلة في عدم اسـتجابة الـدعاء، قـال ﷺ: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل. يقول: دعـوت فلم يسـتجب لي) [1]

وذلك يشبه من يقطف الثمـار قبـل بـدو صـلاحها؛ ولـو أنـه تمهل قليلا، لأكلها طيبـة صـالحة، لكن العجلـة حـالت بينـه وبين ذلك، كما أشار إلى ذلك قوله ﷺ: (إنّ هذا الدّين متين فأوغل فيه برفـق، ولا تبغّض إلى نفسـك عبـادة اللـه، فـإنّ المنبتّ لا أرضـا قطع ولا ظهرا أبقى)[2]

وقد ورد في الحديث ما يشير إلى مـا هـو أعظم من ذلـك كله، فعن سهل بن سعد أنّه قال: إنّ رجلا من أعظم المسلمين غناء عن المسلمين في غزوة غزاها مع النّـبيّ ﷺ، فنظـر النّـبيّ ﷺ فقال: من أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل النّار فلينظر إلى هذا، فاتّبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشدّ النّاس على المشركين حتّى جرح فاستعجل الموت فجعل ذبابة سـيفه بين ثدييه حتّى خرج من بين كتفيه فأقبـل الرّجـل إلى النّـبيّ ﷺ مسرعا فقال: أشهد أنّـك رسـول اللـه، فقـال: ومـا ذاك؟ قـال: قلت لفلان من أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهـل النّـار فلينظـر إليه، وكان من أعظمنا غناء عن المسلمين فعرفت أنّه لا يموت على ذلك، فلمّا جرح استعجل الموت فقتل نفسه. فقـال النّـبيّ ﷺ عند ذلك: (إنّ العبـد ليعمـل عمـل أهـل النّـار وإنّـه من أهـل

1() البخاري [فتح الباري]، 11(6340) و اللفظ له، و مسلم(2735)

2() البيهقي في السنن الكبرى (3/ 18)

الجنّة، ويعمل عمل أهل الجنّة وإنّه من أهل النّار، وإنّما الأعمال بالخواتيم)[1]

وفي هذا الحديث إشارة إلى ما يقوم به السفهاء وأصحاب الطيش من إفساد أعمالهم التي تعبوا فيها، بسبب مواقف بسيطة كان في إمكانهم الاستغناء عنها، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: 92]

ولهذا كان للإيمان بالجزاء الأخروي أثره الكبير في تربية النفس على التؤدة والرفق، لأن العامل لا ينتظر إلا جزاء ربه، ولذلك يعلم أن ثمرة عمله الحقيقية لن ينالها في الدنيا، وإنما عند الله تعالى.

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ أن الرفق ـ الذي هو ضد العجلة ـ هو جمال كل عمل، فقال: وقال: (إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيءٍ إلا شانه) [2]

ولهذا دعا إلى استعمال الرفق في كل شيء، فقال: (إنّ الله يحبّ الرّفق في الأمر كلّه)[3]، وأخبر أن (من يحرم الرفق يحرم الخير) [4]

وأخبر أن الشؤم والعاقبة السيئة في الطيش والنزق والعجلة، بخلاف الرفق الذي هو يمن وبركة، قال ﷺ: (الرفق

1() البخاري [فتح الباري]، 11(6607) و اللفظ له، و مسلم(112)

2() رواه مسلم.

3() متفق عليه و قد تقدم.

4() رواه مسلم.

يمن والخرق شؤم) [1]

ولهـذا كلـه ذكـر رسـول اللـه ﷺ جمـال الصـورة الحسـية للرفق، والتي يتجلى بها في الآخـرة لصـاحبها، فقـال: (لـو كـان الرفق خلقا يرى ما كان مما خلق الله عـز وجـل شـيء أحسـن منه)[2]

فتأمل ـ أيها المريد الصادق ـ فيما ذكره لك نبيـك ﷺ، فهـو لا ينطق عن الهوى، ولا يمكنك أن تستعين على نفسك إلا بمثـل هـذه الأدويـة الـتي ترهبـك من العجلـة وخطرهـا على نفسـك ومصيرك، وترغبك في الدواء المضاد لها، وهـو الرفـق والهـدوء والتؤدة والسكينة.

العلاج السلوكي:

إذا عـرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ وتـوفرت فيـك العزيمة على حماية نفسك من العجلة والطيش والنزق وآثارها، فتثبت في كل أمـورك، ولا تسـتعجل في اتخـاذ قراراتـك، وتـأن في تنفيذها حتى توفر الشروط الملائمة لها.

لكنه إذا اكتملت لـديك القناعـة بضـرورة العمـل، وتـوفرت فيك القـدرات على تنفيـذه، وسـاعدتك البيئـة المناسـبة لـذلك، فإياك أن تقصر في التنفيذ بحجة ما ورد من النصوص المقدسة في النهي عن العجلـة، فهي نصـوص مقيـدة بالعجلـة السـلبية الممتلئة بالطيش، أما العجلة الإيجابية فهي دليـل على النشـاط والقوة والصدق.

ولذلك أخبر الله تعالى أن فطرة الإنسان تحتوي على هــذا

---

[1] () الكافي 2 : 119

[2] () الكافي 2 : 120

الخصلة في تركيبها، فقال: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: 37]؛ ثم بين الوجهة السلبية التي استعملها المنحرفون لهذه الخصلة، فقال: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: 37، 38]

ذلك أن العجلة التي يدعو إليها الإيمان باليوم الآخر، ليس المطالبة بتسريع موعده، وإنما المسارعة إلى الأعمال الصالحة، كما قال تعالى في التفريق بين المؤمنين وغيرهم: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: 17، 18]

وقد روي في الحديث أن أعرابيا نادى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: (ويحك إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟) قال: (ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله)، فقال له رسول الله ﷺ: (المرء مع من أحب)(1)

ولهذا، فإن العاقل هو الذي يوجه العجلة التي طبع عليها إلى عجلة في الحق، والعمل الصالح، كما قال تعالى داعيا إلى ذلك: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 133]

ووصف موسى عليه السلام ومسارعته لرضى ربه، فقال: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84)﴾ (طه)

وأخبر عن زكريا وغيره من أنبياء الله ومسارعتهم في الخيرات، فقال: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ

(1) رواه مسلم.

خَيْرُ الْوارِثِينَ (89) فَاسْـتَجَبْنا لَـهُ وَوَهَبْنـا لَـهُ يَحْـيى وَأَصْـلَحْنا لَـهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسـارِعُونَ فِي الْخَيْـراتِ وَيَـدْعُونَنا رَغَبـاً وَرَهَبـاً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ (90)﴾ (الأنبياء)

وأخــبر عن مســارعة من قبلنــا من الصــالحين من أهــل الكتـاب للخـيرات، فقـال:﴿ لَيْسُـوا سَـواءً مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْـجُدُونَ (113) يُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُسـارِعُونَ فِي الْخَيْـراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّـالِحِينَ (114)﴾ (آل عمران)

وأخبر عن صـفة المؤمـنين في كـل الأزمنـة، ومسـارعتهم للخيرات، فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيـــاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُـــونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِـــرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُـونَ مـا آتَـوْا وَقُلُـوبُهُمْ وَجِلَـةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُـونَ (60) أُولئِكَ يُسـارِعُونَ فِي الْخَيْـراتِ وَهُمْ لَهـا سابِقُونَ (61)﴾ (المؤمنون)

وأمر المؤمنين بأن يحرصوا على الأوليـة الـتي لا يصـلها إلا المسـارعون، قـال تعـالى: ﴿قُـلْ أَغَيْـرَ اللَّهِ أَتَّخِـذُ وَلِيًّا فـاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14)﴾ (الأنعام)، وقال: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُـدَ اللَّهَ مُخْلِصـاً لَـهُ الـدِّينَ (11) وَأُمِـرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُـلْ إِنِّي أَخـافُ إِنْ عَصَـيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13)﴾ (الزمر)

وأخبر عن موسى عليـه السـلام وحرصـه على الأوليـة في الخير، فقال:﴿ وَلَمَّا جـاءَ مُوسـى لِمِيقاتِنـا وَكَلَّمَـهُ رَبُّهُ قـالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُـرْ إِلَيْـكَ قـالَ لَنْ تَـرانِي وَلكِنِ انْظُـرْ إِلَى الْجَبَـلِ فَـإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ

مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)﴾ (الأعراف)

وأخبر عن فضل الورثة السابقين من المؤمنين، فقال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32)﴾ (فاطر)

وأخبر عن فوز السابقين دون المتكاسلين، فقال:﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ (20) سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)﴾ (الحديد)، وقال:﴿ إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (26)﴾ (المطففين)

وهذه النصوص جميعا تدل على العجلة الحسنة.. وهي العجلة التي دعا إليها رسول الله ﷺ حين قال: (التؤدة[1] في كلّ شيء إلّا في عمل الآخرة)[2]

وبين أسباب الدعوة إليها، فقال في أحاديث متعددة بصيغ مختلفة: (بادروا بالأعمال سبعا: هل تنظرون إلّا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو

1() التؤدة: التأني والتمهل والرزانة.

2() رواه أبو داود والحاكم والبيهقي.

الدّجّال، فشرّ غائب ينتظر، أو السّاعة فالسّاعة أدهى وأمرّ)(1)

وقال: (بادروا بالأعمـال فتنـا كقطـع اللّيـل المظلم، يصـبح الرّجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يـبيع دينه بعرض من الدّنيا)(2)

وقال: (تبادروا بالأعمال ستّا: طلوع الشّـمس من مغربهـا، والدّجّال، والدّخان، ودابّة الأرض، وخويصة أحدكم، وأمر العامّة) (3)

وقـال: (اغتنم خمسـا قبـل خمس، شـبابك قبـل هرمـك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبـل شـغلك، وحياتك قبل موتك)(4)

وبين سـعة أجـر المسـارعين للخـيرات مقارنـة بغـيرهم، فقال: (من اغتسل يـوم الجمعـة غسـل الجنابـة ثمّ راح فكأنّمـا قرّب بدنة، ومن راح في السّاعة الثّانية فكأنّما قرّب بقرة، ومن راح في السّاعة الثّالثة فكأنّما قرّب كبشـا أقـرن، ومن راح في السّـاعة الرّابعـة فكأنّمـا قـرّب دجاجـة، ومن راح في السّـاعة الخامسة فكأنّما قرّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضـرت الملائكـة يستمعون الذّكر)(5)

وروي أنـه أمـر أصـحابه بـالغزو، وأنّ رجلا تخلّـف وقـال لأهله: أتخلّـف حتّى أصـلّي مـع رسـول اللّـه الظّهـر ثمّ أسـلّم

1() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

2() رواه مسلم.

3() رواه أحمد وابن ماجة.

4() رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

5() رواه البخاري.

عليه وأودّعه فيدعو لي بدعوة تكون شافعة يـوم القيامـة. فلمّـا صلّى النّبيّ أقبل الرّجل مسلّما عليه فقال له رسـول اللّـه : (والّـذي نفسـي بيـده لقـد سـبقوك بأبعـد مـا بين المشـرقين والمغربين في الفضيلة)(1)

ودعا إلى المنافسـة الـتي تسـتدعي التعجيـل والمسـارعة، فقال: (لا تنافس بينكم إلّا في اثنتين: رجل أعطاه اللّه عزّ وجلّ القرآن فهو يقوم به آناء اللّيل وآناء النّهار ويتّبع مـا فيـه فيقـول رجل: لو أنّ اللّه تعالى أعطاني مثل مـا أعطى فلانـا فـأقوم بـه كما يقوم به. ورجل أعطاه اللّه مالا فهو ينفق ويتصـدّق فيقـول رجل: لو أنّ اللّه أعطاني مثل ما أعطى فلانا فأتصدّق به)(2)

بـل مثـل رسـول اللـه بنفسـه هـذه المسـارعة، ففي الحـديث عن أنس قـال: كـان النّـبيّ أحسـن النّـاس، وأشـجع النّاس، وأجود النّاس، ولقـد فـزع أهـل المدينـة، فكـان النّـبيّ سبقهم على فرس، وقال: (وجدناه بحرا)(3)

وهكذا وردت النصوص الكثـيرة عن رسـول اللـه ﷺ وأئمـة الهدى في الدعوة إلى انتهاز الفـرص وابتهالهـا وعـدم تضـييعها، فقد قال رسول الله ﷺ: (من فتح له باب خير فلينتهـزه فإنـه لا يدرى متى يغلق عنه) (4)

وقال:(ترك الفرص غصصن؛ فـالفرص تمـر مـر السـحاب) (5)

1() رواه أحمد.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه البخاري.

4() العوالي 289

5() العوالي 291

وقال الإمام علي: (قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان، والفرصة تمر مـر السـحاب فـانتهزوا فـرص الخـير) (1)، وقـال: (إضاعة الفرصة غصة) (2)

وأكد ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ واهتم به بعـد الوقـوع في السيئة حتى تسرع إلى محوها قبل تمكنها من نفسك، وقد قـال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَـةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَـانَ اللَّهُ عَلِيمًـا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 17]، ثم قال بعدها في المقصرين المسوفين أصـحاب الأمـل الطويـل: ﴿ وَلَيْسَـتِ التَّوْبَـةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُـونَ السَّـيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَـرَ أَحَـدَهُمُ الْمَـوْتُ قَـالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: 18]

وفي الحديث، قال رسول اللـه ﷺ: اتّـق اللـه حيثمـا كنت، وأتّبع السّيّئة الحسنة تمحها، وخالق النّاس بخلق حسن) (3)

فـاقرأ هـذه النصـوص المقدسـة ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ وانتفع بها في علاج نفسـك، وتقـويم أخلاقـك، فهي الـتي توجـه تلك الطبيعـة الـتي طبعت عليهـا إلى مجـالات الخـير والصـلاح، لتنتفع بذلك في دنياك وآخرتك.

واعلم أن العجلة المحمودة هي ما كانت ناشـئة عن تقـدير دقيق للآثار والعواقب، وعن إدراك تـام للظـروف والملابسـات، وعن حسن إعداد وجودة ترتيب.. أمـا العجلـة السـيئة، فهي مـا كانت مجرد ثورة نفسية، خالية من تقدير العاقبة ومن الإحاطـة

1() نهج البلاغة 1086

2() نهج البلاغة 1131

3() الترمذي (1987) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد (5/ 153)

بالظروف والملابسات، ومن أخذ الأهبة والاستعداد.

وقد قال بعض الحكماء لبعض مريديه، وقد رآه مقصرا متباطئا بحجة عدم الاستعجال: (ينبغي لمن يقدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذر فواته، ويبادر به خيفة عجزه، وليعلم أنه من فرص زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يهمله ثقة بقدرته عليه، فكم واثق بقدرة فاتت فأعقبت ندما، ومعول على مكنة زالت فأورثت خجلا.. ولو فطن لنوائب دهره، وتحفظ من عواقب مكره، لكانت مغانمه مذخورة، ومغارمه مخبورة. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال:)لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح)، وقيل لأنوشروان: ما أعظم المصائب عندكم؟ فقال: أن تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت، وقال عبد الحميد: من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها) (1)

ثم أنشده قول بعض الشعراء(2):

إذا هبت رياحك	فإن لكل خافقة
ولا تغفل عن	فما تدري السكون
وإن درت نياقك	فما تدري الفصيل

هذه وصيتي إليك ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن تنفذها، فإن فيها خير الحياتين، الدنيا والآخرة، واعتبر بأولئك الذين استعملوا عجلتهم في غير موضعها، فدهستهم وحطمتم، ولم يستطيعوا النهوض بعدها.. والعاقل من اعتبر بغيره، واستفاد مما حصل لسواه.

---

(1) أدب الدنيا والدين (ص: 202)

(2) أدب الدنيا والدين (ص: 203)

العنصرية والطائفية

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن العنصرية والطائفية، وسبب انتشارها بين المتدينين وغيرهم، وهل هي داء نفسي أم داء اجتماعي، وهل يمكن علاجها، وكيفية ذلك؟

وجوابا على أسئلتك الوجيهة أذكر لك أنه لا يوجد داء اجتماعي إلا وله جذوره النفسية؛ فالمجتمع ليس سوى اجتماع نفوس كثيرة؛ فإن كانت النفوس طيبة كان المجتمع طيبا، وإن كانت خبيثة كان خبيثا، وإن اختلط فيها الخير بالشر، والطيبة بالخبث كان فيها من الجاهلية بحسب خبثها، وكان فيها من الإسلام بحسب طيبها.

لذلك كان للمجتمع دوره في الترقي، كما أن له دوره في الانحدار.. ذلك أن كل الأمراض النفسية التي حدثتك عنها من الكبر والعجب والغرور وغيرها قد لا يكون سببها ما يملكه الإنسان من طاقات ومواهب، ولكن ما يملكه مجتمعه منها؛ فتجده يتكبر ويعجب ويغتر بالجماعة التي ينتسب إليها، ويتوهم أنه كبير بها، ولو لم يكن يملك شيئا مما يدعوه إلى الكبر.

وذلك أشبه بالذي يشاهد فرق بلاده الرياضية، ويتحمس لها، ويتوهم أنه رياضي بذلك، مع أنه ممتلئ بالكسل، لا يمارس الرياضة، ولا يعرفها.. ولا علاقه له بها.

بل إن الأمر قد يكون أخطر من ذلك.. فالذي يصاب بمثل هذه الأدواء لا يقبل الحق ولو دلت عليه كل الأدلة، لسبب بسيط وهو صدوره ممن لا يعظمه مجتمعه، كما أخبر الله تعالى عن بني إسرائيل ورفضهم لرسالة رسول الله ﷺ بسبب كونه ليس إسرائيليا.

وهذا ما حصل لأقـوام الأنبيـاء عليهم السـلام الـذين دعتهم عنصـريتهم إلى التمسـك بآبـائهم وأجـدادهم، وعـدم الانصـياع لرسولهم المؤيد بكل المعجزات والآيات، قال تعالى مخـبرا عن منطـق القـرى في جوابهـا لأنبيائهـا، ومـا حـال بينهـا وبين اتبـاع الحق، أو على الأقل الاستماع إلى الحـق: ﴿ وَكَـذَلِكَ مَـا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَـةٍ مِنْ نَـذِيرٍ إِلَّا قَـالَ مُتْرَفُوهَـا إِنَّا وَجَـدْنَا آبَاءَنَـا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:23)

والقرآن الكريم لا ينكر عليهم تعلقهم بأسـلافهم، بـل ينكـر عليهم كون هؤلاء الأسلاف أضعف شأنا من أن يكونـوا قـدوة أو قادة لغيرهم، وهو ما لا يستطيع تقبله هؤلاء الذين يعيشون على أوهام الماضي، قال تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُـوا مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْـهِ آبَاءَنَـا أَوَلَـوْ كَـانَ آبَـاؤُهُمْ لا يَعْقِلُـونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:170)

وفي آيــة أخــرى يصــور القــرآن الكــريم قناعــة هــؤلاء واكتفاءهم بما وجدوا عليه آباءهم، فهم مشبعون بفكر أسـلافهم لا يرضون عنه بديلا، قال تعـالى:﴿ وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ تَعَـالَوْا إِلَى مَـا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْـهِ آبَاءَنَـا أَوَلَـوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة:104)

ويخبر الله تعالى عن المبررات التي يتذرع بها هؤلاء إذا ما نهوا عن الفواحش:﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَـا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَـأْمُرُ بِالْفَحْشَـاءِ أَتَقُولُـونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:28)

ويخبرنـا عمـا تفعلـه القوميـات في عصـرنا هـذا كمـا في العصور السالفة من تقديم الوطن والقومية على اللـه، فيحفـظ الصبيان من الأناشيد التي تزرع فيهم التعلق بالجذور ما ينسيهم تعلقهم بربهم وذكـرهم لـه، ويدرسـون من التـاريخ مـا يملـؤهم

بالتيه في الوقت الذي يتغافلون فيـه عن النمـاذج الرائعـة الـتي من الله بها على البشرية لتكون قدوة لها.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى عن موقف لا يعرف فيه المؤمن الحقيقي غير ربه في الوقت الذي ينشغل فيـه القـومي بسـرد سـيرة أسـلافه:﴿ فَـإِذَا قَضَـيْتُمْ مَنَاسِـكَكُمْ فَـاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَـا آتِنَـا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) (البقرة:200)

ويـذكر القـرآن الكـريم اسـتدلالهم المطلـق بفعـل آبـائهم، وكأنهم الآلهة التي تشرع لهم وتبين لهم سنن الكون ونواميســه وقوانينه، قال تعالى:﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَـوْا وَقَالُوا قَـدْ مَسَّ آبَاءَنَـا الضَّـرَّاءُ وَالسَّـرَّاءُ فَأَخَـذْنَاهُمْ بَغْتَـةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (لأعراف:95)

ويــبين العلاقــة الحقيقيــة مــع الآبــاء والإخــوان والعشــائر والقبائل في حال استحبابهم الكفر على الإيمان فيقول:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْـتَحَبُّوا الْكُفْـرَ عَلَى الْأِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (التوبــة: 23)

ويصــور القــرآن الكــريم الــدافع الحقيقي لهــذه المشــاعر القومية المبعدة عن الحق عنـد ذكـره لارتبـاط عبـادة الأسـلاف بالكبريـاء في الأرض، يقـول تعـالى:﴿ قَـالُوا أَجِئْتَنَـا لِتَلْفِتَنَـا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَـا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:78) وذلك لأن المتكبر كما يرى لنفسه وجودا متميزا عن غيره لا يتصور لماضيه غير ذلك الوجود المتميز.

وفي موضع آخـر يـبين أن الحـاجز بينهم وبين تـدبر الآيـات الواضحات هو مخالفتها للأعراف التي ورثوها عن أسلافهم، قال

تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:68) ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (الانبياء: 53)، وقال تعالى:﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء:74)

ويعتبر القرآن الكريم الدعوات الشعوبية العنصرية صدى لنفخات شيطانية قال تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (لقمان:21)

ومثل هذه العنصرية داء الطائفية الخطير، والذي لا يرتبط بالأعراق، وإنما بالأديان والمذاهب، والذي يجعل صاحبها لا يرى إلا طائفته، ويحتقر من دونها، ويستكبر عليه، ويستعمل كل الوسائل لإلغائه.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره القرآن الكريم عن اليهود والنصارى الذين انشغلوا بنصرة طوائفهم عن التحقيق فيها، والبحث عما دخل عليها من التحريفات، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة:113)

وذكر السبب الذي دعاهم إلى ذلك، وهو توهمهم لنجاتهم وفوزهم بمجرد انتسابهم لطوائفهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (المائدة: 18)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ وأردت أن تتخلص من هذه الأدواء الخطيرة التي تحول بينك وبين حقيقتك والقيم التي دعيت إلى تحقيقها، فاسمع لما أورده عليك من أدوية

عسى الله أن ينفعك بها، ويحميك من أن تكون لك نسبة لغيره، أو عبودية لسواه.

العلاج المعرفي:

أول علاج تنطلق منه ـ أيها المريـد الصـادق ــ للتخلص من الطائفية والعنصرية، هـو تحققـك بعبوديتـك لربـك؛ فهي وحـدها من تجعلك تنظر إلى الخلق، وأنت عبد بسيط متواضـع لا تملـك إلا ما أعطاك الله، فلا تتكبر على أحد من خلـق اللـه، ولا تفخـر عليه لأنه أعطاك ما لم يعطه.

ولهذا قرن اللـه تعـالى بين العبوديـة والوحـدة، والـتي هي الثمرة الطيبة التي تنبت بدل الطائفية، فقـال: إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَـا رَبُّكُمْ فَاعْبُـدُونِ (الانبيـاء:92)؛ فالآيـة الكريمـة تخبر عن أمرين، مـرتبطين ببعضـهما، أمـا أولهمـا، فهـو الدلالـة على وحـدة هـذه الأمـة، والثـاني إخبـار من اللـه تعـالى لعبـاده بربوبيته، وأمر لهم بمراعاتها بعبادته..

ومن اقتران كلا المعنـيين يتولـد أصـل ابتنـاء الوحـدة على العبودية.. فكـأن اللـه تعـالى يـذكر لنـا وصـفة لتحقيـق الوحـدة والحفاظ عليها.. وهي عبادة الله، والاستغراق في عبادته.

ومن الأمثلة على ذلـك مـا شـرعه اللـه تعـالى من شـعائر تعبدية، لا تصل العبد بربه فقـط، وإنمـا تصـله بإخوانـه، وتحميـه من كل كبرياء تحول بينه وبينهم، قال تعالى: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة:45)

فالذي يؤدي صلاته صادقة خالصة لله، يصـبح متواصـلا مـع ربه، يعتقد أن الحـق الـذي عنـده هبـة من اللـه.. ولـولا أن اللـه هداه إليه ما اهتدى، وذلك ما يجره إلى بحر التواضـع والتسـليم

لله.. فيرى من عين العبودية أن الله يمكن أن يحول من السحرة أولياء.. ومن الأولياء أشقياء..

فعبوديتك لله ـ أيها المريد الصادق ـ تجعلك ترى كل من تعتبره صاحب هوى كسحرة موسى يمكن أن يسبقوك في أي لحظة.. ويجعلك ترى من نفسك.. أو في زاوية من زوايا نفسك شقيا يمكن أن ينقض على حقائقك كل لحظة، فيحولها دعاوى، ويحولك دعيا.

ولهذا يستشعر الصالحون أن الهداية التي ينعمون بها هدية إلهية، لا جهدا اجتهدوه يحق لهم أن يفخروا به على غيرهم.. وقد ذكر الله تعالى أقوالهم الدالة على ذلك، ومنها ما ورد في قوله تعالى: قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ (الأنعام: 71)، وقوله: وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ (لأعراف:43)

وقال معبرا عن ألسنتهم ونفوسهم الطيبة: وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (ابراهيم:12)، وقال: رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (آل عمران:8)

وقد ورد في أخبار الصالحين ما يدل على تواضعهم عن نسبة الإيمان لأنفسهم؛ فكيف بنسبة التقوى والصلاح والأفضلية إليها.. وقد قال بعضهم: (من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين، ومن قال أنا مؤمن حقاً فهو بدعة)، قيل له: فماذا تقول؟ قال: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا (البقرة: 136)، وقال:(نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندري ما

نحن عند الله تعالى؟)

وقال آخر:(إذا قيل لك أمؤمن أنت؟ فقل: لا إلـه إلا اللـه)، وقال:(قل أنا لا أشك في الإيمان، وسؤالك إياي بدعة)

وقيل لبعضهم: أمؤمن أنت؟ فقال: إن شاء الله، فقيل له: لم تستثني في الإيمان؟ فقال: أخاف أن أقول نعم، فيقول اللـه سبحانه:(كذبت) فتحق علي الكلمة.

وقيل لآخر: أمؤمن أنت؟ قال: أرجو إن شاء الله.

وقال آخر:(ما يؤمنني أن يكون الله سبحانه قد اطلـع علي في بعض ما يكره فمقتني، وقـال اذهب لا قبلت لـك عملاً؛ فأنـا أعمل في غير معمل)

لا تحسب ـ أيها المريد الصادق ـ أن لهؤلاء من الشبهات ما يشككهم في حقائق الإيمـان، كلا.. وإنمـا هم مؤمنـون موقنـون جـازمون، ولكن هنـاك فـرق بين أن تـوقن بإيمانـك، وبين أن تدعيه.. فالدعوى خطيرة، واللـه تعـالى نفى الإيمـان عن أقـوام كثـيرين ادعـوه، ولـذلك لا يـأمن العاقـل من أن يكـون منهم، وخاصة إذا كان مغترا معجبا مستكبرا.

ولذلك إذا قرأت ما ورد في القرآن الكـريم من نحـو قولـه تعالى عن المنافقين: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِـالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (البقرة:8)، أو قوله عن بعض الأعراب: قَالَتِ الْأَعْـرَابُ آمَنَّا قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُـوا وَلَكِنْ قُولُـوا أَسْـلَمْنَا وَلَمَّا يَـدْخُلِ الْأِيمَـانُ فِي قُلُـوبِكُمْ (الحجـرات: 14)، أو قولـه عن غيرهم من المنافقين وأهل الكتاب: يَا أَيُّهَا الرَّسُـولُ لا يَحْزُنْـكَ الَّذِينَ يُسَـارِعُونَ فِي الْكُفْـرِ مِنَ الَّذِينَ قَـالُوا آمَنَّا بِـأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ (المائـدة: 41)، فلا تحسـب أن ذلـك خاصـا بهم، وأنهم أشخاص معينـون، وأنـك مـبرؤ من ذلـك.. كلا، فهـذه قيم

وأخلاق موجودة في كل زمان؛ فاحذر أن تنطبق عليك.

ولهذا نهى اللـه تعـالى عن تزكيـة النفس، ومـدحها والثنـاء عليها، فقال: فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُــوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (النجم: 32)، وقال: أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَـهُمْ بَـلِ اللَّهُ يُـزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (النساء: 49)

ولهذا وصف الله تعالى الصالحين بـأمرين، أحـدهما العمـل الصالح المتقن، والثاني الوجـل والخـوف من عـدم قبولـه، قـال تعالى: وَالَّذِينَ يُؤْتُـونَ مَـا آتَـوْا وَقُلُـوبُهُمْ وَجِلَـةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (المؤمنون:60)

وقد سئل رسول الله ﷺ، عن تفسيرها، وهل هي في الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ فقــال: (لا، ولكنه الذي يصـلي ويصـوم ويتصـدق، وهـو يخـاف اللـه عـز وجل)[1]

وقد وردت الآية السابقة في سياق يبين الحال الـتي يكـون عليهـا المـؤمن من الخشـية والعبوديـة والتواضـع، فاللـه تعـالى يصف عباده المؤمنين بالخشية المؤديـة للتواضـع قبـل وصـفهم بالإيمــان، فيقــول: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْــيَةِ رَبِّهِمْ مُشْــفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُـونَ (المؤمنـون:56 ـ 57)، أي هم مـع إحسـانهم وإيمـانهم وعملهم الصـالح، مشـفقون من اللــه خائفون منه، وجلون من الابتلاءات الـتي تعـرض لهم، كمـا عـبر عن ذلك بعضهم، فقال: (إن المؤمن جمع إحسـانا وشـفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا)

قـارن ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ بين هـؤلاء الـذين ذكـرهم القرآن الكريم وبين أولئك الذين يستعلون بأنسـابهم وطـوائفهم

1() رواه أحمد الترمذي وابن أبي حاتم.

ويتسلطون بها، ويقاضون الخلق على أساسها، ثم لا يرضون إلا أن يرموهم بالكفر أو البدعة أو الزندقة.

واعلم ــ أيها المريد الصادق ــ بعد هذا أن العنصرية والطائفية حظ الشيطان من الإنسان، ذلك أن إبليس لم يتكبر على آدم، إلا بعد أن ظن نفسه وعنصره وطائفته أعز وأكرم من أن ينحني بهامته لذلك الطين.

وقد ورد في الحديث ما يشير إلى ذلك، فقد روي أن النبي ﷺ كان جالسا في جماعة من أصحابه فذكروا رجلا فأكثروا من الثناء عليه، فبينما هم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء، وقد علق نعله بين يديه وبين عينيه أثر السجود فقالوا: يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه، فقال ﷺ:(أرى على وجهه سفعة من الشيطان) فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم، فقال النبي ﷺ:(نشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك؟) فقال:(اللهم نعم)[1]

العلاج السلوكي:

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ وتوفرت فيك العزيمة على حماية نفسك من هذين المثلبين الخطيرين، فلا تسم نفسك إلا باسم عبوديتك لله؛ فإذا سئلت عن قبيلتك وشعبك ووطنك، فلا تفاخر بها، ولا تستعلي بانتسابك لها، ولا تذكر أنك من نسل ملوك الغساسنة، أو أن أجدادك كانوا من الفراعنة، أو كانوا ملوكا، فقد روي أن رجلين على عهد رسول الله ﷺ انتسبا، فقال أحدهما: (أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أم لك؟)، فقال رسول الله ﷺ: (انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان.. حتى عد تسعة،

[1] () رواه أحمد والبزار والدارقطني.

فمن أنت لا أم لـك؟)، قـال: (أنـا فلان بن فلان بن الإسـلام)، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن هـذين المنتسـبين: أمـا أنت أيهـا المنتمي أو المنتسـب إلى تسـعة في النـار، فـأنت عاشرهم، وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة، فـأنت ثالثهما في الجنة) (1)

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (إذا كان يـوم القيامـة أمـر اللـه مناديا ينادي: ألا إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا، فجعلت أكـرمكم أتقـاكم، فـأبيتم إلا أن تقولـوا: فلان بن فلان خـير من فلان بن فلان، فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم، أين المتقون؟)(2)

وهذا ما فعله سلمان الفارسي الـذي أصـبح محمـديا، فقـد سئل عن قوميته، فأجابهم بكل روحانية:

أبي الإسلام لا أب   إذا افتخروا

مـع أنـه كـان يمكنـه أن يـذكر حضـارة فـارس، وعـدل أنوشروان، ونبوءة زرادشت، وحكماء الفـرس وأدبـاءهم.. لكنـه لم يفعـل.. لأنـه ذاب في النبـوة، وفـني فيهـا، فلم يعـد يـرى سواها..

وهكـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ إن سـئلت عن مـذهبك وطائفتـك؛ فـاقرأ عليهم قولـه تعـالى: ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْـرَاهِيمَ هُـوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحج: 78)

فالله تعالى هو الذي ارتضى لك هذا الاسم؛ فلا ترغب عنه إلى غيره، وإياك أن تقع فيمـا وقـع فيـه اليهـود والنصـارى حين رغبوا عن اسم الإسـلام؛ فوقعـوا في الطائفيـة وضـلالاتها، قـال

(1) رواه الإمام أحمد.

(2) رواه الطبراني في الصغير والأوسط.

تعالى: وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (البقرة:135)

بل إنهم اشتدوا في انصـرافهم عن الإسـلام الـذي ارتضـاه الله لهم، فراحوا يزعمون أن الجنـة خاصـة بمن انتحـل نحلتهم، كما قـال تعـالى: وَقَـالُوا لَنْ يَـدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَـانَ هُـوداً أَوْ نَصَـارَى تِلْـكَ أَمَـانِيُّهُمْ قُـلْ هَـاتُوا بُرْهَـانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (البقرة:111)

ولم يكتفوا بذلك.. بل راحوا يزعمون أن إبراهيم عليه السلام الـذي اختار اسم الإسلام وملة الإسلام كـان مثلهم يهوديـا أو نصـرانيا، وقـد رد اللـه عليهم ذلـك أبلـغ رد، فقـال: يَاأَهْـلَ الْكِتَـابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْـرَاهِيمَ وَمَـا أُنْـزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيـلُ إِلَّا مِنْ بَعْـدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَاأَنْتُمْ هَـؤُلَاءِ حَـاجَجْتُمْ فِيمَـا لَكُمْ بِـهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًـا مُسْـلِمًا وَمَـا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُـوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُـؤْمِنِينَ [آل عمـران: 65 - 68]

بل لم يكتفوا بإبراهيم عليه السـلام.. فقـد راحـوا ينسـبون كـل أنبيـائهم إلى اليهوديـة أو النصـرانية، كمـا قـال تعـالى: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُـــوداً أَوْ نَصَـــارَى قُـــلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَـهَادَةً عِنْـدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَـا اللَّهُ بِغَافِـلٍ عَمَّا تَعْمَلُـونَ (البقـرة: 140)

وقـد أخـبر اللـه تعـالى في القـرآن الكـريم أن أديـان كـل الأنبياء كانت الإسلام.. وقد ذكر الله وصية يعقوب عليـه السـلام لأبنائه، فقال: أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُـوبَ الْمَـوْتُ إِذْ قَـالَ

لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (البقرة: 133)

بل أخبر الله عن فرعون أنه عندما أدركه الغرق قال: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (يونس:90) وفي هذا دليل على أن موسى عليه السلام دعاه إلى الإسلام، ولم يدعه إلى دين غيره.

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ بعد هذا أن تتألى على الله، أو تحسب نفسك وكيلا له، أو مفوضا عنه، تدخل من تشاء في رحمته، وتخرج من تشاء منها، فالله تعالى لم يوكل أحدا من عباده بذلك.

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن جزاء ذلك الذي اعتقد نفسه موكلا بخزائن الرحمة والمغفرة يصرفها لمن يشاء، ويحرم منها من يشاء، فذكر (أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ فاني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك)(1)

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (ألا أحدثكم حديث رجلين من بني إسرائيل؟ كان أحدهما يسرف على نفسه، وكان الآخر يراه بنو إسرائيل أنه أفضلهم في الدين والعلم والخلق، فذكر عنده صاحبه، فقال: لن يغفر الله له، فقال الله لملائكته: (ألم يعلم أني أرحم الراحمين؟ ألم يعلم أن رحمتي سبقت غضبي؟ فاني أوجبت لهذا الرحمة، وأوجبت على هذا العذاب، فلا تتألوا على الله)(2)

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر.

وقد سمى ﷺ هؤلاء الذين زعمـوا لأنفسـهم امتلاك خـزائن الجنـان (المتـألين)(1)، فقـال:(ويـل للمتـألين من أمـتي، الـذين يقولون: فلان في الجنة، وفلان في النار)(2)

بـل أخـبر ﷺ عن هلاك هـذا النـوع من النـاس، فقـال:(إذا سمعت الرجل يقـول: هلـك النـاس فهـو أهلكهم)(3)، وقـال:(إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم)(4)

وقد عرف الطائفيون ـ أيها المريد الصادق ـ كيف يحتـالون على هذا؛ فاعتبروا أنفسهم فرقة ناجية، وأخرجوا غـيرهم منهم، وذلك لا يعني إلا شيئا واحدا، وهو هلاك غـيرهم.. ولهـذا بـدل أن يذكروا هلاكهم، ذكروا عدم نجاتهم.. مع أن عدم النجـاة لا تعـني سوى الهلاك.

أعلم أنك ـ أيها المريـد الصـادق ـ ستسـألني عمـا ورد في الحديث من افتراق الأمة، ونجاة الواحدة.. ومعاذ الله أن أعقب على كلام رسـول اللـه ﷺ أو ألغيـه أو أتجـرأ عليـه، ولكن هـذا الحــديث لا يــدعو إلى الطائفيــة والــدعاوى، وإنمــا يــدعو إلى التواضع والبحث والتجـرد للحـق، لا التكـبر بـه، فمن يدريـه أنـه منها.

ولهـذا أنكـر أئمـة الهـدى على من يـدعون النسـبة إليهم، ويتوهمـون أنهم قـد ضـمنوا النجـاة بهـا، فقـد روي عن الإمـام الصادق أنـه قـال: (افـترق النـاس فينـا على ثلاث فـرق: فرقـة أحبونا انتظار قائمنا ليصـيبوا من دنيانـا، فقـالوا وحفظـوا كلامنـا

1() معنى يتألى : يحلف والالية اليمين.

2() رواه البخاري في التاريخ.

3() رواه مالك وأحمد ومسلم وأبو داود .

4() رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

وقصروا عن فعلنا، فسيحشرهم الله إلى النار، وفرقة أحبونا وسمعوا كلامنا، ولم يقصروا عن فعلنا، ليستأكلوا الناس بنا، فيملأ الله بطونهم نارا يسلط عليهم الجوع والعطش، وفرقة أحبونا وحفظوا قولنا، وأطاعوا أمرنا، ولم يخالفوا فعلنا، فأولئك منا ونحن منهم) [1]

ولذلك لا تغتر ــ أيها المريد الصادق ــ بمجرد انتسابك للصالحين، أو كونك معهم، أو تكثيرك لسوادهم.. بل افرح بنعمة الله تعالى عليك بذلك، ولا تتكبر بها على غيرك؛ فلو شاء الله لسلب ما أعطاك من المحبة، وما رزقك من الهداية، وجعلها في الذين استكبرت عليهم، أو سخرت منهم.

واحذر ــ أيها المريد الصادق ــ وأنت في غمرة فرحك بطائفتك التي تتوهم أن الله هداك إليها، أن تسكن نفسك عن البحث، أو أن تجاريها فيما تراه مخالفا للقيم التي جاء بها دينك، فأنت مطالب بالتجرد مع الحقيقة، والدوران معها حيث دارت..

فالمتجرد للحقيقة المخلص لها لا يبالي هل قبلها قومه، أم لم يقبلوها، وهل هي متناغمة مع قومه، أم ليست متناغمة معهم.. بل هو يطلب الحق لذات الحق، لا لأنه وجد قومه عليه.. فمعيار الحقيقة عنده هو كونها حقيقة، لا لكون قومه أو طائفته اعتقدوها أو فعلوها.

ويلزم من هذا أن المتجرد للحق يسمعه من أي كان، ويأخذ الحكمة من أي فم خرجت، ومن أي بلد صدرت.. فهمه الحكمة لا قائلها، ولا مصدرها.. ويلزمه أيضا أن يدور مع الحق حيثما دارت الحقيقة، فبوصلته هي الحقيقة، لا من يزعم أنه يمثلها.

---

[1] تحف العقول: 514

وقد ذكر القرآن الكريم الميزان الدال على التجـرد للحـق، والتخلص من الأنانية والقومية والعصـبية، فقـال: لا تَجِـدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ يُـوَادُّونَ مَنْ حَـادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ(المجادلة:22)

ويعقب القرآن الكـريم مبينـا العـوض الإلهي لهـؤلاء الـذين بـاعوا الفـرح والزهـو بالقوميـة والشـعوبية والعشـائرية بفـرح الانتمـاء للـه رب العـالمين، وهـو جـزاء لا يمكن تصـوره، إلا من ذاقــوه، قـال تعـالى: أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُـوبِهِمُ الْإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْـهُ أُولَئِكَ حِـزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِـزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادلة:22)

واحذر كذلك ـ أيها المريد الصادق ـ وأنت في غمرة فرحك بطائفتـك الـتي تتـوهم أن اللــه هـداك إليهـا، من أن تجـور في أحكامك، أو تحكم لطائفتك على حساب غيرهـا، فقـد نهى اللـه تعالى عن ذلك، فقال: يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا كُونُـوا قَـوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْـدِلُوا اعْـدِلُوا هُــوَ أَقْــرَبُ لِلتَّقْــوَى وَاتَّقُــوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُــونَ [المائـدة: 8]، فالآيـة الكريمـة تعتـبر العدالـة ركنـا من أركـان التقوى، ثم تطـالب بتعميم العدالـة على الجميـع حـتى على من يبدون العداوة لنا.

ولذلك وبخ الله اليهود لتمييزهم بين البشر، فقــال: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْـهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَــالُوا لَيْسَ عَلَيْنَــا فِي الْأُمِّيِّينَ سَـــبِيلٌ وَيَقُولُـــونَ عَلَى اللَّهِ الْكَـــذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [آل عمران: 75]

ويدخل في هذا الباب أولئـك الـذين يرمـون الأحفـاد بجـرم

الأجداد، فيحملونهم أوزار أسلافهم، مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164]

ويدخل فيهم أيضا أولئك العنصريين الذين يرددون من غير شعور مع الشاعر الجاهلي قوله:

وهل أنا إلا من غزية   غويت، وإن ترشد

أو ذلك الذي قال:

قوم إذا الشر أبدى   طاروا إليه زرافات

وقال الآخر:

لا يسألون أخاهم   في النائبات على ما

أولئك الذين حذر منهم رسول الله ﷺ، فقال: (إن الله عز وجل أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس بنو آدم وآدم من تراب مؤمن تقي وفاجر شقي، لينتهين أقوام يفتخرون برجال إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع النتن بأنفها)(1)

وقال: (أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحدكم، كلكم بنو آدم ليس لأحد على أحد فضل الا بالدين أو تقوى، وكفى بالرجل أن يكون بذيا فاحشا بخيلا)(2)

وقال: (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)(3)

1() رواه أحمد والبيهقي.

2() رواه أحمد والبيهقي.

3() رواه مسلم.

هذه وصيتي إليك ـ أيها المريد الصادق ــ فالزمهـا، حـتى لا تكون العنصرية والطائفية حجابا بينك وبين ربك، وحتى لا تحــول بينك وبين العبودية التي هي مقصد وجودك، وحتى لا تحول بينك وبين المراتب الرفيعـة الـتي يمكنـك أن تنالهـا بصـدق إخلاصـك وانتسابك لنبيك ﷺ.

التنازع والتفرق

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن التنازع والتفرق والخلاف والشقاق، وآثارها في النفس والمجتمع، وكيفية حماية النفس منها، أو علاجها إن وقعت فيها..

وجوابا على أسئلتك الوجيهة أذكر لك أن ما ذكرته من مثالب من الحجب العظيمة التي تحول بين الإنسان والسير إلى الله، أو التحقق بما يناله السائرون من مواهب إلهية، ومعارف ربانية، وسمو أخلاقي، وقرب من الله وأوليائه الصالحين.

ولذلك؛ فإن أبعد الخلق عن الله مثيرو الفتن، وزارعو الشقاق، ومروجو الخلاف، حتى لو كانوا يقومون كل الليل، ويصومون جميع الدهر، ولا تفتر ألسنتهم عن ذكر الله، ذلك أن مراد الشيطان الأعظم هو الفتنة، ولا يهمه إن قاد تلك الفتنة من ظهر بمظهر العبادة والزهد، أو بمظهر الفسق والفجور.

بل إن الشيطان ـ أيها المريد الصادق ــ قد يكون ميله لأولئك الذين يختصرون العبادة في تلك المظاهر أشد، لأن بلوغه من خلالهم إلى قلوب الناس وعقولهم أيسر وأسهل.

ولذلك عندما ذكر رسول الله ﷺ بعض مثيري الفتن في هذه الأمة، لم يرمهم بالتقصير في تدينهم الشعائري، وإنما رماهم بالقصور العقلي، والسفاهة الدينية، فقال: (يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليست قراءتكم الى قراءتهم شيئا، ولا صلاتكم الى صلاتهم شيئا، ولا صيامكم الى صيامهم شيئا، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية)[1]

1() رواه مسلم وابو داود وابو عوانة.

وأخبر رسول الله ﷺ أن أكبر مآسي الأمة وانحرافاتها ستكون بيد أولئك الذين يشوهون الدين ويملؤونه بالتحريفات، فقال: (إنَّ أخوف ما أخاف على أمَّتي كلّ مُنافق عليم اللِّسان)[1]، وقال: (إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الأئمَّة المضلُّون)[2]

بل إن رسول الله ﷺ أمرنا ألا نقف مكتوفي الأيدي أمامهم، وإنما دعانا إلى استعمال كل الوسائل للتحذير منهم، ففي الحديث: (يخرج في آخر الزمان قوم كأن هذا منهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية، سيماهم التحليق، لا يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، هم شر الخلق والخليفة)[3]

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن من الأسس الكبرى للتفريق بين المحافظين على الإسلام المحمدي الأصيل، وغيرهم من المفتونين هو في الموقف من المثلبين اللذين ذكرت.. فمن وقع فيهما خرج إلى الفتنة، حتى لو بدا في ظاهره من العباد والزهاد والعارفين والممتلئين بالتقوى.

ذلك أن وصية الله العظمى لهذه الأمة هي الدعوة إلى وحدتها، وصفاء قلوبها، وتمسكها بمنهج ربها، والبعد عن كل ما يثير الحساسيات بينها.

لقد قال الله تعالى في ذلك موصيا ومحذرا: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا

1() رواه الطبراني في الكبير والبزار ورواته محتج بهم في الصحيح.

2() رواه أحمد وغيره.

3() رواه ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي والطبراني في الكبير والحاكم.

حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (آل عمران:103)

وهكذا كانت وصية رسول الله ﷺ لأمته، بحفظ وحدتها وتماسكها وإشاعة السلام بينها، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ خطب النّاس يوم العيد، فقال: (يا أيّها النّاس، أيّ يوم هذا؟) قالوا: يوم حرام. قال: (فأيّ بلد هذا؟) قالوا: بلد حرام. قال: (فأيّ شهر هذا؟) قالوا: شهر حرام. قال: (فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا). فأعادها مرارا. ثمّ رفع رأسه، فقال: (اللّهمّ هل بلّغت؟ اللّهمّ هل بلّغت؟)، قال ابن عبّاس: (فو الّذي نفسي بيده، إنّها لوصيّته إلى أمّته فليبلّغ الشّاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفّارا يضرب بعضكم رقاب بعض)

وفي حديث آخر أخبر ﷺ عن تأثر المسلمين بما حصل للأمم الأخرى من التشقق والتصدع، فقال: (عسى أن تدركوا زمانا حتى يغدى على أحدكم بجفنة، ويراح عليه بأخرى، وتلبسون أمثال أستار الكعبة)، قالوا: يا رسول الله، أنحن اليوم خير أم ذاك اليوم؟ قال: (بل أنتم اليوم خير، أنتم اليوم متحابون، وأنتم يومئذ متباغضون، يضرب بعضكم رقاب بعض) (1)

بل أخبر ﷺ عن الكثير من التفاصيل المرتبطة بما يحدث في الأمة من شقاق وصراع، فقال: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، وإنّه سيخرج في أمّتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء، كما يتجارى الكلب(2)

1() رواه احمد، والحاكم وصححه، والبيهقي.

2() يتجارى الكلب: الكلب داء يعرض للكلب، إذا عض حيوانا عرض له أعراض قاتلة، فإذا تجارى بالإنسان هلك.

بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلّا دخله)[1]

وفي حديث آخر يروى أن رسول الله ﷺ خطّ خطّا ثمّ قال: (هذا سبيل الله)، ثمّ خطّ خطوطا عن يمينه وعن شماله ثمّ قال: (هذه سبل، على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثمّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153])[2]

إياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تتوهم أن رسول الله ﷺ ترك أمته في عماية من أمرها، لا تستطيع التفريق بين المحقين والمبطلين، والسائرين على السراط المستقيم والمنحرفين عنه، كلا.. فيستحيل على الناصح الأعظم الحريص عليها أن يفعل ذلك.

بل إنه فعل ذلك، وفي أحاديث كثيرة، توضح أن الطائفة التي لا تتميز عن غيرها، وتحرص على وحدة الأمة، وتبذل نفسها في سبيل ذلك، هي الحقيقة بوراثة رسول الله ﷺ؛ فيستحيل أن يرثه من ينشر الفتن والتفرقة والطائفية.

ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (خيار عباد الله الّذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار عباد الله المشّاءون بالنّميمة، المفرّقون بين الأحبّة، الباغون للبرآء العنت)[3]

فهذا الحديث يشير إلى أن هذه الطائفة الخيرة تمثل الدين أحسن تمثيل، لذلك يذكر كل من رآها الله، ووصف الطائفة الشريرة بالنميمة والتفرق دليل على خلو الطائفة

[1] () أبو داود(4597) وأحمد(4/ 102) برقم(16940)

[2] () أحمد(435، 465) ، وابن حبان(1741) ، والحاكم(2/ 318) وأقره الذهبي.

[3] () أحمد(4/ 227) (6/ 459)

الأولى منها.

بل إن هذا الحديث يشير إلى شر الطوائف، وهم من عبر عنهم رسول الله ﷺ بقوله: (الباغون للبرآء العنت)، أي الطالبون العيوب القبيحة للشرفاء المنزهين عن الفواحش، وهذا لا ينطبق إلا على أولئك الطائفيين الذين يزورون الحقائق ليفرقوا صف الأمة، وينشروا الفتنة بينها.

وبذلك، فإن رسول الله ﷺ في هذا الحديث يذكر للطائفة الشريرة ثلاث صفات: **أولها** السعي بالفساد وحب الشقاق وإيقاد نار العداوة.. وثانيها إثارة الخصام والتنافر بين المتصافيين.. وثالثها كيل التهم للأبرياء والكذب والبهتان عليهم.

بل إن القرآن الكريم أشار إلى سمات الطائفة الخيرة الحريصة على الوحدة بين المسلمين، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: 54]

فهذه الآية الكرية تصف هؤلاء المستبدل بهم عندما يرتد الناس، ويتخلفوا عن شريعة ربهم، بكونهم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وهو دليل على احترامهم لجميع المؤمنين، ومن جميع الطوائف، وحرصهم على الوحدة بين المسلمين.

وبذلك فإن هذه الطائفة هي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: 32]، وقوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) (1)

(1) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.

ولـذلك، فـإن من أولى أولويـات السـلوك إلى اللـه البحث عن هذه الطائفة، والسـير معهـا، وخذمـة الأمـة من خلالهـا؛ فلا يمكن أن يفتح الله تعالى على مؤمن طرق الهداية، وهو يحمــل الأحقاد على إخوانه المسلمين، أو يثير النعـرات بينهم، أو يفـتي أو يزكي من يقتلهم ويبيدهم.. فهو بـذلك قاتـل وظـالم شـعر أو لم يشعر.

إذا علمت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ وأردت أن تلتحـق بتلك الطائفة الخيرة التي ورثت رسـول اللـه ﷺ أحسـن وراثـة، فاسمع لمـا سـأورده لـك من أدويـة مقدسـة تفيـدك في دنيـاك وأخراك، حتى تلقى الله وأنت سليم القلب على كل مسلم، بل على كل إنسان.

العلاج المعرفي:

أول علاج تنطلق منه ـ أيها المريـد الصـادق ــ للتخلص من هذا المثلب الخطير، وثمـاره الممتلئـة بالسـمية هي أن تعلم أن السـاعين في الفرقـة والناشـرين للفتن محـاربين للـه تعـالى، ومتشبهين بالشيطان، ذلك أن الله تعالى أخبر أنـه الـذي يؤلـف بين القلوب، فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَـا فِي الْأَرْضِ جَمِيعــاً مَــا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُــوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيــزٌ حَكِيمٌ﴾ (لأنفال:63)، وهو يـدل على أن السـاعي لـذلك متخلـق بهذا الخلق الرباني العظيم.

وبخلافه الذي يفرق ويفتن وينشر القطيعة، فهـو سـاع في خلاف النعمـة الإلهيـة، وهـو متشـبه بالشـيطان، كمـا قـال اللـه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَـدَاوَةَ وَالْبَغْضَـاءَ ﴾ [المائدة: 91]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إنّ الشّيطان قد أيس أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب، ولكن في التّحريش بينهم[1])[2]

وقال في حديث آخر: (إنّ إبليس يضع عرشــه على المــاء، ثمّ يبعث ســراياه. فأدنــاهم منــه منزلــة أعظمهم فتنــة. يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا. فيقول: ما صـنعت شـيئا. قـال: ثمّ يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتّى فرّقت بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت)[3]

ولذلك؛ فإن ما يمـيز أوليـاء اللـه عن أوليـاء الشـيطان هـو التآلف والتنازع؛ فأولياء الله هم الساعون لتأليف القلوب ونشـر المحبة، وأولياء الشيطان هم السـاعون لنشـر البغضـاء والفتنـة والصراع.

وهم يشبهون في ذلك اليهود الذين عاصـرهم رسـول اللـه ﷺ، واستعملوا كل الوسائل للتفريق والفتنـة، ومن الأمثلـة على ذلك ما فعله شاس بن قيس ـ وكان شيخاً يهودياً شديد الضــغن على المسلمين ـ حيث مر على نفر من أصحاب رسول اللـه ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قــد جمعهم، يتحــدثون، فغاظـه ما رأى من ألفتهم وجمـاعتهم وصـلاح ذات بينهم على الإسـلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: (قد اجتمـع ملأ بني قَيْلَةَ بهذه البلاد، لا والله ما لنـا معهم إذا اجتمـع ملـؤهم بها من قرار)، فأمر فتي شاباً من يهود كان معه، فقـال: (اعمـد إليهم، فـاجلس معهم، ثم اذكـر يـوم بُعَـاث ومـا كـان من قبلـه، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار)، ففعـل، فتكلم

[1] () ولكن في التحريش بينهم: أي ولكنه يسعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن وغيرها.

[2] () مسلم(2812)

[3] () مسلم(2813)

القـوم عنـد ذلـك، وتنـازعوا وتفـاخروا حـتى تـواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: (إن شـئتم رددناها الآن جَذَعَة)، يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية الـتي كـانت بينهم، وغضـب الفريقـان جميعـاً، وقـالوا: (قـد فعلنـا، موعدكم الحَرَّة.. السلاح السلاح)، فخرجوا إليها، وكادت تنشـب الحرب.

فبلـغ ذلـك رسـول اللـه ﷺ، فخـرج إليهم فيمن معـه من أصحابه المهاجرين حتى جـاءهم فقـال: (يـا معشـر المسـلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم اللـه للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم) [1]

فعرف القوم أنها نزغـة من الشـيطان، وكيـد من عـدوهم، فبكـوا، وعـانق الرجـال من الأوس والخـزرج بعضـهم بعضـاً، ثم انصرفوا مـع رسـول اللـه ﷺ سـامعين مطيعين، قـد أطفـأ اللـه عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس.

هل رأيت ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ الفـرق بين أوليـاء اللـه وأوليـاء الشـيطان في هـذه الحادثـة؛ فأوليـاء اللـه يسـعون في التأليف بين القلوب، وفي منع أي شيء يثـير البغضـاء والأحقـاد والفتن، ولا يفرحـون إلا إذا رأوا النـاس يبتسـم بعضـهم لبعض، ويصافح بعضهم بعضا.

أما أولياء الشـيطان، فهم الـذين يسـتعملون كـل الوسـائل لقطع ما أمر الله أن يوصل، وهـدم مـا أمـر اللـه أن يبـنى، ولـو كان ذلك عن طريق بناء المساجد، كما قال تعالى عن المسـجد الذي بناه المنافقون والمشركون واليهود وكـل أعـداء الإسـلام، لحرب الإسلام من داخله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا

[1] سيرة ابن هشام (1/ 556)

وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 107]

لا تحسب ـ أيها المريد الصادق ـ أن ذلك هو مسجد الضرار الوحيد، بل إن مساجد الضرار في هـذا العصـر وفي غيرهـا من العصـور، أكـثر من أن يعـدها العـاد.. فكـل مسـجد يصـبح محلا للفتنة، لا للسلام.. ولتشـتيت القلـوب، لا لطمأنينتهـا.. ولتفريـق الأمة، لا لتوحيدها هو مسجد ضرار، وضرره أكثر من نفعه.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن السـبب الأكـبر في تخلـف الأمـة، ومـا حصـل فيهـا من الفتن والإرهـاب والعنف ليس له سبب سوى ذلـك التنـازع والتفـرق الـذي غـذاه الشيطان بين المؤمـنين، وبقيـادة من يعتـبرون أنفسـهم ــ زورا وبهتانا ـ أولياء للأمور، سواء كانوا من الحكام أو العلماء.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك، فقال: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152]

وهي تشـير إلى أن التنـازع والتفـرق هـو السـبب في كـل فشل وقعت فيه الأمة، سواء في قيمهـا وأخلاقهـا، أو في دينهـا وإيمانها..

ولهـذا ورد في الحـديث عن ابن عبّـاس قـال: لمّـا اشـتدّ بالنّبيّ ﷺ وجعه قـال: (ائتـوني بكتـاب أكتب لكم كتابـا لا تضـلّوا بعده) قـال عمـر: إنّ النّـبيّ ﷺ غلبـه الوجـع وعنـدنا كتـاب اللـه حسبنا، فاختلفوا وكثر اللّغط، فقال ﷺ: (قومــوا عنّي، ولا ينبغي

عندي التّنازع)، فخرج ابن عبّاس يقول: (إنّ الرّزيّـة كـلّ الرّزيّـة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه)(1)

فانظر ـ أيها المريد الصادق ـ كيف تسبب ذلـك الـنزاع في حرمان الأمة من وصية نبيها، تلك الوصـية الـتي وصـفها بكونهـا صمام الأمان الذي يحفظها من الضلالة.

وهكذا ورد في حديث آخر بيان أثر النزاع في حرمانهـا من معرفـة ليلـة القـدر، الـتي هي خـير من ألـف شـهر؛ عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنـه قـال: خـرج رسـول اللـه ﷺ ليخبرنـا بليلـــة القـــدر فتلاحى رجلان من المســـلمين فقـــال: (خـــرجت لأخبركم بليلـة القـدر، فتلاحى فلان وفلان، فـرفعت وعسـى أن يكون خيرا لكم، فالتمسوها في التاسعة، والسابعة، والخامسة)(2)

وهكذا ورد في حديث آخر بيان أثر النزاع في الحرمان من بركات القرآن الكريم وهديه، فقد روي أنّ النّـبيّ ﷺ خـرج على أصحابه، وهم يتنازعون في القدر هذا ينزع آيـة وهـذا يـنزع آيـة، فقال بعضهم: ألم يقل الله كـذا وكـذا، وقـال بعضـهم: ألم يقـل الله كذا وكذا، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فخرج كأنّما فقيء في وجهه حبّ الرّمّـان فقـال: (بهـذا أمـرتم أن تضـربوا كتـاب اللـه بعضه ببعض! إنّما ضلّت الأمم قبلكم في مثل هـذا، إنّكم لسـتم ممّا ههنا في شيء، انظروا الّذي أمرتم به فـاعملوا بـه، والّـذي نهيتم عنه فانتهوا)(3)

(1) البخاري [فتح الباري]، 1(114)

(2) البخاري: 2023.

(3) أحمد في المسند(2/ 196) ح(6857)، وله شاهد عند ابن ماجه(85) عن ابن عمرو، وقال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

وهذا الحديث ـ أيها المريد الصادق ـ يشير إلى أخطر أنواع النزاع، وهو ذلك النزاع الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 67]، وهو اعتبار رسول الله ﷺ شخصا عاديا يمكن مناقشته وانتقاده ورد ما يقول، والغفلة عن كونه رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، ولذلك أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالرد على من ينازعونه بقوله: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: 68، 69]

ولذلك؛ فإن كل ما حصل من صراع وفتنة وضلال في الأمة سببه التقديم بين يدي الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 24، 25]

وقد ضرب الله تعالى للمؤمنين بذلك المثل الذي حصل في غزوة أحد، عندما خالف الرماة أوامر رسول الله ﷺ، وتسببهم في الهزيمة التي كادت تودي بالإسلام والمسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152]

وقد ورد في الحديث عن بعض أصحاب رسول الله ﷺأنه قال: جعل النّبيّ ﷺ على الرّجّالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلا، عبد الله بن جبير فقال: (إن رأيتمونا تخطفنا الطّير فلا تبرحوا

مكـانكم هـذا حتّى أرسـل إليكم، وإن رأيتمونـا هزمنـا القـوم وأوطأنـاهم فلا تـبرحوا حتّى أرسـل إليكم)، فهزمـوهم، فقـال أصحاب ابن جبير: الغنيمة أي قوم! الغنيمة؛ ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم مـا قـال لكم رسـول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنـأتينّ النّـاس فلنصـيبنّ من الغنيمـة فلمّـا أتوهم صـرفت وجـوههم، فـأقبلوا منهـزمين، فـذاك إذ يـدعوهم الرّسول فى أخـراهم، فلم يبـق مـع النّـبيّ ﷺ غـير اثـني عشـر رجلا، فأصابوا منّا سبعين[1].

هذا الحديث ليس خاصا بغزوة أحد ـ أيها المريـد الصـادق ـ بل هو درس وعـبرة وإخبـار بكـل مـا وقـع في التـاريخ والواقـع الإسلامي من مآس.. فرسول الله ﷺ وورثته الصادقون بريئـون منها، لأن الذي تسـبب فيهـا هم أولئـك الـذين لم يعطـوا النبـوة حقها، فراحوا يقدمون آراءهم واجتهـاداتهم وظنـونهم وأهـوائهم على مـا ورد في كتـاب ربهم وسـنة نـبيهم ﷺ وهـدي ورثتـه الصادقين الذين أوصى بهم، ودل عليهم.

وقد أخبر الله تعالى عن ذلك، وحذر منه، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَـزَّلَ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُـوا فِي الْكِتَـابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة: 176]

وأخبر عن منابع ذلك الشقاق، فقال: ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَـاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًـا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَـا كَـانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُـونَ ﴾ [الجاثيـة: 17]

العلاج السلوكي:

[1] () البخاري [فتح الباري]، 6(3039)

إذا عـرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ وتـوفرت فيـك العزيمــة على حمايــة نفســك من هــذين المثلــبين الخطــيرين؛ فاستشــعر صــلتك برســول اللــه ﷺ، واجعلــه قائــدك الأعلى، وقـدوتك الأعظم، واعتـبر نفسـك جنـديا من جنـوده الحريصـين على وحدة أمته، والمحافظين على صفاء دينه.

ولذلك لا تتعامل مع أفراد أمته وفق ما أداك إليه اجتهــادك وبحثك ونظرك، فليسـوا كـل النـاس لهم من القـدرات مـا لـك؛ فلذلك احرص على أن تتعامل معهم بالرحمة والألفة والمحبــة.. لا بكونك صاحب الحق المطلق، وهم أصحاب الباطل المطلق.

واعتبر بما فعله هارون عليـه السـلام وحرصـه على وحـدة بني إسرائيل، كما قال تعالى مخبرا عن عـذره في موقفـه ممـا فعله السامري: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِــي إِنِّي خَشِــيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: 94]

وهكذا أخبر رسـول اللـه ﷺ عن مراعاتـه لقومـه في بعض الأمور الجزئيـة، خشـية الفتنـة عليهم، ففي الحـديث أن رسـول الله ﷺ قال لعائشة: (لولا أن قومك حديثوعهـد بجاهليـة لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابهـا بـالأرض ولأدخلت فيهـا من الحجر)[1]، فقد امتنع ﷺ من تجديد بناء الكعبـة خشـية فتنـة من أسلم حديثا.

وهكذا فعـل أئمـة الهـدى من بعـده، والـذين حرصـوا على حفــظ رســول اللــه ﷺ في أمتــه، وقــد روي أنــه قيــل للإمــام الصادق: إن لنا إماماً مخالفاً، وهو يبغض أصـحابنا كلهم؟ فقـال: (ما عليك من قوله، والله لئن كنت صادقاً لأنت أحــق بالمســجد منه، فكُنْ أول داخل وآخـر خـارج، وأحسـن خلقـك مـع النـاس،

[1] مسلم، رقم [401]

وقُلْ خيراً)(1)

وقال مخاطبا أحـد أتباعـه: (يـا إسـحاق، أتصـلي معهم في المسجد؟) قلت: نعم، فقال: (صـلِّ معهم؛ فـإن المصـلي معهم في الصف الأول كالشاهر سيفه في سبيل الله)(2)

وقال: (أوصيكم بتقـوى اللـه عـز وجل، ولا تحملـوا النـاس على أكتـافكم فتـذلّوا، إن اللـه تبـارك وتعـالى يقـول في كتابه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْـناً﴾، ثم قـال: (عـودوا مرضـاهم، واشـهدوا جنـائزهم، واشـهدوا لهم وعليهم، وصـلّوا معهم في مسـاجدهم)(3)

وقـال: (خـالقوا النـاس بـأخلاقهم، صـلّوا في مسـاجدهم، وعودوا مرضاهم، واشهدوا جنـائزهم، وإن اسـتطعتم أن تكونـوا الأئمة والمـؤذِّنين فـافعلوا، فـإنكم إذا فعلتم ذلـك قـالوا: هـؤلاء الجعفرية، رحم الله جعفراً مـا كـان أحسـن مـا يـؤدِّب أصـحابه. وإذا تركتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، فعل الله بجعفر مـا كـان أسوأ ما يؤدِّب أصحابه)(4)

وقد ذكر الإمـام مالـك كيفيـة معاملـة الإمـام الصـادق لـه، فقال: (والله مـا رأت عيـني أفضـل من جعفـر بن محمـد زهـداً وفضلاً وعبادة وورعاً، وكنت أقصده فيكرمني ويقبل عليّ)(5)

وقال: (كنت أدخل إلى الصادق جعفر بن محمد فيقـدم لي

1() وسائل الشيعة، حديث رقم 10721.

2() وسائل الشيعة، حديث رقم 10723.

3() وسائل الشيعة، حديث رقم 10724.

4() جامع أحاديث الشيعة، حديث رقم 10995.

5() بحار الأنوار 47: 20.

مخدّة ويعرف لي قدراً، ويقول: يا مالك، إني أحبّك، فكنت أُسَـرُّ بذلك، وأحمد الله عليه)(1)

هكذا كان أئمة الهدى، وورثـة النبـوة؛ فإيـاك أن تقـع فيمـا وقع فيه من يزعمـون أنهم أتبـاعهم، لكنهم أبعـد النـاس عنهم.. فالصــادق في اتبــاعهم هــو الحــريص على الأمــة ووحــدتها، والساعي في خدمتها ومصالحها.

ولا تكتف بذلك ـ أيها المريد الصادق ــ بـل اسـع لأن توحـد قلوب المؤمنين، وتجمـع صـفهم، وتقـرب بينهم وبين مـذاهبهم، فـذلك من أفضـل الأعمـال الصـالحة، ولا تنظـر لمن ينهـاك عن ذلك أو يحذرك منه، فهو لا يعرف الدين ولا قيمه.

ولو أن أولئك الذين يحذرون من هذا قرأوا القـرآن الكـريم لعرفوا أن من أغراض التنوع والاختلاف بين البشـر التعـارف، لا الصراع، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: 13]، فالآيـة الكريمـة لا تـدعو إلى التقارب بين المـذاهب في الـدين الواحـد فقـط، بـل تـدعو إلى التقارب بين الأمم والشعوب جميعـا بمختلـف أديانهـا وأعراقهـا وتوجهاتهـا الفكريـة، لأنـه لا يمكن للبشـر أن يحققـوا كمـالهم الإنساني في ظل الصراع والتباعد.

وهكذا أخبر الله تعالى عن الرسالة العالميـة لرسـول اللـه ﷺ.. كمـا قـال تعـالى: ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَـةً لِلْعَـالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وهذا يقتضي من المسلمين العمل على كل مـا ييسر وصول هذه الرحمة الإلهية للناس أجمعين، وذلك لا يكـون إلا بالتقارب والتآلف معهم، بل والصبر عليهم حـتى تصـل إليهم الرسالة مضمخة بعطر الرحمة والألفة والمودة.

(1) بحار الأنوار 47: 16.

وهكذا أخبر الله تعالى عن الرسالة الكبرى التي أناط بها هذه الأمة، وهي مهمة الشهادة على الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: 143)، وهي تعني أن يقوم المسلمون بنفس الدور الذي قام به رسول الله ﷺ نحو الأمم المختلفة، لتنصاع لأمر الله بمحبة ومودة، لا بشدة وإكراه.

وقد قال تعالى يبين كيفية أداء رسول الله ﷺ لدوره الدعوي مع العرب الذين عاش معهم، والمعروفين بشدتهم وغلظتهم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]، فهل يتصور عاقل بأن يدخل العرب إلى دين الله باللين والرحمة، ويدخل غيرهم فيه بالشدة والعنف؟

ولهذا دعا الله تعالى الدعاة إلى استعمال كل أساليب الهداية ووسائلها، والتي اجتمعت في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125]، وهذه الوسائل والأساليب جميعا تستدعي التقارب، لأنه لا يمكن أن نعظ أو نحاور ونخاطب من تحول بيننا وبينه الحجب المادية والمعنوية الكثيرة.

بل إن القرآن الكريم لم يكتف بذلك جميعا، وإنما ذكر لنا نماذج الحوار مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، مع ما يحملونه في عقائدهم مشوهة لله، ممتلئة بالتجسيم والتشويه، ومع ذلك يقول الله تعالى داعيا إلى التقارب معهم: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ

تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [آل عمران: 64]

انظر ـ أيها المريد الصادق ـ كيف اعتبر الله تعـالى إلههم ـ أي إلـه اليهـود والنصـارى ـ هـو نفسـه إلـه المسـلمين مـع مـا يحملونـه في دينهم عن اللـه من تشـويه، ومـع ذلـك لم يقطـع الصلة بهم، بل لم يقطعها حتى بعد رفضهم لتلك الدعوة، فليس في النصوص القرآنية أي دعـوة لقطـع العلاقـة مـع أي دين من الأديان، أو شعب من الشـعوب إلا مـع المحـاربين الـذين يـأبون الحديث إلا بلغة السيف.

إذا وعيت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن سـعيك للوحدة وتأليف القلوب لا يعني أن ترضـي من تحـاوره، فلا تـرد له رأيا، ولا تفند له حجة، حرصا على قلبه؛ فالأمر ليس كــذلك.. بل إن التنازع في مثل هذا مشروع، ولا حرج فيه، ولــو أدى إلى غيظ محاورك، ما دمت ملتزما بالأدب معه.

ولهذا وصف الله تعالى المؤمنين بالتنازع، ولم ينفـه عنهم، فقال: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ ذَلِـكَ خَيْـرٌ وَأَحْسَـنُ تَـأْوِيلًا [النساء: 59]

لكنه بين أنه في حال تنازعهم يرجعون لله ورسـوله وأولي الأمـر منهم.. فـإن فعلـوا ذلـك كـان نـزاعهم طيبـا، ومشـروعا، لكنهم إن لم يفعلـوا، واسـتبدوا بـآرائهم وأهـوائهم، يكونـون في ذلك الحين قد وقعوا في النزاع الحقيقي المحرم.

ومن هذا النوع من النزاع المشروع، مـا أخـبر اللـه تعـالى من الخلاف الذي وقع بين قـوم أهـل الكهـف من المؤمـنين في كيفية تكريمهم، قال تعالى: وَكَـذَلِكَ أَعْثَرْنَـا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُـوا أَنَّ

وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُـوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًـا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَـالَ الَّذِينَ غَلَبُـوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: 21]

لكن هذا ـ أيها المريد الصادق ــ لا يكـون إلا بصـحبة الأدب والأخلاق الرفيعة وطهارة النفس من كل مـا يسـيء إلى الألفـة والمحبة والأخوة.. فـإن حصـل ذلـك كـان التنـازع مرضـا ومثلبـا خطيرا.

هذه وصيتي إليك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاحرص على تنفيذها، وطهر قلبك على جميع الخلق إلا من أمـرت بعـداوتهم، فعادهم باسم اللـه لا باسـمك، وإيـاك أن تجعـل من البغض في الله وسيلة لملء قلبك بالأحقاد.. فـالبغض في اللـه لا يكـون إلا في القلـوب الطـاهرة الـتي لا تتصـرف مشـاعرها إلا وفـق مـا يرضاه الله.

العقوق والقطيعة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن العقوق والقطيعة، وسر ما ورد في النصوص المقدسة من التحذير منهما، وعلاقة ذلك بما ورد في رسائلي السابقة إليك من الحديث عن التنازع والتفرق، أو العنصرية والطائفية.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن العقوق والقطيعة مثلبان من المثالب المرتبطة بالعدوان، وهما يشتركان مع ما ذكرت من مثالب، وتنطبق عليهما جميع ما ورد فيهما من أنواع العقوبة، ولا يختلفان عنهما إلا في المجال الذي يكون فيه ذلك العدوان.

أما الطائفية والعنصرية، وقريب منهما التنازع والتفرق، فترتبط بالبشر جميعا، أو بالمسلمين وعلاقتهم ببعضهم، أو بغيرهم، بينما العقوق والقطيعة مرتبطان بالأسرة الصغيرة، والعائلة الكبيرة، التي يعيش فيها من اتصف بهذا المثلب.

ذلك أن من مقاصد الشريعة الحكيمة توفير الجو المناسب لأداء التكاليف، وتربية النفس على القيم النبيلة، ووضع الأمور في مواضعها، لتصبح الأسرة سكنا للإنسان، يطمئن فيه ويرتاح، لينشغل بما خلق من أجله، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:21)

وكل ذلك لا يمكن تحقيقه في أسرة مفككة يدب الصراع بين أفرادها، وتملأ البغضاء جنبات علاقاتهم، ولا يحترم بعضهم بعضا.

ولذلك كانت القطيعة والعقوق، وما ارتبط بهما من صفات ومثالب، مضادان لمقاصد الشريعة في هـذا البـاب، وكـان لهمـا بذلك التأثير السلبي الخطير على نفس الإنسان، وتزويدها بكـل الأمراض.

وبنـــاء على طلبـــك الصـــادق، فســـأذكر لـــك مـــا ورد في النصوص المقدسة حولهما، ليكونا علاجا ووقاية لـك، ولكـل من اطلع على رسالتي إليك.

القطيعة وعلاجها:

أمـا القطيعـة؛ فقـد ورد في القـرآن الكـريم مـا يـدل على اعتبارها من الآثام العظمى التي لا تهـدد بفسـاد صـاحبها فقـط، وإنما بفساد الأرض جميعا، كما قـال تعـالى: فَهَـلْ عَسَـيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (محمد:22)

ولذلك يقرن بين تقوى الله والرحم، وكأنه يقول: (لا تقـوى لمن لم يصل رحمـه)، قـال تعـالى: يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَبَثَّ مِنْهُمَـا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (النساء:1) أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

ولذلك يعتبر القاطعين لرحمهم من الخاسرين، قال تعالى: الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَـرَ اللَّهُ بِـــهِ أَنْ يُوصَـــلَ وَيُفْسِـــدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِـــرُونَ (البقرة:27)

بــل إن عقوبــة القــاطعين أعظم من ذلــك، قــال تعــالى: وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْـدِ مِيثَاقِـهِ وَيَقْطَعُـونَ مَـا أَمَـرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَـلَ وَيُفْسِـدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَـةُ وَلَهُمْ

سُوءُ الدَّارِ (الرعد:25)

وفي مقابل ذلك وصف الله تعالى المؤمنين بالصلة، فقال: وَالَّذِينَ يَصِـلُونَ مَـا أَمَـرَ اللَّهُ بِـهِ أَنْ يُوصَـلَ وَيَخْشَـوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (الرعد:21)

وتأكيـدا لهـذه المعـاني وردت الأحـاديث النبويـة الشـريفة تشدد على قطع الرحم، وتعتـبره من الكبـائر الـتي رتبت عليهـا العقوبات التي تنزجر لهولها النفوس، ففي الحديث عن رســول الله ﷺ أنه قال: (إن الله تعالى خلق الخلق حـتى إذا فـرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قـالت بلى، قـال فـذاك لـك)، ثم قـال رسـول اللـه ﷺ: (اقـرءوا إن شـئتم: فَهَـلْ عَسَـيْتُمْ إِنْ تَـوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِـدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُـوا أَرْحَـــامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَـــمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23) (محمد)[1]

وقال ﷺ: (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم)[2]

وقال: (لا يدخل الجنة قاطع)[3]

وقال: (إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس وليلـة جمعـة فلا يقبل عمل قاطع رحم)[4]

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وابن ماجه والحاكم، وقال صحيح الإسناد.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه أحمد.

وقال: (ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن الخمـر وقـاطع الـرحم ومصدق بالسحر)(1)

وقال: (يبيت قوم من هذه الأمـة على طعم وشـرب ولهـو ولعب، فيصبحوا قد مسخوا قـردة وخنـازير، وليصـيبنهم خسـف وقذف حتى يصـبح النـاس، فيقولـون: خسـف الليلـة ببـني فلان وخسف الليلـة بـدار فلان خـواص، ولترسـلن عليهم حجـارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيهـا وعلى دور، ولترسلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عادا على قبائل فيهـا وعلى دور بشربهم الخمـر ولبسـهم الحريـر واتخـاذهم القينـات وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم)(2).

وعن جابر قال:خرج علينا رسول اللـه ﷺ ونحن مجتمعـون فقال: (يا معشـر المسـلمين اتقـوا اللـه وصـلوا أرحـامكم فإنـه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم، وإياكم والبغي فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة بغي، وإياكم وعقوق الوالـدين فـإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألـف عـام واللـه لا يجـدها عـاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جـار إزاره خيلاء إنمـا الكبريـاء للـه رب العالمين)(3)

وعنــه قــال: كنــا جلوســا عنــد رســول اللــه ﷺ فقــال: (لا يجالسنا اليوم قاطع رحم)، فقام فتى من الحلقة فأتى خالة لــه قد كان بينهما بعض الشيء فاستغفر لها فاستغفرت له ثم عــاد إلى المجلس فقـال النـبي ﷺ: (إن الرحمـة لا تـنزل على قـوم فيهم قاطع رحم)(4)

1() رواه ابن حبان وغيره.

2() رواه أحمد مختصرا وابن أبي الدنيا والبيهقي.

3() رواه الطبراني في الأوسط.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم)(1)

وقال ﷺ: (الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله)(2)

وقال: (قال الله عز وجل: أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته)(3) أي قطعته.

وقال: (إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق، وإن هذه الرحم شجنة من الرحمن عز وجل فمن قطعها حرم الله عليه الجنة)(4)

وقال: (إن الرحم شجنة(5) من الرحمن(6) تقول يا رب إني قطعت، يا رب إني أسيء إلي، يا رب إني ظلمت، يا رب يا رب، فيجيبها: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟)(7)

4() رواه الأصبهاني، ويؤيد هذا ما رواه الطبراني بسند صحيح عن الأعمش قال: كان ابن مسعود جالسا بعد الصبح في حلقة فقال : أنشد الله قاطع رحم لما قام عنه فإنا نريد أن ندعو ربنا وإن أبواب السماء مرتجة مغلقة دون قاطع رحم)

1() رواه الطبراني.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

4() رواه أحمد بإسناد صحيح.

5() الشجنة بكسر أوله وضمه وإسكان الجيم : القرابة المشتبكة كاشتباك العروق.

6() أي مشتق لفظها من لفظ اسمه الرحمن.

7() رواه أحمد بإسناد جيد قوي وابن حبان في صحيحه.

وقـال: (الـرحم حجنة(1) متمسـكة بـالعرش تتكلم بلسـان ذلق: اللهم صل من وصـلني واقطـع من قطعـني، فيقـول اللـه تبـارك وتعـالى: أنـا الـرحمن الـرحيم وإني شـققت الـرحم من اسمي فمن وصلها وصلته ومن بتكها(2) بتكته)(3)

وقال: (ثلاث متعلقات بالعرش: الرحم تقول اللهم إني بـك فلا أقطع، والأمانة تقول اللهم إني بك فلا أخان، والنعمـة تقـول اللهم إني بك فلا أكفر)(4)

وقال: (الطابع معلق بقائمة العـرش فـإذا اشـتكت الـرحم وعمل بالمعاصي واجترئ على الله ـ تعالى ــ بعث اللـه الطـابع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئا)(5)

وقال: (من كان يؤمن باللـه واليـوم الآخـر فليكـرم ضـيفه، ومن كان يـؤمن باللـه واليـوم الآخـر فليصـل رحمـه، ومن كـان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)(6)

وقال: (من سره أن يبسـط لـه في رزقـه أو ينسـأ لـه في أثره فليصل رحمه)(7)

وقال: (تعلموا من أنسابكم ما تصـلون بـه أرحـامكم، فـإن

1() الحجنة بفتح الحاء والجيم وتخفيف النون : صـنارة المغـزل، أي الحديـدة العقفـاء التي يعلق بها الخيط ثم يفتل الغزل.

2() البتك : القطع.

3() رواه البزار بإسناد حسن.

4() رواه البزار.

5() رواه البزار واللفظ له والبيهقي.

6() رواه البخاري ومسلم.

7() رواه البخاري.

صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المـال منسـأة في الأثـر)(1)، أي بها الزيادة في العمر.

وقال: (من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه ويدفع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه)(2)

وقال: (إن الصدقة وصلة الرحم يزيد اللـه بهمـا في العمـر ويدفع بهما ميتة السوء ويدفع بهما المكروه والمحذور)(3)

وعن رجل من خثعم قال: أتيت النبي ﷺ وهـو في نفـر من أصحابه فقلت: أنت الـذي تـزعم أنـك رسـول اللـه؟ قـال: نعم، قلت: يا رسول الله أي الأعمـال أحب إلى اللـه ؟ قـال الإيمـان بالله، قلت: يا رسول الله ثم ماذا ؟ قال: ثم صلة الرحم، قلت: يا رسول الله أي الأعمال أبغض إلى الله ؟ قال: الإشراك بالله، قلت: يـا رسـول اللـه ثم مـاذا ؟ قـال قطيعـة الـرحم، قلت: يـا رســول اللــه ثم مــاذا ؟ قــال: ثم الأمــر بــالمنكر والنهي عن المعروف(4).

وقال ﷺ: (إن الله ليعمر بالقوم الديار وينمي لهم الأمــوال ومـا نظـر إليهم منـذ خلقهم بغضـا لهم)، قيـل: وكيـف ذاك يـا رسول الله؟ قال: (بصلتهم أرحامهم)(5)

وقال: (إنـه من أعطي الرفـق فقـد أعطي حظـه من خـير الـدنيا والآخـرة، وصـلة الـرحم وحسـن الجـوار وحسـن الخلـق

1() رواه الترمذي.

2() رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند والبزار بإسناد جيد والحاكم.

3() رواه أبو يعلى.

4() رواه أبو يعلى بإسناد جيد.

5() رواه الطبراني بإسناد حسن.

يعمرن الديار ويزدن في الأعمار)[1]

وقيل له: يـا رسـول اللـه من خـير النـاس؟ قـال: (أتقـاهم للرب وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر)[2]

وعن أبي ذر قـال: أوصـاني خليلي ﷺ بخصـال من الخـير: (أوصاني أن لا أنظر إلى من هـو فـوقي وأن أنظـر إلى من هـو دوني، وأوصاني بحب المساكين والدنو منهم، وأوصاني أن أصل رحمي، وإن أدبرت، وأوصاني أن لا أخـاف في اللـه لومـة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مرا، وأوصاني أن أكـثر من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة)[3]

وأتى النبي ﷺ رجل فقال: إني أذنبت ذنبا عظيمـا فهـل لي من توبة؟ فقال: هل لـك من أم؟ قـال: لا، قـال: وهـل لـك من خالة ؟ قال نعم، قال: فبرها[4].

وقال ﷺ: (ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصـل الـذي إذا قطعت رحمه وصلها)[5]

وأتـاه آخـر، فقـال: يـا رسـول اللـه: إن لي قرابـة أصـل ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إلي وأحلم عليهم ويجهلـون علي، فقال: (إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ـ أي الرماد

1() رواه أحمد.

2() رواه أبو الشيخ وابن حبان والبيهقي.

3() رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له.

4() رواه ابن حبان والحاكم.

5() رواه البخاري وغيره.

الحار ـ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مـا دمت على ذلـك) (1)

وقال ﷺ: (أفضل الصدقة صدقة على ذي الـرحم الكاشـح) (2)، أي الذي يضمر عداوة في كشحه ــ أي خصـره ــ كنايـة عن باطنه.

وقال: (ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابا يسـيرا وأدخلـه الجنة برحمته) قالوا: وما هي يا رسول اللـه؟ قـال: (تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك؛ فإذا فعلت ذلــك يدخلك الجنة)(3)

وعن عقبـة بن عـامر قـال: لقيت رسـول اللـه ﷺ فأخـذت بيده فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال؟ فقـال: (يـا عقبة صل من قطعك، وأعط من حرمـك، واعـف عمن ظلمـك) (4)

وقـال ﷺ: (ألا أدلـك على أكـرم أخلاق الـدنيا والآخـرة: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وأن تعفو عمن ظلمك)(5)

وقال: (إن أفضل الفضـائل: أن تصـل من قطعـك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن شتمك)(6)

1() رواه مسلم.

2() رواه الطـبراني وابن خزيمــة في صـحيحه والحــاكم وقـال: صـحيح على شـرط مسلم.

3() رواه البزار والطبراني والحاكم وصححه.

4() رواه وأحمد بإسنادين أحدهما رواته ثقات.

5() رواه الطبراني.

6() رواه الطبراني.

وقال: (ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع به الدرجات؟) قالوا: نعم يا رسول الله؟ قال: (تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك)(1)

وقال: (أسرع الخير ثوابا البر وصلة الرحم، وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم)(2)

وقال: (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من قطيعة الرحم والخيانة والكذب، وإن أعجل البر ثوابا لصلة الرحم حتى إن أهل البيت ليكونون فجرة فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا)(3)

فاسمع ـ أيها المريد الصادق ـ لهذه النصوص المقدسة فقد قالها من لا ينطق عن الهوى، ومن هو أحرص عليك من أبيك وأمك؛ فاجعلها نصب عينيك، ولا تدع لنفسك الأمارة بالسوء أن تخالفها، أو تتلاعب بمعانيها.

العقوق وعلاجه:

ومثل ذلك العقوق؛ فقد ورد في النصوص المقدسة الكثيرة ما يملء القلوب رهبة منه، فقد قرن الله تعالى عبادته وتوحيده بالبر بالوالدين.. ولا يقرن المهم إلا بمثله(4)، قال

1() رواه البزار والطبراني.

2() رواه ابن ماجه.

3() رواه الطبراني.

4() وفي ذلك يقول ابن عباس : ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لم تقبل منها واحدة بغير قرينتها: إحداها : قوله تعالى : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (المائدة: من الآية 92)، فمن أطاع الله ولم يطع رسوله لم يقبل منه.. والثانية قوله تعالى : وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (البقرة: من الآية43)، فمن صلى ولم يزك لم يقبل منه.. الثالثة

تعالى: وَاعْبُـدُوا اللَّهَ وَلا تُشْـرِكُوا بِـهِ شَـيْئاً وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَـاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَـامَى وَالْمَسَـاكِينِ وَالْجَـارِ ذِي الْقُـرْبَى وَالْجَـارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِـالْجَنْبِ وَابْنِ السَّـبِيلِ وَمَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (النساء:36)، وقـال: قُـلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِـهِ شَـيْئاً وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَـاناً(الأنعـام: من الآية151)، وقـال: وَوَصَّـيْنَا الْأِنْسَـانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْـكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (لقمان:14)

ولهذا نهى أن يساء إليهما، ولـو أدنى إسـاءة، قـال تعـالى: وَقَضَـى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَـانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُـلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) (الاسراء:23)

انظر ـ أيها المريد الصـادق ـ كيـف نهى اللـه تعـالى حـتى على مجرد أن يقال لهما أف، ولو علم الله شيئا أدنى من (أف) لنهى عنـه.. ثم أمـر بـأن يقـال لهمـا القـول الكـريم: أي اللين اللطيف المشتمل على العطـف والاسـتمالة وموافقـة مرادهمـا وميلهما ومطلوبهما ما أمكن سيما عند الكبر، لأن الكبـير يصـير كحال الطفل لما يغلب عليـه من الخـرف، فـيرى القـبيح حسـنا والحسن قبيحا، فإذا طلبت رعايته وغايـة التلطـف بـه في هـذه الحالة وأن يتقرب إليه بما يناسب عقله إلى أن يرضى.

ثم أمر تعالى بعد القول الكريم بأن يخفض لهما جناح الذل من القـول بـأن لا يكلمهمـا إلا مـع الاسـتكانة والـذل والخضـوع وإظهار ذلك لهما واحتمال ما يصدر منهما، ويريهما أنه في غايـة

قوله تعالى : أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ (لقمان: من الآية14)، فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يقبل منه.

التقصير في حقهما وبرهما، وأنه من أجل ذلـك ذليـل حقـير، ولا يزال على نحو ذلك إلى أن يثلج خاطرهما، ويـبرد قلبهمـا عليـه، فينعطفا عليه بالرضا والدعاء(1).

وبمثل هذه الوصايا العظيمة أوصانا رسـول اللـه ﷺ.. فقـد اعتبر العقوق من أكبر الكبائر.. ففي الحديث قـال رسـول اللـه ﷺ: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ ثلاثا ـ ؟) قلنا: بلى يا رسـول اللـه، قال: (الإشـراك باللـه، وعقـوق الوالـدين)، وكـان متكئـا فجلس فقال: (ألا وقول الزور وشهادة الـزور)، فمـا زال يكررهـا حـتى قلنا ليته سكت)(2)

وقال ﷺ: (الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالـدين، وقتـل النفس، واليمين الغموس)(3)

وذكـر ﷺ في كتابـه الـذي كتبـه إلى أهـل اليمن وبعث بـه عمرو بن حزم: (وإن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشـراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغـير حـق والفـرار في سـبيل اللـه يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورمي المحصـنة، وتعلم السـحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم)الحديث(4).

وقـال ﷺ: (إن من أكـبر الكبـائر أن يلعن الرجـل والديـه)، قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: (يسـب أبـا الرجل فيسب الرجل أباه)(5)

1() انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (2/ 106)

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه البخاري.

4() رواه ابن حبان في صحيحه.

5() رواه ابن حبان في صحيحه.

وفي رواية: (من الكبائر شتم الرجل والديه)، قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال: (نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه)[1]

وقال ﷺ: (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعا وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال)[2]

وقال: (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان عطاءه، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه والديوث والرجلة[3] من النساء)[4]

وقال: (ثلاثة حرم الله ـ تبارك وتعالى ـ عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والديوث الذي يقر الخبث في أهله)[5]، أي الزنا مع علمه به.

وقال: (يراح ريح الجنة من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحه منان بعمله ولا عاق ولا مدمن خمر)[6]

وقال: (ثلاثة لا يقبل الله عز وجل منهم صرفا ولا عدلا عاق ومنان ومكذب بقدر)[7]

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري وغيره.

3() الرجلة: المترجلة، أي المتشبهة بالرجال.

4() رواه النسائي والبزار واللفظ له بإسنادين جيدين والحاكم وصححه.

5() رواه أحمد واللفظ له والنسائي والبزار والحاكم وصححه.

6() رواه الطبراني في الصغير.

7() رواه ابن أبي عاصم بإسناد حسن.

وقال: (أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه)[1]

وقال: (ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف)[2]

وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الخمس وأديت زكاة مالي وصمت رمضان، فقال رسول الله ﷺ: (من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة هكذا، ونصب أصبعيه ما لم يعق والديه)[3]

وعن معاذ قال: أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات، قال: (لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت، ولا تعقن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك)، الحديث[4].

وقال ﷺ: (أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه)[5]

وقال: (لا يلج حظيرة القدس مدمن خمر ولا العاق ولا

1() رواه الحاكم وصححه.

2() رواه الطبراني في الكبير.

3() رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما صحيح، وابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما باختصار.

4() رواه أحمد وغيره.

5() رواه الحاكم وصححه.

المنان عطاءه)(1)

وقال: (لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عاق ولا منـان)، قـال ابن عباس: فشق ذلك علي؛ لأن المؤمنين يصـيبون ذنوبـا حـتى وجدت ذلك في كتاب الله عز وجل في العاق: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) وفي المنان: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى)(البقرة: من الآية264)، وفي الخمـر: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّمَـا الْخَمْـرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَـاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة:90)(2)

وتكميلا لهـذا وردت النصـوص الكثـيرة تحث على الـبر، وتقرنه بأفضل الأعمال، وفي الحديث: سئل رسول اللـه ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتهـا)، قيـل: ثم أي؟ قال: (بر الوالدين)، قيل: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سـبيل اللـه) (3)

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه)(4)

وجاء رجل إلى نـبي اللـه ﷺ فاسـتأذنه في الجهـاد، فقـال: أحي والـداك؟ قـال: نعم قـال: (فيهمـا فجاهـد)(5).. وفي روايـة قال: أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: أبايعك على الهجـرة والجهـاد أبتغي الأجـر من اللـه، قـال: (فهـل من والـديك أحـد

1() رواه أحمد، ورواه البزار إلا أنه قال :(لا يلج جنان الفردوس)

2() رواه الطبراني بسند رواته ثقات.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

5() رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

حي؟)، قال: نعم، بل كلاهما حي، فقـال ﷺ: (فتبتغي الأجـر من الله) قال: نعم قال: (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما)(1)

وجـاءه رجـل، فقـال: (جئت أبايعـك على الهجـرة وتـركت أبوي يبكيان)، فقال: (ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما)(2)

وروي أن رجلا من أهـل اليمن هـاجر إلى رسـول اللـه ﷺ: فقال: هل لك أحد باليمن؟ قـال: أبـواي قـال: أذنـا لـك قـال: لا قال: (فارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهمـا)(3)

وأتاه رجل، فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليـه، قـال: هل بقي من والديك أحد؟ قال: أمي قال: (قابل اللـه في برهـا، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد)(4)

وأتاه طلحة السلمي، فقال: يا رسول الله إني أريد الجهـاد في سبيل الله، قال: أمك حية، قال: نعم، فقال النبي ﷺ: (الزم رجلها فثم الجنة)(5)

وأتاه جاهمة، فقـال: يـا رسـول اللـه أردت أن أغـزو، وقـد جئت أستشـيرك، فقـال: هـل لـك من أم؟ قـال: نعم قـال: (فالزمها فإن الجنة عند رجلها)(6)

وقيل له: يـا رسـول اللـه مـا حـق الوالـدين على ولـدهما؟

1() هذه الرواية لمسلم.

2() رواه أبو داود.

3() رواه أبو داود.

4() رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط.

5() رواه الطبراني.

6() رواه ابن ماجه والنسائي واللفظ له والحاكم وقال صحيح الإسناد.

قال: (هما جنتك ونارك)(1)

وقال ﷺ: (من سره أن يمد له في عمره، ويزاد في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه)(2)

وقال: (من بر والديه طوبى له زاد الله في عمره)(3)

وقال: (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر)(4)

وقال: (عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن أتاه أخوه متنصلا فليقبل ذلك محقا كان أو مبطلا، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض)(5)

وقال: (رغم أنفه، ثم رغم أنفه(6)، ثم رغم أنفه، قيل: من يا رسول الله؟ قال: (من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة)(7)

وصعد النبي ﷺ المنبر، فقال: آمين آمين آمين، ثم قال: (أتاني جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: يا محمد من أدرك أحد أبويه فمات فدخل النار فأبعده الله، فقل آمين، فقلت

1() رواه ابن ماجه.

2() رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح.

3() رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم والأصبهاني، وقال الحاكم صحيح الإسناد.

4() رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم بتقديم وتأخير وقال صحيح الإسناد.

5() رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

6() رغم أنفه: أي لصق بالرغام وهو التراب.

7() رواه مسلم.

آمين، فقال: يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له فأدخل النار، فأبعده الله، فقل آمين فقلت آمين، قال ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله فقل آمين فقلت آمين)(1)

وقال ﷺ: (من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله)(2)

وقال: (من أصبح مطيعًا لله فِي والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة وإن كان واحدًا فواحدًا ومن أمسى عاصيًا لله فِي والديه أصبح له بابان مفتوحان من النار وإن كان واحدًا فواحدٌ)، قال رجل: وإن ظلماه ؟ قال: (وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه)(3)

وقال: (مَا من ولد بار ينظر إِلَى والديه نظر رحمة إلا كتب له بكل نظرة حجة مبرورة)، قالوا: وإن نظر كل يوم مائة مرة؟ قال: (نعم، الله أكبر وأطيب)(4)

بل إن النصوص المقدسة لا تكتفي بالحث على البر في الحياة، بل تضيف إليه الأمر بالبر بعد الوفاة، ففي الحديث أن رجلا جاء رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال ﷺ: (نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما)، فقال الرجل:

1() رواه الطبراني بأسانيد أحدها حسن ورواه ابن حبان في صحيحه.

2() رواه أحمد.

3() رواه البيهقي فِي شعب الإيمان.

4() رواه البيهقي فِي شعب الإيمان.

ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه، فقال ﷺ: (فاعمل به)(5)

هذه وصايا رسول الله ﷺ لك ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ وفيهـا الجواب على سـؤالك، فـاغتنم هـذه الأدويـة، واسـتعملها، وسـترى كيف يتنزل عليك فضل الله تعالى بتطهير قلبك، وتصـفية نفسـك.. فلا يمكن أن يطهر قلب مملوء بالقطيعة والعقوق.

5() رواه أبو داود وابن حبان فِي صحيحه.

الدجل والشعوذة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن بعض من يدعي الولاية، لكنه لا يكتفي بالحديث عن تهذيب النفس وتزكيتها وترقيتها، وإنما يضيف إليها الحديث عن علوم الكون، وعدد الأفلاك، ومن يسكنها، وأحوالهم.. ولا يكتفي بذلك، بل يضيف إليها ادعاء الغيب؛ فيكشف لمن يزوره ماضيه ومستقبله، ويخبره عن أصدقائه وأعدائه.. ولا يكتفي بذلك، بل يضيف إليها ادعاء القدرة على معالجة الناس، ومن أصعب الأمراض التي يصابون بها.

وكل ما ذكرت ـ أيها المريد الصادق ـ يشير إلى مثلبين خطيرين، هما الدجل والشعوذة.. وكلاهما كان مجالا للشيطان لتحريف علوم السلوك والتزكية، وتحويلها من تهذيب النفس وتربيتها وإصلاحها، والرقي بها إلى مراتب التخلق والتحقق، إلى محاولة التعرف على العالم والتأثير فيه من غير أهلية لذلك.

ولهذا اعتبر الصالحون أن من يسير في هذا الطريق بين أمرين: إما أن يصل إلى الملك، أو يصل إلى الهلك.. أو هو بين الصديقية والزندقة.. أو هو بين الوصول إلى الله، أو الوصول إلى الشيطان.

وكل ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ يبدأ من مقصد السالك؛ فمن كانت بدايته لله، كانت نهايته لله.. ومن كان غرضه في بدايته تحصيل المنافع، والشهرة بين الناس، واختلاس أموالهم؛ فإن نهايته ستكون للحال الذي ذكرت.

ولذلك كان أولئك هم قطّاع الطرق الذين يحجبون الخلق عن السير إلى الله، بما يضعونه من الشبهات، وما ينشرونه من

التشويهات.. ولذلك كان التحذير منهم واجبا، فطريق اللـه نقيـة سليمة صافية، وأدنى شيء يؤذيها، وينحرف بها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى منبـع ذينـك المثلـبين، فقـال: ﴿وَكَـذَلِكَ جَعَلْنَـا لِكُـلِّ نَبِيٍّ عَـدُوًّا شَـيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُـوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]

فكل ما يفعله ذلك الدعي الدجال الذي ذكرت ليس سـوى وحي شيطان زُخرف له، وتوهم أنه من اللـه، وهـو ليس سـوى من نفســه الأمــارة الــتي أصــبحت محلا للتجليــات والإلهــام الشيطاني.

ولــذلك كــان الحصــن الــذي تحتمي بــه من شــر أولئــك الدجالين والمشعوذين هـو حصـن القـرآن الكـريم؛ فهـو الوحيـد الكفيـل بإنقـاذك وإنقـاذ عقلـك ودينـك منهم، كمـا قـال تعـالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّـيْطَانِ الـرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَـا سُـلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَـهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِـهِ مُشْـرِكُونَ ﴾ [النحل: 98 - 100]

وقراءة القرآن الكريم ـ أيها المريد الصادق ـ الـتي تحميـك من هـؤلاء، لا تعـني تأثيرهـا الغيـبي فقـط، وإنمـا تعـني تأثيرهـا المرتبط بالتدبر فيها، والتعرف على أسرارها، وحقائق المعــاني التي تدعو إليها..

فمن اكتفى بالتـأثير الغيـبي في القـرآن الكـريم من دون سماع ولا تدبر، لم تزده قراءته إلا بعدا، لأنه يستعمل الدواء في غير محله، وهو أشبه بمن يتفرج على الدواء الـذي أمـر بشـربه من غير أن يشربه.

ولذلك سأذكر لـك مـا ورد في القـرآن الكـريم ممـا يحطم

جدران الدجل والشعوذة، حتى تكون على بينة من أمرك، وحتى لا يفسـد عليـك سـلوكك إلى اللـه دجـل الـدجالين، ولا شـعوذة المشعوذين.

الدجل وعلاجه:

أما الدجل ـ أيها المريد الصادق ــ فهـو ذلـك الكـذب الـذي يختلط ببعض الصدق، أو الحقـائق الـتي تختلـط ببعض الأوهـام، والـتي لا سـند لهـا سـوى الهـوى المجـرد، الخـالي من البحث والطلب والتحقيق.

فالـدجال على خلاف العـالم والبـاحث، لا يحتـاج إلى كتب يطالعها، ولا إلى علماء يدرس على أيديهم، ولا إلى جهد يبذلـه.. وإنما يحتاج بعض المصطلحات والمفاهيم، ليبني عليها ما يمليـه هواه.

وهو ينطلق من ذلك الشـغف الـذي خلقـه اللـه تعـالى في الإنسان للبحث عن الحقائق، والذي قـد يسـيطر عليـه؛ فيمنعـه من البحث عنها عند أهلهـا، لأنهم لا يـروون ظمـأه؛ فيـذهب إلى الدجالين، ليعطوه كل ما يريده ويهواه، من غير أن يطالبهم بأي دليل.

ولهـذا نهى اللـه تعـالى المؤمـنين في سـورة الكهـف عن البحث عن تفاصيل أخبار فتية أهل الكهف، لعدم وجـود مصـادر أمينة موثوقة يمكنها أن تعرف بحقيقتهم، أو تدل على الأحــداث المرتبطة بهم، كما قال تعـالى: ﴿سَـيَقُولُونَ ثَلَاثَـةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًـا بِـالْغَيْبِ وَيَقُولُـونَ سَـبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِـرَاءً ظَـاهِرًا وَلَا تَسْـتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَـدًا﴾ [الكهف: 22]

فقد اعتبر القرآن الكـريم مجـرد الحـديث عن عـددهم من غير بينة رجما بالغيب، وهو من أعظم الكذب والزور والبهتان.

وهكذا الأمر عنـدما ذكـر مـدة لبثهم في الكهف، كمـا قـال تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُـلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَـا لَبِثُـوا لَـهُ غَيْبُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِـرْ بِـهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْـرِكُ فِي حُكْمِـهِ أَحَـدًا ﴾ [الكهف: 25، 26]

وهكـذا؛ فـإن القـرآن الكـريم عنـدما يـورد أي قصـة من القصص يخبر الرسول ﷺ أن هـذه القصـة من اللـه، وأن الغيب لله، وقد كان في إمكانـه أن يقـول لرسـول اللـه ﷺ: إن شـئت المزيد من التفاصيل فاقصد أحبار اليهـود، أو غـيرهم.. لكنـه لم يفعل، بل ورد النهي عن ذلك.

ومن الأمثلـة على ذلـك قولـه تعـالى: ﴿وَمَـا كُنْتَ بِجَـانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْـلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَـانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَـةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْـذِرَ قَوْمًـا مَـا أَتَـاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: 44 - 46]

فهذه الآيات الكريمة تبين المنهج العلمي الذي يحتاجه كـل من يريد الحديث عن الوقائع التاريخية السـابقة، وهي إمـا خـبر المعصوم كما أخبر الله تعالى نبيه ﷺ، أو هي الحضـور المباشـر للمكان والزمان الذي وقعت فيه الحادثة.. أما خبر الذين اختلط صدقهم بكذبهم فلن يزيد الباحث إلا ضلالة.

ومثل تلك الآيـة آيـات كثـيرة ترسـخ هـذا المنهج القـرآني، ومنها قوله تعالى بعد ذكره لقصة نوح عليه السـلام: ﴿تِلْـكَ مِنْ

أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُـكَ مِنْ قَبْـلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ [هود: 49]

ومثلها قوله بعد ذكره لقصة مـريم عليهـا السـلام: ذَلِـكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْـكَ وَمَـا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُـونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَـرْيَمَ وَمَـا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِـمُونَ [آل عمـران: 44]

ومثلها قوله بعد ذكره لقصة يوسـف عليـه السـلام: ذَلِـكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْـكَ وَمَـا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُـوا أَمْـرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ [يوسف: 102]

ومثلها قوله بعد ذكره لمجموعة من قصـص الأنبيـاء عليهم السلام: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِــيدٌ [هود: 100]

بل إن القرآن الكريم لا يقصـر هـذا المنهج على القصـص، بل يعممـه في كـل شـيء، فلا يصـح أن نتعلم أي علم من غـير مصادره الصحيحة الموثوقة، كما قال تعالى: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّـمْعَ وَالْبَصَـرَ وَالْفُـؤَادَ كُـلُّ أُولَئِكَ كَـانَ عَنْـهُ مَسْئُولًا [الإسراء: 36]

لأن كل علم لا يستند إلى مصدر صـحيح موثـوق هـو دجـل وكذب وضلالة، قال تعالى: وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَـقِّ شَـيْئًا [النجم: 28]، وقـال: مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْـرُجُ مِنْ أَفْـوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا [الكهف: 5]

وهكـذا الأمـر في كـل الحقـائق الـتي مصـدرها الخـبر، فلا يكفي فيها النقل من أي كان، كما قـال تعـالى: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ جَـاءَكُمْ فَاسِـقٌ بِنَبَـإٍ فَتَبَيَّنُـوا أَنْ تُصِـيبُوا قَوْمًـا بِجَهَالَـةٍ

فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: 6]

وهذه الآية الكريمة تشير إلى ناحية خطيرة تتعلق بهذا، وهي ما عبر عنه القرآن الكريم بـ ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾، ذلك أن تلك المعلومات التي يوردها الدجال لا ترتبط بمعارف ذهنية فقط، وإنما تنشأ عنها مواقف تؤثر في الحياة جميعا، وقد تكون سببا للجوء إلى الشعوذة، ذلك أن لكليهما علاقة كبرى ببعضهما، فالدجل يولد الشعوذة، والشعوذة تولد الدجل.

ذلك أن الدجال المحتال قد ينشر أسطورة ترتبط بظاهرة من الظواهر الكونية، ليجني من خلالها ما شاء له هواه أن يجني.. والأساطير تنتج الدجالين الذين يرمون بالغيب من غير تحقيق.

ولهذا كله يذكرنا القرآن الكريم بحقيقة البحث في أي مسألة من المسائل، وهي الآية الجامعة لكل مناهج البحث العلمي، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: 36]، فهذه الآية الكريمة تنهى أن نبحث في شيء لم تكتمل لدينا أدواته.. لا في أمور الدنيا، ولا في أمور الآخرة.. إلا إذا استندنا إلى المصادر المعصومة في ذلك، مع الاكتفاء بها.

وهكذا ورد في الأحاديث النبوية الشريفة الكثير من النصوص التي تحذر من الكلام في العلم بغير دليل، فقد قال ﷺ: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث)(1)

وفي حديث آخر روي أنّ رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: علّمنى من غرائب العلم، فقال له: ما صنعت في رأس

1() البخارى (5/1976، رقم 4849) ، ومسلم (4/1985، رقم 2563)

العلم؟ فقـال: ومـا رأس العلم؟ فقـال ﷺ: هـل عـرفت الـربّ تعالى؟ قال: نعم. قال فما صنعت في حقّه؟ قال: ما شاء اللــه. فقال ﷺ: هل عرفت الموت؟ قـال نعم. قـال فمـا أعـددت لـه؟ قال: ما شاء اللـه. قـال ﷺ: (اذهب فـأحكم مـا هنـاك، ثم تعـال نعلّمك من غرائب العلم)[1]

لكن الشيطان استطاع أن يقنع فئات كثيرة من الخلق بأن العلم ليس في التحقيـــق، وإنمـــا في حيـــازة أكـــبر قـــدر من المعلومات التي لا يهم مصدرها، بقدر ما تهم كثرتها.

وقد بدأ هذا التضليل منذ سـلف هـذه الأمـة الأول، حين لم يكتف المسلمون ــ بفعـل الإغـواء الشـيطاني ــ بالهـدي الإلهي المتمثل في الثقلين اللذين أوصى رسول الله ﷺ بالاكتفاء بهما، وراحوا إلى كعب الأحبـار ووهب بن المنبـه وغيرهمـا يسـألونهما عن تفسير القرآن وحقائق الوجود والكون والتاريخ.. ولم يتركوا شيئا إلا سألوهم عنه.. كل ذلك لإرضاء ذلك الفضـول المعـرفي الذي تسرب إليهم الشيطان من خلاله.

وقـد ورد في بعض الروايـات أن بعض النـاس سـألوا كعبـا هذا السؤال الخطير: (أين كـان اللـه جـل جلالـه قبـل أن يخلـق عرشه، ومم خلق الماء الذي جعل عرشه عليه؟)

ولم ينتفض كعب غضبا لهـذا السـؤال، وإنمـا راح ــ إرضـاء لسائليه ـ يفتح كل نوافـذ الكـذب، ويحـدثهم بمـا لا يوجـد لا في القرآن، ولا في التوراة، ولا في أي كتاب من كتب الـدنيا.. فقـد كان من ضمن حديثه قوله: (إن الله تعالى كان قديما قبل خلـق العرش، وكان على صخرة بيت المقدس في الهـواء، فلمـا أراد أن يخلق عرشه تفـل تفلـة كـانت منهـا البحـار الغـامرة واللجج

1() رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة وابن عبد البر، انظر: تخريج الحافظ العراقي: إحياء علوم الدين (1/ 65)

الدائرة، فهناك خلق عرشه من بعض الصخرة التي كانت تحتـه، وأخر ما بقي منها لمسجد قدسه) (1)

وقـد ورد في بعض الروايـات أن الإمـام عليـا سـمع هـذه الفرية الخطيرة، فقال ردا عليها: (غلط أصـحابك، وحرفـوا كتب الله وفتحوا الفرية عليه، يا كعب ويحك إن الصخرة التي زعمت لا تحوي جلاله ولا تسع عظمتـه، والهـواء الـذي ذكـرت لا يحـوز أقطاره، ولو كانت الصخرة والهـواء قـديمين معـه لكـانت لهمـا قدمته، وعز الله وجل أن يقال: له مكان يومي إليه، واللـه ليس كمـا يقـول الملحـدون، ولا كمـا يظن الجـاهلون، ولكن كـان ولا مكان بحيث لا تبلغه الأذهان)(2)

وهكذا كان موقف ابن عباس من ذلـك الفضـول المعـرفي الـذي جعـل النـاس في أول الإسـلام ينصـرفون عن المصـادر المعصومة إلى المصادر المختلطة، فقال: (كيـف تسـألون أهـل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنـزل على رسـول اللـه أحـدث تقرؤونه محضـا لم يشـب، وقـد حـدثكم أن أهـل الكتـاب بـدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيـديهم الكتـاب، وقـالوا: هـو من عنـد الله ليشتروا بـه ثمنـا قليلا، ألا ينهـاكم مـا جـاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله مـا رأينـا منهم رجلا يسـألكم عن الـذي أنـزل عليكم)(3)

وروي أنــه سـأل رجلا مقبلا من الشـام: من لقيت؟ قـال: كعبا. قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: إن السماوات على منكب ملك. فقال: (كذب كعب، أما ترك يهوديتـه بعـد! ثم قرأ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ

1() تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، 2 / 5.

2() المرجع السابق، 2 / 5.

3() البخاري (26: 2) (42: 2)

أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا [فـاطر:41])
(1)

وهكذا حذر الصالحون من ذلك الفضول الوهمي للمعـارف غـير المعصـومة، ويـدعون بدلـه إلى العلم الحقيقي الـذي يملأ المؤمن بالقيم القرآنية النبيلة، فقد قال أحدهم معبرا عن ذلـك: (تعلموا ما شئتم أن تعلموا فو الله لا يأجركم الله حـتى تعملـوا، فان السـفهاء همتهم الروايـة، والعلمـاء همتهم الرعايـة)، وقـال آخر: (أنزل القرآن ليعمـل بـه فاتخـذتم دراسـته عملا، وسـيأتي قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم)(2)

وقد ذكر بعض الحكماء متأسفا كيف تحول التذكير والوعظ إلى وسيلة للدجل، فقال: (فقد اتخذ المزخرفون هذه الأحـاديث حجة على تزكية أنفسهم، ونقلـوا اسـم التـذكير إلى خرافـاتهم، وذهلـوا عن طريـق الـذكر المحمـود، واشـتغلوا بالقصـص الـتي تتطرق إليها الاختلافات والزيـادة والنقص، وتخـرج عن القصـص الـواردة في القـرآن وتزيـد عليهـا، فـإن من القصـص مـا ينفـع سماعه، ومنها مـا يضـر وإن كـان صـدقا. ومن فتح ذلـك البـاب على نفسه اختلط عليه الصـدق بالكـذب، والنـافع بالضـار، فمن هذا نهى عنه)(3)

وضـرب مثـالا على التـذكير الصـحيح النـافع بقصـة شـقيق البلخي مـع تلميـذه حـاتم الأصـم، حيث سـأله، فقـال: منـذ كم صحبتني؟ قال حاتم: منـذ ثلاث وثلاثين سـنة. قـال: فمـا تعلمت مني في هذه المدة؟ قال: ثماني مسائل. قال شقيق له: إنّا للَّه وإنــا إليــه راجعــون، ذهب عمــري معــك ولم تتعلم إلا ثمــاني

1() الكافي الشافي لابن حجر العسقلاني، 139.

2() إحياء علوم الدين، 1/110.

3() إحياء علوم الدين، 1/59.

مسائل! قال: يا أستاذ لم أتعلم غيرها، وإنى لا أحب أن أكـذب.. فقال: هات هذه الثماني مسائل حتى أسمعها قال حاتم: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحـد يحب محبوبـا فهـو مـع محبوبـه إلى القــبر فــإذا وصــل إلى القــبر فارقــه، فجعلت الحســنات محبوبي، فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي، فقال: أحسنت يا حاتم، فما الثانية؟ فقال: نظرت في قول الله عــز وجــل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوَى (40) فَـإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:40-41]، فعلمت أن قولـه سـبحانه هـو الحـق، فأجهـدت نفسـي في دفـع الهـوى حـتى اسـتقرت على طاعة الله تعالى..)(1)

وهكذا راح يعدد له ما استفاده منه فـترة صـحبته الطويلـة له.. وهي كلها معان عملية أخلاقية تتفق مـع الأهـداف القرآنيـة الــتي تــرمي إلى صــياغة الشخصــية المســلمة في أوج نبلهــا وطهرها وصفائها.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاحذر من كل علم لا تعرف دليله ولا مصـدره؛ فالجهـل خـير من العلم الـذي لا دليـل عليه..

أعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن ذلـك الـذي ذكـرت يخـبرك أن علومه ناتجة من الكشف، والعلم اللدني، وأنهـا بـذلك أقـوى من كل علوم الدنيا.. فإن قـال لـك ذلـك، فأسـأله عن عصـمته، وهل يمكن للشيطان أن يقترب منه، ويوسوس له، أم أنــه ليس له سلطان عليه؟

فإن أخبرك أنه معصوم، وأن كل ما يلقى إليه صحيح، فهــو كاذب ودعي، وقـد اتفـق جميـع مشـايخ التربيـة والسـلوك على تكذيب مدعي العصمة المرتبطة بالكشف، واتفقوا على وجــوب

(1) المرجع السابق، 1/111.

عرض مـا يكشـف لهم على المصـادر المعصـومة، فـإن وافقت فبها، وإلا رمي بها.

وفي هذا يقول الجنيد: (إن النكتـة لتقـع في قلـبي من جهـة الكشف فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة)

ويقول الشيخ عبد القادر الجيلاني : (كل حقيقة لا تشهد لهــا الشريعة فهي زندقة.. طِرْ إِلى الحق عز وجـل بجنـاحي الكتـاب والسنة، ادخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ)(1)

ومثله الشـيخ أبـو الحسـن الشـاذلي، فقـد كـان يقـول: (إِذا عارض كشفُك الصحيح الكتابَ والسنة فاعمل بالكتـاب والسـنة ودع الكشف، وقل لنفسـك: إِن اللـه تعـالى ضـمن لي العصـمة في الكتـــاب والســـنة، ولم يضـــمنها لي في جـــانب الكشـــف والإِلهام)(2)

وبناء على هـذا يخطئـون بعضـهم بعضـا في نتـائج الكشـف، ومن ذلــك قــول بعضــهم في الكشــف الــذي لا يمكن اعتبــاره: (الكشف الذي يؤدي إلى فضل الإنسان على الملائكـة أو فضــل الملائكة على الإنسان مطلقاً من الجهتين لا يعول عليه) (3)

ويقول: (كل كشف يريك ذهاب الأشياء بعد وجودها لا يعــول عليه) (4)

ويقـول: (كـل كشـف لا يكـون صـرفاً لا يخالطـه شـيء من

____

1() الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص29.

2() انظر: إِيقاظ الهمم، (2/302)

3() ابن عربي، رسالة لا يعول عليه، ص 3.

4() المرجع السابق، ص 14

المزاج لا يعول عليه، إلا أن يكون صاحب علم بالمصور) [1]

الشعوذة وعلاجها:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فـاعلم أن الشـعوذة بنت للدجل؛ فهي التي تنتجها، وهي الـتي تغـذيها، ولـذلك كـانت سببا في تحريف الأديان، عندما اسـتغل اللصـوص الـذين ادعـوا الوصاية على الدين حاجات الناس وضـعفهم؛ فراحـوا يفسـرون الظـواهر المختلفـة بمـا تشـاء لهم أهـواؤهم، ليتـاجروا بـذلك التفسير.

ويشير إلى هذا قوله تعـالى عن السـحر، وكيفيـة ظهـوره، واستغلال الشياطين لبعض الحقائق وتشويهها: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَـرُوا يُعَلِّمُـونَ النَّاسَ السِّـحْرَ وَمَـا أُنْـزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِـلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُـولا إِنَّمَـا نَحْنُ فِتْنَـةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَـرْءِ وَزَوْجِـهِ وَمَـا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَـدٍ إِلَّا بِـإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُـونَ مَـا يَضُـرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَـدْ عَلِمُـوا لَمَنِ اشْـتَرَاهُ مَـا لَـهُ فِي الْآخِـرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:102)

فالآية الكريمة تشير إلى أن العلـوم الـتي كـان يبثهـا ذانـك الملكـان (هـاروت ومـاروت) من العلـوم الـتي تصـف حقـائق كونية.. وأنها كـانت تحمـل ثمـارا طيبـة خـيرة يمكن أن تسـتفيد منها البشـرية، وتحمـل في نفس الـوقت ثمـارا خبيثـة يمكن أن تتحول إلى شر محض.. مثلما هو الحال مع الكثير من المعـارف العلمية التي يمكن استثمارها إيجابا أو سلبا.. ولهذا، فـإن هـذين الملكين كانا ينبهان كل من يدرس على يديهما تلـك العلـوم إلى المحاذير التي تنطوي عليها المعارف التي يدرسونها.

1() المرجع السابق، ص 18.

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يفسر ما يحصل في الكون تفسيرا أسطوريا، أو يستثمر ذلك التفسير في صناعة الشعوذة.. ففي الحديث أن الشمس انكسفت يوم مات إبراهيم، فقال الناس: انكسفت لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموها، فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي)(2)

فهذا الحديث يرسم المنهج الصحيح للتعامل العلمي مع الكون، فكل ما في الكون آيات لله.. لا يؤثر فيها من الأسباب إلا ما أراد الله أن يؤثر..

ولتعرف ــ أيها المريد الصادق ــ عظمة هذا الحديث، وعظمة نبيك ﷺ، والمسافة العظيمة التي تفصله بين أولئك المدعين والدجالين والمشعوذين، فاعلم أنه قاله في واقع كان يموج بالأسطورة، وعلى أتم الاستعداد لتقبل أي تفسير يستغله أي دجال أو خرافي..

لقد كان الكثير من الناس في ذلك الحين، وقبله يعتقدون أن الكسوف هو نتيجة لتصارع الآلهة، وكانت بعض الشعوب في الصين يرمزون للشمس بأنها طائر ذهبي، ويرمزون للقمر بضفدع وعند حدوث الكسوف فإن معركة ما تدور بين هذين الرمزين.

أما قبائل الأمازون فكانوا يعتقدون أن القمر أثناء الخسوف قد رماه أحد الأطفال بسهم في عينه مما أدى إلى نزيف في هذا القمر، ثم يُشفى القمر بعد ذلك ويعود لوضعه الطبيعي.

وكان الصينيون يفسرون ظاهرة كسوف الشمس على أن

2() البخاري (2/42 و 7/45) ومسلم (3/27)

تنّيناً يحـاول أن يبتلـع قـرص الشـمس، لـذلك كـانوا يضـربون بالطبول، ويقذفون بالسـهام لأعلى محاولـة منهم إخافـة التـنين وإعادة الشمس لهم من فمه.

وفي الهند كان الناس يغمرون أنفسهم بالمـاء عنـد رؤيتهم هذه الظاهرة لكي لا يسقط عليهم شيء منه..

وحـتى يومنـا هـذا يعتقـد الإسـكيمو أن الشـمس تختفي وتذهب بعيداً أثناء ظاهرة كسوف الشمس ثم تعود من جديد.

وفي ظل هذه الأساطير كان العرب ينظـرون إلى كسـوف الشمس على أنه يمثل موت إنسـان عظيم، أو خسـارة معركـة عظيمة.

لكن رسول الله ﷺ نظر إلى هـذه الظـاهرة نظـرة علميـة محضـة؛ فقـد أخـبرهم أن الشـمس والقمـر مخلوقـات وآيـات مسخرة لله، ولا علاقة لهما بما يحـدث على الأرض من ولادة أو موت أو غير ذلك.

ولو أنك ـ أيها المريد الصادق ـ تأملت في الحديث، لعرفت أن فيـه علاجـا واقيـا من كـل أنـواع الشـعوذة، وكـل أصـناف المشعوذين، ذلك أنه يربط ما حصل من الظواهر الكونيـة باللـه والتوحيد.

ولذلك كان التوحيد الذي يعـني أن رب الكـون واحـد، وأنـه الوحيد المتصرف في الكون ما يقضي على كل ألوان الشـعوذة التي أثقلت كاهل البشرية.

لقد ذكر اللـه تعـالى كيـف كـان المشـركون يتخوفـون من عوالم الجن، فقال: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَـالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ (الجـن:6).. لقد كانت الأسطورة هي

التي تملأ القلوب بالمخاوف.. فلما جاءت حقائق التوحيد رفعت كل تلك المخاوف.. وعاد الشيطان.. ذلك الغول الذي استغله الدجالون صغيرا حقيرا لا يستحق كل تلك الهالات من الأساطير التي حامت حوله.

لقد قال الله تعالى يطمئن عباده المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:175)، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾(لأعراف:201)، وقال: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(المجادلة:10)، وقال: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾(النساء: 76)، وقال: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(لأنفال:48)

ولهذا، فإن النبي ﷺ نهى أن ينسب ما يحصل من حوادث للشياطين، فقد قال بعض الصحابة: (كنت رديف النبي ﷺ فعثرت دابة فقلت: تعس الشيطان، فقال: لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت ويقول: بقوتي ولكن، قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب)[1]

هذا ما ذكره نبيك ﷺ وما رباك عليه؛ فتمسك به، واحذر من كل من يكذب بالانتساب إليه، أو الحديث باسمه، حتى لا تصبح فريسة للدجالين والمشعوذين والكذابين، فما أكثر اللصوص في هذا الطريق؛ فاحذر منهم، واستعن بربك، ولا

(1) رواه أبو داود وغيره.

تعطل عقلك، فما جعله الله لك إلا لتميز به بين الحق والباطـل، وبين الصادقين والدجالين.

الإعراض والضلال

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن أسباب الانحرافات التي حصلت للأمم السابقة، فجعلتهم يضلون السبيل، ويعرضون عن الهدي الذي جاءهم به أنبياءهم، مع قبولهم له، وإيمانهم به، وتعظيمهم لأنبيائهم، وذكرت لي أن غرضك من ذلك هو حماية نفسك من أن تكون من الذين تحققت فيهم تلك الصفات من غير أن يشعروا.

وقد طلبت مني كعادتك أن أذكر لك ذلك من خلال المصادر المقدسة، لا من خلال الآراء والاجتهادات التي قد تصيب أو تخطئ.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أنك قصدت برسالتك مثلبين خطيرين من مثالب النفس الأمارة، يجرانها إن أدمنت عليهما إلى تشكيل دين خاص بها، تنحرف به عن دين الله تعالى، وتضل به سواء السبيل.

وهذان المثلبان، هما الإعراض والضلال، وقد جرى وصفهما في القرآن الكريم، وبيان أنهما السببان في الانحراف الذي يحصل للإنسان، سواء ذلك الذي آمن برسوله، أو ذلك الذي جحده.. فالشيطان لا ييأس من كليهما.. ذلك أنه يدعو الأول إلى مضاهاة رسوله بنفسه، وتقديمه اجتهاده ورأيه عليه، ويدعو الثاني إلى الجحود والإعراض الكلي.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الأول، وهو الإعراض، واعتبره من صفات الإنسان السلبية، فقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: 83]

وذكر مثلا له على ذلك بقوم سبأ، فقال:﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: 15، 16]

واعتبر أعظم ضلالة يقع فيها الإنسان الإعراض عن هدي ربه، وكلماته المقدسة، وتعاليمه السامية، فقال: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: 3، 4]

وبين عظم عقوبة من يعرض عن هدي ربه في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه: 99ـ 100]، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 124]

وأما الضلال؛ فهو أب للإعراض وابن له.. أما كونه أبا له، فلأن المعرض عن الله ورسوله وكتابه لا يفعل ذلك إلا بعد أن تختلط في عقله الموازين؛ فلا يميز بين الحق والباطل، وبين ما يضره وما ينفعه.. وذلك ما يجعله يعرض عن الحق، ويتوهم أنه في إعراضه على حق.

وأما كونه ابنا له؛ فلأن الضلال ينتج المزيد من الإعراض، بل يحول الإعراض أصلا، ذلك أن من ضل بانحرافه عن السراط المستقيم لن تزيده كثرة الخطى إلا ضلالة وبعدا.

ولهذا وصف الله تعالى من أدمنوا على الإعراض وبالغوا فيه، ووصلوا به إلى أماكن بعيدة بكونهم ضلوا ضلالا بعيدا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 167]

وأخبر عن مشابهتهم للمعرضين في الإعراض عن الكتاب، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 60]

بل وصفهم بالإعراض نفسه، والذي عبر عنه تعالى بالصد عما جاء به النبي ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: 61]

إذا علمت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما سأورده لك من صيدلية القرآن الكريم من أدوية تحميك من هذين المثلبين الخطيرين.

الإعراض وعلاجه:

إن أردت أن تعرف ـ أيها المريد الصادق ـ حقيقة الإعراض وتجلياته وخطره، فتوهم نفسك أمام طبيب حاذق خبير، يوصيك بدواء يفيدك في علاج دائك المستعصي، ويخبرك أنه دواء مجرب، ومعترف به في كل المحافل العالمية، وأنه لا آثار جانبية له، بل إن له آثارا إيجابية تفوق علاجه للمرض الذي يريد أن يداويك به.

لكن شخصا بجانبه لا يملك شهادة طبية، ولا خبرة عملية، يدعوك إلى الإعراض عن الطبيب، ويصف لك بدل وصفته دواء يذكر لك أنه الأفضل، وأنه جربه، وأن جدواه لا شك فيها.

لا شك أنك ستميل إلى الطبيب، وتبتعد عن الدجال والمشعوذ، فهذا ما يدعوك إليه عقلك بادئ الرأي، بل قد تستغرب طرح مثل هذا الخيار عليك..

لكن واقع البشر، وما حصل لهم طيلة تاريخهم الطويل

كان على عكس ذلك الخيار؛ فأكثرهم أعرض عن الطبيب، واتبع الـدجال، كمـا قـال تعـالى: ﴿ فَـأَعْرَضَ أَكْثَـرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْـمَعُونَ﴾ [فصلت: 4]

إذا عرفت هـذا؛ فـاعلم أن الطـبيب المشـار إليـه في هـذا المثــل يتجلى في أربعــة مظــاهر: الألوهيــة والكتــاب والنبــوة والإمامة.

أمـا الإعـراض عن اللـه؛ فلا يتجلى في تكذيبـه أو جحـوده فقط، كما فعل الملاحدة والمشـركون والمنحرفـون، بـل يتجلى في كل شيء..

وأول تجلياته نسيانه والغفلة عنه وعدم ذكره وشكره، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّـرُّ فِي الْبَحْـرِ ضَـلَّ مَنْ تَـدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَـرِّ أَعْرَضْـتُمْ وَكَـانَ الْإِنْسَــانُ كَفُـورًا﴾ [الإسـراء: 67]، وقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: 51]

وقد ذكر الله تعالى مثالا على ذلك بأولئك الذين ينشــغلون بـذكر أمجـادهم وآبـائهم عن ذكـر ربهم، وينشـغلون بالـدنيا عن الآخرة، فقال:﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَـاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْـرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُـولُ رَبَّنَـا آتِنَـا فِي الـدُّنْيَا وَمَـا لَـهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: 200]

وهكذا، فإن كل غافل عن الله معرض عنه، وهو بذلك أكثر استعدادا لتقبل وسـاوس الشـياطين، ذلـك أن جهـاز الاسـتقبال في الإنســان لا يتوقــف أبــدا، فهــو إن لم يســتقبل الفيوضــات الإلهية، سيستقبل لا محالة الوساوس الشيطانية.

ولهذا قد تصـل الغفلـة بالإنسـان إلى الحـد الـذي يسـتحوذ عليه الشيطان، فينسيه ذكر اللـه، قـال تعـالى: ﴿اسْـتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ

الشَّـيْطَانُ فَأَنْسَـاهُمْ ذِكْـرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِـزْبُ الشَّـيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِـزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ [المجادلة: 19]

وحين ينسى الله ينسى نفسه وحقيقته ووظائفه وغاية وجوده، كما قال تعالى: وَلَا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللَّهَ فَأَنْسَـاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [الحشر: 19]

بل قد يصل به الأمر إلى النفاق الذي يجعله ينطق باسم الله بلسانه، ولا يضع له أي محل في حياته، لغفلته التامة عنه، قال تعالى: الْمُنَـافِقُونَ وَالْمُنَافِقَـاتُ بَعْضُـهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَـأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُـونَ أَيْـدِيَهُمْ نَسُـوا اللَّهَ فَنَسِـيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [التوبة: 67]

ولذلك، فإن الإقبال على الله هو العلاج الذي يحمي من الإعراض عنه، وهو يستدعي ذكره دائما في أي شأن من شؤون الدنيا والآخرة؛ فإن نزلت به نعمة لم يقبل عليها، وينسى ربه، بل يكون الله أول مذكور له، فيحمده عليها، ويثني على فضله، ويعلم أنها منه، ولذلك لا تضره، ولا تطغيه، مثلما فعلت مع قارون الذي توهم أن ما لديه من مال منه، وليس من الله، فقال: إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي [القصص: 78]

ولذلك أمر الله بالفرح بفضل الله، لأنه وحده المنجي من الطغيان والبطر والعجب والكبر وكل المثالب، قال تعالى: قُـلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [يونس: 58]

وهكذا إن عرض عليه أي عارض استفسر عن حكم الله فيه، ولم يقدم هواه، لأن طاعة الله أهم عنده من طاعة نفسه أو أي أحد آخر، قال تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَيُطِيعُـونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ أُولَئِكَ سَـيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ

حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 71]

وهكـذا، إن وقـع في خطـأ أو خطيئـة، يـذكر اللـه، ويسـرع بـالعودة إليـه، قـال تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُـوا فَاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَـرُوا اللَّهَ فَاسْـتَغْفَرُوا لِـذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]

وهكذا إن عرض عليه أي عدو، أو أراد مواجهة أي مشكلة، فإن أول ما يذكره ربه، قال تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: 45]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ وَذَكَـرُوا اللَّهَ كَثِـيرًا وَانْتَصَـرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الشعراء: 227]

وأخبر عن رسول الله ﷺ، وكيـف واجـه مـا عـرض لـه من بحث قومه عنه، وتربصهم به، فقال: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَـرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَـأَنْزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلَيْـهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُـودٍ لَمْ تَرَوْهَـا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَـةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَـا وَاللَّهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 40]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فـاعلم أن من أعظم مظـاهر الإعــراض عن اللــه الإعــراض عن رســوله، ذلــك أن الرسـول لا يمثـل نفسـه، وإنمـا يمثـل المرسـل الـذي أرسـله.. ولذلك كان الإعراض عنه إعراضا عن المرسل.

وأول مظـاهر ذلـك الإعـراض الإسـاءة إليـه وإذيتـه وعـدم توقيره وتعظيمـه وتكريمـه، كمـا يفعـل أولئـك الغـافلون الـذين يتوهمون أن توقير الرسول ﷺ وتعظيمه شـرك وضـلالة، وهم لا يعلمون أنه عين التوحيد.

ولو أنهم رجعـوا إلى علمـائهم الـذين يثقـون فيهم لوجـدوا

أنهم يخالفونهم في ذلك، فقد روي أن المنصور العباسـي سـأل الإمام مالك: (أسـتقبل القبلـة وأدعـو، أم اسـتقبل رسـول اللـه ﷺ؟، فقال مالك: (ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسـيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بـل اسـتقبله واستشفع به فيشفّعه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْـتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُـولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64]) (1)

وروي أنه أنكر على أبي جعفر رفعه صوته عند قبر رسـول الله ﷺ قائلا: (لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن اللـه تعـالى أدب قوما، فقال: (يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لاَ تَرْفَعُـوا أَصْـوَاتَكُمْ فَـوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُون ([سـورة الحجـرات:2]، ومـدح قومـا فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُــولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ([الحجرات: 3]، وذم قومــا فقــال: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَــكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُــرَاتِ أَكْثَـرُهُمْ لَا يَعْقِلُـونَ ([الحجـرات: 4]، وإن حرمتـه ميتـا كحرمتـه حيا) (2)

ومن الإعراض عنه قبول تلك الصور المشوهة الـتي دسـها أعداؤه عليه، حيث وصفوه بالكثير من الأوصاف التي يجل عنها، ولا تتناسب مـع القيم الـتي جـاء بهـا.. فلـذلك كـان تقـديم تلـك الروايات المدلسة عليه إعراضا عنه، وإقبـالا على أولئـك الـذين رووها.

فلذلك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن تسـمع لأولئـك الـذين يصفون رسول الله أو غـيره من الرسـل بمـا لا يليـق بهم، وهم

1() شفاء السقام / السبكي: 69

2() شفاء السقام / السبكي: 69

يوهمونك أنهم يفعلـون ذلـك اسـتنادا لمـا في صـحيحي البخـاري ومسـلم وسـنن الترمـذي والنسـائي وابن ماجـة وغيرهـا من كتب الحديث في المدرسة السنية.. أو كتاب الكافي في الأصول والفـروع للكليني، أو تهذيب الأحكام والاستبصـار للطوسـي، أو من لا يحضـره الفقيـه للشـيخ الصـدوق.. وغيرهـا من كتب الحـديث في المدرسـة الشـيعية.. أو مسـند الربيـع بن حـبيب في المدرسـة الإباضـية.. أو غيرها من المصادر.

فكلهـا محترمـة، لكن رسـول اللـه ﷺ أعظم حرمـة منهـا، فكل حديث لا يتناسب مع جلاله وجماله وفضله ومكانتـه فـاعلم أنه مكذوب عليه، وعليك بالإعراض عنه، حـتى لا تتشـوه صـورة رسول الله ﷺ في قلبك ونفسـك، ويكـون في ذلـك هلاكـك في الدنيا والآخرة.

ولا تخــف أن تســأل عن ذلــك يــوم القيامــة، فاللــه أعلم بعذرك.. فأنت فلم ترفض من رفضـت منهم لـذاتهم، وإنمـا لأن رسولك أعظم منهم..

فاحذر أن يشوهه لك أحد من الخلق مهما كان.. ومن فعل ذلك فأعرض عنه، فأنت مطالب باتباع رسولك، لا باتباعـه، وقـد قـال اللـه تعـالى: ﴿قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]

وهكــذا لا تقــدم على رســولك ﷺ اجتهــادا ولا قياســا ولا مصــلحة ولا أي ذريعــة من الــذرائع.. فرســولك لا ينطــق عن الهوى، وكل ما جاء به من الله.. فإياك أن يصيبك أي حرج منـه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْـرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْـرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ فَقَـدْ ضَـلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: 36]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الله تعـالى

حصن دينك بكتابه المقدس المعصـوم المحفـوظ الـذي لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلذلك احرص عليه، واعتبره الحكم عند كل خلاف.

وإياك أن تقحم الهوى في فهمك له، أو تعاملـك مـع آياتـه، كما فعلت الأمم من قبلنا، فضلوا ضلال بعيـدا، قـال تعـالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَـهُ فَنَبَـذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ مُصَـدِّقٌ لِمَـا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 101]

ومما ورد في تفسير هذه الآيات قول الإمام الجواد: (وكـل أمة قد رفع اللـه عنهم علم الكتـاب حين نبـذوه وولاهم عـدوهم حين تولوه، وكان من نبذهم الكتاب أن أقـاموا حروفـه وحرفـوا حــدوده، فهم يروونــه ولا يرعونــه، والجهــال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية) [1]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فإياك أن تعـرض عن الثقل الثاني الذي أوصاك به رسول اللـه ﷺ، وهـو أئمـة الهـدى الذين يرثونه خير وراثة، ويخلفونه خير خلافة، فقـد أوصـى بهم، فقـال: (إنـه من يعش منكم بعـدي فسـيرى اختلافـاً كثـيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليهـا بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكـل بدعـة ضلالة) [2]

ولم يكتف بـذلك الإجمـال، وإنمـا راح يفصـل في التعريـف بهم، فقـال: (إني تـركت فيكم مـا إن تمسـكتم بهمـا لن تضـلوا

1() الكافي: 8/ 53.

2() رواه أبو داود (5/ 5/ 13/ رقم 4607)، والترمذي (16/ 2676) وابن ماجه (6/ 42 و 43 و 44)

بعدي، الثقلين وأحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) (1)

وفي رواية: (أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول من ربي فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي)(2)

الضلال وعلاجه:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الضلال الذي وقعت فيه هذه الأمة، مثلما وقع فيه غيرها من الأمم، إعراضها عن وصايا أنبيائها، وإدخالها الأهواء في تلك الوصايا..

ولذلك تحول الدين من دين الله إلى دين البشر، ومن القيم السامية إلى القيم المنحرفة.. ومن الحقائق الممتلئة بالعقلانية إلى الخرافة والأسطورة.

ولهذا فإن الضلال الذي حذر الله تعالى منه، وأخبر عن وقوعه في الأمم المختلفة أربعة أنواع.. أولها ضلال مرتبط بالحقائق العقدية.. وهو أخطر أنواع الضلال، ذلك أن العقائد تشكل الأساس الذي تبنى عليه حياة الإنسان، وبقدر التوهمات، والانحرافات في هذا الجانب، بقدر ما يكون الانحراف في القيم السلوكية.. بالإضافة إلى ذلك، فإن من مقاصد الخلق التعريف بالله، ولذلك كان الوقوع في هذا النوع من الضلال مصادمة للغاية الكبرى من الخلق.

---

(1) رواه أبو داود.

(2) رواه مسلم.

وقـد أشـار اللـه تعـالى إلى عظم هـذا النـوع من الضـلال وخطره، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِـرُ مَـا دُونَ ذَلِـكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَـلَالًا بَعِيـدًا﴾ [النسـاء: 116]، وقال:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: 167]

وثانيها، ضلال مرتبط بالقيم السلوكية، وهو الضـلال النـاتج من غلبة النفس والهوى على الإنسان، وهو أيضا تختلـف درجتـه بحسب آثاره على النفس؛ فإن طغا عليها، وتجـوهرت بجـوهره، كان الضلال بعيدا، كمـا قـال تعـالى: ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُـونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّـيْطَانُ أَنْ يُضِـلَّهُمْ ضَـلَالًا بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 60، 61]

وثالثها، الضلال المرتبط بتأويل الكتـاب، وتحكيم المتشـابه على المحكم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَـهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا وَمَـا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]

ورابعها، الضلال المرتبط بأئمة الهدى، ومبلغي الدين، ذلك أنهم ورثة الكتاب والنبوة، وهم أولى من يعـرف بالـدين وقيمـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَـا الْكِتَـابَ الَّذِينَ اصْـطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَـا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِـالْخَيْرَاتِ بِـإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32]

والذي يعرض عنهم يشبه ذلك الـذي يعـرض عن الطـبيب، ويـذهب إلى الـدجال والكـاذب والمنحـرف ليستشـيره، ويأخـذ

برأيه.

وهذا ما وقع في هذه الأمة حين تركت هداتها، وراحت إلى اليهود، وتلاميذ اليهود تطلب منهم تفسير القرآن الكريم، وشرح العقيـدة، واسـتنباط الأحكـام الشـرعية؛ فـأدخلوا في الـدين مـا ليس منه.

فلذلك، احذر ـ أيها المريد الصادق ـ أن تكون ابنـا لقومـك، أو تابعا لأي جهة من الجهات، بل عليك بالبحث عن الحق وأهله، ولا تهمـك مواقـف النـاس منهم، فقـد أخـبر اللـه تعـالى عن الضالين الذين كانوا يرمون غيرهم بالضلالة في الـدنيا، من غـير أن يلتفتوا لأنفسهم، فقال واصفا دهشتهم يوم القيامة عند معاينـة جهنم وأهلها: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَـا لَا نَـرَى رِجَـالًا كُنَّا نَعُـدُّهُمْ مِنَ الْأَشْـرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ [ص: 62، 63]

وقال في مشهد آخر: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِـيمَاهُمْ قَـالُوا مَـا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَـا كُنْتُمْ تَسْـتَكْبِرُونَ (48) أَهَـؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَـمْتُمْ لَا يَنَـالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَـةٍ ادْخُلُـوا الْجَنَّةَ لَا خَـوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 48، 49]

وأخـــبر عن ضـــلالهم الشـــديد مـــع تعظيمهم لأنفســـهم، وإعجابهم بها، فقال: ﴿ قُـلْ هَـلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَـرِينَ أَعْمَـالًا (103) الَّذِينَ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَـبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِـنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 103، 104]

ووصـــفهم بأنـــه: ﴿يَحْسَـــبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَـــيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَـاذِبُونَ ﴾ [المجادلـة: 18]، وأنهم لـذلك بمنزلـة رائي السّـراب الّذي: ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَـدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: 39]

هذه وصـيتي إليـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فاسـع لإنقـاذ

نفسـك من الإعـراض والضـلال، ولا تلتفت لأحـد يصـرفك عنـه، حـتى لا تعض أصـابعك من النـدم يـوم القيامـة، وأنت تقـول: ﴿ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِـذْ فُلَانًـا خَلِيلًا (28) لَقَـدْ أَضَـلَّنِي عَنِ الـذِّكْرِ بَعْـدَ إِذْ جَـاءَنِي وَكَـانَ الشَّـيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 27 - 29]

التحريف والابتداع

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسـألني عن أسـرار ذلـك الدخن الذي آلت إليه عقائد المسـلمين وقيمهم؛ فـانحرفت بهم عن سواء السبيل، على الـرغم من حفـظ اللـه تعـالى لكتـابهم، وكونهم يقرؤونه غضا طريا كما أنـزل.. بـل إنهم يتنافسـون في إقامة حروفه، وحفظ ألفاظه بما لم تبلغه الأمم الأخرى.. لكنهم مقصـرون كثـيرا في إقامـة معانيـه، وتحقيقهـا في أنفسـهم ومجتمعاتهم.. والأدهى من ذلك اخـتراعهم لقيم جديـدة تخـالف القيم التي دعاهم إليها ربهم ونبيهم.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن كل ما ذكرته يعـود إلى مثلبين خطيرين، يبدآن بعالم النفس الأمـارة، وينتهيـان بمـا ذكرت من مظاهر.. وهما [التحريف والابتداع]

وكلاهما مما أخبر الشـيطان عن دوره في الـدعوة إليهمـا، كما قـال تعـالى حكايـة لقـول الشـيطان: ﴿لَأَتَّخِـذَنَّ مِنْ عِبَـادِكَ نَصِـيباً مَفْرُوضـاً وَلَأُضِـلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُـرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ (النساء: 118 ـ 119)

فالشيطان في هاتين الآيتين يتوعد بتغيير الفطـرة الأصـلية التي فطر عليها البشر، وتحريفها، وتحويلهـا عن مسـارها الـذي رسمه الله لها، حتى تبتدع لنفسها نظاما خاصـا يخـالف النظـام الإلهي.

وهـو لا يقصـد بـذلك تغيـير الخلقـة الجسـدية فقـط، وإنمـا يقصد تغيير الإنسان بجوانبه جميعا، كما أشـار إلى قولـه ﷺ في الحديث القدسي: (قال اللّه عزّ وجلَّ: إني خلقت عبـادي حنفـاء فجـاءتهم الشـياطين فاجتـالتهم عن دينهم، وحـرمت عليهم مـا

أحللت لهم) [1]

وبذلك، فإن التحريف والتغيير مقدمة للابتداع.. ذلك أن الشيطان قبل أن يحض الإنسان على أن يحدث شيئا يحرف له المعاني والقيم والمفاهيم والحقائق؛ فإذا ما تغيرت لم يبال حينها الاختراعات التي سيخترعها لنفسه، والبدع التي يبتدعها لها.

وكمثال على ذلك ما فعله الشيطان من الدعوة للرهبنة التي أخبر القرآن الكريم عن بدعيتها؛ فقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 27]

فالآية الكريمة تشير إلى أن أصل الرهبانية كان موجودا وصحيحا، وهو التبتل إلى الله بالعبادة، والحرص على التقوى، لكن الشيطان انحرف بهذا المفهوم، وراح يصور للرهبان بأن الغرض هو الانقطاع الكلي عن الخلق، وممارسة القسوة الشديدة على النفس، فلما اقتنعوا بذلك، أخرجهم من ديارهم وأهليهم، وحولهم عن الفطرة التي فطروا عليها.. وفيهم كما يذكر القرآن الكريم وكما يدل عليه التاريخ من تحول إلى الفسق والفجور، بعد أن عجز عن إقامة ما ألزم نفسه به.

وهكذا أخبر الله عن التحريف الذي حرف به الشيطان دين من يزعمون لأنفسهم اتباع إبراهيم عليه السلام، وذلك بإيهامهم أن الأصنام تقربهم من الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، ثم راح بعد ذلك يملي عليهم ما شاء من البدع والضلالات.

وهكذا في كل شيء يتدخل الشيطان ليحرف الحقائق

[1] () رواه الطبراني في الكبير.

والقيم، لأنه، وإن عجـز عن مواجهـة النبـوة، أو تحريـف كلمـات الله إلا أنه لم يعجـز عن الوسوسـة للمنتسـبين إليهـا، وتحريـف حقيقة الدين في أعينهم، لينحرف بذلك سلوكهم وحياتهم.

وكمثال على ذلك ـ أيها المريد الصادق ــ تحريفـه لمفهـوم الجهـاد في سـبيل اللـه، والـذي لم يـرد القـرآن الكـريم من تشـريعه، والإذن فيـه، والـدعوة إليـه إلا الـدفاع عن النفس، ونصرة المستضعفين، كما قال تعالى:: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج:39)، وقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَـدِينَ﴾ (البقرة:190)

لكن الشيطان حوله إلى وسيلة لسفك دمـاء المظلـومين، والتوسع في ديارهم، ونهب أموالهم، واسـتعبادهم، بحجـة نشـر الإسلام، مع أن اللـه تعـالى يقـول: ﴿لَا إِكْـرَاهَ فِي الـدِّينِ قَـدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]،ـ وقـال: ﴿وَلَـوْ شَـاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًـا أَفَـأَنتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 99)، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْـتَ عَلَيْهِم بِمُصَـيْطِرٍ﴾ (الغاشية: 21 ـ 22)، وقال: ﴿وَمَـا عَلَى الرَّسُـولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: 54)

وبـذلك راح الفقهـاء الـذين وكـل إليهم هـذا الأمـر يضـعون الكثـير من الأحكـام المرتبطـة بتلـك الحـرب، وأولئـك الرقيـق المساكين الذين أخرجوا من ديارهم بغـير حـق، ثم كبلـوا بقيـود العبودية.

وهكذا نشأ عن ذلك التحريف مفـاهيم وقيم كثـيرة ممتلئـة بالغرابة والدخن، وبعيدة كل البعـد عن الإسـلام الإلهي الممتلئ بالعدالة والرحمة واللطف وكل ما تقتضيه أسماء الله الحسنى.

إن وعيت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن من

ضرورات السـلوك إلى اللـه، وتزكيـة النفس من كـل المثـالب، الــبراءة إلى اللـــه من كـــل الأخطـــاء الـــتي وقعت في تـــاريخ المسلمين، وعدم تحملها أو الدفاع عنها، أو الـدفاع عن الظلمـة الـذين قـاموا بهـا، فالمـدافع عن القتلـة قاتـل، والمـدافع عن المجرمين مجرم، وقد روي عن الإمام الصادق أنـه قـال: نـزلت هذه الآية قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَـاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [آل عمـران: 183]، وقـد علم أنهم قالوا: والله ما قتلنا ولا شهدنا، وإنمـا قيـل لهم: ابـرأوا من قتلهم فأبوا)، وفي رواية: (وقـد علم أن هـؤلاء لم يقتلـوا، ولكن كان هواهم مع الذين قتلوا، فسماهم الله قاتلين لمتابعة هـواهم ورضاهم بذلك الفعل) (1)

وقـد ورد في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (إذا عملت الخطيئـة في الأرض كـان من شـهدها وكرههـا، فأنكرهـا كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شــهدها) (2)

وفي حـــديث آخـــر قـــال ﷺ: (ســتكون أمــراء فتعرفــون وتنكـرون فمن عـرف بـرئ، ومن أنكـر سـلم ولكن من رضـي وتابع) (3)

ولهذا عندما سمع رسول الله ﷺ بما فعـل خالـد بن الوليـد من سـفك للـدماء بغـير حـق، راح يتـبرأ من ذلـك العمـل، ففي الحديث عن ابن عمر، قال: بعث النبي ﷺ خالـد بن الوليـد إلى بـني جذيمــة، فــدعاهم إلى الإســلام، فلم يحســنوا أن يقولــوا: أســلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، وجعل خالد بهم أسرا وقتلا، ودفــع إلى

1() تفسير العياشي 1/ 209.

2() رواه أبو داود (4345)، والطبراني (17/ 139) (14033)

3() رواه مسلم (1854)

كل رجل منا أسيرا، حتى إذا أصبح يوما، أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، قال ابن عمر: فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، قال: فقدموا على النبي ﷺ، فذكروا له صنيع خالد، فقال النبي ﷺ ورفع يديه: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد) مرتين[1].

فردد ـ أيها المريد الصادق ـ ما ردده نبيك ﷺ، ولا تكن عبدا لقومك، فالله تعالى سيحاسب كل من رضي عن جريمة أو قبلها أو زكى فاعليها؛ فاحذر أن تزكي غير الصالحين المتقين حتى لا تتحمل جرائم الظلمة والمجرمين والمستبدين.

إذا علمت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسمع لما سأورده لك من صيدلية القرآن الكريم من أدوية تحميك من هذين المثلبين الخطيرين.

التحريف وعلاجه:

أما التحريف ـ أيها المريد الصادق ـ فقد أخبر الله تعالى أنه سنة لازمة، يقوم بها شياطين الإنس والجن، لتحويل الخلق من الهداية إلى الضلالة، ومن النور إلى الظلمات، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: 112]

وقد أخبر الله تعالى أن مشيئته التي سمحت لإبليس ببث غوايته ووساوسه للخلق، هي نفسها التي سمحت لهؤلاء الشياطين بتحريف مناهج الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112]

ثم بين العلة من ذلك، وهي تمييز الطيب من الخبيث، والصادقين الذين يتبعون الأنبياء، والهمج الرعاع الذين يتبعون

1() البخاري (4339) و (7189) ، والنسائي في المجتبى 8/237، وفي الكبرى (5961) و (8596)

كل ناعق من غير تحقيق ولا بحث، قـال تعـالى واصـفا المتبعين للمحـرفين: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَـوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: 113]

وقال ـ واصـفا المنهج الـذي يحمي من التحريـف ـ ﴿أَفَغَيْـرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِـالْحَقِّ فَلَا تَكُـونَنَّ مِنَ الْمُمْتَـرِينَ﴾ [الأنعام: 114]

ثم بين رحمته بعباده، وأنه وفر في كلماته المقدسة كل ما يحتاجه من يريدون النجاة من التحريـف وتضـليلات الشـياطين، فقال:﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115]

ولــذلك؛ فــإن العصــمة من التحريــف تكــون بالاعتصــام بالكتاب، والرجوع إليه في كل الشؤون، كما قال تعـالى: ﴿فَـإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَـيْءٍ فَـرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُـولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]، والـرد لله، يعني الرد لكتابه.

ولذلك يخبر اللـه تعـالى عن المسـتعدين للتحريـف أولئـك الذين يبحثون عن أي شيء يستبدلون به كلمات ربهم ولو كانت من لهــو الحــديث، قــال تعــالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْـتَرِي لَهْـوَ الْحَـدِيثِ لِيُضِـلَّ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِـذَهَا هُـزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَـأَنْ لَمْ يَسْـمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 6، 7]

ولهذا استعمل الشيطان باب الرواية والقصص والحكايـات والأشعار، ليشغل الأمـة عن كلمـات ربهـا، ويملأهـا بـالأهواء من خلالها.. ولهذا بقيت حروف القـرآن سـليمة من التحريـف، لكن ذلك التراث الكبير الذي أحاط بهـا ملأ معانيهـا بكـل مـا اشـتهته

الشياطين من صنوف التبديل والتغيير.

ولهذا نجد الوصايا الكثيرة من أئمة الهدى بعد حصول ذلك داعية إلى العودة إلى القرآن الكريم، وعدم استبداله بأي شيء، ومن ذلك قول الإمام علي: (اعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم)(1)

ويقول واصفا ما أودع الله فيه من أنوار الهداية: (جعله الله ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاج لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونورا ليس معه ظلمة) (2)

ويقول: (اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، أو نقصان من عمى) (3)

ويقول: (إن الله سبحانه لم يعظ أحدا بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينابع العلم، وما للقلب جلاء غيره)(4).

ويقول: (فالقرآن آمر زاجر، وصامت ناطق، حجة الله على خلقه، أخذ عليه ميثاقهم، وارتهن عليهم أنفسهم (5)

وهو يحذر من هجر الأمة للقرآن وإعراضها عنه، وتقديمها

1() نهج البلاغة: الخطبة 176، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 10 / 18

2() نهج البلاغة: الخطبة 198، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 10 / 199

3() نهج البلاغة: الخطبة 176.

4() نهج البلاغة: الخطبة 176.

5() نهج البلاغة: الخطبة 183.

لأهوائها عليه، فيقول: (إنه سيأتي عليكم من بعـدي زمـان ليس فيـه شـيء أخفى من الحـق، ولا أظهـر من الباطـل.. فالكتـاب وأهله في ذلـك الزمـان في النـاس وليسـا فيهم، ومعهم وليسـا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعـا، فـاجتمع القـوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتـاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منـه إلا اسـمه، ولا يعرفـون إلا خطه وزبره)(1)

وهكذا أوصـى كـل أئمـة الهـدى بـالقرآن الكـريم باعتبـاره المنجي الأكـبر من التحريـف، يقـول الإمـام الحسـن: (إن هـذا القرآن فيه مصابيح النور وشفاء الصدور، فليجـل جـال بضـوئه، وليلجم الصـفة، فـإن التلقين حيـاة القلب البصـير كمـا يمشـى المستنير في الظلمات بالنور)(2)

ويقول الإمام الصادق ـ مبينا ضرورة اللجوء للقرآن الكريم لتبصر الحقائق، والابتعاد عن سبل الفتن التي حرف بها الدين ـ: (من لم يعرف الحق من القرآن لم يتنكب الفتن)(3)

ويقول ــ لمـا سـئل: مـا بـال القـرآن لا يـزداد على النشـر والـدرس إلا غضاضـة ؟ ــ: (لأن اللـه تبـارك وتعـالى لم يجعلـه لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة) (4)

ويقول الإمام الرضا واصفا القرآن الكريم: (هـو حبـل اللـه المتين، وعروته الوثقى، وطريقتـه المثلى، المـؤدي إلى الجنـة،

1() نهج البلاغة: الخطبة 147.

2() البحار: 78 / 112 / 6

3() المحاسن: 1 / 341 / 702.

4() البحار: 92 / 15 / 8

والمنجي من النار، لا يخلق على الأزمنة، ولا يغث على الألسنة، لأنه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان، والحجة على كـل إنسـان، لا يأتيـه الباطـل من بين يديـه ولا من خلفـه تنزيل من حكيم حميد)[1]

ويقـول الإمـام الجـواد محـذرا من نبـذ القـرآن الكـريم أو تحريف معانيه وقيمه: (وكل أمة قد رفع الله عنهم علم الكتـاب حين نبذوه وولاهم عدوهم حين تولوه، وكان من نبـذهم الكتـاب أن أقـاموا حروفـه وحرفـوا حـدوده، فهم يروونـه ولا يرعونـه، والجهـال يعجبهم حفظهم للروايــة، والعلمــاء يحــزنهم تــركهم للرعاية)[2]

وهكذا أوصى كل أئمـة الهـدى بـالقرآن الكـريم، والرجـوع إليه في كل شيء، والتحاكم إليه عند كل خلاف، وعـدم الرغبـة عنه إلى غيره.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن في القرآن الكـريم محكمـا ومتشـابها؛ فإيـاك أن تكـون من الـذين يتبعـون المتشـابه، فمـا وقـع التحريـف إلا من الـذين يـتركون المحكم الواضح، ويخوضـون في المتشـابه، كمـا قـال تعـالى: ﴿هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيَـاتٌ مُحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَـرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَـا تَشَـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَـاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِـهِ وَمَـا يَعْلَمُ تَأْوِيلَـهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُـونَ آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا وَمَـا يَـذَّكَّرُ إِلَّا أُولُـو الْأَلْبَـابِ﴾ [آل عمران: 7]

[1] () عيون أخبار الرضا : 2 / 130 / 9

[2] () الكافي: 8 / 53 / 16

وقد روي في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآيــة، ثم قال: (إذا رأيت الّذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الّذين ســمّى الله، فاحذروهم)(1)

ولو أنك ـ أيها المريد الصادق ـ فتشـت في كـل مـا حصـل في الأمـة من صـراع وتحريفـات لوجـدتها في اتبـاع المتشـابه، وتأويل المحكم لينسجم مع المتشـابه، فاحـذر من الـزائغين عن طريق الهداية، فما أكثرهم، وما أكثر الدجل الذي جاءوا به.

وقد أخبر رسول اللـه ﷺ عن ذلـك، وحـذر منـه، فقـال: (لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة، ووزراء فجرة، وأمنــاء خونة، وقراء فسقة، سـمتهم سـمت الرهبـان وليس لهم رغبـة، فيلبسهم الله فتنة غبراء مظلمة يتهوكون فيها تهوك اليهــود في الظلم)(2)

وأخبر ﷺ عن الغربلة العظيمة التي يتعرض لها المؤمنــون، ويمتحنون بها، فقال: (يوشك أن يأتي زمـان يغربـل النـاس فيـه غربلة، وتبقى حثالة من الناس، قـد مـرجت عهـودهم وأمانـاتهم واختلفوا هكذا وهكذا، وشبك بين أصابعه)، قالوا: يا رسول الله، فكيف تأمرنا؟ قال: (تأخذون ما تعرفـون وتـدعون مـا تنكـرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتدعون أمر عامتكم)(3)

ثم بين السبب في ذلك كله، وهـو تـرك الحنيفيـة السـمحة التي جاء بها، وخلطها بمصادرٍ أخرى بديلة، فقال: (لتتبعن سـنن من قبلكم شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراع، حـتى لـو دخلـوا في جحـر ضبٍ لاتبعتموهم)، قلنا: يا رسول الله، آليهود والنصـارى؟ قـال:

1() البخاري [فتح الباري]، 8(4547)

2() رواه البزار برجال الصحيح الا حبيب بن عمران الكلاعي.

3() رواه الحاكم واللفظ له والحارث وأحمد وابو داود وابن ماجة.

(فمن)(1)

وفي حـديث آخـر عن أبي الـدرداء أنّـه قـال: خـرج علينـا رسـول اللـه ﷺ، ونحن نـذكر الفقـر ونتخوّفـه فقـال: (آلفقـر تخافون؟ والّذي نفسـي بيـده لتصـبّنّ عليكم الـدّنيا صـبّا حتّى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلّا هيه، وأيم الله لقد تركتكم على مثـل البيضـاء، ليلهـا ونهارهـا سـواء) قـال أبـو الـدّرداء: صـدق واللـه رسول اللـه ﷺ، تركنـا واللـه على مثـل البيضـاء، ليلهـا ونهارهـا سواء)(2)

وعن عبد الله بن مسعود أنّه قال: خطّ لنا رسـول اللـه ﷺ خطّا ثمّ قال: هذه سبيل الله، ثمّ خـطّ خطوطـا عن يمينـه وعن شـماله، ثمّ قـال: (هـذه سـبل متفرّقـة على كـلّ سـبيل منهـا شيطان يدعو إليه ثمّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153])(3)

الابتداع وعلاجه:

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاحذر من كل عقيدة أو شعيرة أو شريعة لا تجدها في كتاب ربك، ولا في سـنة نبيـك ﷺ، ولا في هدي ورثته الراشدين الذين أمر بالاستنان بسـننهم.. فإن ذلك بدعة حادثة.

وقـد ورد في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (من

1() رواه البخاري ومسلم.

2() ابن ماجة(5) وأحمد (6/ 24)

3() أحمد(1/ 435، 465) رقم(4141)،(4436)، و الحاكم(2/ 318)

أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ[1])[2]

وفي حديث آخر عن العرباض بن سارية قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأنّ هذه موعظة مودّع فما ذا تعهد إلينا؟، فقال: (أوصيكم بتقوى الله والسّمع والطّاعة وإن عبدا حبشيّا فإنّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء المهديّين، الرّاشدين، تمسّكوا بها وعضّوا عليها بالنّواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة)[3]

وأخبر عن عظم العقوبة التي يجدها المبتدعون في الدين، وأولها خروجهم من التبعية لنبيهم ﷺ في الدنيا، وطردهم من حوضه في الآخرة، فقد قال ﷺ مخاطبا أصحابه وأمته: (أنا فرطكم على الحوض، وليرفعنّ رجال منكم ثمّ ليختلجنّ دوني، فأقول: يا ربّ، أصحابي، فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك)[4]

وأخبر رسول الله ﷺ عن تلذذ المبتدعين ببدعهم وأهوائهم، وإعجابهم بها، للدرجة التي تحول بينهم وبين التوبة، فقال: (إنّ الله احتجز التّوبة عن صاحب كلّ بدعة)[5]

ودعا العلماء المحققين إلى مواجهة البدع، وعدم السكوت عليها، فقال: (إذ ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه،

1() فهو رد: أي غير مقبول و لا جزاء عليه إلا العقاب.

2() البخاري الفتح 5(2697) و اللفظ له. و مسلم(1718)

3() أبو داود(4607) و اللفظ له و الترمذي(2676) و قال: حسن صحيح.

4() البخاري [فتح الباري]، 11(6576) و اللفظ له و مسلم(2297)

5() رواه ابن أبي عاصم في السنة رقم(37)

فمن لم يفعل فعليه لعنة الله) (1)

وأخبر أن الله (لا يقبل لصاحب بدعة صـوماً، ولا صـلاة، ولا صدقة، ولا حجّاً، ولا عمرة، ولا جهاداً) (2)

ولهذا اتفق الصالحون على أن الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة، وأن العمل بالسنة حتى لو كـان قليلا، خـير من العمل بالبدعة، ولو كان في ظاهره طاعة كثيرة.

فعن ابن مسعود أنـه قـال: (الاقتصـاد في السّـنّة خـير من الاجتهاد في البدعة)(3)

وقال: (قد أصبحتم على الفطرة وإنّكم ستحدثون ويحـدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالهدى الأوّل)(4)

وقال: (تعلّموا العلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب أهله، ألا وإيّاكم والتّنطّع والتّعمّق والبدع، وعليكم بالأمر الأوّل)(5)

وقال: (إنّا نقتدي ولا نبتدي، ونتّبع ولا نبتـدع، ولن نضـلّ مـا تمسّكنا بالأثر)(6)

وقال: (عليكم بالطّريق فالزموه ولئن أخذتم يمينا وشـمالا لتضلّنّ ضلالا بعيدا)(7)

1() الكافي 1/ 44.

2() ابن ماجه 1/ 25

3() الحاكم(1/ 103) و الدارمي(1/ 83)

4() الفتح(13/ 253)

5() الدارمي(1/ 59) و اللالكائي(1/ 87) نحوه.

6() اللالكائي(1/ 86)

واتفقوا على أن الحـق لا يمثـل إلا نفســه، ولـذلك لا عـبرة بالمبتدعين، حتى لو بدوا صالحين متقين؛ وقد روي عن بعضــهم أنــه قـال: (إنّ من ورائكم فتنـا يكـثر فيهـا المـال، ويفتح فيهـا القــرآن حتّى يأخــذه المــؤمن والمنــافق، والرّجــل والمــرأة، والصّـغير والكبـير، والعبـد والحـرّ، فيوشـك قائـل أن يقـول: مـا للّناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن؟ مـا هم بمتّبعيّ حتّى أبتـدع لهم غيره، فإيّاكم وما ابتدع، فإنّ ما ابتدع ضلالة، وأحذّركم زيغة الحكيم؛ فـإنّ الشّـيطان قـد يقـول كلمـة الضّـلالة على لسـان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحقّ)، فسئل: مـا يـدريني أنّ الحكيم قد يقول كلمـة الضّـلالة، وأنّ المنـافق قـد يقـول كلمـة الحـقّ؟ فقال: (اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات، الّتي يقـال: ما هذا؟ ولا يثنينّك ذلك عنه؛ فإنّه لعلّه أن يراجع، وتلقّ الحقّ إذا سمعته، فإنّ على الحقّ نورا)[8]

فانتبه ــ أيها المريـد الصـادق ــ لهـذه المعـاني، وإيـاك أن تخلط سلوكك بمـا يخرجـك عن هـدي نبيـك ﷺ وورثتـه الهـداة، فالعبودية الحقيقية أن تعبد الله بما يرضى لا بما تهوى.

7() الدارمي(1/ 60)، و ذكره السيوطي في الأمر بالاتباع(89)

8() أبو داود(4/ 202) رقم(4611) و معناه عند الدارمي(1/ 78)

الغدر والخيانة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الغدر والخيانة، وسر كونهما من صفات المنافقين، والمنابع التي ينبعان منها، والثمار التي يثمرانها، وكيفية التخلص منهما.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن كلا المثلبين اللذين سألت عنهما، من أخطر المثالب، وأكثرهما تدميرا للفطرة، وتنكيسا للإنسان، ذلك أنهما ينطلقان من منبع الكذب والبهتان والزور.. وهو منبع يتعارض مع الصدق والأمانة، اللتين يتأسس عليهما الإيمان والإسلام وكل مقامات الدين.. فالدين كله صدق وأمانة.. ومن لا صدق ولا أمانة له لا حظ له من الدين.

ولذلك سمى الله تعالى كل التكاليف التي كلف بها خلقه [أمانة]، فقال: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: 72]

وبذلك؛ فإن كل الدين وقيمه الرفيعة أمانة من الله تعالى لعباده، والتقصير في تنفيذ أي جزء منه خيانة لهذه الأمانة العظيمة..

والدين كذلك عقد بين العبد وربه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]، فالعقود التي يجب الوفاء بها لا تتوقف على عقود البيع والشراء، بل تعم جميع العقود التي يعقدها العبد مع ربه، كما عبر عن ذلك ابن عباس بقوله: (العهود ما أحل اللّه وما حرم، وما فرض وما حد في القرآن كله، ولا تغدروا ولا تنكثوا)

ولهذا كتب رسول اللّه ﷺ كتاباً لعمرو ابن حزم، حين بعثه

إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنّة، ويأخذ صدقاتهم، فكتب له كتاباً وعهداً، وأمره فيه بأمره، فكتب: (بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا كتاب من اللّه ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]، عهد من محمد رسول اللّه ﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى اللّه في أمره كلهن فإن اللّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (1)

وهكذا يقرن القرآن الكريم بين التكاليف الشرعية المختلفة والعقود والعهود والمواثيق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: 34]

ولذلك كان الغدر هو مخالفة تلك العقود والمعاهدات والمواثيق، وهو يتفق في ذلك مع الخيانة، فكلاهما يتناقضان لا مع العقود البسيطة فقط، وإنما مع جميع التكاليف الشرعية، بل مع غيرها أيضا.

فالله تعالى أودع عباده الكثير من الأمانات، كالصحة والعافية والوقت والأسرة والمجتمع وغيرها.. فكل تفريط في التكاليف المرتبطة بهذه الأمانات خيانة.. وكل مخالفة للعقود المرتبطة بها غدر..

ولذلك كانا من صفات المنافقين، كما قال ﷺ: (أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النّفاق حتّى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)(2)

وقال في الحديث القدسي: (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة:

(1) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

رجـل أعطى بي ثمّ غـدر، ورجـل بـاع حـرّا فأكـل ثمنـه، ورجـل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره)[1]

وســر ذلــك هــو اتفــاق الخــائن والمنــافق في المواقــف والصـفات؛ فكلاهمـا يظهـر القبـول والموافقـة، وكلاهمـا يقبـل الأمانات، ويوقع على العهود والمواثيق، وكلاهما يغدر بمن تعاقد معهم، ويخون الأمانات التي كلف بها.

ولذلك يحتاج كل سـالك لطريـق اللـه إلى مجاهـدة نفسـه لتطهيرها من كل أثر للغدر والخيانة، حتى لا يتسـع الخـرق على الراتق، وحينها قد تصـبح النفس في الـدرك الأسـفل من النـار، لتأكد هذه الصفات فيها، وحينها يصعب إخراجها منها.

فاسمع ـ أيها المريد الصادق ـ لهذه التحذيرات الإلهيــة، ولا تغتر بما لديك من الصدق والأمانة؛ فالشيطان يتلاعب بالإنسان، حتى يجد نفسـه خائنـا وغـادرا من حيث لا يشـعر، وقـد ورد في الحديث عن حذيفة قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قـد رأينـا أحدهما وأنا انتظر الاخر، حدثنا أن الامانة نزلت في جذر قلــوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من الســنة، ثم حدثنا عن رفـع الأمانـة، قـال: (ينـام الرجـل النومـة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثـل أثـر الـوكت، ثم ينـام النومـة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر، دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا، وليس فيه شـئ فيصـبح النـاس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، حتى يقـال: إن في بــني فلان رجلا أمينا، حـتى يقـال للرجـل: مـا أجلـده، مـا أكرمـه مـا أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمــان) [2]

1() رواه البخاري.

2() رواه مسلم.

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ: (أول ما تفقدون من دينكم الامانة)(1)

وفي حديث آخر، قـال رسـول اللـه ﷺ: (أول مـا يرفـع من الناس الأمانة، وآخـر مـا يبقى من دينهم الصـلاة، ورب مصـل لا خلاق له عند الله)(2)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ: (أول ما يرفع من هذه الأمة الحياء والأمانة)(3)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(إذا اتخـذ الفيء دولا، والأمانة مغنما، والزكاة مغرما، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته وعق أمه، وأدنى صديقه، وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكـرم الرجـل مخافـة شـره، وظهـرت القينـات والمعـازف، وشربت الخمور، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلـك ريحا حمراء وزلزلة، وخسفا ومسخا وقذفا وآيـات تتـابع كنظـام بال قطع سلكه، فتتابع)(4)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ وعزمت على مراقبة نفسـك وتطهيرهـا؛ فاسـمع لمـا سـأورده لـك من هـذه الأدويـة الربانية الـتي تحميـك من هـذين المثلـبين الخطـيرين وثمارهمـا السامة.

الغدر وعلاجه:

(1) رواه الطبراني في الكبير.

(2) رواه الحكيم الترمذي.

(3) رواه الطبراني.

(4) رواه الترمذي وقال: غريب.

أما الغدر؛ فعلاجه ـ أيها المريد الصادق ـ في تدبرك لقانون العقوبات الإلهية المرتبط به، والذي وصف رسول الله ﷺ ـ باعتباره المعبر عن هذا القانون ـ بقوله: (لكلّ غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامّة)(1)

وقال: (من أمّن رجلا على دمه فقتله فإنّه يحمل لواء غدر يوم القيامة)(2)

وقال: (ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)(3)

وقال: (ألا من قتل نفسا معاهدا له ذمّة اللّه وذمّة رسوله فقد أخفر بذمّة اللّه فلا يرح رائحة الجنّة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا)(4)

فاعتبر بهذه العقوبات ـ أيها المريد الصادق ـ واحذر منها، واعلم أن الغدر قد يبدأ بموقف بسيط، وحادثة هينة، لكنه يتحول إلى صفة راسخة في النفس، لذلك عالج الداء قبل استفحاله، وراقب أي موقف من مواقفك، أو معاهدة من معاهداتك، وهل وفيت بها أم غدرت، وهل نفذتها كما ذكرت، أم خالفت ذلك، حتى لا يحصل لك ما حصل لذلك الذي غدر بربه ونبيه، والذي حكى الله تعالى قصته، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات.

3() رواه أبو داود.

4() رواه البخاري، والترمذي، وهذا لفظ الترمذي.

آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [التوبة: 75 - 77]

وانظر إلى أولئك الذين ذكر الله تعالى وفاءهم بالعهود والعقود، وأثنى عليهم أحسن الثناء، فقال: إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ [الرعد: 19 - 21]

أو أولئك الأبرار الذين وصف الله نعيمهم، فقال: إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا [الإنسان: 5 - 7]

وخير نفسك بين أن تكون حامل لواء الغدر والخيانة، لتحاسب على كل عهد عاهدته، أو كلمة قلتها، وبين أن تكون من أولئك الأبرار الطيبين الذين وفقهم الله تعالى للنجاح في كل الاختبارات التي امتحنوا فيها.

وأخبر نفسك أنها إن اختارت الغدر، فهي لا تختلف عن أولئك الفاسقين الذين وصفهم الله تعالى، فقال: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [البقرة: 26، 27]، وقال: وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [الرعد: 25]

أو أولئك اليهود القساة الذين وصف الله تعالى جزاء غدرهم، فقال: فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ [المائدة:

13]

أو أولئك الذين اعتبرهم الله تعالى شر الدواب، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: 55 - 57]

الخيانة وعلاجها:

أما الخيانة؛ فعلاجها ــ أيها المريد الصادق ــ في تدبرك لآثارها وثمارها السامة التي تحطم كل خير فيك.. فمن ضيع الأمانة ضيع نفسه وحقيقته وقيمه ودينه ودنياه وآخرته، وكل شيء.

ولذلك قرن الله تعالى الخيانة بالكفر، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: 38]، ذلك أن الخائن والكافر كلاهما يجحدان الأمانة التي كلفا بها، والنعمة التي أسديت لهما.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن بذرة الخيانة السامة إذا نبتت في أرض النفس الأمارة صدرت عنها كل المثالب، وأولها الكفر والجحود ومعارضة النبوة، كما ضرب الله تعالى المثل على ذلك، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: 10]

ولهذا، فإن أول من عليك الحذر من خيانته ــ أيها المريد الصادق ـ ربك ونبيك ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: 27]

وحـتى تتحقـق بـذلك عليـك أن تفي بوصـاياه وتنفـذها، وتضحي في سبيل تنفيـذها بكـل شـيء.. وإلا كـان انتسـابك لـه انتسابا مـزورا كاذبـا، لا يختلـف عن انتسـاب المنـافقين للحـق، بينما هم على الباطل.

وإذا وكلت لك ـ أيها المريد الصادق ـ فاحذر من أن يغويـك الشـيطان، فتخـون مـا كلفت بـه، ومن وثقـوا فيـك، وقـد قـال رسـول اللـه ﷺ مبينـا خطـر ذلك:(إذا ضـيِّعت الأمانـة فـانتظر الساعة)، قيل: يا رسول الله وما إضاعتها؟ قال: (إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة)(1)

وقـال عن الإمـارة: (إنهـا أمانـة، وإنهـا يـوم القيامـة خـزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدّى الذي عليه فيها)(2)

وقال عن التجارة: (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)(3)

وقال عن الخزنة: (الخازن المسلم الأمين الذي يُنفذ ما أُمِر به كاملاً موفراً طيباً به نفسُه فيدفعه إلى الذي أُمر له به أحد المتصدقين)(4)

وقال عن الاستشارة: (من تقـوّل عليّ مـا لم أقـل فليتبـوّا مقعده من النّار، ومن أفتى بفتيـا بغـير علم كـان إثم ذلـك على من أفتاه، ومن استشاره أخوه المسلم فأشار عليـه بغـير رشـد فقد خانه)(5)

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه الترمذي.

(4) رواه البخاري.

(5) أحمد(2/ 321) رقم(8286)

وأخبر عن شمول الأمانـة لكـل التكـاليف، فقـال: (الصـلاة أمانـة، والوضـوء أمانـة، والـوزن أمانـة، والكيـل أمانـة، وأشـياء عددها وأشد ذلك الودائع) (1)

وأخبر عن عقوبة الخيانة، فقال ـ يصف مـرور النـاس على الصراط ـ:(وترسل الأمانـة والـرحم، فتقومـان جَنَبـتي الصـراط يميناً وشمالاً)(2)، وقال:(ثلاث متعلقـات بـالعرش: الـرحم تقـول اللهم إني بك فلا أقطع، والأمانة تقول: اللهم إني بك فلا أخــان، والنعمة تقول: اللهم إني بك فلا أكفر)(3)

وقال: (يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتـل في سـبيل اللــه، فيقال له: أد أمانتك، فيقـول: أي رب، كيـف وقـد ذهبت الـدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاويـة، وتمثـل لـه الأمانـة كهيئتهـا يـوم دفعت إليـه، فيراهـا فيعرفهـا فيهـوي في أثرهـا حـتى يـدركها، فيحملها على منكبه، حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبه فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين) (4)

ولهذا كله أخبر رسول اللــه ﷺ أن الأمانـة أشـد شـيء في الدين، فقال: (ألين الدين شـهادة أن لا إلـه إلا اللـه وأن محمـدا عبده ورسوله، وأشده الأمانـة، إنـه لا دين لمن لا أمانـة لـه، ولا صلاة ولا زكاة)(5)

ولهذا كان ﷺ يخبر أنه لا إيمـان لمن لا أمانـة لـه، قـال ﷺ:

1() رواه البيهقي.

2() رواه مسلم.

3() رواه البزار.

4() رواه البيهقي.

5() رواه البزار.

(لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)(1)

وكان يستعيذ من الخيانة، ويقول:(اللهم إني أعـوذ بـك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعـوذ بـك من الخيانـة فإنهـا بئسـت البطانة)(2)

هذه وصايا نبيك ﷺ إليك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص عليها، وعلى تنفيذها، وإياك أن تبرر لنفسك الخيانة بسبب كثرة الخائنين، فقد قال ﷺ: (أدّ الأمانـة إلى من ائتمنـك، ولا تخن من خانك)(3)

1() رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط.

2() رواه أبو داود.

3() أبو داود(3534) و الترمذي(1264)

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب التعريف بالعيوب والمثالب المشكلة للنفس الأمـارة، ومنابعهـا الـتي تنبـع منهـا، والثمـار الـتي تثمرها، مع بيان كيفية التخلص منها، إما باستعمال الأدويـة المعرفية، أو أنواع الممارسات العملية.

وقد حاولنا أن نصيغ فيه كـل مـا ذكـر في كتب الأخلاق والتصوف والسلوك من معارف مرتبطة بهذه الجوانب، مـع الابتعاد عن كل ما لا علاقة بهـا، أو مـا نـرى أنـه من الـدخن الذي أصاب هذه العلوم، مثل غيرها من العلوم.

ولـذلك كـان اعتمادنـا في التعـرف على مظـاهر تلـك المثـالب ومنابعهـا وكيفيـة علاجهـا على المصـادر المقدسـة بالدرجة الأولى، باعتبارها المصدر الأول للتزكية، سـواء من ناحية التعريف بها، أو بيان منابعهـا وثمارهـا، أو بيـان كيفيـة علاجها والتخلص منها.

ولضـرورة التبسـيط والتوضـيح، جعلنـاه على شـكل رسائل يرسلها شيخ مرشـد مـرب إلى مريـده الـذي يطلب منه أن يعرفـه بالمثـالب المشـكلة للنفس الأمـارة، وكيفيـة علاجهـا، مـع سـؤاله عن بعض أسـرار النصـوص المقدسـة المرتبطة بها.

وقد أرسل لـه في هـذا الكتـاب أربعين رسـالة تشـمل جميع الجوانب المرتبطة بذلك، وتشرح له كل ما يتعلق بهـا من معارف يحتاجها لذلك.